

شرح
رياض الصالحين
ص ٤٤٤

من كلام سيد المرسلين

د. عبد الله بن عبد الرحمن

كلام الله

الرياض ١٤٤٢ م . ب ٦٣٧٣
ت / ٤٠٩٢٠٠٠ فاكس / ٤٠٣٣١٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دار القاسم للنشر والتوزيع، ١٤٣٨ هـ
③ فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القاسم، عبد الملك محمد عبد الرحمن
شرح رياض الصالحين. / عبد الملك محمد عبد الرحمن القاسم -
الرياض، ١٤٣٨ هـ

٦ مج
ردمك: -٥٣٧٥٨٧ - ٩٩٦٠ - (مجموعة)
٩٩٦٠ - ٥٣ - ٧٥٩ - ٥ (ج ١)
١ - الحديث - جوامع الفنون
٢ - الحديث - شرح أ. - العنوان
ديوي ٣، ٢٢٧ ١٤٣٨ / ١٧٧٢

رقم الإيداع: ١٤٣٨ / ١٧٧٢
ردمك: ٧ - ٧٥٨ - ٥٣ - ٩٩٦٠ (مجموعة)
٩٩٦٠ - ٥٣ - ٧٥٩ - ٥ (ج ١)

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى: ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٦ م

الصف والمراجعة والإخراج بدار القاسم

دار القاسم للنشر والتوزيع
المكتب الرئيس هاتف: ٠١١٤٠٩٢٠٠٠
المتجر الإلكتروني: www.daralqasm.com
البريد الإلكتروني: info@dar-alqassem.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شَرَحُ
نَوَاضِ الصَّالِحِينَ
مِنْ كَلَامِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ

المجلد الأول

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن كتاب **(رياض الصالحين)** للإمام النووي - رحمه الله تعالى - من الكتب النافعة التي طبقت شهرته الآفاق، وطرح الله له القبول في الأرض، فهو من أوسع وأكثر كتب الإسلام انتشاراً بعد كتاب الله - عز وجل -، وقد جمع المؤلف بين دفتيه جوامع الكلم من حديث النبي ﷺ، وقدم قبلها آيات من كتاب الله العظيم في كل باب.

وحيث إن الكتاب يُقرأ في المساجد والبيوت، ويسمعه عامة الناس - مع قلة الشروح المناسبة لهذا المقام - رغبت أن يكون لي إسهام في ذلك، فجعلت لكل حديث شرحاً سهلاً ميسراً يدل على مقصوده، وقد نحوت نحو الاختصار وعدم التطويل، فأذكر نص الحديث، ثم شرح الألفاظ والمعاني، وبيان بعض الفوائد. وربما ترجمت لبعض الرواة إن وجدت فسحة.

وسعيت لأن تكون الدروس متناسبة الصفحات، لا يتكرر الشرح وإن تقاربت ألفاظ الحديثين، وربما جمعت بين حديثين أو أكثر لقصرهما ولتناسب موضوعيهما وهذا قليل. وجعلت متن كتاب **(رياض الصالحين)** كاملاً باللون الأحمر.

واستفدت من الشروح المختلفة عليه، ومن كتب العلماء في شروح الأحاديث. وأكثر من النقل عن جمع من العلماء - رحمهم الله -، وأتممته بفهرس كامل للأحاديث والآثار. أسأل الله أن ينفع به، وأن يطرح له القبول.

كتبه

عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم

ترجمة الإمام النووي

اسمه ونسبه:

هو الحافظ يحيى بن شرف بن مُرِّي بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام النووي مولداً، والشافعي مذهباً، والدمشقي إقامة.

كنيته ولقبه:

هو أبو زكريا، ولا (زكريا) له، لأنه لم يتزوج، فهو من العلماء العُزَّاب، ولقب بـ (محيي الدين)، وكان - رحمه الله - يكره هذه اللقب، وذكر عنه أنه قال: «لا أجعل في حل من لقبني محيي الدين».

مولده، ونشأته، وأعماله:

ولد - رحمه الله تعالى - في المحرم من سنة ستمائة وواحد وثلاثين للهجرة في قرية (نوى) من أعمال (حوران) بجوار دمشق، من أبوين صالحين، ولما بلغ العاشرة من عمره بدأ في حفظ القرآن، وقراءة الفقه على بعض أهل العلم هناك، وصادف أن مر بتلك القرية الشيخ ياسين بن يوسف المراكشي، فرأى الصبيان يُكرهونه على اللعب وهو يهرب منهم ويبكي لإكراههم ويقرأ القرآن، فذهب إلى والده ونصحه أن يفرغه لطلب العلم، فاستجاب له. ولما بلغ الثانية عشر من عمره قدم مع أبيه إلى دمشق لطلب العلم في مدرسة دار الحديث، وسكن المدرسة الرواحية، وهي ملاصقة للمسجد الأموي من جهة الشرق. وفي عام ستمائة وواحد وخمسين للهجرة حج مع أبيه ثم رجع إلى دمشق.

واشتغل بالعلم منذ نعومة أظفاره، فاهتم بالحديث، فسمع الكثير من الرضي بن البرهان، والزين خالد، وعبد العزيز الحموي، وغيرهم. وبرع في الفقه الشافعي، فأصبح المرجع في تحرير مذهب الشافعية، وألف في هذا العديد من المصنفات.

وفي سنة ستمائة وخمسة وستين للهجرة تولى مشيخة دار الحديث والتدريس بعد الشيخ شهاب الدين أبي شامة، وكان عمره أربعاً وثلاثين عاماً وبقي بها حتى توفي.

أخلاقه وصفاته:

جمع الله له مع العلم خصلاً حميدة، ومناقب رفيعة، فقد اتفق أهل العلم الذين ترجموا له أنه إمام في الزهد والعبادة، وقدوة في الورع، وآية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح للحكام.

قال الذهبي: «ليتني أعلم ما فعل النووي مع الله - تعالى - حتى كانت له هذه المكانة والقبول»

مؤلفاته:

ألف العديد من المصنفات النافعة منها: «شرح المذهب»، و«الروضة»، و«منهاج الطالبين»، و«شرح مسلم»، و«الأذكار»، و«تهذيب الأسماء واللغات»، و«رياض الصالحين»، و«التيان في آداب حملة القرآن»، و«تحرير ألفاظ التنبيه»، وغيرها.

وفاته:

توفي - رحمه الله تعالى - في ليلة الأربعاء الرابع والعشرين من شهر رجب من عام ستمائة وستة وسبعين للهجرة ولم يتجاوز عمره الخامسة والأربعين سنة، ودفن ببلدته نوى - من بلاد الشام - رحمه الله تعالى رحمة واسعة..

مقدمة النووي - رحمه الله -

الحمد لله الواحد القهار، العزيز الغفار، مكور الليل على النهار، تذكرة لأولي القلوب والأبصار، وتبصرة لذوى الأبواب والاعتبار، الذى أيقظ من خلقه من اصطفاه فزهدهم في هذه الدار، وشغلهم بمراقبته وإدامة الأفكار، وملازمة الاتعاظ والادكار، ووقفهم للدأب في طاعته، والتأهب لدار القرار، والحذر مما يسخطه ويوجب دار البوار، والمحافظة على ذلك مع تغير الأحوال والأطوار. أحمدته أبلغ حمدٍ وأزكاه وأشمله وأنماه.

وأشهد أن لا إله إلا الله البر الكريم، الرؤف الرحيم، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وحببيه وخليله، الهادى إلى صراط مستقيم، والداعى إلى دين قويم. صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر النبيين، وآله، وسائر الصالحين.

أما بعد: فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [٢١] مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٢٢﴾ [الذاريات: ٥٦-٧٥] وهذا تصريح بأنهم خلقوا للعبادة، فحق عليهم الاعتناء بما خلقوا له والإعراض عن حظوظ الدنيا بالزهد، فإنها دار نفاق لا محل لإخلاص، ومركب عبور لا منزل حبور، ومشروع انفصام لا موطن دوام. فلهذا كان الأيقاظ من أهلها هم العباد، وأعقل الناس فيها هم الزهاد. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَيَّنَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا رَبَّ عَلَيْهِمْ أَتْنَهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْرَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤] والآيات في هذا المعنى كثيرة ولقد أحسن القائل:

إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا فُطِنَا طَلَقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا
 نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا أَنَّهُ لَا يَسْتَلْحِي وَطْنَا
 جَعَلُوا هَاجَةً وَاتَّخَذُوا صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سَفْنَا
 فإذا كان حالها ما وصفته، وحالنا وما خلقنا له ما قدمته، فحق على
 المكلف أن يذهب بنفسه مذهب الأخيار، ويسلك مسلك أولي النهى
 والأبصار، ويتأهب لما أشرت إليه، ويهتم بما نبهت عليه. وأصوب طريق له
 في ذلك، وأشد ما يسلكه من المسالك: التأدب بما صح عن نبينا سيد الأولين
 والآخرين، وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢] وقد
 صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»
 وأنه قال: «من دل على خير فله مثل أجر من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم
 شيئاً» «من دل على خير فله مثل أجر فاعله» وأنه قال لعلي - رضي الله عنه -:
 «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم».

فرايت أن أجمع مختصراً من الأحاديث الصحيحة، مشتملاً على ما
 يكون طريقاً لصاحبه إلى الآخرة، ومحصلاً لآدابه الباطنة والظاهرة، جامعاً
 للترغيب والترهيب وسائر أنواع آداب السالكين: من أحاديث الزهد،
 ورياضات النفوس، وتهذيب الأخلاق، وطهارات القلوب وعلاجها، وصيانة
 الجوارح وإزالة اعوجاجها، وغير ذلك من مقاصد العارفين.

والتزم فيه أن لا أذكر إلا حديثاً صحيحاً من الواضحات، مضافاً
 إلى الكتب الصحيحة المشهورات، وأصدر الأبواب من القرآن العزيز
 بآيات كريمات، وأوشح ما يحتاج إلى ضبط أو شرح معنى خفي
 بنفائس من التنبيهات. وإذا قلت في آخر حديث: متفق عليه، فمعناه:
 رواه البخاري ومسلم.

وأرجو إن تم هذا الكتاب أن يكون سائقاً للمعتني به إلى الخيرات، حاجزاً له عن أنواع القبائح والمهلكات. وأنا سائل أخاً انتفع بشيء منه أن يدعو لي، ولوالدي، ومشايخي، وسائر أحبابنا، والمسلمين أجمعين، وعلى الله الكريم اعتمادي، وإليه تفويضي واستنادي، وحسبي الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

١. باب الإخلاص واحضار النية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

* الإخلاص هو حقيقة الدين، ومفتاح دعوة الرسل - عليهم السلام -.. وهو: إفراد الله - عز وجل - بالقصد في الطاعة.

وقيل: هو تصفية العمل من كل شوب، وهو أن يريد المكلف بطاعته التقرب إلى الله - عز وجل - دون شيء آخر، من تصنع لمخلوق، أو اكتساب صفة حميدة عند الناس، أو محبة مدح من خلق، أو معنى من المعاني سوى التقرب به إلى الله - تعالى -.. وعكسه الرياء وهو أن يُظهر العبد عبادته أو يحسنها ليراه الناس فيمدحونه عليها.

قال ابن القيم - رحمه الله - عن الإخلاص: «أي، لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس، إما طلب التزين في قلوب الخلق، وإما طلب مدحهم والهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم أو طلب أموالهم، أو خدمتهم ومحبتهم، وقضاء حوائجه، أو غير ذلك من العلل والشوائب التي عقد متفرقاتها: هو إرادة ما سوى الله بعمله كائنًا ما كان».

قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ .

أي، يوحده، ويخلصوا له العبادة، وهؤلاء هم الحنفاء المائلون عن جميع الأديان إلى دين الإسلام.

﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ التي هي أشرف عبادات البدن.

﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ وهي: الإحسان إلى الفقراء والمحاويج.

﴿وَذَلِكَ﴾ الذي أمروا به

﴿ دِينَ الْقِيَمَةِ ﴾ أي: الملة المستقيمة.

وأورد المؤلف قوله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ خُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] ومعنى الآية: لن يصل إليه - تعالى - شيء من لحومها ولا دماؤها لكونه الغني الحميد، ولكن يصل إليه التقوى منكم، وذلك أن يكون القصد وجه الله وحده، لا فخراً ولا رياءً، ولا سمعةً، ولا مجرد عادة. بل لا بد أن يقترن بها الإخلاص وتقوى الله.

والذبح: عبادة ظاهرة من أجل العبادات، وقربة من أفضل القربات المالية، وصرفها لغير الله شرك أكبر ناقل عن الملة، كمن يذبح لقبر أو شجرة، أو ملك أو نبي أو جني أو لغير ذلك.

وقد جمع الله بين عبادة الذبح وبين الصلاة في قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَخْرِجْ﴾ [الكوثر: ٢] فمن صلى لغير الله فقد أشرك، ومن ذبح لغير الله فقد أشرك. وفي الحديث: «لعن الله من ذبح لغير الله» [رواه أحمد].

ثم ذكر - تعالى - في الآية الأخرى: ﴿قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٢٩]: مبيناً سعة علمه لما في النفوس خصوصاً، لأن الإخلاص من أعمال القلوب الغير ظاهرة.

والعبادة لا تكون مقبولة إلا بشرطين: الإخلاص فيها لله - عز وجل -، والمتابعة للنبي ﷺ. وذلك في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيَكْمَرُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

قال الفضيل: أخلصه وأصوبه، قيل: يا أبا علي، وما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، حتى يكون خالصاً وصواباً.

والخالص: أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، ثم قرأ قوله تعالى:
﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهٖ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهٖ أَحَدًا﴾
[الكهف: ١١٠].

وفي الحديث: أنه ﷺ قال: «من صلى يراني فقد أشرك، ومن صام يراني فقد
أشرك، ومن تصدق يراني فقد أشرك» [رواه أحمد].

١ - وعن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي العدوي. - رضي الله عنه. - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» [متفق على صحته]. رواه إماما المحدثين: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري، وأبو الحسيني مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري - رضي الله عنهما - في صحيحيهما اللذين هما أصح الكتب المصنفة. [أخرجه البخاري (١/ ٩ فتح)، ومسلم (١٩٠٧)].

* هذا حديث عظيم القدر، كثير الفائدة، وهو من الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، لأن موضوعه الإخلاص في العمل، وبيان اشتراط النية وأثر ذلك. قال الشافعي - رحمه الله تعالى - : «هذا الحديث ثلث العلم، ويدخل في سبعين باباً في العلم».

قال ابن عثيمين - رحمه الله -: «وللنية فائدتان: أولاً: تمييز العبادات عن بعضها، وذلك كتمييز الصدقة عن قضاء الدين، أو صيام النافلة عن صيام الفريضة.

ثانياً: تمييز العبادات عن العادات فمثلاً: قد يغتسل الرجل ويقصد به غسل الجنابة فيكون هذا الغسل عبادة يثاب عليها العبد، أما إذا اغتسل وأراد به التبرد من الحر فهنا يكون الغسل عادة فلا يثاب عليه».

وفي قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات...**» كلمة جامعة كاملة، فإن النية للعمل كالروح للجسد، وهي ميزان لكل عمل باطن، وفي قوله ﷺ: «**من عمل عملاً**

ليس عليه أمرنا، فهو رد» ميزان للأعمال الظاهرة. وفيها وجوب الإخلاص لله - عز وجل - في جميع الأعمال، لأنه أخبر أنه لا يخلص للعبد من عمله إلا ما نوى، فإن نوى في عمله الله والدار الآخرة، كتب الله له ثواب عمله، وأجزل له العطاء، وإن أراد به السمعة والرياء، فقد حبط عمله وكتب عليه وزره. والنية محلها القلب والتلفظ بها بدعة، وما كان في الحج دون غيره إنما هو تلبية وإهلال بالحج.

ووضح النبي ﷺ وبين قوله: **«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»** بمثل بين، هو تنمة الحديث: **«فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»**.

أخبر ﷺ أن هذه الهجرة تختلف باختلاف النيات والمقاصد بها، فمن هاجر إلى دار الإسلام حباً لله ورسوله، ورغبة في تعليم دين الإسلام فهذا هو المهاجر إلى الله ورسوله حقاً. ومن كانت هجرته من دار الشرك إلى دار الإسلام لطلب دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها في دار الإسلام، فهجرته إلى ما هاجر إليه من ذلك، فالأول تاجر. والثاني خاطب، وليس واحد منهما بمهاجر. وفي قوله ﷺ **«إلى ما هاجر إليه»** تحقير لما طلبه من أمر الدنيا، أو استهانة به حيث لم يذكره بلفظه، وأيضاً فالهجرة إلى الله ورسوله واحدة فلا تعدد فيها، فلذلك أعاد الجواب فيها بلفظ الشرط.

وفي الحديث: بيان أن جزاء العامل على عمله بحسب نيته من خير أو شر، وبيان أن العمل لا يجزئ إلا إن عُينت نيته، والأعمال لا يُعتد بها شرعاً إلا بالنية الموجودة لها.

والنية أمرها عظيم، قال الحافظ التيمي: «النية أبلغ من العمل، ولهذا تُقبل النية بغير العمل، فإذا نوى حسنة، فإنه يُجازى عليها، ولو عمل حسنة بغير نية، لم يجاز بها».

والنية الصالحة الصادقة لها مكانتها، قال ابن المبارك: «رُبَّ عمل صغير تُعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية».

والمسلم ينبغي له أن يستحضر النية. أي، نية الإخلاص في جميع العبادات. فينوي مثلاً الوضوء، وأنه توضاً لله، وأنه توضاً امتثالاً لأمر الله، فهذه ثلاث أشياء: نية العبادة، ونية أن تكون لله، ونية أنه قام بها امتثالاً لأمر الله.

والمسلم يكثر النيات في العمل الواحد، وينوي به تحصيل أكثر من أجر بهذا العمل، كمن يتصدق وينوي أن يكون بالصدقة في ظل عرش الرحمن، وأن يصل بها رحمه، وأن يكسو بها مسلماً، أو يطعم جائعاً، وأن يتداوى بها، وأن يفرج بها عن مكروب حتى يفرج الله عنه كربات الدنيا والآخرة، إلى آخر هذه النيات الحسنة.

وفي الحج ينوي أداء فريضة الحج، وينوي اتباع النبي ﷺ في قوله **«خذوا عني مناسككم»**، وينوي الدلالة على الخير في الحج، ومساعدة الضعيف والفقير، وإعانة المحتاج والكبير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرها من النيات الصالحة.

وفي طلب العلم ينوي: رفع الجهل عن نفسه، وعبادة الله على بصيرة، والتقرب إلى الله، وطلب الخشية، ورفع الدرجات عند الله، ونفع المسلمين وتعليمهم، وهكذا...

ويجوز تعدد النيات في العمل الواحد، وليس لها عدد محدود ما دامت في حدود المشروع من النوايا.

وفي الحديث: وجوب الإخلاص لله - عز وجل - في العمل وفيه: فضل النية الصالحة والقصد الحسن.

٢- وَعَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَغْزُو جَيْشُ الْكُعْبَةِ فَإِذَا كَانُوا بَيْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ يُخَسِّفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ». قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يُخَسِّفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَأُ قَوْمٍ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «يُخَسِّفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ» [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ]: هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ.

* راوي الحديث هي أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق، أم عبد الله عائشة بنت أبي بكر - رضي الله عنهما -، ولدت بعد البعثة بأربع سنوات، تزوجها النبي ﷺ وكانت محظية عنده، مقربة إليه، محبة إلى قلبه، وهي من أفقه نساء هذه الأمة.

قال ابن عبد البر: «عائشة كانت وحيدة عصرها من ثلاثة علوم: علم الفقه، وعلم الشعر، وعلم الطب».

نزلت براءتها من فوق سبع سماوات في آيات تتلى إلى يوم القيامة. روت عن النبي ﷺ علماً كثيراً. توفيت - رضي الله عنها - في السنة السابعة أو الثامنة والخمسين للهجرة.

وفي هذا الحديث الذي روته - رضي الله عنها - أخبر النبي ﷺ أن جيشاً يغزو الكعبة المشرفة في آخر الزمان، والكعبة قد غزاها من قبل أبرهة الحبشي، وذلك أن أبرهة لما غلب على بلاد اليمن، ورأى الناس يقصدون الكعبة البيت الحرام زرافات ووحداناً، قال: إلام يقصدون؟ قالوا: إلى الكعبة بمكة يحجون، فابتنى له كنيسة بصنعاء تفنن في بنائها وتزينها وسماها (القُلَيْس) قاصداً صرف العرب عن الكعبة.

ولكن أعرابياً قصد إليها فتغوط فيها، فلما علم أبرهة استشاز غضباً وعزم على هدم الكعبة، وسار في جيش عظيم، لا قبل لأهل مكة والعرب به، وكان

في جيش أبرهة فيل عظيم فكلما وجهوه إلى جهة الكعبة أبى وبرك، حتى سلط الله عليهم: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ ۖ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الفيل: ٣-٤]. وهذه الحادثة تدل على كرامة الله للكعبة، وفيها عجائب وغرائب من قدرة الله على الانتقام من أعدائه بأضعف جنوده، وهي الطير التي ليست من عادتها أن تقتل.

وهذا الحديث وما بعده من الأحاديث المتعلقة بالنية، تبين أن الإنسان يُعامل بقصده من الخير والشر، وفي هذا الحديث من إخباره ﷺ عن الغيب. حيث ذكر ﷺ أنه «يغزو جيش الكعبة فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم».

وتمام الحديث في أعمال القلوب، وصلاح النية، وفيه التحذير من مصاحبة أهل الظلم والفجور، وأن من شارك أهل الباطل وأهل البغي والعدوان، فإنه يكون معهم في العقوبة، فإن العقوبة إذا وقعت عمت الصالح والطالح، والبر والفاجر، ثم يبعثون يوم القيامة على نياتهم.

قال ابن القيم: «أعمال القلوب هي الأصل، وأعمال الجوارح تبع ومكملة، وإن النية بمنزلة الروح، والعمل بمنزلة الجسد للأعضاء الذي إذا فارق الروح فموات، فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح».

وقال - رحمه الله -: «تفاضل الأعمال عند الله بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص والمحبة وتوابعها».

قال بعض السلف: «إني لأستحب أن يكون لي في كل شيء نية، حتى في أكلي وشربي ونومي ودخولي الخلاء».

وقيل لحمدون بن أحمد: ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا، قال: «لأنهم تكلموا لعز الإسلام، ونجاة النفوس، ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفوس، وطلب الدنيا، ورضا الخلق».

٣- وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت قال النبي ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا» [متفق عليه].
ومعناه: لا هجرة من مكة لأنها صارت دار إسلام.

* لما بعث الله - عز وجل - نبينا محمداً ﷺ وجد من قومه في مكة التكذيب والصدود وأنواع الأذى، وكذلك وقع على المسلمين صنوف العذاب، فجعل الله لهم مخرجاً من ذلك بالهجرة.

قال ابن العربي: «الهجرة هي الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام، وكانت فرضاً في عهد النبي ﷺ واستمرت لمن بعده لمن خاف على نفسه». فكانت الهجرة الأولى إلى الحبشة ثم الثانية، تلتها الهجرة الثالثة إلى المدينة. وقد أعظم الله شأن هذه الهجرة، حتى قطع الموالاة والنصرة بين من هاجر ومن لم يهاجر، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يهاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يهاجِرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢].

وكانت الحكمة في وجوب الهجرة على من أسلم حتى ينجو بنفسه من أذى الكفار وبطشهم وفتنتهم، فإنهم كانوا يُعذبون من أسلم إلى أن يرجع عن دينه. وفي الحديث بشارة نبوية أن مكة تبقى دار إسلام أبداً، وهذا من علامات النبوة حيث بقيت كذلك إلى اليوم وإلى أن تقوم الساعة.

قال ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح» أي، من مكة، وعلى هذا فلا هجرة منها لأنها دار إسلام. ويبقى حكم الهجرة من بلاد الكفار إلى بلاد المسلمين قائماً لحديثه ﷺ: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تخرج الشمس من مغربها» [أخرجه أبو داود].

قال ابن حجر: «وهذه الهجرة باقية الحكم في حق من أسلم في دار الكفر، وقدر على الخروج منها».

ثم قال ﷺ **«ولكن جهاد ونية»** أي، أن تحصيل الخير بسبب الهجرة قد انقطع بفتح مكة، ولكن حصلوه بالجهاد والنية الصالحة، وفي هذا الحث على نية الخير مطلقاً وأنه يثاب على النية.

«وإذا استنفرتم فانفروا» أي، إذا استنفركم ولي أمركم للجهاد في سبيل الله، فانفروا وجوباً، وحينئذ يكون الجهاد فرض عين.

وأنواع الهجرة ثلاثة: هجرة المكان الذي فيه المعصية، وهجر المعصية وتركها، وهجر العاصي المقيم على معصيته المجاهر بها حتى يتوب منها. وقد ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - هذا الحديث في باب الإخلاص وإحضار النية.

فعن أبي هريرة مرفوعاً: **«قال الله - تعالى -: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»** [رواه مسلم].

وروي عن بعض الحكماء أنه قال: «مثل من يعمل الطاعات للرياء والسمعة كمثل رجل خرج إلى السوق وملاً كيسه حصاة، فيقول الناس: ما أملاً كيس هذا الرجل، فلا منفعة له سوى مقالة الناس، ولو أراد أن يشتري شيئاً لا يُعطى به شيئاً، ولا ثواب له في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ

عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

أما إذا عمل العمل لله خالصاً، ثم ألقى الله الثناء الحسن في قلوب المؤمنين، ففرح بفضل الله ورحمته واستبشر بذلك لم يضره، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه سئل عن الرجل يعمل العمل من الخير يحمد الناس عليه، فقال: **«تلك عاجل بشرى المؤمن»** [رواه مسلم].

قال بعض السلف: «من سره أن يكمل له عمله فليحسن نيته، فإن الله - عز وجل - يأجر العبد إذا حسنت نيته، حتى باللقمة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية عن الأعمال القلبية: «وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين، مثل محبة الله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين لله، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له، وهذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق باتفاق أئمة الدين».

وفي الحديث: الحث على الجهاد في سبيل الله، وعدم التباطؤ والاسراع في ذلك.

وفيه: فضل النية الصالحة.

وفيه: فضل الجهاد في سبيل الله.

٤ - وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ فَقَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرَجَالًا مَا سَرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَاِدِيًّا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ حَبْسَهُمُ الْمَرَضُ» وَفِي رِوَايَةٍ: «إِلَّا شَرَكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ» [رَوَاهُ مُسْلِمٌ].

وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: رَجَعْنَا مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ أَقْوَامًا خَلَفْنَا بِالْمَدِينَةِ مَا سَلَكَنَا شِعْبًا وَلَا وَاِدِيًّا إِلَّا وَهُمْ مَعَنَا، حَبْسَهُمُ الْعُذْرُ».

* في الحديث فضل النية الصادقة والرغبة في الخير، وأن من كان كذلك وحبسه العذر عن الجهاد في سبيل الله فإن له أجر من جاهد.

والحديث دليل على أن من سمت نيته وعزم على فعل عمل صالح وتركه لعذر أنه له مثل أجر فاعله، وأما إذا كان ليس من عادته أن يفعله، فإنه يكتب له أجر النية فقط، دون أجر العمل.

قال القرطبي: «ظاهر الحديث أن للمعذور من الأجر ما يساوي أجر الفاعل، بدليل أن الثواب على الأعمال إنما هو بفضل من الله - تعالى -، فيهبه لمن يشاء على أي شيء صدر عنه، لأن النية الصادقة هي أصل الأعمال، فإذا صحت في فعل طاعة، فعجز عنها لمانع منع منها، فلا بُدَّ في مساواة أجر ذلك العاجز لأجر القادر الفاعل، أو يزيد عليه وقد دل على هذا قوله ﷺ: «نية المؤمن خير من عمله».

والمؤمن إذا كانت له نية، أتت على عامة أفعاله، وكانت المباحات من صالح أعماله لصلاح قلبه ونيته.

قال زبيد الياامي: «إني لأحب أن تكون لي نية في كل شيء، حتى في الطعام والشراب». أي، أنه ينوي التقوي بها على العبادة والطاعة وغيرها.

والنية الحسنة تجعل العمل المباح قربة يؤجر عليها المسلم، ففي قصة

تداول أبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل - رضي الله عنهما - في كيفية قراءتهما للقرآن، قال معاذ: «أما أنا فأقوم وأنام، وأرجو في نومتي ما أرجو في قومتي» [رواه البخاري ومسلم].

قال النووي: «معناه أي أنام بنية القوة وإجماع النفس للعبادة وتنشيطها للطاعة، وأرجو في ذلك الأجر كما أرجو في قومتي (أي صلاتي)». وقال ابن قدامة: «قال بعض السلف: إني لأستحب أن يكون لي في كل شيء نية، وحتى في أكلتي وشربي ونومي، ودخولي الخلاء، وكل ذلك مما يمكن أن يقصد من التقرب إلى الله - تعالى -، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات الدين، فمن قصد من الأكل التقوي على العبادة، ومن النكاح تحصين دينه، وتطبيب قلب أهله، والتوصل إلى ولد يعبد الله بعده، أثيب على ذلك كله».

قال أبو طالب المكي: «إنما يكون للعبد من ثواب الأعمال على حسب ما يهب الله - تعالى - له من النيات، فربما اتفق في العمل الواحد نيات كثيرة على مقدار ما يحمل العبد من النية، وعلى مقدار علم العامل، فيكون له بكل نية حسنة، ثم يضاعف كل حسنة عشرة أمثالها، لأنها أعمال تجتمع في عمل واحد».

جاء في عدة الصابرين أن أبا هريرة - رضي الله عنه - قال: «إذا مرض العبد المسلم، نودي صاحب اليمين، أن أجر على عبدي صالح ما كان يعمل وهو صحيح، ويقال لصاحب الشمال: أقصر عن عبدي ما دام في وثاقي، فقال رجل عند أبي هريرة: ياليتني لا أزال ضاجعاً، فقال أبو هريرة: كره العبد الخطايا».

وفي الحديث: فضل الجهاد في سبيل الله، وفضل النية الصالحة. وفيه، فضلية النية في الخير، وأن من نوى الغزو أو غيره من الطاعات فعرض له عذر منعه، حصل له ثواب نيته، وأنه كلما أكثر التأسف على فوات ذلك، وتمنى كونه من الغزاة أو نحوهم، كان أكثر ثواباً.

٥- وَعَنْ أَبِي يَزِيدَ مَعْنُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ الْأَخْنَسِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -، وَهُوَ
وَأَبُوهُ وَجَدَهُ صَحَابِيَّوْنَ، قَالَ: كَانَ أَبِي يَزِيدُ أَخْرَجَ دَنَانِيرَ يَتَصَدَّقُ بِهَا فَوَضَعَهَا
عِنْدَ رَجُلٍ فِي الْمَسْجِدِ فَجَنَّتْ فَأَخَذْتُهَا فَأَتَيْتُهُ بِهَا. فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا إِلَيْكَ أَرَدْتُ،
فَخَاصَمْتُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «لَكَ مَا نَوَيْتَ يَا يَزِيدُ، وَلَكَ مَا أَخَذْتَ يَا
مَعْنُ» [رواه البخاري].

* الإسلام دين المودة والرحمة، ودين التواد والتراحم والتكافل، والصدقة
على الفقراء والمساكين والمحتاجين من أعظم القربات وأجل الطاعات،
ونفعها متعدد، ففيها تفريج كربة، وإغناء عن سؤال، وإشباع جائع، وفرحة
لصغير، وسرور يدخل على قلب الكبير.

وقد ورد في فضل الصدقة عدة آيات وأحاديث، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي
يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ
تَرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وفي الحديث أنه ﷺ قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة» [متفق عليه].
وقال ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» وذكر منهم رجلاً
«تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» [متفق عليه].

وفي هذا الحديث دليل على أن من نوى الصدقة على محتاج، حصل له
ثوابها، ولو كان الآخذ ممن تلزمه نفقته، أو غير أهل لها، فإن الأعمال بالنيات،
وإن الإنسان إذا نوى الخير حصل له وإن وقع خلاف ما نوى، كما في الحديث،
وفيه العناية بالأبناء والأقارب في النفقة والصدقة.

وقد أورد المؤلف - رحمه الله تعالى - هذا الحديث في باب الإخلاص
وإحضار النية، فإن الإخلاص إذا تمكن من طاعة ما، فكانت هذه
الطاعة خالصة لوجهه الكريم، كان الجزاء العظيم والثواب الجزيل من
الله - عز وجل -.

قال ابن تيمية: «والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله، فيغفر الله به كبائر كما في حديث البطاقة، فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق كما قالها هذا الشخص، وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم يقولون التوحيد، ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجح قول صاحب البطاقة».

ومن عظيم أمر النية أن العبد قد يبلغ منازل الأبرار، ويكتب له ثواب أعمال عظيمة لم يعملها وذلك بالنية، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال لما رجع من غزوة تبوك «**إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسارياً، ولا قطعتم وادياً، إلا كانوا معكم**» قالوا: يا رسول الله: وهم بالمدينة؟ قال: «**وهم بالمدينة حبسهم العذر**» [رواه البخاري].
قال مطرف بن عبد الله: «صلاح القلب بصلاح العمل، وصلاح العمل بصلاح النية».

وقال عكرمة: «إن الله يعطي العبد على نيته ما لا يعطيه على عمله، لأن النية لا رياء فيها».

ويقول ابن القيم - رحمه الله تعالى -: «على قدر نية العبد وهمته ومراده ورغبته في معالي الأمور يكون توفيقه - سبحانه - وإعانتة. فالمعونة من الله تنزل على العباد على قدر هممهم ونياتهم ورغبتهم ورهبتهم، والخذلان ينزل عليهم على عكس ذلك، فالله - سبحانه - أحكم الحاكمين وأعلم العالمين يضع التوفيق في مواضعه اللائقة به ويضع الخذلان في مواضعه اللائقة به، وهو العليم الحكيم، وما أوتي من أوتي إلا من قبل إضاعة الشكر وإهمال الافتقار والدعاء، ولا ظفر من ظفر بمشيئة الله وعونه إلا بقيامه بالشكر وصدق الافتقار والدعاء، وملاك ذلك كله الصبر».

قال ابن عثيمين: «بالنية الصالحة تتحول المباحات إلى مستحبات يثاب عليها الإنسان، فمن جلس مع غيره وسامره وأنسه من غير باطل فيثاب على هذا المباح إن قصد مؤانسة أخيه المسلم وإدخال السرور عليه، وهكذا».

٦- وَعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ مَالِكُ بْنُ أَهْيَبَ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ ابْنُ زُهْرَةَ بْنُ كِلَابٍ بْنُ مِرَّةَ بْنِ كَعْبٍ بْنُ لُؤَيٍّ الْقُرَشِيُّ الزُّهْرِيُّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَحَدَ الْعَشْرَةِ الْمَشْهُودِ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - قَالَ: جَاءَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعُودُنِي عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ مِنْ وَجَعٍ اشْتَدَّ بِي فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ بَلَغَ بِي مِنَ الْوَجَعِ مَا تَرَى، وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَةٌ لِي، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلْثِي مَالِي؟ قَالَ: «لَا»، قُلْتُ: فَالْشُّطْرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «لَا»، قُلْتُ فَالْثُلُثُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْثُلُثُ وَالثُلُثُ كَثِيرٌ - أَوْ كَبِيرٌ - إِنَّكَ إِنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَجَزْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلَ فِي فِي امْرَأَتِكَ» قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْلَفَ بَعْدَ أَصْحَابِي؟ قَالَ: «إِنَّكَ لَنْ تُخْلَفَ فَتَعْمَلْ عَمَلًا تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَزْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرَفْعَةً وَلَعَلَّكَ أَنْ تُخْلَفَ حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ. اللَّهُمَّ أَمُضْ لِأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ، وَلَا تُرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، لَكِنَّ الْبَائِسُ سَعْدُ بْنُ خُوَلَةَ يَرْتَى لَهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ مَاتَ بِمَكَّةَ» [متفقٌ عليه].

* في هذا الحديث مشروعية عيادة المريض، وعبادة الكبير أتباعه ومن حوله، وفيه التواضع ولين الجانب، والإنفاق على من تلزمه مؤنتهم، والحث على الإخلاص في ذلك. ولا بأس في ذكر المرض لغرض صحيح من نحو مداواة أو دعاء رجل صالح.

وأن من ترك مالا قليلاً فلا اختيار له ترك الوصية، وإبقاء المال للورثة، ومن ترك مالا كثيراً جاز له بالثلث فما دون.

قال العلماء: «إن كانت الورثة أغنياء استحَبَّ أَنْ يوصي بالثلث تبرعاً، وإن كانوا فقراء استحَبَّ أَنْ ينقص من الثلث».

وفي الحديث دلالة على أنه إذا أنقص عن الثلث فهو أحسن وأكمل. قال أبو بكر - رضي الله عنه -: «أرضى ما رضىه الله لنفسه» يعني الخمس.

فأوصى بالخمس - رضي الله عنه -.

قال النووي: «لا ينفذ ما زاد عن الثلث إلا برضا الوارث».

وفي الحديث الحث على صلة الرحم والإحسان إلى الأقارب، والشفقة على الورثة، وأن صلة القريب الأقرب والإحسان إليه أفضل من الأبعد.

قال تعالى: ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبَذِّرْ تَبْذِيرًا

﴿[الإسراء: ٢٦].

قال الشوكاني: «وقدم الإحسان إلى القرابة، لأن خير الصدقة ما كان على قريب، فهو صدقة مضاعفة، وصلة رحم مُرغَّب فيها، وأكد على ذلك في أكثر من سورة».

وفي الحديث الآخر: «زوجك وولدك أحق من تصدقت به عليهم» [رواه البخاري].

وعند مسلم أنه ﷺ قال: «دينارٌ أنفقته في سبيل الله، ودينارٌ أنفقته في رقة،

ودينارٌ تصدقت به على مسكين، ودينارٌ أنفقته على أهلِكَ، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلِكَ».

والصدقة على الأقارب صدقة وصلة، قال ﷺ: «الصدقة على المسكين

صدقة، وهي على ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة» [رواه أحمد والنسائي].

وينبغي للإنسان أن يستحضر في صلة الرحم التقرب إلى الله - عز وجل - في كل ما ينفق حتى يؤجر على ذلك، فإن الإنسان إنما يثاب على عمله بنيته. مثل أن يأكل بنية التقوي على طاعة الله - تعالى - والنوم للاستراحة ليقوم إلى العبادة نشيطاً، والاستمتاع بزوجه ليكف نفسه وبصره عن الحرام، وليقضي حقها، وليحصل ولداً صالحاً وغير ذلك.

وفي الحديث: جملة إخباره ﷺ بالمغيبات، فإن سعداً - رضي الله عنه -

عاش وانتفع به الإسلام والمسلمون، وتضرر به الكفار في دينهم ودنياهم من

جهاده، وولي العراق فاهتدى على يديه خلائق.

٧- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ صَخْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ، وَلَا إِلَى صُورِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» [رواه مسلم].

وأخرجه بلفظ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» [مسلم ٢٤].

* أمة الإسلام أمة صفاء ونقاء في العقيدة والعبادات والمعاملات، ومن أعمال القلوب سلامة الصدر من الغل والحقد، والحسد والكرهية.

وفي الحديث أن النبي ﷺ سُئِلَ: أي الناس أفضل؟ قال: «كل مخموم القلب صدوق اللسان» قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: «هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد» [رواه ابن ماجه].

وسلامة الصدر ونقاء السريرة وصفاء النفس من الأمور الدالة على الإيمان والطمأنينة واليقين، ومن دوافع العمل الصالح، ومن موجبات الأجر والمثوبة، وهي من خصال البر النادرة، ولهذا أثنى الله - عز وجل - عليها في كتابه، ورسوله ﷺ في جملة أحاديث.

والله - عز وجل - هو الذي خلق الإنسان وسواه، وجعل له السمع والبصر، وجعل هذا طويلاً وذاك قصيراً، وثالث أبيض والآخر أسود. فلا يد للإنسان في أصل خلقه، والخالق - تبارك وتعالى - لا ينظر إلى الأجساد وطولها وقصرها، ولكنه ينظر إلى القلوب وصلاحتها وفسادها، مع ما يتبعها من أعمال الجوارح.

قال ابن حجر: «خص القلب بذلك لأنه أمير البدن».

وقال ابن رجب: «حركات الجسد تابعة لحركات القلب وإرادته فإن كانت حركاته وإرادته لله وحده فقد صلح وصلحت - صلح قلبه وصلحت جوارحه -، وإن كانت حركات القلب وإرادته لغير الله فسد وفسدت حركات الجسد بحسب فساد حركة القلب».

قال ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: «والأعمال تفضل بنيات أصحابها، وطاعتهم لله - تعالى - وما في قلوبهم من الإيمان بطاعتهم لله».

وفي الحديث: **«إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضه»** ثم قرأ ﴿فَلَا نُقِمْ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]. [رواه البخاري ومسلم].

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى -: «لا شيء أفسد للأعمال من العجب ورؤية النفس، ولا شيء أصلح لها من شهود العبد منة الله وتوفيقه، والاستعانة به، والافتقار إليه، وإخلاص العمل له».

وفي حديث النبي ﷺ بيان كاف شاف، عن الرجل الفقير المسكين، أشعث أغبر لا يُنظر إليه، ولا يؤمل منه، ومع هذا له منزلة ومكانة عند الله - عز وجل - لصلاحه وتقواه، قال ﷺ: **«رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره»** [رواه الترمذي].

والقلب موضع نظر الله - عز وجل - وهو ملك مطاع ورئيس متبع، وهو كثير الثقل وعرضة للفتن، وتتفاضل الأعمال بتفاضل ما في القلوب.

قال ابن القيم: «فيا عجباً من يهتم بوجهه الذي هو موضع نظر الخلق، فيغسله وينظفه من الأقدار والأدناس، ويزينه بما أمكنه، لئلا يطلع مخلوق فيه على عيب، ولا يهتم بقلبه الذي هو موضع نظر رب العالمين، فيطهره ويزينه ويطيبه، كي لا يطلع الرب - جل وعلا - على دنس فيه وشين وآفة وعيب، بل يهمله بفضائح وأقدار وقبائح، لو اطلع الخلق على واحد منها لهجروه وتبرؤوا منه وطرده».

وفي الحديث: الحث على الاعتناء بحال القلب وصفائه وتصحيح مقاصده، وتطهيره من كل وصف مذموم، لأن عمل القلب هو المصحح للأعمال الشرعية، وكمال ذلك بمراقبة الله - سبحانه وتعالى -، ولأن صلاح القلب مقدم على إصلاح الجوارح.

٨- وَعَنْ أَبِي مُوسَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ الْأَشْعَرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

* الجهاد حصن الإسلام وسياحه، وقوام الدين وعماده، ومعقل الدولة الأشب، وركن الأمة الركين، فيه حماية الذمار وصيانة الديار، وخضد شوكة العدو، وفل حدهم، وإرهاهم وإذهاب ريحهم. وقد سئل النبي ﷺ عن هذا الأمر العظيم الذي تسيل فيه الدماء، وتزهق لأجله الأرواح، سئل عن عدد من الخصال أو هذه النوايا في القتال، التي تقع عند أهل الجاهلية فيما سبق، فأجاب إجابة شافية مجملة، تجيب على كل سؤال يرد على هذا الأمر.

سئل ﷺ عن الرجل «يقاتل شجاعة»: وهي الإقدام على العدو عن روية. أي، ليتحدث الناس عنه أنه مقدم وشجاع وفارس. ويقاتل: «حمية» أي، أنفة وغيره ومحاماة عن عشيرته، أو أهله ووطنه. ويقاتل: «رياء» أي، مراعاة للناس ليروا قتاله، فيحمد وينال بذلك شيئاً من حظوظ النفس. من مدح أو تكريم أو غير ذلك. سئل ﷺ: أي ذلك في سبيل الله؟

فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا» أي، من ذهب للقتال ونيته خالصة لله، لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله، وفي هذا إخلاص النية لله - عز وجل -.

وفيه، ذم الحرص على الدنيا، وعلى القتال لحظوظ النفس في غير طاعة الله.

ثم قال ﷺ «**فهو في سبيل الله**» أي، كائن في طاعته ومرضاته.
قال ابن حجر في الفتح: «المراد بكلمة الله: دعوة الله إلى الإسلام».
وفي الحديث أسئلة مدارها أن القتال يقع بسبب خمسة أشياء: طلب المغنم، وإظهار الشجاعة، والرياء، والحمية، والغضب. وهذه أمور يداخلها المدح والذم وحفظ النفس.

والفضل والأجر الذي يرد في المجاهدين مختص بمن قاتل لإعلاء دين الله، وفيه الحرص على النية الصادقة ابتغاء ما عند الله في جميع الأعمال المقربة إليه. والمقاتلون في ساحات الوغى لا يعلم ما في قلوبهم، وما يرجون إلا الله - عز وجل - فهو المطلع عليها، العارف بما فيها ومقاصدها. فيجري على المجاهد أحكام الشهيد، فلا يغسل ولا يكفن ولا يصلى عليه بل يدفن. وأمر النية والقصد متروك إلى الله - عز وجل - لخفائه على الناس.

قال النووي: «فيه، أن الأعمال إنما تحسب بالنيات الصالحة، وأن الفضل الذي ورد في المجاهدين مختص لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا»
قال ابن عثيمين: «إن كنت تقاتل عن بلدك، لأنها بلد إسلامي، فتريد أن تحميها من أجل أنها بلد إسلامي فهذا في سبيل الله، لأنك قاتلت لتكون كلمة الله هي العليا، أما إذا قاتلت من أجل أنها وطن فقط فهذا ليس في سبيل الله».

وقد أجزل الله العطية للمجاهد في سبيله، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ [التوبة: ١١١]. وفي الحديث أنه ﷺ قال: «**ما أغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار**» [رواه البخاري].

وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام مسلم: «**إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف**» وفي غيرها من الأحاديث المتواترة في الحث والترغيب في الجهاد في سبيل الله.

وفي الحديث: أن من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله.

٩- وعن أبي بكر بن النضر بن الحارث الثقفي - رضي الله عنه - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بَسَفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ» [متفق عليه].

* حذر الله - عز وجل - وحذر رسوله الكريم ﷺ من أذية المسلم لأخيه المسلم حتى بالكلمة والهمز واللمز، ليبقى المجتمع المسلم مجتمعاً متماسكاً، متكاملًا متحاباً في الله.

وقد حذر ﷺ من ترويع المسلم لأخيه المسلم ولو كان مازحاً، كما في حديث أبي ليلى قال: حدثنا أصحاب محمد ﷺ أنهم كانوا يسيرون مع النبي ﷺ، فنام رجل منهم، فانطلق بعضهم إلى جبل معه فأخذه ففزع، فقال رسول الله ﷺ: «**لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً**» [رواه أبو داود].

ومن أعظم ما يقع بين المسلمين الاقتتال لأمر دنيوي أو غيره، فإن قتل المسلم من أعظم الكبائر، بل وزوال الدنيا أهون عند الله من قتل المسلم، قال ﷺ: «**لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم**» [رواه الترمذي].

وهي من السبع الموبقات، كما قال ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات**» قيل: يا رسول وما هن؟ قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق...**» الحديث [رواه البخاري ومسلم].

وأول ما يُقضى يوم القيامة بين الناس في الدماء، قال ﷺ: «**أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء**» [رواه البخاري ومسلم].

وقد حرم الله - عز وجل - الدماء المعصومة، وتوعد من سفكها بغير حق، وذلك حفاظاً على أرواح المسلمين من التعدي، وصيانة للعلاقات بين المسلمين.

وجاء في الحديث أنه ﷺ قال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» أي: يريد كل منهما الآخر، فسل سيفه، وذكر السيف هنا على سبيل المثال، فإذا التقى المسلمان بأي وسيلة يكون بها القتل كالبندية أو غيرها.

وهنا تعجب الصحابي لأن حال القاتل معروفة، لكن ما حال المقتول الذي قُتل؟ فقال النبي ﷺ: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه». أي: سبب دخول المقتول النار هو عزمه وإصراره على قتل صاحبه ولكنه عجز عنه. قال النووي: «من نوى المعصية، وأصر على فعلها ولم يمنعه منها إلا العجز يكون آثماً، وإن لم يفعلها وإن لم يتكلم بها».

وقال - رحمه الله -: «وأما كون القاتل والمقتول في النار فمحمول على من لا تأويل له، ويكون قتالهما عصبية ونحوها، ثم كونه في النار، معناه مستحق لها وقد يجازى بذلك، وقد يعفو الله - تعالى - عنه، هذا مذهب أهل الحق». وقال ابن رجب: «من سعى في حصول المعصية جهده ثم عجز عنها، فقد عمل».

وفي الحديث: أن العقاب على من عزم على المعصية بقلبه، ووطن نفسه عليها وباشر أسبابها، لكن منعه عارض من فعل المعصية ولولا هذا العارض لارتكبها، أما خواطر القلب ووساوس النفس فهي من المعفو عنه.

ومن نوى على فعل المعصية ثم تركها لوجه الله فهو مثاب على ذلك. قال ﷺ: «... وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة» [متفق عليه].

قال الحافظ في الفتح: «إنما تكتب الحسنه لمن هم بالسيئة فلم يعملها إذا قصد بتركها وجه الله - تعالى -، وحينئذ فيرجع إلى العمل وهو فعل القلب».

وفي الحديث: دليل على أن الأعمال بالنيات.

وفي الحديث أيضاً: دليل على عظم القتل بدون وجه حق، وأنه إثم، ومن أسباب دخول النار.

١٠ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ وَبَيْتِهِ بضعاً وَعَشْرِينَ دَرَجَةً، وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ، لَا يَنْهَرُ إِلَّا الصَّلَاةَ، لَمْ يَخْطُ خُطْوَةً إِلَّا رَفَعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلَاةِ مَا كَانَتِ الصَّلَاةُ هِيَ الَّتِي تَحْبِسُهُ، وَالْمَلَائِكَةُ يَصْلُونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ تَبَّ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ» [متفق عليه]، وَهَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ. وَقَوْلُهُ ﷺ: «يَنْهَرُهُ» هُوَ بَفَتْحِ الْيَاءِ وَالْهَاءِ وَبِالزَّاي: أَيِ يُخْرِجُهُ وَيُنْهَضُهُ.

* الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وهي الفاصل بين المسلم والكافر، كما جاء في حديث جابر - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «**بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**» [رواه مسلم].

وصلاة الجماعة في المساجد من أعظم شعائر الإسلام الظاهرة، التي قال العلماء بوجوبها، ومن أدلة ذلك، أن الله - عز وجل - أوجبها في حال الخوف، وفي هذا دليل على أن ذلك في حال الأمن أوجب، قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢].

ومن الأحاديث قوله ﷺ: «**إن أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلاً يصلي بالناس، ثم انطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار**» [رواه البخاري ومسلم].

ونبينا محمداً ﷺ وهو الرحيم بأتمته لا يهتم بذلك الأمر إلا لعظم أمر الصلاة مع الجماعة في المساجد.

وهذا رجل أعمى يأتي إلى النبي ﷺ فيقول: يا رسول الله ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله ﷺ أن يرخص له فيصلّي في بيته، فرخص له، فلما ولى دعاه، فقال: «**هل تسمع النداء بالصلاة؟**» قال: نعم. قال: «**فأجب**» [رواه أبو داود].

وقال ابن مسعود- رضي الله عنه - «ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها - أي عن صلاة الجماعة - إلا منافق معلوم النفاق».

وقد أورد المصنف هذا الحديث لما في وجوب الصلاة من إخلاص النية لله - عز وجل - في كل حركة وسكنة، وذلك في قوله: «**لا يريد إلا الصلاة**»، لأن اجتماع الناس في المسجد مظنة الرياء والسمعة.

وفي الحديث إشارة إلى بعض الأسباب المقتضية للدرجات، فإن له بكل خطوة يخطوها إلى المسجد يرفعه الله بها درجات، ويحط بها عنه خطيئة.

وفي صلاة الجماعة مع الأجر والمثوبة ورفع الدرجات، أجر انتظار المصلي الصلاة، وصلاة الملائكة عليه، واستغفارهم له، وما في الاجتماع والتعاون على الطاعة والألفة بين الجيران، والسلامة من صفة النفاق، ومن إساءة الظن به، وكون صلاة الرجل صحيحة في بيته بعذر فإن صلاة الجماعة فرض عين. قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: «إن صلاة الجماعة شرط لا تصح الصلاة بدونه».

والشاهد من الحديث قوله ﷺ: «**ثم خرج من بيته إلى المسجد لا يخرج به إلا الصلاة**» فإنه يدل على اعتبار النية في حصول هذا الأجر العظيم.

١١ - وَعَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَيَا يَرَوِي عَنْ رَبِّهِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ: فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضَعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً» [متفق عليه].

* فضل الله واسع وجوده عظيم، وأفعال الله - عز وجل - دائرة بين الفضل والعدل، فهو جواد كريم، بر رحيم، وهو - عز وجل - عدل لا يظلم مثقال ذرة. وقد بيّن ذلك هذا الحديث وهو من الأحاديث القدسية، وهو ما أخبر الله به نبيه ﷺ بالإلهام أو رؤيا المنام، أو غير ذلك من كفيات الوحي فعبّر عنه ﷺ بكلامه، وليس له حكم القرآن من حيث الإعجاز والتواتر أو التعبد بقراءته، وغير ذلك.

وفي قوله: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ» أي، كتب وقوعها في اللوح المحفوظ، وأما ثوابها فيما دل عليه الشرع، ثم بيّن ذلك وفصله ووضحه.

«فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضَعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ».

وفي الحديث: أن من هَمَّ بحسنة كتبت له حسنة وإن لم يفعلها، لأن العزم والهَم بالحسنة سبب إلى عملها وسبب الخير خير، وأن من هَمَّ بسَيِّئَةٍ ثم رجع عنها لله - تعالى - لا لشيء آخر كتبت له حسنة، لأن رجوعه عن العزم عليها خير، فجوزي بمقابله بحسنة، وهذا من فضل الله ورحمته بعباده أن ضاعفها جوداً منه وكرماً.

قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا تُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].
وفي قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّمَّا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا تُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨١].
«وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإذا هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة».

قال ابن تيمية: «جماع الحسنات العدل، وجماع السيئات الظلم».
فالزيادة في الحسنات من باب الفضل، والمعاملة بالمثل في السيئات من باب العدل.
أما السيئة فهي كما هي عدلاً منه إذا فعلها، أما إذا هم بها ولم يعمل بها طاعة لله - عز وجل - فتكتب له حسنة واحدة، لأنه ترك العمل بالسوء، وهذا عمل صالح يثاب عليه، والله يحب العمل الصالح.
وفي الحديث: بيان سعة علم الله - تعالى - وإطلاعه على السرائر وما تخفي الصدور.

وفيه: التحذير من الذنوب في الخلوات والجلوات، وأن الله - عز وجل - مطلع على العبد وأعماله ونيته.
قال ابن القيم: «أجمع العارفون على أن ذنوب الخلوات هي أصل الانتكاسات، وعبادات الخفاء هي أعظم أسباب الثبات».
وقال ابن بطال: «في تغييب خاتمة العمل عن العبد حكمة بالغة وتدبير لطيف، لأنه لو علم وكان ناجياً أعجب وكسل، وإن كان هالكاً ازداد عتوّاً، فحُجب عنه».

وقد أورد المؤلف - رحمه الله - هذا الحديث في باب الإخلاص وإحضار

النية، وهي واضحة بادية في الحديث.

١٢- وعن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب، - رضي الله عنهما - قال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ: «انْطَلَقَ ثَلَاثَةٌ نَفَرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى آوَاهُمُ الْمَيْتُ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارُ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنَ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ - تَعَالَى - بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ. قَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا فَنَأَى بِي طَلَبُ الشَّجَرِ يَوْمًا فَلِمَ أُرْخَ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَأَمَّا فَحَلَبْتُ لَهُمَا غُبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ، فَكْرَهْتُ أَنْ أَوْقِظَهُمَا وَأَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا، فَلَبِثْتُ وَالْقَدْحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ وَالصَّبِيَّةُ يَتَضَاغُونَ عِنْدَ قَدَمِي فَاسْتَيْقَظَا فَشَرَبَا غُبُوقَهُمَا. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَاَنْفَرَجْتُ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهُ. قَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي ابْنَةٌ عَمٌّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ وَفِي رِوَايَةٍ: كُنْتُ أُحِبُّهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، فَأَرَدْتُهَا عَلَى نَفْسِهَا فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمْتُ بِهَا سَنَةً مِنَ السَّنِينَ فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عَشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا ففَعَلَتْ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا وَفِي رِوَايَةٍ: فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رَجُلَيْهَا، قَالَتْ: اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَفْضِ الْخَاتِمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَاَنْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أُعْطِيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَافْرِجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَاَنْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا.

وَقَالَ الثَّلَاثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَجْرَاءَ وَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ فَتَمَرَّتْ أَجْرُهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ: مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَسْتَهْزِئْ بِي، فَقُلْتُ: لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَأْجَرَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَافْرِجْ

عَنَا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَأَنْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمَشُونَ» [متفقٌ عليه].

* في هذه الدنيا مصائب وكرب، ولا منجي منها إلا الله - عز وجل -، وفي الحديث فضل الأعمال الصالحة، وأنها من أسباب تفريج الكربات، واستحباب الدعاء عند الكرب، والتوسل إلى الله بصالح العمل. وأن الإخلاص من أسباب تفريج الكربات، لأن كل واحد منهم يقول: اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه.

وقد جمع الحديث ثلاثة من أعظم الأعمال وأجلها وهي: بر الوالدين وفضل خدمتهما، والقيام عليهما وتقديمهما على الزوجة والأبناء، وفضيلة العفاف وصيانة النفس والبعد عن المحرمات، وكذلك فضل حسن العهد وأداء الأمانة والسماحة في المعاملة، وكل تلك الأعمال دافعها الإخلاص لله - عز وجل - وطلب ما عنده.

وقدم بر الوالدين لعظيم حقهما ومنزلتهما خاصة عند الحاجة وكبر السن. وعلى المسلم أن يحرص ويطلب في بره بوالديه وجه الله - تعالى -، وليس على سبيل العرف أو العادة أو خشية من كلام الناس. أو رغبة في حظه الدنيوي أن يعامله أبناؤه بمثل ما عامل به والداه.

وفي الحديث: جواز توسل المرء بعمله الصالح، وأن هذا من التوسل الشرعي.

وفي الحديث: استحباب الدعاء في الكرب والتقرب إلى الله بذكر صالح العمل، واستنجاهه وعده بسؤاله، واستنبط بعض الفقهاء استحباب ذكر ذلك في الاستسقاء، فإن النبي ﷺ ذكره في معرض الشاء عليهم.

واستشكله بعض العلماء، لما فيه من رؤية العمل، والاحتقار في السؤال عند الاستسقاء أولى، لأنه مقام التضرع، وأجاب عن قصة أصحاب الغار بأنهم لم يستشفعوا بأعمالهم وإنما سألوا الله إن كانت أعمالهم خالصة

وقبلت أن يجعل جزاءها الفرغ عنهم، فتضمن جوابه تسليم السؤال، لكن بهذا القيد وهو حسن.

وقال السبكي الكبير: «ثم ظهر لي أنه ليس في الحديث رؤية عمل بالكلية أن الضرورة قد تلجئ إلى تعجيل جزاء بعض الأعمال في الدنيا وأن هذا منه، ثم ظهر لي بالكلية لقول كل منهم **«إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك»** فلم يعتقد أحد منهم في عمله الإخلاص، بل أحال أمره إلى الله. فإذا لم يجزموا بالإخلاص فيه مع كونه أحسن أعمالهم فغيره أولى».

قال سهل بن عبد الله: «ليس على النفس شيء أشق من الإخلاص، لأنه ليس لها فيه نصيب».

وفي الحديث: فضل بر الوالدين وإيثارهما على من سواهما من الأهل والولد.

وفيه: فضل العفاف والإنكفاف عن الحرمات لا سيما بعد القدرة عليها.

وفيه: التضرع إلى الله - عز وجل - في الشدائد ورجاء فرجه.

٢- باب التوبة

التوبة، هي وظيفة العمر، وهي دائمة مستمرة في حياة المسلم. قال العلماء: التوبة ترك الذنب لقبحه، وهي واجبة من كل ذنب. فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله - تعالى - لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط: أحدها أن يقلع عن المعصية. والثاني، أن يندم على فعلها. والثالث، أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً، فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته. وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة وأن يبرأ من حق صاحبها. فإن كانت مالاً أو نحوه رده إليه، وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة استحله منها. ويجب أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب وبقي عليه الباقي. وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة.

قال الله تعالى: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١]. أي: توبوا إلى الله من التقصير الواقع في أمره ونهيه، وظاهر الأمر للوجوب، فتجب التوبة على جميع المؤمنين.

وقال تعالى: ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [هود: ٣]. أي، استغفروا ربكم عن ماصدر منكم من الذنوب، ثم توبوا إليه مما تستقبلون من أعماركم بالرجوع إليه بالإنابة، والرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه.

وقال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم:

[٨]. أي، توبة صادقة جازمة تمحو ما قبلها من السيئات، وتلم شعث التائب وتجمعه، وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءة.

ومن أعظم نعم الله - عز وجل - على عباده أن فتح لهم باب التوبة، وجعله فجراً تبدأ معه رحلة العودة بقلوب منكسرة، ودموع منسكبة، وجباه خاضعة.

قال الله عز وجل: ﴿بَيِّنْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩].

وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وصح عنه ﷺ كما روى ذلك الإمام مسلم، أنه قال: **«إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مَسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مَسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»** [رواه مسلم].

وهذا نبي الرحمة ﷺ، وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يقول: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ»** [رواه مسلم].

وفضل الله - عز وجل - على التائب العائد عظيم، فقد قال رسول الله ﷺ: **«التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»** [رواه ابن ماجه والطبراني].

بل وجاء في الآية الكريمة أنه - جل وعلا - يبدل سيئات التائب حسنات، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠]. وفي هذه الآية قاعدة التوبة وشروطها، وفصل الله وكرمه على التائبين.

قال يحيى بن معاذ - رضي الله عنه -: «من أعظم الاغترار عندي: التَّماذي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله - تعالى - بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله - عز وجل - مع الإفراط. ومن أحب الجنة انقطع عن الشهوات، ومن خاف النار انصرف عن السيئات».

وقال الحسن: **«إِنَّ قَوْمًا أَلْهَتَهُمْ أُمَانِي الْمَغْفِرَةِ، حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا**

بغير توبة، يقول أحدهم: إني أحسن الظن بربي - وكذب - لو أحسن الظن لأحسن العمل».

١٣- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، فِي الْيَوْمِ، أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً» [رواه البخاري].

* خلق الله - تعالى - الخلق بقدرته، وسلَّط عليهم الأعداء بمشيئته، وابتلاهم بالمعاصي والذنوب، ودعاهم إلى الإقالة والرجوع عن الذنوب، وفتح لهم باب التوبة لمن يتوب، وحثَّهم على الإنابة والاستغفار مهما عظمت الذنوب وبلغت الكثرة عنان السماء، وجعله طريقاً للنجاة.

قال أبو ذر - رضي الله عنه -: «لكل داء دواء، وإن دواء الذنوب الاستغفار». وقال قتادة: «إن هذا القرآن يدلُّكم على دوائكم ودوائكم، فأما دواؤكم فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار».

ومعنى التوبة: الرجوع من الذنب والعودة من الخطأ، وعن كل ما يبعد عن الله - تعالى -.

والاستغفار معناه: طلب المغفرة من الله. والمغفرة، هي وقاية شر الذنوب ومحوها وإزالة أثرها، وهي شيء زائد على مجرد الستر، لأن المغفرة معناها وقاية شر الذنب بحيث لا يعاقب عليه العبد، فمن غُفِرَ ذنبه لم يعاقب عليه، والاستغفار التام الموجب للمغفرة هو ما قارن عدم الإصرار، وهو حينئذ توبة نصوح، ولهذا روي أن النبي ﷺ قال: «ما أَصْرَرَّ من استغفر، وإن عاد في اليوم سبعين مرة» [رواه أبو داود والترمذي].

قال ابن بطال: «الأنبياء أشدَّ اجتهداً في العبادة لما أعطاهم الله - تعالى - من المعرفة فهم دائبون في شكره معترفون له بالتقصير».

ويحتمل أن يكون كثرة استغفار النبي ﷺ وتوبته من انشغاله بالأمر المباحة من أكل أو شرب أو جماع أو نوم أو راحة، أو لمخاطبة الناس والنظر في مصالحهم، ومحاربة عدوهم تارة، ومداراته أخرى، وتأليف المؤلفة وغير ذلك مما يحجبه عن الاشتغال بذكر الله والتضرع إليه ومراقبته فيرى ذلك ذنباً بالنسبة إلى المقام العليّ.

ومنها، أن الاستغفار تشريع لأمته ولتستن به أمته ويقندوا به في ذلك. وفي قوله ﷺ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه، في اليوم أكثر من سبعين مرة».

قال القرطبي: «هذا يدل على استدامة التوبة، لأنه من حصول الذنب على يقين، ومن الخروج عن عقوبته على شك، فحق التائب أن يجعل ذنبه نصب عينيه، وينوح دائماً عليه، حتى يتحقق أنه قد غفر له ذنبه، ولا يتحقق أمثالنا ذلك إلا بقاء الله. فواجب عليه ملازمة الخوف من الله، والرجوع إليه بالندم على ما فعل، وبالعزم على أن لا يعود، وبالاقلاع عنه، ثم لو قدرنا أنه تحقق أن قد غفر له ذلك الذنب، تعينت عليه وظيفة الشكر، كما قال ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

وفي الحديث: كثرة استغفار النبي ﷺ. وفيه: الحث على التأسى بالنبي ﷺ في كثرة الاستغفار.

١٤- وعن الأغر بن يسار المزني - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة» [رواه مسلم].

* حرص النبي ﷺ على تعليم أمته، ودعاهم إلى كثرة الاستغفار، وفي هذا الحديث عن الأغر بن يسار المزني - رضي الله عنه -، قال: قال رسول الله ﷺ:

«يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة»

قال القرطبي: «وإنما أخبر النبي ﷺ بأنه يكرر توبته في كل يوم مع كونه مغفوراً له، ليلحق به غيره نفسه بطريق الأولى، وكذلك القول في الاستغفار والتوبة يقتضي شيئاً يتاب منه، إلا أن ذلك ينقسم بحسب حال من صدر منه ذلك الشيء، فتوبه العوام من السيئات، وتوبة الخواص من الغفلات. وتوبة خواص الخواص من الالتفات إلى الحسنات، هكذا قاله بعض أرباب القلوب، وهو كلام حسن في نفس بالغ في فنه».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «الاستغفار يخرج العبد من الفعل المكروه إلى الفعل المحبوب، ومن العمل الناقص إلى العمل التام، ويرفع العبد من المقام الأدنى إلى الأعلى منه والأكمل. والاستغفار من أكبر الحسنات، وبابه واسع، فمن أحسن بتقصير في قوله أو عمله أو حاله أو رزقه أو تقلب قلب فعلية بالتوحيد والاستغفار، ففيهما الشفاء إذا كان بصدق وإخلاص، وكذلك إذا وجد العبد تقصيراً في حقوق القرابة والأهل والأولاد والجيران والإخوان فعلية بالدعاء لهم والاستغفار».

قال حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - للنبي ﷺ إن لي لساناً ذرباً على أهلي فقال له: «أين أنت من الاستغفار؟ إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة».

ومن ثمرات الاستغفار: تكفير السيئات ورفع الدرجات، وهو سبب لدفع العذاب والمصائب ورفع البلاء، وسبب لجلب الرزق وسعته، والإمداد بالأموال والأولاد، وسبب لحصول القوة في البدن، وسبب لجلاء القلب وبياضه وصفائه ونقاؤه، والاستغفار يجلب رضا الله - تعالى - ومحبه وهو سبب في تفريج الهموم. قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٠١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيجعل لكم جَنَّاتٍ وَيجعل لكم أَنْهَارًا ﴿١٠٢﴾﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣] كثيراً ما يقرن - عز وجل - الاستغفار بذكر التوبة. فيكون الاستغفار حينئذ عبارة عن طلب المغفرة باللسان، والتوبة عبارة عن الإقلاع من الذنوب بالقلوب والجوارح، وتارة يفرد الاستغفار ويترتب عليه المغفرة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قيل العفو عن التفريط في الطاعات، والاستغفار عن فعل المحرمات، والرحمة فيما يستقبله المرء من زمنه.

والاستغفار من أعظم الطاعات، وأنفع القربات. والأعمال الصالحة مع كونها صالحة تختم بالاستغفار، فالصلوات تختم بالاستغفار، وقيام الليل بالاستغفار، والحج كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩]. وختام المجالس الاستغفار إلى غير ذلك.

قال - عليه الصلاة والسلام -: «طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً» [رواه ابن ماجة] بل «إن الرجل ليرفع درجته في الجنة فيقول: أنى هذا؟ فيقال: هذا باستغفار ولدك لك»

وقال ﷺ: «**من أحب أن تسره صحيفته، فليكثر من الاستغفار**» [رواه البيهقي].
 قال الحسن: «لا أظن أن الله يعذب رجلاً استغفر» ف قيل لماذا؟ قال: «كيف يلهمه الاستغفار ويريد به أذى؟» ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وقال ابن كثير: «من اتصف بصفة الاستغفار، يسر الله عليه رزقه وسهل عليه أمره، وحفظ عليه شأنه وقوته»
 وفي الحديث: بيان كثرة استغفار النبي ﷺ.
 وفيه: الحث على التأسي بنبينا محمد ﷺ في كثرة الاستغفار والافتداء به.

١٥- وعن أبي حمزة أنس بن مالك الأنصاري خادم رسول الله ﷺ، - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة» [متفق عليه].

وفي رواية لمسلم: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح».

* ذكر النبي ﷺ مثلاً تقريباً لعبد منقطع في أرض واسعة خالية من الماء والأشجار، ومعه راحلته التي يركب عليها، وعليها متاعه وطعامه وشرابه، فانفلتت منه، ففقد الأمل في رجوعها، وأيس منها ورجا ما عند الله، وجلس تحت ظل شجرة ينظر ما الله صانع به. وفي ذلك الكرب العظيم والشدة الكبيرة جاءت الناقة إليه، ففرح أشد الفرح، «فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك».

والله - عز وجل - يفرح بتوبة عبده لكرمه وجوده على عباده. وفرحه - جل وعلا - فرح يليق بجلاله وعظمته.

وفي الحديث: إثبات صفة الفرح لله - تعالى -، ولكنه ليس كفرح المخلوقين. بل فرح يليق بجلاله وعظمته كما هو منهج أهل السنة والجماعة.

وهذه الأحاديث كلها في فضل التوبة، وفضل الله على عباده بقبول التوبة، وأن وقتها ممتد طول العمر حتى يحضر الموت ويغرغر الإنسان، أو أن تطلع الشمس من مغربها وذلك من علامات الساعة.

وروي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧]

قال: قبل المرض والموت، وهذا إشارة إلى أن أفضل أوقات التوبة، هو أن يبادر الإنسان بالتوبة في صحته قبل نزول المرض به حتى يتمكن حينئذ من العمل الصالح. ولذلك قرن الله - تعالى - التوبة بالعمل الصالح في مواضع كثيرة من القرآن. مثل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٠] وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

وليست التوبة من المعاصي والذنوب فحسب كما يظن البعض، بل التوبة من التفريط في النوافل والمستحبات، ومن التفريط في الأوقات وإضاعة الأعمار.

وفضل الله واسع فهو الذي يوفق للتوبة، ثم يقبلها رحمة منه وفضلاً. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨].

قال شيخ الإسلام: «من تدبر أصول الشرع، علم أنه يتلطف بالناس في التوبة بكل طريق».

قال ابن عون: «لا تثق بكثرة العمل فإنك لا تدري أيقبل منك أم لا؟! ولا تأمن من ذنوبك، فإنك لا تدري أكفرت عنك أم لا؟! إن عملك مغيب عنك كله».

وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «التوبة النصوح أن يتوب من الذنب، ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن في الضرع».

وفي الحديث: سعة رحمة الله وتقبل المحسن، وقبول التوبة ومغفرته الذنوب. وأنه - جل وعلا - يفرح بعودة عباده إليه.

وفيه: الحث على التوبة والمبادرة إليها وعدم التسويف والتأخير.

١٦ - وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن الله - تعالى - يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها» [رواه مسلم].

* خلق الله الإنسان للطاعة والعبادة، وفتح له باب التوبة والإنابة، يستدرك العبد بها ذنوبه، ويمسح بها تقصيره، ويصلح بها زلاته.

فالتوبة واجبة على الدوام، لأن الإنسان لا يسلم من معصية، ولا يخلو من نقص، إنما الخلق يختلفون في المقادير، وقد أمر الله - عز وجل - بالتوبة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

وفي آيات كثيرة حث على التوبة والرجوع والأوبة، قال - جل وعلا -: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وهذا نبي الهدى والرحمة يقول في الحديث الشريف: «يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة» [رواه مسلم].

وقال ﷺ: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون» [رواه الترمذي]. وانظر إلى عظيم فضل الله - جل وعلا - على التائب العائد قال ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» [رواه ابن ماجه].

ولو لم يكن في ترك الذنوب والمعاصي، إلا إقامة المروءة وصون العرض وحفظ الجاه، وصيانة المال الذي جعله الله قواماً لمصالح الدنيا والآخرة، ومحبة الخلق، وجواز القول بينهم، وصلاح المعاش، وراحة البدن، وقوة القلب، وطيب النفس، ونعيم القلب، وانسراح الصدر، والأمن من مخاوف الفساق والفجار، وقلة الهم والغم والحزن، وعز النفس عن احتمال الذل، وصون نور القلب، أن تطفئه ظلمة المعصية، وحصول المخرج له مما ضاق على الفساق والفجار، وتيسير الرزق عليه من حيث لا يحتسب، وتيسير ما عسر

على أرباب الفسوق والمعاصي وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم والثناء الحسن في الناس، وكثرة الدعاء له، والحلاوة التي يكتسبها وجهه، والمهابة التي تلقى له في قلوب الناس، وانتصارهم وحميتهم له إذا أُوذي وظلم، وذبحهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله، وقرب الملائكة منه، وبعد شياطين الإنس والجن منه، وتنافس الناس على خدمته وقضاء حوائجه، وخطبتهم لمودته وصحبته، وعدم خوفه من الموت، بل يفرح به لقدمه على ربه، ولقائه له، ومصيره إليه، وصغر الدنيا في قلبه، وكبر الآخرة عنده، وحرصه على الملك الكبير، والفوز العظيم فيها، وذوق حلاوة الطاعة، ووَجْد حلاوة الإيمان، ودعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة له، وفرح الكاتبين به ودعائهم له في كل وقت، والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له وإقباله عليه، وفرحه بتوبته، فهذه بعض آثار ترك المعاصي في الدنيا.

أما في الآخرة، فإنه إذا مات تلقته الملائكة بالبشرى من ربه بالجنة، وبأنه لا خوف عليه ولا حزن، ويتنقل من سجن الدنيا وضيقها إلى روضة من رياض الجنة، ينعم فيها إلى يوم القيامة.

فإذا كان يوم القيامة كان الناس في الحر والعرق، وهو في ظل العرش، فإذا انصرفوا بين يدي الله أخذ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين. وفي هذا الحديث: رحمة الله - تبارك وتعالى - بخلقه بأن فتح باب التوبة لكل من ظلم نفسه باقتراف المعاصي والآثام، وهذا من كرم الله وإحسانه لعباده أنه يقبل التوبة وإن تأخرت، فإذا أذنب الإنسان ذنباً في النهار ثم تاب في الليل فإن الله - تبارك وتعالى - يقبل توبته، وإذا أذنب في الليل وتاب في النهار فإن الله - تبارك وتعالى - يقبل توبته.

وفي الحديث: إثبات اليد لله - عز وجل - على ما يليق بجلاله وعظمته.

- ١٧- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ» [رواه مسلم].
- ١٨- وَعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رضي الله عنهما - عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرَغِرْ» [رواه الترمذي وقال: حديث حسن].

* من رحمة الله بعباده في كل وقت وزمان أن فتح لهم باب التوبة ويسره، وربنا - عز وجل - رؤوف رحيم، تواب كريم، يقبل توبة عبده ويفيض عليه من لطفه وإحسانه.

وذكر ﷺ في هذا الحديث أن التوبة تصح ما لم تبلغ الروح الحلقوم وهي حالة النزاع، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب. وتقبل التوبة قبل حضور الموت، لأن الرجاء باق، ويصح الندم والعزم على ترك الفعل. وتنقطع عند حضور الموت وغرغرة الروح، وكذلك عند طلوع الشمس من مغربها.

فإن الله - عز وجل - فتح باب التوبة لعباده، وأثنى على التائبين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

وقد تاب الله على الأنبياء في آيات عدة منها، قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وفي قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

والتوبة: هي الرجوع والإنابة إلى رب العالمين - سبحانه -، والتضرع بين يديه، والاعتراف بالذنوب.

قال الراغب: «التوبة في الشرع ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كملت شرائط التوبة».

وقال ابن عباس: «التوبة النصوح، هي توثيق بالعزم على أن لا يعود لمثله، والإقلاع بالبدن، والإضمار على أن لا يعود».

وفي الحديث: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون» [رواه الترمذي].
قال ابن القيم: «إذا تاب العبد توبة نصوحاً صادقة خالصة أحرقت ما كان قبلها من السيئات، وأعادت عليه ثواب حسناته ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾» [النساء: ١٧].

قال أبو العالية: «سألت أصحاب محمد عن هذه الآية، فقالوا لي: كل من عصى الله فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب».
قال شيخ الإسلام: «الذي يضر صاحبه هو ما لم يحصل منه توبة، فأما ما حصل منه توبة فقد يكون صاحبه بعد التوبة أفضل منه قبل الخطيئة».
وعن طلق بن حبيب قال: «إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد، وإن نعم الله أكثر من أن تحصي، ولكن أصبحوا تائبين، وأمسوا تائبين».
وانظر إلى قول الحسن ولعل لنا نصيب منه: «يا ابن آدم ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة».

وفي الحديث: أن التوبة تقبل ما لم يغرغر الإنسان وقبل أن تطلع الشمس من مغربها.

وفيه: فضل الله بقبول توبة عباده.

١٩- وَعَنْ زُرِّ بْنِ حُبَيْشٍ قَالَ: أَتَيْتُ صَفْوَانَ بْنَ عَسَّالٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَسْأَلُهُ عَنِ الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَيْنِ فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكَ يَا زُرُّ؟ فَقُلْتُ: ابْتِغَاءُ الْعِلْمِ، فَقَالَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَضَعُ أَجْنَحَتَهَا لَطَالِبِ الْعِلْمِ رِضَاءً بِمَا يَطْلُبُ، فَقُلْتُ: إِنَّهُ قَدْ حَكَ فِي صَدْرِي الْمَسْحُ عَلَى الْخُفَيْنِ بَعْدَ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ، وَكُنْتُ امْرَأً مِّنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَجِئْتُ أَسْأَلُكَ: هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ فِي ذَلِكَ شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ كَانَ يَأْمُرُنَا إِذَا كُنَّا سَفَرًا أَوْ مُسَافِرِينَ أَنْ لَا نَنْزِعَ خِفَافَنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَلِيَالِيَهُنَّ إِلَّا مِنْ جَنَابَةٍ، لَكِنْ مِنْ غَائِطٍ وَبَوْلٍ وَنَوْمٍ. فَقُلْتُ: هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ فِي الْهَوَى شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَبَيْنَا نَحْنُ عِنْدَهُ إِذْ نَادَاهُ أَعْرَابِي بِصَوْتٍ لَهُ جَهْورِيٌّ: يَا مُحَمَّدُ، فَأَجَابَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَحْوًا مِنْ صَوْتِهِ: هَاؤُمْ فَقُلْتُ لَهُ: وَيْحَكَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ فَإِنَّكَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ نَهَيْتَ عَنْ هَذَا، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَغْضُضُ: قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: الْمَرْءُ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فَمَا زَالَ يُحَدِّثُنَا حَتَّى ذَكَرَ بَابًا مِنَ الْمَغْرِبِ مَسِيرَةً عَرْضِهِ أَوْ يَسِيرَ الرَّكَّابِ فِي عَرْضِهِ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ عَامًا. قَالَ سُفْيَانُ أَحَدُ الرُّوَاةِ: قَبْلَ الشَّامِ خَلَقَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مَفْتُوحًا لِلتَّوْبَةِ لَا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ [رواه الترمذي وغيره وقال: حديث حسن صحيح].

* هذا حديث عظيم القدر، وفيه الحث على طلب العلم الشرعي، وتيسير الله - عز وجل - لمن حُسِنَتْ نيته وصدق قصده.

وفيه: جواز المسح على الخفين للمقيم يوم وليلة، وللمسافر ثلاثة أيام بلياليها.

وفي الحديث: وجوب حسن مخاطبة أهل العلم والتأدب حين السؤال، وخفض الصوت في مجالس العلم. وفيه، الاقتداء بالنبي ﷺ في حلمه وحسن خلقه، ومخاطبته الناس على قدر علمهم وعقولهم.

وذكر ﷺ في الحديث أن «**المرء مع من أحب يوم القيامة**»، وفيه الحرص على مجالسة الأخيار والصالحين ليلحق بهم، وهذا من فضل الله ورحمته. قال ابن بطال: «فدل هذا على أن من أحب عبداً في الله، فإن الله جامع بينه وبينه في جنته، ومُدخله مُدخله، وإن قصر عن عمله».

والمحبة المقصودة في الحديث نوعان:

النوع الأول: المحبة الدينية. أي، المحبة لأجل الدين والمعتقد، فمن أحب الصالحين لصلاحهم، وأحب ما هم عليه من التقوى والدين، رجي أن يجمعه الله بهم في جنته، ومن أحب الكفار لكفرهم ومعتقدهم، ووالاهم على ما هم فيه، كان ذلك أيضاً سبباً لدخول النار معهم.

قال ابن بطال: «بيان هذا المعنى أنه لما كان المحب للصالحين إنما أحبهم من أجل طاعتهم لله، وكانت المحبة عملاً من أعمال القلوب واعتقاداً لها، أثاب الله مُعتقد ذلك ثواب الصالحين، إذ النية هي الأصل، والعمل تابع لها، والله يؤتي فضله من يشاء».

النوع الثاني: المحبة الموجبة لتشابه الأعمال والإخلاص، فمن أحب أحد العلماء الصالحين وتشبه بما هو عليه من الصلاح والتقوى دخل الجنة بذلك، ومن أحب الفاسقين أو الكافرين وأدت به محبته إلى التشبه بأحوالهم ومعاصيهم كان معهم في العقاب أيضاً».

قال السخاوي: «قال بعض العلماء: ومعنى الحديث أنه إذا أحبَّهم عمل بمثل أعمالهم».

وقال الحسن: «يا ابن آدم لا يغرك قول من يقول: **«المرء مع من أحب»** فإنك لن تلحق الأبرار إلا بأعمالهم، فإن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم. وهذه إشارة إلى أن مجرد ذلك من غير موافقة في بعض الأعمال أو كلها لا ينفع».

وقال - رحمه الله تعالى -: «من أحب قومًا اتبع آثارهم، واعلم أنك لن تلحق بالأخيار حتى تتبع آثارهم. فتأخذ بهديهم، وتقتدي بستمهم، وتصبح وتمسي على منهجهم حرصًا أن تكون منهم».

وقال ابن تيمية: «وهذا الحديث حق، فإن كون المحب مع المحبوب أمر فطري لا يكون غير ذلك، وكونه معه هو على محبته إياه، فإن كانت المحبة متوسطة أو قريبًا من ذلك كان معه بحسب ذلك، وإن كانت المحبة كاملة كان معه كذلك، والمحبة الكاملة تجب معها الموافقة للمحبوب في محابه إذا كان المحب قادرًا عليها، فحيث تخلفت الموافقة مع القدرة، يكون قد نقص من المحبة بقدر ذلك، وإن كانت موجودة، وحب الشيء وإرادته يستلزم بغض ضده وكرهته مع العلم بالتضاد»..

وذكر في نهاية الحديث: أن باب التوبة مفتوح حتى تطلع الشمس من مغربها.

٢٠- وعن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري - رضي الله عنه - أن نبي الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب، فاتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال: لا فقتله فكمّل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله - تعالى - فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله - تعالى -، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فاتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم أي حكماً فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة» [متفق عليه].

وفي رواية في الصحيح: «فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر، فجعل من أهلها» وفي رواية في الصحيح: «فأوحى الله - تعالى - إلى هذه أن تباعدى، وإلى هذه أن تقرّبي وقال: قيسوا ما بينهما، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له». وفي رواية: «فناى بصدّره نحوها».

* في هذا الحديث: بيان فضل العلم على العبادة، بل العلم قبل العمل، كما قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

وفيه: مشروعية البعد عن دار العصيان ومقاطعة قرناء السوء، والحرص على أهل الخير والصلاح وبيان ذلك بضرب الأمثال.

وفيه: أن الذنوب وإن عظمت، فعفو الله أعظم منها، وأن من صدق في توبته تاب الله عليه، ولو لم يعمل خيراً إذا عزم على فعله.

وفيه: تنبيه على عدم الفتوى بغير علم، فإن المفتي الجاهل يهلك نفسه وغيره.

وفيه: التحذير من قتل النفس لأنه تتعلق به ثلاثة حقوق:
 الحق الأول: لله، والثاني: للمقتول، والثالث: لأولياء المقتول.
 وفيه: الحض على التوبة، ودعوة الناس إليها، وتيسيرها لهم، والدعاء لهم
 والترفق بهم والتلطف معهم، لعل الله أن يهديهم ويشرح صدورهم.
 قال ابن تيمية: «التوبة حسنة، وهي من أحب الحسنات إلى الله».
 والله يفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه أشد ما يمكن أن يكون من الفرح.
 وللتوبة شروط لا بد منها، ذكرها العلماء، وهي:
 الأول: أن تكون التوبة خالصة لوجهه - تعالى - لا رياءً ولا سمعة، وليست
 لأجل الدنيا، لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له - سبحانه -..
 الثاني: الإقلاع عن المعصية.

الثالث: الندم على ما مضى وفات، بحيث يكون الإنسان كلما تذكر ما
 حصل منه من الذنوب احترق قلبه ندماً وألماً على ما فرط في حق الله -
 تبارك وتعالى -، وفي الحديث «الندم توبة» [رواه ابن ماجه].

الرابع: العزم على عدم العودة إليها.
 الخامس: رد المظلمة إلى أهلها إن كانت دماً أو مالاً أو عرضاً، هذا إذا
 كانت متعلقة بحق آدمي.

السادس: أن تكون قبل بلوغ الروح للحلقوم، أو قبل طلوع الشمس من
 مغربها.

قال ابن تيمية: «كل من حدثته نفسه بذنب فكرهه، ونفاه عن نفسه وتركه لله،
 ازداد برّاً وصلاًحاً وتقوى».

وفي الحديث: أن باب التوبة مفتوح.
 وفيه: فضل العلم على العبادة، وأن العلم قبل العمل.

٢١- وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبٍ بْنِ مَالِكٍ، وَكَانَ قَائِدَ كَعْبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مِنْ بَنِيهِ حِينَ عَمِيَ، قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يُحَدِّثُ بِحَدِيثِهِ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ. قَالَ كَعْبٌ: لَمْ أَتَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِي غَزْوَةِ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي قَدْ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَلَمْ يُعَاتَبْ أَحَدٌ تَخَلَّفَ عَنْهُ، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيرَ فُرَيْشَ حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ - تَعَالَى - بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ. وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقِيَّةِ حِينَ تَوَاقَفْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا وَكَانَ مِنْ خَبْرِي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، وَاللَّهُ مَا جَمَعْتُ قَبْلُهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَى بِغَيْرِهَا حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ، فَغَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا. وَاسْتَقْبَلَ عَدَدًا كَثِيرًا، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أَهْبَةَ غَزْوَتِهِمْ فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِمُ الَّذِي يُرِيدُ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ كَثِيرٌ وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ يُرِيدُ بِذَلِكَ الدِّيَّانَ قَالَ كَعْبٌ: فَقُلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ سَيُخْفِي بِهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ، وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثَّمَارُ وَالظَّلَالُ، فَأَنَا إِلَيْهَا أَصْعُرُ، فَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَطَفَقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، وَأَقُولُ فِي نَفْسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ إِذَا أَرَدْتُ، فَلَمْ يَزَلْ يَتِمَادَى بِي حَتَّى اسْتَمَرَّ بِالنَّاسِ الْجُدُّ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَادِيًا وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازِي شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ فَارْجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ يَتِمَادَى بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأَدْرَكَهُمْ، فَيَا لَيْتَنِي فَعَلْتُ، ثُمَّ لَمْ يَقْدَرْ ذَلِكَ لِي، فَطَفِقْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُحْزِنُنِي أَنِّي لَا أَرَى لِي أَسْوَةً، إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ فِي الْفَنَاقِ، أَوْ

رَجُلًا مَمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ - تَعَالَى - مِنَ الضُّعَفَاءِ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ تَبُوكَ: «مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ؟» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ حَبَسَهُ بُرْدَاهُ، وَالنَّظَرُ فِي عَطْفِيهِ. فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بئس ما قُلْتَ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ رَأَى رَجُلًا مُبِيضًا يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ»، فَإِذَا هُوَ أَبُو خَيْثَمَةَ الْأَنْصَارِيُّ وَهُوَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِينَ لَمَزَهُ الْمَنَافِقُونَ قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا مِنْ تَبُوكَ حَضَرَنِي بَنِي، فَطَفَقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ: بِمَ أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاخَ عَنِّي الْبَاطِلُ حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي لَمْ أَنْجِ مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا فَأَجْمَعْتُ صَدَقَةً، وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخْلَفُونَ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَخْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بَضْعًا وَثَمَانِينَ رَجُلًا فَقَبِلَ مِنْهُمْ عِلَانِيَتَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى - حَتَّى جِئْتُ، فَلَمَّا سَلِمْتُ تَبَسَّمَ تَبَسُّمُ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ: «تَعَالَى»، فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: «مَا خَلَفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتِغَيْتَ ظَهْرَكَ؟»، قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بَعْدَ، لَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذَبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لِيُوشِكَنَّ اللَّهُ يُسَخِّطَكَ عَلَيَّ، وَإِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صَدَقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عِقْبَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أُيَسِّرُ مَنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ» وَسَارَ رَجُلًا مِنْ بَنِي سَلَمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، لَقَدْ عَجَزْتَ فِي أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُخْلَفُونَ فَقَدْ كَانَ كَافِيكَ

ذُنْبِكَ اسْتَغْفَرُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَكَ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤْنِبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَكْذِبُ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِيَ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ، وَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ، قَالَ قُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمَرِيُّ، وَهِلَالُ ابْنِ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ؟ قَالَ: فَذَكِّرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بِدِرَائِهِمَا أَسْوَةً. قَالَ: فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي.

وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَلَامِنَا إِلَيْهَا الثَّلَاثَةَ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، قَالَ: فَاجْتَنَبْنَا النَّاسَ أَوْ قَالَ: تَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرْتُ لِي فِي نَفْسِي الْأَرْضُ، فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي أَعْرَفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً. فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَنَّا وَقَعْدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرَجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَاتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَسْلَمَ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَكْتُ شَفِيتِي بِرَدِّ السَّلَامِ أَمْ لَا؟ ثُمَّ أَصْلِي قَرِيبًا مِنْهُ وَأَسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ، وَإِذَا التَفْتُ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ الْمُسْلِمِينَ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدْكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أَحَبُّ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ﷺ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبْطِيٌّ مِنْ نَبْطِ أَهْلِ الشَّامِ مَمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يَشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ حَتَّى جَاءَنِي فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانٍ، وَكُنْتُ كَاتِبًا. فَفَرَأْتُهُ إِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بَدَارَ هَوَانٍ وَلَا مَضِيعَةً، فَالْحَقْ بِنَا نَوَاسِكَ، فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتُهَا: وَهَذِهِ أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ فَتَيَّمَمْتُ بِهَا التَّنَوُّرَ فَسَجَرْتُهَا.

حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ مِنَ الْخَمْسِينَ وَاسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزَلَ امْرَأَتَكَ، فَقُلْتُ: أُطْلِقُهَا، أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لَا بَلْ اعْتَزِلْهَا فَلَا تَقْرِبَنَّهَا، وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبِي بِمِثْلِ ذَلِكَ. فَقُلْتُ لَامْرَأَتِي: الْحَقِّي بِأَهْلِكَ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَجَاءَتْ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هِلَالَ بْنِ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: «لَا، وَلَكِنْ لَا يَقْرِبَنَّكَ». فَقَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ مِنْ حَرَكَةٍ إِلَى شَيْءٍ، وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا. فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ، فَقَدْ أَذِنَ لَامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ؟ فَقُلْتُ: لَا اسْتَأْذَنُ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَمَا يُدْرِينِي مَاذَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ فَلَبِثْتُ بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ، فَكَمُلَ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نُهِيَ عَنْ كَلَامِنَا. ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ - تَعَالَى - مِنَّا، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى سَلْعٍ يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ أَبْشِرْ، فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ فَاذْنِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ بِتَوْبَةِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، فَذَهَبَ قَبْلَ صَاحِبِي مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَسًا وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِي وَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبِي فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ وَاللَّهُ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا وَانْطَلَقْتُ أَتَاَمُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّئُونَنِي بِالتَّوْبَةِ وَيَقُولُونَ لِي: لَتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ

عَلَيْكَ، حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدٍ اللَّهُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَهْرُولُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَانِي، وَاللَّهُ مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ، فَكَانَ كَعَبٍّ لَا يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ. قَالَ كَعَبٌّ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ «أَبَشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ، مُذْ وَلَدْتُكَ أُمُّكَ»، فَقُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -»، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلَعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرُ لَكَ»، فَقُلْتُ إِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرٍ. وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ - تَعَالَى - إِنَّمَا أَنْجَانِي بِالصَّدَقِ، وَإِنْ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحْدِثَ إِلَّا صَدَقًا مَا بَقِيْتُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ - تَعَالَى - فِي صَدَقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي اللَّهُ - تَعَالَى -، وَاللَّهُ مَا تَعَمَّدَتْ كَذِبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ - تَعَالَى - فِيمَا بَقِيَ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿إِنَّهُمْ بِهِمْ رِءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ١١٧ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴿حَتَّى بَلَغَ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ١١٨﴾ [التوبة: ١١٧-١١٩].

قَالَ كَعَبٌّ: وَاللَّهُ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ إِذْ هَدَانِي اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ، فَأَهْلَكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا إِنْ اللَّهُ - تَعَالَى - قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرًّا مَا قَالَ

لأحد، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ^ط فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ جزاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ تَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة ٩٥-٩٦].

قال كَعْبٌ: كُنَّا خُلَفَا أَيْهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ، فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ - تَعَالَى - فِيهِ بِذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾. وليسَ الَّذِي ذَكَرَ مِمَّا خُلِفْنَا تَخَلُّفْنَا عَنِ الْغَزْوِ، وَإِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ. [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

وفي رواية أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يَخْرُجَ يَوْمَ الْخَمِيسِ .

وفي رواية: وَكَانَ لَا يَقْدُمُ مِنْ سَفَرٍ إِلَّا نَهَارًا فِي الضُّحَى. فَإِذَا قَدِمَ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَصَلَّى فِيهِ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ فِيهِ.

✽ في الحديث فوائد كثيرة متنوعة منها: فضيلة الصدق، والحكم بالظاهر، وأن القوي في الدين يواخذ بأشد مما يواخذ ضعيف الدين.

وفيه: جواز هجران المذنب أكثر من ثلاث إذا ظهرت فائدته، ولم يترتب عليه مفسدة، واستحباب الصدقة عند التوبة، وجواز التحديث بنعمة الله إذا لم يكن على سبيل الفخر والترفع والرياء، واستحباب سجود الشكر عند تجدد نعمة أو اندفاع نقمة، واستحباب المصافحة عند التلاقي.

وفيه: أن الله - سبحانه وتعالى - قد يمنُّ على العبد فيعصمه من المعصية إذا علم من قلبه حُسن النية.

وفيه: الحذر من أهل الشر الذين يتحينون الفرص ويسعون للنيل من المسلمين بكل طريق.

وفيه: استحباب بشارة المسلم وإدخال السرور عليه.

وفيه: من السنن صلاة ركعتين في المسجد إذا قدم بلده.

٢٢- وَعَنْ أَبِي نُجَيْدٍ -بِضَمِّ النُّونِ وَفَتْحِ الْجِيمِ- عُمَرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ الْخَزَاعِيُّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ حُبْلَى مِنَ الزَّانَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ، فَدَعَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ وَلَيْهَا فَقَالَ: «أَحْسِنِ إِلَيْهَا»، فَإِذَا وَضَعْتَ فَأَتْنِي فَفَعَلَ فَأَمَرَ بِهَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ، فَشَدَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ زَنْتَ، قَالَ: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قَسَمْتُ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوْسَعَتْهُمْ وَهَلْ وَجَدْتَ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-؟»، [رواه مسلم].

* هذا الحديث يذكر قصة المرأة الغامدية التي زنت على عهد الرسول ﷺ، ثم تابت توبة عظيمة، شهد لها النبي ﷺ بذلك. وفي الحديث بيان عظم التوبة وأنها تجبُ الذنب وإن عَظُم. وأن الحد يكفر الذنب، وأنه يُصَلَّى على المرجوم. وفي الحديث تظهر رحمته ﷺ وشفقته بأمته. بل هو ﷺ رحمة حتى للكافر. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

والله -عز وجل- يحب التوبة، ويقبل التوابين، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ أَنَّهُ اللَّهُ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَّجِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وهو -تعالى- الرحيم بعباده، حيث فتح لهم باب التوبة والعودة، ووعدهم بالمغفرة والرحمة، وأجزل لهم العطاء، قال تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

قال ابن عثيمين: «إذا قال قائل: هل الأفضل للإنسان إذا زنى أن يذهب إلى القاضي ليقر عنده فيقام عليه الحد، أو الأفضل أن يستر نفسه؟ فيه تفصيل: قد يكون الإنسان تاب توبة نصوحاً، وندم وعرف من نفسه أنه لن يعود، فهذا

الأفضل أن لا يذهب ولا يخبر عن نفسه بل يجعل الأمر سرّاً بينه وبين الله ومن تاب تاب الله عليه. وأما من خاف أن لا تكون توبته نصوحاً وخاف أن يعود ويرجع إلى الذنب مرة أخرى، فهذا الأفضل في حقه أن يذهب إلى ولي الأمر - القاضي أو غيره - ليقر عنده فيقام عليه الحد».

وفي قوله ﷺ «أحسن إليها».

قال النووي: «هذا الإحسان له سببان:

أحدهما: الخوف من أقاربها أن تحملهم الغيرة ولحوق العار بهم أن يؤذوها، فأوصى بالإحسان تحذيراً لهم من ذلك.

الثاني: أمر به رحمة بها إذ تابت، وحرص على الإحسان لما في النفوس من النفرة من مثلها، وإسماعها الكلام المؤذي، ونحو ذلك، فنهى عن هذا كله».

قال الحسن - رحمه الله -: «إن المؤمن قوّام على نفسه يحاسب نفسه الله - عز وجل - وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات، هيهات، حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا، مالي ولهذا! والله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله، إن المؤمنين قومٌ أوثقهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يلتقى الله - عز وجل - يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره ولسانه وجوارحه».

قال ابن تيمية: «إن العبد إنما يعود إلى الذنب لبقايا في نفسه، فمن خرج من قلبه الشبهة والشهوة لم يعد إلى الذنب».

وفي الحديث: ذكر توبة المرأة التي أقيم عليها الحد.

وفيه: رحمة النبي ﷺ وصلاته عليها.

وفيه: الإحسان إليها وعدم التعرض لها إلا ما قرر شرعاً.

٢٣- وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَنْسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ لَابْنَ آدَمَ وَادِيًّا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ» [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

* ذكر النبي ﷺ حال الإنسان في هذه الدنيا ولهفه وجمعه لحطامها، فهو يحرص على ماله يجمعه ويكد ويتعب في ذلك، ويضيع أثمن ما فيها وهو وقته وعمره.

قال الشنقيطي - رحمه الله -: «تفاوت الناس في الأرزاق والحظوظ سنة من سنن الله السماوية الكونية القدرية، لا يستطيع أحد من أهل الأرض ألبة تبديلها ولا تحويلها بوجه من الوجوه. فالمؤمن يقنع بما قسم الله له فيما يتعلق بأمور الدنيا، لكنه يحرص دائماً على الزيادة من الأعمال الصالحة التي تكون سبباً لدخوله الجنة بعد رحمة الله - تعالى -».

وفي الحديث قوله ﷺ: «لَوْ أَنَّ لَابْنَ آدَمَ وَادِيًّا مِنْ ذَهَبٍ» أي، من شدة حرص ابن آدم أنه لو أعطي وادياً مملوءاً من الذهب، والوادي: هو كل منفرج بين جبال أو آكام، وهو مجرى السيل.

«أَحَبُّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ» أي، لأحب من حرصه الذي هو من طبعه أن يكون له واديان من ذهب، ولا يكتفي بالوادي الأول.

«وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ» أي، أنه لا يزال حريصاً على الدنيا حتى يموت ويمتلئ جوفه من تراب قبره.

«وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ» أي، أنه - جل وعلا - يقبل التوبة من الحرص المذموم والتكالب على الدنيا.

وقد جاء في الحديث: «طوبى لمن هدى للإسلام، وكان عيشه كفافاً وقنع»

[رواه الترمذي].

«وكان عيشه كفافاً» أي، لا ينقص عن حاجته، ولا يزيد على كفايته فيبطر ويطنغي.

«وقنع» أي، رضي بالقسم، ولم تطمع نفسه لزيادة عليه.
قال أبو سليمان الداراني: «إن قوماً طلبوا الغنى فحسبوا أنه في جمع المال، ألا وإنما الغنى في القناعة».
«ولا يملأ فاه إلا التراب» أي، أنه لا يزال حريصاً على الدنيا يموت، ويمتلئ جوفه من تراب قبره.

وفيه ذم الحرص على الدنيا وحب المكاثرة بها والرغبة فيها.
قيل: لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - : يا أمير المؤمنين صف لنا الدنيا؟
قال: «وما أصف لكم من دار: من صَحَّ فيها أمن، ومن سقم فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها فتن، في حلالها حساب، وفي حرامها النار».
وقال ابن الجوزي: «من قنع طاب عيشه، ومن طمع طال طيشه».
وقال يحيى بن معاذ: «لست أمركم بترك الدنيا، أمركم بترك الذنوب: ترك الدنيا فضيلة، وترك الذنوب فريضة، وأنتم إلى إقامة الفريضة أحوج منكم إلى الحسنات والفضائل».

وفي الحديث: بيان وجوب التوبة، وأن من تاب تاب الله عليه مهما عظم ذنبه، وبيان شدة حرص الإنسان على جمع المال وغيره من متع الدنيا، والحرص الشديد مذموم إذا كان فيه تضييع للطاعة وانشغال القلب بالدنيا أكثر من الآخرة.

٢٤- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُضْحَكُ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ يَدْخُلَانِ الْجَنَّةَ، يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْقَاتِلِ فَيُسَلِّمُ فَيَسْتَشْهَدُ» [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

* من الضرورات الخمس التي أجمعت عليها أمم الأرض منذ أن خلق الله آدم إلى أن تقوم الساعة حفظ الأنفس وعدم الاعتداء عليها. وقد جمع النبي ﷺ في هذا الحديث بين حرمة القتل، وبين فتح باب التوبة وأنها سبب في تكفير الذنوب، وإقالة العثرات ومغفرة الزلات. وفي الحديث: «يضحك الله - سبحانه وتعالى - إلى الرجلين»، لأنه كان بينهما من العداوة في الدنيا، حتى أن أحدهما قتل الآخر ومع ذلك يدخلان الجنة، وفيه إشارة إلى عدم اليأس من رحمة الله - تعالى -، وأن الأول دخل الجنة وهو يقاتل في سبيل الله، ثم يتوب الله على قاتله الكافر فيسلم ويستشهد. وفي الحديث: إثبات الضحك لله - عز وجل - على المعنى الذي يليق به - عز وجل - والذي لا يشبهه ضحك المخلوقين. والضحك صفة من صفات الله الفعلية الخبرية الثابتة بالأحاديث الصحيحة، وأهل السنة والجماعة يثبتون هذه الصفة وغيرها من صفات الله - عز وجل - من غير تمثيل ولا تكييف ويسلمون بذلك.

وهذا الحديث يدل على تنوع كرم الكريم، وأن كرمه وفضله متنوع من وجوه لا تعد ولا تحصى، ولا يدخل في عقول الخلق وخواطرهم. فهذان الرجلان اللذان قتل أحدهما الآخر قيص الله لكل منهما من فضله وكرمه سبباً أوصله إلى الجنة.

وقد جعل الله - تعالى الجنة دار المتقين، لمن رضي عنهم ورضوا عنه، لا يمسه فيها نصب وما هم منها بمخرجين، لهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ

﴿الحجر: ٤٧﴾.

وفي هذا الحديث المقتول وقاتله قد يجتمعان في الجنة، فقد شفيت نفس المقتول، وطيب الله خاطره، فالشهيد المقتول بيد قاتل مشرك قد يلتقيان ويتحابان فيها. فقد سره أن قاتله أسلم بعد في الدنيا، وجاهد في سبيل الله واستشهد في ذلك، لأن الإسلام يهدم ما قبله، فأفاض الله عليهما ما تقربه أعينهما من منازل الجنة ونعيمها، فيلتقيان ويتحابان في دار الكرامة فيضحك الله من ذلك.

قال ابن حجر: «ولكن لا مانع أن يكون القاتل الأول مسلماً لعموم قوله **«ثم يتوب الله على القاتل»** كما لو قتل مسلم مسلماً عمداً، بلا شبهة، ثم تاب القاتل، واستشهد في سبيل الله وإنما يمنع من دخول مثل هذا من يذهب إلى أن قاتل المسلم عمداً لا تقبل له توبة».

ويؤخذ من الحديث فضيلة الشهادة في سبيل الله، وأنها تكفر الذنوب ولو كان منها قتل المؤمن، والدفاع عن الكفر والباطل. وأن المقتول قد ينزع من صدره الغل من قاتله، ويجتمع مع قاتله في الجنة في النعيم المقيم. وفيه: أن باب التوبة مفتوح لمن ترك الذنوب وعدم مواقععتها فإن الله جواد كريم بر رحيم.

٣. باب الصبر

* أورد المؤلف - رحمه الله تعالى - باب الصبر، والآيات في الأمر بالصبر وبيان فضله كثيرة معروفة.

ومعنى الصبر في اللغة: الحبس.

والمراد به في الشرع: حبس النفس على أمور ثلاثة:

الأول: الصبر على طاعة الله، فإن في الطاعة نوع مشقة وقد تكون ثقيلة على الإنسان، كالصلاة والجهد والحج وغيرها.

الثاني: الصبر عن محارم الله، بحيث يكف الإنسان نفسه عما حرم الله عليه.

الثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة، فقد يُبتلى في نفسه من أمراض، أو فقد مال أو قريب.

والصبر على الطاعة أفضل الأنواع الثلاثة، لأن فعل الطاعة أكد من ترك المعصية، والصبر على الطاعة وعن المعصية أكمل من الصبر على الأقدار، فإن الصبر فيها اختيار وإيثار ومحبة، أما الصبر على الأقدار فإنه أمر جرى بغير اختيار العبد ولا كسب له فيه، فليس له فيها حيلة غير الصبر.

وتجتمع الثلاثة كلها في الصوم، لأنه صبر على طاعة الله، وصبر عن معاصي الله لأن العبد يترك شهوته ونفسه قد تنازعه إليها، وصبر على الأقدار المؤلمة بما قد يحصل للصائم من الجوع والعطش.

وقد وفى الله - عز وجل - للصابرين أجورهم في قوله تعالى: ﴿بَغَيْرِ حِسَابٍ﴾

وذلك لأن الأعمال الصالحة مضاعفة، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وفي ذلك دلالة على فضل الصبر والحث عليه.

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠].
 أي: اصبروا على مشاق الطاعات وما يصيبكم من شدائد.
﴿وَصَابِرُوا﴾ أي، غالبوا أعداء الله بالصبر على أهوال القتال وشدائد الحروب، واستمروا على ذلك على الدوام.

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] أي، ولنختبرنكم بشيء يسير من ألوان البلاء، مثل خوف الأعداء، ومن الجوع، وبنقص من الأموال بتعسر الحصول عليها أو ذهابها، إما بجوائح سماوية، أو غرق وضياع، أو أخذ الظلمة للأموال، أو غير ذلك، ومن الأنفس: بالموت أو الشهادة في سبيل الله، وبنقص من ثمرات النخيل والأعناب والحبوب بقلة ناتجها أو فسادها، وموت بعض الأحباب، ونوع الابتلاء يسير لأنه لو ابتلاههم بالخوف كله أو الجوع لهلكوا، والمحن تمحص لا تهلك. وتنكير (شيء) للتقليل، أي بشيء قليل من هذه الأمور.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. أي،
 إنما يعطى الصابرون جزاءهم بغير حصر، ودون عدد أو وزن، وفي الآية الأمر بالتحلي بمكارم الأخلاق والأمثال الحميدة، من صبر على الأذى، وعدم الانتصار للنفس ابتغاء مرضاة الله.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنَ عَظَمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].
 أي: ولمن صبر على ما يناله من الأذى، وغفر لمن ظلمه، وترك الانتصار لوجه الله - تعالى -، فإن ذل الصبر والتجاوز من الأمور الحميدة التي أمر الله بها وحث وأكد عليها، اهتماماً به وترغيباً فيها. وللإشارة إلى أنه محمود العاقبة لا يوفق إليه إلا أولو العزم والهمم، وذو الألباب والبصائر، فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل من أشق شيء عليها. والصفح عنه ومغفرته، ومقابله

بالإحسان أشق وأشق، ولكنه يسير على من يسره الله عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك، إذا ذاق العبد حلاوته ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر وسعة الخلق، والتلذذ فيه.

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]. أي: استعينوا على أمور دنياكم وآخرتكم بالصبر على النوائب والمصائب، وترك المعاصي والذنوب، والصبر على الطاعات والقربات. وحافظوا على الصلاة التي تطمئن بها النفس وتنهى عن الفحشاء والمنكر، فبالصبر تنالون كل فضيلة، وبالصلاة تنتهون عن كل رذيلة.

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [محمد: ٣١]. أي: ولنختبرنكم أيها الناس بالجهاد وغيره من التكاليف الشاقة، حتى نعلم - علم ظهور - المجاهدين في سبيل الله، والصابرين على مشاق الجهاد.

٢٥ - وعن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شرط الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك. كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها» [رواه مسلم].

* لا يزال المؤلف - رحمه الله تعالى - يورد الأحاديث في باب: الصبر. جاء في الحديث: «الطهور شرط الإيمان» أي: نصفه، لأن خصال الإيمان قسمان: ظاهرة، وباطنة، فالطهور من الخصال الظاهرة، والتوحيد من الخصال الباطنة.

وفُسر الطهور: بترك الشرك والذنوب والمعاصي والتخلي عنها، وفُسر بالوضوء للصلاة.

وقد ابتدأ النبي ﷺ وصيته بالطهور، وهو شرط الصلاة، ومفتاح من مفاتيح أبواب الجنان، ويشمل تطهير الثياب والبدن والمكان. ثم انتقل الحديث إلى الترغيب في ذكر الله - عز وجل - وبين عظيم الأجر المترتب على هذه الكلمات الطيبات.

وفي قوله: «والحمد لله تملأ الميزان» لما اشتملت عليه من التنزيه لله - تعالى - وتوحيده، والافتقار إليه، والميزان هو ميزان الأعمال.

«وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض» وفيه فضل التحميد والتسبيح، وهو تنزيه الله - عز وجل - عن كل نقص وعيب في أسمائه وصفاته، والتحميد وصفه بكل كمال. وما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام.

والسر في قوله: **«سبحان الله والحمد لله تملآن الميزان»** لما اشتملت عليه من الثناء على الله - سبحانه وتعالى - والتبجيل له، وما اجتمع فيهما من التنزيه للذات الإلهية، والثناء عليها، وما يقتضيه ذلك من الافتقار إلى الله. لذلك يستحب للعبد إذا دعا أن يقدم بين يديه الثناء الجميل، مما يكون أدعى لقبول دعائه.

قال ابن القيم عن الحمد: «إن الحمد وصف الرب بصفات الكمال ونعوت الجلال مع الحب والتعظيم له».

والتسبيح والتحميد من أفضل الذكر، في الحديث **«من قال حين يصبح وحين يمسي: سبحان الله وبحمده مائة مرة، لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به، إلا أحد قال مثلما قال أو زاد عليه»** [رواه مسلم].

«والصلاة نور» لصاحبها تضيء الطريق إلى الحق في الدنيا، وعليها الصراط في القيامة. وهي النور في القلب، والنور في الوجه، ونور الهداية.

«والصدقة برهان» أي، دليل واضح على صحة الإيمان، لأن النفوس تشح بالمال وتبخل، ونفعها متعد إلى المحتاجين.

«والصبر ضياء» ونور، يحصل فيه نوع حرارة، لأنه لا يحصل إلا بمكابدة ومجاهدة النفس. والصبر أنواع، صبر على طاعة الله وهو أعلاها مرتبة، وصبر عن محارم الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

ثم ينتقل الحديث إلى القرآن العظيم، فهو كما قال ﷺ: **«والقرآن حجة لك أو عليك»** فإن عملت به واتبعته كان دليلاً وحجة لك، وإن خالفته كان حجة عليك. قال ﷺ: **«إن الله يرفع بهذا القرآن أقواماً ويضع به آخرين»** يرفعهم في الدنيا بمنازل العلماء والعباد والصالحين، وفي الآخرة بالجنة والرضوان.

وختم الحديث بأن الناس في الصباح وهو الغدوة، سائرون وغادون، فمنهم يبيع نفسه لله بطاعته فينال جنته، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى فيهلكها.

وفي الحديث: فضل الوضوء والمحافظة عليه وأنه من سيما الصالحين، وكذلك بيان فضل الذكر وعظم أجره.

٢٦ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ مَالِكِ بْنِ سِنَانِ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ بِيَدِهِ: «مَا يَكُنْ مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدْخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعْفِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ. وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ» [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

* الإسلام دين العمل والجد والنشاط، ويؤجر المرء على ذلك إذا قام بعمل مباح، ونوى إعفاف نفسه ومن يعول، ونفع المسلمين بصنعيته أو عمله، وهو خير من الاستشراف إلى ما في أيدي الناس وسؤالهم. والغنى والمنع بيد الله - عز وجل - فهو الذي يعطي ويمنع، ولن تموت نفس حتى تستكمل رزقها.

وفي الحديث: الحث على الاستعفاف، وأن من رزقه الله الصبر على ضيق العيش وغيره من مكاره الدنيا، فقد أعطاه خيراً كثيراً.

قال القرطبي: «فقوله: **«ومن يستعفف يعفه الله»** أي، يمتنع عن السؤال **«يعفه الله»** أي، يجازيه على استعفافه بصيانة وجهه ودفع فاقته».

وقال السعدي - رحمه الله -: «وتمام ذلك أن يجاهد نفسه على الأمر الثاني، وهو الاستغناء بالله، والثقة بكفايته، فإن من يتوكل على الله فهو حسبه، وهذا هو المقصود الأول. والأول وسيلة إلى هذا، فإن من استعفف عما في أيدي الناس وعما يناله منهم: أوجب له ذلك أن يقوي تعلقه بالله، ورجاؤه وطمعه في فضل الله وإحسانه».

وفي قوله: **«ومن يستغن يغنه الله»** أي، يظهر الغنى بالاستغناء عن أموال الناس والتعفف عن السؤال، حتى يحسبه الجاهل غنياً من التعفف.

«يعنه الله» أي، يجعله غنياً، أي: بالقلب.

قال ابن حجر: «في الحديث الحُض على الاستغناء عن الناس والتعفف عن سؤالهم بالصبر والتوكل على الله، وانتظار ما يرزقه الله، وأن الصبر أفضل ما يعطاه المرء لكون الجزاء عليه غير مقدر ولا محدود».

وقال ابن الجوزي: «لما كان التعفف يقتضي ستر الحال عن الخلق وإظهار الغنى عنهم فيكون صاحبه معاملاً لله في الباطن، فيقع له الربح على قدر الصدق في ذلك، وإنما جعل الصبر خيراً العطاء، لأنه حبس النفس عن فعل ما تحبه وإلزامها بفعل ما تكره في العاجل مما لو فعله أو تركه لتأذى به في الأصل».

وفي الحديث كرم النبي ﷺ وما جبل عليه من مكارم الأخلاق والسماحة، وأنه أكرم الناس وأشجعهم. **«وليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس»**. وأن مكارم الأخلاق وصالح الصفات تنال بالصبر.

ومن يطلب العفاف ويوطن نفسه على البعد عن المحرمات، فإن الله - عز وجل - يعينه ويعفه.

ثم أثنى النبي ﷺ على الصبر وأنه من منن الله - عز وجل - وفضله، لأن الإنسان إذا كان صبوراً تم له كل شيء.

قال ابن بطال: «أرفع الصابرين منزلة عند الله من صبر عن محارم الله، وصبر على العمل بطاعة الله، ومن فعل ذلك فهو من خالص عباد الله وصفوته، ألا ترى قوله ﷺ: **«ولن تعطوا عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»** [رواه البخاري].

قال ابن الجوزي: «إياك إياك أن تستطيل زمان البلاء وتضجر من كثرة الدعاء فإنك مبتلى بالبلاء، مُتَعَبِد بالصبر والدعاء، ولا تيأس من روح الله وإن طال البلاء».

وفي الحديث: الحث على التعفف والقناعة والصبر على ضيق العيش وغيره من مكاره الدنيا.

٢٧- وَعَنْ أَبِي يَحْيَى صُهَيْبِ بْنِ سَنَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» [رواه مسلم].

* أظهر النبي ﷺ في الحديث العَجَبَ على وجه الاستحسان لأمر المؤمن وشأنه، فإن ذلك له لا لغيره. ثم فصل في الحديث: «إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

وتلك حال المسلم فإنه بين صبر وشكر. فإن أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ من علم ومال وبينين وغيرها شكر الله وقام بحققها، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ من فقد مال أو ولد، صبر واحتسب ورضي، ورجا ما عند الله من العوض والخلف والأجر، والصبر صفة الأنبياء، وحلية الأصفياء، ومفتاح الخيرات.

ومن نعم الله أن حياة المؤمن كلها له خير وأجر عند الله - عز وجل -. وعنوان السعادة في ثلاث: من إِذَا أُعْطِيَ شكر، وَإِذَا ابْتُلِيَ صبر، وَإِذَا أَذْنِبَ استغفر.

قال القرطبي: «المؤمن هنا: العالم بالله، الراضي بأحكامه، العامل على تصديق موعوده، وذلك أن المؤمن المذكور، إما أَنْ يَبْتُلَى بما يضره، أو بما يسره فإن كان الأول، صبر واحتسب ورضي، فحصل على خيري الدنيا والآخرة وراحتهما، وإن كان الثاني، عرف نعمة الله عليه ومنته فيهما، فشكرها وعمل بها، فحصل نعم الدنيا ونعيم الآخرة».

وقوله «لَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ» أي، المؤمن الموصوف بما ذكرنا، لأنه إن لم يكن كذلك، لم يصبر على المصيبة الدنيوية فتصير مصيبة في دينه، وكذلك لا يعرف النعمة ولا يقوم بحققها ولا يشكرها. فتقلب النعمة نقمة، والحسنة سيئة، نعوذ بالله من ذلك».

والصبر من أعظم المنازل التي حضَّ عليها الإسلام فقد ذكره - جل وعلا - في كتابه الكريم في أكثر من تسعين موضعاً. فالصبر سكون للقضاء، واطمئنان للعاقبة، وانتظار للفرج.

قال ابن القيم: «الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطاعات التي يؤديها، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يسخطها».

وفي الحديث الآخر قال ﷺ: «حتى الشوكة يشاكها المؤمن يكفر الله بها من خطاياها».

وقد استخرج العلماء أنواع الصبر من هذه الآية: ﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ صبر على الطاعة.

﴿وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ صبر عن المعصية.

﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ صبر على أقدار الله.

قال ابن القيم - رحمه الله -: «وقد جرب أن من قال ﴿أَنِّي مَسْنِي الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] سبع مرات كشف الله ضره».

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات، ورب الأرض، ورب العرش الكريم» [رواه البخاري ومسلم].

قال النووي: «هو حديث جليل، ينبغي الاعتناء به، والإكثار منه عند الكرب والأمر العظيمة».

وقال الطبري: «كان السلف يدعون به، ويسمونه دعاء الكرب، فإن قيل: هذا ذكر وليس فيه دعاء، فجوابه، من وجهين مشهورين: أحدهما: أن هذا الذكر يستفتح به الدعاء ثم يدعو بما شاء. والثاني: جواب سفيان بن عيينة، قال: أما علمت قوله تعالى: «من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين».

٢٨ - وعن أنس - رضي الله عنه - قال: لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه الكرب فقالت فاطمة - رضي الله عنها -: واكرب أبتاه، فقال: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم» فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب رباً دعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، فلما دفن قالت فاطمة - رضي الله عنها -: أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟ [رواه البخاري].

* الدنيا دار ممر وليست دار مقر، ونهايتها - سواء طالت الأيام أم قصرت - الموت، حيث يرحل الإنسان منها إلى الدار الآخرة، وتناله الشدة في لحظات الاحتضار، فينزل فيها الضيق والكرب لتكون آخر شدة يلقاها في الدنيا. وفي قول أنس: **(لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه الكرب)** أي: من شدة ما يصيبه جعل يُغشى عليه من الكرب، وهو الغم الذي يأخذ بالنفس، لأنه - عليه الصلاة والسلام - يُشدد عليه الوعك والمرض، كان يوعك كما يوعك الرجال من الناس.

وفي الحديث: ذكر صبر النبي ﷺ على ما يلاقيه من شدة سكرات الموت ورضاه بذلك، لرفع درجاته وزيادة أجوره. ولينال ﷺ أعلى درجات الصبر. في الحديث: **«أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»**.

وفي الحديث: صبر النبي ﷺ على شدة يجدها في مرضه فلم يتضرر ولم يتسخط، وإنما صبر واحتسب، وفي الحديث بيان أن الرسول ﷺ كغيره من البشر يمرض، ويعطش ويجوع، وفي هذا رد على أولئك القوم الذين يشركون بالرسول ﷺ ويدعونه ويستغيثون به.

وقد واسى ﷺ ابنته فاطمة وطمأنها وهون عليها - رضي الله عنها -، بقوله: **«ليس على أبيك كرب بعد اليوم»**. أي، ليس على أبيك شدة وضيق، إنما هو إلى الفردوس الأعلى.

والنعي نوعان: نعي محرم، ونعي جائز، أما المحرم فهو الذي على سبيل المباهاة والمفاخرة كما يفعل أهل الجاهلية.

والنعي الجائز: الإخبار بموته للصلاة عليه والدعاء له وتشيعه.
ولما حمل ﷺ ودفن، قالت فاطمة - رضي الله عنها - «أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب؟» يعني من شدة وجدها عليه وحزنها، ومعرفتها بأن الصحابة - رضي الله عنهم - قد ملأ قلوبهم محبة الرسول ﷺ، ولكنها سنة الله - عز وجل - في خلقه أن يكرم بمواراته التراب.

ومثل ذلك ما قالته أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - لما دفن رسول الله ﷺ: «يا أنس كيف سخت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول الله ﷺ» [رواه البخاري].
وفي الحديث: تطمين وتسكين من بجوار المريض. وجواز التوجع للميت عند احتضاره، وأنه ليس من النياحة.

وفي الحديث: بيان أن الدنيا دار تعب ونصب، والآخرة لا شيء فيها من هذا للمؤمن، بل هي دار راحة وأنس وسعادة.
قال إبراهيم النخعي: «كانوا يستحبون للمريض أن يُجهد عند الموت، وكانوا يقولون: آخر شدة يلقاها عند الموت».

وكان الإمام أحمد بن حنبل يثني في مرض موته، ف قيل له إن طاووساً يقول: إن الأنين يكتب، يعنى لقوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. فما أن بعدها - رحمه الله - حتى مات.

وقال عمر بن عبد العزيز: «ما أحب أن يهون عليّ في سكرات الموت، فإنه آخر ما يكفر عن المرء المسلم».

روي أن ملك الموت دخل على داود - عليه السلام - فقال: من أنت؟ فقال: من لا يهاب الملوك، ولا تمتنع منه القصور، ولا يقبل الرشا.
قال: فإذا أنت ملك الموت، قال: نعم، قال أتيتني ولم أستعد بعد، قال: يا دواود: أين فلان قريبك؟ أين فلان جارك؟ قال: مات. قال: أما كان لك في هؤلاء عبرة لتستعد».

٢٩ - وعن أبي زيد أسامة بن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وحبّه وابن حبّه - رضي الله عنهما - قال: أرسلت بنت النبي ﷺ: إن ابني قد احتضر فاشهدنا، فأرسل يقرئ السلام ويقول: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب» فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتيها. فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ ابن جبل، وأبي بن كعب، وزيد ابن ثابت، ورجال - رضي الله عنهم - فرُفع إلى رسول الله ﷺ الصبي، فأفعدّه في حجره ونفسه تققع، ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: «هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوب عباده» وفي رواية: «في قلوب من شاء من عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء» [متفق عليه].
ومعنى تققع: تتحرك وتضطرب.

* الأولاد زينة الحياة الدنيا، كما ذكر ذلك - جل وعلا - في قوله تعالى:
﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

والابتلاء في الأولاد من أعظم الابتلاء، وأثقل الأنكاد، وهو نار تستعر في الفؤاد، وحرقة تضطرم في الأكباد، ولهذا كان ثواب الصبر على ذلك جزيلا، ويكون أجره في ميزانه يوم القيامة ثقيلا.

في الحديث: أن ابنة النبي ﷺ زينب - رضي الله عنها - احتضر ابن لها، فرغبت أن يحضر النبي ﷺ ذلك، فأرسل لها يقرئ السلام ويعلمها ما تقول حال المصيبة، فأقسمت على النبي ﷺ أن يحضر، فلما حضر ﷺ ورفع له الصبي أقعده في حجره ونفسه تضطرب، ففاضت عيناه رحمه الله بهذا الصبي. فتعجب بعض أصحاب النبي من هذا الموقف، فأعلمهم ﷺ أن: «هذه رحمة جعلها الله - تعالى - في قلوب عباده».

وفي الحديث: الأمر بالصبر والاحتساب لمن نزلت به مصيبة، والأمر بقول: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب».

قال النووي: «معناه الحث على الصبر والتسليم لقضاء الله - تعالى -، وتقديره أن هذا الذي أخذ منكم كان له لا لكم، فلم يأخذ إلا ما هو له، فينبغي أن لا تجزعوا كما لا يجزع من استردت منه وديعة أو عارية».

«وله ما أعطى» أي، أن ما وهبه لكم ليس خارجاً عن ملكه، بل هو له - سبحانه وتعالى - يفعل فيه ما يشاء.

«وكل شيء عنده بأجل مسمى» معناه: واصبروا ولا تجزعوا، فإن كل من مات قد انقضى أجله المسمى، فمحال تقدمه أو تأخره عنه، فإذا علمتم هذا كله، فاصبروا واحتسبوا ما نزل بكم.

وتسن تعزية المصاب، لتقويته على الصبر وتسليته، وتذكيره بموعود الله - عز وجل - لمن صبر واحتسب.

في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لنسوة من الأنصار: «لا يموت لأحد اكن ثلاثة من الولد فتحسبهم إلا دخلت الجنة»، فقالت امرأة منهن: أو اثنين يا رسول الله؟ قال: «أو اثنين».

وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ولد العبد، قال الله - تعالى - لملائكته، وهو - سبحانه وتعالى - العليم بكل شيء: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول - سبحانه وتعالى -: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد» [رواه ابن حبان].

ويشرع لمن أصيب بمصيبة، ونزلت به نازلة أن يقول ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

وقد جعل الله قول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ملجأ لذوي المصائب، وعصمة للممتحنين، لما جمعت من المعاني المباركة، فإن قوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾

توحيد وإقرار بالعبودية والملك، وقوله: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ إقرار بالهلك على أنفسنا والبعث من قبورنا، واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له.

قال سعيد بن جبیر - رحمه الله -: «لم تعط هذه الكلمات نبياً قبل نبينا، ولو عرفها يعقوب لما قال: ﴿يَتَأَسَفُ عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]».

وفي الحديث: جواز استحضار أهل الفضل للمحتضر لرجاء بركتهم ودعائهم، وأن أهل الفضل ينبغي لهم أن يقطعوا الناس من فضلهم وإرشادهم والعناية بأمورهم واستحباب إبرار القسم، وجواز البكاء من غير نوح وتسخط. وفي الحديث: الترغيب في الشفقة على خلق الله والرحمة لهم، والترهيب من قسوة القلب وجمود العين.

٣٠- وَعَنْ صُهَيْبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبُرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبُرْتُ فَأَبْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أَعْلَمُهُ السَّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يَعْلَمُهُ، وَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ، وَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ. فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلَ أَمْ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجْرًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمُوتَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَاقْتَلَهَا وَمُتَّى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ. فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيُّ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ، وَكَانَ الْغُلَامُ يَرَى الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ، وَيَدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ. فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ: مَا هَهْنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ - تَعَالَى -، فَإِنْ آمَنْتَ بِاللَّهِ - تَعَالَى - دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَأَمِنَ بِاللَّهِ - تَعَالَى - فَشَفَاهُ اللَّهُ - تَعَالَى -، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مِنْ رَدِّ عَلَيْكَ بِصْرِكَ؟ قَالَ: رَبِّي. قَالَ: وَلَكِ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ فَجِئَءَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيُّ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تَبْرِي الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ - تَعَالَى -، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِئَءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمُنْشَارِ فَوُضِعَ الْمُنْشَارُ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّه حَتَّى وَقَعَ شَقَاهُ، ثُمَّ جِئَءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى، فَوُضِعَ الْمُنْشَارُ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّه بِهِ حَتَّى وَقَعَ شَقَاهُ، ثُمَّ جِئَءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلٍ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذِرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَارْجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ،

فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ فَقَالَ: كَفَانِيَهُمُ اللَّهُ - تَعَالَى -، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرُقُورٍ وَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَأَقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَاِنْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرَقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ فَقَالَ: كَفَانِيَهُمُ اللَّهُ - تَعَالَى -.. فَقَالَ لِلْمَلِكِ إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمُرُكَ بِهِ. قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جَذَعٍ، ثُمَّ تَخُذُ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ تَضَعُ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قُل: بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جَذَعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فَمَاتَ. فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، فَأَتَى الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذْرُكَ. قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بِالْأَخْذِودِ بِأَفْوَاهِ السَّكِكِ فَخُدَّتْ وَأُضْهِرِمَ فِيهَا النَّارُ وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجَعْ عَنْ دِينِهِ فَأَقْحِمُوهُ فِيهَا أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتْ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّاهُ اصْبِرِي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ [رَوَاهُ مُسْلِمٌ].

ذُرُوءُ الْجَبَلِ: أَعْلَاهُ، وَهِيَ بِكَسْرِ الذَّالِ الْمَعْجَمَةُ وَضُمُّهَا، وَالْقُرُقُورُ بَضْمٌ الْقَافَيْنِ: نَوْعٌ مِنَ السُّفُنِ، وَالصَّعِيدُ هُنَا: الْأَرْضُ الْبَارِزَةُ، وَالْأَخْذُودُ: الشَّقُوقُ فِي الْأَرْضِ كَالنَّهْرِ الصَّغِيرِ وَأُضْهِرِمَ: أَوْقَدَ، وَانْكَفَأَتْ أَي: انْقَلَبَتْ، وَتَقَاعَسَتْ: تَوَقَّفَتْ وَجَبُنَتْ.

* في هذا الحديث، إثبات كرامة الأولياء: وفيه، نصر من توكل على الله - سبحانه -.. وفيه، بيان شرف الصبر والثبات على الدين.

وفضل التوحيد والثبات عليه ونسبة الفضل لله - عز وجل -، وفائدة تعليم الصغير، لأنه أقرب للحفظ وعدم النسيان، وتنشئته على التوحيد والتوكل على الله ومراقبته.

وفيه؛ أن الله - تعالى - يظهر الحق وينصر أهله ويهزم الباطل وحزبه.

وفي هذه القصة إثبات لإعجاز القرآن، لأن فيها إخباراً عن الغيبات، وذلك في ذكر قصة أصحاب الأخدود.

وفيه أن من خاف عدواً أن يقول **«اللهم اكفنيهم بما شئت»**.

ومعنى **«اكفنيهم»** أي، احفظني واحمني منهم.

و**«بما شئت»** أي، بالذي تشاء من أسباب الوقاية والحماية.

وفيه: فضيلة الصبر. قال شيخ الإسلام: «قد ذكر الله الصبر في كتابه في أكثر

من تسعين موضعاً، وقرنه بالصلاة في قوله: **﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا**

لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] وجعل الإمامة في الدين موروثة عن

الصبر واليقين بقوله: **﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾** [السجدة:

٢٤] فإن الدين كله علم بالحق وعمل، والعمل به لا بد فيه من الصبر، بل وطلب

علمه يحتاج إلى صبر».

وقد أثنى الله - عز وجل - على عبده ونبيه أيوب - عليه السلام - في قوله

تعالى: **﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾** [ص: ٤٤] وقال - تعالى -

لنبينا محمد: **﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾** [الأحقاف: ٣٥].

وفي الحديث: الالتجاء والاعتصام بالله - عز وجل - من شر ما

يخاف الإنسان.

٣١- وَعَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرِ فَقَالَ: «اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي» فَقَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبِّ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَائِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى» [متفقٌ عليه].
وفي رواية لمُسْلِمٍ: تَبْكِي عَلَى صَبِيٍّ لَهَا.

* أنزل الله - عز وجل - في قلوب الوالدين محبة أولادهم، والشفقة عليهم، والرحمة بهم، والخوف عليهم، وربما كان ذلك من أسباب العطب والهلاك، ولكن إن قدر الله عليهم أمراً فالواجب الصبر والاحتساب فهذا من باب الابتلاء، وفي الابتلاء فوائد سنية، وحكم ربانية، فيها الأجور والمثوبة واللجوء والضراعة.

وفي الصحيحين أنه ﷺ قال: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد، فتمسه النار إلا تحلة القسم».

وفي الحديث: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله - تعالى -، وما عليه خطيئة» [رواه الترمذي].

وعن أم الدرداء - رضي الله عنها - أنها كانت تقول: «إن الراضين بقضاء الله الذين ما قضى لهم رضوا به، لهم في الجنة منازل يغبطهم بها الشهداء يوم القيامة». [رواه أحمد].

وفي الحديث: بيان أن ثواب الصبر إنما يحصل عند مفاجأة المصيبة، بخلاف ما بعدها، فإن صاحبها يسلو كما تسلو البهائم.

وفي سياق الحديث يظهر تواضع النبي ﷺ وعدم اتخاذه بوابين، وعفوه عنها لما قالت له: إليك عني. ولهذا لما علمت المرأة أنه النبي ﷺ أتت لتعتذر إليه.

والصبر عند وقوع المصيبة واحتسابها دلالة على كمال الإيمان، والجزع والتسخط يدلان على ضعف الإيمان.

قال الخطابي: «إن الصبر الذي يحمد عليه صاحبه ما كان عند مفاجأة المصيبة، بخلاف ما بعد ذلك، فإنه على الأيام يسلو، والمرء لا يؤجر على المصيبة، لأنها ليست من صنعه، وإنما يؤجر على حسن تثبته وجميل صبره».

وفي قوله ﷺ: «**اتقي الله واصبري**» تذكير بالتقوى، وعدم تجاوز المباح من البكاء ودمع العين إلى النياحة ورفع الصوت.

قال ابن بطال: «أراد ﷺ أن لا تجتمع عليها مصيبتان، مصيبة فقد الولد، وفقد الأجر الذي يبطله الجزع، فأمر بالصبر الذي لا بد للجازع من الرجوع إليه بعد سقوط أجره».

قيل: الصبر، هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب.

وحقيقة الصبر: خلق فاضل من أخلاق النفس، يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها.

وفي الحديث: الأمر بالتقوى والاحتساب، فإن الله - سبحانه - أجزل العطاء للصابرين، فقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر: ١٠].

والمصائب في المال أو الولد أو ما يحب المسلم سبب في تكفير الذنوب، وزيادة الحسنات، ورفعة الدرجات.

ولا بد أن يعلم المصاب أن الذي ابتلاه بمصيبته هو أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، وأنه - سبحانه - لم يرسل البلاء ليهلكه به، ولا ليعذبه، ولا ليجتاحه، وإنما ابتلاه به ليتمحن صبره ورضاه عنه وإيمانه، وليسمع تضرعه وابتهاله، وليراه طريحاً على بابه لا ثذأً بجناحه، مكسور القلب بين يديه، رافعاً قصص الشكوى إليه.

وفي الحديث: فضل الصبر عند الصدمة الأولى.

٣٢- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبِضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ اخْتَسَبُهُ إِلَّا الْجَنَّةَ» [رواه البخاري].

* هذا الحديث من الأحاديث القدسية التي تزيد في مجموعها عن مائة حديث، وفيه أن من صبر على المصيبة واحتسب ثوابها عند الله - عز وجل -، فإن جزاءه الجنة.

ومعنى «صفيه» أي، من يصطفيه الإنسان ويختاره ويكون قريباً منه، من ولد، أو أخ، أو أب، أو أم، أو صديق.

ولا شك أن من مصائب الدنيا فقد الأحبة، فإن النفس تفقد أنيساً وحيباً، ولذا اشترط الحديث عند فقد صفيه أن يحتسبه، وأن يصبر ويسلم لأمر الله. ومعنى الاحتساب: الصبر المقرون برجاء الثواب.

فالصبر على الأقدار: هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب. والعوارض والمحن والمصائب هي كالحر والبرد لا بد للعبد منها، فلا يجزع ولا يتسخط، فمن صبر واحتسب نال الأجر، ومن سخط فعليه السخط. والنوازل تنزل، والقوارع تطرق، والناس في هذا الزمن غلبت عليهم أمور أربعة:

الأول: عدم الرضا والصبر والاحتساب، بل البعض يسلو كما تسلو البهائم.
الثاني: الجزع والتسخط، وكأن الدنيا ما خلقت إلا للصفو والنعيم.
الثالث: عدم احتساب الأجر سوى في المصائب الكبيرة كالموت وغيره، وتناسوا أن الأمر سواء على كل ما يسوء المرء حتى الشوكة تُصيب قدمه.
الرابع: ظن الكثير أن الامتحان والابتلاء هو زمن المصيبة فحسب، وما عدوا النعمة والغنى بلية وطامة إن لم تُعن على طاعة الله وعبادته.

قيل: لو أن ملكاً قال لرجل فقير، كلما ضربتك بهذا العود اللطيف ضربة أعطيتك ألف دينار، لأحب الفقير كثرة الضرب، لا لأنه لا يؤلم، ولكن لما يرجو عاقبته وإن نكأه وأوجعه الضرب.

ومن تلمح الثواب هان عليه البلاء، والتقوى لا تقوم إلا على ساق الصبر. ذكر عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه نعي إليه ابن له، فاسترجع وقال: «عورة سترها الله، ومؤنة كفاها الله، وأجر قد ساقه الله - تعالى -، ثم نزل فصلی ركعتين، ثم قال: قد صنعنا ما أمر الله - تعالى -، قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]».

ومات لعقبة ابن يقال له يحيى، فلما نزل في قبره قال له رجل: والله إن كان لسيد الجيش فأحتسبه، فقال والده: «وما يمنعني أن أحتسبه وكان من زينة الحياة الدنيا، وهو اليوم من الباقيات الصالحات».

ومات لرجل من السلف ابن فعزاه الفضيل بن عياض فقال: «يا هذا أرأيت لو كنت في سجن وابنك، فأفرج عن ابنك قبلك أما كنت تفرح؟ قال: بلى، قال: فإن ابنك خرج من سجن الدنيا قبلك، فسري عن الرجل وقال: تغزيت». قال عمر بن عبد العزيز: «ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه، فعاضه من ذلك الصبر، إلا كان ما عاضه الله أفضل مما انتزع منه».

وقال شيخ الإسلام: «العبد دائماً بين نعمة من الله يحتاج فيها إلى شكر، وذنوب منه يحتاج فيه إلى الاستغفار، وكل من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائماً، فإنه لا يزال يتقلب في نعم الله وآلائه، ولا يزال محتاجاً إلى التوبة والاستغفار».

وفي الحديث: فضل الصبر والاحتساب على فقد الصفي والحيب.

٣٣ - وعن عائشة - رضي الله عنها - أنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون، فأخبرها أنه كان عذاباً يبعثه الله - تعالى - على من يشاء، فجعله الله - تعالى - رحمةً للمؤمنين، فليس من عبد يقع في الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد [رواه البخاري].

* سألت عائشة - رضي الله عنها - الرسول ﷺ عن الطاعون وحكمة إرساله على الناس، وعن موقف وحال من يقع به أو حوله، فأخبرها ﷺ أنه كان عذاباً يبعثه الله - تعالى - على من يشاء، فجعله الله - تعالى - رحمةً للمؤمنين. والطاعون: من الأمراض المعدية يخرج غالباً في الآباط مع لهيب وأسوداد حواليه، وخفقان القلب والقيء، وهو عذاب على الأمم السابقة، ورحمة على أمة محمد ﷺ.

ومن مات مطعوناً أو مبطوناً أو غريقاً أو النفساء ممن عداهم الرسول ﷺ شهداء لا يعاملون معاملة شهيد الحرب، بل لهم أجر الشهداء لكنهم يغسلون ويكفنون ويصلى عليهم.

ومن تعاليم الإسلام أن الطاعون إذا وقع ببلد والعبد فيها فلا يجوز له الخروج منها، بل عليه أن يربط فيها محتسباً راضياً وذلك حتى لا ينقل العدوى لآخرين، وهذا من حرص الإسلام على أهله. كما أن المسلم لا يقدم على أرض بها الطاعون حتى لا يهلك.

قال العلماء: «إن الصابر في الطاعون يأمن من فتان القبر، لأنه نظير المرابطة في سبيل الله».

وفي قوله ﷺ «صابراً» أي: غير منزعج ولا قلق، بل مُسلماً لأمر الله راضياً بقضائه، وهذا قيد في حصول أجر الشهادة لمن يموت بالطاعون.

قال ابن القيم: «وفي المنع من الدخول إلى الأرض التي قد وقع بها الطاعون عدة أحكام:

إحداها: تجنب الأسباب المؤذية، والبعد عنها.

الثانية: الأخذ بالعافية التي هي مادة المعاش والمعاد.

الثالثة: أن لا يستنشقوا الهواء الذي قد عفن وفسد فيصيبهم المرض.

الرابعة: أن لا يجاوروا المرضى الذين قد مرضوا بذلك، فيحصل لهم بمجاورتهم من جنس أمراضهم.

الخامسة: حماية النفوس عن الطيرة والعدوى.

وبالجملة ففي النهي عن الدخول في أرض الطاعون الأمر بالحذر والحيلة، والنهي عن التعرض لأسباب التلف، وفي النهي عن الفرار منه الأمر بالتوكل والتسليم والتفويض، فالأول: تأديب وتعليم، والثاني: تفويض وتسليم.

وفي الحديث: فضل الصبر والاحتساب على ما قضى الله وقدر من الأمراض والنوازل. وكان السلف - رضي الله عنهم - يرجون في حمى ليلة كفارة ما مضى من الذنوب.

وفي الحديث: «إذا أراد الله بعبده خيراً عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده شراً أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة».

يقول الشيخ ابن عثيمين تعليقاً على هذا الحديث: «الإنسان لا يخلو من خطأ ومعصية وتقصير في الواجب، فإذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، إما بماله، أو بأهله، أو بنفسه، أو بأحد ممن يتصل بهم، المهم أن تعجل له العقوبة، لأن العقوبات تكفر السيئات فإذا تعجلت العقوبة وكفر الله بها عن العبد، فإنه يوافي الله وليس عليه ذنب، وقد طهرته المصائب والبلايا حتى أنه يشدد على الإنسان موته لبقاء سيئة أو سيئتين عليه، حتى يخرج من الدنيا

نقيًا من الذنوب، وهذه نعمة لأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، لكن إذا أراد الله بعبده شراً مهلاً له، واستدرجه، وأدر عليه النعم، ودفع عنه النقم حتى يبطر، ويفرح فرحاً مدموماً، بما أنعم الله به عليه، وحينئذ يلاقي ربه وهو مغمور بسيئاته، فيعاقب بها في الآخرة، نسأل الله العافية».

وفي الحديث: فضل الصبر على المصائب.

وفيه: أن من مات من الطاعون صابراً محتسباً فهو شهيد.

٣٤ - وَعَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتِهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهِ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ» «يُرِيدُ عَيْنِيَّةً»، [رواه البخاري].

* العين محبوبية للإنسان فهي التي يبصر بها، ويقرأ بها القرآن والسنة والكتب، ويرى بها الآباء والأمهات، والأبناء، والأصدقاء، ويشاهد عجائب مخلوقات الله من السماء والأرض والدواب وغيرها، ويرى طريقه وجادته على الأرض، ويشاهد داره، ويسير في دروب الدنيا يرى ببصره ويسمع بأذنه. فإذا أصابها مرض، فعمي فصبر واحتسب، عوضه الله - عز وجل - بهما الجنة، وذكر النبي ﷺ العينين لأنهما أحب أعضاء الإنسان إليه.

قيل: ووجه هذا الجزاء أن فاقدتهما حبيس، فالدنيا سجنه حتى يدخل الجنة. والجنة: أعظم العوض لأن التمتع بالبصر يفنى بفناء الدنيا، وأما التمتع بالجنة فباق دائماً.

وفيه شكر لمن أنعم الله عليه بالعينين وأن يستخدمها في طاعة الله ومَرْضاته، ويصرفها عما حرم، فإنها نعمة عظيمة.

والصبر ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله.

وهذا الحديث فيه الصبر مع أقدار الله المؤلمة، وهو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب، وذلك بالصبر والرضا وعدم التسخط والاسترجاع، ورجاء الثواب فإن المصيبة وقعت وانتهى أمرها، وبقي الصبر، أو أن تسلو كما تسلو البهائم دون أجر وثواب.

قال ابن بطال: «في هذا الحديث حجة في أن الصبر على البلاء ثوابه الجنة، ونعمة البصر على العبد، وإن كانت من أجل نعم الله - تعالى - فعوض الله عليها الجنة أفضل من نعمتها في الدنيا، لنفاد مدة الالتذاذ بالبصر في الدنيا، وبقاء مدة الالتذاذ به في الجنة».

ولا شك أن الصبر والرضا من أعلى المنازل، قال الأحنف: «لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة، ما ذكرتها لأحد».

وذهب بصر عبد العزيز بن أبي رواد عشرين سنة، فلم يعلم به أهله ولا ولده، فتأمله ابنه ذات يوم فقال: يا أبت ذهبت عينك؟ فقال: نعم يا بني، الرضا عن الله أذهب عين أبيك منذ عشرين سنة.

وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: «من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك».

جاء في عدة الصابرين: «الصبر هو خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن، ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس، التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها».

وقال الفضيل لرجل يشكو إلى رجل: «يا هذا تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك».

فمن أكرمه الله بعينين، فليحمد الله وليستعملهما في طاعته، ويغض بصره عما حرم الله، ومن فقد عينيه فليصبر وليحتسب.

جاء رجل إلى يونس بن عبيد فشكا إليه ضيقاً في حاله ومعاشه واغتماماً بذلك، فقال: «أيسرك ببصرك مئة ألف؟ قال: لا. قال: فبسمعك؟ قال: لا، قال: فبلسانك؟ قال: لا. ثم قال يونس: أرى لك مئين ألوفاً وأنت تشكو الحاجة».

وفي الحديث: فضل الصبر على من فقد بصره.

وفيه: أن من صبر عوضه الله الجنة.

٣٥ - وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس - رضي الله عنهما - ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: إني أضرعُ، وإني أتكشّف، فادعُ الله - تعالى - لي قال: «إن شئتِ صبرتِ ولك الجنة، وإن شئتِ دعوتُ الله - تعالى - أن يُعافيكِ» فقالت: أصبرُ، فقالت: إني أتكشّف، فادعُ الله أن لا أتكشّف، فدعا لها. [متفق عليه].

* الإنسان البالغ العاقل في دار التكليف والأقلام جارية عليه لا يستغني عن الصبر في حالة من الأحوال، فإنه بين أمرٍ يجب عليه امتثاله، والصبر لا بد منه، وبين نهيٍ يجب عليه اجتنابه وتركه، والصبر لا بد له منه، وبين قضاء وقدر يجب عليه الصبر فيهما. وبين نعمة عليه شكر المنعم عليها والصبر عليه. وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه، فالصبر لازم له إلى الممات.

قال العيني: «الصبر على البلاء يورث الجنة، والأخذ بالشدة أفضل لمن علم من نفسه أنه يطيق التماسك عليها ولا يضعف عن التزامها».

وما من الناس إلا مُبتلى بعافية لينظر كيف شكره، أو مبتلى ببلية لينظر صبره».

وعلاج الأمراض يكون بالدعاء والالتجاء إلى الله - عز وجل - في رفع ما نزل، مع الأخذ بالأسباب المباحة.

ومن تأمل في حال نساء الصحابيات الجليلات وعفتهم وحيائهن علم صبرهن على الحجاب والستر والحشمة مع المشقة في ذلك.

وفي قولها: (إني أصبر) فيه بيان كمال رسوخها في الدين، وإيثارها الآخرة الباقية على الدنيا الفانية.

والصرع من الأمراض التي تداوى بالقراءة والرقية بعد الوقوع، وقبل، وذلك بالمحافظة على الأوراد الشرعية والأذكار النبوية في الحفظ من شياطين الإنس والجن.

نظر علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - إلى عدي بن حاتم كئيماً، فقال: يا عدي، مالي أراك كئيماً حزيناً؟ قال: وما يمنعني وقد قتل أبنائي وفقت عيني، فقال: يا عدي: «من رضي بقضاء الله كان له أجر، ومن لم يرض بقضاء الله حبط عمله».

ومن فوائد وثمار الصبر:

مضاعفة الأجر والثواب: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

تعليق الإمامة في الدين على الصبر: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤].

معية الله للصابرين: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأففال: ٤٦].
صلاة الله ورحمته وهدايته: ﴿وَنَبِّئِ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٥٤] الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿٥٧﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦].

محبة الله للصابرين: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].
اجتماع خصال الخير في الصبر: ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ [فصلت: ٣٥].
وفي الحديث: شدة حياء الصحابيات - رضي الله عنهن -، فإن المرأة خشيت أن تنكشف عورتها، ورغبت في الثواب والأجر على الصبر، فدعا لها النبي ﷺ أن لا تنكشف. وهذه المرأة السوداء التي بها مرض الصرع، قد لا يؤبه لها ولا وزن لها عند الناس وهي من أهل الجنة.

٣٦- وعن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: كَانِي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ - ضَرْبَهُ قَوْمَهُ فَأَدْمُوهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» [متفقٌ عليه].

* العفو والصفح والتسامح واللين من صفات الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، ولنبينا محمداً ﷺ النصيب الأوفى من ذلك، إذ كان أحسن الناس عفواً، وألطفهم عشرة، يعفو عن المسيء، ويصفح عن المخطئ. وفي هذا الحديث: يذكر ﷺ حال الأنبياء وصبرهم على دعوة الناس، وما ينالهم من الأذى، فيذكر هنا أن نبياً ضربه قومه فأدموه، فجعل يمسح الدم عن وجهه ويعتذر لهم بأنهم لا يعلمون، وهذا من شدة شفقتهم وحرصهم على قومهم. ولأهل الدعوة والعلماء قدوة وأسوة في الصبر على تبليغ دين الله، والصبر على أذى الجاهلين وسفاهة المعاندين.

فقد أودى ﷺ في مكة وهاجر منها، وأودى في الطائف ولم يدع عليهم، وعفا عن أهل مكة كافة لما دخلها عام الفتح.

وفي الحديث أنواع من الصبر والحكم:

الأول: أنه مسح دمه لثلا يصيب الأرض فيحل بهم البلاء.

الثاني: أنه قابل جهلهم بفضله، فدعا لهم بغفران ذنب ما فعلوا.

الثالث: أنه اعتذر من سوء فعلهم بعدم علمهم، وفيه عدم معاملة الجاهل بمثل عمله.

نقل القاضي عياض: «انظر ما في هذا القول من جماع الفضل ودرجات الإحسان، وحسن الخلق وكرم النفس، وغاية الصبر والحلم، إذا لم يقتصر ﷺ على السكوت عنهم حتى عفا عنهم، ثم أشفق عليهم ورحمهم، ودعا وشفع

لهم، فقال: «اغفر أو اهد» ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله: «لقومي» ثم اعتذر عنهم بجهلهم فقال: «فإنهم لا يعلمون».

وفيه بيان ما كان الأنبياء - صلوات الله عليهم - عليه، من الحلم والصبر، والعفو، والشفقة على قومهم، ودعائهم بالهداية والغفران، وعذرهم في جنائتهم على أنفسهم بأنهم لا يعلمون، وهذا النبي المشار إليه من المتقدمين، وقد جرى مثل هذا لنبينا محمد ﷺ يوم أحد

ونبينا محمداً ﷺ له القدر المعلى في الرحمة والشفقة، فعندما قدم عليه الطفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه، فقالوا: يا رسول الله، إن دوساً قد عصت وأبت، فادع الله عليها، فظن الناس أنه يدعو عليهم.

فقال ﷺ: «اللهم اهد دوساً وأت بهم» [رواه البخاري].

وهكذا هي حال الأنبياء - عليهم السلام - في تبليغ الرسالة وإقامة الحجة، ولمن بعدهم من العلماء والدعاة والمصلحين نصيب من ذلك، فعليهم الصبر على الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على ما ينالهم من أقوامهم، فلهم أسوة وقدوة بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -.

قال ابن الجوزي: «ولولا أن الدنيا دار ابتلاء لم تعثر فيها الأمراض والأكدار، ولم يضق العيش فيها على الأنبياء والأخيار، فآدم يعاني المحن إلى أن خرج من الدنيا، ونوح بكى ثلاثمائة عام، وإبراهيم يكابد النار وذبح الولد، ويعقوب بكى حتى ذهب بصره، وموسى يقاسي فرعون ويلقى من قومه في المحن، وعيسى ابن مريم لا مأوى له إلا البراري في العيش الضنك، ومحمد ﷺ يصابر الفقر، وقتل عمه حمزة وهو من أحب أقربائه إليه، ونفور قومه عنه، وغير هؤلاء من الأنبياء والأولياء مما يطول ذكره، ولو خلقت الدنيا للذة لم يكن حظ للمؤمن منها».

وفي الحديث: فضل الصبر على البلاء، وتحمل الأذى في سبيل الله.

٣٧- وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشُّوْكَةُ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ» [متفقٌ عليه].

* إذا أصاب المسلم مكروه في بدنه أو ماله أو حبيبه، فليعلم أن الذي قدره حكيم عليم، لا يفعل شيئاً عبثاً ولا يُقدر شيئاً سدى، وأنه - تعالى - رحيم قد تنوعت رحمته على عبده، يرحمه فيعطيه، ثم يرحمه فيوفقه للشكر، ويرحمه فيبتليه، ثم يرحمه فيوفقه للصبر، فرحمة الله متقدمة على التدابير السارة والضارة ومتأخرة عنها، ويرحمه أيضاً بأن يجعل ذلك البلاء مكفراً لذنوبه وآثامه، ومنمياً لحسناته رافعاً لدرجاته.

وجاء في الحديث، بيان شاف لحال المسلم إذا ناله أذى ومشقة، فقال ﷺ: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم».

«النصب»: التعب.

و«الوصب» المرض، والوجع اللازم.

و«الهم» ما يخشاه العبد من المستقبل.

«ولا حزن» الحزن، الاغتمام من أمر فائت. والهم أخص وأبلغ من الحزن.

«ولا أذى» أعم مما ذكر ويشمل المؤذيات الحسية والمعنوية من ضرب أو

غيبة أو غيرها. وهو كل ما لا يلائم النفس.

و«الغم» أبلغ من الحزن، والغم الخوف مما مضى مما يكدر وينغص.

وجميع المؤذيات النفسية والجسدية التي تصيب المؤمن تطهره من الذنوب.

«حتى الشوكة يشاكها» وهذا الأقل مما يصيب.

«إلا كفر الله بها من خطاياها» ومن فضل الله أن أقل ما يصيب العبد من بلاء

الدنيا كفارة له وحطاً لذنوبه، وينبغى للمؤمن الصبر والاحتساب، وأن لا

يجمع على نفسه بين الأذى وتفويت الثواب.

فإن المصاب هو من حرم الثواب. وربما يلحقه الإثم إذا تجزع وتسخط. قال النووي: «وفي هذا بشارة عظيمة للمسلمين، فإنه قل أن ينفك الواحد منهم ساعة من شيء من هذه الأمور، وفيه تكفير الخطايا بالأمراض والأسقام، ومصائب الدنيا وهمومها وإن قلت مشقتها».

والمصائب تكون على وجهين:

الأول: تارة إذا أصيب الإنسان تذكر الأجر واحتسب هذه المصيبة على الله، فيكون فيها فائدتان: تكفير الذنوب، وزيادة الحسنات.

الثاني: وتارة يغفل عن هذا فيضيق صدره، ويغفل عن نية الاحتساب والأجر على الله، فيكون في ذلك تكفير لسيئاته.

ولهذا ينبغي للإنسان إذا أصيب ولو بشوكة فليتذكر الاحتساب من الله على هذه المصيبة.

قال ابن بطال: «إن المسلم يجازى على بعض خطاياهم في الدنيا بالمصائب التي تقع له فيها، فتكون كفارة لها، وظاهر الحديث أن الثواب على نفس المصيبة بشرط أن لا تقترن بالسخط وعليه الجمهور، وقيل: أن الثواب والعقاب على الكسب والمصائب ليست منه، بل الأجر على الصبر عليها والرضا بها، ورد بأن ذلك قدر زائد يمكن الثواب عليه زيادة مع ثواب المصيبة، ومن المعلوم أن الناس عند البلاء درجات، فمنهم من يسلم الأمر، ومنهم من يتغنى به وجه الله ويقصد الأجر، ومنهم من يتلذذ بالبلاء راضياً عن الفعال لما يشاء، وأما الساخطون فليسوا من الله في شيء، ويؤخذ من الحديث حصول الثواب للمصاب وتخفيف العقاب عنه».

وفي الحديث: فضل الصبر والاحتساب.

وفيه: أن المصائب تكفر السيئات وتحط الأوزار.

وفيه: رحمة الله - تعالى - بعباده.

٣٨- وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ تُوعَكُ وَعَكًا شَدِيدًا قَالَ: «أَجَلُ إِنِّي أُوَعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُم» قُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: «أَجَلُ ذَلِكَ كَذَلِكَ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كَفَرَ اللَّهُ بِهَا سِيئَاتِهِ، وَحَطَّتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقُهَا» [متفق عليه].
وَالْوَعَكُ: مَغْتُ الْحُمَى، وَقِيلَ: الْحُمَى.

* الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - هم أشد الناس بلاءً لأنهم مخصوصون بكمال الصبر وصحة الاحتساب، ولأن الله - تعالى - جعل منهم قدوة وأسوة للناس. وقد ذكر النبي ﷺ في الحديث أنه يوعك كما يوعك الرجلان.
وفي الحديث: بشارة أن أدنى ما يصيب المؤمن ولو شوكة صغيرة كفر الله به سيئاته، وكذلك ما فوقها من الآلام والأذى والأمراض وغيرها.
قال أبو بكر - رضي الله عنه -: «إن المسلم ليؤجر في كل شيء حتى في النكبة وانقطاع شسعه والبضاعة تكون في كفه فيفقدوها، فيفزع لها فيجدها في غبه».
وفي قوله ﷺ: «ما من مسلم يصيبه أذى، شوكة فما فوقها» يعني، سواء كان مطيعاً أو فاسقاً، على عبادة عظيمة أو هو مقصر، إذا وقع له البلاء والمرض فإن الله يكفر عنه من ذنوبه.

«إلا كفر الله بها سيئاته» والسيئات إنما سميت بذلك لأنها تسوء صاحبها حينما يقرؤها في كتابه يوم القيامة. وقد تسوءه في الدنيا بظهورها.
«وحطت ذنوبه» أي، توضع عن ظهره، كأنها أحمال على ظهره تثقله وترهقه فتوضع هذه الأحمال والذنوب كما تحط الشجرة ورقها، ولهذا جاء في بعض الآثار: أن أهل البلاء يتمنون أن ذلك قد ضوعف عليهم في الدنيا، لما يرون من الجزاء في الآخرة.

«كما تحط الشجرة ورقها» قال الطيبي: «شبه حال المريض وأصابه المرض جسده، ثم محو السيئات عنه سريعاً بحالة الشجرة وهبوب الرياح الخريفية وتناثر الأوراق منها، فهو تشبيه تمثيلي، ووجه الشبه الإزالة الكلية على سبيل السرعة».

وقال ابن الملك: «وفيه إشارة عظيمة لأن كل مسلم لا يخلو عن كونه متأذياً».

وقال سليمان بن القاسم: «كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّي الصَّبْرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] قال: كالماء المنهمر».

ومع هذه الأجور العظيمة للصابرين قال بعض العلماء: «لعلك تقول هذه الأخبار على أن البلاء خيرٌ في الدنيا من النعم، فهل لنا أن نسأل الله البلاء، فأقول: لا وجه لذلك. ولما روي عن رسول الله ﷺ أنه كان يستعيز في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة، وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] وكانوا يستعيزون من شماته الأعداء وغيرها».

والله - تبارك وتعالى -: يبتلي عبده لیسمع شكواه، وتضرعه ودعائه، وصبره ورضاه بما قضاه عليه، فهو - سبحانه وتعالى - يرى عباده إذا نزل بهم ما يختبرهم به من المصائب وغيرها، ويعلم خائنة أعينهم وما تخفي صدورهم، فيثيب كل عبد على قصده ونيته، وقد ذم الله - تعالى - من لم يتضرع إليه ولم يستكن له وقت البلاء، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

وفي الحديث: فضل الصبر على الأمراض، وأنها تكفر السيئات وتحط الذنوب.

٣٩- وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ» [رواه البخاري].
وَضَبَطُوا يُصِبْ: بَفَتْحِ الصَّادِ وَكَسْرِهَا.

* هذا الحديث العظيم من أحاديث الصبر، فإن الإنسان قد يصاب في هذه الدنيا بالمكآره في نفسه أو ماله أو ولده أو من يحب.
ومن أراد الله به خيراً فإنه يرسل إليه ألوان المكآره، فيصب منه في نفسه بالأوجاع والأمراض والهموم، والأُمُور المتنوعة من فقد مال أو حبيب، أو غيرها من الأقدار التي يسوقها الله - عز وجل - مما تكدر خاطره.
«يُصِبْ مِنْهُ» أي، تأتيه مصيبة في بدنه وماله أو محبوبه.

قال البيضاوي: أي، «يوصل إليه المصائب ليظهره من الذنوب، ويرفع درجته، وهي اسم كل مكروه، وذلك لأن الابتلاء بالمصائب طب إلهي يداوي به الإنسان من أمراض الذنوب المهلكة».

والابتلاء أمانة حب الله لعبده حتى يرفع درجته، ويعلي مرتبته، ويكفر خطيئته. وذلك مشروط بالصبر والاحتساب ورجاء ما عند الله.
والمؤمن معرض للابتلاء بعلّة أو قلة أو ذلة، وإنما كان ما يصيب منه خيراً حالاً لما فيه من اللجوء إلى الله - تعالى -، وذلك له حالاً ومالاً لما فيه من تكفير السيئات.

ذكر عن أبي معمر الأزدي قال: كنا إذا سمعنا من ابن مسعود شيئاً نكرهه سكتنا حتى يفسر لنا، فقال لنا ذات يوم: ألا إن السقم لا يكتب له أجر، فسأنا ذلك وكبر علينا، فقال: «ولكن يكفر به الخطيئة، فسرنا ذلك وأعجبنا».

قال رجل للإمام أحمد - رحمه الله -: كيف تجددك يا أبا عبد الله؟ قال: بخير في عافية فقال له: حممت (أي أصابتك الحمى) البارحة؟ قال: «إذا قلت لك: أنا في عافية فحسبك، ولا تخرجني إلى ما أكره».

قال سلام بن أبي مطيع: «دخلت على مريض أعوده، فإذا هو يئن، فقلت له: اذكر المطروحين على الطريق، اذكر الذين لا مأوى لهم ولا لهم من يخدمهم، ثم دخلت عليه بعد ذلك فسمعتة يقول لنفسه: اذكر المطروحين في الطرق، اذكر من لا مأوى لهم ولا من يخدمه».

وذكر عن هلال بن بساق قال: «كنا قعوداً عند عمار بن ياسر، فذكروا الأوجاع فقال أعرابي: ما اشتكت قط، فقال عمار: ما أنت منا، أو لست منا، إن المسلم يُتلى ببلاء، فتحط عنه ذنوبه، كما يحط الورق من الشجر، وإن الكافر أو قال الفاجر يُتلى ببلية، فمثله مثل البعير إن أطلق لم يدر لم أطلق، وإن عقل لم يدر لم عقل».

وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] يبكي ويردها، ويقول: إنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستاذنا».

وجاء في عدة الصابرين: أن عبد الأعلى التيمي يقول: «أكثرنا من سؤال الله العافية، فإن المبتلى وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافي الذي لا يأمن من البلاء، وما المبتلون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس، وما المبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم، ولو كان البلاء يجر إلى خير ما كنا من رجال البلاء، إنه رب بلاء قد أجهد في الدنيا وأخزى في الآخرة، فما يؤمن من أطال المقام على معصية الله أن يكون قد بقي له في بقية عمره من البلاء ما يجهده في الدنيا ويفضحه في الآخرة».

وفي الحديث: أن البلايا والمصائب مما يكفر الله بها السيئات ويحط بها الخطيئات.

٤٠ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لَضُرِّ أَصَابِهِ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعْلًا فَلْيُقِلْ: اللَّهُمَّ أَحْنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي» [متفق عليه].

* رَوَى الْحَدِيثُ هُوَ خَادِمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ الْخَزْرَجِيُّ، وَلَدَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بَعَشَرَ سِنَوَاتٍ. وَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَزْوَةَ بَدْرٍ. تَوَفَّى سَنَةَ إِحْدَى وَتَسْعِينَ بِالْبَصْرَةِ بَعْدَ عُمُرٍ طَوِيلٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -
وَقَدْ أورد المؤلف - رحمه الله تعالى - هذا الحديث في باب الصبر، فإن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وكدر وأحزان، يفجع المرء فيها بمصيبة، وتناله الشدة، وقد تصغر في عينه من شدة البلاء وطوله.

وفي الحديث: ذكر فضيلة الصبر وحسن عاقبته، فقد يصاب المرء في حياته بضر يعجز عن تحمله، سواء كان ضرراً حسيماً في بدنه أو معنوياً يكرهه فيتمنى الموت على سبيل الجزع، والواجب عليه الصبر والاحتساب والرضى بما قدر الله فإن هذه حال الدنيا، وهو مأجور على الصبر والاحتساب والرضا بما نزل به.

وفي هذا الحديث وجه النبي ﷺ بعدم تمني الموت، فإن في فقد الحياة فقد للعمل الصالح، وفيه عدم صبر وتسخط وجزع لما أصابه، ودل النبي ﷺ لمن أصابه أمر أشد عليه وضائق عليه السبل أن يعدل إلى الدعاء، وذلك بأن يدعوا بقوله «اللهم أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي» فالإنسان لا يعلم أين الخير فيه، هل هو في موته أو بقاءه.

وحكمة النهي عن تمني الموت ما جاء من حديث أم الفضل أن النبي ﷺ دخل على العباس، وهو يشتكي فتمنى الموت، فقال: «يا عباس: يا عم رسول الله، لا تتمن الموت إن كنت محسناً تزداد إحساناً إلى إحسانك خير لك، وإن كنت مسيئاً فإن تؤخر تستعيب خير لك، لا تتمن الموت» [رواه أحمد].

قال الإمام النووي معلقاً على الحديث: «فيه التصريح بكراهة تمني الموت لضر نزل به من مرض أو فاقة أو محنة من عدو أو نحو ذلك من مشاق الدنيا، فأما إذا خاف ضرراً في دينه أو فتنة فيه فلا كراهية فيه لمفهوم الحديث وغيره». في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أصاب عبداً همٌّ ولا حزن فقال اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك ماضٍ في حكمك عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني، وذهب همي وغمي، إلا أذهب الله همه وغمه، وأبدله مكانه فرحاً»، قالوا: يا رسول الله أفلا نتعلمهن؟ قال: «بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن» [رواه أحمد].

قال السعدي - رحمه الله - عن تمني الموت:
«لذلك مفاسد:

الأول: أنه يؤذن بالتسخط والتضجر من الحالة التي أصيب بها، وهو مأمور بالصبر والقيام بوظيفته، ومعلوم أن تمني الموت ينافي ذلك.
الثاني: أنه يضعف النفس، ويحدث الخور والكسل، ويوقع في اليأس، والمطلوب من العبد مقاومة هذه الأمور، والسعي في إضعافها وتخفيفها بحسب اقتداره، وأن يكون معه من قوة القلب وقوة الطمع في زوال ما نزل به، وذلك موجب لأمرين: اللطف الإلهي لمن أتى بالأسباب المأمور بها، والسعي النافع الذي يوجهه قوة القلب ورجاؤه.

الثالث: أن تمني الموت جهل وحمق، فإنه لا يدري ما يكون بعد الموت، فربما كان كالمستجير من الضر إلى ما هو أفظع منه من عذاب البرزخ وأحواله، نسأل الله السلامة.

وفي الحديث: تفويض الأمر إلى علام الغيوب، وحال المؤمن على كل حال خير له، سواء في سراء فشكر أو ضراء فصبر.

٤١ - وعن أبي عبد الله خباب بن الأرت - رضي الله عنه - قال: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: «قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمُنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نَصْفَيْنِ، وَيُمَشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيَتَمَنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّائِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذُّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» [رواه البخاري].

وفي رواية: «وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً».

* في بداية بعثة النبي ﷺ جرى على المسلمين من البلاء أشده، ومن الأذى أكثره، ونالهم ما نالهم في جنب الله - عز وجل -، وقد ذكر خباب - رضي الله عنه - أنه: سادس ستة في الإسلام، وكان فيمن يعذب في الله. ذكر أنهم أتوا إلى النبي ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة، وهذا من تواضعه ﷺ فاشتكوا له ما يجدون من المشركين من الأذى، فذكرهم بحال أتباع الأنبياء وما جرى لهم من البلاء وهو أشد، حيث يحفر للرجل حفرة ويجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ومع ذلك كله فهو ثابت على دينه باق على ملته.

قال القرطبي: «فوصفه ﷺ هذا عن الأمم السالفة على جهة المدح لهم، والصبر على المكروه في ذات الله، وأنهم لم يكفروا في الظاهر، وتبطنوا الإيمان ليدفعوا العذاب عن أنفسهم، وهذه حجة من أثر الضرب والقتل والهوان على الرخصة».

قال الطيبي: «من بيان (لما)، وفيه مبالغة بأن الأمشاط لحدثها وقوتها كانت تنفذ من اللحم إلى العظم وما يتعلق به من العصب».

والواجب على المسلمين عامة، والدعاة إلى الله خاصة الصبر والاحتساب على ما ينالهم من أذى، وكذلك انتظار الفرج فإنه عبادة، لأنه حسن ظن بالله. وفي الحديث أن البلاء من لوازم الإيمان، وبيان شدة بلاء الصحابة - رضي الله عنهم - وما نالهم من الأذى في سبيل الله - عز وجل -، وفي الحديث ملازمة الصبر وكرهه الاستعجال.

وفي الحديث إخبار النبي ﷺ عن أمور مستقبلية، وهي من دلائل النبوة ومعجزاتها، وقد تحققت كما قال ﷺ. فقد انتشر الإسلام وعم ربوع الأرض وبسط الأمن ردائه في صدر الإسلام من الشام إلى اليمن، ومن مصر إلى بلاد فارس وما وراء النهرين.

قال ﷺ: **«حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه»** والمسافة بين صنعاء وحضرموت مسافة بعيدة نحو خمسة أيام.

قال صاحب عون المعبود: «ولا يخفى فيه من المبالغة في حصول الأمن وزوال الخوف، فاصبروا على أمر الدين كما صبر من سبقكم». وفي الحديث تبشير النبي ﷺ هذه الأمة بالتمكين والرفعة والسؤدد، وشكوى الصحابة - رضي الله عنهم - ليست من تضجر وتبرم، وإنما لأنهم رغبوا في التفرغ للعبادة والطاعة.

وقد بشر النبي ﷺ أمته كما روى ذلك أبي بن كعب أنه ﷺ قال: **«بشر هذه الأمة بالسنة والرفعة والتمكين في الأرض...»** [الترغيب والترهيب].

جاء في «عدة الصابرين» أن وهب قال: عبد الله عابد خمسين عامًا، فأوحى الله إليه: إني قد غفرت لك، قال: أي رب وما تغفر لي ولم أذنّب؟ فأذن الله بعرق في عنقه يضرب عليه، فلم ينم ولم يُصل، ثم سكن فنام، ثم أتاه ملك فشكا إليه، فقال: ما لقيت من ضربان العرق، فقال الملك: إن ربك يقول: إن عبادتك خمسين سنة تعدل سكون العرق».

٤٢- وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ آثَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَاسًا فِي الْقِسْمَةِ: فَأُعْطِيَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ وَأُعْطِيَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ مِثْلَ ذَلِكَ، وَأُعْطِيَ نَاسًا مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ وَآثَرُهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْقِسْمَةِ. فَقَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ إِنْ هَذِهِ قِسْمَةٌ مَا عُدِلَ فِيهَا، وَمَا أُرِيدُ فِيهَا وَجْهَ اللَّهِ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتَهُ بِمَا قَالَ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ حَتَّى كَانَ كَالصَّرْفِ. ثُمَّ قَالَ: «فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟» ثُمَّ قَالَ: «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ» فَقُلْتُ: لَا جَرَمَ لَا أَرْفَعُ إِلَيْهِ بَعْدَهَا حَدِيثًا. [متفقٌ عليه].

وَقَوْلُهُ كَالصَّرْفِ هُوَ بِكسْرِ الصَّادِ الْمُهْمَلَةِ: وَهُوَ صِبْغٌ أَحْمَرٌ.

* بعد أن فتح الله - عز وجل - مكة للنبي ﷺ اتجه نحو الطائف، وكانت غزوة حنين حيث غنم المسلمون غنائم كثيرة من إبل وغنم، ودراهم ودنانير، ولما نزل ﷺ بالجعранаة وهو عائد من الطائف إلى مكة قسم الغنائم، وكان للمؤلفة قلوبهم النصيب الأكبر من الغنائم رغبة في تثبيتهم على الإسلام، وترغيبهم فيه.

فأخذت الدنيا والشيطان من نفس رجل، لما رأى تلك القسمة وكثرة ما أعطى النبي ﷺ من الأموال والإبل والغنم إلى المؤلفة قلوبهم، أعطاهم عطاء من لا يخشى الفقر. فقال: وَاللَّهِ إِنْ هَذِهِ قِسْمَةٌ مَا عُدِلَ فِيهَا، وَمَا أُرِيدُ فِيهَا وَجْهَ اللَّهِ.

فلما سمع عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - هذا الكلام القبيح في حق النبي ﷺ أخبره، فتأثر النبي ﷺ وتغير وجهه الشريف حتى كان كالصرف - أي الذهب -.

فما كان من النبي ﷺ إلا أنه حلم وصفح عن الرجل وذكرهم بحال الأنبياء ممن سبقوا، فقال: «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى. قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ».

وفيه، استحباب الإعراض عن الجاهل وتعليمه، والصفح والتأسي بمن مضى من الصالحين. وفيه، النصح لله ولرسوله وللمؤمنين كما فعل الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -.. وفي فعل النبي ﷺ وحلمه وعفوه، الصبر على الأذى في سبيل الله - عز وجل -.

قال القرطبي: «هذا قول جاهل بحال النبي ﷺ، غليظ الطبع، حريص، شره، منافق، وكان حقه أن يُقتل لأنه آذى رسول الله ﷺ».

وفي هذا الحديث بيان شفقة النبي ﷺ على قومه، ومزيد صبره وحلمه، وهو موافق لقوله تعالى ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّهْمُ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وهذه الكلمة التي قالها الرجل كلمة كفر، أن يُنسب الله ورسوله إلى عدم العدل، وأن النبي ﷺ لم يرد بها وجهه. وقد ترك ﷺ قتل قائل الكلام مع أن سبه كفر يقتل به فاعله، لئلا يتحدث الناس بأنه ﷺ يقتل أصحابه فينفروا عن الإسلام، فعامله معاملة غيره من المنافقين.

قال شيخ الإسلام في الصارم المسلول: «فمن كان يعتقد أن النبي ﷺ جائر في قسمه يقول إنه يفعلها بأمر الله فهو مكذب له، ومن زعم أنه يجور في حكم أو قسمة فقد زعم أنه جائر، وأن اتباعه لا يجب، وهو مناقض لما تضمنته الرسالة من أمانته ووجوب طاعته».

وفي الحديث: احتمال الجاهلين، والإعراض عن مقابلتهم، ودفع السيئة بالحسنة، وإعطاء من يتألف قلبه، والعفو عن مرتكب كبيرة - لا أحد فيها - بجهله، وإباحة الضحك عند الأمور التي يتعجب منها في العادة، وفيه كمال خلق رسول الله ﷺ وصفحه الجميل.

٤٣ - وعن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ خَيْرًا عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُؤَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ عَظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عَظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ» [رواه الترمذي وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ].

* في هذه الدنيا سهام المصائب مُشرعة، ورماح البلاء معدة مرسله، فإننا في دار ابتلاء وامتحان، ونكد وأحزان، ولا بد أن يُبتلى الإنسان إما بالسراء أو بالضراء أو بكليهما، فهو حينها محتاج إلى أن يكون صابراً شكوراً.

وإذا أراد الله - عز وجل - بعبده المقصر العاصي الذي اجتراً على محارمه وحدوده أن يعاقبه عجل له العقوبة في الدنيا، إما بماله، وإما بأهله، أو بنفسه، لأن العقوبة تكفر السيئات وذلك من الخير للعبد، فإن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا.

لكن إذا أراد الله - عز وجل - بعبده غير ذلك أمهل له واستدرجه، وأدر عليه النعم، ودفع عنه النقم حتى يبطر ويزاد في الطغيان والعصيان، وحينئذ يلاقي ربه وهو مغمور بسيئاته فيعاقب بها في الآخرة.

قال ابن عثيمين: «والإنسان لا يخلو من خطأ ومعصية وتقصير في الواجب، فإذا أراد الله بعبده خيراً، عجل له العقوبة في الدنيا إما بماله أو بأهله أو بنفسه أو بأحد ممن يتصل به.

المهم أن تعجل له العقوبة، لأن العقوبات تكفر السيئات، فإذا تعجلت العقوبة وكفر الله بها عن العبد فإنه يوافي الله وليس عليه ذنب قد طهرته المصائب والبلايا، حتى أنه ليشدد على الإنسان موته لبقاء سيئة أو سيئتين

عليه حتى يخرج من الدنيا نقيًا من الذنوب، وهذه نعمة لأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة».

والناس يتلون على حسب دينهم، والواجب على المؤمن أن يكون راضيًا بما ابتلي به، ولا ييأس ولا يتسخط مما نزل به، فإن كان كذلك كفرت عنه سيئاته، ومن سخط وتضجر فاته الأجر وثبت عليه الوزر، ومضى فيه القدر.

قال الحسن: «لا تكرر هوا البلياء الواقعة والنقمات الحادثة، فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك، ولرب أمر تؤثره فيه عطبك». (أي هلاكك).

وقال الفضل بن سهل: «إن في العلل لنعمًا لا ينبغي للعاقل أن يجهلها، فهي تمحيص للذنوب، وتعرض لثواب الصبر، وإيقاظ من الغفلة، وتذكير بالنعمة في حال الصحة، واستدعاء للتوبة وحض على الصدقة».

ولا شك أن تعجيل العقوبة في الدنيا أمانة خير أرادها الله بعبده، لأنها كفارة للذنوب، وسبب في زوالها فإن الصبر على المصائب والأمراض تطهير للذنوب.

وقد قال عليه السلام: «يود أهل العافية يوم القيامة حين يُعطى أهل البلاء الثواب أن لو كانت جلودهم قرضت في الدنيا بالمقاريض» [رواه الترمذي].

قال الفضيل: «إن الله - عز وجل - ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير».

وقالت عائشة - رضي الله عنها - «إن الحمى تحط الخطايا كما تحط الشجرة ورقتها».

وفي الحديث عنه عليه السلام: أنه قال: «إن الله ليكفر عن المؤمن خطاياها كلها بحمي ليلة» [الترغيب والترهيب].

وفي الحديث: حث على أن الإنسان يصبر على المصائب حتى يكتب له الرضى من الله - عز وجل -.

٤٤ - وعن أنس - رضي الله عنه - قال: كَانَ ابْنُ لَأْبِي طَلْحَةَ - رضي الله عنه - يَشْتَكِي، فخرج أَبُو طَلْحَةَ، فَقَبِضَ الصَّبِيَّ، فَلَمَّا رَجَعَ أَبُو طَلْحَةَ قَالَ: مَا فَعَلَ ابْنِي؟ قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ وَهِيَ أُمُّ الصَّبِيِّ: هُوَ أَسْكَنُ مَا كَانَ، فَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ الْعِشَاءَ فَتَعَشَى، ثُمَّ أَصَابَ مِنْهَا، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَتْ: وَاوُوا الصَّبِيَّ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبُو طَلْحَةَ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «أَعَرَسْتُمُ اللَّيْلَةَ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمَا» فَوَلَدَتْ غُلَامًا فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ: احْمِلْهُ حَتَّى تَأْتِيَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَبَعَثَ مَعَهُ بِتَمْرَاتٍ، فَقَالَ: «أَمَعُهُ شَيْءٌ؟» قَالَ: نَعَمْ، تَمْرَاتٌ فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ فَمَضَغَهَا، ثُمَّ أَخَذَهَا مِنْ فِيهِ فَجَعَلَهَا فِي فِي الصَّبِيِّ ثُمَّ حَنَّكَهُ وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللَّهِ [متفق عليه].

وفي رواية للبُخَارِيِّ: قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: فَرَأَيْتُ تَسْعَةَ أَوْلَادٍ كُلُّهُمْ قَدْ قَرَأُوا الْقُرْآنَ، يَعْنِي مِنْ أَوْلَادِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُؤَلَّدِ.

وفي رواية لمسلم: مَاتَ ابْنُ لَأْبِي طَلْحَةَ مِنْ أُمِّ سُلَيْمٍ، فَقَالَتْ لِأَهْلِهَا: لَا تُحَدِّثُوا أَبَا طَلْحَةَ بِابْنِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا أَحَدُهُ، فَجَاءَ فَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ عِشَاءً فَأَكَلَ وَشَرَبَ، ثُمَّ تَصَنَّعَتْ لَهُ أَحْسَنَ مَا كَانَتْ تَصْنَعُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَوَقَعَ بِهَا، فَلَمَّا أَنْ رَأَتْ أَنَّهُ قَدْ شَبِعَ وَأَصَابَ مِنْهَا قَالَتْ: يَا أَبَا طَلْحَةَ، أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ قَوْمًا أَعَارُوا عَارِيَتَهُمْ أَهْلَ بَيْتٍ فَطَلَبُوا عَارِيَتَهُمْ، أَلَهُمْ أَنْ يَمْنَعُوهَا؟ قَالَ: لَا، فَقَالَتْ: فَاحْتَسِبْ ابْنَكَ. قَالَ: فَغَضِبَ، ثُمَّ قَالَ: تَرَكْتَنِي حَتَّى إِذَا تَلَطَّخْتُ ثُمَّ أَخْبَرْتَنِي بِابْنِي، فَاَنْطَلَقَ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَارَكَ اللَّهُ لَكُمَا فِي لَيْلَتِكُمَا».

قال: فحملت، قال: وكان رسول الله ﷺ في سفرٍ وهي معه وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفرٍ لا يطرقها طروقاً فدنوا من المدينة، فضرَبَهَا الْمَخَاضُ، فَاحْتَبَسَ عَلَيْهَا أَبُو طَلْحَةَ، وَاَنْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. قَالَ: يَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ يَا رَبُّ أَنَّهُ يَعْجِبُنِي أَنْ أَخْرَجَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا خَرَجَ،

وَأَدْخَلَ مَعَهُ إِذَا دَخَلَ، وَقَدْ احْتَبَسْتُ بِمَا تَرَى. تَقُولُ أُمُّ سُلَيْمٍ: يَا أَبَا طَلْحَةَ مَا أَجْدَ الَّذِي كُنْتُ أَجْدُ، أَنْطَلِقُ، فَأَنْطَلِقُنَا، وَضَرَبَهَا الْمَخَاضُ حِينَ قَدِمَا فَوَلَدَتْ غُلَامًا. فَقَالَتْ لِي أُمِّي: يَا أَنْسُ لَا يُرْضِعُهُ أَحَدٌ تَغْدُو بِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا أَصْبَحَ احْتَمَلْتُهُ فَأَنْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ.

* في الحديث فضل الصبر والتسليم لأمر الله - تعالى -، ومن فعل ذلك رجي له الإخلاف في الدنيا.

وفي الحديث ذكر لمثال امرأة مسلمة صادقة، ذات عقل وتدبير وحسن تبعل، وأن ما فعلته من إثارة رضى الزوج على حزنه من وفاء الزوجة لزوجها، وفيه التسلية عن المصائب، وتزوين المرأة لزوجها حتى في حال مصيبتها وأن هذا من حسن التبعل، واجتهادها في عمل مصالحه، ومشروعية المعاريض الموهمة إذا دعت الضرورة إليها، ولم يترتب عليها إبطال حق. وفيه التلطف في الإخبار عن وفاة أو مصيبة.

وفيه وجوب تسمية المولود باسم حسن، ويستحب بعبد الله وعبد الرحمن. وفي الحديث الآخر عن محمود بن لبيد عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من مات له ثلاثة من الولد، فاحتسبهم، دخل الجنة**»، قال قلنا: يا رسول الله، واثنان؟ قال: «**واثنان**» قال محمود، فقلت لجابر: أراكم لو قُلتُم واحد، لقال: واحد. وأنا والله أظن ذلك» [رواه أحمد].

وفي الحديث عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه -: أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات ولد العبد، قال الله - تعالى - لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع فيقول الله - تعالى -: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة، وسموه بيت الحمد**» [رواه ابن حبان].

٤٥ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ» [متفق عليه].
والصُّرْعَةُ بِضَمِّ الصَّادِ وَفَتْحِ الرَّاءِ، وَأَصْلُهُ عِنْدَ الْعَرَبِ مَنْ يَصْرَعُ النَّاسَ كَثِيرًا.

* لما جاء الإسلام غير مفهوم القوة الجسدية إلى معنى راق سام في الأخلاق والمعاملات ومجاهدة النفس وامتلاك زمامها، وبين أن ذلك أشد من مجاهدة العدو، ومدح النبي ﷺ من يملك نفسه عند الغضب، لأنه جماع الشر، والتحرز منه جماع الخير، وقد قال عمر بن عبد العزيز: «قد أفلح من عَصَمَ من الهوى، والغضب، والطمع».

وقد كان المعروف، أن الشديد هو القوي الذي يصرع الناس كثيراً. لكن النبي ﷺ بين أن الشديد الذي لا يُغلب، هو الذي يغلب نفسه عند الغضب ويقهرها.

قال ابن القيم عن الشديد بالصرعة: «أي مالك نفسه أولى أن يسمى شديداً من الذي يصرع الرجال».

وقال النووي: «أي تعتقدون أن الصرعة الذي يصرع الناس هو الرجل الشديد، وليس كذلك، بل الصُّرْعَةُ المحمود القوي الفاضل هو من **«يملك نفسه عند الغضب»** الذي قل من يقدر على التخلق بخلقه ومشاركته في فضيلته بخلاف الأول».

وقال ابن حبان: «سرعة الغضب من شيم الحمقى، كما أن مجانبته من زي العقلاء، والغضب بذر الندم، فالمرء على تركه قبل أن يغضب أقدر على إصلاح ما أفسد به بعد الغضب».

وأكثر ما يهيج الغضب: المرء والجدل، والمزاح المتجاوز لحدود الأدب، والتعدي على الآخرين.

قيل: الغضب أوله جنون وآخره ندم.
قال ابن تيمية: «ولهذا كان القوي الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب حتى يفعل ما يصلح دون ما لا يصلح، فأما المغلوب حين غضبه فليس هو بشجاع ولا شديد».
وفي الحديث: فضيلة كظم الغيظ، وإمساك النفس عند الغضب والمخاصمة والمنازعة.
وفيه: أن مجاهدة النفس أشد من مجاهدة العدو، وهي الجهاد الأكبر والشجاعة الحقيقية.
وفيه: كثرة التوجيهات النبوية في الأخلاق والمعاملات.

٤٦ - وعن سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ - رضي الله عنه - قال: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَرَجُلَانِ يَسْتَبْتَانِ وَأَحَدُهُمَا قَدْ احْمَرَّ وَجْهُهُ. وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجْدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجْدُ». فَقَالُوا لَهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: تَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. [متفق عليه].

* في الحديث علاج نافع شاف في تخفيف وإزالة أعراض هذا الداء الخطير، الذي قد يحمر وجه صاحبه وتنتفخ أوداجه من شدة الغضب، فأرشد ﷺ إلى قول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

قال النووي: «في هذا الحديث: «أن الغضب في غير الله - تعالى - من نزغات الشيطان، وأنه ينبغي لصاحب الغضب أن يستعيز، وأنه سبب لزوال الغضب» وقال القرطبي: «هذا يدل على أن الشيطان له تأثير في تهيج الغضب وزيادته حتى يحمله على البطش بالمغضوب عليه، أو إتلاف نفسه، أو شر يفعله يستحق العقوبة في الدنيا والآخرة، فإذا تعوذ الغضبان بالله من الشيطان، وصح قصده واستجارته، فالله - تعالى - أكرم من أن يخذل من استجار به».

وفي الحديث: استحباب النصيحة للآخرين وإن لم يطلبوه. وقد نصح النبي ﷺ بأسباب أخرى تزيل الغضب، منها تغيير الحالة التي هو عليها، قال ﷺ: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع» [رواه أبو داود وأحمد] وفي الحديث: «إن الغضب جمره في قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه، فمن أحس بشيء فليلصق بالأرض» [رواه أحمد].

ومن علاج الغضب: السكوت وكنم الغيظ. قال ابن رجب عن السكوت: «وهذا أيضاً دواء عظيم للغضب، لأن الغضبان يصدر منه في حال غضبه من القول ما يندم عليه في حال زوال غضبه

كثيراً من السباب وغيره مما يعظم ضرره، فإذا سكت زال هذا الشر كله عنه، وما أحسن قول مورق العجلي: «ما امتلأت غيظاً قط، ولا تكلمت في غضب قط بما أندم عليه إذا رضيت».

والغضب جماع الشر لأنه من الشيطان، في الحديث الآخر: «إن الغضب من الشيطان، خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ» [رواه أبو داود].

ومنها ما ذكره الله - عز وجل - بقوله: ﴿وَمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وكان من دعاء النبي ﷺ «وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرَّضَا» [رواه النسائي].

قال ابن رجب معلقاً: «وهذا عزيز جداً أن الإنسان لا يقول سوى الحق سواء غضب أو رضي، فإن أكثر الناس إذا غضب لا يتوقف فيما يقول».

والمسلم يدعو بدعاء النبي ﷺ «اللهم اهْدِنِي لأَحْسَنَ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ» [رواه أحمد].

وفي الحديث: علاج ناجع للغضب، وهو قول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم حال الغضب.

وفيه: تحذير النبي ﷺ أمته من الغضب ونتائجه وآثاره.

٤٧- وعن مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ - رضي الله عنه - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَظَمَ غِيظًا، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ» [رواه أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ].

* في الحديث بيان لصفة عظيمة لمن وفقه الله - عز وجل - إليها، وهي كظم الغيظ حال الغضب مع القدرة على ذلك، ولكنه يدع ويترك الفتك بخصمه رجاء ما عند الله وصبراً على ما ناله.

وفي قوله ﷺ «مَنْ كَظَمَ غِيظًا» أي، تجرعه، واحتمال سببه والصبر عليه. «وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ» أي، والحال أن هذا الغضبان الذي حبس نفسه وتجرع غيظه قادر على أن ينفذه. أي، يمضيه ويرد غيظه التشفي ممن غاظه بأن يفعل به ما يسكن نفسه، فلا يفعل ذلك، ويتحمل ما هو فيه، نظراً إلى عظم قدرة الله عليه، وعلماً بأنه أحوج إلى عفو الله، وأكثر تقصيراً على ما فرط في جنب الله من هذا الذي هو تحت قدرته، وهو قادر على الانتقام منه.

قال الطيبي: «وإنما حمد الكظم، لأنه قهر النفس الأمارة بالسوء، ولذلك مدحهم الله بقوله: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤] ومن نهى النفس عن هواه فإن الجنة مثواه، والهور العين جزاه.

وقد وعد النبي ﷺ بأجر عظيم وثواب جليل لمن كتم غيظه، وهو قادر ومستطيع أن ينفذه، وذلك بأن يدعى على رؤوس الخلائق يوم القيامة ويخير من أيّ الحور شاء، وفي ذلك تنويه بشأنه وإعلام بعلو مكانه حيث يدعى على رؤوس الخلائق. ويقال هذا الذي صدرت منه هذه الخصلة العظيمة.

وجاء في الحديث الآخر: «لا تغضب ولك الجنة» [رواه الطبراني].

قال ابن القيم: «ولما كانت المعاصي كلها تتولد من الغضب والشهوة، وكان نهاية قوة الغضب القتل، ونهاية قوة الشهوة الزنى جمع الله - تعالى - بين القتل والزنى، وجعلهما قرينين في سورة الأنعام وسورة الإسراء، وسورة الفرقان، وسورة الممتحنة، والمقصود أنه - سبحانه - أرشد عباده إلى ما يدفعون به شر قوتي الغضب والشهوة من الصلاة والاستعاذة».

وقال - رحمه الله -: «إن الغضب مرض من الأمراض، وداء من الأدواء فهو في أمراض القلوب نظير الحمى والوسواس والصرع في أمراض الأبدان، فالغضب ان المغلوب في غضبه كالمريض والمحموم والمصروع المغلوب في مرضه، والمبرسم المغلوب في برسامه».

والصبر أمره عظيم وخاتمته حسنة، قال تعالى ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّبُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

قال الأوزاعي عن أجر الصابرين: «ليس يوزن لهم ولا يكال، إنما يغرف لهم غرفاً، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند الله، وأنه معين على كل الأمور».

وفي الحديث: فضل كظم الغيظ وعظم أجر فاعله.

٤٨ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي، قَالَ: «لَا تَغْضَبْ فَرَدَّدَ مَرَارًا قَالَ، لَا تَغْضَبْ» [رواه البخاري].

* أوصى النبي ﷺ في الحديث من طلب النصيحة، بقوله: «**لا تغضب**» كررها مراراً لأهميتها ولتقع موقعاً من السائل، فهذه وصية نافعة لأن الغضب يجمع الشر كله، وهو باب من مداخل الشيطان. وفي قوله ﷺ: «**لا تغضب**» أي، لا تتعرض لأسباب الغضب، وللأمور التي تجلب الغضب، إذ نفس الغضب مطبوع في الإنسان لا يمكن إخراجه من جبلته.

أو معناه: لا تفعل ما يأمرك به الغضب ويحملك عليه من الأقوال والأفعال. وفي الحديث بيان عظم مفسدة الغضب وما يترتب عليه من أذى للنفس والغير.

ومن علاج الغضب مع التعوذ من الشيطان الرجيم، السكوت وعدم المجادلة، وكذلك الجلوس أو الاضطجاع، وتغيير المكان وكلها أدوية نافعة ناجعة.

فكم أفسد الغضب من صداقات، وجلب من عداوات، وشتت بيوتاً وأسراراً، وفرق إخوة، وقطع أرحاماً، وربما تعدى ذلك إلى القتل.

عن وائل - رضي الله عنه - قال: إني لقاعد مع النبي ﷺ إذا جاء رجل يقود آخر بنسعة، فقال: يا رسول الله هذا قتل أخي، فقال رسول الله ﷺ: «**أقتلته؟**» فقال: «**إنه لو لم يعترف أقمت عليه البينة**»، قال: نعم قتلته. قال «**كيف قتلته؟**» قال: كنت أنا وهو نحتطب من شجرة فسبني فأغضبني فضربته بالفأس على قرنيه فقتلته. [رواه مسلم].

ومن الغضب ما هو محمود وهو ما كان لله ولنصرة دينه، وكان ﷺ لا يغضب إلا إذا انتهكت حرمة الله.

قالت عائشة - رضي الله عنها -: «ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن يُنتهك شيء من محارم الله، فينتقم الله - عز وجل -». [رواه مسلم].

وأصل العداوة والشر الحسد الواقع بين الناس من اتباع الهوى، فمن خالف هواه أراح قلبه، وبدنه وجوارحه، فاستراح وأراح.

قال الإمام أحمد: «ذكر الله الصبر في القرآن في نحو من تسعين موضعاً، وهو واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان، فإن الإيمان نصفان، نصف صبر، ونصف شكر».

وفي الحديث: الابتعاد عن مواطن الغضب وأسبابه.

وفيه: الوصية النافعة لمن طلبها.

وفيه: معرفه النبي ﷺ بنفوس الناس وطبائعها وما جبلت عليه.

٤٩- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ - تَعَالَى - وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ» [رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح].

* البلايا والرزايا مما تنفر منه النفس ولا تحبه، فقد يُبتلى المؤمن في نفسه بالمصائب والمتاعب، والأمراض والفقر، والغربة عن الأهل والأوطان، أو يبتلى بولده إما بموت أو مرض، أو عدم استقامة، أو نحو ذلك مما يؤلم الوالد بحسب الطبع البشري، أو في ماله بالتلف والحريق وغيرها. فيكون المؤمن في حال وقوع شيء من ذلك الذي يكره صابراً محتسباً، وهذه من نعم الله - عز وجل - على عباده ورحمته بهم أن يكفر ذنوبهم بما يصيبهم في الدنيا من عوارض وآفات.

وفي هذه الدنيا لا بد من الابتلاء بما يؤذي الناس، فلا خلاص لأحد مما يؤذيه البتة، ولهذا ذكر الله - تعالى - في غير موضع أنه لا بد أن يُبتلى الناس، والابتلاء يكون بالسراء والضراء، ولا بد أن يبتلى بما يسره وما يسوؤه، فهو محتاج إلى أن يكون صابراً شكوراً، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] وقال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. وفي الحديث قوله ﷺ:

«ما يزال البلاء» البلاء الاختبار، سواء كان ذلك بالخير أم بالشر إلا أنه غلب على استعماله بالمصائب.

«بالمؤمن والمؤمنة في نفسه» بالمرض، والفقر، والغربة.
«وولده» بالموت والمرض، أو عدم الاستقامة، أو نحوه مما يؤلم الوالد بحسب الطبع البشري.

«وماله» بالتلف والنقص ببعض الأسباب من حرق أو سرقة أو نحو ذلك.

«حتى يلقي الله - تعالى - وما عليه خطيئة» لقاء الله كناية عن الموت.

قال الطيبي: «فيه إشعار بأن للبلاء خاصة في نيل الثواب ليس للطاعة، وإن جعلت مثلها، ولذلك كان من نصيب الأنبياء أشد البلاء»

ولو تبصر الإنسان في من حوله لو جدهم بين أمرين، وفي أحد حالين: إما سراء أو ضراء، ولكن النفوس البشرية تغفل عن فتنة السراء ولا ترى إلا فتنة الضراء وهي الظاهرة في شكاوي البشر فما من إنسان إلا له ألم أو فجيعة، أو هم أو غم أو نكد، ولا يكاد يمر يوم في هذه الدنيا دون تنكيد وتنغيص، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البعد: ٤].

قيل في تفسير هذه الآية: يكابد أمراً من أمر الدنيا، وأمراً من أمر الآخرة، وفي رواية يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة.

والصحيح من أقوال العلماء: أن المصائب على الصبر هي - بمجردها - عقوبات تكفر السيئات ولا ترفع الدرجات ولا يثاب عليها، لأن الثواب ورفعة الدرجة إنما تكون على الأعمال والطاعات لا على فعل الرب المجرد، فإن صبر واحتسب أجر على فعله، الذي هو الصبر والاحتساب، أو الرضا بقضاء الله وقدره إن ترقى إلى ذلك، لا على مجرد مصيبتة التي أصابته - إلا أن تكون المصيبة بسبب طاعة -.

قال شيخ الإسلام: «والدلائل على أن المصائب كفارة كثيرة: إذا صبر عليها، أثيب على صبره، فالثواب والجزاء إنما يكون على العمل وهو الصبر، وأما نفس المصيبة، فهي من فعل الله لا من فعل العبد، وهي من جزاء الله للعبد على ذنبه وتكفيره ذنبه بها».

عن عبد الملك بن أبهر قال: «ما من الناس إلا مبتلى بعافية لينظر كيف شكره، أو مبتلى ببلية لينظر صبره».

وقال بعض السلف: «البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا صديق».

وليعلم أهل المصائب أنه لولا محن الدنيا ومصائبها لأصاب العبد من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلاً أو آجلاً، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده في الأحيان بأنواع المصائب تكون حمية له من هذه الأدواء، وحفظاً لصحة عبوديته، واستفراغاً للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة، فسبحان من يرحم ببلائه ويبتلي بنعمائه.

وفي الحديث: أن البلاء في النفس والمال والولد وغيرها، مما يكفر الله به الذنوب.

٥٠ - وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ فَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ الْقُرَاءُ أَصْحَابَ مَجْلِسِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَمُشَاوَرَتِهِ كَهَوْلًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لَابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ، فَاسْتَأْذَنَ فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ. فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ: هِيَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزَلَ وَلَا تَحْكُمُ فِينَا بِالْعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٩] وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ، وَاللَّهُ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا، وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ - تَعَالَى - [رواه البخاري].

* عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أمير المؤمنين وخليفة خليفة رسول الله، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، اشتهر بالعدل بين الرعية، وبالتواضع للحق، فتح الله الفتوح على يديه ودانت له الأمصار. وهو في هذه المنزلة العالية والمكانة الرفيعة لم يحتجب عن الرعية، فقد كان - رضي الله عنه - يجالس العلماء والفقراء على حد سواء.

ولهذا ينبغي لولي الأمر مجالسة القراء والفقهاء وأهل العلم ليذكروه إذا نسي، ويعينوه إذ ذكر. وكلما كانوا من أهل العلم والتقوى كان ولي الأمر أبعد عن الزلل، وقد توج البخاري أحد أبواب صحيحة بقوله: «وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمراء من أهل العلم».

والمقصود بالقراء في الحديث: العلماء العباد، وعلى ولي الأمر أن يتحلى بالحلم والصفح عن الجهال والعدل بين الرعية.

ومن ثمرات البطانة الصالحة: المشورة بالرشد والسداد للرأي، والأمانة في ذلك، قال ﷺ «المستشار مؤتمن» [رواه الترمذي].

قال جعفر الصادق: «ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه.
﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾».

وقد أورد المؤلف - رحمه الله تعالى - هذا الحديث في باب الصبر، فإن الغضب عدو العقل، وهو له كالذئب للشاة قل ما يتمكن منه إلا اغتاله. ومن أسباب الغضب العجب بالرأي والمكانة، والنسب والمال، وهو سبب للعداوة.

كتب عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - إلى عامل من عماله: «أن لا تعاقب عند غضبك، وإذا غضبت على رجل فاحبسه، فإذا سكن غضبك فأخرجه فعاقبه على قدر ذنبه».

وكان وصية عمر لأبي موسى الأشعري - رضي الله عنهما - في القضاء: «وإياك والغضب، والقلق والضجر».

والواجب على العاقل إذا ورد عليه شيء بضد ما تهواه نفسه، أن يذكر كثرة عصيانه ربه، وتواتر حلم الله عنه، ثم يسكن غضبه، ولا يزري بفعله الخروج إلى ما لا يليق بالعقلاء في أحوالهم، ثم تأمل وفور الثواب في العقبى، ونفي الغضب.

وفي الحديث: بيان فضل عمر - رضي الله عنه - وأنه وقاف عند حدود الله، رجاء للحق وأنه فضيلة.

٥١ - وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكَرُونَهَا»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: «تَوَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ وَتَسْأَلُونَ اللَّهَ الَّذِي لَكُمْ» [متفق عليه].
والأثرَةُ: الانفراد بالشَّيْءِ عَمَّنْ لَهُ فِيهِ حَقٌّ.

* أوصى النبي ﷺ أمته بما هو خير لها في دينها ودنياها، ومن جملة الوصايا العظيمة هذه الوصية، بالصبر، والحض على لزوم جماعة المسلمين وعدم الفرقة، وذكر ﷺ أنه سوف تكون في مستقبل الأيام أثره من بعض الناس، وهو الإنفراد بالشَّيْءِ عمن له فيه حق من الحقوق والأموال وغيرها، وسوف ترون أموراً تنكرونها من التبديل والتغيير، وقد كان كما أخبر ﷺ، والواجب في هذه الحالة وتحقيقاً للمصلحة العامة الصبر على المقدور والرضا بالقضاء، والسمع والطاعة لولي الأمر وإن كان ظالماً.
وفي الحديث قوله ﷺ:

«إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي» أي، تحصل بعد وفاي بمدة كما يؤمن إليه السنين.
«أثره» أي، يفضل غيركم في نصيبه من الشيء. والاستئثار، الانفراد بالشَّيْءِ وفي قوله: «أثره» قال النووي: المراد به هنا استئثار الأمراء بأموال بيت المال.

«وأُمُورٌ تُنْكَرُونَهَا» كما وقع من تأخير الصلوات، وبعض المنكرات.
(قالوا: يا رسول الله فما تأمرنا؟) أي، نفعله حينئذ، وفي هذا حرصهم - رضي الله عنهم - على السؤال لمعرفة الأمر.
قال ﷺ:

«تَوَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ» أي، تعطون الحق الذي كتب عليكم من الانقياد لهم وعدم الخروج عليهم.

«وتسألون الله الذي لكم» من الحق في بيت مال المسلمين.

وأرشد ﷺ من جرت عليه مثل هذه الحالة أن يؤدي ما عليه من الطاعة ولا يخرج عليه، ويتضرع إلى الله في كف أذاه ودفع شره وإصلاحه.

قال القرطبي: «أي، إن عصى الله الأمراء فيكم، ولم يقوموا بحقوقكم، فلا تعصوا الله أنتم فيهم، وقوموا بحقوقهم، فإن الله مجاز كل واحد من الفريقين بما عمل».

والحديث من دلائل النبوة حيث أخبر بما سيكون في أمته، وهذا من رحمته بهم ودلائلهم على الخير في ذلك.

وفي الحديث: الحث على السمع والطاعة، وإن كان المتولي ظالماً غشوماً، فيعطى حقه من الطاعة، ولا يُخرج عليه، ولا يُخلع، بل يتضرع إلى الله في كشف أذاه، ودفع شره، وتوفيق صلاحه.

وفيه: أن هذا من معجزات النبوة، وقد وقع هذا الإخبار متكرراً، ووجد مُخبره متكرراً.

وفيه: الصبر على المقدور، والرضا بالقضاء حلوه ومره، والتسليم لمراد الرب العليم الحكيم.

٥٢- وَعَنْ أَبِي يَحْيَى أَسِيدِ بْنِ حُضَيْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَسْتَعْمَلُنِي كَمَا اسْتَعْمَلْتَ فُلَانًا وَفُلَانًا فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةَ فَاضِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ» [متفق عليه].
وَأَسِيدٌ بَضَمَ الْهَمْزَةَ. وَحُضَيْرٌ بِحَاءٍ مُهْمَلَةٍ مَضْمُومَةٍ وَضَادٍ مُعْجَمَةٍ مَفْتُوحَةٍ،
وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

* في الحديث الدلالة على عدم طلب الولاية ابتداءً، فإن من اسندت إليه ولم يطلبها أعانه الله وسدده.

قال أبو ذر الغفاري - رضي الله عنه -: قلت: يا رسول الله! ألا تستعملني، قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: «يا أبا ذر! إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها» [رواه مسلم].

وفي الحديث الحث على الصبر على استئثار ولاية الأمور في حقوق الرعية، وأن من جزاء الصبر على جور ولاية الأمر أن يسقيهم الله من حوض النبي ﷺ، وهذا الحوض يكون في يوم القيامة حيث الناس عطشى وفي أحوج ما يكونون إلى الماء. والحوض طوله شهر وعرضه شهر كما أخبر بذلك ﷺ.

والمناسبة بين الجواب والسؤال: أن من شأن العامل الاستئثار إلا من عصم الله، فأشفق عليه ﷺ من أن يقع فيما يقع فيه بعض من يأتي بعده من الولاية. قال شيخ الإسلام تعليقاً على الحديث: «فهذا أمر بالطاعة، مع استئثار ولي الأمر، وذلك ظلم منه، ونهى عن منازعة الأمر أهله، وذلك نهي عن الخروج عليه».

وقال الإمام النووي: «فيه الحث على السمع والطاعة، وإن كان المتولي ظالماً عسوفاً، فيُعطى حقه من الطاعة، ولا يخرج عليه، ولا يُخلع، بل يُتضرع إلى الله - تعالى - في كشف أذاه، ودفع شره وإصلاحه».

وقال الشوكاني: «ولكنه ينبغي لمن ظهر له غلط الإمام في بعض المسائل أن يناصحه ولا يظهر الشناعة عليه على رؤوس الأشهاد».

قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: «إن العبد ليهم بالأمر في التجارة والإمامة حتى ييسر له، فينظر الله إليه فيقول للملائكة: اصرفوه عنه، فإنه إن يسرته له أدخلته النار، فيصرفه الله عنه، فظل يتطير بقوله: سبني فلان، وأهانني فلان، وما هو إلا فضل الله».

وفي الحديث: فضل الصبر وعظم أجره.

وفيه: إشارات للأنصار - رضي الله عنهم - بأنهم يردون عليه ﷺ الحوض.

وفيه: بيان من النبي ﷺ أن أمته سيلقون أثرة بعده، وهذا من آيات النبي ﷺ

التي أطلعها الله عليه. فوقعت كما قال ﷺ.

٥٣ - وَعَنْ أَبِي إِبْرَاهِيمَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أُوْفِي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا الْعَدُوَّ، أَنْتَظَرَ حَتَّى إِذَا مَالَتِ الشَّمْسُ قَامَ فِيهِمْ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ» ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ». [متفقٌ عليه] وبالله التَّوْفِيقُ.

* لم يشرع الجهاد وقتال الكفار لمجرد القتال والقتل، بل لنشر دين الله وتبليغ رسالته فإذا تم بدون قتال فذلك المطلوب، وهو عدم تمني لقاء العدو، وقد يقع كفراً وعناداً من أعداء الدين، فإذا وقع القتال ففيه الدعوة إلى التضرع إلى الله بكثرة الدعاء مع الصبر، فإن النصر صبر ساعة.

في هذا الحديث، الدعاء عند الشدائد، والتبرؤ من الحول والقوة. «يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو»: قال النووي: «إنما نهي عن تمني لقاء العدو لما فيه من صورة الإعجاب والاتكال على النفس والوثوق بالقوة وهو نوع بغى، وقد ضمن الله - تعالى - لمن بغى عليه أن ينصره، ولأنه يتضمن قلة الاهتمام بالعدو واحتقاره وهذا يخالف الاحتياط والحزم». وحكمة النهي أن المرء لا يعلم ما يؤول إليه الأمر وهو نظير سؤال الله العافية من الفتن.

وقال القرطبي: «النهي لما فيه من المكاره والمحن والنكال، ولهذا قال ﷺ متصلاً به «واسألوا الله العافية» وقيل: لما يؤدي إليه من إذهاب حياة النفوس التي يزيد بها المؤمن خيراً، أو يرجى للكافر فيها أن يراجع، وكل ذلك محتمل». لكن إذا ابتلى فعليه بالصبر والثبات، وكثرة سؤال الله العافية، وفيه الحضيض على الجهاد في سبيل الله، وأن الجنة تحت ظلال السيوف.

وتمني لقاء العدو المنهي عنه غير تمني الشهادة المرغب فيه، لأنه قد يحصل اللقاء ولا تحصل الشهادة ولا الغنيمة، فانفصلا.

وكان ﷺ في جهاده يمهل حتى إذا زالت الشمس، نهض إلى عدوه. قال الحافظ ابن حجر: «فيظهر أن فائدة التأخير لكون أوقات الصلاة مظنة إجابة الدعاء، وهبوب الريح قد وقع النصر به في الأحزاب فصار مظنة ذلك». وكان ﷺ يدعو ربه أن ينجز وعده ويقول: **«اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم»**.

قال ابن حجر: أشار بهذا الدعاء وجوه النصر، فبالكتاب إلى قوله تعالى: ﴿قَتَلُوهُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، وبمجري السحاب إلى القدرة الظاهرة في تسخير السحاب حيث يحرك الريح بمشيئة الله - تعالى -، وحيث يستمر في مكانه مع هبوب الريح، وحيث تمطر تارة وأخرى لا تمطر، فأشار بحركته إلى إعانة المجاهدين في حركتهم في القتال، وبوقوفه إلى إمساك أيدي الكفار عنهم، وبإنزال المطر إلى غنيمة ما معهم حيث يتفق قتلهم، وبعدمه إلى هزيمتهم حيث لا يحصل الظفر بشيء منهم، وكلها أحوال صالحة للمسلمين، وأشار بهازم الأحزاب إلى التوسل بالنعمة السابقة، وإلى تجريد التوكل، واعتقاد أن الله هو المنفرد بالفعل.

وفيه: التنبيه على عظم هذه النعم الثلاث، فإن بإنزال الكتاب حصلت النعمة الأخروية وهي الإسلام، وبإجراء السحاب حصلت النعمة الدنيوية وهي الرزق، وبهزيمة الأحزاب حصل حفظ النعمتين، وكأنه قال: اللهم كما أنعمت بعظيم النعمتين الأخروية والدنيوية وحفظهما فأبقهما».

وفي قوله: **«الجنة تحت ظلال السيوف»** المراد أن الجنة تحصل بالجهاد، قال النووي: «معناه ثواب الله عند الضرب بالسيوف في سبيل الله، والسبب الموصل إلى الجنة ضرب السيوف في سبيل الله فاحضروا فيه واثبتوا».

وفي الحديث: الجمع بين الأخذ بالأسباب، والتوكل على الله - تعالى -
ومنها الدعاء على العدو بالهزيمة، وقدم الثناء على الله - عز وجل - بأسمائه
وصفاته التي تناسب المقام قبل الدعاء تعليماً للأدب في ذلك.

٤- باب الصدق

الصدق دليل الإيمان ولباسه، ولبّه وروحه، كما أن الكذب بريد الكفر ونبتّه وروحه، والسعادة دائرة مع الصدق والتصديق، والشقاوة دائرة مع الكذب والتكذيب.

والصدق: هو مطابقة الخبر للواقع، والكذب عكسه.

وقيل هو: استواء الظاهر والباطن، والسر والعلانية.

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

﴿التوبة: ١١٩﴾ أي، راقبوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم، وكونوا مع أهل الصدق واليقين، الذين صدقوا في الدين نية وقولاً وعملاً.

وقيل: كونوا مع الصادقين في نياتهم وأعمالهم وأقوالهم.

وقال تعالى: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. ذكر الله ذلك في

تعداد محاسن الأوصاف، وفي معرض الشناء. أي، الصابرين على الطاعات، وعن الشهوات في المكروه والمنشط.

وقيل: هذا في الأقوال، فإن الصدق خصلة محمودة ولهذا كان بعض

الصحابه لم يُجرب عليه كذبة، لا في الجاهلية، ولا في الإسلام، وهو أمانة على الإيمان، كما أن الكذب أمانة على النفاق.

قال تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [محمد: ٢١]. أي، فلو

أخلصوا نياتهم وجاهدوا بصدق ويقين لكان ذلك خيراً لهم من التقاعس والعصيان، وهذه نزلت في المنافقين.

وفي الآيات: الحث على الصدق وملازمته ليكونوا من أهله، فإن الصدق

خصلة محمودة مطلوبة.

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - واصفًا الصدق: «وهو سيف الله في أرضه الذي ما وضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعه، من صال به لم تُرد صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته. فهو روح الأعمال، ومَحَلُّ الأحوال، والحاصل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال».

والصدق سمة من سمات الأنبياء والمرسلين، وجميع عباد الله الصالحين، قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

قال النووي: «وينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام، إلا كلاماً ظهرت فيه المصلحة، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة، فالسنة الإمساك عنه، لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، وذلك كثير في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء».

والكذب والعياذ بالله يسقي باب كل شر، كما يسقي الماء أصول الشجر. وأصل أعمال القلوب كلها الصدق، وأضدادها من الرياء والعجب والكبر والفخر، والخيلاء والبطر والأشر، والعجز والجبن والمهانة وغيرها، أصلها الكذب، فكل عمل صالح ظاهر أو باطن فمنشؤه الصدق، وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب.

ومن ثمرات الصدق أنه أصل البر، وبه تفريج الكربات، وإجابة الدعوات، وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، والبركة في الكسب، والزيادة في الخير، والفوز بمنزلة الشهداء.

وأما الأحاديث:

٥٤ - فالأَوَّلُ: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَصْدُقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَكْذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا» [متفقٌ عليه].

* ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - هذا الحديث في باب الصدق. ومطلعه قوله ﷺ: «إِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ».

البر: كثرة الخير، وهو اسم جامع للخير كله. وقيل البر: الجنة، وكل أنواع الخير تنطوي تحت كلمة البر.

قال النووي: «معناه: إن الصدق يهدي إلى العمل الصالح الخالص من كل مذموم».

«وَأَنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ» والفجور: الأعمال السيئة. قيل: هو الميل عن الاستقامة.

قال ابن القيم: «إن أعمال البر تنهض بالعبد، وتقوم به وتصعد إلى الله به، فبحسب قوة تعلقه بها يكون صعوده مع صعودها».

والصدق يهدي ويدل ويقود صاحبه ليوصله إلى البر والجنة. وقد ذكر ﷺ: منزلة الرجل الصادق بأن يكتب عند الله صديقًا، وهي منزلة عظيمة، رفيعة القدر، فإن الصديق في المرتبة الثانية من مراتب الخلق، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩] ومقدم الصديقين ورأسهم هو أبو بكر - رضي الله عنه ..

وفي قوله ﷺ «يَتَحَرَّى الصَّدَقَ» أي، يقصد إليه ويتوخاه، ويتجنب نقيضه الذي هو الكذب حتى يكون الصدق غالب حاله، فيكتب في جملة الصديقين.

ومن تحرى الصدق صار سجية له، ومن قصد الكذب صار خُلُقاً له.
وفي الحديث الحث على الصدق، وتجنب الكذب والتحذير منه لأن
الكذب يهدي إلى الفجور، وهو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته، وهو من
قبائح الذنوب وفواحش العيوب.

قال العلماء: هذا فيه الحث على تحري الصدق، وهو قصده والاعتناء به،
وعلى التحذير من الكذب والتساهل فيه، فإنه إذا تساهل فيه كثر منه، فعرف به،
وكتبه الله لمبالغته صديقاً إن اعتاده، أو كذاباً إن اعتاده.

والكذب: من كبائر الذنوب، قال ابن تيمية: «الكذب على الشخص حرام
كله، سواء كان الرجل مسلماً أو كافراً، أو براً أو فاجراً، لكن الافتراء على
المؤمن أشد، بل الكذب كله حرام».

وقال القرطبي: «حق على كل من فهم عن الله أن يلزم الصدق في الأقوال
والإخلاص في الأعمال، والصفاء في الأحوال، فمن كان كذلك لحق بالأبرار،
ووصل إلى رضا الغفار».

وقد أرشد - تعالى - إلى ذلك كله بقوله عند ذكر أحوال الثلاثة التائبين:
﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

ويجوز الكذب في حالات ثلاث، في الحرب لأن الحرب خدعة، وفي
الصلح بين المتخاصمين لإزالة الفرقة والشقاق، وفي الحياة الزوجية إذا كان
هناك ما يوغر صدر الزوجة ويفسد الحياة بين المتزوجين.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية موضحاً حال الكثيرين: «ومن العجب أن
الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقه
وشرب الخمر، ومن النظر المحرم وغير ذلك، يصعب عليه التحفظ من
حركة لسانه، حتى ترى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم
بالكلمات من سخط الله لا يُلقي لها بالاً، يزل بالكلمة الواحدة منها أبعد ما بين
المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم ولسانه
يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول».

٥٥ - الثاني: عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ، فَإِنَّ الصَّدَقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَالْكَذِبَ رِيْبَةٌ» [رواه الترمذي وقال: حديثٌ صحيحٌ].
قَوْلُهُ: يَرِيْبُكَ هُوَ بَفَتْحِ الْيَاءِ وَضَمِّهَا، وَمَعْنَاهُ: اَتْرُكْ مَا تَشْكُ فِي حِلِّهِ، وَاعْدِلْ إِلَى مَا لَا تَشْكُ فِيهِ.

* أمر النبي ﷺ بحفظ اللسان، وفي هذا توجيه عظيم بأن يدع الإنسان ويترك ما يريبه. أي، ما يتوهم منه، ولم يتحقق فيه. لأن الصدق طمأنينة القلب واستقراره وعدم اضطرابه، وسكون النفس إليه وثقة الناس به. والكذب يبعث في نفس صاحبه الشك والتردد، والخوف والذل والهوان والصغار، وعدم الثقة بين الناس. وهذا الحديث أصل عظيم في باب الورع وترك الشبهات، فإن العبد لا يسلم دينه من المفسدات والمنغصات إلا إذا تعاطى الورع وترك ما يشبهه عليه أمره.

وفي هذا الحديث قول النبي ﷺ: «دع ما يريْبُكَ»
قال المناوي - رحمه الله - «دع ما يريْبُكَ» أي، اترك ما تشك في كونه حسناً أو قبيحاً، أو حلالاً أو حراماً.

«إلى ما لا يريْبُكَ» أي، واعدل إلى ما لا شك فيه، يعني ما تيقنت حسنه وحله.

«فإن الصدق طُمَأْنِينَةٌ» أي، يطمئن إليه القلب ويسكن ويرتاح.

«وأن الكذب رِيْبَةٌ» أي، يقلق القلب ويضطرب.

قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله تعالى -: «وهذا الحديث من جوامع الكلم، وما أجوده، وأنفعه للعبد إذا سار عليه، فالعبد يرد عليه شكوك في أشياء كثيرة، فنقول: دع الشك إلى ما لا شك فيه، حتى تستريح وتسلم، فكل شيء يلحقك به شك وقلق وريب: اتركه إلى أمر لا يلحقك به ريب، وهذا ما لم يصل إلى حد الوسواس، فإن وصل إلى حد الوسواس فلا تلتفت له».

ومعنى هذا الحديث يرجع إلى الوقوف عند الشبهات واتقائها، فإن الحلال المحض لا يحصل للمؤمن في قلبه منه ريب، والريب بمعنى القلق والاضطراب، بل تسكن إليه النفس، ويطمئن به القلب، وأما المتشابهات فيحصل بها للقلوب القلق والاضطراب الموجب للشك.

وقد أورد المؤلف - رحمه الله تعالى - هذا الحديث في باب الصدق. وحين سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ قال: «**الفرج والفرج**» [رواه الترمذي].

وكثرة آفات اللسان: من الخطأ، والكذب، والغيبة، والنميمة، والنفاق، والفحش، والمراء، وتزكية النفس، والخوض في الباطل، والخصومة، والفضول، وإيذاء الخلق، وهتك العورات.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «الكذب فجور، والنميمة سحر». وفي الحديث: «**من قال لصبي تعال هاك، ثم لم يعطه فهي كذبه**» [رواه أبو داود]. وكانوا يشددون حتى في أمر الكذب في المزاح، قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «لا تبلغ حقيقة الإيمان حتى تدع الكذب في المزاح». ومن كان كاذباً نقص قدره، ودنت منزلته، وظهر على آثار وجهه وفتلات لسانه، قال ابن القيم - رحمه الله -: «ولهذا يجعل الله - سبحانه - شعار الكاذب عليه يوم القيامة، وشعار الكاذب على رسوله سواد وجهه، والكذب له تأثير عظيم في سواد الوجه، ويكسوه برقعاً من المقت يراه كل صادق، فسيما الكاذب في وجهه ينادي عليه من له عينان، والصادق يرزقه الله مهابة وجلالاً فمن رآه هابه وأحبه، والكاذب يرزقه إهانة ومقتاً، من رآه مقتته واحتقره».

وفي الحديث: ترك ما يشك في قبحه إلى ما حسن وزان قوله وفعله.

وفيه: فضل الصدق على الإنسان في الدنيا والآخرة.

وفيه: أن الكذب ريبة يفسد الأخلاق والأعمال والأقوال.

٥٦- الثالث: عَنْ أَبِي سُفْيَانَ صَخْرُ بْنُ حَرْبٍ .- رضي الله عنه .- في حديثه الطويل في قصة هرقل، قَالَ هِرْقُلُ: فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ يَعْني النَّبِيَّ ﷺ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: قُلْتُ: يَقُولُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرَكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ، وَالْعَفَافِ، وَالصَّلَةِ. [متفق عليه].

* بذل النبي ﷺ وسعه في دعوة الناس، وبدأ بمن حوله، امثالاً لقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وبعد أن دعا في مكة والمدينة والطائف، أرسل الوفود إلى أمصار قريبة، فبعث معاذ بن جبل - رضي الله عنه - إلى اليمن، وأرسل غيره من الصحابة إلى البحرين واليمامة. وكتب ﷺ ملوك الأرض في حينه، فأرسل إلى المقوقس، وإلى هرقل، وإلى النجاشي، وغيرهم.

ومن ذلك ما كتبه ﷺ إلى هرقل ملك الروم، كتب كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام، سنة ست من الهجرة بعد صلح الحديبية، ووافق ذلك أن أبا سفيان في الشام ولم يُسلم بعد، فدعاهم هرقل لسمع منهم ما يقولون عن النبي ﷺ، فهم قوم الرسول ﷺ وأهل بلده وأعرف الناس بمدخله ومخرجه. وأخذ يسألهم عن حال النبي ﷺ ونسبه وعن أصحابه، وعن توقيهم له، وعن وفائه. وصدقوا في جواب ما سألهم عنه.

ثم سأل هرقل أبا سفيان عن النبي ﷺ وبماذا يأمر ليستوضح الأمر؟ فقال أبو سفيان: أنه يأمرنا بالتوحيد وعدم الإشراك بالله وهو رأس هذا الدين، وترك وهجر الأوثان والأصنام، ويأمر بالصلاة وهي أهم العبادات البدنية، والصدق والعفاف، وهو الكف عن المحارم وخوارم المروءة، والصلة، والمراد بها صلة الأرحام، وكل ما أمر الله به أن يوصل وذلك بالبر والإكرام، وكلها صفات

وأخلاق محبوبة عند الخالق والمخلوق، والحديث يدل على شمول وعموم الإسلام، فقد ذكر التوحيد والإيمان والأحكام والأخلاق والمروءات. والشاهد لهذا الباب، قول أبي سفيان: ويأمرنا بالصدق.

وقد ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - هذا الحديث في باب الصدق، والنبى ﷺ كان يوصف عند كفار قريش قبل البعثة بالصادق والأمين.

وفي الحديث أنه ﷺ قال: «**إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتبه الله صديقاً، وإن الرجل ليكذب حتى يكتبه الله كذاباً**» [متفق عليه].

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

قال السعدي - رحمه الله -: «أي في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق وأعمالهم وأحوالهم لا تكون إلا صدقاً خالية من الكسل والفتور، سالمة من المقاصد السيئة، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة».

وليس للعبد شيء أنفع من صدقه ربه في جميع أموره.. ومن صدق الله في جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره.

وقد قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثر ذنوبه، ومن كثر ذنوبه كانت النار أولى به».

وقال عمر بن عبد العزيز - رحمه الله -: «ما كذبت منذ علمت أن الكذب يضر أهله».

وفي الحديث: فضيلة الصدق وأنه من الأخلاق الزاكية الفاضلة.

وفيه: معرفة قريش بصدق النبي ﷺ وما تحلى به من الصفات الحميدة.

٥٧ - الرَّابِعُ: عَنْ أَبِي ثَابِتٍ، وَقِيلَ: أَبِي سَعِيدٍ، وَقِيلَ: أَبِي الْوَلِيدِ، سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، وَهُوَ بِدْرِيٌّ، - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ، - تَعَالَى - الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ» [رواه مسلم].

* الشهيد منزلته عظيمة ومكانته رفيعة، والشهادة مرتبة عالية بعد الصديقية، قال تعالى: ﴿... فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

ولا شك، أن الشهادة في سبيل الله أمنية عالية ودرجة رفيعة، دونها الدماء والأشلاء، والشدة والمشقة، ولكن موعود الله بها الجنة العالية: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١]. وفي الحديث فضل النية الصادقة، فإن من نوى شيئاً من أعمال البر صادقاً من قلبه أثيب عليه، وإن لم يتفق له ذلك، فإن صدق القلب سبب لبلوغ الأرب وذلك من فضل الله ورحمته بعباده.

قال ﷺ في الحديث الذي أورده المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب الصدق: «من سأل الله الشهادة بصدق» قيد السؤال بالصدق، لأنه معيار الأعمال، ومفتاح بركتها، وبه ترجى ثمرتها.

«بلغه منازل الشهداء» مجازاة له على صدق الطلب.

«وإن مات على فراشه» قال المناوي - رحمه الله -: «لأن كلا منهما نوى خيراً وفعل ما يقدر عليه، فاستويا في أصل الأجر».

قال النووي - رحمه الله -: «واعلم أن الشهيد ثلاثة أقسام:

أحدها: المقتول في حرب بسبب من أسباب القتال، فهذا له حكم الشهداء في ثواب الآخرة وفي أحكام الدنيا، وهو أنه لا يغسل ولا يصلى عليه.

والثاني: شهيد في الثواب دون أحكام الدنيا وهو المبطون، والمطعون، وصاحب الهدم، ومن قتل دون ماله، وغيرهم ممن جاءت الأحاديث الصحيحة بتسميته شهيداً، فهذا يُغسل ويُصلى عليه، وله في الآخرة ثواب الشهداء، ولا يلزم أن يكون مثل ثواب الأول.

والثالث: من غل في الغنيمة، وشبهه من وردت الآثار بنفي تسميته شهيداً، إذا قتل في حرب الكفار، فهذا له حكم الشهداء في الدنيا، فلا يغسل، ولا يصلى عليه، وليس له ثوابهم الكامل في الآخرة.

ومن الشهداء من يصاب بالطعن والبطن والحرق والغرق، أو الذي يقتل دون ماله ونفسه، ومن يقتل ظلماً - غيلة - وأعلام الشهداء الذين يقتلون في سبيل الله لإعلاء دينه وتجري عليهم أحكام الشهداء.

قال ابن حجر - رحمه الله -: «والذي يظهر أن المذكورين - في الشهداء خمسة وغيرهم - ليسوا في المرتبة سواء، ويدل عليه ما روى أحمد وابن حبان في صحيحه من حديث جابر أن النبي ﷺ سُئِلَ: أي الجهاد أفضل؟ قال «من عقر جواده وأهريق دمه».

وقد جاء في الحديث بيان فضل الله على هذه الأمة، فهو يعطيها على العمل القليل أعلى الدرجات وأرفع المقامات في الجنات.

قال النووي - رحمه الله -: «إذا سأل الشهادة بصدق أعطي من ثواب الشهداء وإن مات على فراشه، وفيه استحباب سؤال الشهادة واستحباب نية الخير».

وفي الحديث: استحباب طلب الشهادة والإخلاص في ذلك. وأن من نوى الجهاد وسعى إليه، وبذل أسبابه وسأل الله الشهادة بصدق كتب الله له أجر الشهيد.

٥٨ - الخامس: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «غَزَا نَبِيُّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ - فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لَا يَتَّبِعُنِي رَجُلٌ مَلِكٌ بَضْعَ امْرَأَةٍ. وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَنْبِيَّ بِهَا وَلَمَّا يَنْبَ بِهَا، وَلَا أَحَدٌ بَنَى بُيُوتًا لَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، وَلَا أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلْفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ أَوْلَادَهَا. فَغَزَا فِدْنَا مِنَ الْقَرْيَةِ صَلَاةَ الْعَصْرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكَ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا، فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَجَمَعَ الْغَنَائِمَ، فَجَاءَتْ يَعْني النَّارَ لِتَأْكُلَهَا فَلَمْ تَطْعَمْهَا، فَقَالَ: إِنَّ فِيكُمْ غُلُولًا، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده فقال: فيكم الغُلُول، فليبايعني قبيلتك، فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده فقال: فيكم الغُلُول، فجاءوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب، فوضعها فجاءت النار فأكلتها، فلم تحل الغنائم لأحد قبلنا، ثم أحل الله لنا الغنائم لما رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا» [متفق عليه].

الخلفات بفتح الخاء المعجمة وكسر اللام: جمع خلفه، وهي الناقة الحامل.

* شرع الله - عز وجل - الجهاد والقتال في سبيله لمقاصد عظيمة، وغايات نبيلة، منها إعزاز الدين، وتعبيد الناس لرب العالمين، وإزالة الحواجز والقيود التي تحول بين الناس وبين الدعوة، وقيام الحجة، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

وقد حدث النبي ﷺ عن نبي من الأنبياء غزا قومًا أمر بجهادهم، ومنع من الجهاد كل من كان له تعلق بالدنيا، كمن عقد على امرأة ولم يدخل بها، أو بنى بيتًا ولم يتمه، أو اشترى غنمًا أو خلفات ينتظر أولادها، وذلك لأن هؤلاء مشغولون بما أهمهم. ولأنها من الشواغل والملهيات التي تحول بينه وبين أداء هذه العبادة العظيمة، وتحقيق مقاصدها على الوجه الأكمل. فإن فتن الدنيا تدعوا النفس إلى الهلع ومحبة البقاء.

وفي الحديث أن الأمور المهمة لا ينبغي أن تفوض إلا لحازم، فارغ البال لها، ولهذا أورده المؤلف في باب الصدق.

وفي هذا الحديث أن الأمور المهمة ينبغي أن لا تفوض إلا إلى أولي الحزم و فراغ البال لها، ولا تفوض إلى متعلق القلب بغيرها، لأن ذلك يضعف عزمه ويفوت كمال بذل وسعه.

قال القرطبي - رحمه الله -: «نهى النبي قومه عن اتباعه على أحد هذه الأحوال، لأن أصحابها يكونون متعلقين النفوس بهذه الأسباب فتضعف عزائمهم، وتفتربغباتهم في الجهاد والشهادة، وربما يفترط ذلك التعلق بصاحبه فيفضي إلى كراهة الجهاد وأعمال الخير».

ولما بين لهم ذلك، ذكر أن نبيًا من الأنبياء غزا، فكانت معجزة حبس الشمس حتى فتح الله عليه. وفي الحديث: تحريم الأخذ من الغنائم قبل قسمتها، ومن فضل الله - عز وجل - أن أحل الغنائم لأمة محمد ﷺ ولم تحل لأحد من قبل وهذا من خصائص أمة محمد ﷺ.

في الحديث عن جابر بن عبد الله قال، قال رسول الله ﷺ: «أحلت لي الغنائم» [رواه البخاري].

وفي الحديث: أن الجهاد مشروع في الأمم السابقة قبلنا، وفيه: دليل على عظمة الله - عز وجل - وتأنيده الأنبياء بالمعجزات الباهرات. وفيه: كفاية المجاهدين أمور الدنيا ليتفرغوا للجهاد بصدق وعزيمة. وفيه: أن الفضيلة عند إظهار الضعف والعجز بين يدي الله. وفيه: فضيلة الصدق في كل قول وفعل.

٥٩- السادس: عن أبي خالد حكيم بن حزام - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «الْبَيْعَانُ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيْنَا بَوْرُكٌ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا» [متفق عليه].

* الأصل في البيع والشراء أنه حلال إلا ما حرم - عز وجل -، قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ولا يزال الناس في تجارتهم وعمارة أرضهم يتعاملون بما ينفع كل طرف، وذلك بالصدق والأمانة، وعدم الكذب والخيانة. وقد ذكر النبي ﷺ فائدة الصدق في البيع والشراء، وأنه بركة على البائع والمشتري.

وفي الحديث: أن البيعان وهما: البائع والمشتري بالخيار في المجلس من الفسخ والإجازة، فإن صدقا فيما يخبران به البائع في البيع، والمشتري في الثمن، كان ثمرة ذلك أن بورك لهما في بيعهما وشرائهما، وذلك بكثرة الخير، وتسهيل الأسباب المفضية لزيادة الربح مع كثرة الراغبين وحسن المعاملين، ومنع الخيانة في المبتاع، والحسد والعداوة المقتضية للخسران. والشاهد من الحديث للباب، قوله «**إن صدقا**» لأن الباب باب الصدق.

«**إن صدقا**» في الإخبار عن الثمن والمثمنون فيما يباع مرابحة «**وبينا**» ما فيها من العيوب، «**بورك لهما في بيعهما**» أي، في الثمن بالنماء وفي المثمن بدوام الانتفاع به.

«**وإن كتما وأخفيا**» ما في السلعة والثمن من العيوب محقت وذهبت بركة بيعهما.

والفرق بين الصدق والبيان: أن الصدق فيما يكون مرغوبا من الصفات، والبيان فيما يكون مكروها من الصفات، فكتمان العيب ضد هذا البيان، ووصف السلعة بما ليس فيها ضد الصدق. وقد يكونان بمعنى واحد لكنه زيادة تأكيد.

وفي الحديث: وجوب الصدق في البيع والشراء، والتبيين وعدم التدليس والغش، ووجوب إظهار العيب في السلعة وحُرمة إخفائها. وأن ذلك يذهب ببركة المال مع الإثم والوزر في ذلك.

وكما أن التاجر إذا صدق في سلعته ولم يغش بورك في معاملته، كذلك العبد إذا صدق في معاملته مع ربه ولم يغش في أداء الواجبات برياء أو سمعة، بورك له في تلك المعاملة وأعطى الأجر والثواب.

قال سهل - رحمه الله -: «من أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى، علم أو لم يعلم، ومن كان طعمته حلالاً أطاعته جوارحه، ووفقت للخيرات». وللسلف في ذلك أمور عجيبة: «فقد ذهبت أخت بشر الحافي إلى الإمام أحمد بن حنبل، فقالت: إني ربما طفئ السراج وأنا أغزل على ضوء القمر، فهل عليّ عند البيع أن أميز هذا من هذا؟ فقال: إن كان بينهما فرق فميزي للمشتري».

وباع محمد بن واسع حماراً له بسوق بلخ، فقال رجل: أترضاه لي؟ فقال: «لو رضيته لم أبعه».

وجاء مجمع التيمي بشاة يبيعها، فقال: «إني أحسب أو أظن في لبنها ملوحة». ولعظم أمر الصدق والأمانة في البيع والشراء، جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: **«التاجر الصدوق الأمين المسلم مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة»** [رواه الترمذي].

وفي الحديث: بيان الصدق ووجوبه في البيع والشراء.
وفيه: تلمس البركة والخير في البيع والشراء وذلك بالصدق والبيان.

٥- باب المراقبة

لما ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - باب الصدق وثمراته، أعقب هذا باب المراقبة وهو أحد مقامي الإحسان: وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

والمراقبة لها وجهان:

الأول: أن تراقب الله - عز وجل - في حركاتك وسكناتك.

الثاني: أن تعلم أن الله - تعالى - رقيب عليك.

وذكر - تعالى - زجراً لعباده: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ ﴿٢١٨﴾ فهو بالمرصاد يرصد أعمال العباد، وهو - جل وعلا - بالمرصاد لكل طاغية متكبر متجبر على أحكام الله وأوامره. يمهله قليلاً، ثم يعاقبه ويؤاخذه.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ﴿٢١٩﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴿٢٢٠﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢١٩]. أي: يراك وحدك، ويراك في الجماعة.

ذكر - عز وجل - أنه يرى العبد حين قيامه للصلاة في ظلام الليل حيث لا يطلع عليه إلا الله - عز وجل -، وكذلك يراه حين سجوده. وذكر القيام والسجود لمكانتهما في الصلاة، ففي القيام قراءة القرآن، وفي السجود الذل والانكسار بين يدي الله - عز وجل -، وهو أقرب ما يكون العبد إلى ربه.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]. أي، هو حاضر مع كل أحد بعلمه، وإحاطته، وهو رقيب عليكم.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿٢١٨﴾ [آل عمران: ٥]. أي: أنه - عز وجل - محيط علمه بالخلائق، لا يغيب ولا يعزب عن علمه أمر من الأمور في الأرض ولا في السماء قل أو كثر، فهو مطلع على كل ما

في الكون لا تخفى عليه - سبحانه - خافية، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء لكمال علمه وسعته.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

أي: يعلم - جل وعلا - العين الخائنة بمسارقتها النظر إلى ما حرم. وخائنة الأعين: العين الخائنة بمسارقتها النظر إلى المحرمات: وما تخفي الصدور: أي القلوب التي في الصدور.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «هو الرجل يكون جالساً مع الناس، فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها».

والآيات في الباب كثيرة معلومة.

ومن ثمرات مراقبة الله - عز وجل - والخوف منه: الإيمان، فعلمك بأن الله معك يعني مراقبتك لله، فمن فعل ذلك وجد حلاوة الإيمان. وكذلك البعد عن المعاصي والمنكرات خوفاً وحياءاً من الجبار، وكذلك تحسين العبادة وأداؤها على أكمل وجه، والمراقبة كذلك تورث الإخلاص، وهي أنها سبب لدخول الجنة، قال ابن عطاء - رحمه الله -: «أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات».

وفي الحديث: قال ﷺ: **«أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»**

[رواه مسلم].

٦٠- وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ، فَالْأَوَّلُ: عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ الْكُفْرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مَنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتُصُومَ رَمَضَانَ، وَتُحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا».

قَالَ: صَدَقْتَ. فَعَجَبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيَصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قَالَ: صَدَقْتَ قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ. فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا. قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ» ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ: «يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: «فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ» [رواه مسلم].

وَمَعْنَى: تَلِدُ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا أَيُّ: سَيِّدَتَهَا، وَمَعْنَاهُ أَنْ تَكْثُرَ السَّرَارِي حَتَّى تَلِدَ الْأُمَّةُ السَّرِيَّةَ بِنْتًا لِسَيِّدِهَا، وَبُنْتُ السَّيِّدِ فِي مَعْنَى السَّيِّدِ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ وَالْعَالَةُ: الْفُقَرَاءُ. وَقَوْلُهُ مَلِيًّا أَيُّ زَمَنًا طَوِيلًا، وَكَانَ ذَلِكَ ثَلَاثًا.

* هذا حديث عظيم القدر، عليه مدار الإسلام، فهو يشتمل على شرح الدين كله، فهو مشتمل على جميع الأعمال الظاهرة والباطنة، وعلوم الشريعة راجعة إليه، فهو كالأم للسنة. كما سميت الفاتحة بأم القرآن. وفيه من آداب التعليم وفرائض الإسلام والإيمان، وعلامات الساعة التي ذكر منها النبي ﷺ علامتان:

الأولى: أن تلد الأمة ربتها، وهذا إشارة إلى فتح البلاد وكثرة جلب الرقيق حتى تكثر السراري ويكثر أولادهن، فتكون الأمة رقيقة لسيدها، وأولاده منها بمنزلته.

والثانية: من علامات الساعة «أن ترى الحفاة العراة العالة يتناولون في البنيان» إما لكثرة الخير، أو فساد وضياع الحقوق.

ومن علامات الساعة التي وردت في أحاديث أخرى: ظهور الدابة، ونزول عيسى - عليه السلام -، وخروج الدجال، وطلوع الشمس من مغربها. قال النووي: «وهذا القدر من الحديث أصل عظيم من أصول الدين، وقاعدة مهمة من قواعد المسلمين، وهو عمدة الصديقين، وبغية السالكين، وكنز العارفين، ودأب الصالحين، وهو من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ، وقد ندب أهل التحقيق إلى مجالسة الصالحين ليكون ذلك مانعاً من التلبس بشيء من النقائص احتراماً لهم واستحياءً منهم، فكيف بمن لا يزال مطلعاً عليه في سره وعلايته».

وقد أورد المؤلف - رحمه الله تعالى - هذا الحديث في باب المراقبة، والشاهد قوله «كأنك تراه».

قليل في معنى: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»: «بأن تتأدب في عبادته كأنك تنظر إليه، فجمع بين بيان المراقبة في كل حال، والإخلاص في سائر الأعمال.

وفي الحديث: حسن أدب الصحابة مع الرسول ﷺ وتعظيمهم له. وفيه: بيان بعض علامات الساعة.

وفيه: فضل الإحسان ومراقبة الله - عز وجل - في الخلوة والجلوة.

٦١- الثاني: عن أبي ذرٍّ جُنْدُبِ بْنِ جُنَادَةَ، وأبي عَبْدِ الرَّحْمَنِ مُعَاذِ بْنِ جَبَل - رضيَ الله عنهما -، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» [رواهُ التِّرْمِذِيُّ وقال: حديثٌ حسنٌ].

* هذا الحديث أصل عظيم جامع في باب التوجيه والإرشاد، وقد أوصى فيه النبي ﷺ بثلاث وصايا عظيمة.

وفي الحديث قوله ﷺ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ» أي، اجعل بينك وبين عقاب الله وقاية، وذلك بفعل أوامره وترك نواهيه. فإنه ينبغي للعبد أن يراقب الله - عز وجل - في جميع أحواله وأوقاته.

وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه وغضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معصيته.

وقيل: «ليس تقوى الله بصيام النهار وقيام الليل والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله، وأداء ما افترض الله، فمن رزق بعد ذلك خيراً فهو خير إلى خير».

قال الحسن: «ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام».

ثم قال ﷺ: «وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا» والحسنة: هي كل عمل صالح يكفر الخطايا، من التوبة والاستغفار وغيرها، وأن الحسنة تمحو السيئة، وهذا في غير المعاصي المتعلقة بحقوق الناس، ومن الحسنات بعد السيئات التوبة إلى الله من السيئات، فإن التوبة من أفضل الحسنات، وكذلك الأعمال الصالحة تكفر السيئات.

قال ابن رجب: «لما كان العبد مأموراً بالتقوى في السر والعلانية، مع أنه لا بد أن يقع منه أحياناً تفريط في التقوى إما بترك بعض المأمورات أو بارتكاب

بعض المحظورات، فأمره بأن يفعل ما يمحوها به هذه السيئات، وهو أن يتبعها بالحسنة، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

ثم قال ﷺ في الوصية الثالثة: «وخالق الناس بخلق حسن».

وهو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى.

وقيل: حسن الخلق، البذل والعطية، والبشر الحسن.

والوصيتان الأوليتان في معاملة الخالق - جل وعلا -، والثالثة في معاملة الخلق، وذلك أن تعاملهم بالخلق الحسن، والتي منها طلاقة الوجه، وكف الأذى، وبذل المعروف، ومعاملة الناس بمثل ما تحب أن يعاملوك، وكما أنك تؤجر على ذلك، فأنت تكون محبوباً إلى الناس بحسن خلقك وطيب معشرك لتنال الأجر والرفعة في الدارين.

وكان من وصية عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى ابنه عبد الله: «أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله - عز وجل - فإنه من اتقاه وقاه، ومن أقرضه جزاه، ومن شكره زاده».

وفضائل التقوى في الدنيا كثيرة، منها:

أنها سبب لتيسير أمر العبد: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِّنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]، وأنها سبب لحماية الإنسان من ضرر الشياطين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وأنها سبب لنزول البركات وحصول الخيرات: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وهي سبب للخروج من المضائق: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٣] وغيرها كثير.

أما في الآخرة فإنها سبب للإكرام عند الله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

والتقوى: سبب للفوز والفلاح: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَتَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

وهي سبب لقبول الأعمال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وهي سبب لدخول الجنة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

ومن فوائد الحديث: استحباب وصية المسلم لأخيه، وتذكيره بما يجب عليه نحو ربه ونفسه وإخوانه المسلمين.

٦٢- الثالث: عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: «يَا غُلَامُ إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ: أَحْفَظَ اللَّهُ يَحْفَظُكَ أَحْفَظَ اللَّهُ تَجِدَهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ: أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» [رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح].

وفي رواية غير الترمذي: «أَحْفَظَ اللَّهُ تَجِدَهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفَ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبِكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا».

* هذا الحديث أصل عظيم في مراقبة الله، ومراعاة حقوقه وحفظ حدوده، والتفويض لأمره، والتوكل عليه، وشهود توحيده ومننه، وعجز الخلائق كلهم وافتقارهم إليه. ومن أعظم ما يجب حفظه من أوامر الله بعد توحيده وإفراده بالعبادة، الصلاة، وقد أمر الله - تعالى - بالمحافظة عليها بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ تَحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤] وبقية أركان الإسلام.

فإن من لازم ذلك حفظه الله في نفسه وأهله، ودينه ومماته، وكذلك حفظه في دينه وإيمانه، فحفظه من الشبهات المضلة، والشهوات المحرقة. فإن الجزاء من جنس العمل.

وبقدر حفظ العبد لحدود الله - تعالى - ينال حفظ الله ومعيته، وبهذا حفظ الله إبراهيم - عليه السلام - من النار التي أوقدت وألقي فيها، وأخرج يوسف من الجب، وصرف عنه السوء والفحشاء عندما راودته امرأة العزيز، وحمى - سبحانه - موسى من الغرق وهو رضيع، وحفظ الله حق اليتيمين لصلاح والدهما ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

وفي الحديث: أن من حفظ حدود الله والتزمها نال الخير كله، وأعظمها معية الله - تعالى -، وفي الجملة فمن عامل الله بالتقوى والطاعة في حال رخائه، عامله الله باللطف والإعانة في حال شدته، وحفظه في مصالح دنياه كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله.

وفي الحديث: تحريم سؤال غير الله - تعالى - مما لا يقدر عليه إلا هو، كالرزق والشفاء، والمغفرة والنصر، وغيرها.

وفي الحديث: استحباب تعليم ناشئة المسلمين حتى ينشؤون على الخوف من الله والطمع فيما عنده، وكذلك ملاطفتهم ونصحهم وتوجيه النصيحة لهم. قيل: وهذا الحديث أصل عظيم في تربية الصبيان وتوجيههم، وكله يدور على تعلق القلب بالله والالتفات إليه، وقطع الطمع والرجاء في ما عند الناس، وتفويض الأمر إلى الله، وطلب العون من الله - تعالى - دون غيره.

وفي الحديث: بيان أن الأقلام رفعت وأن الصحف جفت، وهو كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها.

وعلى المسلم أن يعلم أن النصر مع الصبر، مع الإيمان بالقضاء والقدر وأن «**ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطاك لم يكن لصيبك**» فذلك يكون فيه تسلية له عند المصائب.

ومن لطائف اقتران الفرج بالكرب واليسر بالعسر، إن الكرب إذا اشتد وتناهى أيس العبد من جميع المخلوقين، وتعلق قلبه بالله وحده، وهذا هو التوكل على الله، وهو من أعظم ما تطلب به الحوائج، ومن توكل على الله كفاه.

وفي الحديث: بشارات، أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن اليسر مع العسر.

٦٣ - الرَّابِعُ: عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، كُنَّا نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمُوبِقَاتِ. [رواه البخاري]. وقال: الْمُوبِقَاتُ الْمُهِلِكَاتُ.

* راوي الحديث هو الصحابي الجليل أنس بن مالك وهو ممن طال عمره، فقد عاش بعد النبي ﷺ قريباً من تسعين عاماً. فتغيرت أمور واختلفت أحوال الناس، فصاروا يتهاونون في بعض الأمور العظيمة في عهد الصحابة - رضي الله عنهم -.

ولهذا قال إنكم لتعملون أعمالاً لا ترون فيها بأساً، كان الصحابة على عهد النبي ﷺ يعدونها من الموبقات والمهلكات لشدة حرصهم وورعهم، وكلما استمرأ الإنسان المنكر قل إحساسه حتى يصبح أمراً عادياً لا يلتفت إليه. ولا شك أن الاستخفاف بالذنوب والتهاون به يدل على قلة الخشية من الله - عز وجل -، وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله وعظمته وأنه مطلع على كل صغيرة وكبيرة.

وفي الأثر الذي أورده المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب المراقبة، التحذير من صفائر الذنوب، فلعلها تكون المهلكة له في دينه، كما تجتمع حبات المطر واحدة تلو الأخرى حتى تسيل منها الأودية.

وفي قوله: (هي أدق في أعينكم من الشعر) قال الطيبي: «هذا عبارة عن تدقيق النظر في العمل، وإمعانه فيه، أي تعملون أعمالاً وتحسبون أنكم تحسنون صنعا، وليس كذلك في الحقيقة».

قال ابن بطل: «المحقرات إذا كثرت صارت كباراً مع الإصرار». وقال المناوي في المثل المضروب في الحديث: «يعني أن الصفائر إذا اجتمعت ولم تكفر أهلكت، ولم يذكر الكبائر لندرة وقوعها من الصدر الأول وشدة تحرزهم عنها، فأنذرهم مما قد لا يكثر ثون به».

وقال - رحمه الله -: «محقرات، الذنوب أي صغارها، لأن صغارها أسباب تؤدي إلى ارتكاب كبارها».

وصغائر المعاصي يجر بعضها إلى بعض حتى يفوت أهل السعادة بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة.

وقيل: محقرات الذنوب هي ما لا يبالي المرء به من الذنوب.
وعن أبي أيوب الأنصاري قال: «إن الرجل ليعمل الحسنة فيثق بها وينسى المحقرات فيلقى الله وقد أحاطت به، وإن الرجل ليعمل السيئة فلا يزال منها مشفقاً حتى يلقي الله آمناً».

ولا شك أن للذنوب أثراً في الدنيا والآخرة، منها حرمان العلم الشرعي، وحرمان الرزق: «**إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**» [رواه أحمد]، وهي سبب لهوان العبد على الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَنْهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].
والذنوب قد تكون حاجباً للعاصي عن حسن الخاتمة، وأنها تزيل النعم الحاضرة، ومن آثار الذنوب، المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ، والعذاب في الآخرة.

وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن وادٍ، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى جمعوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه**» [صحيح الجامع].

وفي الحديث: الحذر من الذنوب صغائرها وكبائرها.
وفيه: فضل الصحابة - رضي الله عنهم - وحرصهم على طاعة الله - عز وجل -.

٦٤- الخَامِس: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - يَغَارُ، وَغَيْرُهُ اللَّهُ - تَعَالَى -، أَنْ يَأْتِيَ الْمَرْءُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ» [متفق عليه].
وَالْغَيْرَةُ بَفَتْحِ الْغَيْنِ: وَأَصْلُهَا الْأَنْفَةُ.

* الغيرة: صفة حقيقية ثابتة لله - عز وجل -، وهي كما في غيرها من آيات وأحاديث الصفات، نسبتها لله - تعالى - على الوجه اللائق به.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وغيرة الله أن يأتي العبد ما حرم عليه، وغيرته أن يزني عبده أو تزني أمته».

قال النووي: «قال العلماء: الغيرة - بفتح الغين - وأصلها المنع، والرجل غيور على أهله، أي، يمنعهم من التعلق بأجنبي بنظر أو حديث أو غيره، والغيرة صفة كمال».

وفي كثير من الآيات يرد النهي عن القرب من المعاصي حتى لا تستدرجه ويقع فيها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَى﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

ومن أهمية العرض وصيانته، قال ﷺ: «من مات دون عرضه فهو شهيد».
وقال ﷺ: «إني لغيور، وما من امرئ لا يغار إلا منكوس القلب» [رواه الطبراني].

وقال ﷺ عندما كسفت الشمس: «يا أمة محمد والله ما من أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» [رواه البخاري ومسلم].

قال ابن القيم: «إذا رحلت الغيرة من القلب ترحلت المحبة، بل ترحل الدين كله».

قال ابن كثير: «ولما تكلم فيها «أي عائشة» أهل الإفك بالزور والبهتان، غار الله لها فأنزل براءتها في عشر آيات من القرآن تتلى على تعاقب الزمن».

ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ من أشد الناس غيرة على أعراضهم، روي عن رسول الله ﷺ أنه قال يوماً لأصحابه: **«إن دخل أحدكم على أهله ووجد ما يريبه أشهد أربعاً»**، فقام سعد بن معاذ متأثراً فقال: يا رسول الله: أَدْخِلْ عَلَى أَهْلِي فَأَجِدْ مَا يَرِينِي، أَنْتَظِرُ حَتَّى أَشْهَدَ أَرْبَعاً؟! لا والذي بعثك بالحق!! إن رأيت ما يريني في أهلي لا طيحن بالرأس عن الجسد، ولا ضربن بالسيف غير مصفح، وليفعل الله بي بعد ذلك ما يشاء، فقال ﷺ: **«أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ!! وَاللَّهِ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهِ أَغْيَرُ مِنِّي، وَمَنْ أَجَلْ غَيْرَةَ اللَّهِ حَرَمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»**.

قال الغزالي: «الاعتدال في الغيرة: وهو أن لا يتغافل عن مبادئ الأمور التي تخشى غوائلها، ولا يبالغ في إساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن، فقد نهى رسول الله ﷺ **«أَنْ تَتَّبَعَ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ»** وفي لفظ آخر **«أَنْ تَبْتَغِيَ النِّسَاءَ»** ولما قدم رسول الله ﷺ من سفره، قال قبل دخول المدينة **«لَا تَطْرُقُوا النِّسَاءَ لَيْلاً»** [رواه الحاكم] فخالفه رجلاً فسبقا، فرأى كل واحد في منزله ما يكره».

وفي الحديث **«إِنَّ مِنَ الْغَيْرَةِ غَيْرَةٌ يَبْغُضُهَا اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - وَهِيَ غَيْرَةُ الرَّجُلِ عَلَى أَهْلِهِ مِنْ غَيْرِ رِيَّةٍ»** [رواه البخاري ومسلم].

قال الشوكاني: «فالغيرة في الريبة: نحو أن يغار الرجل على محارمه إذا رأى منهم فعلاً محرماً، فإن الغيرة في ذلك ونحوه مما يحبه الله، والغيرة في غير ريبة: نحو أن يغار الرجل على أمه أن ينكحها زوجها، وكذلك سائر محارمه، فإن هذا مما يبغضه الله تعالى، لأن ما أحله الله - تعالى - فالواجب علينا الرضى به، فإن لم نرض به كان ذلك من إثارة حمية الجاهلية على ما شرعه الله لنا». وفي الحديث: وجوب مراقبة الله - تعالى - والخوف من غضبه وعقابه إذا انتهكت محارمه.

وفيه: أن الغيرة محمودة، وهي من خصال الكرام.

٦٥ - السَّادُسُ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصٌ، وَأَقْرَعٌ، وَأَعْمَى، أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّكِيَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْ أَنَّ حَسَنًا، وَجِلْدًا حَسَنًا، وَيُذْهِبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذَرَنِي النَّاسُ، فَمَسَحَهُ فذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ وَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِبِلُ أَوْ قَالَ الْبَقَرُ شَكَّ الرَّاوي فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُسْرَاءً، فَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا.

فَأَتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيُذْهِبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَذَرَنِي النَّاسُ، فَمَسَحَهُ عَنْهُ. أُعْطِيَ شَعْرًا حَسَنًا. قَالَ فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ، فَأُعْطِيَ بَقْرَةً حَامِلًا، وَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا. فَأَتَى الْأَعْمَى فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصْرِي فَأُبْصِرَ النَّاسَ فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصْرَهُ. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا فَاتَّجَّ هَذَا وَوُلِدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنْ الْإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ.

ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مُسْكِينٌ قَدْ انْقَطَعَتْ بِيَ الْجِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَى، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ، وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ، وَالْمَالَ، بَعِيرًا أَتَبْلُغُ بِهِ فِي سَفَرِي، فَقَالَ: الْحَقُّوq كَثِيرَةٌ. فَقَالَ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْدُرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا، فَأَعْطَاكَ اللَّهُ، فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتُ. وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلُ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَيَّ مَا كُنْتُ.

وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مُسْكِينٌ وَابْنٌ سَبِيلٌ انْقَطَعَتْ بِيَ الْجِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَى، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ شَاةً أَتَبْلُغُ بِهَا فِي سَفَرِي؟ فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصْرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ فَوَاللَّهِ مَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -.. فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ» [متفقٌ عليه].

وَالنَّاقَةُ الْعُشْرَاءُ بضم العين وبالمدّ: هِيَ الْحَامِلُ. قَوْلُهُ: «أَنْتَجَ» فِي رِوَايَةٍ: «فَنْتَجَ» مَعْنَاهُ: تَوَلَّى نَتَاجَهَا، وَالنَّاتِجُ لِلنَّاقَةِ كَالْقَابِلَةِ لِلْمَرْأَةِ. وَقَوْلُهُ: «وَلَدَ هَذَا» هُوَ بِتَشْدِيدِ اللَّامِ: أَيِ: تَوَلَّى وَلَادَتَهَا، وَهُوَ بِمَعْنَى نَتَجَ فِي النَّاقَةِ. فَالْمَوْلَدُ، وَالنَّاتِجُ، وَالْقَابِلَةُ بِمَعْنَى، لَكِنْ هَذَا لِلْحَيَوَانَ وَذَلِكَ لِغَيْرِهِ. وَقَوْلُهُ: «انْقَطَعَتْ بِي الْجِبَالُ» هُوَ بِالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ وَالْبَاءِ الْمَوْحِدَةِ: أَيِ الْأَسْبَابِ. وَقَوْلُهُ: «لَا أَجْهَدُكَ» مَعْنَاهُ: لَا أَشَقُّ عَلَيْكَ فِي رَدِّ شَيْءٍ تَأْخُذُهُ أَوْ تَطْلُبُهُ مِنْ مَالِي. فِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ: «لَا أَحْمَدُكَ» بِالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ وَالْمِيمِ، وَمَعْنَاهُ: لَا أَحْمَدُكَ بِتَرْكِ شَيْءٍ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، كَمَا قَالُوا: لَيْسَ عَلَى طُولِ الْحَيَاةِ نَدَمٌ أَيْ عَلَى فَوَاتِ طُولِهَا.

* حَدَّثَ النَّبِيُّ ﷺ الصَّحَابَةَ عَنْ قِصَّةِ ثَلَاثَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَرَادَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يُبْتَلِيَهُمْ، فَآتَى أَوَّلَهُمُ الْأَبْرَصَ، ثُمَّ الْأَقْرَعَ، ثُمَّ الْأَعْمَى، وَأَزَالَ مَا بِهِمَا مِنْ عِلَّةٍ، وَأَعْطَاهُمَا مِنَ الْمَالِ مَا أَحْبَبَا، ثُمَّ أَرْسَلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مَا يَشْبَهُ حَالَتِهِ السَّابِقَةَ، فَبِعَثَ أَبْرَصًا لِمَنْ كَانَ أَبْرَصَ، وَأَقْرَعَ لِمَنْ كَانَ أَقْرَعَ، وَأَعْمَى لِمَنْ كَانَ أَعْمَى. يَسْأَلُهُمُ الْمَالُ وَالْعِطَاءُ فَتَبَايَنَتِ الْحَالُ، أَمَا الْأَبْرَصُ فَفَنَّهُ، وَقَالَ: هَذَا الْمَالُ وَرِثَتُهُ أَبَا عَنْ جَدِّ، فَدَعَا عَلَيْهِ، ثُمَّ أَتَى الْأَقْرَعَ يَسْتَعِظِفُهُ بَعْضُ الْمَالِ وَذَكَرَهُ بِحَالِهِ الْقَدِيمَةِ فَزَجَرَهُ وَلَمْ يُعْطِهِ فَدَعَا عَلَيْهِ، وَأَتَى الْأَعْمَى وَذَكَرَهُ بِحَالِهِ وَقَالَ لَهُ سَائِلًا، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَفَرَدَ اللَّهُ إِلَيَّ بِصُرِي، فَخِذْ مَا شِئْتُ وَدَعْ مَا شِئْتُ، شَكَرًا لِلَّهِ عَلَى جُودِهِ، وَاعْتِرَافًا بِفَضْلِهِ، فَضَرَبَ اللَّهُ عَنْ صَنِيعِهِ.

وَفِي الْحَدِيثِ: التَّحْذِيرُ مِنَ الْبَخْلِ وَكُفْرَانِ النِّعَمِ، وَالتَّرْغِيبُ فِي شُكْرِهَا، وَالْاعْتِرَافُ بِهَا وَحَمْدُ اللَّهِ عَلَيْهَا. وَفِيهِ: فَضْلُ الصَّدَقَةِ، وَالْحَثُّ عَلَى الرِّفْقِ بِالضَّعْفَاءِ، وَإِكْرَامُهُمْ وَتَبْلِيغُهُمْ مَآرِبَهُمْ.

وَفِيهِ: الزَّجْرُ عَنِ الْبَخْلِ: لِأَنَّهُ حَمَلَ صَاحِبَهُ عَلَى الْكُذْبِ وَعَلَى جَحْدِ نِعْمَةِ

اللَّهِ - تَعَالَى - ..

٦٦- السَّابِعُ: عَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي» [رواه التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ].
قال التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ: مَعْنَى «دَانَ نَفْسَهُ»: حَاسَبَهَا.

* أيام الإنسان في هذه الحياة محدودة، وأنفاسه معدودة، في الحديث أنه ﷺ قال: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وقل منهم من يجوز ذلك» [رواه الترمذي].

ولهذا كان العمر أنفس ما يكون، وأسرع ما يمضي، والناس بين أمل وغفلة وتسويف: من قائل، لعلي أعمل، وآخر سوف أعمل حتى يدركه الموت.
وقد أوصى عمر - رضي الله عنه - بوصية عظيمة في قوله: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنها قبل أن توزنوا، وتهيئوا للعرض الأكبر: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾» [الحاقة: ١٨].
وفي الحديث قوله ﷺ:

«الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ»: الكيس، هو الإنسان المتبصر في الأمور، الناظر في عواقب الأمور، الحازم الذي يغتنم الفرص، ويتخذ لنفسه الحيلة حتى لا تفوت عليه الأيام والليالي سدى، فيحاسب نفسه وينظر في أمره، ويراجع أحواله. ولا يتم ذلك للكيس الفطن إلا بمحاسبة نفسه وأطرها على الحق أطرا، والبعد بها عن مهاوي الردى.

والمراد بالكيس الفطن ليس في أمور الدنيا الفانية، بل بأمور الآخرة ودار الخلد فإنه يعمل لما بعد الموت، وهذا من بُعد نظره ومتابعته للرسول ﷺ.
أما الآخر فيقع في الآثام والموبقات وتضيع عليه أيام حياته، فهو يمني نفسه بالأمان الكاذبة والأوهام الخادعة حتى يدركه الموت.

«وَعَمِلْ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ» يعني عمل للآخرة، لأن كل ما بعد الموت فإنه من الآخرة، والعمل في الدنيا للآخرة يكون بطاعة أوامر الله واجتناب نواهيه.

«وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي» أي: التارك لما وجب عليه من جعل نفسه تابعة لما تهواه، وتمنى الفوز في الدار الآخرة بالجنة ونعيمها.

والواجب على المسلم أن تكون حياته بين الخوف من عقاب الله وعذابه، والرجاء فيما عنده من النعيم المقيم والرحمة والصفح والتجاوز. ويُغلب الخوف حال الحياة حتى تحجزه عن الحرام وتدفعه للخير، ويُغلب الرجاء إذا دنت المنية طمعاً في فضل الله ورحمته وجوده.

قال الحسن: «المؤمن قَوَّامٌ عَلَى نَفْسِهِ، يَحَاسِبُ نَفْسَهُ، اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَإِنَّمَا خَفَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَوْمٍ حَاسَبُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا شَقَّ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَوْمٍ أَخَذُوا هَذَا الْأَمْرَ مِنْ غَيْرِ مُحَاسَبَةٍ، إِنْ الْمُؤْمِنُ يَفْجِئُهُ الشَّيْءُ يَعْجَبُهُ فَيَقُولُ: وَاللَّهِ إِنِّي لِأَشْتَهِيكَ وَإِنَّكَ لَمَنْ حَاجَتِي وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا مِنْ صِلَةٍ إِلَيْكَ، هِيَهَاتَ، هِيَهَاتَ، حِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَيَفْرُطُ مِنْهُ الشَّيْءُ فَيَرْجِعُ إِلَى نَفْسِهِ فَيَقُولُ: مَا أَرَدْتُ إِلَى هَذَا، مَا لِي وَلِهَذَا؟ وَاللَّهُ لَا أَعُودُ لِهَذَا أَبَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ. إِنْ الْمُؤْمِنِينَ قَوْمٌ أَوْثَقَهُمُ الْقُرْآنُ، حَالُ بَيْنِهِمْ وَبَيْنَ هَلَكَتِهِمْ، إِنْ الْمُؤْمِنُ أَسِيرٌ فِي الدُّنْيَا، يَسْعَى فِي فَكَاكِ رَقَبَتِهِ، لَا يَأْمَنُ شَيْئًا حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يَعْلَمُ أَنَّهُ مَأْخُوذٌ عَلَيْهِ فِي سَمْعِهِ، وَفِي بَصَرِهِ، وَفِي لِسَانِهِ، وَفِي جَوَارِحِهِ، مَأْخُوذٌ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ».

وفي الحديث: الحرص على الأوقات والمحافظة عليها.

وفيه: ترك التسويف وطول الأمل.

٦٧- الثَّامِنُ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ» [حديثٌ حسنٌ رواه التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ].

* هذا الحديث أصل عظيم من أصول الآداب الإسلامية والأخلاق. وهذا الحديث من جوامع كلم الرسول ﷺ، ولوامع حكمه. فقد أرشد النبي ﷺ في هذا الحديث إلى الطريق الذي يبلغ به العبد كمال دينه وحسن إسلامه، وصلاح عمله، فبين أن مما يزيد إسلام المرء حسناً، أن يدع ما لا يعنيه ولا يفيده في أمر دنياه وآخرته.

إن اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير جرمه، عظيم طاعته وجرمه، إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان.

فهذا المخلوق الصغير يُعبر الإنسان عن بُغيته ويفصح عن مشاعره، به يطلب حاجته، ويدافع عن نفسه، ويعبر عن مكنون فؤاده، يحدث جليسه ويأنس رفيقه، به السقطة والدنو، وبه تظهر الهمة والعلو.

قال ﷺ: «**من حسن إسلام المرء**» أي، من كمال إسلامه، واستقامته وانقياده لشرع الله الذي شرع لعباده وتعبدهم به بامثال أوامره، واجتناب نواهيه، والوقوف عند حدوده وآدابه.

«**تركه ما لا يعنيه**» أي، لا يهتمه.

قال ابن رجب: «تركه ما لا يعنيه من قول وفعل، واقتصاره على ما يعنيه من الأقوال والأفعال، ومعنى يعنيه أنه يتعلق عنايته به، ويكون من مقصده ومطلوبه، والعناية شدة الاهتمام بالشيء».

وقال القاري: «أي، ما لا يهتمه ولا يليق به قولاً وفِعلاً ونظراً وفكراً».

وينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام: إلا كلاماً ظهرت فيه المصلحة، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة، فالسنة الإمساك عنه، لأنه

قد ينجزُّ الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، وذلك كثير في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء.

وحدُّ ما لا يعينك في الكلام: أن تتكلم بما لو سكت عنه لم تأثم، ولم تتضرر حالاً ولا مآلاً.

وعلى المسلم أن يشتغل بما فيه صلاحه معاشاً ومعاداً، ويعرض عمّا عدا ذلك بما لا يحتاجه ولا ينتفع به، ولا يؤذي المسلمين بكثرة السؤال عن أمورهم الخاصة ولا يتطفل عليهم فإن ذلك من كمال الاستقامة.

ولا يدخل في هذا الباب أمر المرء بالمعروف ونهيه عن المنكر، وتطوعه للخير فإن هذا وما إليها من معالي الأمور، وقواعد الإصلاح، ومهمات الدين، كيف لا، وقد نفى الله الخير عن كثير من نجوى الناس وكلامهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس.

قال عطاء بن رباح: «إن من كان قبلكم كانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله، أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك التي لا بد منها، أتذكرون أن عليكم حافظين، كراماً كاتبين، عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، أما يستحي أحدكم لو نشرت صحيفته التي أملى صدر نهاره، وليس فيها شيء من أمر آخرته؟!».

قال الفضيل: «وما حجٌّ ولا رباطٌ أشد من حبس اللسان، ولو أصبحت يُهمك لسانك، أصبحت في هم شديد».

ولكي يسلم المتحدث من الزلل في حديثه والنقص في مقاله فإن عليه شروطاً أربعة:

الأول: أن يكون الكلام لداع يدعو إليه، إما في اجتلاب نفع، أو دفع ضرر.

الثاني: أن يأتي به في موضعه، ويتوخى به إصابة فرصته.

الثالث: أن يقتصر منه على قدر حاجته.

الرابع: أن يتخير اللفظ الذي يتكلم به.

إذا توافرت هذه الشروط فعليك بالحديث، وإلا فإن الصمت يجمع للرجل

خصلتين: السلامة في دينه، والفهم عن صاحبه.

وفي الحديث: توجيه للأمة بالاشتغال بما ينفعها ويقربها من ربها.

٦٨ - التَّاسِعُ: عَنْ عُمَرَ - رضي الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يُسْأَلُ الرَّجُلُ فِيمَ ضَرَبَ امْرَأَتَهُ» [رواه أبو داود وغيره].

* الأصل في المعاشرة بين الزوجين المعاملة الطيبة والمعاشرة بالمعروف، وهو ما ذكره الله عز وجل بقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩] فإن ما بين الزوجين عقد وميثاق غليظ، وقد تجري الحياة بينهما ويقع ما يُكدر، ولهذا لا يُسأل الرجل لم ضرب امرأته، لاحتمال أن يكون السبب ما يُستحيا من ذكره، أو ما يجب كتمه كالامتناع من التمكين وغيره. ولأن هذه أمور خاصة بين الزوجين، وحتى لا تتفاقم المشكلة وتزداد وربما تصل إلى الطلاق والفراق.

قال المناوي: «أي، لا يُسأل عن السبب الذي ضربها لأجله لأنه يؤدي لهتك سترها، فقد يكون لما يستقبح، كجماع، والنهي شامل لأبويها». إذ غالب ما يجري بين المرء وزوجه مما لا ينبغي أن يتحدث به، أو يكره، أو يحرم، أو يستحي منه، فربما كان سبب الضرب ما يستحي من ذكره، فإن ذكره تأذى به، وإن سكت كان مستحقراً للسائل، وإن احتال بتورية أو نحوه، افتقر إلى استعمال الفكر والتأمل، وربما كان به عيٌّ، ولم يمكنه ذلك، وإن لم يصدق في الجواب وقع في الكذب. وإن كان سبب الضرب مما يحرم ذكره أو يكره، فالسؤال عنه أقبح وأفزع، وكل ذلك سببه السؤال عما لا يعنيه.

وتأديب الرجل زوجته لا يكون إلا بعد مراتب تسبقه، وهي: الوعظ بالرفق واللين، فإن لم تستجب الزوجة هجر المضجع - وليس هجر بيت الزوجية -، ثم الضرب. كما قال تعالى: ﴿وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْزُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

وضرب الزوجة الذي أذن به الشرع هو الضرب غير المؤثر، الذي يكون بالسواك، فلا يحدث أي ألم، بل ألمه معنوي شعوري فقط. ويحرم ضرب الوجه وما يؤذي.

وفي الحديث أنه ينبغي المحافظة على الأسرار التي تكون بين الزوجين، ولكن إذا رفع الأمر إلى القاضي واحتيج الأمر إلى السؤال والجواب صح ذلك، لإقامة الحق وإصلاح ذات البين. وقد أوصى النبي ﷺ بالنساء، فقال: **«خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»**.

وقد أورد المؤلف - رحمه الله - هذا الحديث في باب المراقبة لله - عز وجل - ومن ذلك مراقبة الله - عز وجل - وخوفه في من هم تحت يده كالزوجة وغيرها، وذلك بعدم التعدي عليها وظلمها والتجني عليها، وتجاوز ما حده الله - عز وجل - له في المعاشرة والمعاملة.

جاء رجل إلى عمر - رضي الله عنه - يشكو خلق زوجته فوقف على باب عمر ينتظر خروجه، فسمع امرأة عمر تستطيل عليه بلسانها وتخاصمه، وعمر ساكت لا يرد عليها، فانصرف الرجل راجعاً، وقال: إن كان هذا حال عمر مع شدته وصلابته - وهو أمير المؤمنين - فكيف حالي؟ فخرج عمر فرآه مولياً عن بابه، فناده وقال: ما حاجتك يا رجل؟

فقال يا أمير المؤمنين: جئت أشكو إليك سوء خلق امرأتي واستطالتها عليّ، فسمعت زوجتك كذلك، فرجعت وقلت: إذا كان حال أمير المؤمنين مع زوجته فكيف حالي؟

فقال عمر: يا أخي إني احتملتها لحقوق لها عليّ: إنها طبخة لطعامي، خبازه لخبزي، غسالة لثيابي، مرضعة لولدي، وليس ذلك كله بواجب عليها، ويسكن قلبي بها عن الحرام، فأنا احتملتها لذلك. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين وكذلك زوجتي.

قال عمر: فاحتملها يا أخي فإنما هي مدة يسيرة.

٦. باب في التقوى

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. أي: خافوا الله حق خوفه، وذلك بأن يطاع فلا يُعصى، وأن يشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى.

وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. أي: ابذلوا أيها المؤمنون في طاعة الله جهدكم وطاقتكم، وما أطقتم وبلغ إليه جهدكم. وهذه الآية مبينة للمراد من الأولى.

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]. أمر من الله - عز وجل - للمؤمنين بتقواه ومراقبته في جميع أقوالهم وأفعالهم، وأن يقولوا قولاً مستقيماً صواباً، وحقاً ومرضياً لله - تعالى -.

والآيات في الأمر بالتقوى كثيرة معروفة.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق ٢-٣]. أي: من يطع الله بالوقوف عند حدوده التي حدها لعباده، يجعل له مخرجاً وطريقاً مما وقع فيه، وهذا من جملة ثواب من أطاع الله واتبع شرعه، بأن يجعل له فرجاً ومخرجاً من كل شدة ومشقة ويرزقه من جهة لا تخطر بباله.

قال بعض العلماء: «ما افتقر تقي قط».

وقال تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]. أي: إن أطعتم الله واجتنبتم معاصيه يجعل لكم هداية ونوراً في قلوبكم، تفرقون به بين الحق والباطل، وفي الآية دليل على أن التقوى تنور القلب، وتشرح الصدر، وتزيد في العلم والمعرفة.

والآيات في الباب كثيرة معلومة.

حيث يأمر الله - عز وجل - عباده بالتقوى، وهي أن يجعل المسلم بينه وبين

ما يخشاه من ربه من غضبه وعقابه وقاية من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معصيته.

قيل عن التقوى: «أن يطاع الله فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر».

وقال ابن كثير: «إن من أتقى الله بفعل أو امره وترك زواجه، ووفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته، ومخرجه من أمور الدنيا وسعادته يوم القيامة، وتكفير ذنوبه، وهو محوها وغفرها وسترها عن الناس، وسبباً لنيل ثواب الله الجزيل».

وقال طلق بن حبيب: «التقوى أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله».

وفي قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي: بحسب طاقتكم، ويدخل في ذلك فعل كل ما أمر الله - تعالى - به وترك كل ما نهى عنه، لأنه في مقدور الإنسان فعله.

وأخبر تعالى أن التقوى من أسباب صلاح الأعمال ومغفرة الذنوب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٨﴾﴾ .
وكذلك في قوله: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٢﴾﴾ .

ومن ثمرات التقوى: محبة الله - عز وجل - للمتقين، ورحمته لهم في الدنيا والآخرة، والتقوى سبب لعون الله ونصره وتأييده، وهي وسيلة لنيل الأجر العظيم والثواب الجزيل، وفيها توسيع الرزق، وفتح الأبواب، وتفريج الكرب، وتيسير الأمور، والنصر على الأعداء.

والتقوى ثوابها الجنة، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وَأَمَّا الْآحَادِيثُ:

٦٩ - فَأَلَاوُلُ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: قيل: يا رسول الله من أكرم الناس؟ قال: «أَتَقَاهُمْ» فقالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فَيُؤَسِّفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابن نَبِيِّ اللَّهِ ابن نَبِيِّ اللَّهِ ابن خَلِيلِ اللَّهِ». قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَهُوا» [متفق عليه].

* يَبَيِّنُ هذا الحديث أقسام الناس وشرف انتسابهم وأنسابهم، وأن من الأنساب شريف ومنها دون ذلك. فالناس معادن، وأصحاب المروءات ومكارم الأخلاق في الجاهلية هم أصحابها في الإسلام إذا علموا أحكام الشرع وفقهوا. وقد سأل الصحابة - رضي الله عنهم - رسول الله ﷺ عن أكرم الناس لحرصهم واهتمامهم بالأمور التي يحصل بها الارتقاء، وتحصيل المراتب العالية. ولهذا كان التقوى هو الميزان، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ويشرف الإنسان بشرف آبائه وعشيرته إذا كانوا أتقياء، وكان هو على طريقتهم وفضلهم.

قال ﷺ: «... من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» [رواه مسلم].

قال النووي: «من كان عمله ناقصاً لم يلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال، فينبغي أن لا يتكل على شرف النسب وفضيلة الآباء ويقصر في العمل». ومعنى التقوى: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه وقاية، تقيه منه. وفي الحديث ذكر منزلة يوسف - عليه السلام - ومكانته العظيمة فهو من سلالة أنبياء، فهو يوسف بن يعقوب، بن إسحاق، بن إبراهيم - عليهم الصلاة والسلام - نبي ابن نبي ابن نبي، وكل من جاء من الأنبياء من بعد إبراهيم فهو من نسله، ومن هؤلاء نبينا محمد ﷺ فهو من ولد إسماعيل بن إبراهيم.

وفي الحديث «خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» أي، خيارهم في الإسلام، أي أصحاب المروءات ومكارم الأخلاق في الجاهلية هم أصحابها في الإسلام، وهم الخيار.

«إذا فقهوا» أي: إذا كانوا فقهاء عالمين بالأحكام الشرعية والفقهية.

قال القاضي عياض: «قد تضمن الحديث في الأجوبة الثلاثة أن الكرم كله وعمومه وخصوصه ومجمله ومفصله، إنما هو بالدين من التقوى، والنبوة والاعتراف بها، والإسلام مع الفقه».

قال ابن مسعود - رضي الله عنه - في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، قال: «أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر».

والتقوى سبب لتيسر أمور الإنسان: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا

﴿[الطلاق: ٤]، وهي من أسباب رحمة الله على العبد، قال تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي

وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. وهي سبب للإكرام

عند الله، كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنَكُمُ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهي سبب للنجاة يوم القيامة من عذاب الله: ﴿وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى

رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧٦ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا ﴿٧٧﴾

[مريم: ٧١-٧٢]. وهي سبب لقبول الأعمال ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾

[المائدة: ٢٧]. وأن المتقين تضاعف أجورهم وحسناتهم: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِّرْ

عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾ [الطلاق: ٥].

وهي سبب للتكفير من السيئات، والعفو عن الزلات: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا

أَتَقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٦﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴿٧٧﴾

[الأحزاب: ٧٠-٧١].

٧٠ - الثاني: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا. فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ. فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ. فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ» [رواه مسلم].

* وصف النبي ﷺ الدنيا بأنها حلوة خضرة، تشبه في الميل إليها الفاكهة الحلوة في مذاقها، فإن الحلو مرغوب فيه من حيث الذوق، وشبهها بالخضرة في لونها لأن الأخضر مرغوب فيه من حيث النظر. ولهذا فهي جالبة للنظر والطعم.

وقيل: لسرعة فنائها كالشيء الأخضر في هذين الوصفين، وإذا اجتمع الأمران في طلب العين وطلب النفس فيخشى على الإنسان من أن يقع فيه، فيغتر الإنسان وينهمك في الدنيا ويجعلها أكبر همه.

والله - عز وجل - جعل بني البشر خلفاء في الدنيا لينظر كيف يصنع الناس وماذا يفعلون، وحذر من الاغترار بها والافتتان بزيبتها، والفتنة تأتي بمعان كثيرة منها: الضلال، والمحنة، والإعجاب بالشيء.

وعندما سُئِلَ أبو صفوان الرعيني: ما هي الدنيا التي ذمها الله في القرآن والتي ينبغي للعاقل أن يتجنبها؟ قال: «كل ما أحببت في الدنيا تريد به الدنيا فهو مذموم، وكل ما أحببت منها تريد به الآخرة فليس منها».

قال يحيى بن معاذ: «الدنيا دار أشغال، والآخرة دار أهوال، ولا يزال العبد بين الأشغال والأهوال حتى يستقر به القرار، إما إلى جنة وإما إلى نار».

وقال الشافعي: «طلب فضول الدنيا عقوبة يعاقب الله بها أهل التوحيد».

وروى أبو كبشة عن النبي ﷺ قال: «إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَعِلْماً، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحْمَهُ، وَيَعْلَمُ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ. وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْماً، وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً، فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ فَيَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بَنِيته فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ. وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَلَمْ

يرزقه علماً فهو يتخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم فيه لله حقاً، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً، وهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء» [رواه أحمد].

وشاهد الحديث لباب التقوى، قوله ﷺ:

«فاتقوا الله واتقوا النساء» وخص النساء بالفتنة لوجوب الحذر من نزغات وحبائل الشيطان من الوقوع في الحرام سواء من زنا العين، أو زنا اللسان، أو زنا اليد، أو زنا الفرج. وذكر ﷺ أن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء، وفي ذلك الاتعاظ وأخذ العبرة من الأمم السابقة، فإن ما حصل لبني إسرائيل يحصل لغيرهم إذا تعاطوا أسبابه.

قال الإمام النووي - رحمه الله -: «وتدخل في النساء الزوجات وغيرهن، وأكثرهن فتنة الزوجات، ودوام فتنتهن وابتلاء أكثر الناس بهن». وفي الحديث: ذكر الدنيا والحذر منها أن تلهي عن الآخرة. وفيه: التنبيه والتحذير من فتنة النساء. وفيه: بيان أن فتنة بني إسرائيل كانت في النساء. وفيه: حرص النبي ﷺ على أمته وتحذيرها مما يخاف أن تقع فيه.

٧١- الثالث: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتَّقَى وَالْعِفَافَ وَالْغِنَى» [رواه مسلم].

* الإنسان ضعيف يحتاج إلى من يحفظه ويكأله، ويعينه على شهوات النفس ونزعات الشيطان. ومن توحيد العبادة أن لا يلجأ الإنسان إلى حجر أو شجر أو قبر أو ولي، بل يكون دعاؤه لله خالصاً ورجاؤه منه وحده لا شريك له.

جاء في الحديث عنه ﷺ: «الدعاء هو العبادة» [رواه الترمذي]. والدعاء لب العبادة، وإليه يلجأ المسلم في وقت الشدة والرخاء، في صباحه ومساءه، ونهاره وليله، وفرحه وحزنه. وعند دخوله وخروجه، ونزوله وسفره، لا غنى للعبد عن هداية ورشاد وحفظ ورعاية مولاه - عز وجل -.

وكان النبي ﷺ مع جلالته قدره ورفيع منزلته، كثير الدعاء والتضرع والإلتجاء إلى الله - عز وجل - في الشدة والرخاء وسائر الأحوال، بل كل يومه وليله معمور بالذكر والدعاء.

وفي هذا الحديث: دعاء عظيم شامل لأربعة مطالب عظيمة وجليلة لا غنى عنها لأي عبد سائر إلى الله - عز وجل -، فقد جمعت مطالب الدنيا والآخرة، وقد سأل النبي ﷺ هذه الخصال لشرفها ومكانتها، فقال:

«اللهم إني أسألك الهدى» وهو الدلالة والرشاد، ويشمل الهدى: العلم والتوفيق. وهو أعظم مطلوب للعباد، به يسير على الصراط المستقيم ويصل به إلى جنة رب العالمين.

«والتقى»: تقوى الله - عز وجل -، والتقوى: اسم جامع لفعل ما أمر الله به، وترك ما نهى عنه. فإن الله - عز وجل - إذا منّ على العبد بالتقى سار على الجادة والصراط المستقيم، لا مائلاً عن الحق ولا منحرفاً عن الجادة المستقيمة.

وقوله ﷺ «والعفاف» وهو أن يعف عن كل ما حرم الله عليه. ويتنزه عما لا يباح. عفاف عن الزنا بكل أنواعه، وعفاف عن الكسب المحرم وغيره.

«والغنى» الغنى عن الخلق والاعتناء عن الناس، وعما في أيديهم، فيكون افتقاره لله وحده لا رب سواه.

وقوله: «والعفاف والغنى» يتضمن العفاف عن الخلق، وعدم تعليق القلب بهم، والغنى بالله وبرزقه، والقناعة بما فيه، وحصول ما يطمئن به القلب من الكفاية، وبذلك تتم سعادة الحياة الدنيا، والراحة القلبية، وهي الحياة الطيبة، فمن رزق الهدى والتقوى، والعفاف والغنى، نال السعادتين، وحصل على كل مطلوب، ونجا من كل مرهوب.

قال الطيبي: «أطلق الهدى والتقوى ليتناول كل ما ينبغي أن يُهتدى إليه من أمر المعاش والمعاد ومكارم الأخلاق، وكل ما يجب أن يُتقى عنه من الشرك والمعاصي ورذائل الأخلاق، وطلب العفاف والغنى تخصيص بعد التعميم» وإذا كان هذا دعاء النبي ﷺ مع جلالة قدره ورفيع منزلته فنحن أولى لضعفنا، ونقوله اقتداءً بالنبي ﷺ وطلباً للعون من الله - عز وجل - وخضوعاً له، ولجوءاً إليه في كل أحوالنا.

قال السعدي - رحمه الله -: «هذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها، وهو يتضمن سؤال خير الدين وخير الدنيا، فإن الهدى هو: العلم النافع. والتقوى: العمل الصالح، وترك ما نهى عنه الله ورسوله ﷺ وبذلك يصلح الدين، فإن الدين علوم نافعة ومعارف صادقة فهو: «الهدى». وقيام بطاعة الله ورسوله فهو: «التقى».

وفي الحديث: دعاء المسلم لنفسه بالهدى والتقوى والعفاف والغنى.

وفيه: أن الملجأ والملاذ للعصمة من الفتن والشُرور هو الله - عز وجل -.

٧٢- الرَّابِعُ: عَنْ أَبِي طَرِيفٍ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمِ الطَّائِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ ثُمَّ رَأَى أَنْتَقَى اللَّهُ مِنْهَا فَلْيَأْتِ التَّقْوَى» [رواه مسلم].

* التقوى هي سياج المؤمن وحصنه، وفي الحديث وجوب التزام التقوى، وأن من عزم على فعل معصية فلا يفعلها، وإن كان قد أقسم على فعلها، فإنه يحنت ويكفر عن يمينه، ولا يأتي بالمعصية.

ومن فضل الله - عز وجل - على عباده أن جعل لهم فسحة في الإيمان، فلو حلف المسلم على أمر، ثم رأى من المصلحة، ومن البر والتقوى فعل الأمر الذي حلف ألا يفعله، فله فعله مع إخراج الكفارة عن يمينه.

واليمين: هي الحلف بالله - عز وجل -، أو باسم من أسمائه، أو صفة من صفاته، ولا يجوز الحلف بغير الله، لا بالنبي ﷺ، ولا جبريل - عليه السلام -، ولا بأي أحد من الخلق، لقوله ﷺ «**من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**» [رواه البخاري].

ولا ينبغي للإنسان أن يكثر من اليمين، فإن هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] أي، لا تكثروا الحلف بالله، وإذا حلف المرء ينبغي له أن يقيد الحلف بالمشيئة. فيقول: (والله إن شاء الله) ليستفيد من ذلك فائدتين الأولى: أن يتيسر له ما حلف عليه، والثانية: أنه لو حنت فلا كفارة عليه.

والحلف أمره عظيم، فلا يحلف المسلم إلا بالله وأسمائه وصفاته، وعليه أن يتجنب الحلف بغير الله، قال ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**» [رواه الترمذي].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤] أي، لا تجعلوا اليمين أو الحلف بالله حاجزاً

وحائلاً معترضاً يحول بينك وبين البر والمعروف والصلة.

وفي قوله ﷺ:

«**من حلف على يمين**» يعني، على مقتضى يمين، أي، أنه حلف على أمر محلوف عليه.

«**ثم رأى أتقى لله منها**» أي، أنه حلف على يمين ثم رأى غيرها خيراً منها، كأن يحلف أن لا يفعل مندوباً ثم يرى غيرها خيراً منها، وأنه إن فعل هذا المندوب فهو أفضل وأتقى الله - تبارك وتعالى -، كذلك لو حلف أنه يفعل مكروهاً فإن ترك المكروه أتقى وأولى.

ومن وقعت عليه الكفارة فهي إطعام عشرة مساكين، كل مسكين صاع من تمر، أو من الأرز، أو من الحنطة من قوت البلد، وهو كيلو ونصف تقريباً، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، مخير بين هذا الثلاث على التخيير فمن لم يجد واحداً من هذه الكفارات فليكفر بصوم ثلاثة أيام.

قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ، إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِّنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

[المائدة: ٨٩].

وفي الحديث: أن من حلف على يمين وجب عليه إبرار قسمه وعدم الحنث فيها، وإذا كانت اليمين تمنع من طاعة أو تفوت خيراً كثيراً، أو توقع في معصية، فعليه الصبر ولزوم التقوى وهو: أن يكفر عن يمينه، ويفعل ما أمره الله به، ويجتنب معصيته.

وفي الحديث: رحمة الله - عز وجل - ورأفته بالمسلم.

وفيه: أن من حلف على يمين ثم رأى غيرها خيراً منها، فعليه الكفارة.

٧٣- الخَامِسُ: عَنْ أَبِي أَمَامَةَ صُدَيِّ بْنِ عَجَلَانَ الْبَاهِلِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوُدَاعِ فَقَالَ: «اتَّقُوا اللَّهَ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا أَمْرَاءَكُمْ، تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ» [رواه التِّرْمِذِيُّ، فِي آخِرِ كِتَابِ الصَّلَاةِ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ].

* خطب النبي ﷺ في المسلمين يوم عرفة في حجة الوداع التي سُميت بذلك، لأنه ﷺ ودع الناس فيها. فأوصاهم ﷺ بالتقوى لأنه الأساس، لتناولها فعل سائر الأمور، وترك سائر المناهي. وتقوى الله طريق الجنة، وشرط دخولها، والاستقامة في الدنيا سبب النجاة في الآخرة.

وفي هذا الحديث وصية جامعة في ذكر موجبات دخول الجنة، وأسباب الظفر بنعيمها، والفوز بخيراتها وملذاتها، وهي الدار التي أعدها الله - تعالى - لعباده المتقين وأوليائه الصالحين، وجعل فيها من النعيم الكريم والثواب العظيم، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. وفي الحديث قوله ﷺ:

«**اتقوا الله**» أي، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، فأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه وقاية تقيه منه، وتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته، واجتناب معاصيه.

ثم قال: «**وصلوا خمسكم**» أي، حافظوا على الصلوات الخمس المفروضة. والصلوة، هي الركن الثاني من أركان الإسلام والمحافظة عليها من موجبات دخول الجنة، وإضاعتها من موجبات دخول النار، وهي أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، وهي الفارقة بين المسلم والكافر، وإقامتها إيمان، وإضاعتها

كفر، فلا دين لمن لا صلاة له، ولا حظ في الإسلام لمن ضيع الصلاة.
 قال ﷺ: «من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف» [رواه أحمد].

«وصوموا شهركم» أي، صوموا شهر رمضان، وأضيف للأمة لما يسبغ عليهم فيه من الفيوض الإلهية من عتق الرقاب وجزيل الثواب.
 «وأدوا زكاة أموالكم» طيبة بها نفوسكم، طاعة لربكم وتنمية لأموالكم، ومواساة للفقراء والمحتاجين. وهي الركن الثالث من أركان الإسلام.
 ثم ذكر «وأطيعوا أمراءكم» فيما ليس فيه معصية لله - تعالى - وفي ذلك صلاح الحال والمآل. وفي هذا الأمر بالسمع والطاعة لولي الأمر في غير معصية، وعدم الخروج عليهم، ونزع اليد من طاعتهم
 ثم ذكر ﷺ الأجر المترتب على ذلك بقوله:

«تدخلوا جنة ربكم» فالجنة دار المتقين، ومنازل المطيعين، وقرة عيون الموحدين. وإضافة الجنة إلى الرب - سبحانه وتعالى - فيه تشريف لها، وتعليق لشأنها، ورفع لقدرها، وقد جمع النبي ﷺ في هذا الحديث خمس خصال موجبة لدخول الجنة.

قال الطيبي: «إنما أضاف الصلاة والصوم والزكاة والطاعة إليهم ليقابل العمل بالثواب في قوله «جنة ربكم» ولينعقد البيع بين الرب والعبد في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١].

فإن قلت: لم صرح بالمضاف في قوله ﷺ «زكاة أموالكم»، وأضمر في قوله «خمسكم» أي صلواتكم، وأبهم في قوله «شهركم».

قلت: للدلالة على أن الإنفاق من المال أمر أشق وأصعب على النفس، أي: أنفقوا مما تحبونه وما هو شقيقة أنفسكم.

وفي الحديث: الأمر بتقوى الله - عز وجل - وطاعته، وأداء ما افترضه.

٧- بَابُ الْيَقِينِ وَالتَّوَكُّلِ

جمع المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذا الباب بين اليقين والتوكل .
والتوكل : هو صدق اعتماد القلب على الله - عز وجل - في استجلاب
المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا، ويجب مع التوكل بذل الأسباب . وهو
ثمرة من ثمرات اليقين، واليقين هو : قوة الإيمان والثبات .

قال ابن القيم - رحمه الله :- « وهو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد » .
وقد أورد المؤلف - رحمه الله - ما ذكره الله - عز وجل - عن حال المؤمنين
في غزوة الأحزاب وثباتهم ويقينهم بنصر الله - عز وجل - مع شدة الموقف
والكرب التي نالتهم في تلك الأيام العصيبة .

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ . على عكس المنافقين الذين يقولون ﴿ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ
وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٢] .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ
فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [١٧٣] . وحال نزول هذه الآية
مثل التي سبقتها فقد نزلت بعد غزوة أحد، وقد جمعت لهم قريش العدد
والعدة ليكروا بها على المسلمين، فما زاد المؤمنين إلا إيماناً وثقة بوعد الله
ونصره وتمكينه، معتمدين عليه متوكلين، وقالوا ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [١٧٣]
﴿ فَإِنَّ اللَّهَ - تعالى - حسبنا وكافينا من هؤلاء الأعداء . فكان لهم ما أرادوا،
قال تعالى : ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهْمُ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ
وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [١٧٤] .

وقد أمر - عز وجل - في آية أخرى بالتوكل عليه ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ وفي ذكر ﴿الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ دليل امتناع الموت على الرب - عز وجل - وأن من لا يجري عليه ذلك هو القادر والمستحق للتوكل والإعانة والتوفيق. وفيه إشارة إلى أن من توكل على غير الله فقد ضاع لأنه يموت. ولهذا قال ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي: كافيه من كل شيء وهذا من ثمرات التوكل.

وأمر بالتوكل عليه، وأنه من صفات المؤمنين الموحدين الذين يعبدونه حق عبادته ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ .

وجمع صفات المؤمنين في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢١٦﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴿٢١٧﴾ .

وصفهم - جل وعلا - بثلاث صفات تقتضي كمال الإيمان:

الأول: الخوف من الله وعظمته وحوله وسلطانه، مما تخافه القلوب وتوجل منه، لما في القلوب من تعظيم الله وإجلاله، وإذا سمعوا آيات الله زادتهم إيمانًا، لأنهم مصدقون بما فيها من الأمور الغيبية الماضية والمستقبلية. وكذلك منهم القبول والإذعان لحكم الله.

الثاني: زيادة إيمانهم عند سماع كلام الله، وهذا دليل على أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

الثالث: التوكل على الله وحده، وتفويض الأمور إليه مع فعل الأسباب.

وقد جعل الله - سبحانه - لكل عمل جزاء، وجعل جزاء عبده المتوكل عليه أن يكفيه أمر دينه ودنياه، فلا مطمع فيه لعدو، قال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ .

وأما الأحاديث:

٧٤ - فالأول: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهِيْطُ وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقِيلَ لِي انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ الْآخِرِ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ» ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحَبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وَلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ، فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا الَّذِي تَخَوْضُونَ فِيهِ؟» فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مَخْصَنٍ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ» ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ» [متفق عليه].

الرَّهِيْطُ بضم الراء: تصغير رهط، وهم دُونَ عَشْرَةِ أَنْفُسٍ. وَالْأَفْقُ: النَّاحِيَةُ وَالْجَانِبُ. وَعُكَّاشَةُ بضم العين وتشديد الكافِ وَبِتَخْفِيفِهَا، وَالتَّشْدِيدُ أَفْصَحُ.

* في الحديث بيان فضل النبي ﷺ وفضل أمته، وأنهم أكثر الأمم حينما عرضت عليه الأمم، ورأى النبي ﷺ ومعهم الرهط، والنبي ومعهم الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، ثم رفعت له أمة موسى - عليه السلام - فإذا هم سواد عظيم، ثم رفعت له أمته فإذا سواد عظيم لكثرتهم، فقيل له: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب. ثم نهض ﷺ فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.

فلما خرج ﷺ بين لهم ذلك وأخبرهم من هم أولئك الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، فهم الذين:

«**لا يسترقون**» لا يطلبون الرقية من أحد لأنهم معتمدون على الله، ولأن الطلب فيه شيء من الذل.

وقوله «**لا يرقون**» من رواية مسلم وهي شاذة، لأن الرقية الشرعية على الناس نوع إحسان لهم. وقيل المراد لا يرقون غيرهم بالرقية المكروهة. والرقية منها ما هو مشروع: وهو ما كان من القرآن أو الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ، ومنها ما هو محرم وهو ما كان من أعمال الجاهلية والضلالات والشعوذة التي تنافي صحة الإيمان وكمال التوكل.

«**ولا يكتون**» أي، لا يطلبون من أحد أن يكويهم إذا مرضوا، لأن الكي عذاب بالنار لا يُلجأ إليه إلا عند الحاجة.

وقال ابن أبي جمرة: «علم من مجموع كلامه ﷺ في الكي أن فيه نفعاً، وأن فيه مضرة، فلما نهى عنه علم أن جانب المضرة فيه أغلب، وقريب منه إخبار الله - تعالى - أن في الخمر منافع، ثم حرمها، لأن المضار التي فيها أعظم من المنافع».

قال ابن حجر: «ولم أر في أثر صحيح أن النبي ﷺ اكتوى».

«**ولا يتطيرون**» لا يتشاءمون، لا بطيور ولا أيام ولا غيرهما. وفي الحديث تحريم التشاؤم والتطير.

«**وعلى ربهم يتوكلون**» التوكل: هو التفويض والاعتماد على الله - عز وجل - مع فعل الأسباب المشروعة أو المباحة، وهو من عمل القلب.

والقاعدة الشرعية في الأسباب أن التوكل عليها شرك ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠] وأن تركها معصية كمن رأى جداراً سيسقط عليه يجب عليه الهرب ويبدل السبب في ذلك.

قيل عن التوكل: هو صدق اعتماد القلب على الله - عز وجل - في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة، وكلُّه الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يُعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه. وفي الحديث فضل التوكل على الله والاعتماد عليه في دفع ضرر أو جلب نفع وما أعد الله للمتوكلين من الأجر والثواب.

وفي نهاية الحديث: أن عكاشة ابن محصن سأل النبي ﷺ أن يدعو له أن يجعله الله منهم. وذلك لقوة يقينه وشدة حرصه على الخير فهو من أفضل الصحابة وخيارهم وشجعانهم.

فقال له ﷺ: «**أنت منهم**» أي: ممن يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب.

فقال رجل آخر: ادع الله أن يجعلني منهم.

فقال ﷺ: «**سبقك بها عكاشة**» أي، بتلك الدعوة.

وفي الحديث: أن أمة محمد ﷺ أكثر الأمم.

وفيه: فضل التوكل والاعتماد على الله - عز وجل -.

٧٥- الثاني: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَيْضاً أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أُنَبِّتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْحَيُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ» [متفق عليه].
وَهَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ وَاخْتَصَرَهُ الْبُخَارِيُّ.

* الدعاء هو العبادة وفي هذا الدعاء العظيم التأسّي بالنبي ﷺ في دعاءه بهذه الكلمات الجامعة لمعاني الخير التي تعبر عن صدق الإيمان وغاية اليقين. ففي الدعاء الاستسلام لحكم الله وأمره.

«اللهم لك أسلمت» أي، لك انقذت واستسلمت لحكمك وأمرك.

«وبك آمنت» آمنت بوحدانية الله وبربوبيته وبكتابه ونبيه ﷺ.

«وعليك توكلت» فوضت أموري كلها إليك.

والتوكل: هو اعتماد القلب على الله - عز وجل - في جلب المصالح الدينية والدينيوية، ودفع المضار الدينية والدينيوية، مع الثقة به، وبذل الأسباب المشروعة أو المباحة. قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ [المائدة: ٢٣] لا على غيره، فهو أجمع أنواع العبادة، وأعلى مقامات التوحيد، وأعظمها وأجلها، لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة، فإنه إذا اعتمد على الله في جميع أموره الدينية والدينيوية دون كل من سواه صح إخلاصه ومعاملته مع الله، ولذلك أمر الله به في غير آية من كتابه، بأن جعله شرطاً للإيمان والإسلام، كما أمر به في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَنْقَوْمُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] فدل على إنتفاء الإيمان والإسلام.

«وإليك أنبت» أي، أقبلت بعبادتي وطاعتي لك، وأعرضت عما سواك.

«وبك خاصمت» أي، بك أحاج وأدافع، وأقاتل أعداءك بالحجة والبيان، والسيف والسنان بما وهبني من علم وقوة وشجاعة وحجة. قال القرطبي: «أي، بإعانتك وتعليمك وبكلاءك جادلت المخالفين فيك حتى خصمتهم»

«اللهم إني أعوذ بعزتك» استعاذ بعزته، وهي صفة من صفات الله - تعالى - الجليلة، وهي مشتقة من اسمه - تعالى - العزيز ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]. وإنما اختار لفظ العزيز من بين سائر الأسماء الحسنى ولم يذكر برحمتك، وعفوك، وغفرانك، ونحوه، رعاية لكمال الأدب، فإن الإضلال منه - سبحانه - مسبب عن كمال عزته واستغنائه، وكونه فعالاً لما يريد، وما يعاب بهم، وللأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - اعتناء عظيم بحفظ مراسم الأدب.

وفي قوله: «أنت الحي الذي لا يموت والجن والأنس يموتون» تأكيد لانفراد الله - تعالى - بالحياة. قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]. وخص الجن والإنس، لأن هذين النوعين هما المكلفان المقصودان بالتبليغ. ففي هذا الدعاء جمع في بداياته، وطياته ونهاياته، توسلين من التوسلات العظيمة إلى الله - تعالى -: التوسل بالعمل الصالح كقوله «اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت...».

والتوسل بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا كقوله «أنت الحي الذي لا يموت». وفي الحديث: «وآمنت وصدقت وأيقنت». ويأتي الدعاء بعد هذا التفويض لله والاستسلام والتوكل والإنابة بقوله: «اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تفضلني» وفيه استحباب التأسي بالنبي ﷺ في هذه الكلمات الجامعة المانعة التي تعبر عن صدق الإيمان وغاية اليقين.

وفي الحديث: فضل الدعاء والالتجاء إلى الله - عز وجل -.. وفيه: اليقين والتوكل على الله - سبحانه وتعالى -..

وفي رواية له عن ابن عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: كَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ «حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ».

ونبينا محمد ﷺ حين رجع من أحد، عزم المشركون على الكرة على المدينة ليقضوا على المسلمين، فقال ﷺ «**حسبنا الله ونعم الوكيل**» فكفاهم الله شر القوم ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

قال ابن رجب: «واعلم أن تحقيق التوكل لا ينافي السعي في الأسباب التي قدر الله - سبحانه - المقدرات بها، وجرت سنته في خلقه بذلك، فإن الله - تعالى - أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل، فالسعي في الأسباب بالجوارح

طاعة له، والتوكل بالقلب إيمان به، كما قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

والتوكل من أجمع أنواع العبادة لذا أمر الله - سبحانه - عباده بالتوكل عليه وحده، وجعله شرطاً في صحة الإيمان، فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

والتوكل على الله أعم من أن يكون في تحصيل المال، ومصالح الدنيا، بل هناك ما هو أعظم من ذلك وأنفع للعبد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن التوكل أعم من التوكل في مصالح الدنيا، فإن المتوكل يتوكل على الله في صلاح قلبه ودينه، وحفظ لسانه وإرادته، وهذا أهم الأمور إليه، ولهذا يُناجي ربه في كل صلاة بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾».

وقول: «حسبي الله» استعانة بالله، فعلى المسلم أن يكثر منها في الصباح والمساء، لا سيما في بعض الساعات والأحوال.

عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: من قال إذا أصبح وإذا أمسى: «حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم سبع مرات، كفاه الله ما أهمه» [رواه أبو داود].

وتقال عند الشدائد، ولرد كيد الأعداء، وإذا أعرض الناس عنك ولم يستجيبوا للحق، وعند الخوف من وقوع الظلم، وعند حلول الظلم، وعند إحسان الظن بالله وانتظار فضله.

وفي الحديث: فضل التوكل على الله والتأسي بالأنبياء، والدعاء بهذا الدعاء العظيم إذا رأى المسلم من الناس عدواناً عليه فإن الله يكفيك شرهم وهمهم.

٧٧- الرَّابِعُ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَقْوَامٌ أَفْنَدْتُهُمْ مِثْلَ أَفْنَدَةِ الطَّيْرِ» [رواه مسلم].
 قِيلَ مَعْنَاهُ مُتَوَكِّلُونَ، وَقِيلَ قُلُوبُهُمْ رَقِيقَةٌ.

* الجنة مطلب غال ونفيس، وكثيراً ما كان ﷺ يذكرها لأصحابه ويدلهم على طريقها، وفي هذا الحديث ذكر النبي ﷺ أقوام يدخلون الجنة وأن من صفاتهم أن أفندتهم:

«مثل أفندة الطير» قال الإمام النووي: «قيل في مثلها، رقتها وضعفها». وكأن المراد: قوم غلب عليهم الخوف، كما جاء عن جماعات من السلف في شدة خوفهم.

وقيل: المراد المتوكلون، لكونها خالية عن هم ما يتقوت به صباحاً ومساءً، فيكون إشارة إلى الحديث الآخر «تغدو خماصاً وتروح بطاناً» [رواه الترمذي].
 وقيل: مثل قلوب الطير خالية من الحسد.

وقيل: أنها ذات خشية واستكانة، سريعة الاستجابة والتأثر بقوارع التذكير، سالمة من الشدة والقسوة والغلظة والغل والحسد.
 والتوكل: هو الاعتماد على الله - عز وجل - في استجلاب المصالح ودفع المضار، قال سعيد بن جبير: «التوكل جماع الدين».

وقيل في توكلهم على الله، مثل الطير التي هي أعظم المخلوقات توكلاً على الله، تجده يخرج في الصحراء لا يدري هل يلقي حباً أو لا، فيلقى حباً، ويملاً الله بطنه طعاماً بدون حيلة.

والتوكل لا يعني القعود عن العمل وبذل الأسباب، فإن الطير تغدو في الصباح تبحث عن رزقها وتعود مساءً شبعى قد حصلت على رزقها.

قال سهل التستري: «من طعن في الحركة - يعني في السعي والحركة - فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان، فالتوكل حال النبي

ﷺ والكسب سنته، فمن عمل على حاله فلا يترك سنته».

والرزق مكتوب ومقدر، كما قال ﷺ «لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب خذوا ما حل ودعوا ما حرم» [رواه ابن ماجه].

وقد صف الله المؤمنين حقاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] وصفهم - تعالى - بثلاث صفات تقتضي كمال الإيمان:

الأول: الخوف من الله عند ذكره، لما في القلوب من تعظيم الله وإجلاله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

الثاني: زيادة إيمانهم عند سماع كلام الله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾، وهذا دليل على أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

الثالث: التوكل على الله وحده، وتفويض الأمور إليه مع فعل الأسباب، قال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

قال ابن تيمية: «ومن كان مع الله دفع الله عنه أنواع الأذى والمضرات ما لا يدفعه عنه أحد من خلقه».

قيل لحاتم الأصم: على ما بنيت أمرك في التوكل؟

قال: «على خصال أربعة: علمت أن رزقي لا يأكله غيري، فاطمأنت به نفسي، وعلمت أن عملي لا يعمل به غيري، فأنا مشغول به، وعلمت أن الموت يأتي بغتة فأنا أبادره، وعلمت أني لا أخلو من عين الله، فأنا مستح منه».

وفي الحديث: الحث على التوكل ورقة القلب، فإنهما من أسباب دخول الجنة والفوز بنعيمها، والمؤمن المتوكل على الله - عز وجل - لا يحمل في قلبه هم معيشته ورزقه، فهو كالطير الذي يسعى ليوومه.

وفيه: إشارة إلى أنها لما لم تتسبب للأرزاق بتدبيرها، يسر الله وصول الرزق إليها مع ضعفها وقلة حيلتها.

٧٨- الخَامِسُ: عَنْ جَابِر- رضي الله عنه- أَنَّهُ غَزَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ نَجْدٍ فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَفَلَ مَعَهُمْ، فَأَذْرَكْتَهُمُ الْقَائِلَةَ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعُضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ سَمُرَةٍ، فَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ، وَنَمَنَا نَوْمَةً، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُونَا، وَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: «إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقِظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلَتًا، قَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: اللَّهُ ثَلَاثًا» وَلَمْ يُعَاقِبْهُ وَجَلَسَ. [متفق عليه].

وفي رواية: قَالَ جَابِرٌ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِذَاتِ الرَّقَاقِ، فَإِذَا أَتَيْنَا عَلَى شَجَرَةٍ ظَلِيلَةٍ تَرْكَنَاهَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَسَيْفُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُعَلَّقٌ بِالشَّجَرَةِ، فَاخْتَرَطَهُ فَقَالَ: تَخَافُنِي؟ قَالَ: «لَا» قَالَ: فَمَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «اللَّهُ».

وفي رواية أَبِي بَكْرٍ الْإِسْمَاعِيلِيُّ فِي صَحِيحِهِ: قَالَ مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «اللَّهُ» قَالَ: فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السَّيْفَ فَقَالَ: «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟» فَقَالَ: كُنْ خَيْرَ آخِذٍ، فَقَالَ: «تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟» قَالَ: لَا، وَلَكِنِّي أَعَاهِدُكَ أَنْ لَا أَقَاتِلَكَ، وَلَا أَكُونَ مَعَ قَوْمٍ يَقَاتِلُونَكَ، فَخَلَّى سَبِيلَهُ، فَاتَى أَصْحَابَهُ فَقَالَ: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ.

قَوْلُهُ: قَفَلَ أَيُّ: رَجَعَ. وَالْعِضَاهُ الشَّجَرُ الَّذِي لَهُ شَوْكٌ. وَالسَّمُرَةُ بَفَتْحِ السَّيْنِ وَضِمِّ الْمِيمِ: الشَّجَرَةُ مِنَ الطَّلْحِ، وَهِيَ الْعِظَامُ مِنْ شَجَرِ الْعِضَاهِ. وَاخْتَرَطَ السَّيْفُ أَيُّ: سَلَّهُ وَهُوَ فِي يَدِهِ. صَلَتًا أَيُّ: مَسْلُولا، وَهُوَ بَفَتْحِ الصَّادِ وَضَمِّهَا.

* غزا النبي ﷺ ثمان وعشرين غزوة في عمره الشريف، وكانت إحدى تلك الغزوات نحو بلاد نجد، قيل: إنها غزوة ذات الرقاع، في السنة السادسة للهجرة.

فلما رجع ﷺ وأصحابه جاء وقت القيلولة - وهي النوم في الظهيرة - حيث نزلوا في واد كثير فيه شجر العضاة - وهو شجر عظيم له شوك -.

وتفرق الناس يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة وهي من شجر الطلح معلق بها سيفه، ونام الصحابة نومة من شدة التعب والسفر، فإذا برَسُول الله ﷺ يدعوهم، فلما أتوا الرسول ﷺ وجدوا عنده أعرابي، فبين لهم النبي ﷺ سبب دعوته لهم، وأن هذا الأعرابي سل سيفه على النبي وهو نائم فاستيقظ وهو في يده مسلولاً، فقال الأعرابي للنبي ﷺ: من يمنعك مني؟ فقال ﷺ: «الله» ثلاثاً. ثقة منه بوعد الله وتوكلاً عليه، وعلماً منه بأنه ليس في الوجود فاعل إلا الله - تعالى -، فسقط السيف من يده.

وفي رواية فأخذ (النبي ﷺ السيف) فقال للأعرابي: «من يمنعك مني». فقال الأعرابي خائفاً: كن خير آخذ، فعرض عليه الرسول ﷺ الإسلام فامتنع، ولكنه عاهد النبي أن لا يقاتله، فخلى سبيله، فأتى أصحابه فقال: جئكم من عند خير الناس.

فقد رأى النبي ﷺ العفو عنه رجاء إسلام قومه وإقبالهم عليه ﷺ. قال النووي: «فيه: جواز المن على الكافر الحربي وإطلاقه، وفيه الحث على مراقبة الله - تعالى - والعفو والحلم، ومقابلة السيئة بالحسنة» وأورد المصنف هذا الحديث في باب اليقين والتوكل، لأن في الحديث قوة يقين النبي ﷺ، وتوكله على الله - عز وجل - وشجاعته ﷺ وعفوه، وحلمه، ومقابلة السيئة بالحسنة، ومحاسن أخلاقه، كمال وكرم. وللتوكل ثمرات منها: نيل محبة الله ورضاه، فإن الله - عز وجل - يُحب المتوكلين. وكذلك نيل معونة الله ونصره وتأيدته كما جرى لإبراهيم عليه السلام - حينما ألقى في النار.

ومن ثمرات التوكل على الله: النجاة من الشدائد والكروب، قال تعالى:
﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].
ومنها راحة القلب، وانسراح الصدر، فإن من وكل أمره إلى الله - عز وجل -
ارتاح قلبه، واطمأنت نفسه وتيسرت أموره.
وفي الحديث: بيان التوكل وأثره.
وفيه: عظم توكل النبي ﷺ على ربه.

٧٩ - السادس: عن عمر - رضي الله عنه - قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقُكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بَطَانًا» [رواه الترمذي، وقال: حديثٌ حسنٌ].

معناه تذهبُ أوَّلَ النَّهارِ خِمَاصًا: أي ضامِرَةً البُطُونِ مِنَ الجُوعِ، وَتَرْجِعُ آخِرَ النَّهارِ بَطَانًا: أي مُمْتَلِئَةً البُطُونِ.

* التوكل أمره عظيم وهو عبادة قلبية، وهو صدق الاعتماد واللبأ إلى الله - عز وجل - ورؤية الخير بيده ومن عنده. وهو دليل الإيمان والثقة واليقين بالله - عز وجل -، والنبي ﷺ يحث أمته على التوكل على الله - عز وجل -، ويضرب لهم مثلاً بالطير.

ولو أننا توكلنا على الله حق توكله في أرزاقنا، لرزقنا كما يرزق الطير وهي التي لا حول لها ولا قوة، تغدو صباحاً خِمَاصاً ضامِرة البطن من الجوع، وتعود آخر النهار ملأى البطن شبعاً. وقد جمعت بين التوكل والسعي في طلب الرزق.

والمعنى توكلوا على الله في ذهابكم ومجيئكم وتصرفكم وسعيكم، فإذا فعلتم ذلك رأيتم الخير، وسهل الله لكم الرزق وأسبابه، وعدتم سالمين غانمين، ولكن البعض يعتمد على قوته وجلده ويغش ويكذب، وهذا خلاف التوكل على الله.

ومعنى الحديث: أن الناس لو حققوا التوكل على الله بقلوبهم واعتمدوا عليه اعتماداً كلياً في جلب ما ينفعهم، ودفع ما يضرهم، وأخذوا بالأسباب المفيدة، لساق الله - عز وجل - إليهم أرزاقهم مع أدنى سبب، كما يسوق إلى الطير أرزاقها بمجرد الغدو والرواح، وهو نوع من الطلب ولكنه سعي يسير، وتحقيق التوكل لا ينافي السعي في الأسباب بالجوارح طاعة، والتوكل بالقلب

عليه إيمان به، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١] فجعل التوكل مع التقوى التي هي القيام بالأسباب المأمور بها، والتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض وإن كان مشوباً بنوع من التوكل، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزاً ولا عجزه توكلاً، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التي لا يتم المقصود إلا بها كلها. وفي قوله ﷺ:

«لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله»

قال الطيبي: «أي، بأن تعلم يقيناً أن لا فعل إلا من الله، وأن كل موجود، من خلق ورزق، وعطاء ومنع، وحياة وموت، وغنى وفقر، وغير ذلك مما ينطلق عليه اسم الموجود من الله - تعالى -، ثم تسعى في الطلب على الوجه الجميل، يشهد لذلك تشبيهه بالطير، فإنها تغدو خماصاً، ثم تسرح في طلب القوت، فتروح بطاناً».

والرزق مقسوم ومقدر، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] ومما يظهر من عدم التوكل على الله تحديد النسل بحجة قلة ذات اليد، وهذا خلاف أن كل مولود يأتي معه رزقه. وحقيقة التوكل وصحته تبنى على أمور منها: معرفة الرب وقدرته وكفايته لخلقه، وصفاته وكماله.

والتوكل، إخلاص التوحيد لله، فلا يستقيم عبد حتى يصح توحيده، ويسلم من الشك والشرك، فمتى داخل القلب شرك أو شك فتوكله معلول. ومنها: حسن الظن بالله - عز وجل - والثقة به. وهذا الحديث أصل في التوكل، وأنه من أعظم الأسباب التي يستجلب بها الرزق.

٨٠- السَّابِعُ: عن أبي عَمَّارَةَ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا فُلَانُ إِذَا أُوتِيَ إِلَى فَرَّاشِكَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ. رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مُنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنَّكَ إِنْ مِتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصْبَحْتَ خَيْرًا» [متفق عليه].

وفي رواية في الصَّحِيحَيْنِ عن الْبَرَاءِ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أُتَيْتَ مُضْجِعَكَ فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْاَيْمَنِ» وَقُلْ: وَذَكَرَ نَحْوَهُ ثُمَّ قَالَ «وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ».

* النوم آية من آيات الله - عز وجل - الدالة على كمال قدرته وحكمته، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الروم: ٢٣] وهو نعمة من الله على العبد لأنه يستريح فيه من تعب سابق وينشط فيه لعمل لاحق، فهو ينفع الإنسان فيما مضى، وفيما يستقبل. والنوم هو الموتة الصغرى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] وفيه دلالة على الخالق العظيم الذي: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وفي هذا الحديث: توجيه من النبي ﷺ لأمرته حال أن الإنسان ذاهب إلى فراشه لينام فيقول هذا الدعاء:

«اللهم أسلمت نفسي إليك» أي، جعلتها منقاداً لك، طائعة لحكمك، راضية بقضائك وقدرك. والنفوس هنا بمعنى الذات كلها.

«ووجهت وجهي إليك» أي، أسندت وأقبلت عليك راضياً قانعاً.

«وفوضت أمري إليك» أي، توكلت عليك في كل شؤوني لتكفيني همه، وتتولى صلاحه.

«وألجأت ظهري إليك» اعتصمت بك، وأسندت نفسي إلى حفظك.
 لتقويه على ما ينفعني، لأن من استند إلى شيء يقوى به.
 «رغبة ورهبة إليك» طمعاً في ثوابك، وخوفاً من عقابك.
 «لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك» أي، لا ألاجأ ولا أطلب ملجأ من أحد
 سواك.

ثم ذكر ﷺ في الدعاء الإيمان بالقرآن وبالرسول ﷺ. وبين أنه إن مات،
 مات على الدين القويم دين الإسلام. وإن أصبح أصاب خيراً وصلاًحاً في
 حاله وزيادة في أجره وعمله.

قال النووي: «أي حصل لك ثواب هذه السنن واهتمامك بالخير ومتابعتك
 أمر الله وأمر رسوله ﷺ»

قال الكرمانى: «هذا الحديث يشتمل على الإيمان بكل ما يجب الإيمان به
 إجمالاً من الكتب والرسائل من الإلهيات والنبويات وعلى إسناد الكل إلى الله
 من الذوات والصفات والأفعال لذكر الوجه والنفس والأمر، وإسناد الظاهر
 مع ما فيه من التوكل على الله والرضا بقضائه وهذا كله بحسب المعاش وعلى
 الاعتراف بالثواب والعقاب خيراً وشرّاً وهذا بحسب المعاد».

ومن فضل هذا الدعاء أن المسلم إذا مات من ليلته مات على الفطرة. أي،
 الإسلام، وإن أصبح أصبح بخير وعافية.

وفي الرواية الأخرى، استحباب الوضوء قبل النوم حتى يكون على طهارة
 «من بات طاهراً بات في شعاره ملك فلا يستيقظ إلا قال الملك: «اللهم اغفر

لعبدك فلان، فإنه بات طاهراً» [صحيح الترغيب].

وقد أعاد البراء بن عازب هذا الحديث عن النبي ﷺ ليتقنه فقال: (آمنت
 بكتابك الذي أنزلت ورسولك الذي أرسلت) فرد عليه النبي ﷺ وقال: (قل:
 ونبئك الذي أرسلت) ولا تقل: ورسولك الذي أرسلت».

وقد اختلف العلماء في سبب إنكاره ﷺ، قال الحافظ بن حجر: «إن الأذكار يتمسك بها، ولا يبدل لفظ منها بآخر، وإنما يحافظ على ألفاظها ويتمسك بها ولا يعدل عنها إلى الفاظ أخرى».

وقال الشيخ ابن عثيمين: «إنما رده لأن قوله «آمنت برسولك» يحتمل غير النبي ﷺ من حيث اللفظ».

وفي الحديث ثلاث سنن:

إحداها: الوضوء عند النوم، وإن كان متوضئاً كفاه لأنه المقصود النوم على طهارة.

ثانيها: النوم على اليمين.

ثالثها: الختم بذكر الله.

وفي الحديث: فضل الاستسلام، والتفويض، والالتجاء إلى الله - عز وجل - في كل وقت وحين، وخاصة عند النوم فهي المودة الصغرى، فكم من نائم طال نومه ولم يستيقظ حياً.

٨١- الثَّامِنُ: عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ - رضي الله عنه - عبد الله بن عثمان بن عامر بن عُمَرَ بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مُرَّة بن كَعْب بن لُؤَيٍّ بن غَالِبِ الْقُرَشِيِّ التَّيْمِيِّ - رضي الله عنه - وهو وأَبُوهُ وَأُمُّهُ صَحَابَةٌ، - رضي الله عنهم - قال: نظرتُ إلى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ وَنَحْنُ فِي الْغَارِ وَهُمْ عَلَى رُؤُوسِنَا فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا فَقَالَ: «مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بَاثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِهُمَا» [متفقٌ عليه].

* أبو بكر - رضي الله عنه - هو أول من آمن من الرجال. وهو رفيق النبي ﷺ في الهجرة من مكة إلى المدينة، وهو أكبر الصحابة وأعظمهم قدراً، وأعلامهم منزلة، وهو أول من يدخل الجنة من أمة محمد ﷺ، ولقب بالصدِّيق لتصديقه النبي ﷺ، وهو وأَبُوهُ وَأُمُّهُ صَحَابَةٌ وَبَنِيهِ وَبَنَاتُهُ - رضي الله عنهم أجمعين - .
وكان يقال للإيمان بيوت وللنفاق بيوت، فبيت أبي بكر من بيوت المؤمنين ليس فيهم منافق.

هاجر مع النبي ﷺ من مكة إلى المدينة وكان صاحبه في غار ثور، وقد أدركهم المشركون ووقفوا على باب الغار يقصون أثر النبي ﷺ ويتلمسون مكانه. وكان من إشفاق أبي بكر على النبي ﷺ وخوفه أنه قال: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا.

فقال النبي ﷺ ثقة بالله واطمئننا إلى عنايته وغايته: «مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بَاثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِهُمَا؟!». .

وفي هذا تسكين لأبي بكر وتطمين، وفي القصة دليل شجاعة النبي ﷺ وكمال توكله على ربه، وأنه معتمد عليه، ومفوض أمره إليه. مع شدة عداة المشركين له والبحث عنه لقتله والقضاء عليه.

وفي قوله ﷺ: «**ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما**» أي: ثالثهما بالنصر والمعونة، والحفظ والتسديد.

«**وما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما**» قال الحافظ في الفتح: «ومعنى **«ثالثهما»** ناصرهما ومعينهما، وإلا فالله ثالث كل اثنين بعلمه».

وقال النووي: «**«ثالثهما»** بالنصر والمعونة والحفظ والتسديد، وهو داخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [التحل: ١٢٨].»

قال ابن القيم عند قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] قال: «فمن أصح الإشارات على ثمرة اتباع الرسول إشارة هذه الآية، وهي أن من صحب الرسول وما جاء به بقلبه وعلمه، وإن لم يصحبه ببذنه فإن الله معه».

وقال - رحمه الله -: «التوكل: نصف الدين، والنصف الثاني (الإنابة) فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة، ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال معمورة بالنازلين لسعة متعلق التوكل وكثرة حوائج العالمين، وعموم التوكل ووقوعه من المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، والطير، والوحش، والبهائم».

وفي هذا الحديث: تظهر عناية الله - جل وعلا - بأنبيائه وأوليائه، ورعايته لهم بالحفظ والنصر. وعظيم توكل النبي ﷺ في هذا المقام، وفيه فضيلة لأبي بكر - رضي الله عنه - وهي من أجل مناقبه، والفضيلة من أوجه: منها هذا اللفظ، ومنها بذله نفسه، ومفارقتة أهله وماله ورياسته في طاعة الله - تعالى - ورسوله، وملازمة النبي ﷺ، ومعاداة الناس فيه، ومنها جعله نفسه وقاية عنه، وغير ذلك.

٨٢- التَّاسِعُ: عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ سَلَمَةَ، واسمُهَا هِنْدُ بِنْتُ أَبِي أُمَيَّةَ حُذَيْفَةَ
 المخزومية - رضي الله عنها - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ،
 تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أَضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَ، أَوْ أَظْلِمَ
 أَوْ أَظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ» [حديثٌ صحيحٌ رواه أبو داود والترمذي وغيرُهُمَا بِأَسَانِيدٍ
 صحيحةٍ. قال الترمذي: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وهذا لفظُ أبي داود].

* المسلم دائم الذكر لله - عز وجل - ملازم له، ومن ذلك هذا الذكر العظيم
 الذي يقوله المسلم حين خروجه من بيته، ليكون في حفظ الله ورعايته، فإنه
 إذا خرج من بيته يكون عرضةً للآفات، وكذلك تحصيلاً للأجر ذكراً لله،
 واعتصاماً به.

وفي الحديث أن النبي ﷺ كان إذا خرج من بيته قال:
 «بِسْمِ اللَّهِ» أي، بِسْمِ اللَّهِ أخرج.

«توكلت على الله» أي: فوضت جميع أموري إليه. واعتمد عليه فالتوكل
 هو الاعتماد والتفويض وهو من أعمال القلوب، ولا يجوز صرفه لغير الله،
 والتوكل أجمع أنواع العبادة وأعلى مقامات التوحيد وأعظمها.
 «أُضِلَّ» أي، أضيع عن الحق فلا أهتدي إليه. وهو من الضلال خلاف
 الرشاد والهداية.

«أَوْ أَضِلَّ» يُضِلُّنِي غيري.

«أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَ» أنزل في الباطل. من الزلة، وهي ذنب من غير قصد تشبيهاً
 بزلة القدم.

«أَوْ أَجْهَلَ» أقع في الخطأ والسفه والإيذاء.

«أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ» أن يجهل غيري عليّ بالمجادلة والسفاهة.

والمسلم في هذا الذكر يتعوذ بالله - عز وجل - أن يضلّه أحد أو يضل أحد، أو يظلمه أحد أو يظلم أحدًا. أو يجهل عليه أحد السفهاء، أو يجهل هو على أحد ويتعدى عليه باللسان أو اليد.

وفي رواية أبي داود: ما خرج رسول الله ﷺ من بيتي إلا رفع طرفه إلى السماء فقال: «اللهم إني أعوذ بك...» الخ الحديث.

ويجب الالتزام بالذكر الوارد من غير تغيير، قال ابن حجر: «ألفاظ الأذكار توقيفية، ولها خصائص وأسرار لا يدخلها القياس، فتجب المحافظة على اللفظ الذي وردت به».

وقد أنكر ﷺ على البراء قوله: «ورسولك الذي أرسلت» حين علمه الدعاء إذا أخذ مضجعه فقال ﷺ: «قل ونيك الذي أرسلت».

قال الشيخ ابن عثيمين: «أذكار الصباح والمساء أقوى من سد يأجوج ومأجوج إذا قرأت بحضور قلب».

وقال ابن القيم: «إن العبد إذا غفل عن ذكر الله جثم على قلبه الشيطان، وبذر فيه الوسوس التي هي أصل الذنوب كلها، فإذا ذكر العبد ربه واستعاذ به خنس».

والذكر ثلاثة أنواع: أفضله ما كان ثناء على الله، ثم ما كان إنشاء من العبد أو اعترافاً بما يجب لله عليه، ثم ما كان دعاء من العبد.

وفي الحديث: فضل الذكر والتوكل على الله - عز وجل - والاعتصام به والالتجاء إليه، فإنه حصن حصين، يقي المسلم كيد الشيطان الضعيف، فإن الشيطان يعجز عن غواية من هداه الله وحفظه.

٨٣- العَاشِرُ: عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ قَالَ «يَعْنِي إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ: بِسْمِ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، يُقَالُ لَهُ هُدَيْتَ وَكُفِّيتَ وَوُقِيَتْ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ» [رواه أبو داودَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ: وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ، زَادَ أَبُو دَاوُدَ: فَيَقُولُ: «يَعْنِي الشَّيْطَانُ لِشَّيْطَانٍ آخَرَ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟»].

* جمع المؤلف في هذا الباب بين اليقين والتوكل، لأن التوكل من ثمرات اليقين، فاليقين هو ثبات وإيمان ليس معه شك بوجه من الوجوه.
﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] ففي هاتين المرتبتين - اليقين والتوكل - يُحصل الإنسان مقصوده في الدنيا والآخرة، ويستريح ويعيش مطمئناً سعيداً.

«بسم الله» أي، بسم الله أخرج.

«توكلت على الله» أي، فوضت جميع أموري إليه.

«لا حول ولا قوة إلا بالله» تبرؤ من الحول والقوة إلا بالله - عز وجل -، وأن العبد لا يملك من أمره شيئاً، وليس له حيلة في دفع شر، ولا قوة في جلب خير إلا بإرادته - سبحانه -.

وقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، تنال بها الإعانة.

وهذا دعاء عظيم جدير بالمسلم أن يحافظ عليه عند خروجه من منزله تأسيساً بالنبي ﷺ، وطلب للعون والتوفيق من الله - تعالى -.

«يقال له» يجوز أن يكون القائل هو الله - تعالى -، ويجوز أن يكون ملك من الملائكة.

قوله: «هديت» أي، إلى طريق الحق والصواب، حيث وفقت على تقديم ذكر الله - تعالى -، ولم تزل مهدياً في جميع أفعالك وأقوالك، وأحوالك.

«وكُفيت» أي، صرف عنك الشر.

«ووقيت» أي، حُفظت عن الأشياء الخفية من الأذى والسوء.

قوله «وتنحى عنه الشيطان» أي، بعد عنه الشيطان، فيقول لشيطان آخر: يقصد أذاه، وإخلاله.

«كيف لك برجل» يعني ما بقي لك يد في رجل قد هُدي بذكر الله، وكُفي شرك. ووقي من مكرك وكيدك.

وفي الحكمة من هذه الاستعاذة إن الإنسان إذا خرج من منزله لا بد أن يعاشر الناس ويزاول الأمر فيخاف أن يعدل عن الصراط المستقيم، فإما أن يكون في أمر الدين فلا يخلو من أن يضل أو يضل، وإما أن يكون في أمر الدنيا، فإما بسبب جريان المعاملة معهم بأن يظلم أو يظلم، وإما بسبب الاختلاط والمصاحبة فإما أن يجهل أو يُجهل عليه، فاستعيذ من هذه الأحوال كلها بلفظ سلس موجز.

قال ابن القيم: «أشد العقوبة أن يمسك الله لسانك عن ذكره».

قال شيخ الإسلام: «في الأدعية الشرعية والأذكار الشرعية، غاية المطالب الصحيحة، ونهاية المقاصد العلية، ولا يعدل عنها إلى غيرها من الأذكار المحدثّة المبتدعة إلا جاهل أو مفرط أو متعد».

وقال عمير بن حبيب: «إن للإيمان زيادة ونقصاناً، قيل: فما زيادته؟ قال: إذا ذكرنا الله - عز وجل - وحمدناه فذلك زيادته، وإذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه».

وفي الحديث: التوكل على الله - عز وجل - حين الخروج من البيت.

وفيه: قول الدعاء المذكور في الحديث.

٨٤- وَعَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: كَانَ أَخْوَانٌ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ أَحَدُهُمَا يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ، وَالْآخَرُ يَحْتَرِفُ، فَشَكَاَ الْمُحْتَرِفُ أَخَاهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «لَعَلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ» [رواه الترمذي بإسناد صحيح على شرط مسلم].
يَحْتَرِفُ: يَكْتَسِبُ وَيَتَسَبَّبُ.

* حث الإسلام على العمل والاكتساب، فهو دين الحركة والسعي في الأرض وعمارتها.

قال ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه» [رواه البخاري].

وفرض الله - عز وجل - على عباده الاكتساب لطلب المعاش ليستعينوا به على طاعته، قال - عز وجل - آمراً عباده بعد انقضاء فريضة عظيمة هي صلاة الجمعة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾.

قال البغوي: أي: «إذا فرغ من الصلاة فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم».

وقد ورد في الأثر عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه إذا نظر إلى رجل فأعجبه، قال: «هل من حرفة؟» فإن قالوا: لا، سقط من عينه.

والله - عز وجل - قسم الأرزاق بعلمه، فأعطى من شاء بحكمته، ومنع من شاء بعدله، وجعل بعض الناس لبعض سخيًّا، قال تعالى: ﴿لَخُنُ قَسَمَنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وقد كان النبي ﷺ هو المرجع لكل الصحابة - رضي الله عنهم - في جميع شؤونهم، وهذا مثال لذلك، فقد جاءه رجل يشتكي أنه يعمل ويكدح ويتعب،

وأن أخاه يأتي لطلب العلم من الرسول ﷺ، ولا يكذب ولا يبذل، فطيب النبي ﷺ نفس الشاكي فهون عليه الأمر وأنه ربما رزق به.

وفي قوله ﷺ **«لعلك ترزق به»** أي: أرجو وأخاف أنك مرزوق ببركته، لأنه مرزوق بحرفتك، فلا تمنن عليه بصنعتك.

ولا شك أن المؤمن المكتسب خير ممن يكون عالة على غيره. وأن من انقطع لطلب العلم والتفقه في أحكام الدين، لحفظ شريعة الله، فإن الله يهيء له من يقوم بشؤونه ويكفيه حاجاته.

والمسلم يؤجر على قوت عياله، كما قال ﷺ: **«دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك»** [رواه مسلم].

وفي الحديث: **«هل ترزقون»** أو قال **«وتنصرون إلا بضعفائكم»**.

ذكر في «صفة الصفوة»: أن محمد بن المنكدر بعث إلى صفوان بن سليم أربعين ديناراً، ثم قال لبنيه: «يا بني! ما ظنكم برجل فرغ صفوان لعبادة ربه - عز وجل -».

وفي الحديث: الترغيب في مساعدة أهل العلم وطلابه، وأن العبد قد يرزق بغيره، وأن طالب العلم على خير ولو كان فقيراً، وأن من أنفق على طالب العلم فهو على خير ولو كان ليس لديه علم.

٨- باب الاستقامة

قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]. أي، استقم يا محمد على أمر الله، واثبت وداوم على الاستعانة كما أمرك ربك.

والاستقامة: هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القيم من غير ميل عنه يمينة ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها، الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها الظاهرة والباطنة. وهي وسط بين الغلو والتقصير، وكلاهما منهي عنه شرعاً.

ومن سؤال عباد الله في كل ركعة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. وفي قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْوْا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦] إشارة إلى أنه لا بد من تقصير في الاستقامة المأمور بها، وأن ذلك التقصير يُجبر بالاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع إلى الاستقامة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] وفي الحديث: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها».

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [نح: ٢٣] نحن أولياؤكم في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٢٤﴾ نَزَّلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٢٥﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢]. أي: آمنوا بالله إيماناً صادقاً وأخلصوا العمل له، جمعوا بين الإيمان والتوحيد والاستقامة على شريعة الله. وتوحيد الله وطاعته، تنزل عليهم ملائكة الرحمة عند الموت قائلين ومبشرين، لا تخافوا مما تقدمون عليه من أحوال القيامة وفيما تستقبلون من أموركم من الموت وما بعده، ولا تحزنوا على ما خلفتموه في الدنيا من أهل ومال وولد فإن الله يخلفكم فيهم، وأبشروا بجنة الخلد التي وعد الله عباده المتقين.

وهم، أي الملائكة أولياء لعباد الله الصالحين تسددهم وتعينهم وتبشرهم بالنعيم المقيم. وأولئك المؤمنون المستقيمون في دينهم هم أهل الجنة ماكثين فيها أبداً، وقد نالوا ذلك النعيم برحمة الله - تعالى - وبما قدموا من أعمالهم الصالحة في الدنيا.

وقد ذكر المؤلف - رحمه الله - عدة آيات في الاستقامة، وهي أن يثبت الإنسان على شريعة الله - تعالى - كما أمر، ويعمل بها ويدعو إليها.

وقد مدح الله - عز وجل - أهل الإيمان بقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ وهو خالقنا ومديرنا فنحن نخلص له العبادة، ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ على شريعة الله، فهو لاء الذين جمعوا بين الإخلاص والعمل ﴿تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ مطمئنين لهم في كل حالة وموطن مخوف، ولا سيما عند الموت.

ثم ذكر - تعالى - من أوصاف الجنة أن فيها ما تشتهي الأنفس وما تطلب كرمًا وضيافة من الله - عز وجل - الذين غفر لهم سيئاتهم ورحمهم، ورفع درجاتهم بفضل منه ورحمة، في الحديث أنه ﷺ قال: «**لن يدخل أحدكم الجنة بعمله**» فدخل الجنة برحمة أرحم الراحمين، والدرجات والمنازل بالأعمال الصالحة.

قال ابن القيم: «فالذي مضى تصلحه بالتوبة والندم والاستغفار، وذلك شيء لا تعب عليك فيه ولا نصب ولا معاناة عمل شاق إنما هو عمل قلب، وتمتع فيما يستقبل من الذنوب، وامتناعك ترك وراحة، ليس هو عملاً بالجوارح يشق عليك معاناته، وإنما هو عزم ونية جارفة تريح بدنك وقلبك وسرك. فيما مضى تصلحه بالتوبة، وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنية».

وعلى المسلم أن لا يعجب بعمله، مهما عمل من الصالحات، فعمله وإن كثر، قليل في حق الله - عز وجل - ونعمه عليه.

قال ابن عون: «لا تثق بكثرة عملك فإنك لا تدري أيقبل منك أم لا؟ ولا تأمن ذنوبك فإنك لا تدري أكفرت عنك أم لا. إن عملك مغيب عنك كله».

٨٥- وَعَنْ أَبِي عمرو، وقيل أبي عمرة سُفْيَانُ بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: قُلْتُ: يا رسول الله قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ. قال: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ: ثُمَّ اسْتَغْفِرُ». [رواه مسلم].

* حرص الصحابة على سؤال النبي ﷺ فيما ينفعهم في دينهم، وفي هذا الحديث: سأل سُفْيَانُ بن عبد الله - رضي الله عنه - النبي ﷺ عن قول جامع لمعاني الدين، واضحاً في نفسه بحيث لا يحتاج إلى تفسير ومزيد إيضاح. فقال ﷺ كلاماً هو من جوامع الكلم، فأمره بالإيمان، وثمرته العلم والاستقامة على طاعة الله.

فقال ﷺ له: «**قل: آمنت بالله، ثم استقم**» والإيمان بالله: يشمل الإيمان بوجود الله - عز وجل -، وبربوبيته، وبألوهيته، وبأسمائه وصفاته. والاستقامة: لزوم ما شرعه الله - عز وجل - في التوحيد وإخلاص العبادة لله، وفي الآداب والإخلاق والتعامل مع الناس، وفي كل ما يفعله الإنسان في هذه الدنيا، يكون مستقيماً على المنهج الصحيح الذي رسمه الله - تعالى - وبينه رسوله ﷺ، وهذا هو منهج الذين أنعم الله عليهم، كما قال تعالى: ﴿**أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ فالذين أنعم الله عليهم هم: أهل الاستقامة من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

فالاستقامة: تعني التوسط بين الإفراط والتفريط، وبين التساهل وعدم المبالاة، وبين الغلو والتشدد.

وفي قوله: «**قل آمنت بالله**» هذا في القلب. قال أهل العلم: قول القلب: هو إقراره واعترافه. فقوله: «**قل: آمنت**» يشمل قول اللسان وقول القلب.

«ثم استقم» وهذا في عمل الجوارح، وهذا حديث جامع من أجمع الأحاديث. وهاتان الكلمتان جمعتا الدين كله. فالإيمان بالله يتضمن الإخلاص له في العبادة، والاستقامة تتضمن التمشي مع شريعته - عز وجل -، فيكون جامعاً لشرطي العبادة وهما: الإخلاص والمتابعة.

قال ابن عباس: عند قوله ﴿ثُمَّ اسْتَقِمُوا﴾ «أي، استقاموا على طاعة الله». قال ابن رجب: والاستقامة في سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القويم من غير تعويج عنه يمينة ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها: الظاهرة والباطنة وترك المنهيات كلها.

قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «الاستقامة أن تقوم على الأمر والنهي ولا تروغ عنه روغان الثعلب».

ومرجع الاستقامة إلى أمرين:

الأول: صحة الإيمان بالله.

الثاني: اتباع ما جاء به رسول الله ﷺ ظاهراً وباطناً.

وفي الحديث أنه ﷺ قال: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم

الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» [رواه أحمد].

وقد وعد الله أهل الاستقامة بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ تتنزل عليهم ملائكة الرحمة عند الموت تبشرهم، ألا تخافوا مما أنتم قادمون عليه لأنكم قادمون على رب رحيم وعلى جنات النعيم، ولا تحزنوا على ما تركتم من الأولاد والزوجات الذين تخافون عليهم الضياع، فإن الله حافظهم. وتبشرهم بالجنة عند سكرات الموت.

ومن فوائد الاستقامة، نزول الغيث من السماء فينتفع به أهل الأرض من إنسان ودواب وشجر ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾

٨٦- وعن أبي هريرة - رضي الله عنه -: قال قال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسددوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله برحمة منه وفضل» [رواه مسلم].
 و«المقاربة»: القصد الذي لا غلو فيه ولا تقصير.
 و«السداد»: الاستقامة والإصابة، و«يتغمّدني» يلبّسني ويستترني.
 قال العلماء: معنى الاستقامة لزوم طاعة الله - تعالى -، قالوا: وهي من جوامع الكلم، وهي نظام الأمور، وبالله التوفيق.

* في هذا الحديث بيان فضل الله وسعة رحمته، وأن العبد مهما اجتهد في الطاعة فلن يوفي حق الربوبية، ولأن العمل لا يبلغ ما يجب لله - عز وجل - من الشكر من الحقوق، وما يجب له على عباده، وأن الأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].
 والنبي ﷺ على علو مرتبته ومنزلته لن ينجو بعمله، بل برحمة أرحم الراحمين. فإن دخول الجنة برحمة أرحم الراحمين وأما الدرجات فبتفاضل الأعمال الصالحة، والتوفيق للأعمال الصالحة من فضل الله ورحمته.
 وفي قوله ﷺ «سددوا وقاربوا»: أي، احرصوا على أن تكون أعمالكم موافقة للحق بقدر المستطاع. والسداد: الصواب وهو بين الإفراط والتفريط، فلا تغلوا ولا تقصروا.
 ومعنى «سددوا وقاربوا» اطلبوا السداد، واعملوا به، وإن عجزتم عنه، فقاربوه، أي: اقربوا منه.

قال ابن حجر: «والحاصل أنه أمر بالجد في العبادة، والإبلاغ بها إلى حد النهاية لكن بقيد ما لا تقع معه المشقة المفضية إلى السامة والملال».

وقال ابن رجب: «ومما يتحقق به معنى قول النبي ﷺ: **«لن يدخل أحد الجنة بعمله»** أو **«لن ينجي أحداً عمله»** إن مضاعفة الحسنات إنما هي من فضل الله - عز وجل - وإحسانه، حيث جازى بالحسنة عشرة، ثم ضاعفها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، فهذا كله منه - عز وجل - ولو جازى الحسنة مثلها كالسيئات، لم تقو الحسنات على إحباط السيئات، فكان يهلك صاحب العمل لا محالة».

والجنة مطلب غال ومهر نفيس، فهي السكن الدائم والنعيم المقيم، نذكرها فتحن قلوبنا شوقاً إلى ما أعد الله - عز وجل - فيها للصالحين وما ادخره للعاملين برحمة منه وفضل، ومنة وعطاء. وهي الجزاء العظيم، والثواب الجزيل، الذي أعده الله لأوليائه وأهل طاعته، وهي نعيم كامل لا يشوبه نقص ولا يعكر صفوه كدر، قال - تعالى - في الحديث القدسي: **«أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»** ثم قال ﷺ: **«اقْرؤُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾»** [السجدة: ١٧] [رواه البخاري].

وقال ﷺ: **«موضع سوط في الجنة، خير من الدنيا وما فيها»** [رواه البخاري]. والجنة لا تفنى ولا تبيد، وأهلها فيها خالدون، لا يرحلون عنها ولا يظعنون، ولا يبيدون ولا يملون ولا يموتون، لقوله تعالى: **﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾** [الدخان: ٥٦] وقوله سبحانه: **﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾** [الكهف: ١٠٨] ويؤتى بالموت بعد أن يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، على شكل كبش أملح، والسبب في أنه أملح، لأنه جمع اللونين الأبيض والأسود لصفة أهل الجنة وأهل النار، البياض والسواد فيذبحه جبريل - عليه السلام - ثم يقال لأهل الجنة: حياة بلا موت وكذلك لأهل النار، فعنه ﷺ، أنه قال: **«يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»** [رواه البخاري].

وقال - عليه الصلاة والسلام: «من يدخل الجنة ينعم، ولا يبأس، ولا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه» [رواه مسلم].

ومن فوائد الحديث: الإكثار من ذكر الله دائماً. ومن سؤاله أن يتغمده برحمته وفضله، مع العمل الصالح الخالص الموافق لسنة النبي ﷺ.

٩- باب في التفكر في عظيم مخلوقات الله - تعالى - وفناء الدنيا وأهوال الآخرة وسائر أمورهما وتقصير النفس وتهذيبها وحملها على الاستقامة

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظِيكُمْ بَوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ شَاوِيٍّ وَفَرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [سبأ ٤٦]. وإنما قال ﴿مِثْلَىٰ شَاوِيٍّ وَفَرَادَىٰ﴾ لأن الجماعة يكون مع اجتماعهم تشويش خاطر والمنع من التفكير.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلْفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ﴾ الآيات [آل عمران ١٩٠-١٩١].

يخبر - تعالى - أن في خلق السموات والأرض على ما بهما من إحكام وإبداع وعلى غير مثال سابق، علامات واضحة وبراهين عظيمة على الصانع وباهر حكمته، ولا يظهر ذلك إلا لذوي العقول والألباب الذين من صفاتهم أنهم يذكرون الله في جميع أحوالهم بألسنتهم وقلوبهم، ويتدبرون في ملكوت السموات والأرض، وأن الله - عز وجل - أوجدهما لحكمة عظيمة.

وقد ورد في الآيات ذكر خلق السموات والتفكر في عظمها وارتفاعها واتساعها، ثم ذكر الأرض في انخفاضها وسهولها وبحارها وأنهارها، وفي تعاقب الليل والنهار بدقة متناهية دون توقف، كل ذلك حجج باهرة على أن لهذا المخلوق رباً مدبراً - جل جلاله -، وخص - عز وجل - أولي الألباب بهذا التفكير والنظر، لأنهم يزداد إيمانهم بالله، والذين هم دائموا الذكر لله - عز وجل - على كل حال وفي كل وقت.

والله - عز وجل - يحث على النظر في أنواع المخلوقات الدالة على وحدانيته واقتداره على الخلق والبعث، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة».

ومن الأحاديث قوله ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمان» [رواه الترمذي].

فإن العاقل الفطن هو من حاسب نفسه قبل أن يحاسب، وأخذها على الحق وأطرها إلى الخير أطراً.

ومن تفكر في عواقب الدنيا أخذ الدنيا أخذ الحذر، ومن أيقن بطول الطريق تأهب للسفر.

قال يحيى بن معاذ: «الدنيا دار أشغال، والآخرة دار أهوال، ولا يزال العبد بين الأشغال والأهوال حتى يستقر به القرار، إما إلى جنة وإما إلى نار».

١٠. باب في المبادرة إلى الخيرات وَحَثَّ مَنْ تَوَجَّهَ لَخَيْرٍ عَلَى الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ بِالْجِدِّ مِنْ غَيْرِ تَرَدُّدٍ

قال الله تعالى: ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [البقرة: ١٤٨]. الأمر بالاستباق إلى الخيرات زائد على الأمر بفعل الخيرات، فإن الاستباق إليها يتضمن فعلها وتكملها، وإيقاعها على أكمل الأحوال، والمبادرة إليها، ومن سبق في الدنيا إلى الخيرات، فهو السابق في الآخرة إلى الجنات. فالمسلم يكون في مقدمة أهل الخير والصلاح في أعمالهم وأقوالهم، ولهذا ورد الحديث «خير صفوف الرجال أولها، وشرها آخرها» [رواه مسلم].

وقال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

يأمر الله - عز وجل - عباده بالمبادرة والمصارعة إلى الخيرات، والتنافس في عمل الصالحات وترك الكسل والتسويق، وقد هيأ - جل وعلا - ووعد عباده المتقين بجنة عرضها كعرض السموات والأرض، والغرض بيان سعتها وعظمتها. فإذا كان هذا عرضها فما ظنك بطولها.

جاء عن بعض السلف أنه سُئِلَ: إذا كانت الجنة عرضها كعرض السموات والأرض فأين النار؟ فرد عليهم: إذا جاء الليل فأين النهار؟!

وفي قوله: ﴿ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي، الأعمال الموجهة للمغفرة بالوعد الصادق أو إلى التوبة، أو إلى أداء الفرائض وغيرها من الأعمال الصالحة.

وجاء في الآية الأخرى ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الحديد: ٢١] أمرهم الله - عز وجل - بالمبادرة إلى فعل الخيرات، والمصارعة إلى نيل القربات، وهذا يشمل الاستغفار كقول: استغفر الله، أو اللهم اغفر لي، والإسراع إلى

ما فيه المغفرة، مثل الوضوء والصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان فهذه من أسباب المغفرة.

وجاء في الحديث القدسي: **«أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»** [رواه مسلم].

وقد ذكر الله - عز وجل - المتقين بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

أي: الذين يبذلون أموالهم في اليسر والعسر، وفي الشدة والرخاء، إن أيسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا شيئاً ولو قل. فأول ما ذكر من أخلاقهم الموجبة للجنة ذكر السخاوة، ثم ذكر بعض صفاتهم التي يحبها الله - عز وجل -.

وفي المبادرة والمصارعة الخير الكثير فربما عرض له عارض، في الحديث أنه ﷺ قال: **«إذا أراد أحدكم الحج فليتعجل، فإنه قد يمرض المريض، وتضل الراحلة، وتعرض الحاجة»** [رواه ابن ماجه].

وسيد الاستغفار أن تقول: **«اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء لك بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»**، قال: **«ومن قالها من النهار موقناً بها، فمات من يومه قبل أن يمسي فهو في الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح فهو في الجنة»** [رواه البخاري].

قال أبو إسحاق القرشي: **«كتب إليّ أخي من مكة: يا أخي!! إن كنت تصدقت بما مضى من عمرك على الدنيا وهو الأكثر، فتصدق بما بقي من عمرك على الآخرة وهو الأقل»**.

وذكر عن بعض السلف أنه قال لتلميذه: ما تصنع بالشیطان إذا سول لك الخطايا؟ قال: أجاهده. قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده. قال: هذا يطول. أرايت إن مررت بغنم فنبحك كلبها، أو منعك من العبور ما تصنع؟ قال: أكابده وأرده جهدي. قال: هذا يطول عليك، ولكن استعن بصاحب الغنم يكفه عنك.

وأما الأحاديث:

٨٧- فالأول: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَسَتَكُونُ فِتْنٌ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلَمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بَعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا» [رواه مسلم].

* حث النبي ﷺ على التمسك بالدين، وعلى المبادرة والمصارعة إلى الأعمال الصالحة، لأنها تقوي الإيمان وتزيده، وحذر ﷺ من فتن متتابعة متتالية، يحترق المرء فيها، ولا يعلم أين المخرج، ولا يدري الإنسان أين يذهب من شدة حيرته، كلما انقضت فتنة تبعثها فتنة، والفتن تشمل فتنة الشبهات وهي المتعلقة بالدين، وفتنة الشهوات مثل شهوة المال، وشهوة الفواحش وغيرها. قال ﷺ: «**فتن كقطع الليل المظلم**» أي، مظلمة مدلهمة لا يرى فيها النور، ولا يدري الإنسان أي طريق يسلك وأين يذهب. قيل: أراد فتنة سوداء تعظيماً لشأنها.

ونتيجة هذه الفتن والسير معها أن يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً من سرعة القلب وقوته، يبيع دينه بشيء من حطام الدنيا، إما مال أو جاه أو رئاسة أو نساء أو غير ذلك.

قال النووي: معنى الحديث: «الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها، والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة والمتكاثرة المترامية كترام ظلام الليل المظلم، ووصف النبي ﷺ نوعاً من شدائد تلك الفتن وهو أن يمسي مؤمناً ثم يصبح كافراً، أو عكسه - يشك الراوي - وهذا لعظم الفتن يتقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا القلب».

وفي الحديث الحث على المبادرة إلى العمل الصالح خوفاً من أن تحول الموانع والعوائق دونه. قال ﷺ: «**اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل**

هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك».

قال عليه السلام: **«يبع دينه بعرض من الدنيا»** وذلك بأن يتكلم بالكفر، أو أن يعمل من أجل الدنيا.

قال ابن عثيمين - رحمه الله تعالى -: «ولا تظن أن العرض من الدنيا هو المال، كل متاع الدنيا عرض سواء مال أو جاه، أو رئاسة أو نساء أو غير ذلك، كل ما في الدنيا من متاع فإنه عرض». وفي الجملة فمن عامل الله بالتقوى والطاعة في حال رخائه، عامله الله باللطف والإعانة في حال شدته.

والمشروع في حق المسلم الدعاء بحديث النبي ﷺ حيث قال: **«إذا تشهد أحدكم - أي التشهد الأخير - فليستعذ بالله من أربع يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال»** [رواه مسلم].

قال في فتح الباري: «واعلم أن مثل أهل الدنيا في غفلتهم كمثل قوم ركبوا سفينة، فانتهوا إلى جزيرة معشبة، فخرجوا القضاء الحاجة، فحذرهم الملاح من التأخر فيها، وأمرهم أن يقيموا بقدر حاجتهم، وحذرهم من أن يقلع بالسفينة ويتركهم، فبادر بعضهم فرجع سريعاً، فصادف خير الأمكنة وأحسنها فاستقر فيه وانقسم الباقيون أقساماً:

الأول: استغرق في النظر إلى أزهارها المونقة وأنهارها وثمارها الطيبة وجواهرها ومعادنها، ثم استيقظ، فبادر إلى السفينة، فلقي مكاناً دون الأول، فنجي في الجملة.

القسم الثاني: كالأول لكنه أكب على تلك الجواهر والثمار والأزهار، ولم تسمح نفسه بتركها، فحمل منها ما قدر عليه، فتشاغل بجمعه وحمله، فوصل إلى السفينة، فوجد مكاناً أضيق من الأول ولم تسمح نفسه برمي ما استصعبه

فصار مثقلاً، ثم لم ليث إذ ذبلت الأزهار ويبست تلك الثمار وهاجت الرياح، فلم يجد بداً من إلقاء ما استصعبه حتى نجا بحشاشة نفسه.

القسم الثالث: غفل عن وصية الملاح، ثم سمع النداء بالرحيل فمر فوجد السفينة قد سارت، فبقى بما استصعبه في البر حتى هلك.

القسم الرابع: اشتدت به الغفلة عن سماع النداء وسارت السفينة، فتقسموا فرقا، فمنهم من افترسته السباع، ومنهم من تاه على وجهه حتى هلك، ومنهم من مات جوعاً، ومنهم من نهشته الحيات.

فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة، وما أقبح من يزعم أنه عاقل، ثم يغتر بالأحجار من الذهب والفضة، والأزهار والثمار، وهو لا يصحبه شيء من ذلك بعد الموت».

٨٨ - الثاني: عن أبي سُرْوَعَةَ بكسر السين المهملة وفتحها عُقْبَةُ بنِ الحَارِثِ - رضي الله عنه - قال: صليت وراء النَّبِيِّ ﷺ بالمدينة العُصْرَ، فسَلِمَ ثم قَامَ مُسْرِعًا فَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ إلى بعض حُجَرِ نِسَائِهِ، فَفَزَعَ النَّاسَ مِنْ سُرْعَتِهِ، فخرجَ عَلَيْهِمْ، فرأى أَنَّهُمْ قَدْ عَجَبُوا مِنْ سُرْعَتِهِ، قَالَ: «ذَكَرْتُ شَيْئًا مِنْ تَبَرٍّ عِنْدَنَا، فَكِرْهْتُ أَنْ يَحْبَسَنِي، فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ» [رواه البخاري].
وفي رواية له: «كُنْتُ خَلَفْتُ فِي الْبَيْتِ تَبْرًا مِنَ الصَّدَقَةِ، فَكِرْهْتُ أَنْ أُبَيِّتَهُ». التَّبَرُّ قَطْعُ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ.

* كان الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - يتبعون النبي ﷺ في أقواله وأفعاله رغبة في الخير وسلوك طريقته وسنته.

وقد ذكر الصحابي عقبة بن الحارث - رضي الله عنه - أنه صلى وراء النبي ﷺ بالمدينة العُصْرَ، فسَلِمَ ثم قَامَ مُسْرِعًا فَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ إلى بعض حُجَرِ نِسَائِهِ، وحيث أن هذا الأمر لم يكن من عادته ﷺ فإن الناس فزعوا وخافوا من سرعته، فبين لهم ﷺ سبب ذلك، وقال:

«ذَكَرْتُ شَيْئًا مِنْ تَبَرٍّ عِنْدَنَا» أي، ذكر ذهبًا عنده مما تجب قسمته.

«فَكَرْهْتُ أَنْ يَحْبَسَنِي فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ». ذكر النبي ﷺ تَبْرًا مِنَ الصَّدَقَةِ، أي، قطع ذهب أو فضة، فكره أن يؤخره، فوكل من يقوم بتوزيعه وقسمته على مستحقه. وفي هذا دليل على شدة الأمانة وعظمها، وأن الإنسان إذا لم يبادر لها فإنها قد تحبسه.

في هذا الحديث: بيان حرص النبي ﷺ على الزهد في الدنيا وزينتها، ومسارعته إلى الخير، فلا يسبقه ﷺ أحد في ذلك. وفيه؛ المبادرة إلى فعل الخير، وعدم التواني والتأخير في فعله، وذلك لأن الإنسان لا يعلم ماذا يعرض له، وإذا كان الإنسان يسرع ويغتني الفرص الدنيوية ويسارع إليها فإن طالب الآخرة أولى بذلك وأحرى.

ومن فوائد الحديث: استحباب التخلص مما يشغل القلب عن الله - تعالى -، واستحباب المبادرة إلى عمل الخير. وفيه: تنبيه للجماعة على أن حلال الدنيا فيه الحساب، والحبس واللوم والتعير.

قال الحسن: «إياكم وما شغل من الدنيا، فإن الدنيا كثيرة الأشغال، لا يفتح رجل على نفسه باب شغل إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب». وقال - رحمه الله -: «أدركت أقواماً وصحبت طوائف، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يقبلون على شيء منها أدبر، وهي كانت في أعينهم أهون من التراب، كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطوله ثوب، ولم ينصب له قدر، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئاً، ولا أمر من في بيته بصنعة طعام قط، فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم، كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها، وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم، وسألوا الله أن يغفرها لهم، فلم يزالوا على ذلك، والله ما سلموا من الذنوب، ولا نجوا من الذنوب إلا بالمغفرة، رحمة الله عليهم ورضوانه».

وفي الحديث: أن النبي ﷺ أسرع الناس مبادرة إلى الخير، وأنه ﷺ محتاج إلى العمل، كما أن غيره محتاج إلى العمل، وأنه قد يعرض له ما يشغله عن التوجه والإقبال على الله. وأنه ﷺ كغيره من البشر يلحقه النسيان، وأنه ينسى كما ينسى غيره.

وفي الحديث: دليل على جواز تخطي الرقاب بعد السلام من الصلاة، ولا سيما إذا كان لحاجة، والمنهي عنه قبل الصلاة لأنه إيذاء للمصلين.

٨٩- الثالث: عن جابر - رضي الله عنه - قال: (قال رجل للنبي ﷺ يوم أُحُد: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فَأَيْنَ أَنَا؟ قال: «فِي الْجَنَّةِ» فَأَلْقَى تَمْرَاتٍ كُنَّ فِي يَدِهِ، ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ). [متفقٌ عليه].

* الجهاد في سبيل الله قوة الإسلام وعزته، ورهبة جانبه، وأمنته وطمأنينته، وشجوه حساده، واتساع رقعة بلاده، ونشر لدين الله - تعالى -، وصد لأعدائه، وهو من أعظم الأعمال وأجل القربات، في الحديث أن النبي ﷺ سُئِلَ: أي الأعمال أفضل؟ قال: «إِيْمَانُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ» قيل: ثم ماذا؟ قال: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...» [متفقٌ عليه].

قال ابن تيمية: «والجهاد - باتفاق العلماء - أفضل من الحج والعمرة، ومن صلاة التطوع وصوم التطوع... ونفع الجهاد لفاعله ولغيره في الدين والدنيا، وهو مشتمل على جميع العبادات الظاهرة والباطنة: محبة الله، والإخلاص له، والتوكل عليه، وتسليم النفس والمال له، والصبر والزهد وذكر الله».

ووعده الله بالأجر الجزيل للمجاهدين في أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ: «مَا اغْبَرْتُ قَدَمَا عَبْدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فْتَمَسَهُ النَّارُ» [رواه البخاري].

وفي هذا الحديث ذكر جابر بن عبد الله ما جرى لعمر بن الحمام بن الجموح بن حرام الأنصاري - رضي الله عنهما -، أنه سأل النبي ﷺ يوم غزوة أحد، أن أخبرني إن قُتِلْتُ في سبيل الله فألى أين أصير؟ وفي هذا شدة حرص الصحابة - رضي الله عنهم - على معرفة الأمور.

فقال ﷺ: «فِي الْجَنَّةِ» وقد حصر النبي ﷺ ذلك على من قاتل في سبيل الله ولتكون كلمة الله هي العليا.

وكان في يد عمرو بن الحمام تمرات قليلات كان يأكل منهن، ولم يطمئن - رضي الله عنه - للأكل مسارعة للجهاد، ثم لم يرض بالصبر مدة أكل تلك التمرات مسارعة للخيرات، واستباقاً لمرضاة الله عليه، وكل هذا من شدة

شوق الصحابة - رضي الله عنهم - للجنة وحرصهم على دخولها. فقام وقاتل المشركين حتى قُتل - رضي الله عنه - وذكر أنه أول من قتل يؤمئذ من المسلمين. وهذا هو حال الصحابة - رضي الله عنهم - قال معاوية بن قرة: «أدركت ثلاثين رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ما منهم إلا من طعن أو طعن، أو ضرب أو ضرب مع رسول الله ﷺ».

وفي الحديث: دليل على أن من صدق النية في الجهاد لإعلاء كلمة الله - تعالى - فهو شهيد ومن أهل الجنة.

ولا نشهد لأحد بالجنة أو الشهادة في سبيل الله، لأن الله يعلم ما في قلوبهم، لكننا نرجوا لهم الشهادة والفوز بالجنة.

وفي الحديث: الزهد في الدنيا الفانية، وفضل الجهاد في سبيل الله - تعالى - وأنه من أسباب دخول الجنة.

قال الحسن: «إن لكل طريق مختصراً، ومختصر طريق الجنة الجهاد». ونظر يونس بن عبيد الله إلى قدميه عند موته فبكى، فقيل له: ما يبكيك يا أبا عبد الله؟ قال: «قدماي لم تغبرا في سبيل الله - عز وجل -».

وقد فتح الله أبواباً للجهاد في غير القتال، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والجهاد منه ما يكون باليد، ومنه ما هو بالقلب والحجة والدعوة واللسان، والرأي والتدبير والصناعة، فيجب بغاية ما يمكنه، ويجب على القعدة لعذر أن يخلفوا الغزاة في أهليهم ومالهم».

وفي الحديث: المبادرة والمصارعة إلى الخير.

وفيه: حرص الصحابة على الشهادة وسعيهم إليها.

٩٠ - الرابع: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُ شَيْءٍ تَخْشَى الْفَقْرَ، وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلَا تُثْمِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الْحُلُقُومَ». قُلْتُ: لِفُلَانٍ كَذَا وَلِفُلَانٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ. [متفق عليه].
«الْحُلُقُومُ»: مَجْرَى النَّفْسِ. وَالْمَرِيءُ: مَجْرَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ.

* كان الصحابة - رضي الله عنهم - يسألون النبي ﷺ في أحوالهم وما يستجد عليهم، فإن الإنسان يسعى في هذه الدنيا لكسب رزقه فيجمع ما يأكل ويشرب ويسكن وكلها لأموال دنياه، وما تصدق وأنفق فهو لآخرته، وصدقته حال الصحة أفضل من صدقته حال المرض، لأن الشح غالب على الإنسان في حال الصحة لما يخوفه به الشيطان من الفقر، ويزين له من طول العمر وحاجته إلى المال.

روى أبو داود عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يتصدق المرء في حياته بدينار خير له من أن يتصدق بمئة عند موته» وذلك لأن المرء إذا سمح بالمال وتصدق به في حال صحته، دل على صدق نيته، وعظيم محبته لله - تعالى -. وفي ذلك مجاهدة للنفس والشيطان، كما قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وفي الحديث: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُ شَيْءٍ». وذلك لأن الصحيح البدن صحيح بالمال يأمل البقاء، ويخشى الفقر. والشح: البخل، وقيل البخل مع الحرص، أو أن يكون البخل سجية عند الشخص، أما إذا كان مريضاً وأقبلت الآخرة وأدبرت الدنيا فإنها تهون في عينه وقلبه، ويرى أن المال ذاهب لغيره فيتصدق.

قال الخطابي: «فمعنى الحديث أن الشح غالب في حال الصحة، فإذا شح فيها وتصدق كان أصدق في نيته وأعظم لأجره، بخلاف من أشرف على الموت

وأيس من الحياة، ورأى مصير المال لغيره، فإن صدقته حينئذ ناقصة بالنسبة إلى حال الصحة، فليس له في وصيته كبير ثواب بالنسبة إلى صدقة الصحيح الشحيح».

قال ابن القيم: «فالمصدق يعطيه الله ما لا يعطي الممسك، ويوسع عليه في ذاته وخلقه ورزقه ونفسه، وأسباب معيشته جزاء له من جنس عمله».

قال بعض السلف عن بعض أهل الترف: «يعصون الله في أموالهم مرتين، ييخلون بها وهي في أيديهم يعني في الحياة، ويسرفون فيها إذا خرجت عن أيديهم يعني الموت».

ودل ﷺ في الحديث على عدم التواني والإمهال في تأخير الصدقة حتى يدرك الإنسان الموت.

قال يحيى بن معاذ: «للعبد بماله عند موته مصيبان: يؤخذ كله، ويُسأل عنه كله».

وقيل لعبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: «توفي فلان الأنصاري.

قال: رحمه الله.

قالوا: ترك مائة ألف.

قال: لكن هي لا تتركه».

وفي الحديث: فضل المبادرة إلى الخيرات والنفقات.

وفيه: التحذير من الشح والبخل.

وفيه: الحث على فعل الخير، والمبادرة إلى الصدقة، وخاصة في حال

الصحة والعافية.

٩١ - الخامس: عن أنس - رضي الله عنه -، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ سَيْفًا يَوْمَ أَحَدٍ فَقَالَ: «مَنْ يَأْخُذْ مِنِّي هَذَا؟» فَبَسَطُوا أَيْدِيَهُمْ، كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ يَقُولُ: أَنَا أَنَا. قَالَ: «فَمَنْ يَأْخُذُهُ بِحَقِّهِ؟» فَأَحْجَمَ الْقَوْمُ، فَقَالَ أَبُو دَجَانَةَ - رضي الله عنه -: أَنَا أَخْذُهُ بِحَقِّهِ، فَأَخْذَهُ فَفَلَقَ بِهِ هَامَ الْمُشْرِكِينَ. [رواه مسلم].
اسم أبي دجانة: سَمَّاكُ بْنُ خَرْشَةَ. قَوْلُهُ: أَحْجَمَ الْقَوْمُ: أَي تَوَقَّفُوا. وَفَلَقَ بِهِ: أَي شَقَّ هَامَ الْمُشْرِكِينَ: أَي رَوَّسَهُمْ.

* في الجهاد خير الدنيا والآخرة، وفي تركه خسارة الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبُّصُوكُمْ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢].
إما النصر، أو الشهادة والجنة، فمن عاش من المجاهدين كان كريماً له ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، ومن مات أو قتل فإلى الجنة.
قال ابن تيمية - رحمه الله -: «واتفق العلماء على أنه ليس في التطوعات أفضل من الجهاد، فهو أفضل من الحج، وأفضل من صوم التطوع، وأفضل من صلاة التطوع».
وفي الحديث أن النبي ﷺ كان يشجع الصحابة ويحمسهم للجهاد في سبيل الله.

ومن ذلك أنه في غزوة أحد التي وجد فيها المسلمون المشقة والأذى، أخذ رسول الله ﷺ سيفاً وعرضه على الصحابة، فرفعوا أيديهم طلباً له، لكنه ﷺ اشترط على من يأخذه أن يأخذه بحقه، فأحجم الصحابة خوفاً من عدم استطاعتهم أداء حقه الذي طلبه الرسول ﷺ، فأخذه أبو دجانة.
وقد دل هذا الموقف على شجاعة أبي دجانة وتضمينه وصدقه في الجهاد، ولا يدل هذا على جبن الصحابة - رضي الله عنهم -، وإنما هم أحجموا عن أخذ السيف خوفاً منهم أن لا يستطيعوا الوفاء بشرطه وحقه، وإنما مدوا أيديهم ليأخذوه أولاً ليقاتلوا به جهدهم من غير شرط.

وفي رواية أن أبا دجانة سأل النبي ﷺ قبل أن يأخذ السيف: وما حقه يا رسول الله، فقال: «أن تضرب به في وجه العدو حتى ينحني».

فقال عندها: أنا آخذه، فأخذه - رضي الله عنه - ففلق به هام المشركين.

وفي بعض السير عن ابن الزبير - رضي الله عنه - قال: «وجدتُ في نفسي حين سألت النبي ﷺ السيف فمُنعتَه، وأعطاه أبا دجانة، فقلت: والله لأنظرن ما يصنع فاتبعته، فأخذ عصا به حمراء فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصا به الموت، فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله».

وقد بشر النبي ﷺ بما للمجاهد في سبيل الله من الفضائل والأجور، فقال: «يُعطي الشهيد ست خصال: يُغفر له بأول قطرة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويكسى حلة من الإيمان، ويزوج ثنتين وسبعين من الحور العين، ويوقى فتنة القبر، ويؤمن من الفرع» [رواه أهل السنن].

والمرابطة في الثغور لها شأن عظيم، جاء في صحيح مسلم أنه ﷺ قال: «كل ميت يختم عمله إلا الم رابط فإنه يُنمى له عمله إلى يوم القيامة» [رواه مسلم].
وفي الحديث الآخر قال ﷺ: «رابط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عمله الذي كان يعمل، وأجرى عليه رزقه، وأمن الفتان» [رواه مسلم].

قال النووي - رحمه الله -: «في هذا الحديث، هذه فضيلة ظاهرة للم رابط، وجرى ان عمله عليه بعد موته فضيلة مختصه به لا يشاركه فيها أحد».
وقال ابن تيمية - رحمه الله -: «والم رابط في سبيل الله أفضل من المجاورة بمكة والمدينة وبيت المقدس، حتى قال أبو هريرة - رضي الله عنه -: لأن أرباط في سبيل الله أحب إليّ من أن أوافق ليلة القدر عند الحجر الأسود».

وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «من سأل الله - تعالى - الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه» [رواه مسلم].

٩٢ - السَّادِس: عن الزُّبَيْر بن عَدِيٍّ قَالَ: أَتَيْنَا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَشَكَّوْنَا إِلَيْهِ مَا نَلْقَى مِنَ الْحَجَّاجِ. فَقَالَ: اصْبِرُوا فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي زَمَانٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ. [رواه البخاري].

* بعد وفاة النبي ﷺ تولى الخلفاء الراشدون الأربعة، أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي - رضي الله عنهم أجمعين -، ولما بدأت الفتن تطل على الأمة، وقامت دولة بني أمية كان الحجاج بن يوسف الثقفي هو عامل عبد الملك بن مروان على الحجاز ثم على العراق، وكان ظالماً، فاشتكى الزبير بن عدي إلى أنس بن مالك - رضي الله عنه - في البصرة ما يجدونه من الحجاج، فأمرهم بالصبر لما في الخروج عليه من المفساد العظيمة.

وذكر لهم حديث النبي ﷺ وأنه ما من زمان يأتي إلا والذي بعده أشق على الناس منه، قال ذلك حتى يُخفف عنهم ما نزل بهم من الحجاج.

وفيه، استحباب الصبر على المحن والمبادرة بالأعمال الصالحة، وإن لحقته المتاعب والمشاق والأتعاب، ولا يترقب الخلو عن ذلك فما يأتي بعدُ أشد في ذلك مما في الزمان الذي كان فيه، لأن الزمان لا يزال في البعد عن مشكاه النبوة والقرب من البدع والفتن.

وحاصل الأمر أن الوقت سيف إن لم تقطعه بصلاح العمل وانتظرت الفراغ من سائر الأتعاب، قطعك وذهب عليك أنفس الأشياء بلا فائدة.

وفي الحديث: ذكر انتشار الفساد آخر الزمان. وفي هذا التحذير من سوء الزمان، وأن الزمان يتغير، ويتغير إلى ما هو أشر منه. وفيه الحث على المبادرة إلى الخيرات والعمل الصالح، فإن المرء لا يعلم ما يعرض له في مستقبل أيامه ولهذا أورده المؤلف في باب المبادرة إلى الخيرات.

وفي قوله «حتى تلقوا ربكم» أي، اثبتوا على دينكم وصالح أعمالكم فلا راحة للمؤمن دون لقاء ربه.

قال عبد الله بن مسعود معلقاً على الحديث: «لست أعني رخاء من العيش يُصيبه ولا مالا يفيد، ولكن لا يأتي عليكم يوم إلا وهو أقل علماً من اليوم الذي قبله، فإذا ذهب العلماء، استوى الناس فلا يأمرن بالمعروف ولا ينهون عن المنكر فعند ذلك يهلكون».

وقال الشعبي: «وما ذاك بكثرة الأمطار وقتلها، ولكن بذهاب العلماء، ثم يحدث قوم يفتون في الأمور برأيهم فيثلمون الإسلام ويهدمون».

وهذا الخبر من أعلام النبوة لإخباره ﷺ بفساد الأحوال، وذلك من الغيب الذي لا يعلم بالرأي، وإنما يعلم بالوحي.

ولما ولي عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - بعد زمان الحجاج وكان حكمه عدل ورحمة، سئل الحسن البصري عن ذلك، فقال: «لا بد للناس من زمان يتنفسون فيه».

وذكر أن أحد خلفاء بني أمية، جمع وجهاء الناس، لما سمع أن الناس يتكلمون في الولاية، فقال لهم: أيها الناس، أتريدون أن نكون لكم كما كان أبو بكر وعمر؟ قالوا: بلى نريد ذلك. قال: كونوا كالرجال الذي تولى عليهم أبو بكر وعمر، لنكون لكم كأبي بكر وعمر. أي، أن الناس على دين ملوكهم، فإن ظلم ولادة الأمور غالباً بسبب أعمال الناس.

وفي الحديث: الأمر بالصبر على جور وظلم الولاية.

وفيه: الحث على الصبر وأنه مما يعين على نوائب الدهر.

٩٣ - السَّابِع: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال سبعاً، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنىً مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرمًا مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر»، [رواه الترمذي وقال: حديث حسن].

* حث النبي ﷺ على المسارعة والمبادرة بالأعمال الصالحة قبل أن تأتي أحوال طارئة مُشغلة، هي صوارف الأيام ومشاكل الأوقات.
فقال ﷺ: «**بادروا بالأعمال سبعاً**» أي، سابعوا وقوع الفتن بالاشتغال بالأعمال الصالحة واهتموا بها قبل حلولها.
فذكر ﷺ سبعاً مما يعرض للإنسان في هذه الدنيا.
قال ﷺ: «**هل تنتظرون إلا فقراً منسياً**» أي: أنه لما ينال النفس منه من الغم الذي ينشأ عنه النسيان، والسعي الذي يشغله عن أشياء كثيرة تهمة.
«**أو غنىً مطغياً**» لصاحبه، وملهياً له عن القيام بالطاعات من سعيه ومتابعته، والحرص عليه وإضاعة الأوقات في حساباته.
«**أو مرضاً مفسداً**» للعقل أو البدن، مانعاً من أداء العبادة أو من كمالها، فإن المريض يشغل بحاله وتتكدر نفسه، وينسى عبادته والقيام بها بأنس وانشراح صدر.

«**أو هرمًا مفنداً**» يجعل الكبير لا يعرف ما يريد فيعود كالصغير.
«**أو موتاً مجهزاً**» أي، سريع الوقوع ينزل فجأة فلا يدع وقتاً ولا فسحة.
«**أو الدجال فشر غائب ينتظر**» لما فيه من شدة الفتنة التي لا ينجو منها إلا من عصمه الله.

والدجال: إنسان كافر فاجر يظهر قرب القيامة يدعو إلى الكفر، كان النبي ﷺ يستعيذ منه، ورد في الحديث أنه يقتله عيسى ابن مريم - عليه السلام - بعد نزوله.

«أو الساعة» أي، القيامة بأهوالها وشدائدها.

«فالساعة أدهى» أي، أشد الدواهي وأقطعها وأصعبها.

«وأمر» أي، أكثر مرارة من جميع ما يكابده الإنسان في الدنيا من الشدائد لمن غفل عن أمرها.

والقصد الحث على البدار على العمل الصالح ما استطاع إلى ذلك سبيلا قبل أن يحول بينه وبينها حائل مما ذكره النبي ﷺ. فإن هذه فرص قد يصرفها صارف، وهذا مشاهد من واقع وحياة الناس.

وأقرب الأمثلة في واقع الناس اليوم أداء الركن الخامس وهو الحج، فهناك من يؤخر ويسوف، وربما مات أو مرض، أو نالته جائحة أو غير ذلك.

ومن فوائد التعجيل بالأعمال الصالحة في زمن الرخاء والصحة والفراغ والغنى، أن من فعل ذلك عرفه الله - سبحانه - وأعانه في حال الفتن والشدائد، قال ﷺ: «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة» [رواه الترمذي].

قال سعيد بن جبير: «إن بقاء المسلم كل يوم غنيمة، فذكر الفرائض والصلوات وما يرزقه الله من ذكره».

اجتمع ثلاثة من العلماء فقالوا لأحدهم: ما أملك؟ قال: ما أتى عليّ شهر إلا ظننت أني سأموت فيه، قال فقال: صاحبه: إن هذا هو الأمل، فقال للآخر: فما أملك؟ قال: ما أتت عليّ جمعة إلا ظننت أني سأموت فيها، قال: فقال صاحبه: إن هذا هو الأمل، فقال للآخر: فما أملك؟ قال: ما أمل من نفسه في يد غيره.

قال الفقيه السمرقندي: «من عمل الحسنه يحتاج إلى خوف أربعة أشياء فما ظنك بمن يعمل السيئة:

أولها: خوف عدم القبول، لأن الله - تعالى - قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مَنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

والثاني: خوف الرياء، لأن الله - تعالى - يقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴿٥﴾ [البينة: ٥].

والثالث: خوف التسليم والحفظ، لأن الله - تعالى - يقول ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] فاشتراط المجيء إلى دار الآخرة.

والرابع: خوف الخذلان في الطاعة، لأنه لا يدري أنه هل يوفق لها أم لا؟ لقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وفي الحديث: الحث على المبادرة إلى الخيرات والمصارعة إليها. وفيه: أن الفتن ربما تصرف العبد وتشغله عن الطاعة والعبادة.

٩٤ - الثامن: عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأُعْطِينَ هَذِهِ الرَايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ» قال عمر - رضي الله عنه -: ما أَحْبَبْتُ الْإِمَارَةَ إِلَّا يَوْمَئِذٍ فَتَسَاوَرْتُ لَهَا رَجَاءً أَنْ أَدْعَى لَهَا، فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، - رضي الله عنه -، فأعطاه إياها، وقال: «امش ولا تَلْتَفْتُ حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ» فَسَارَ عَلِيٌّ شَيْئًا، ثُمَّ وَقَفَ وَلَمْ يَلْتَفْتُ، فصرخ: يا رسول الله، على ماذا أَقَاتِلُ النَّاسَ؟ قال: «قَاتِلْهُمْ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَقَدْ مَنَعُوا مِنْكَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ» [رواه مسلم] فَتَسَاوَرْتُ هُوَ بِالسَّيْنِ الْمَهْمَلَةِ: أَيُّ، وَثَبْتُ مُتَطَلِّعًا.

* في الحديث عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ غزا خيبر - وخيبر حصون ومزارع كانت لليهود تقع شمال المدينة جهة الشام.. فلما غزاهم النبي ﷺ وكانت حصونهم منيعة وقوية، كما ذكر الله - تعالى - عنهم ﴿وَوُضُّوا أَنْهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢].

ورغبة في بث الحماس في الصحابة - رضي الله عنهم - قال عليه الصلاة والسلام «لأُعْطِينَ هَذِهِ الرَايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

فتمنى الصحابة كلهم أن يكونوا ذلك الرجل الذي خصه النبي ﷺ بالراية وبالشهادة، وأنه يحب الله ورسوله، حتى قال عمر - رضي الله عنه -: ما أَحْبَبْتُ الْإِمَارَةَ إِلَّا يَوْمَئِذٍ.

(فتساورت): أي وثبت متطلِّعًا حريصًا عليها رجاء أن أدعى لها، لأن ذلك من المبادرة إلى الخيرات.

قال النووي: «إنما كانت محبته لها، لما دلت عليه الإمارة من محبة الله ورسوله، ومحبتهما له، والفتح على يديه».

فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فأعطاه إياها.

وعلي - رضي الله عنه - هو الرجل المقدام الشجاع، ابن عم النبي ﷺ، وقد شهد مع الرسول ﷺ المشاهد كلها إلا تبوك، وهو زوج فاطمة - رضي الله عنها - وهو الذي قال له الرسول ﷺ «**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى**» [متفق عليه].

وكان الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - يقول: «لا أعلم أحد يحفظ له من الفضائل في الأحاديث الصحاح ما يُحفظ لعلي - رضي الله عنه - وعن أصحاب رسول الله ﷺ أجمعين».

قال ابن كثير عن فضائله: «فمن ذلك أنه أقرب العشرة المشهود لهم بالجنة نسباً من رسول الله ﷺ».

قال ابن تيمية عن هذا الحديث: «وهو أصح حديث روي في فضائل علي - رضي الله عنه -».

قال ﷺ موصياً علي - رضي الله عنه -: «**امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك**» فسار علي شيئاً ثم وقف ولم يلتفت لأن النبي ﷺ أمره بعدم الالتفات، فصرخ: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟

فقال رسول الله ﷺ: «**قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**».

وفي هذا الحديث: لا يجوز قتل من نطق بالشهادتين إلا إذا ظهر منه ما يستوجب القتل، كالقتل عمداً، أو إنكار شيء من الدين يقتضي الكفر والردة، وتجري أحكام الإسلام على ما يظهر من الناس، والله يتولى السرائر.

وفي الحديث: معجزة قول النبي ﷺ «**يفتح الله على يديه**» فعلى قوة حصون خيبر ومثانتها ومنعتها، فقد فتحها الله - عز وجل - على يد علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -، ثم أجلاهم إلى الشام فيما بعد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في خلافته.

١١- بابُ الجاهدة

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

مدح - تعالى - عباده المؤمنين الذين جاهدوا النفس، والشيطان، والهوى، وأعداء الدين، وعلق - سبحانه - الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً.

والمجاهدة: مقام فوق المراقبة ودون التسليم، وهو مرابطة على ثغور النفس لئلا تنزع إلى تزيين الشيطان في غفلة من الإنسان، فإذا رآها تتكاسل أو تتواني عن الخير فإنه يجاهدها ويكرها ما استطاع حتى تستقيم على الطريق، فتواقي الخير عفواً.

قال - تعالى - في الآية الأولى ذاكراً نهاية وقت العبادة وهو الموت وانقطاع الإنسان من الدنيا: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. أي: أقم في عبادة ربك حتى الموت حيث تنقطع الأعمال ويبدأ الحساب، هناك حساب ولا عمل، وهنا في الدنيا عمل ولا حساب، وسمي الموت باليقين لأنه أمر متيقن.

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨]. أي: عظمه ومجده، وانقطع إليه عبادة وتوحيداً، وتعظيماً وتوكلاً، فهو المستحق لذلك.

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]. في الآية غاية الترغيب في فعل الخير ولو كان قليلاً، والترهيب من فعل الشر ولو كان حقيراً. وفيها تشويق لتقديم العمل الصالح في الدنيا ليجد الجزاء في الدار الآخرة.

قال ابن حجر: «فينبغي للمرء أن لا يزهد في قليل من الخير يأتيه، ولا في قليل من الشر أن يجتنبه، فإنه لا يعلم الحسنة التي يرحمه الله بها، ولا السيئة التي يسخط عليه بها».

وقال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠]. أي: ما أخرجتم لله وفي سبيل الله خير لكم وأعظم أجراً عند الله مما أبقيتم وادخرتم.

وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. أي، وما أنفقتم في وجوه الخير، فإن الله يجازيكم عليه أحسن الجزاء. وفي هذا الباب ذكر المؤلف جملة من الآيات في المجاهدة والقيام على النفس في فضل الطاعات والبعد عن المحرمات. والجهد نوعان: جهد النفس وهو الجهد الأكبر، وجهد الغير بالسنن والبيان.

وثن هذه المجاهدة والمصابرة الهداية إلى سبيل الرشاد، وأنه مع المحسنين.

وحت - عز وجل - على كثرة الطاعات والمداومة عليها وأن المسلم يقدم من دنياه من نفقة وغيرها لآخرته حيث يجده محفوظاً له.

وبين علم الله - عز وجل - وإطلاعه على أعمال العباد: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣] فإنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. وفيه، ترغيب في إخفاء الأعمال الصالحة حتى لا يطلع عليها إلا الله - عز وجل - وحث وتشويق إليها.

والآيات في الباب كثيرة معلومة.

٩٥ - فالأول: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا. فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ. وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ: وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ، فَإِذَا أَحَبَّهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ» [رواه البخاري].

«آذَنْتُهُ» أَعْلَمْتُهُ بِأَنِّي مُحَارِبٌ لَهُ، اسْتَعَاذَنِي رُوي بالنون وبالباء.

* في الحديث الوعيد الشديد لمن عادى ولياً من أجل طاعته لله - عز وجل - إما بکراهيتهم أو إيذائهم.

وأولياء الله هم: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣]. والولي: من الولي وهو القرب والدنو، فالولي هو القريب من الله - تعالى - لتقربه إليه باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، والإكثار من نوافل العبادات مع كونه لا يفتر عن ذكره، ولا يرى غيره بقلبه توحيداً وتعظيماً. ومن تولى الله بالطاعة والتقوى، فإن الله يتولاه بالحفظ والنصرة.

قال ابن تيمية: «هذا أشرف حديث في ذكر الأولياء».

واختاره الإمام النووي في الأربعين حديثاً التي عليها مدار الدين.

جاء في الحديث: «من عادى لي ولياً».

قال الطوفي: «هذا الحديث أصل في السلوك إلى الله والوصول إلى معرفته ومحبته وطريقه».

قال ابن حجر: «المراد بولي الله العالم بالله المواظب على طاعته المخلص في عبادته».

قال ابن تيمية: «والولاية ضد العداوة، وأصل الولاية المحبة والقرب وأصل العداوة: البغض والبعد، وقد قيل أن الولي سمي ولياً من موالاته للطاعات، أي متابعتها».

«فقد آذنته بالحرب» أي، فقد أعلمته وأعلنت له العداوة. وفي قوله **«وما تقرب إليَّ عبدي»** إضافته للتشريف المؤذن بمزيد الرفعة والمنزلة.

«أحب إليَّ مما افترضت عليه» لأن الفرائض مقدمة على النوافل، ونتيجة هذه الطاعات والقربات أن الله يحبه، ويتولاه بحفظه وعونه، ونصره وتأييده، فيحفظ سمعه من الحرام، وبصره ويده ورجله، وإن سأل الله - عز وجل - أعطاه، وإن استعاده عن شر شياطين الإنس والجن أعاده.

«وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه» النوافل تقرب إلى الله وهي تكمل الفرائض، فيبتدئ الإنسان بالفرائض ثم يؤدي النوافل حتى ينال محبة الله - عز وجل -.

وأن من تقرب إلى الله بالنوافل - بعد أداء الفرائض لأنها مقدمة على النوافل - أحبه، ونصره، وحفظه، وأجاب دعاءه، ورقاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فلا ينطق بما يسخط الله، ولا تحرك جوارحه في معاصي الله. وإن سأل الله أعطاه، وإن استعاذ مما يخاف أعاده منه وأمنه.

ثم ذكر **«فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»**.

أي، لا يصغي بسمعه إلا إلى ما يرضيني، ولا يرى ببصره إلا ما أمرته به. **«ويده التي يبسط بها ورجله التي يمشي بها»** قال الخطابي: «هذه أمثال، والمعنى توفيق الله لعبده في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء، وتيسير المحبة له فيها بأن يحفظ جوارحه عليه ويعصمه عن مواقع ما يكره الله من الإصغاء إلى اللهو بسمعه، ومن النظر إلى ما نهى الله عنه ببصره، ومن البطش فيما لا يحل له بيده، ومن السعي إلى الباطل برجله».

«وإن سألتني أعطيته وإن استعاذني لأعيذنه» هذا جزاء ونتيجة محبة الله له، فإن سأل شيئاً أعطاه، وإن استعاذ به من شيء أعاده منه، وإن دعاه أجابه، فيصير مجاب الدعوة لكرامته على ربه.

قال ابن رجب: «فأولياء الله تجب موالاتهم وتحرم معاداتهم، كما أن أعداءه تجب معاداتهم وتحرم موالاتهم، قال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١]».

قال العلماء: «إن كان المعادي للولي إنما يعاديه من أجل دينه فينطبق عليه هذا الحديث ويكون مستحقاً حرب الله عليه، وإن كان من أمور الدنيا فشرطه ألا يحمله على البغضاء، وإلا يقع عليه هذا الحديث».

وجاء المؤلف بهذا الحديث في باب المجاهدة، لأن ولاية الله لا تتحقق ولا تكون إلا بالمجاهدة والقيام بما أمر الله به من الفرائض والنوافل وكثرة الذكر، مع الإخلاص له - عز وجل -، والمتابعة لرسوله ﷺ.

قال ابن تيمية: «من كان مؤمناً تقيّاً، كان لله وليّاً».

٩٦ - الثاني: عن أنس - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه - عز وجل - قال: «إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شَبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» [رواه البخاري].

* خلق الله الإنسان للطاعة والعبادة، وفتح لهم باب التوبة والإنابة، فالتوبة واجبة على الدوام، لأن الإنسان لا يسلم من معصية، ولا يخلو من نقص. والله - عز وجل - جواد كريم يغفر الزلة ويمحها، ويجازي على القليل كثيرًا. وهذا الحديث من الأحاديث القدسية، ومعناه أنه - تعالى - يقول: فمن أتى شيئاً من الطاعات قليلاً قابلته عليه بأضعاف من الإثابة والإكرام، وكلما زاد في الطاعة زدته في الثواب. وهذا من كرمه وجوده وفضله. والذراع: هو الساعد إلى المرفق. والباع: هو قدر مد اليدين وما بينهما من البدن. والهرولة: نوع من العدو، فيه مسارعة الخطأ. وفي الحديث بيان كرم أكرم الأكرمين، حيث يعطي الجزيل في مقابلة القليل من العمل.

ويدل على عظيم فضل الله - عز وجل -، وأنه بالخير إلى عباده أجود، فهو أسرع إليهم بالخير والكرم والجود منهم في أعمالهم ومسارعتهم إلى العمل الصالح.

وفيه، إثبات صفة المجيء والإتيان لله - عز وجل -، ومنهج أهل السنة والجماعة الإيمان به دون تكيف أو تحريف أو تعطيل أو تمثيل.

قال الشيخ ابن عثيمين: «فإذا تقرب الإنسان إلى الله شبراً تقرب الله منه ذراعاً، وإن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً، وإن أتاه يمشي أتاه يهرول - عز وجل -، فهو أكثر كرمًا وأسرع إجابة من عبده، وهذا الأحاديث وأمثالها مما

يؤمن به أهل السنة والجماعة على أنه حق، حقيقة الله - عز وجل -، ولكننا لا ندري كيف تكون هذه الهرولة، وكيف يكون هذا التقرب فهو أمر ترجع كلفيته إلى الله، وليس لنا أن نتكلم فيه، لكن نؤمن بمعناه ونفوض كلفيته إلى الله - عز وجل -.

قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم: «والمراد من هذا الكلام أن من اجتهد بالتقرب إلى الله - تعالى - بالفرائض ثم بالنوافل قرّبه إليه ورقاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فيصير يعبد الله على الحضور والمراقبة كأنه يراه، فيمتلئ قلبه بمعرفة الله - تعالى - ومحبته وعظمته وخوفه ومهابته وإجلاله والأنس به والشوق إليه حتى يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهدًا بعين البصيرة، ولا يزال هذا الذي في قلوب المحبين المقربين يقوى حتى تمتلئ قلوبهم به، فلا يبقى في قلوبهم غيره ولا تستطيع جوارحهم أن تنبعث إلا بموافقة ما في قلوبهم، فمتى امتلأ القلب بعظمة الله - تعالى - محاذ ذلك من القلب كل ما سواه ولم يبق للعبد شيء من نفسه وهواه ولا إرادة إلا لما يريد منه مولاه، فحينئذ لا ينطق العبد إلا بذكره، ولا يتحرك إلا بأمره، فإن نطق نطق بالله، وإن سمع سمع به، وإن نظر نظر به، وإن بطش بطش به، فهذا هو المراد».

وهو - عز وجل - يحب التوابين ويحب المتطهرين، ويفرح بتوبة عباده ويدعوهم إليها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وأفرح من الفاقدر لرحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا وجدها، وأشكر للقليل من جميع خلقه، فمن تقرب إليه بمثقال ذرة من الخير شكرها وحمدها، إن ربنا لغفور شكور. وفي هذا الحديث: الحث على الأعمال الصالحة والتقرب بها إلى الله - عز وجل - رجاء الأجر ومضاعفته.

٩٧ - الثالث: عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ» [رواه مسلم].

* جملة كبيرة من أحاديث النبي ﷺ تحت على التزود لليوم الآخر بالعمل الصالح والاستفادة من العمر، فإنه رأس مال أهل الدنيا، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].
وعمر الإنسان في هذه الدنيا محدود بأنفاس تخرج فلا تعود، أو تدخل فلا تخرج.

وفي الحديث أن من لم يعمل في فراغه وصحته وهما نعمتان عظيمتان فهو مغبون. ومعنى المغبون: هو الشراء بأضعاف الثمن، أو البيع بأقل من ثمن المثل. فالمكلف تاجر والصحة والفراغ رأس ماله، فمن أحسن استخدام رأس ماله نال الربح، ومن ضيعه خسر وندم، فهو مغبون.
ونعم الله - عز وجل - عظيمة، وأولها ورأسها نعمة الإسلام، ثم نعمة العقل، ونعمة الأمن ورغد العيش، وغيرها.

قال ابن العربي: «اختلف في أول نعمة الله على العبد، فقيل: الإيمان، وقيل الحياة، وقيل الصحة، والأول أولى فإنه نعمة مطلقة، وأما الحياة والصحة فإنهما نعمة دنيوية، ولا تكون نعمة حقيقة إلا إذا صاحبت الإيمان، وحينئذ يغبن فيها كثير من الناس، أي: يذهب ربحهم أو ينقص، فمن استرسل مع نفسه الأمانة بالسوء، الخالدة إلى الراحة، فترك المحافظة على الحدود والمواظبة على الطاعة فقد غبن، وكذلك إذا كان فارغاً فإن المشغول قد يكون له معذرة بخلاف الفارغ فإنه يرتفع عنه المعذرة وتقوم عليه الحجة».

وقال ابن الجوزي: «قد يكون الإنسان صحيحاً ولا يكون متفرغاً لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنياً ولا يكون صحيحاً، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو

المغبوط، ومن استعملها في معصية الله فهو المغبون، لأن الفراغ يعقبه الشغل، والصحة يعقبها السقم، ولو لم يكن إلا الهرم.

ولا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث: أنه لم يتمتع بما جمع، ولم يدرك ما أمل، ولم يحسن الزاد لما قدم عليه.

فالفراغ يعقبه الشغل، والصحة يعقبها السقم، والإنسان لا تدوم حاله على حال واحدة. وخص كثير من الناس لأن أقل القليل هم الذين سارعوا إلى طاعة الله والعمل الصالح واستفادوا من أعمارهم.

وفي الحديث الآخر قوله ﷺ: «اغتم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك» [رواه الحاكم].

قال أحمد بن عاصم الأنطاكي: «هذه غنيمة باردة، أصلح ما بقي من عمرك، يغفر لك ما مضى».

وكان يزيد الرقاشي يقول لنفسه: «يا ويحك يا يزيد؟! من ذا يصلي عنك بعد الموت، من ذا يصوم عنك بعد الموت؟ من ذا يترضى عنك ربك بعد الموت، ثم يقول: أيها الناس ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم بقية حياتكم؟! من الموت طالبه، والقبر بيته، والتراب فراشه، والدود أنيسه، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف يكون حاله؟!».

وهاهي الأيام تمضي، والأعمار تنقص، ونحن لا نزال في غفلاتنا نسوف في التوبة ونطيل الأمل، وقد قال أبو سليمان الداراني: «من كان يومه مثل أمسه فهو في نقصان».

وفي الحديث: نصح النبي ﷺ لأمته ودلالته على الخير، فمن عامل الله - تعالى - بامثال أوامره وابتدر الصحة والفراغ يريح، ومن لا، ضاع رأس ماله ولا ينفعه الندم.

٩٨ - الرابع: عن عائشة - رضي الله عنها - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فَقُلْتُ لَهُ، لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «أَفَلَا أَحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟» [متفق عليه].
هذا لفظ البخاري، ونحوه في الصحيحين من رواية المُغيرة بن شُعْبَةَ.

* قيام الليل عبادة تصل القلب بالله - عز وجل - وتجعله قادراً على التغلب على مغريات الحياة ومجاهدة النفس، في وقت هدأت فيه الأصوات ونامت العيون، وتقلب النّوَام على الفرش، وقد أثنى الله - عز وجل - عليهم بقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٦٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿٦٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿٦٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦٩﴾﴾ [المزمل: ٦].
قال ابن كثير: «بأنه أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش».
وقيام الليل سنة مؤكدة، حث ﷺ عليها بقوله: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، مقربة لكم إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم ومطردة للداء عن الجسد» [رواه الترمذي وأحمد].

وفي هذا الحديث، ذكرت عائشة - رضي الله عنها - شيئاً من عبادة النبي ﷺ وأنه كان يقوم من الليل الساعات الطوال حتى تتشقق قدماه الشريفتان، فكان ﷺ يقوم أحياناً أكثر الليل، وأحياناً نصف الليل، وأحياناً ثلث الليل. فتعجبت عائشة - رضي الله عنها - من طول عبادته، مع أن الله - عز وجل - غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهذا من خصائصه، فقال ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

وقد كان هذا العمل من النبي ﷺ - وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر - وشكره لربه وقيامه الساعات الطوال، كله من شكر النعم التي أسبغها الله - تعالى - عليه.

ونعم الله - عز وجل - على نبينا محمد ﷺ كثيرة لا تحصى، فقد شرح صدره ورفع قدره ووضع وزره، وأنال مرتبة النبوة العالية، فكان شكره ﷺ أعظم من شكر غيره قولاً وعملاً.

والشكر: الاعتراف بالنعمة والقيام بحقوقها طاعة لله. فمن كثر منه ذلك سمي شكوراً. كما أثنى الله - عز وجل - على نبيه نوح - عليه السلام - في قوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

قال ابن أبي حمزة: «يجب أن لا يخطر ببالنا أن الذنوب التي أخبر الله - تعالى - أنه بفضله غفرها للنبي ﷺ من قبيل ما نفع فيه نحن، معاذ الله، إنما ذلك من قبيل توفية ما يجب للربوبية من الإعظام والإكبار والشكر ووضع البشرية وإن رفع قدرها حيث رفع، فإنها تعجز عن ذلك بوصفها لأنها من جملة المحدثات، وكثرة النعم على الذي رفع قدره أكثر من غيره تضاعف الحقوق عليه فحصل العجز بالغفران لذلك».

ومن أنعم الله عليه نعمة وخصه بفضيلة يجب عليه شكرها، وفي الحديث بيان كثرة اجتهاد النبي ﷺ في العبادة ويجب أن تكون النعمة سبباً لزيادة الشكر. وفي هذا الحديث: أخذ الإنسان على نفسه بالشدة في العبادة، وإن أضر ذلك ببدنه إذا لم يفض به إلى الملل، قال ﷺ: «خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يملُّ حتى تملُّوا» [رواه البخاري ومسلم].

وقد رغب ﷺ في قيام الليل لما فيه من الخير العظيم، والإحسان الجزيل بقوله: «إن في الليل ساعة لا يوافقها عبدٌ مسلم يسأل الله - تعالى - خيراً إلا أعطاه إياه» [رواه مسلم]. وقال في الحديث الآخر: «أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل» [رواه مسلم].

٩٩ - الخامس: عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دَخَلَ الْعَشْرُ أَحْيَا اللَّيْلَ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ، وَجَدَّ وَشَدَّ الْمِئْزَرَ. [متفق عليه].
والمراد: العَشْرُ الْأَوَاخِرُ من شهر رمضان: وَالْمِئْزَرُ: الْإِزَارُ وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ اعْتِزَالِ النِّسَاءِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ تَشْمِيرُهُ لِلْعِبَادَةِ. يُقَالُ: شَدَدْتُ لِهَذَا الْأَمْرِ مِئْزَرِي، أَي: تَشْمَرْتُ وَتَقَرَّغْتُ لَهُ.

* مما أنعم الله به على أمة محمد ﷺ وخصها به شهر رمضان المبارك. الذي فيه ليلة القدر التي وصفها الله - عز وجل - بأنها مباركة، لكثرة خيرها، وبركتها وفضلها، ومن بركتها أن هذا القرآن أنزل فيها، ووصفها الله - عز وجل - بأنه يُفْرَقُ فيها كل أمر حكيم. أي، تقدر في تلك الليلة مقادير الخلائق على مدى العام، فيكتب فيها الأحياء والأموات، والناجون والهالكون، والسعداء والأشقياء، والحاج والداج، والعزيز والذليل، والجذب والقحط، وكل ما أَرَادَهُ اللهُ - عز وجل -..
وهذه الليلة العظيمة يستحب تحريها في العشر الأواخر منه خاصة، وفي الأوتار منها بالذات.

وأعمار هذه الأمة من أقصر أعمار الأمم، ولكن الله - عز وجل - عوضها بأيام وليال فاضلة، مثل ليلة القدر التي هي: ﴿حَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾. وكان ﷺ يصلي في الليل حتى تفتطرت قدماه، ولكنه زيادة على ذلك يجتهد في العشر الأواخر من رمضان تحرياً لليلة القدر ولمزيد عبادة في هذه الليالي. قال ابن حجر: «يحتمل أن يريد به الجد في العبادة، كما يقال شددت لهذا الأمر مئزري: أي، تשמريت له، ويحتمل أن يراد التشمير للعبادة والاعتزال معاً».

وقال - رحمه الله -: «وفي الحديث الحرص على مداومة القيام في العشر الأخير، إشارة إلى الحث على تجويد الخاتمة».

فينبغي على العبد أن يكون حريصاً على المحافظة على هذه الأيام والليالي الفاضلة، ويحث ويشجع أهله على ذلك، بأمرهم بالعبادة والمحافظة عليها.

وجاء في الحديث «**رحم الله امرأة قامت من الليل ثم أيقظت زوجها فصلى، فإن أبي نضحت الماء في وجهه**» [رواه أبو داود].

وعن الحسن قال: «إن الله جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه، يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته، فسبق قوم ففازوا، وتخلف آخرون فخابوا. فالعجب من اللاعب الضاحك في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون ويخسر فيه المبطلون».

وقال ابن رجب: «المحبون تطول عليهم الليالي فيعدونها عدداً لا تنتار ليلي العشر في كل عام، فإذا ظفروا بها نالوا مطلوبهم وخدموا محبوبهم».

والموفق يحرص على قيام ليلة القدر التي نوه الله - عز وجل - بفضلها في قوله ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ وهي الليلة التي قال - تعالى - فيها ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾. ولهذا أورد المؤلف - رحمه الله - هذا الحديث في باب المجاهدة.

روي عن علي - رضي الله عنه - قال: «كونوا القبول العمل أشد اهتماماً منكم بالعمل، ألم تسمعوا الله - عز وجل - يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾» [المائدة: ٢٨].

وفي الحديث: الحث على الجِد والاجتهاد في العبادة، خصوصاً في الأوقات الفاضلة، واغتنام صالح العمل في العشر الأواخر من رمضان، لأن فيها ليلة خير من ألف شهر.

١٠٠ - السادس: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ: اخْرُصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» [رواه مسلم].

* أثنى الرسول ﷺ على المؤمن القوي في دينه، وتمم ذلك بقوة في نفسه وبدنه في طاعة الله، الذي يقوم بأوامر الدين، ويترك النواهي بقوة ونشاط، ويصبر على مخالطة الناس ودعوتهم، ويصبر على أذاهم، ويقوم بواجب الدعوة إليه بكل الوسائل المتاحة والمتيسرة.

والمقصود بالقوة في الحديث هي قوة الإيمان والعمل والطاعة، وقوة الرأي والنفس والإرادة، ويضاف إليها قوة البدن إذا كانت معينة لصاحبها على العمل الصالح.

قال النووي: «والمراد بالقوة هنا: عزيمة النفس والقريحة في أمور الآخرة، فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقداماً على العدو في الجهاد، وأسرع خروجاً إليه وذهاباً في طلبه، وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى في كل ذلك، واحتمال المشاق في ذات الله - تعالى -، وأرغب في الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات، وأنشط طلباً لها ومحافظة عليها ونحو ذلك».

وفي قوله «وفي كل خير» أي، المؤمن القوي والضعيف لاشتراكهما بأصل الإيمان مع ما يأتي به الضعيف من العبادات.

ثم عقب النبي ﷺ بنصيحة للأمة آمراً بالحرص على تحصيل ما ينفع في أمر الدين والدنيا التي لا بد منها، طالباً المعونة من الله ومتوكلاً عليه، غير معتمد على الأسباب وحدها.

وفي قوله «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**» كلمتين عظيمتين فيهما خير الدنيا والآخرة.

الأولى: الحرص والجد في تحصيل الأمور النافعة في المعاش والمعاد ولا يحصل ذلك مع بذل الأسباب إلا بالاستعانة بالله، والتوكل عليه.

والثانية: «**ولا تعجز**» أي، لا تكسل وتتأخر في أداء العمل وتترك بذل الأسباب فإن ذلك قدح في الشرع.

وفي طريقك في الحياة تواجهك مصاعب ومتاعب فإن نالك شيء من ذلك فلا تلق باللوم، وتقول لو أني فعلت كذا لتغيرت الحال. ولكن اطمئن لقضاء الله وقدره وأرض به، وقل «**قدر الله وما شاء فعل**» فبيده مقاليد الأمور.

«**فإن لو تفتح عمل الشيطان**» تفتح باب الوسوس والأحزان والندم والهموم، وفي هذا إرشاد إلى الدواء عند وقوع المقدور وذلك بالتسليم لأمر الله والرضا بقضائه وقدره، والإعراض عن الالتفات لما مضى، فإن ذلك يؤول إلى الخسران.

قال ابن تيمية في معنى الحديث: «لا تعجز عن مأمور، ولا تجزع عن مقدور، ومن الناس من يجمع كلا الشرين، فأمر النبي بالحرص على النافع، والاستعانة بالله، والأمر يقتضي الوجوب وإلا فلا استحباب، ونهي عن العجز».

وقال ابن القيم: «والعبد إذا فاته المقدور، له حالتان: حالة عجز وهي عمل الشيطان، فيلقيه العجز إلى «لو» ولا فائدة فيها، بل هي مفتاح اللوم والعجز، والسخط والحزن، وهذا من عمل الشيطان، وأمره بالحالة الثانية، وهي النظر إلى القدر وملاحظته، وأنه لو قدر لم يفته ولم يغلبه عليه أحد».

وفي الحديث: الحث على المجاهدة والاستعانة بالله وعدم العجز.

١٠١ - السابع: عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، وَحُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ» [متفقٌ عليه].
وفي رواية لمسلم: «حُفَّتْ» بَدَلَ «حُجِبَتْ» وهو بمعناه: أي: بينه وبينها هذا الحجاب، فإذا فعله دخلها.

* الجنة مطلب غال نفيس، ومنزلة رفيعة عالية، ولهذا وردت الآيات والأحاديث في توضيح وتبيين طريق الجنة وسبيلها، والتحذير من النار ومسالكتها.

وفي هذا الحديث: بيّن النبي ﷺ حال النار وأنها حجت: أي، حفت بالشهوات.

والشهوات: هي ما تميل إليه النفس، من غير تعقل، ولا تبصر، ولا مراعاة لدين، ولا مراعاة لمروءة. وسبب الوقوع في الشهوات هو تزيين الشيطان المنكر والقيح حتى تراه النفس حسناً فتميل إليه. ولا طريق إلى الجنة إلا طريق الصبر على المكاره، ولا نجاة من النار إلا بمداغة الشهوات.

وفي الحديث قوله ﷺ: «حفت النار بالشهوات، وحجت الجنة بالمكاره».
قال القرطبي: «هذا من الكلام البليغ الذي انتهى فيه البلاغة نهايته، وذلك أنه مثل المكاره بالحجاب وهو الدائر بالشيء والمحيط به الذي لا يتوصل إلى ذلك الشيء إلا بعد أن يُتخطى. وفائدة هذا التمثيل أن الجنة لا تنال إلا بقطع مفاوز المكاره وبالصبر عليها، وأن النار لا يُنجي منها إلا بترك الشهوات وفضام النفس عنها».

وقال النووي تعليقاً على الحديث: «هذا من بديع الكلام وفصيحه وجوامعه التي أوتيها ﷺ من التمثيل الحسن، ومعناه لا يوصل الجنة إلا

بارتكاب المكاره، ولا يوصل إلى النار إلا بالشهوات، وكذلك هما محجوبتان بهما، فمن هتك الحجاب وصل إلى المحجوب، فهتك حجاب الجنة باقتحام المكاره، وهتك حجاب النار بارتكاب الشهوات، فأما المكاره فيدخل فيها الاجتهاد في العبادة، والمواظبة عليها، والصبر على مشاقها أو كظم الغيظ، والعفو، والحلم، والصدقة، والإحسان إلى المسيء والصبر عن الشهوات، ونحو ذلك.

وأن النار حفت وحجبت بالمكاره والمشقة ودفع هوى النفس، ولهذا تجد أن الزنا شهوة الفرج، تميل إليه النفوس، فإذا هتك الإنسان هذا الحجاب ووقع فيه، فإنه سيكون سبباً لدخوله النار، وكذلك في حب المال وهو شهوة من شهوات النفس فإن أخذه من حرام كسرقة وغصب فقد هتك هذا الحجاب. وأما الجنة فقد حفت بما تكرهه النفس وتستثقله وقد يكون شاقاً عليها مثل الصلاة في المساجد في أيام البرد والمطر، وقد يبلغ به الكسل إلى ترك صلاة الجماعة في المساجد لثقلها على نفسه.

وقد يكره الجهاد والحج والزكاة وتستثقلها نفسه، فيؤخرها أو يتركها لأن فيها مشقة وثقلاً على النفس والبدن.

قال الحسن عند قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْتَحِمَ الْعَقَبَةَ﴾ [البلد: ١١] «وهي والله عقبة شديدة، مجاهدة الإنسان نفسه، وهواه، وعدوه، والشيطان».

وقال الفضيل وهو يذكر حال المؤمن في هذه الدار: «المؤمن في الدنيا مهموم حزين، همه مرمة جهازه، ومن كان كذلك فلاهم له إلا التزود بما ينفعه عند العودة إلى وطنه، فلا ينافس أهل البلد الذي هو غريب بينهم في عزهم، ولا يجزع من الذل عندهم».

وقال بعض السلف: «عجبت لمن يعلم أن الجنة تزين فوقه، والنار تُضرم تحته، كيف ينام بينهما».

١٠٢ - الثامن: عن أبي عبد الله حُذَيْفَةَ بن اليمان، - رضي الله عنهما -، قال: صَلَّيْتُ مع النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبُقْرَةَ، فَقُلْتُ يَرْكَعُ عِنْدَ الْمَائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى. فَقُلْتُ يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النَّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتْرَسِّلًا إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ ثُمَّ قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ ثُمَّ قَامَ قِيَامًا طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى فَكَانَ سُجُودَهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ. [رواه مسلم].

* شرع للمسلم أن يحافظ في اليوم والليلة على أربعين ركعة، منها الواجب وهي: الصلوات الخمس سبع عشرة ركعة، والسنن الرواتب اثنتا عشرة ركعة، وصلاة الليل إحدى عشرة ركعة، وكلما زاد العبد في النوافل المطلقة أحبه الله وقربه وأدناه، وأعظم أجره.

وفي هذا الحديث ذكر الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان - رضي الله عنهما - أنه صلى مع النبي ﷺ صلاة التهجد (قيام الليل) في ليلة من الليالي، وقد ذكر حال وصفة صلاة النبي ﷺ، وذكر قراءة النبي ﷺ وأنه قرأ في الركعة الأولى البقرة والنساء وآل عمران، أي أنه قرأ الخمسة الأجزاء الأولى من القرآن وشيئاً من السادس، وقدم سورة على أخرى، يقرأ مترسلاً غير مستعجل، مرتلاً مبين الحروف مع إعطاء كل حرف حقه. إذا مر بآية تسبيح سبَّح، وخص الركوع بالتعظيم والسجود بالأعلى، لأن الأعلى أبلغ في التعظيم، لأنه اسم تفضيل، والسجود أبلغ في التواضع لوضع الوجه على الأرض، فجعل الأبلغ للأبلغ.

وإذا مر بآية سؤال سأل، وإذا مر بآية تعوذ تعوذ. فجمع ﷺ بين القراءة، وبين الذكر، وبين الدعاء، وبين التفكير. وكما أطل في الوقوف أطل في الركوع والسجود.

وفي الحديث: فضل تطويل صلاة الليل، وقد مدح الله أهل قيام الليل في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [١٦] فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ [السجدة: ١٧-١٨].

وأسوتهم وقودتهم نبينا محمد ﷺ الذي اجتهد اجتهداً عظيماً في العبادة، ومجاهدة النفس في طاعة الله.

وقيام الليل منحة ربانية للصالحين من عباده، ذكر ذلك الحسن بقوله: «إن الرجل ليزن الذنب فيحرم به قيام الليل». ولهذا أورد المؤلف - رحمه الله - هذا الحديث في باب المجاهدة.

قال أبو سفيان الداراني: «من صَفَى صُفْيِي لَهُ، ومن كَدَّر كُدَّرَ عَلَيْهِ، ومن أَحْسَنَ فِي لَيْلَةٍ كُوفِيءَ فِي نَهَارِهِ، ومن أَوْسَرُ فِي نَهَارِهِ كُوفِيءَ فِي لَيْلِهِ». وقال بعض العلماء: «ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم من حلاوة المناجاة».

ويروى أن طاووساً - رحمه الله - جاء في السحر يطلب رجلاً، فقالوا: هو نائم، قال: «ما كنت أرى أن أحداً ينام في السحر».

وقد حافظ ﷺ على صلاة الليل، ولم يتركها لا سفراً ولا حضراً، وقام ﷺ وهو سيد ولد آدم، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر حتى تفتطرت قدماه، فقيل له: أما قد غُفِرَ لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً» [متفق عليه].

١٠٣ - التاسع: عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً، فَأَطَالَ الْقِيَامَ حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سَوْءٍ، قِيلَ: وَمَا هَمَمْتَ بِهِ؟ قَالَ: هَمَمْتُ أَنْ أَجْلِسَ وَأَدْعُهُ. [متفق عليه].

* في الحديث السابق ذكر حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - طول صلاة النبي وقيامه في الليل، وأنه قرأ في ركعة واحدة بسورة البقرة ثم النساء ثم آل عمران.

وفي هذا الحديث ذكر أحد الذين يخدمون رسول الله ﷺ، وصاحب وسادته وسواكه، وهو عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - ذكر طول صلاة النبي ﷺ، وأنه أطال القيام حتى عجز عنه عبد الله بن مسعود لأنه لا أحد يطيق ما كان عليه رسول الله ﷺ من الاجتهاد في الصلاة.

وقد سُئِلَ عبد الله بن مسعود: بماذا هممت؟ فقال: هممت أن أجلس من شدة التعب وأدعه. أي، وأنه لهذا الطول عزم على شيء وهو أن يخرج من الصلاة.

قال النووي - رحمه الله -: «فيه أنه ينبغي الأدب مع الأئمة والكبار بألا يخالفوا بقول ولا فعل ما لم يكن حراماً».

ومن الأسباب المعينة على قيام الليل، معرفة فضله، ومنزلة أهله عند الله، وما أعد لهم من السعادة في الدنيا والآخرة، وأن قيام الليل من أسباب دخول الجنة، ورفع الدرجات ومحو السيئات، ويكفي مدح الله - عز وجل - لأهل القيام في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ [السجدة: ١٦-١٧] ذكر - عز وجل - كيف قابل ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذي أخفاه لهم مما لا تعلمه نفس، وكيف قابل

قلقهم واضطرابهم على مضاجعهم حين يقومون إلى صلاة الليل بقرة الأعين في الجنة. وهذه لذة الخبر فكيف بلذة النظر.

كان منصور بن المعتمر يصلي في سطحه ويطيل الوقوف، فلما مات، قال غلام لأمه: يا أماه: الجذع الذي كان في سطح آل فلان ليس أراه؟ قالت: يا بني ليس ذلك بجذع، ذاك منصور قد مات.

قال ابن القيم: «لما عرف الموفقون قدر الحياة الدنيا وقلة المقام فيها أماتوا فيها الهوى طلباً لحياة الأبد، ولما استيقظوا من نوم الغفلة استرجعوا بالجد ما انتهبه، فقرب عليهم البعيد، وكلما أمرت لهم الحياة، حلي لهم تذكر: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].»

قال قتادة: «إن الملائكة تفرح بالشتاء للمؤمن، يقصر النهار فيصومه ويطول الليل فيقومه».

وقال إبراهيم بن أدهم: «أفضل الأعمال في الميزان أثقلها على الأبدان، ومن وفي العمل وفي له الأجر، ومن لم يعمل رحل من الدنيا إلى الآخرة بلا قليل ولا كثير».

وقال حاتم الأصم: «من خلا قلبه من ذكر أربعة أخطار فهو مغتر لا يأمن الشقاء:

الأول: خطر يوم الميثاق حين قال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي، فلا يعلم في أي الفريقين كان؟

الثاني: حين خلُق في ظلمات ثلاث، فنادى الملك بالشقاوة والسعادة، ولا يدري أمن الأشقياء هو أم من السعداء؟!

الثالث: ذكر هول المطالع، فلا يدري أي بشر برضا الله أم بسخطه.

الرابع: يوم يصدر الناس أشتاتاً، فلا يدري أي الطريقين يسلك به».

١٠٤- العاشر: عن أنس - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال: «يَتَّبِعُ المَيِّتَ ثَلَاثَةٌ: أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى وَاحِدٌ: يَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ» [متفق عليه].

* ذكر النبي ﷺ حال الناس عند موت قريب لهم، وأنهم يشيعونه إلى قبره. ويتبعه حين ذلك أقاربه ومن يعرفه ويوده، ويتبعه كذلك ماله من عييد وخدم وغير ذلك، ويتبعه إلى قبره عمله يسير معه. وحين يهال عليه التراب ويوارى الثرى، عندها يعود أهله وماله فقد انتهت مهمتهم، ويبقى عمله وما قدم لآخرته. وفي الحديث تذكر الآخرة، والحث على تحسين العمل الصالح ليكون أنيس المسلم في قبره.

قال ابن حجر: «قوله «يَتَّبِعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ» هذا يقع في الغالب، ورب ميت لا يتبعه إلا عمله فقط. والمراد من يتبع جنازته من أهله ورفقته ودوابه على ما جرت به عادة العرب، وإذا انقضى أمر الحزن عليه رجعوا، سواء أقاموا بعد الدفن أم لا». وقال ابن رجب: «وتفسير هذا أن ابن آدم في الدنيا لا بد له من أهل يعاشرهم، ومال يعيش به، فهذان صاحبان يفارقانه ويفارقهما، فالسعيد من اتخذ من ذلك ما يعينه على ذكر الله - تعالى -، وينفقه في الآخرة، فيأخذ من المال ما يبلغ به إلى الآخرة، ويتخذ زوجة صالحة تعينه على إيمانه، فأما من اتخذ أهلاً ومالاً يشغلونه عن الله - تعالى -، فهو خاسر، كما قال - تعالى - عن الأعراب ﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ [الفتح: ١١].»

وفي الحديث: «يَتَّبِعُ المَيِّتَ ثَلَاثَةٌ» وقد ذكرهم ﷺ بقوله: «أَهْلُهُ» فأهله لا ينفعه منهم بعد موته إلا من استغفر له، ودعاه كما قال ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أَوْ عِلْمٌ يَنْتَفِعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ» [رواه مسلم].

وأثر الأول في صلاحهم من حسن تربيته لولده ورعايته له، والوقف إذا كان قد أوقف في حياته، أو إن كان صاحب علم ينتفع به ويجرى له أجره بعد مماته، والثلاثة كلها من حسن عبادته واستفادته من حياته حيث سخر الله له هذه الثلاث بعد موته، وقد أعانه الله عليها في حياته.

«وماله» أي، بعض ما جمع من أموال الدنيا فترجع عنه ولا تدخل معه قبره، ورجوعه كناية عن عدم مصاحبته له في قبره ودخوله معه.

«وعمله» وهو الثالث الذي يتبعه ويدخل معه في قبره فيكون معه فيه، ويكون معه إذا بُعث، ويكون معه في مواقف القيامة، وعلى الصراط وعند الميزان.

قيل في تفسير قوله تعالى ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسٍ يَمُهْدُونَ﴾ [الروم: ٤٤] أي، يمهدون لأنفسهم في القبر، فالعمل الصالح يكون مهاداً لصاحبه في القبر، حيث لا يكون للعبد من متاع الدنيا فراش ولا وساد ولا مهاد، بل كل عامل يفترش عمله ويتوسده من خير أو شر، فالعاقل من عمر بيته الذي تطول إقامته فيه، ولو عمره بخراب بيته الذي يرتحل عنه قريباً لم يكن مغبوناً بل كان رابحاً.

جاء في (حلية الأولياء) أن عبيد بن عمير قال: «كان لرجل ثلاثة أخلاء بعضهم أخص له من بعض، فنزلت به نازلة، فلقي أخص الثلاثة به، فقال: يا فلان إنه نزل بي كذا وكذا، وإني أحب أن تعينني، قال: ما أنا بالذي أفعل، فانطلق إلى الذي يليه في الخاصة، فقال: يا فلان، إنه قد نزل بي كذا وكذا، وأنا أحب أن تعينني، قال: فانطلق معك حتى تبلغ المكان الذي تريد، فإذا بلغت رجعت وتركتك، قال: فانطلق إلى أبعد الثلاثة، فقال: يا فلان، قد نزل بي كذا وكذا فأنا أحب أن تعينني، قال: أنا أذهب معك حيث ذهبت، وأدخل معك حيث دخلت، قال: فالأول: ماله، خلفه في أهله ولم يتبعه منه شيء، والثاني: أهله وعشيرته ذهبوا معه إلى قبره، ثم رجعوا وتركوه، والثالث: هو عمله وهو حيثما ذهب، ويدخل معه حيثما دخل».

١٠٥ - الحادي عشر: عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك» [رواه البخاري].

* في الحديث ترغيب وترهيب، وحث على السير في طريق الطاعة والعبادة، فإن من عمل عملاً صالحاً تكون الجنة قريبة منه، ومن عمل سوء تكون النار قريبة منه.

وشراك النعل: هو السَّيْر الذي يكون على ظهر القدم، ضرب به المثل لقربه. وفي الحديث أن الطاعة موصلة إلى الجنة، وأن المعصية مقربة إلى النار، وأنهما قد يكونان في أيسر الأشياء. وإن تحصيل الجنة سهل بتصحيح القصد وفعل الطاعة، والنار كذلك بموافقة الهوى وفعل المعصية.

وفي الحديث: مخالفة الهوى طريق إلى الجنة، وموافقة الهوى في المعاصي يفضي إلى النار، وليس بين الإنسان والجنة والنار إلا أن يموت على فعل ما يستوجب أحدهما.

قال ابن حجر: «فينبغي للمرء أن لا يزهد في قليل من الخير أن يأتيه، ولا في قليل من الشر أن يجتنبه، فإنه لا يعلم الحسنه التي يرحمه الله بها، ولا السيئة التي يسخط عليه بها».

وقال ابن القيم: «لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بالنظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بد، ودوامها وبقائها وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات».

وقال العلاء بن زياد: «لئنزل أحدكم نفسه أنه حضره الموت وأنه استقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله».

وطرق الجنة كثيرة ومتنوعة، وكلها سهلة ميسرة على من يسرها الله - تعالى - عليه، كما قال تعالى ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨]. قال السعدي: «وهذا شامل عام للخير والشر كله، لأنه إذا رأى مثقال الذرة - التي هي أحقر الأشياء - وجوزي عليها، فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى، وهذه الآية فيها غاية الترغيب في فعل الخير ولو قليلاً، والترهيب من فعل الشر ولو حقيراً»

قال عروة بن الزبير عن عائشة - رضي الله عنها -: «لقد رأيت عائشة تقسم سبعين ألفاً وهي ترقع درعها»

وها هو مسكين يأتي إليها - رضي الله عنها - وبين يديها عنب، فقالت لإنسان: خذ حبة فأعطه إياها. فجعل ينظر إليها وتعجب، فقالت - رضي الله عنها -: أتعجب، كم ترى في هذه الحبة من مثقال ذرة؟ ثم قرأت ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾.

جاء في «حلية الأولياء» أن مورك العجلي قال: «ما وجدت للمؤمن مثلاً إلا مثل رجل في البحر على خشبة فهو يدعو: يا رب، يا رب، لعل الله - عز وجل - أن ينجيه».

وقال أبو إسحاق القرشي: «كتب إليّ أخي من مكة: يا أخي. إن كنت تصدقت بما مضى من عمرك على الدنيا، وهو الأكثر، فتصدق بما بقي من عمرك على الآخرة وهو الأقل».

وفي الحديث: الترغيب في الأعمال الصالحة، والترهيب من الأعمال الباطلة.

وفيه: عدم احتقار الأعمال الصغيرة فقد تكون سبباً لدخوله الجنة.

١٠٦ - الثاني عشر: عن أبي فراس ربيعة بن كعب الأسلمي خادم رسول الله ﷺ ومن أهل الصفة - رضي الله عنه - قال: كُنْتُ أبيتُ مع رسول الله ﷺ، فَاتِيهِ بَوْضُوئِهِ، وَحَاجَتُهُ فَقَالَ: «سَلْنِي» فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. فَقَالَ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟» قُلْتُ: هُوَ ذَلِكَ. قَالَ: «فَاعْنِي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ» [رواه مسلم].

* راوي الحديث هو ربيعة بن كعب الأسلمي، وكان خادماً للرسول ﷺ، ومن أهل الصفة، وكان يأتي النبي ﷺ بوضوءه وحاجته، وكان من كرم النبي ﷺ أن يسأل من يخدمه حاجته، ابتداءً.

فقال لربيعة: «سَلْنِي» وهذا من مكارم الأخلاق أن تكافئ من أسدى إليك معروفًا، فإن لم تجد فقل له: جزاك الله خيراً، فمن فعل فقد أبلغ في الشاء والجزاء.

فكانت همة ربيعة أعلى من أمور الدنيا وزينتها، قد خالط قلبه محبة النبي ﷺ واستأنس بقربه ومرافقته في الدنيا.

فأجاب: (أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ) إذ علم أن اجتماع الدنيا مرجعه إلى الفراق فقال ﷺ لمزيد تأكيد وإيضاح:

«أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ» أتى رسول الله ﷺ بلفظ «ذَلِكَ» للمشار إليه البعيد، لينتهي السائل عنه امتحاناً منه. فقال ربيعة: هو ذاك الذي أطمع فيه وأرجوه.

فلما علم النبي ﷺ أنه مصمم على عزمه غير مستبعد ذاك أجاب بقوله: «أَعْنِي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ» فإنه لا مطمع في ذلك، إلا بحصول الزلفى عند الله في الدنيا بكثرة السجود، وفي هذا فضل الصلاة وعظم منزلتها، وخص النبي ﷺ السجود، لأنه أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد، فمن أراد الجنة والقرب من الرسول ﷺ فعليه بهذه الوصية العظيمة.

قال النووي: «فيه الحث على كثرة السجود والترغيب، والمراد به السجود في الصلاة».

وفي الحديث دليل على أن الجنة إنما تنال بمجاهدة النفس في الطاعة ومجاهدتها في البعد عن الهوى.

قال ابن بطال: «في الحديث أن الطاعة موصلة إلى الجنة، وأن المعصية مقربة إلى النار، وأنهما قد يكونان في أيسر الأشياء».

قال ابن عثيمين - رحمه الله -: «وفي السجود فائدتان عظيمتان: الأولى: أن الله يرفعه بها درجة، يعني منزلة عنده وفي قلوب الناس، وكذلك في عملك الصالح، يرفع الله به درجة.

والفائدة الثانية: يحط عنك بها خطيئة، والإنسان يحصل له الكمال بزوال ما يكرهه، وحصول ما يُحب، فرفع الدرجات مما يحبه الإنسان، والخطايا مما يكره الإنسان، فإذا رفع له درجة وحط عنه بها خطيئة، فقد حصل على مطلوبه، ونجا من مرهوبه».

قال ابن حجر: «فمن كثر سجوده حصلت له تلك الدرجة العلية التي لا مطمع في الوصول إليها إلا بمزيد الزلفى عند الله في الدنيا بكثرة السجود المومناً إليه بقول تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩] فكل سجدة فيها قرب مخصوص لتكفلها بالرقى إلى درجة من درجات القرب، وهكذا حتى ينتهي إلى درجة المرافقة لحبيبه ﷺ».

وقد جاء في الأحاديث ما يبين فضل الإكثار من الصلوات، ومن ذلك السنن الرواتب، وهي: ركعتان قبل صلاة الفجر، وأربع ركعات قبل الظهر واثنان بعدها، واثنان بعد المغرب، واثنان بعد العشاء، فعن أم حبيبة - رضي الله عنها - قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من صلى اثنتي عشرة ركعة في يوم وليلة بُني له بهن بيت في الجنة**» قالت أم حبيبة: فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ» [رواه مسلم].

وكذلك صلاة الضحى وأقلها اثنتان وأكثرها ثمان ركعات، وكذلك قيام الليل وغيرها.

١٠٧ - الثالث عشر: عن أبي عبد الله ويُقال: أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ ثَوْبَانِ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَسْجُدَ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَكَ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةٌ» [رواه مسلم].

* في هذا الحديث دليل على أن النوافل والطاعات مما يذهب السيئات، وفي تخصيص السجود برفع الدرجات وحط السيئات، دليل على أهمية الصلاة في الإسلام فرضاً كانت أو نافلة.

وفي قوله ﷺ «عليك بكثرة السجود» وصية عظيمة للمحافظة على هذه العبادة العظيمة. فإن الله يرفع بالسجدة درجة ويحط بها خطيئة. قال النووي: «فيه الحث على كثرة السجود والترغيب فيه، والمراد به السجود في الصلاة».

وقال - رحمه الله -: «السجود غاية التواضع والعبودية لله - تعالى -، وفيه تمكين أعز أعضاء الإنسان وأعلاها وهو وجهه من التراب الذي يداس ويمتهن». وفي الحديث أنه ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثرُوا الدعاء» [رواه أحمد].

وكلما كانت السجدة ذات خشوع وخضوع وانكسار بين يدي الله، كانت أعظم أجراً، وأكثر قرباً من الله - عز وجل -، ومن تحقيق مرافقة النبي ﷺ في الجنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إذا كانت إحدى السجدين أفضل من الأخرى كان ما يرفع به من الدرجات أعظم، وما يحط به من الخطايا أعظم، كما أن السجدة التي يكون فيها أعظم خشوعاً وحضوراً هي أفضل من غيرها، فكذلك السجدة الطويلة التي قنت فيها لربه هي أفضل من القصيرة».

وكان السلف - رحمهم الله - يطيلون في السجود، فهذا العنبر بن عقبة كان يسجد حتى تقع العصافير على ظهره، فكانه جذم حائط.

وهذا أبو بكر بن عياش يقول: «رأيت حبيب بن أبي ثابت ساجداً، فلو رأيته قلت ميت، يعني من طول السجود».

وقال وهب بن منبه: «رأيت الثوري في الحرم بعد المغرب، صلى، ثم سجد سجدة، فلم يرفع حتى نودي بالعشاء».

وأذكار السجود كما وردت: «سبحان ربي الأعلى» «سبح قدوس رب الملائكة والروح» [رواه مسلم] «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي» وكان يكثر منه في الركوع والسجود [رواه البخاري ومسلم]. «اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين» [رواه مسلم]. «اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، وأوله وآخره وعلانيته وسره» [رواه مسلم] «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» [رواه مسلم].

وينوع المصلي بينها مرة هذا ومرة هذا، ولهذا فوائد:

الأول: المحافظة على السنة كما كان ﷺ يفعل.

الثاني: اتباع السنة.

الثالث: حضور القلب.

قال ابن تيمية: «ما فعله النبي ﷺ من أنواع متنوعة وإن قيل إن بعض تلك الأنواع أفضل، فلاقتداء بالنبي ﷺ في أن يفعل هذا تارة وهذا تارة أفضل من لزوم أحد الأمرين وهجر الآخر».

وقال ابن عثيمين: «العبادات الواردة على وجوه متنوعة الأفضل فيها فعلها على هذه الوجوه».

وفي الحديث: الحث على كثرة السجود، وأنها ترفع الدرجات، وتحط الخطيئات.

١٠٨ - الرابع عشر: عن أبي صفوان عبد الله بن بسر الأسلمي، - رضي الله عنه -، قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ مَنْ طَالَ عَمْرُهُ وَحَسَنَ عَمَلُهُ» [رواه الترمذي وقال حديث حسن].

بُسر: بضم الباء وبالسین المهملة.

* الإنسان في هذه الدنيا رأس ماله عمره وساعات حياته، فإن الدنيا مزرعة الآخرة، وهي مكان وموطن التكليف، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وكلما طال عمر المسلم في طاعة الله ومراضاته، زاد قرباً إلى الله وزاد رفعة في الآخرة.

وأعمار بني الإنسان وآجالهم بيد الله عز وجل: ﴿لَا يَسْتَأْذِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] وأما حسن العمل فإن الإنسان مأمور بذلك بتعلم العلم حتى يعبد الله على بصيرة، وبمجالسة الصالحين، وبالمحافظة على الأوقات الفاضلة كأيام عشر ذي الحجة وليلة القدر وغيرها.

وطول عمر العبد في طاعة الله وسلوك سبيله فضيلة.

وفي قوله ﷺ: «خير الناس» أي، أفضلهم.

«من طال عمره وحسن عمله» فاكسب في طول الأيام ما يقربه إلى مولاه ويوصله إلى رضاه، وحسن العمل، الإتيان به مستوفياً للشروط والأركان والمكملات.

والأوقات والساعات كرأس المال للتاجر، فينبغي أن يتجر فيما يربح فيه، وكلما كان رأس المال كثيراً كان الربح أكثر، وهكذا عمر الإنسان.

قال ابن القيم: «السنة شجرة، والشهور فروعها، والأيام أغصانها، والساعات أوراقها، والأنفاس ثمرها، فمن كانت أنفاسه في طاعة الله فثمرته شجرة طيبة، ومن كانت في معصية فثمرته حنظل».

قال الحسن: «أدركت أقواماً كانوا على أوقاتهم أشد منكم حرصاً على دراهمكم ودنانيركم».

وكان السلف يحرصون على استمرار أعمالهم حتى بعد الموت ومن ذلك نشر العلم وتعليمه، والوقف وغيرها من الأعمال الصالحة.

قال ابن الجوزي بعدما ذكر أصنافاً من الناس يضيعون أوقاتهم بما لا ينفع، قال: «فعلمت أن الله - تعالى - لم يُطلع على شرف العمر ومعرفة قدر أوقاته إلا من وفقه وألهمه اغتنام ذلك».

وفي الحديث: أن النبي ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» [رواه مسلم].

وفي الحديث الآخر أنه ﷺ قال: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علماً علمه ونشره، أو ولداً صالحاً تركه، أو مصحفاً ورثه، أو مسجداً بناه أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته يلحقه بعد موته» [ابن ماجه].

ومثلها صلة الرحم، قال ﷺ: «من أحب أن يبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه» [رواه البخاري] وكذلك الدعاء بطول العمر وحسن العمل.

ومثلها حسن الخلق، قال ﷺ: «وصلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار» [رواه الهيثمي].

ومثل ذلك المحافظة على الأيام والأوقات الفاضلة التي تضاعف فيها الحسنات ويزاد الثواب، كيوم الجمعة، وليلة القدر، والعشر الأواخر من رمضان، والصلاة في المسجد الحرام والمسجد النبوي وغير ذلك.

وفي الحديث: الحث على العمل الصالح، والاستفادة من طول العمر في الخير والطاعة.

١٠٩ - الخامس عشر: عن أنس - رضي الله عنه -، قال: غاب عمِّي أنسُ بنُ النَّضْرِ - رضي الله عنه -، عن قتالِ بدرٍ، فقال: يا رسولَ الله غِبْتَ عن أوَّلِ قتالٍ قَاتَلَتِ الْمُشْرِكِينَ، لئنَ اللهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيُرِينَ اللهُ مَا أَصْنَعُ، فلما كَانَ يومُ أحدٍ انْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ فقال: اللَّهُمَّ اعْتَدِرْ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ يَعْنِي أَصْحَابَهُ وَأَبْرَأَ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذِ الْجَنَّةِ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أَحَدٍ. قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَا صَنَعَ، قَالَ أَنَسُ: فَوَجَدْنَا بِهِ بَضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ، أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ، أَوْ رَمِيَّةً بِسَهْمٍ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَمِثْلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتَهُ بِنَانَهُ. قَالَ أَنَسُ: كُنَّا نَرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] إِلَى آخِرِهَا. [متفقٌ عليه].

قوله: لَيُرِينَ اللهُ رَوَى بضم الياء وكسر الراءِ، أي لَيُظْهِرَنَّ اللهُ ذَلِكَ لِلنَّاسِ، وَرَوَى بفتحهما، ومعناه ظاهر، والله أعلم.

* الجهاد في سبيل الله من أعظم القربات وأجل الطاعات، وكان الصحابة - رضي الله عنهم - يتسابقون إلى رفع راية هذا الدين والذود عنه، والدعوة إليه. وفي الحديث: بيان رغبة أنس بن النضر - رضي الله عنه - في الجهاد وحبه له، خاصة أنه لم يدرك غزوة بدر، لأن النبي ﷺ أخرج إليها الخفاف من الناس، لأنه يريد غير قريش، وقد تخلف عنها كثير من الصحابة.

فلما حانت وقعة أحد وانكشف المسلمون لما نزل الرماة عن الجبل، وكرَّ عليهم فرسان قريش، في هذه اللحظات الحرجة، كان أنس بن النضر يسير في المعركة واستقبله سعد بن معاذ، فقال له: الجنة ورب الكعبة، إني أجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أَحَدٍ. لأنه يعلم أن الجنة تكتسب في هذا الموضع فاشتاق إليها، وهذا منه - رضي الله عنه - كمال إيمان وشدة يقين بوعد الله للمجاهدين.

فكان ممن قاتل بشجاعة حتى وُجد فيه بضع وثمانون، ما بين ضربة بسيف، أو برمح، أو بسهم، حتى أنه تمزق جلده، فلم يعرفه أحد إلا أخته عرفته ببنانه **(أي إصبغه)** - رضي الله عنه -.

قال ابن عبد ربه: «رجال الأنصار أشجع الناس». وقال عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -: «ما استُلت السيوف، ولا زحفت الزحوف، ولا أقيمت الصفوف، حتى أسلم بني قيلة - يعني الأوس والخزرج - وهم الأنصار من بني عمرو بن عامر من الأزد». وقال قتادة: «ما نعلم حيًّا من أحياء العرب أكثر شهيداً، أعز يوم القيامة من الأنصار».

قال قتادة: وحدثنا أنس بن مالك أنه قُتل منهم يوم أحد سبعون، ويوم بدر معونة سبعون، ويوم اليمامة سبعون، قال: وكان بدر معونة على عهد رسول الله ﷺ، ويوم اليمامة على عهد أبي بكر يوم مسيلمة الكذاب.

قال الزبير بن العوام - رضي الله عنه -: «نحن أمة لا نموت إلا قتلى، فمالى أرى الفرش كثر عليها الأموات».

وقد ذكر بعض العلماء: «إن أكثر من ثمانين بالمائة من الصحابة - رضوان الله عليهم - قضوا نحبتهم في ميادين الجهاد والطعن والنزال». وعن علي بن زيد: «أخبرني من رأى الزبير، وفي صدره أمثال العيون من الطعن والرمي».

وقد جاء في فضل الشهيد قوله ﷺ: **«يُعطى الشهيد ست خصال: يغفر له بأول قطرة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويكسى حلة الإيمان، ويزوج ثنتين وسبعين من الحور العين، ويوقى فتنة القبر، ويؤمن من الفزع الأكبر»** [رواه أهل السنن].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال، قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، أراه فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة» [رواه البخاري].

وفي الحديث: فضل الصحابة، ومسابقتهم للجهاد في سبيل الله. وفيه؛ الحث على بلوغ الشهادة والحرص عليها.

١١٠ - السادس عشر: عن أبي مسعود عُقْبَةَ بن عمرو الأنصاريِّ البصريِّ - رضي الله عنه - قال: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ كُنَّا نُحَامِلُ عَلَى ظُهُورِنَا. فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ فَقَالُوا: مُرَاءٍ، وَجَاءَ رَجُلٌ آخَرُ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ فَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَاعٍ هَذَا، فَنَزَلَتْ ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة ٧٩] الآية. [متفق عليه].

* كان الصحابة - رضي الله عنهم - يتسابقون إلى فعل الخير ويسارعون إليه، ولما نزل قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣] سارعوا إلى البذل والعطاء، فجاء عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - فتصدق بشيء كثير، قيل ثمانية آلاف درهم أو أربعة آلاف درهم، وقيل: أربعون أوقية من ذهب، وكان - رضي الله عنه - رجلاً موسراً فتح الله عليه أبواب الرزق فكان من أكثر الصحابة مالاً.

وجاء رجل، هو أبو عقيل استجابة للآية، ورغبة في الخير بشيء زهيد، قيل صاع واحد، وكان تحصيله له بأن أجر نفسه على النزع من البئر بالحبل بصاعين من تمر، فذهب بصاع لأهله، وتصدق بالآخر، وهذا كل ما يجد.

وكان المنافقون يرون الحال ولا يسرهم ذلك، فقالوا لمن أتى بالمال الكثير أنه يرائي الناس، وقالوا لمن أتى بالصاع، إن الله لغني عن صاع هذا.

فأنزل الله - عز وجل - يحكي الحال ويدافع عن المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾.

وفي الحديث: أن العبد يتقرب إلى الله بجهده وطاقته، وحسب قدرته واستطاعته، ولا يحقرن من المعروف شيئاً حتى وإن كان قليلاً، فهو

بالإخلاص عند الله كثيرا. ولا يلتفت إلى المخذلين ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ

النَّاسَ بِالْبَخْلِ﴾ [النساء: ٣٧].

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «سبق درهم مائة ألف درهم». قالوا: وكيف؟

قال: «كان لرجل درهماان تصدق بأحدهما، وانطلق رجل إلى عرض ماله،

فأخذ منه مائة ألف درهم فتصدق بها» [رواه النسائي].

فالأول تصدق بدرهم هو نصف ما يملك، والآخر ذو غنى ويسار وسعة في المال، فأخذ من ماله مائة ألف درهم فتصدق بها. فسبق الأول الثاني.

وفي الحديث الآخر، بيان فضل الله وكرمه على عباده، قال ﷺ «إن الإنسان إذا تصدق بعدل تمرة» أي، بما يعادلها «من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - فإن الله - تعالى - يأخذها بيمينه فيربّيها كما يربّي أحدكم فلهو حتى تكون مثل الجبل».

قال النووي: «فيه التحريض على الاعتناء بالصدقة، وأنه إذا لم يكن له مال، يتوصل إلى تحصيل ما يتصدق به، من يحمل بالأجرة، أو غير ذلك من الأسباب المباحة».

وقد ذكر ابن القيم - رحمه الله - عن حال رسول الله ﷺ: «كان ﷺ أعظم الناس صدقة بما ملكت يده، وكان لا يستكثر شيئا أعطاه الله - تعالى - ولا يستقله، وكان لا يسأل أحد شيئا عنده، إلا أعطاه قليلا كان أو كثيرا، وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر، وكان العطاء والصدقة أحب شيء إليه، وكان سروره وفرحه بما يعطيه أكثر من سرور الأخذ، وكان أجود الناس بالخير بيمينه كالريح المرسلة».

وفي الحديث: الحث على الصدقة، وقد أورده المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب المجاهدة.

١١١- السابع عشر: عن سعيد بن عبد العزيز، عن ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر جندب بن جنادة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فيما يروى عن الله - تبارك وتعالى - أنه قال: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالُمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعَمُونِي أَطْعَمَكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتْكُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتْكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتْكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفِيكُمْ أَيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمِدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ». قَالَ سَعِيدٌ: كَانَ أَبُو إِدْرِيسَ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ جَثًّا عَلَى رُكْبَتَيْهِ.

[رواه مسلم]. وروينا عن الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - قال: ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث.

* شرف الله - عز وجل - أهل الإيمان وأعلى ذكرهم بأن نسبهم إلى نفسه بقوله «يَا عِبَادِي»، ونزه - تعالى - نفسه عن الظلم وحرمة بين عباده، وبين - تعالى - أن جميع الخلق مفتقرون إليه - سبحانه - في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، وفي جميع أمور دينهم ودنياهم.

وقد جمع الحديث بين حاجات البدن الطعام والشراب والكسوة، وبين غذاء الروح بالهداية والصلاح والرشاد ولزوم الطريق المستقيم. وذكر الحديث حال العباد وأنهم يخطئون بالليل والنهار، والله - عز وجل - يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب واستقام.

وهذه النداءات من الجواد الكريم لمصلحة العباد، فإنه لو اجتمع الجن والإنس على أمر ما استطاعوا العزة الرب وقدرته. وفيه التنبيه على محاسبة النفس، وتفقد الأعمال والندم على الذنوب.

وهذا الحديث القدسي من الأحاديث التي عليها مدار الدين. فقد اشتمل على كثير من قواعد الدين وأصوله، فنص على تحريم الظلم.

والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، والله - عز وجل - نزه نفسه عن الظلم فهو لا يظلم أحد، لا بزيادة سيئات لم يعملها، ولا بنقص حسنات عملها. بل هو حكم عدل محسن لعباده. فالحسنة عنده بعشر أمثالها إلى أضعاف كثيرة. قال النووي: «الظلم مستحيل منه - سبحانه -، لأنه تصرف في ملك الغير، والعالم كله ملكه وسلطانه، أو مجاوزة الحد، وليس فوقه من يطيعه».

وحرّم - عز وجل - الظلم بين العباد، ويكون في ثلاثة أشياء: الدماء، والأموال، والأعراض.

والظلم نوعان: ظلم العبد لنفسه، وأعظمه الشرك بالله - عز وجل - والنوع الثاني: ظلم الإنسان لغيره بأخذ حقه، أو الاعتداء عليه في بدنه، أو ماله أو عرضه، أو نحو ذلك.

وفي الحديث: افتقار الخلق إلى الله، وأن الله غني عن خلقه، وأن خزائنه لا تنفذ. وفيه مشروعية اللجأ إلى الله بالدعاء والتضرع في كل حين، فالهداية بيده - جل وعلا - والرزق كذلك.

١٢ - بَابُ الْحَثِّ عَلَى الْإِزْدِيَادِ مِنَ الْخَيْرِ فِي أَوَاخِرِ الْعُمُرِ

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧].

قال ابن عباس والمحققون: معناه: أولم نعمركم ستين سنة، ويؤيده الحديث الذي سنذكره إن شاء الله - تعالى - . وقيل معناه: ثماني عشرة سنة. وقيل: أربعين سنة. ونقلوا أن أهل المدينة كانوا إذا بلغ أحدهم أربعين سنة تفرغ للعبادة. وقيل هو: البلوغ. وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ قال ابن عباس والجمهور: هو النبي ﷺ. وقيل: الشيب.

ذكر الله - عز وجل - في الآية توبيخاً لمن طال عمره لأنه أولى بالاحتراز لنفسه، وأحق بالتذكير لقرب الموت، والإنسان لا يعلم متى يفجأه الموت فقد مات الصغار والشباب، وحرى بمن طال عمره أن يحمد الله على هذا العمر، ويستدرك ما فات بالتوبة النصوح والعمل الصالح وكثرة الذكر. والمدار على آخر العمر والخاتمة الحسنة.

قال قتادة: «اعلموا أن طول العمر حجة، فنعوذ بالله أن نغتر بطول العمر، قد نزلت هذه الآية وإنَّ فيهم لابن ثماني عشرة سنة».

وكان من دعائه ﷺ «اللهم اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه». وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. قال النووي: «وهذا تصريح بأنهم خلقوا للعبادة، فحق عليهم الاعتناء بما خلقوا له، والإعراض عن حظوظ الدنيا بالزهادة، فإنها دار نفاد لا محل لإخلاد، ومركب عبور لا منزل حبور، ومشرع انفصام لا موطن دوام».

قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝﴾.

وقد أقسم الله - عز وجل - بالعصر وهو الوقت، لما فيه من الآيات العظام، والحوادث الجسام، والحكم والعظات لأولى النهى والأحلام ولأنه زمن تحصيل الأعمال الصالحة والتجارة الربحة لأهل الطاعة والإيمان، وزمن الشقاوة والخسران لأهل الكفر والعصيان.

والمسلم يغتنم ساعات العمر ولحظاته فإنه لا يعلم متى يفجأه الموت، وتطوى صحيفته من الدنيا، وفي الحديث أنه قال ﷺ: **«خيركم من طال عمره وحسن عمله»**.

وقد نصح ابن القيم ابنه بقوله: «وأعلم يا بني أن الأيام تبسط ساعات، وأن الساعات تبسط أنفاساً، وكل نفس خزنة، فاحذر أن تذهب نفساً في غير شيء، فترى يوم القيامة خزنة فارغة، فتندم».

قال بعض السلف: «من علامة المقت إضاعة الوقت».

وقال عبد الله بن مسعود: «ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمس، نقص فيه أجلي، ولم يزد فيه عملي».

ومن وصية النبي ﷺ: **«إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»**.

وأفضل الأعمال كما قال ابن القيم: «العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته، فأفضل العبادات في وقت الجهاد، الجهاد، والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً القيام بحقه، والأفضل في وقت الأذان، ترك ما هو فيه من ورده والاشتغال بإجابة المؤذن، والأفضل في أوقات الصلوات الخمس، الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع..» حتى قال - رحمه الله -: «فالأفضل في كل وقت وحال إثارة مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت، ووظيفته ومقتضاه».

١١٢ - وأما الأحاديث فالأول: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «أعذر الله إلى امرئ آخر أجله حتى بلغ ستين سنة» [رواه البخاري].
قال العلماء معناه: لم يترك له عُذراً إذ أمهله هذه المدة. يُقال: أعذر الرجل إذا بلغ الغاية في العذر.

* الأعمال بالخواتيم وعمر الإنسان قصير، كما قال ﷺ: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وقل منهم من يجوز ذلك» [رواه الترمذي].
ولهذا كان من الدعاء المأثور: «اللهم اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه» وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة» [رواه أبوداود].

قال قتادة: «اعلموا أن طول العمر حجة، فنعوذ بالله أن نغير بطول العمر». وجاء في هذا الحديث قوله ﷺ:

«اعذر الله إلى امرئ آخر أجله حتى بلغ الستين سنة»:

قال المناوي: «أعذر الله إلى امرئ» أي: اسلب عذر ذلك الإنسان فلم يبق له عذر يعتذر به، كأن يقول: لو مد لي في الأجل لفعلت ما أمرت به. فلا ينبغي له حينئذ إلا الاستغفار والطاعة والإقبال على الآخرة بالكلية، ولا يكون له على الله بعد ذلك حجة.

قال ابن بطال: «إنما كانت الستون حداً لهذا لأنها قريبة من المعترك. وهي سن الإنابة والخشوع وترقب المنية، فهذا إعذار بعد إعذار لطفاً من الله بعباده حتى من حالة الجهل إلى حالة العلم، ثم أعذر إليهم فلم يعاقبهم إلا بعد الحجب الواضحة، وإن كانوا فطروا على حب الدنيا وطول الأمل، لكنهم أمروا بمجاهدة النفس في ذلك ليمثلوا ما أمروا به من الطاعة، وينزجروا عما نهوا عنه من المعصية، وفي الحديث إشارة إلى أن استكمال الستين مظنة لإنقضاء الأجل».

قال ابن مالك: «أدركت أهل العلم ببلدنا وهم يطلبون الدنيا والعلم ويخالطون الناس حتى إذا بلغوا أربعين سنة تركوا المخالطة واشتغلوا بالعبادة حتى يأتهم الموت».

ونقل عن بعض السلف: «كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة، طوى فراشه، أي، لا ينام طول الليل».

وقال آخر: «كان الرجل من أهل المدينة إذا رأى الشيب في لحيته ورأسه، ترك الدنيا وتفرغ للعبادة».

وسأل الفضيل بن عياش رجلاً فقال له: «كم أتت عليك؟ قال: ستون سنة. قال: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك، يوشك أن تبلغ، فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون».

فقال الفضيل: أتعرف تفسيره، تقول - إنا لله وإنا إليه راجعون - فمن عرف أنه لله عبد، إليه راجع، فليعلم أنه موقوف، ومن علم أنه موقوف، فليعلم أن مسئول، ومن علم أنه مسئول، فليعد للسؤال جواباً.

قال الرجل: فما الحيلة؟ قال: يسيرة.

قال: ما هي؟

قال: تحسن فيما بقي يغفر لك ما مضى، فإنك إن أسأت فيما بقي أخذت بما مضى وما بقي».

وفي الحديث: الحث على التزود من الطاعات والحذر من الغفلة وطول الأمل.

١١٣ - الثاني: عن ابن عباس، - رضي الله عنهما -، قال: كان عمر - رضي الله عنه - يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاحِ بَدْرٍ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ فَقَالَ: لِمَ يَدْخُلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءُ مِثْلِهِ؟ فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ عَلِمْتُمْ، فَدَعَانِي ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَنِي مَعَهُمْ، فَمَا رَأَيْتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] فقال بعضهم: أَمَرْنَا نَحْمَدُ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نَصَرْنَا وَفَتَحَ عَلَيْنَا. وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا فَقَالَ لِي: أَكَذَلِكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ فَقُلْتُ: لَا. قَالَ فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَعْلَمَهُ لَهُ قَالَ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] وذلك علامة أَجَلِكَ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [الفتح: ٣] فقال عمر - رضي الله عنه -: مَا أَعْلَمَ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ. [رواه البخاري].

* كان عمر - رضي الله عنه - يستشير الصحابة إذا أشكل عليه أمر، امتثالاً لأمر الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وكان أهل مشورته كبار السن ذوي العلم والرأي، وربما أدخل مع أهل مشورته من كانت له نباهة ظاهرة حتى وإن كان صغيراً في السن، ومن ذلك ما جرى مع عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -، فقد استشاه عمر - رضي الله عنه -.. ولعل هذا التميز لعبد الله بن عباس جعل البعض يجد في نفسه حيث أن لهم أبناء في مثل سنه، فأراد أن يزيل ما في نفوسهم وليريهم - رضي الله عنه - أنه أدخل ابن عباس لعلمه وفقهه، فجمعهم يوماً وسألهم عن قوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] فقال بعضهم: أَمَرْنَا نَحْمَدُ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نَصَرْنَا وفتح الله علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً.

وسأل ابن عباس عن السورة، فقال: هو أجل رسول الله ﷺ، يعنى علامة قرب أجله، يعنى إذا فتح الله لك مكة فإن ذلك علامة قرب أجلك.
فقال عمر: ما أعلم فيها إلا ما علمت. فظهر لهم فضل وعلم ابن عباس.
﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

الجمع بين التسبيح والحمد، جمع بين إثبات الكمال لله ونفي النقائص عنه - سبحانه -.

وفي السورة دلالة على تمام الدعوة وكمال أمر الدين.
وفي الآية الكريمة الحث على طلب الاستغفار خاصة عند كبر السن وطول العمر.

وقد نزلت هذه السورة في حجة الوداع، وقد عاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية قريباً من ثمانين يوماً، ثم توفى ﷺ.

ومن أذكار الركوع والسجود «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» [رواه البخاري] وقد جمع فيه بين الذكر والدعاء، وكان ﷺ يكثر أن يقوله في ركوعه وسجوده بعد نزول هذه السورة.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ صيغة مبالغة لكثرة من يتوب، فيتوب الله عليه. أي، تواب على العباد: يتوب على المسبحين والمستغفرين ويقبل توبتهم.

وفي الحديث: فضيلة ظاهرة لابن عباس وتأثير لإجابة دعوة النبي ﷺ: أن يعلمه الله التأويل ويفقهه في الدين.

وفي الحديث: الحث على الشكر عند مزيد النعم.

١١٤ - الثالث: عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: ما صَلَّى رسولُ الله ﷺ صلاةً بعد أن نزلتْ عليه ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلا يقول فيها: «سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» [متفقٌ عليه].

وفي رواية الصحيحين عنها: كان رسول الله ﷺ يُكثِر أن يقول في ركوعه وسُجودِه: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» يتأول القرآن. معنى: يتأول القرآن أي: يعمل ما أمر به في القرآن في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾.

وفي رواية لمسلم: كان رسول الله ﷺ يُكثِر أن يقول قبل أن يموت: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ». قالت عائشة: قلت: يا رسول الله ما هذه الكلمات التي أراك أحدثتها تقولها؟ قال: «جُعِلَتْ لِي علامة في أمِّي إذا رأيْتُها قُلْتُهَا ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾» إلى آخر السورة.

وفي رواية له: كان رسول الله ﷺ يُكثِر من قول: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ. أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ». قالت: قلت: يا رسول الله، أراك تُكثِر من قول: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ؟ فقال: «أخبرني ربي أنني سَأَرَى علامة في أمِّي فإذا رأيْتُها أَكْثَرْتُ من قول: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ: فَقَدْ رَأَيْتُهَا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾» فَتَحَ مَكَّةَ، ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿١﴾».

* كان ديدن نبينا ﷺ وعادته الإكثار من العبادة في كل الأوقات، وقد ذكرت أحاديث صفة قيامه بالليل، وأنه يقرأ بالسور الطول في الركعة الواحدة. وفي هذا الحديث ذكر تسبيحه واستغفاره، وتعظيمه لله - عز وجل -.

فقد كان ﷺ يكثر الدعاء في السجود، لأن السجود من مظان إجابة الدعاء. في الحديث: «**فأما الركوع فعظموا الرب فيه، وأما السجود فأكثروا فيه من الدعاء**» فينبغي جمعاً بين الأحاديث أن يكون الغالب في السجود أدعية، وغالب ما يكون في الركوع أذكار وتعظيم وثناء لله - سبحانه وتعالى -.. ومعنى «**سبحانك اللهم**» تتضمن أصلاً عظيماً من أصول التوحيد، وركناً أساسياً من أركان الإيمان بالله - عز وجل -، وهو تنزيهه - سبحانه وتعالى - عن العيب والنقص والأوهام الفاسدة، والظنون الكاذبة. قال ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: «والأمر بتسبيحه يقتضى أيضاً تنزيهه عن كل عيب وسوء، وإثبات صفات الكمال له، فإن التسبيح يقتضي التنزيه والتعظيم. والتعظيم يستلزم إثبات المحامد التي يحمد عليها، فيقتضي ذلك تنزيهه وتحميده، وتكبيره وتوحيده».

وفي قوله ﷺ: «**اللهم اغفر لي**» مع كونه مغفوراً له، فهو من باب العبودية والإذعان والافتقار إلى الله.

ومن أذكار الركوع التي كان ﷺ يقولها: «**سبحان ربي العظيم**» «**سبح قدوس رب الملائكة والروح**» [رواه مسلم]. «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**». وكان يكثر منه في ركوعه وسجوده [رواه البخاري ومسلم].

«**اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي**» [رواه مسلم].

«**سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة**» قال هذا في صلاة الليل [رواه أبو داود].

وفي الحديث: بيان مواظبته ﷺ على التسبيح والتحميد والاستغفار في ركوعه وسجوده، وأشرف أوقاته وأحواله. وفيه خضوعه لربه وانطراحه بين يديه، ورؤية التقصير في مقام العبودية وحق الربوبية. وفيه: الحث من الإزدياد من الخير في أواخر العمر.

١١٥ - الرابع: عن أنس - رضي الله عنه - قال: إنَّ الله - عزَّ وجلَّ - تابعَ الوحيَ على رسول الله ﷺ قَبْلَ وَفَاتِهِ، حَتَّى تُوفِّيَ أَكْثَرَ مَا كَانَ الْوَحْيُ. [متفقٌ عليه].

* تحمل النبي ﷺ أعباء الرسالة وحملها الثقيل، وكان يجد المشقة في نزول الوحي عليه. عن عائشة - رضي الله عنها - أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله! كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً يكلمني، فأعي ما يقول».

وجاء في الصحيحين عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: «ولقد رأيته ﷺ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً».

وفي الصحيحين حديث زيد بن ثابت - رضي الله عنه - حين نزلت ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥]، فلما شكى ابن أم مكتوم ضرارته نزلت: ﴿غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ﴾.

قال: «وكانت فخذ رسول الله ﷺ على فخذي، وأنا أكتب، فلما نزل الوحي كادت فخذه ترض فخذي».

وكان الوحي يتوالى على النبي ﷺ بصور شتى:

إحدهما: الرؤيا الصادقة، وكان مبدأً وحيه ﷺ.

والثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه.

الثالثة: أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلاً فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقوله.

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشد عليه فيلتبس به

الملك، حتى أن جبينه ﷺ ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد.

الخامسة: أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحى به.

وقد تتابع الوحي وكثر عند وفاته ﷺ لتكَمُّل الشريعة وتتم، ولا يبقى مما يوحى إليه به شيء.

وكان من آخر ما نزل عليه ﷺ قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ومناسبة الحديث للباب: أن الوحي منه - سبحانه - إلى رسول الله ﷺ لم يكن إلا في أوقات غاية قُربه، وفي آخر عمره ﷺ توالى قُربه من ربه - سبحانه - وتتابع، فينبغي للموفق أن يجتهد في آخر عمره في العبادات، ليزداد قرباً من ربه.

وكان اجتهاده ﷺ في العبادات في العام الذي قبض فيه أكثر، كان جبريل - عليه السلام - يُعارضه القرآن في كل رمضان مرة، وعارضه في السنة التي قبض فيها مرتين، وكان يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يوماً.

وقد أورد المؤلف - رحمه الله تعالى - هذا الحديث في باب الازدياد من الخير، ومناسبتة ظاهرة في تتابع الوحي على رسول الله ﷺ قبل وفاته.

١١٦ - الخامس: عن جابر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ» [رواه مسلم].

* يعيش الإنسان مراحل عمره التي لا تتجاوز في الغالب السبعين عاماً، لحديث النبي ﷺ «أَعْمَارُ أُمَّتِي مِنَ السِّتِينَ إِلَى السَّبْعِينَ وَأَقْلَهُمْ مِنْ يَجُوزُ ذَلِكَ» [رواه الترمذي].

وفي هذا الحديث الذي رواه جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - بَيْنَ ﷺ حال خاتمة الإنسان ليستعد المسلم لذلك اليوم القادم، ساعة نزع الروح. قال النووي: «قال العلماء معناه: يبعث على الحالة التي مات عليها». وقال ابن القيم: «الرجل يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه».

ثم قال - رحمه الله تعالى -: «وهذا من أعظم الفقه أن يخاف الرجل أن تخذعه ذنوبه عند الموت فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنة». وفي الحديث: حث الإنسان على حسن العمل، ليكون أنيسه يوم المحشر. يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. والعبرة بخواتيم الأعمال فمن حسن عمله في آخر حياته كان له بشارة خير، ومن ساء عمله في آخر عمره كان غير ذلك.

وفي الحديث: التحريض على حسن العمل والتمسك بالسنة النبوية في سائر الأقوال والأعمال، مع الإخلاص في سائر الأحوال خاصة عند كبر السن، وحال المرض لأن الأعمال بخواتيمها.

قال القرطبي: «فينبغي للعبد أن يستصحب الأعمال الصالحة والآداب الحسنة التي يرتجى للعامل قبولها، ويحقق ظنه برحمة ربه عند فعلها، فإن رحمة الله قريب من المحسنين، هذا في حال الصحة والقوة على العمل، وأما في حال حضور الموت فليس ذلك وقت استئناف عمل، غير حُسْنِ الظن بالله،

والتفكر في سعة رحمته وعظم فضله، وأنه لا يتعاضمه ذنب يغفره، وأنه الكريم الحليم، الغفور الشكور، المنعم الرحيم، ويتذكر آيات الرخص في أحاديثها لعل ذلك يقع بقلبه، فيحب الله، فيختم عليه بذلك، فيلقى الله وهو محب لله، فيحشره في زمرة المحيين بعد أن كان في زمرة الخطائين، **«إذ يبعث كل عبد على ما مات عليه»**.

قال الحافظ عبد الحق الأشبيلي: «ولسوء الخاتمة - أعاذنا الله منها - أسباب، ولها طرق وأبواب، وأعظمها الإنكباب على الدنيا وطلبها، والحرص عليها، والإعراض عن الآخرة، والإقدام والجرأة على معاصي الله». وفي الحديث أنه ﷺ قال: **«إذا أراد الله - عز وجل - بعبداً خيراً عسله»**، قيل: وما عسله؟ قال: **«يفتح الله - عز وجل - له عملاً صالحاً قبل موته ثم يقبضه إليه»** [رواه أحمد].

وهذا الحديث من جوامع كلم النبي ﷺ قال المناوي في فيض القدير: **«عسله»** أي، طيب ثناؤه بين الناس، ومن عسل الطعام يعسله، إذا جعل فيه العسل.

قال ابن تيمية: «العبرة بكمال النهايات لا بنقص البدايات». وقال محمد بن كعب القرظي: **«إذا أراد الله - تعالى - بعبداً خيراً جعل فيه ثلاث خلال: فقه في الدين، وزهادة في الدنيا، وبصراً بعيوبه»**.

قال ابن العربي في أحكام القرآن: «سمعت ذا الشهيد الأكبر يقول: ومن الغبن العظيم أن يعيش الرجل ستين سنة ينام ليلها فيذهب النصف من عمره لغواً، وينام سدس النهار راحة فيذهب ثلثاه، ويبقى له من العمر عشرون سنة، ومن الجهالة والسفاهة أن يُتلف الرجل ثلثي عمره في لذة فانية، ولا يتلف عمره بسهر في لذة باقية عند الله، الغني الذي ليس بعديم ولا ظلوم».

وفي الحديث: أن المرء يبعث على ما مات عليه. وفيه: الحث على المداومة على الطاعات وأعمال الخير.

١٣ - باب في بيان كثرة طرق الخير

قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥]. أي: وكل معروف تفعلونه يعلمه الله، وسيجزيكم عليه أوفر الجزاء. وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧]. في الآية الحث على الخير بعد ذكر الشر، وعلى الطاعة بعد ذكر المعصية. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ يدل على أن الخيرات ليست خيراً واحداً، بل طرق كثيرة.


وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]. أي: من فعل خيراً في الدنيا فنفعه لنفسه، ومن ارتكب سوءاً وشرّاً فضرره عائد عليها، وأن الموازين بمثاقيل الذر.

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [الجاثية: ١٥]. أي: من عمل عملاً أمر الله به ورسوله فإن نفعه وثوابه له. والآيات في الباب كثيرة. ومن فضل الله - عز وجل - على أمة محمد تنوع وكثرة طرق الخير، وفي تنوع طرق الخير وكثرتها تقوية للهمم، ومضاعفة للجزائم، وتجديد للنشاط، وفي التنوع طريق واسع فكل بقدره وحسب استطاعته، فيكون وقته معموراً بطاعة الله ومرضاته، متقلباً من طاعة وعبادة إلى أخرى. وكان الصحابة يسألون النبي ﷺ عن أفضل الأعمال مطلقاً، وأفضلها في أوقاتها كرمضان وعشر ذي الحجة وغيرها.


قال سعيد بن جبير: «كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذ أعطوه، وكان آخرون يرون أن لا يلامون على الذنب اليسير: الكذبة، والنظرة، والغيبة، وأشباهها، فنزلت: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

والعبادة باب واسع يدخل تحته كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهر منها والباطن.

والعمل الصالح واسع الميادين فسيح الأفق، وقد يفتح الله لعبد باب خير فيلزمه، إما صلاة أو حج أو جهاد أو صدقة، وترغب نفسه فيها ويلزمها ويدوام عليها، والرابع من استكثر من العبادات وتزود من القربات.

كان الفضل بن عياض وعبد الله بن المبارك صاحبين لا يفترقان وكانا عالمين زاهدين، فخرج عبد الله بن المبارك للقتال والرباط في الثغور، وبقي الفضيل بن عياض في الحرم يطوف ويصلي ويتعبد، فكتب الفضيل إلى ابن المبارك يدعوه فيه إلى المجيء إلى الحرم والعبادة، فأجابه: «إن من عباد الله من فتح الله له في الصيام، ومنهم من فتح الله له في قراءة القرآن، ومنهم من فتح الله له في قيام الليل، وليس ما أنت عليه بأفضل مما أنا عليه، وكلانا على خير». ولا شك أن المسلم يتحرى الأعمال التي فيها مضاعفة الأجور ورفع الدرجات مع الإخلاص، ويتحرى الأزمنة المباركة والأماكن الفاضلة فإنها كلها في ميزان حسناته يوم القيامة، كما قال تعالى ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ .

ومن الوصايا النبوية في العبادات السهلة الميسورة لكل أحد، ما ذكره النبي ﷺ لرجل يسأله، فقال: يا رسول الله، إن أبواب الخير كثيرة، ولا أستطيع القيام بها كلها، فأخبرني بما شئت أتثبت به ولا تكثر عليّ فأنسى، فقال ﷺ: «لا يزال لسانك رطباً بذكر الله - تعالى -» [رواه الترمذي].

ولا شك أن مما يعين على حياة القلوب وطمأنينة النفس، وراحة البال - دوام ذكر الله - عز وجل - كما قال تعالى ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾  [الرعد: ٢٨].

١١٧ - الأول: عن أبي ذرٍّ جُنْدَب بن جُنَادَةَ - رضي الله عنه - قال: قلت يا رسول الله، أيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ». قُلْتُ: أيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَنْفُسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا، وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا». قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: «تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقٍ» قُلْتُ: يا رسول الله أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟ قَالَ: «تَكْفِ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ» [متفقٌ عليه].

«الصَّانِعُ» بِالصَّادِ المَهْمَلَةِ هذا هو المشهور، ورُوي «صَانِعًا» بالمعجمة: أيُّ ذا ضِيَاعٍ مِنْ فَقْرٍ أَوْ عِيَالٍ، ونحو ذلك وَالْأَخْرَقُ: الَّذِي لَا يُتَّقَنُ مَا يُحَاوِلُ فِعْلَهُ.

* بلغ من حرص الصحابة - رضي الله عنهم - أنهم كثيراً ما كانوا يسألون النبي ﷺ عن أفضل الأعمال وهذا من محبتهم للخير ومساقتهم إليه. فقد سئل ابن مسعود رسول الله ﷺ: (أي العمل أحب إلى الله؟) أي، الأكثر ثواباً عند الله.

قال ﷺ: «الصلاة على وقتها» قال: (ثم أي؟) قال «بر الوالدين» قال: (ثم أي؟) قال: «الجهاد في سبيل الله» [رواه البخاري].

في هذا الحديث سأل الصحابي الجليل أبا ذر جندب بن جنادة - رضي الله عنه - النبي ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ فقال ﷺ: «الإيمان بالله والجهاد في سبيله» والإيمان بالله أفضل الأعمال، وأعلى الشعب التي يتقرب بها إلى الله - تعالى -، وذلك لأنه أصل الأعمال، فلا تصح إلا به، ولأنه أول واجب على المكلف، فلا تقبل منه سائر الأعمال من عمل القلب واللسان والجوارح إلا بتحقيق الإيمان.

ثم قال: «والجهاد في سبيل الله» وهو من أعظم الأعمال، ترفع به الدرجات ويُنصر به الدين ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآثٍ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ

وَالْإِنْجِيلَ وَالْقُرْآنَ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ [التوبة: ١١١]. وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال «الغدوة في سبيل الله أو راحة خير من الدنيا وما فيها» [رواه البخاري ومسلم].

وقال ﷺ «إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف» [رواه مسلم].
ثم سأله: أي الرقاب أفضل؟ أي ما هو الأفضل في عتق الرقاب؟ أي، المماليك.

فقال ﷺ: «أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمنًا».
أي: أحبها عند أهلها وأغلاها ثمنًا وأجودها، فيجتمع في هذه الرقبة النفاسة وكثرة الثمن، ومثل هذا لا يبذله إلا الإنسان الذي عنده قوة إيمان وتصديق.
وقد ذكر الله - عز وجل - في الآية: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وكان ابن عمر - رضي الله عنهما - إذا أعجبه شيء من ماله تصدق به، اتباعاً لهذه الآية.

ثم سأل أبو ذر الرسول ﷺ: (فإن لم أفعل)؟ أي إن لم أجد، يعني رقبة بهذا المعنى - أنفسها عند أهلها وأغلاها ثمنًا - ولم يقدر عليها، ولا تيسر له.
قال ﷺ: «تعين صانعاً أو تصنع لأخرق» أي، تصنع معروفًا فتعين أخرقاً، وهو الذي لا يتقن ما يحاول فعله، فتساعده وتعينه، وهذا من الأعمال الصالحة.
قال: فإن لم أفعل؟ قال: «تكف شرك عن الناس، فإنها صدقة منك على نفسك»، وهذا أدنى ما يكون بأن يكف عن الناس شره وأذاه فيسلمون منه.

وفي الحديث: تنوع أعمال البر والخير وكثرتها، وسهولة عملها وتدرجها، وفيه ذكر الجهاد ومنزلته العظيمة، وكذلك عتق الرقاب، وإعانة المحتاج، وكذلك الامتناع عن الشر وأذى الآخرين فهو داخل في أعمال الإيمان، وأن ذلك لا يقل ثواباً عن الصدقة والإحسان.

وهذا التنوع في الأعمال مدعاة إلى أن يأخذ المسلم منها بنصيب، وحسب ما يناسبه زماناً ومكاناً ومقدرة.

١١٨ - الثاني: عن أبي ذرٍّ - رضي الله عنه - أيضاً أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ. وَيُجْزَى مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى» [رواه مسلم].

السُّلَامَى بضم السين المهملة وتخفيف اللام وفتح الميم: المفصل.

* نِعَمَ الله على العبد كثيرة، وأقرب مثال لذلك ما منحه الله - تعالى - له من جسم متحرك المفاصل، ومتناسب في الأعضاء، قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] والواجب الشكر لهذه النعم العظيمة.

والصدقة ليست بالمال فحسب، بل من جميع أعمال المعروف والإحسان، حتى التبسم في وجه أخيك صدقة.

وفي الحديث: فضيلة التسبيح وسائر الأذكار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونشر العلم، وتعليم الجاهل، وأنها من الصدقات والأعمال الصالحات. قال الحسن: «أعظم النفقة نفقة العلم».

قال ﷺ: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ».

سلامى الإنسان: عظام الكف والأصابع والأرجل. وجاء في صحيح مسلم أن السলামى ثلاثمائة وستون مفصلاً. أي، أن على كل عظم ومفصل من الإنسان صدقة شكرًا لله على سلامة مفاصله وعظامه وعافيته.

قال الطيبي: «لعل تخصيص السُّلَامَى، وهي المفاصل من الصانع بالذكر، لما في أعمالها من دقائق الصنائع التي يتحير الأوهام فيها»

وقال القرطبي: «العظام التي في الإنسان هي أصل وجوده، وبها حصول منفعه، إذ لا تتأتى الحركات والسكنات إلا بها، والأعصاب رباطات، واللحوم حافظات وممكنات، فهي إذاً أعظم نعم الله على الإنسان، وحق المنعم عليه أن يقابل كل نعمة منها بشكر يخصصها، وهي أن يعطي صدقة، وكذلك التحميدة

وغيرها من أعمال البر وأقواله وإن قل مقدارها، وأتم الفضل بأن أكتفى من ذلك كله بركعتين في الضحى».

«فكل نسيحة صدقة» التسييح، هو التنزيه.

«وكل تحميدة صدقة» الحمد، هو قول العبد: «الحمد لله» وهو الثناء على

الله بصفات كماله.

«وكل تهليلة صدقة» وهي: قول لا إله إلا الله.

«وكل تكبيرة صدقة» وهي قول: الله أكبر.

«وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة» والأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر قد يكون باليد أو باللسان، أو بالقلب حسب المقدرة.

ثم قال ﷺ «ويجزئ من ذلك» يعنى عن ذلك «ركعتان ير كعهما من

الضحى».

أي إذا صلى المسلم من الضحى ركعتين أجزأت عن كل الصدقات التي عليه، وهذا بيان لفضلها وعظم منزلتها، وهذا من تيسير الله - عز وجل - على العباد.

وفي هذا الحديث، فضل صلاة الضحى التي هي صلاة الأوابين.

قال ﷺ: «لا يحافظ على صلاة الضحى إلا أواب» [رواه الطبراني].

والأواب: هو كثير الرجوع إلى الله - سبحانه - بالإنابة والتوبة، وأنها تكفي

من صدقات الأعضاء، لأن الصلاة عمل لجميع أعضاء الجسد، وتنتهى عن الفحشاء والمنكر.

ووقت صلاة الضحى من ارتفاع الشمس قدر رمح حوالي ربع إلى ثلث

ساعة بعد الطلوع إلى قبيل الظهر. أي، إلى قبل الزوال بعشر دقائق، والأفضل

أن تكون في آخر الوقت وهي صلاة الأوابين.

قال ﷺ «صلاة الأوابين حين ترمض الفصال» [رواه مسلم].

قال ابن الأثير: «والمراد صلاة الضحى عند الارتفاع واشتداد الحر، واستدل به على فضل تأخير الضحى إلى شدة الحر».

وبالدقائق المعروفة حوالي خمس عشرة دقيقة فإنه يزول وقت النهي ويدخل وقت صلاة الضحى. ويتتهي قبل أذان الظهر بعشر دقائق لأنه قد دخل وقت نهي. وأقلها ركعتان، وأكثرها ثمان ركعات.

والصدقة والإنفاق للقادر عليه أفضل من غيره لتعدي نفعه، ومن جمع بينهما فقد حصّل الأكمل.

وفي الحديث: الحث على الإكثار من الصدقات، شكر الله - تعالى - على العافية ودفعاً للبلاء، فإذا عجز عن الشكر بالأفعال، شكر الله - تعالى - بالأقوال بإدامة ذكره، وإعلان تنزيهه وتعظيمه وإسداء النصح في دينه.

١١٩ - الثالثُ عنه قال: قال النبي ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الْأَذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ، وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِيِ أَعْمَالِهَا النَّخَاعَةَ تَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ لَا تُدْفَنُ» [رواه مسلم].

* الإسلام دين كامل شامل لجميع مناحي الحياة، وقد بين الله - عز وجل - لنبينا محمد ﷺ أعمال أُمته حسننها وسيئها، فوجد ﷺ أن في محاسن أعمالها إمطة الأذى عن الطريق، وفيه ثواب الصدقة.

والأذى: كل ما يضر بالمارة من حجر أو شوك أو غيره.
 قيل: «ويدخل في هذا الأذى شُبُه المبتدعة، وما يوردونه من عقائدهم الباطلة، وخيالاتهم الفاسدة، وإزالتها عن الطريق الذي هو الصراط المستقيم بالبينات والحجج القاطعة والبراهين الساطعة»

وإزالة الأذى من أسباب دخول الجنة، في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤْذِي الْمُسْلِمِينَ» [رواه مسلم].

وذكر النبي ﷺ في الحديث الآخر أن: «الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ شَعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شَعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ» [رواه البخاري].

ثم ذكر ﷺ ما وجد في مساوئ أعمال أُمته: «النَّخَاعَةُ (أي النخامة) تَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ لَا تُدْفَنُ».

قال القرطبي: «لأنه يُقَدَّرُ المسجد، ويتأذى به من تعلق به، أو رآها»
 وقال النووي: «هذا صريح في أن هذا القبح والذم لا يختص بصاحب النخامة، بل يدخل فيه هو وكل من رآها ولا يزيلها بدفن أو حك، ونحوه».

والنخامة في المسجد حرام، ومن فعل ذلك فقد أثم، لقوله ﷺ: «البصاق في المسجد خطيئة» وذلك لأن الإسلام دين النظافة، ولمكانه المسجد فهو دار

عبادة وذكر، لا تليق به هذه الأقدار، بل وينزه عن ذلك ويحافظ على نظافته.
فإن المساجد هي بيوت الله، وأحب البلاد إلى الله - تعالى - أضافها - سبحانه - إلى نفسه تشريفاً لها، وهي منزل الرحمة والسكينة.

وقد عني الإسلام بنظافة المصلي من الحدث الأكبر والأصغر، وشرع إظهار الزينة لصلاة الجمعة والعيدين ومس الطيب، ومن صيانة المسجد نهيه **«إني لا أحل المسجد حائض ولا جنب»** ومنع من دخولها الكافر.

ومن عناية الشريعة لهذه الأماكن وعظم شأنها، النهي عما يكدر صفو العباد والمصلين من الأذية والتشويش عليهم حتى بقراءة القرآن العظيم، ورفع الصوت به، والنهي عن البيع والشراء في المسجد، وعن إنشاد الضالة.
وفي جانب النظافة الظاهرة، قال ﷺ: **«من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلنا»** أو قال: **«فليعتزل مسجدنا وليقعد في بيته»** [متفق عليه].

قال الشيخ ابن باز - رحمه الله -: «هذا الحديث وما في معناه من الأحاديث الصحيحة يدل على كراهة حضور المسلم لصلاة الجماعة ما دامت الرائحة توجد منه ظاهرة تؤذي من حوله، سواء كان ذلك من أجل الثوم أو البصل أو الكراث أو غيرها من الأشياء المكروهة الرائحة كالدخان حتى تذهب الرائحة».

وفي الحديث: كثرة وجوه أعمال الخير، خاصة ما يظنه الناس لا قيمة له ولا شأن كإمالة الأذى عن الطريق، والنخامة في المسجد. وفي ما ذكر النبي ﷺ الحث على ما ينفع الناس ويجلب لهم مصلحة، أو يدفع عنهم أذى.

١٢٠ - الرابع عنه: أن ناساً قالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يُصلُّون كما نُصلي، ويصُومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم قال: **«أوليس قد جعل لكم ما تصدقون به: إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة**

صدقة، وكلّ تحميدة صدقة، وكلّ تهليل صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهى عن المنكر صدقة وفي بضع أحدكم صدقة» قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر» [رواه مسلم].
 الدُّثُورُ: بالثاء المثلثة: الأموال، واحدها: دُثْرٌ.

* كان الصحابة - رضي الله عنهم - يتسابقون إلى الخيرات ويسارعون إلى الطاعات، وجاء إلى النبي ﷺ نفر من فقراء الصحابة متسائلين، بأن أصحاب الغنى والسعة قد ذهبوا بالأجور، وذلك أنهم يتصدقون مما رزقهم الله وينفقون مما أعطاهم، وهم فقراء ليس لديهم ما يتصدقون به ويرغبون في الخير والمسابقة إليه وتلك شكوى غبطة لا شكوى حسد.

فطيب النبي ﷺ نفوسهم، وذكر لهم عبادة عظيمة ليس فيها تكلفة مادية ولا بدنية، بل هي سهلة ميسورة، يأتي بها المريض والصحيح، والغني والفقير، والصغير والكبير، والرجل والمرأة، لا تحتاج وضوء ولا طهارة ولا مكاناً مخصوصاً. وسواء أكان على جنبه أو قائماً أو قاعداً.

والعبادة التي أرشدهم ﷺ إليها هي: فضيلة التسبيح والتحميد والتكبير، فإذا قلت سبحان الله: فهي صدقة، وإذا قلت الله أكبر فهذه صدقة، وإذا قلت الحمد لله فهذه صدقة، وإذا قلت لا إله إلا الله فهذه صدقة. والأمر بمعروف والنهي عن المنكر صدقة، وأن ذلك كله صدقة.

قال القرطبي: «مقصود هذا الحديث: أن أعمال الخير إذا حسنت النيات فيها، تنزل منزلة الصدقات في الأجور، ولا سيما في حق من لا يقدر على الصدقة، ويفهم منه أن الصدقة في حق القادر عليها أفضل له من سائر الأعمال القاصرة على فاعلها».

وفي قوله ﷺ «وأمر بالمعروف صدقة، ونهى عن المنكر صدقة».

قال النووي: «فيه إشارة إلى ثبوت حكم الصدقة في كل فرد من أفراد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولهذا نكره، والثواب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أكثر منه في التسبيح والتحميد والتهليل، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، وقد يتعين، ولا يتصور وقوعه نفلاً، والتسبيح والتحميد والتهليل نوافل، ومعلوم أن أجر الفرض أكثر من أجر النفل، لقوله تعالى «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب مما أفترضت عليه» [رواه البخاري].

ثم قال لهم ﷺ: «وفي بضع أحدكم صدقة» فتعجبوا من ذلك لأنه من أمور الدنيا، ومما تستلذ به النفس وتشتاق إليه.

فأجابهم ﷺ: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزراً، فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر».

وفي هذا بيان أن الأعمال المعتادة التي هي من فطر الناس المباحة يؤجر عليها المسلم إذا نوى نية صالحة وقصد حسن، كاعفاف نفسه وزوجه وكذلك طلب الولد، والتقوي بالطعام والشراب تنشيطاً على العبادة، وغيرها. وفي الحديث: الحث على كثرة الذكر ومداومته، وهو من أفضل الطاعات والقربات وأيسرها وأسهلها. وكذلك النية الصادقة في أن تكون العادات والمستلذات عبادات حتى يؤجر عليها المرء.

قال الشيخ ابن عثيمين عن الذكر: «حتى تتيقن أن المسألة هي مسألة توفيق انظر إلى الذكر من أسهل الطاعات، لكن لا يوفق له إلا قليل».

والذكر ثلاثة أنواع: أفضلها ما كان ثناءً على الله، ثم ما كان انشاءً من العبد، أو اعترافاً بما يجب لله عليه، ثم ما كان دعاءً من العبد.

قال ابن القيم: «إن العبد إذا غفل عن ذكر الله جثم على قلبه الشيطان، وبذر فيه الوسواس التي هي أصل الذنوب كلها، فإذا ذكر العبد ربه واستعاذ به خنس».

وقال ابن تيمية: «الذكر للقلب مثل الماء للسّمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء».

وقد ذكر المؤلف هذا الحديث في بيان كثرة طرق الخير، فحري بالمسلم أن يلتزم بها ويقوم بها، ولا يفرط في شيء منها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

١٢١ - الخامس: عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلِيقٍ» [رواه مسلم].

* مكارم الأخلاق صفة من صفات الأنبياء والصديقين والصالحين، بها تُنال الدرجات، وتُرفع المقامات. وقد خص الله - جل وعلا - نبيه محمداً ﷺ بآية جمعت له محامد الأخلاق ومحاسن الآداب، فقال - جل وعلا -: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم].

وحُسن الخلق يوجب التحاب والتآلف، وسوء الخلق يُثمر التباغض والتحاسد والتدابير.

وحث النبي ﷺ على حسن الخلق، والتمسك به، وجمع بين التقوى وحسن الخلق، في قوله - عليه الصلاة والسلام -: «أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ، تَقْوَى اللَّهِ وَحَسَنُ الْخُلُقِ» [رواه الترمذي والحاكم].

وحُسن الخلق: طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى عن الناس، هذا مع ما يلزم المسلم من كلام حسن، ومدارة للغضب، واحتمال الأذى. قال حبيب بن ثابت: «من حُسن خلق الرجل أن يحدث صاحبه وهو مقبل عليه بوجهه».

قيل: التبسم والبشر من أنوار القلب. ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ ضاحكةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿﴾ [عبس: ٣٨-٣٩].

وأوصى النبي ﷺ أبا هريرة بوصية عظيمة، فقال: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! عَلَيْكَ بِحَسَنِ الْخُلُقِ». قال أبو هريرة - رضي الله عنه -: وما حسن الخلق يا رسول الله؟ قال: «تَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ» [رواه البيهقي].

في هذا الحديث توجيه نبوي عظيم، وذلك بعدم استحقار واستصغار أعمال الخير والمعروف، ومن تلك الأعمال اليسيرة، إدخال السرور على المسلم، وفي ذلك إيناس لهم وتحقيق الألفة بينهم، ودفع الإيحاش وجبر الخواطر.

والمسلم يحرص على ذلك فإنه لا يعرف العمل الذي يتقبله الله مهما قلَّ ويدخله به الجنة.

وليتأمل المسلم الأثر العظيم والثواب الجزيل لهذه المنقبة المحمودية والخصلة الطيبة، فقد قال ﷺ: «**إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**» [رواه أحمد].

وعدَّ النبي ﷺ حسن الخلق من كمال الإيمان، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً**» [رواه أحمد وأبو داود].

وفي الحديث الآخر قال ﷺ: «**أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله - عز وجل - سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولئن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إليّ من أن أعتكف في المسجد شهراً**» [رواه الطبراني].

والمسلم مأمور بالكلمة الهيئنة اللينة لتكون في ميزان حسناته، قال - عليه الصلاة والسلام -: «**والكلمة الطيبة صدقة**» [متفق عليه].

بل وحتى التبسم الذي لا يكلف المسلم شيئاً، له بذلك أجر، قال ﷺ: «**وتبسمك في وجه أخيك صدقة**» [رواه الترمذي].

قال ابن عينة: «والبشاشة مصيدة المودة». قال ابن بطال: «فيه أن لقاء الناس بالتبسم، وطلاقة الوجه، من أخلاق النبوة، وهو مناف للتكبر، وجالب للمودة».

والتوجيهات النبوية في الحث على حسن الخلق واحتمال الأذى كثيرة معروفة، وسيرته ﷺ نموذج يُحتذى به في الخلق مع نفسه، ومع زوجاته، ومع جيرانه، ومع ضعفاء المسلمين، ومع جهلتهم، بل وحتى مع الكافر، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۖ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾

١٢٢ - السادس: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ: تَعْدِلُ بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ» [متفق عليه].

ورواه مسلم أيضاً من رواية عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاثُمِائَةِ مَفْصَلٍ، فَمَنْ كَبَّرَ اللَّهَ، وَحَمَدَ اللَّهَ، وَهَلَّلَ اللَّهَ، وَسَبَّحَ اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ، وَعَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ شَوْكَةً أَوْ عَظْماً عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ، عَدَدَ السِّتِّينَ وَالثَّلَاثُمِائَةِ، فَإِنَّهُ يُمْسِي يَوْمَهُ وَقَدْ زَحَزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ».

* خلق الله الإنسان فأحسن خلقه وأتمه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] وقد ذكر النبي ﷺ نعم الله على العبد، ومنها المفاصل في جسمه والتي عددها ستين وثلاثمائة مفصل، وقد خص النبي ﷺ السلاميات بالذكر في حديثه، لما فيها من تنظيم وجمال ومرونة وتقابل. ولهذا هدد وتوعد - عز وجل - كل كافر معاند بالحرمان منها، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَنَدَرَيْنَ عَلَىٰ أَنْ ذُئِبْنَ أَنْفَهُنَّ﴾ [القيامة: ٤].

أي: نجعل أصابع يديه ورجليه مستوية شيئاً واحداً، كخف البعير وحافر الحمار، فلا يمكنه أن يعمل بها شيئاً، كما يعمل بأصابعه المفارقة ذات المفاصل من فنون وأعمال.

ومن أداء حق هذه النعمة القيام بالأعمال الصالحة التي ذكرها النبي ﷺ في الحديث وهي: الكلمة الطيبة التي تسر السامع وتدخل السرور وتؤلف

القلوب، وكذلك الإصلاح بالعدل بين الناس، ومعاملتهم بالأخلاق الكريمة، وكذلك مساعدة الرجل في دابته سواء بحمله عليها أو برفع متاعه عليها كل ذلك صدقة، وبكل خطوة إلى الصلاة تمشيها صدقة، وإمالة الأذى عن الطريق صدقة. وهذه الأعمال لها من الأجر والثواب ما يساوي أجر الصدقة لمن عجز عنها، ومثلها لمن جمع بينها وهو قادر عليها.

وفي الحديث: الحث على أعمال الخير والطاعات شكراً له على نعمه وتقرباً إليه بصالح الأعمال، وفي كثرتها وتنوعها مدعاة إلى الأخذ بما تيسر منها سواء اجتمعت أم تفرقت. والإنسان إذا عجز عن خصلة من خصال الخير قدر على الأخرى، وبعضها ذات نفع متعدد لعباد الله وبعضها مقتصر على من عملها.

قال السعدي عند قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٣٠٩﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ﴿٣١٠﴾.

قال: «وهذا شامل عام للخير والشر كله، لأنه إذا رأى مِثْقَالَ الذرة، التي هي أحقر الأشياء، وجوزي عليها، فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩] وهذه الآية في غاية الترغيب في فعل الخير ولو قليلاً، والترهيب من فعل الشر ولو حقيراً».

وقد جمع الرسول ﷺ في الحديث جملة من مكارم الأخلاق والإحسان إلى الناس، وهي صفة من صفات الأنبياء والصالحين، فحسن الخلق وإعانة المسلمين يوجب التحاب والتآلف، مع رفيع الدرجات.

١٢٣ - السابع: عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ نَزْلاً كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ» [متفق عليه].
النُّزْلُ: الْقُوْتُ وَالرِّزْقُ وَمَا يُهَيَّأُ لِلضَّيْفِ.

* الصلاة أمرها عظيم وشأنها كبير، وهي الركن الثاني من أركان الإسلام، فرضت من فوق سبع سماوات.

وهي ركن الدين، وقرة عيون المؤمنين، وفريضة الله على المسلمين. أوجب الله - عز وجل - أداءها على الرجال جماعة في المساجد، فقال ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وفي الحديث كما عند الإمام أحمد أنه ﷺ قال: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر».

وفي الحديث عن عمر - رضي الله عنه -: «لاحظ في الإسلام لمن ترك الصلاة». ولعظم أمر الصلاة كانت هم النبي ﷺ، حتى وهو في الرمق الأخير من حياته حيث كان يسأل: «هل صلى الناس، مروا أبا بكر فليصل بالناس» [متفق عليه].
وصلاة الجماعة من أسباب الرحمة كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

والأجر في صلاة الجماعة مضاعف، قال ﷺ: «صلاة الرجل في جماعة، تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضعفاً، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له درجة وحطت عنه خطيئة» [رواه البخاري].

ومن دخل المسجد دعت له الملائكة، تقول: «اللهم صل عليه، اللهم أرحمه، ما لم يحدث، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة» [رواه البخاري].

والمساجد بيوت الله - جل وعلا -، جعلها خالصة له وحده، قال تعالى:

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

وهي خير البقاع، وأحب البلاد إلى الله، أضافها إلى نفسه تشریفاً لها. وعندما قدم النبي ﷺ المدينة مهاجراً، كان أول عمله أن قام ببناء المسجد، وفي الحديث أنه ﷺ قال: «من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة لبيضها بنى الله له بيتاً في الجنة» [رواه أحمد].

قال الشوكاني: «يدل على أن الأجر المذكور يحصل ببناء المسجد، لا بجعل الأرض مسجداً من غير بناء، وأنه لا يكفي في ذلك تحويطه من غير حصول مسمى البناء، والتنكير في مسجد للشيوع، فيدخل فيه الكبير والصغير». والمساجد هي بيوت الله - جل وعلا - في الأرض - وسميت مساجد لأنها أماكن السجود لله - عز وجل -.

وقد ورد في فضل المساجد قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

وفي الحديث: أنه ﷺ قال: «أحب البلاد إلى الله مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها» [رواه مسلم].

وفي قوله ﷺ «من غدا إلى المسجد أو راح» في هذا الحديث ذكر النبي ﷺ فضل من غدا إلى المسجد أول النهار، أو راح آخر النهار، سواء للصلاة أو لطلب العلم أو لغير ذلك من مقاصد الخير.

«أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح» أي، فإن الله - عز وجل - يُعِدُّ له في الجنة نزلاً. أي، قوتا إكراماً له.

وفي الحديث: فضل الذهاب إلى المسجد، والحث على المحافظة على صلاة الجماعة.

١٢٤- الثامن: عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةً لِبَارَتِهَا وَلَوْ فَرَسَنَ شَاةً» [متفق عليه].
 قال الجوهرى: الْفَرَسَنُ مِنَ الْبَعِيرِ: كَالْحَافِرِ مِنَ الدَّابَّةِ، قَالَ: وَرَبَّمَا اسْتُعِيرَ فِي الشَّاةِ.

* الجار له مكانة عظيمة وله حقوق لا يخلو منها جار، إما مجتمعة أو متفرقة، فله: حق الإسلام إذا كان مسلماً، وحق القرابة إذا كان قريباً، وحق الجوار.

والشريعة تقضي على الإنسان بأن يكون للجار نصيب من الرعاية والحقوق، تشمل كف الأذى، وبذل الندى، قال ﷺ: «مَا زَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُثُهُ» [رواه أبو داود].

وحقوق الجار ترجع إلى أربعة أصول هي: أن لا يلحق الرجل بجاره أذى، وأن يحميه ممن يريد به سوء، وأن يعامله بإحسان، وأن يقابل جفاهه بالحلم، ويتحمل ويشمل هفواته بالصفح والمغفرة.

وعد ﷺ إكرام الجار في خصال الإيمان، فقال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ» [رواه ابن حبان].

وقال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [النساء: ٣٦].
 قيل: فالجار ذو القربى: الجار الذي قُرب جداره.

والجار الجنب: الجار الذي يُعد في العرف جاراً وبين منزلك ومنزله فسحة. والصاحب بالجنب: من يرافقك في نحو سفر أو تعلم أو صناعة.

وفي الحديث: «يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ» أوصى النبي ﷺ نساء المسلمين لأنهن القائمات على البيوت بالإحسان إلى الجار، خاصة الطعام.

وفي قوله ﷺ «**لا تحقرن**» خص النساء بالنهي، لأنهن موضع الشنآن والمحبة.

وقال ﷺ: «**ولو فرسن شاة**» والفرسن: ما يكون في ظلف الشاة وهو شيء بسيط زهيد، كأن النبي ﷺ يقول: لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو قل. فحث ﷺ على الهدية للجار ولو شيئاً قليلاً لما في ذلك من زيادة التواصل والمحبة، ولو بالقليل واليسير لأن الكثير قد لا يتيسر كل وقت، وإذا تواصل اليسير صار كثيراً، وفيه استحباب المودة وإسقاط التكلف، وفيه النهي عن إزدراء الهدية مهما صغرت.

وفي الحديث أنه ﷺ قال: «**إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك**» [رواه مسلم].

والهدية وإن كانت قليلة في نظر صاحبها، لكنها كبيرة الأجر عند الله - تعالى -، وكبيرة النفع عند أخذها. وفيها الأخذ بوصية النبي ﷺ حيث قال: «**تهادوا تحابوا**» [رواه الطبراني].

قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله -: «وكل شيء يدخل السرور على أخيك المسلم، فإنه خير وأجر، وكل شيء تغيظ به الكافر فإنه خير وأجر». وفي الحديث: استحباب التواصل بين الجيران المسلمين خاصة، والمقياس في ذلك ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧].

١٢٥ - التاسع: عنه عن النبي ﷺ قال: «الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة: فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» [متفق عليه].
البضع من ثلاثة إلى تسعة، بكسر الباء وقد تفتح. والشعبة: القطعة.

* الإيمان عند أهل السنة والجماعة قول وعمل، ودلالة ذلك في هذا الحديث، فقد ذكر ﷺ القول «لا إله إلا الله» وذكر العمل «وهو إمطة الأذى عن الطريق».

وفي هذا الحديث قوله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة» البضع ما بين الثلاث والعشرة وقيل: من ثلاث إلى تسع.
«أفضلها قول لا إله إلا الله» كلمة لا إله إلا الله، هي كلمة الإخلاص، وكلمة التوحيد، وذكرها النبي ﷺ هنا بأنها هي أفضل شعب الإيمان.
«وأدناها إمطة الأذى» والإمطة: إزالة ما يؤدي كحجر أو شوك أو غيره، فإنه يدق قدم الماشي وقد يدميه.

وشعب الإيمان: هي الأعمال الشرعية، وهي تتفرع عن أعمال القلب، وأعمال اللسان، وأعمال البدن.

والإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهو أمر مكتسب، وينبغي للمسلم أن يتعاهد إيمانه، ويحسن إسلامه بالمحافظة على الصلاة وقراءة القرآن، وترك المعاصي والمنكرات، والتوبة إلى الله - عز وجل -.
«والحياء شعبة من الإيمان» والحياء في اللغة: الحشمة، وقيل: تغير وانكسار يعتري المرء من خوف ما يلام به.

وهي خصلة حميدة وصفة تقوم في النفس، فتكفها عن فعل ما يُعاب ويُندم عليه لدى العقلاء، والحياء خلق محمود يبعث على الإيمان بالله ومراقبته ومجاهدة النفس على الطاعة. قال ﷺ: «إن الحياء لا يأتي إلا بخير» [متفق عليه].

والحياء أحد الفروع في شجرة الإيمان العظيمة التي جاء بها الإسلام، وهو صفة محمودة يمدح بها صاحبها، فقد كان النبي ﷺ كثير الحياء، وكان أشد حياء من العذراء في خدرها.

وأول الحياء وأولاه: الحياء من الله - تعالى -، وهو أن لا يراك مولاك حيث نهاك، ولا يفتقدك حيث أمرك، وذلك لا يكون إلا عن معرفة بالله كاملة، ومراقبة له، وهي المعبر عنها بقوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه**».

ولعله ﷺ ذكر الحياء، لأنه السبب الأقوى للقيام بجميع شعب الإيمان، فإن من استحيا من الله لتواتر نعمه، وسوابغ كرمه، وتجليه عليه بأسمائه الحسنی، قام ببعض حقه - سبحانه -، والعبد مع هذا كثير التقصير.

قال القاضي: «إنما جعل الحياء من الإيمان وإن كانت غريزة، لأنه قد يكون تخلقاً واكتساباً، كسائر أعمال البر، وقد يكون غريزة، لكن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى اكتساب نية وعلم، فهو من الإيمان لهذا، ولكونه باعثاً على أفعال البر، مانعاً من المعاصي».

قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «من قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه».

وقال يحيى بن جعدة «إذا رأيت الرجل قليل الحياء، فاعلم أنه مدخول في نسبه».

وقالت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -: «رأس مكارم الأخلاق الحياء». قال العلماء: الحياء من الحياة، وعلى حسب حياة القلب يكون فيه خلق الحياء، وقلة الحياء من موت القلب والروح.

وقال أبو حاتم في روضة العقلاء: «الواجب على العاقل لزوم الحياء، لأنه أصل العقل وبذر الخير، وتركه أصل الجهل وبذر الشر، والحياء يدل على العقل، كما أن عدمه دال على الجهل، ومن لم ينصف الناس منه حياؤه، لم ينصفه منهم قحته».

١٢٦ - العاشر: عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بئراً فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثٌ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلَ الَّذِي كَانَ قَدْ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ الْبُئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْراً؟ فَقَالَ: «فِي كُلِّ كَيْدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ» [متفق عليه].

وفي رواية للبخاري: «فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ، فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ».
وفي رواية لهما: «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ قَدْ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ، فَسَقَتْهُ فَغَفَرَ لَهَا بِهِ».
الموق: الخف. وَيُطِيفُ: يَدُورُ حَوْلَ رَكِيَّةٍ وَهِيَ الْبُئْرُ.

* في الحديث بيان سعة فضل الله ورحمته، فإنه يغفر الذنوب جميعاً إذا تاب العبد وأتاب، ومن فضله وجوده أنه يغفر الذنوب الكبيرة بعمل الخير اليسير إذا صاحبه الإخلاص لله - عز وجل -، كما ذكر ذلك النبي ﷺ في هذا الحديث، حيث ذكر قصة رجل يسير حتى اشتد عليه العطش فوجد بئراً ماء فنزل فيها فشرب، ثم لما خرج رأى كلباً يأكل الثرى من شدة العطش، أي أنه يأكل الطين المبتل الرطب ليبل ريقه. فتعجب الرجل من حال الكلب فهي قريبة لحاله قبل أن يشرب من الماء، فحداه ذلك إلى أن ينزل البئر فيملاً خفه ماءً ويمسكه بفيه حتى يصعد، فلما رقي سقى الكلب، فشكر الله له هذا الصنيع فغفر له. وهذا مصداق حديث النبي ﷺ: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك» [رواه البخاري].

فتعجب الصحابة - رضي الله عنهم - على عمل يسير فيغفر له بهذا. فسألوا النبي ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إن لنا في البهائم أجراً؟

فقال ﷺ «**في كل كبد رطبة أجر**» معناه في الإحسان إلى كل حيوان حتى بسقيه ونحوه أجر، وسمى الحي ذا كبد رطبة لأن الميت يجف جسمه وكبدته. وفي الحديث الآخر أن امرأة بغياً، صاحبة زنى رأت كلباً يدور حول بئر قد كاد يقتله العطش فنزعت «**موقها**» أي: خفها فاستقت له به، فسقته، «**فغفر لها به**» إذا كان هذا في حيوان فكيف بمسلم.

قال ابن تيمية: «وذلك لما حصل في قلبها إذ ذاك من الإيمان». وقال ابن القيم: «إذا كان الله غفر لمن سقي كلباً على شدة ظمئه، فكيف بمن سقى العطاش، وأشبع الجياع، وكسى العراة من المسلمين». ودل الحديث على أن البهائم فيها أجر، كل بهيمة أحسنت إليها بسقي أو إطعام أو وقاية من حر، أو وقاية من برد، سواء كانت لك أو لغيرك من بني آدم، أو كانت من السوائب، فإن لك في ذلك أجراً عند الله - عز وجل -. وفي الحديث: فضل الإحسان إلى الحيوان، وأنه سبب لمغفرة الذنوب ودخول الجنة.

وفيه فضل سقي الماء، وأنه كما قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

قال ﷺ: «**من سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم**» [رواه الترمذي]. قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله -: «يعني لو كان ولدك الصغير وقف عند البرادة يقول لك أريد ماء وأسقيته وهو ظمآن، فقد سقيت مسلماً على ظمأ، فإن الله يسقيك من الرحيق المختوم».

وفي الحديث: دليل على أن الإساءة إلى البهائم والحيوان لا يجوز، وأن فاعلها آثم فيها، لأن النص إذا ورد بأن في الإحسان إليها أجراً وحسنات، قام الدليل بأن في الإساءة إليهن وزراً وذنوباً.

١٢٧ - الحادي عشر: عنه عن النبي ﷺ قال: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَأَنَّهُ تُؤْذِي الْمُسْلِمِينَ» [رواه مسلم].
 وفي رواية: «مَرَّ رَجُلٌ بَغْضَنَ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا نَحْنُ هَذَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ، فَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ».
 وفي رواية لهما: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ، فَأَخْرَجَهُ فَشَكَرَ اللَّهَ لَهُ، فَغُفِرَ لَهُ».

* الإسلام دين العقائد والآداب، والأخلاق والمعاملات، ما ترك شاردة ولا واردة من الخير إلا دل عليها، وأرشد إليها. ولا شراً إلا حذر الناس منه وزجرهم عنه.

ومنها ما ورد في هذا الحديث، أن من الآداب المستحبة في الطريق، إزالة الأذى عنه وإبعاده عن طريق المارة، بل هي من الإيمان، كما قال ﷺ «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان».

وقد ورد التحذير من التخلي في طريق الناس أو ظلهم لأن ذلك حق عام، فلا يحل لامرئ أن يفسد على الناس طرقهم التي يمشون عليها، أو ظلهم الذي فيه يجلسون، وبه يتقون الشمس.

وكما أن الشارع الحكيم حذر من أذى المسلمين في طرقاتهم، فإنه رغب وحث على إزالة ما يضر السائرين في الطريق.

وفي هذا الحديث: ذكر النبي ﷺ أنه رأى رجلاً يتنعم في الجنة بملاذها وخيرها، وسبب ذلك أنه رأى شجرة أو غصن شجرة في طريق الناس تؤذيهم، فقام وأبعدها عن الطريق حتى لا تؤذي المسلمين وتسبب لهم الأذى. فشكر الله صنيعه وفعله فأدخله الجنة.

قال النووي: «هذه الأحاديث المذكورة في الباب ظاهرة في فضل إزالة الأذى عن الطريق، سواء كان الأذى شجرة تؤذي، أو غصن شوك، أو حجراً يعثر به، أو قدراً، أو جيفة، أو غير ذلك».

والله جواد كريم، ومن صفاته الكرم بكثرة الخير وجزيل العطاء، ومن نعوته الشكر، يشكر القليل من العمل بمضاعفة الثواب أضعافاً كثيرة. وإمالة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان، وهو موجب لشكر الله - تعالى - لفاعله، ولمغفرة ذنوبه، وهو من أسباب دخول الجنة.

قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله -: «المهم أن إزالة الأذى عن الطريق، الطريق الحسي، طريق الأقدام، والطريق المعنوي، طريق القلوب، والعمل على إزالة الأذى عن هذا الطريق كله مما يقرب إلى الله، وإزالة الأذى عن طريق القلوب والعمل الصالح أعظم أجراً، وأشد إلحاحاً من إزالة الأذى عن طريق الأقدام، والله الموفق».

وفي الحديث: بيان فضل إزالة ما يؤذي الناس في الطرقات، والحث على فعل كل ما ينفع المسلمين ويبعد عنهم الأذى والضرر، وأن ذلك سبب للمغفرة ودخول الجنة.

وفيه: بيان فضل الله العظيم، وتفضله بالأجر الكبير على العمل اليسير.

١٢٨ - الثاني عشر: عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى الجمعة، فاستمع وأنصت، غُفر له ما بينه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام، ومن مس الحصى فقد لغا» [رواه مسلم].

* يوم الجمعة هو عيد الأسبوع لأهل الإسلام، الذي أكرم الله به هذه الأمة بعد أن أضل عنه اليهود والنصارى.

ويوم الجمعة هو اليوم الذي قال عنه ﷺ: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة» [رواه مسلم].

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى -: «وكان من هديه ﷺ تعظيم هذا اليوم وتشريفه وتخصيصه بعبادات يختص بها عن غيره».

وقد عد - رحمه الله - أكثر من ثلاثين مزية وفضل لهذا اليوم العظيم. وليوم الجمعة - يوم عيد المسلمين - آداب وسنن قبلية وبعدية، فمن ذلك أنه يستحب للإمام أن يقرأ في فجر يوم الجمعة بسورتي السجدة في الركعة الأولى، والإنسان في الركعة الثانية.

ومنها التذكير إلى الصلاة، والغسل والتطيب والسواك، ولبس أحسن الثياب، وقراءة سورة الكهف، والانصات إلى الخطبة، والإكثار من الدعاء، والإكثار من الصلاة على النبي ﷺ، وتحري ساعة الإجابة.

وقد ورد النهي عن تخطي الرقاب وإيذاء المصلين، ويستحب للإمام أن يقصر الخطبة ويطول القراءة.

وفي الحديث: «من توضأ فأحسن الوضوء» أي، توضأ كما أمر ﷺ تاماً بأركانه وسننه وآدابه.

«ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت». استمع. أي، ألقى سمعه، وأنصت: بمعنى أنه لم ينصرف بذهنه.

والاستماع: أن يراها سمعه.

والإنصات: ألا يتكلم.

«غفر له ما بين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام» معنى المغفرة له ما بين الجمعتين وزيادة ثلاثة أيام (أي عشرة أيام) لأن الحسنه بعشر أمثالها.

قال العلماء: الذنوب التي تكفرهن الصغائر.

«ومن مس الحصا» وذلك لأن المسجد في عهد رسول الله ﷺ يفرش

بالحصبة، وهي الحصى الصغار، فربما عبث بها بعض الناس.

«ومن مس الحصا فقد لغا» لأن مس الحصى يلهيه عن الاستماع للخطبة،

وفيه الحث على استماع الخطبة وحضور القلب وعدم العبث.

«فقد لغا» أي يحرم ثواب الجمعة التي فضلت بها هذه الأمة على غيرها.

اللغو: هو في الأصل الكلام الذي لا فائدة فيه، والمراد هنا أنه أسقط ثواب

الجمعة.

ويقاس عليه العبث بالقلم أو الساعة مما يشوش على المصلي.

وفي هذا الحديث: دليل على فضيلة الاستماع إلى الخطبة والإنصات.

قال ﷺ: «من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب، كمثل الحمار يحمل

أسفاراً» [رواه أحمد].

وقد أورد المؤلف هذا الحديث في باب كثرة طرق الخير، وأن منها،

الوضوء، وشهود صلاة الجمعة، والاستماع والإنصات لها.

وفي الحديث: الحث على إقبال القلب والجوارح على الخطبة

واجتناب العبث.

١٢٩ - الثالث عشر: عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ، أَوْ الْمُؤْمِنُ فَعَسَلَ وَجْهُهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنِهِ مَعَ الْمَاءِ، أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَسَّتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ» [رواه مسلم].

* ذكر النبي ﷺ حال العبد عند الوضوء وأنه يطهر الأعضاء الأربعة، الوجه، واليدين، والرأس، والرجلان. ويحصل بالوضوء فائدتان: طهارة الجسم من الأدران، وطهارة النفس من الآثام.

فطهارة الجسم الحسية من الأدران، فإن الوضوء يطهر الأعضاء الأربعة، الوجه، واليدين، والرأس، والرجلان.

والطهارة المعنوية، هي تطهيره من الذنوب والخطايا والآثام. وينبغي للإنسان إذا توضأ أن يستشعر أن وضوءه يكون تكفيراً لخطيئاته، حتى يكون بهذا الوضوء محتسباً الأجر على الله - عز وجل -. وفي الحديث: فضل الوضوء، وأنه يمحو خطايا الجوارح ويكفر الذنوب. «خرج من ذنوبه»: أي، غفر له كل ذنب.

ومن فضائل الوضوء، أنه شطر الإيمان، لحديث النبي ﷺ «الطهور شطر الإيمان» [رواه مسلم].

وفي الحديث: عن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - أنه قال بعد وصفه الوضوء للنبي ﷺ بفعله «إني رأيت رسول الله توضأ مثل وضوئي هذا، ثم قال: من توضأ هكذا، غفر له ما تقدم من ذنبه».

والمحافظة على الوضوء من علامات أهل الإيمان، عن ثوبان - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا، وأعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» [رواه أحمد].

والوضوء، من علامات أهل يوم القيامة، قال ﷺ: «إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل» [رواه الشيخان].

والوضوء من أسباب دخول الجنة والتحلي بحليها: فعن عتبة بن عامر - رضي الله عنه - قال: كانت علينا رعاية الإبل: فجاءت نوبتي، فروحتها بعشي، فأدركت رسول الله ﷺ قائماً يحدث الناس، فأدركت من قوله «ما من مسلم يتوضأ، فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلي ركعتين، مقبل عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجنة» [رواه مسلم].

والوضوء، من أسباب رفع الدرجات، قال ﷺ: «ألا أدلكم على شيء يكفر الخطايا ويزيد في الحسنات»، قالوا بلى يا رسول الله، قال «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد...» [رواه مسلم].

وقد ورد في فضل الوضوء قبل النوم، قوله ﷺ: «من بات طاهراً بات في شعاره ملك، لا يستقيظ ساعة من الليل إلا قال الملك: اللهم اغفر لعبدك فلان فإنه بات طاهراً» [صحيح الترغيب].

وفي الحديث: فضل الوضوء، وأنه يكفر الخطايا.

١٣٠- الرَّابِعَ عَشَرَ: عنه عن رسول الله ﷺ قال: «الصَّلَاةُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكْفَرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنِبْتَ الْكِبَائِرَ» [رواه مسلم].

* الصلاة أمرها عظيم وفضلها كبير، وذكر النبي ﷺ في هذا الحديث أن «الصَّلَاةُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكْفَرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنِبْتَ الْكِبَائِرَ» أي، واجبات ومذهبات للذنوب، وهذا من فضل الله - عز وجل - أن هذه العبادات يكفر الله بها السيئات إذا اجتنبت كبائر الذنوب، لأن الكبائر تلزمها التوبة بشروطها المعروفة.

ومن فضل الله أن جعل لعباده مواسم خير للتزود من الطاعات ومحو الخطايا والسيئات. فالمسلم يغتنم هذه المواسم وهذه الفرص ليفوز بالأجر والمثوبة.

وهذا الحديث ذكره المؤلف - رحمه الله - في باب كثرة طرق الخير، وذكر منها كما في الحديث الصَّلَاةُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ. فهي تمر كل يوم، وكل جمعة، وكل سنة، على مدار العام والله الحمد. وفي الحديث: بيان فضل الله - عز وجل - وجوده وكرمه، وأنه يعطي على القليل من العمل الصالح الأجور العظيمة.

قال النووي: «قد يقال: إذا كفر الوضوء فماذا تكفر الصلاة؟ وإذا كفرت الصلاة فماذا تكفر الجمعات ورمضان؟ وكذلك صوم عرفة كفارة سنتين، ويوم عاشوراء كفارة سنة، وإذا وافق تأمينه تأمين الإمام غفر له ما تقدم من ذنبه؟

فالجواب: أن كل واحد من هذه المذكورات صالح للتكفير، فإن وجد ما يكفره من الصغائر كفره، وإن لم يصادف صغيرة ولا كبيرة كتب به حسنات، ورفع به درجات، وإن صادف به كبيرة أو كبائر، ولم يصادف صغيرة، رجونا أن يخفف من الكبائر، والله أعلم»

وفي قوله ﷺ «إذا اجتنبت الكبائر» يدل على أن الكبائر إنما تغفر بالتوبة المعبر عنها بالاجتناب في قوله تعالى: ﴿إِنْ مَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]. هذا هو مذهب أهل السنة، فإن الكبائر إنما يكفرها التوبة ورحمة الله وفضله.

ومن السنن الواردة في يوم الجمعة: كثرة الصلاة على النبي ﷺ، والاعتسال والتطيب، والتبكير إلى الجمعة، وقراءة سورة الكهف، والصلاة قبل الجمعة ما يتيسر له، والصلاة بعدها.

قال شيخ الإسلام: «إن صليت راتبة الجمعة في المسجد فصل أربعاً، وإن صليتها في البيت فصل ركعتين».

وقال ابن عثيمين: «يصلي أحياناً أربعاً، وأحياناً ركعتين».

قال ابن الجوزي: «تحصيل الجنة سهل بتصحيح القصد وفعل الطاعة، والنار كذلك بموافقة الهوى وفعل المعصية».

وفي الحديث: فضل الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، وأنهن مكفرات لما بينهن إذا اجتنب الكبائر.

وفيه: فضل الله - عز وجل - على عباده.

وفيه: بيان كثرة طرق الخير.

١٣١ - الخَامِسَ عشر: عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أَدْلُكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟» قالوا: بلى يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكَ رَبَّاطٌ» [رواه مسلم].

* فضل الله واسع وعطاؤه جزيل، بأعمال يسيرة يمحو الخطايا ويرفع الدرجات، وهذا من جوده وكرمه، وكان النبي ﷺ يبتدئ الصحابة يعلمهم ما يفيدهم في أمر دينهم ويحثهم عليه.

وفي هذا الحديث دل النبي ﷺ على بعض هذه العبادات. فقال ﷺ: «أَلَا أَدْلُكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ الدَّرَجَاتِ» ومحو الخطايا: كناية عن غفرانها، ويحتمل محوها من كتاب الحفظة، ويكون دليلاً على غفرانها.

ورفع الدرجات: أعلى المنازل في الجنة. قالوا: بلى يا رسول الله، طمعاً في الخير والزيادة منه. قال ﷺ: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ». وإسباغ الوضوء: تمامه.

والمكاره: تكون بشدة البرد، وألم الجسم ونحو ذلك وهذا يدل على قوة الإيمان، لكن إذا تيسر الماء الدافئ يكون أفضل؛ لأنه أعون على الإسباغ وكمال الوضوء.

وكثرة الخطا: تكون ببعد الدار وكثرة التكرار. وهي ثلاثة أمور يمحو الله بها الخطايا ويرفع الدرجات منها: الأمر الأول: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ» أي: إتمام الوضوء في أيام الشتاء والماء بارد، وهذا فيه مشقة على النفس، فإذا أسبغ الإنسان وضوءه وأتمه رغم شدة البرد وبرودة الماء دل هذا على كمال الإيمان وطاعة الله - عز

وجل - وامثال أمره، فيرفع الله بذلك العمل درجات العبد ويحط عنه خطيئته. قال النووي - رحمه الله -: «وإسباغ الوضوء تمامه، والمكراه: تكون بشدة البرد، وألم الجسم ونحو ذلك».

والأمر الثاني الذي ذكر الرسول ﷺ: «كثرة الخطا إلى المساجد» في الصلوات المكتوبة، وكلما بُعِدَ المسجد عن البيت زادت الحسنات، فإن المسلم إذا توضأ في بيته وأسبغ الوضوء، ثم خرج إلى المسجد، لا يخرج إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفع الله له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة.

قال النووي: «تكون ببعد الدار وكثرة التكرار وانتظار الصلاة بعد الصلاة» الأمر الثالث: «انتظار الصلاة بعد الصلاة» فهو إذا فرغ من صلاة فهو في شوق، وقلبه ينتظر الصلاة الأخرى ولو كان في بيته أو شغله، وهذا دلالة إيمان ومحبة وهذه عبادة بمفردها، في حديث السبعة «الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» ذكر منهم: «ورجل قلبه معلق بالمساجد».

الأمر الرابع: الرباط، لقوله ﷺ: «فذلکم الرباط» الرباط أصله الإقامة على جهاد العدو، وهو من أعظم الأعمال لأن فيه حفظ بلاد المسلمين ورد المعتدين. فلذلك ختم هذا بالحديث.

والأعمال التي ذكرها ﷺ من إسباغ الوضوء، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة والمحافظة عليها، هي كالجهاد في سبيل الله لما فيه من جهاد النفس وجسدها عن الشهوات.

وليعلم أن الكبائر لا تكفرها الفرائض، بل تكفر الصغائر مطلقاً ولا تكفر الكبائر، لقوله ﷺ: «ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت له كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يؤت كبيرة وذلك الدهر كله» [رواه مسلم].

قال الأوزاعي: «خمسة كان عليها الصحابة والتابعون: لزوم الجماعة، واتباع السنة، وعمارة المساجد، والتلاوة، والجهاد».

١٣٢ - السَّادِسَ عَشَرَ: عن أَبِي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ» [متفقٌ عليه].
الْبَرْدَانِ: الصُّبْحُ وَالْعَصْرُ.

* في الحديث ذكر الصلاة وعظم أمرها، وكثرة فضلها ورفع منزلتها، إذ هي الركن الثاني من أركان الإسلام، وقد قال ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر». ولا نزال نقرأ من أحاديث النبي ﷺ في باب كثرة طرق الخير، وفي هذا الحديث ذكر النبي ﷺ أن: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ» وهما، صلاة الفجر وصلاة العصر.

«دخل الجنة» وذلك لما فيهما من المشقة وبذل النفس، والقيام لادائها دلالة على الإيمان، فالفجر تقع في أبرد ما يكون من الليل، وصلاة العصر تقع في أبرد ما يكون من النهار بعد الزوال. أو في أحر ما تكون في بلاد أخرى. وقوله ﷺ: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ» أي صلاة الفجر وصلاة العصر، فهاتان الصلاتان هي أفضل الصلوات، وأفضلها صلاة العصر لأنها هي الصلاة الوسطى التي قال الله - تعالى - عنها: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. المراد صلاتهما على الوجه الذي أمر به، وذلك بأن يأتي بهما في الوقت مع جماعة المسلمين في المساجد.

قال ابن تيمية: «تفويت العصر أعظم من تفويت غيرها، فإنها الصلاة الوسطى المخصوصة بالأمر بالمحافظة عليها، وهي التي فرضت على من قبلنا فضيعوها».

ولا شك أن من حافظ على هاتين الصلاتين فإن غيرهما أولى وأحرى وأشدّ محافظة.

ومن المعلوم أن النبي ﷺ لم يخصص هاتين الصلاتين تسهياً للأمر في إضاعة غيرهما، من الصلوات، أو ترخيصاً لتأخيرهما عن وقتها، وإنما أمر بأدائها في الوقت المختار، والمحافظة عليهما في جماعة لما فيهما من الفضل وزيادة الأجر.

وفي الحديث: «الذي تفوته صلاة العصر، كأنما وتر أهله وماله» [متفق عليه] وحديث: «من ترك صلاة العصر، فقد حبط عمله» [رواه البخاري].

وقد جاء في الحديث: أنه ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»، فذكر منهم - «ورجل قلبه معلق بالمساجد».

وقد قال ﷺ في الحديث الآخر «.. فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا» [رواه البخاري].

وقد عد شيخ الإسلام ابن تيمية عشرًا من مكفرات الذنوب، هي باختصار: الأول: التوبة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

الثاني: الاستغفار، كما عند مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «لو لم تذهبوا للذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم».

الثالث: الحسنات الماحية، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

الرابع: دعاء المؤمنين مثل صلاتهم على جنازته.

الخامس: ما يعمل للميت من أعمال البر كالصدقة ونحوها.

السادس: شفاععة النبي ﷺ وغيره في أهل الذنوب يوم القيامة، في الحديث:

«شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» [رواه أبو داود].

السابع: المصائب التي يكفر الله بها الخطايا.

الثامن: ما يحصل في القبر من الفتنة والضغطة والروعة، فإن هذا مما يكفر به الخطايا.

التاسع: أهوال يوم القيامة وكرهها وشدائدها.

العاشر: رحمة الله وعفوه ومغفرته بلا سبب من العباد.

وفي الحديث: فضل المحافظة على صلاة الفجر لأنها تكون عند لذة النوم، وصلاة العصر لأنها تكون عند الاشتغال بتتمة أعمال النهار.

١٣٣ - السَّابِعَ عَشَرَ: عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَرَضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا» [رواه البخاري].

* نعم الله - عز وجل - على عباده كثيرة وآلائه جسيمة، فهو يدعو الناس إلى عبادته وهو غني عنهم، ويفتح لهم باب التوبة ويناديهم إليها، ويكتب لهم على العمل القليل الأجر الكثير، يتلطف بعباده في كل وادٍ وطريق، لعلهم يرجعون، ولعلهم يتوبون.

وفي هذا الحديث بيان فضل الله وكرمه وجوده ولطفه بعباده، وأن من كان له عمل دائم من بر وخير ونوافل فتركه لعذر صحيح، أنه يكتب له مثل عمله. وهذا يخرج منه الفرائض، لأن الفرائض واجبة على المكلف قدر استطاعته. وفي هذا الحديث الفضل العظيم والأجر الجزيل الذي ذكره النبي ﷺ، وفيه الحث على العمل الصالح في حال النشاط والاستقرار حتى إذا اعتراه أمر من أمور الدنيا وهذه تمر على كل إنسان ولا بد، إما سفر أو مرض، فعند ذلك يكتب الله له أجر ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا.

فإذا كان من عادة الإنسان ودينه الصلاة مع الجماعة في المسجد، واعتراه مرض أو منعه عذر، فإن الله يكتب له أجر الصلاة مع الجماعة.

وإذا كان ممن يحافظ على النوافل أو التسبيح أو التهليل أو التكبير وانشغل في سفره ولم يقدِر بذلك، كتب الله له أجر ذلك كأنه مقيم. ومن كان يصوم الاثنين والخميس وأيام البيض تكتب له، وهكذا في الأعمال الصالحة الأخرى.

قال الحافظ في الفتح: «وهو في حق من كان يعمل طاعة فمنع منها، وكانت نيته لولا المانع أن يدوم عليها».

وهذا في أمر النوافل، أما صلاة الفرض فلا تسقط بسفر أو مرض بل لا بد من أدائها حسب الاستطاعة.

قال ابن عمر - رضي الله عنهما -: «خذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك». [رواه البخاري].

ولما مرض عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - بكى، فسأله بعض أصحابه، قالوا: هل تبكى جزعاً من المرض، فقال: «لا ولكنه قد نزل بي في وقت فترة». يعنى أن في وقت فتور من الأعمال من صيام ونوافل وقيام وغيرها.

وعلى المسلم الحرص على أداء العبادات والمستحبات والنوافل ما دام مقيماً صحيحاً، فإن عرض له عارض فإن أجره يكتب له وإن لم يعملها لسفر أو مرض. وهذا من أكبر منن الله - تعالى - على عباده المؤمنين.

وقد أورد المؤلف هذا الحديث في بيان كثرة طرق الخير وتنوعها. وفي الحديث: فضل الله - عز وجل - على عبده، وأنه يكتب له إذا مرض أو سافر ما كان يعمل مقيماً صحيحاً.

١٣٤ - الثَّامِنَ عَشَرَ: عَنْ جَابِرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ» [رواه البخاري] ورواه مسلمٌ مِنْ رِوَايَةِ حَدِيثَةٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -.

* الإسلام دين الخير وصنائع المعروف، ومساعدة الآخرين، وإغاثة الملهوف، وتفريج كربة المكروب، والوقوف مع المحتاج في الشدائد. ولقد حث النبي ﷺ على فعل المعروف فقال «**كل معروف صدقة**». والمعروف: ما عُرف في الشرع حسنه، إن كان مما يتعبد به لله، وإن كان مما يتعامل به الناس فهو مما تعارف الناس على حسنه، مثل الإحسان إلى الخلق بالمال أو بالجاه، ولين القول، وإدخال السرور.

قال الماوردي: «المعروف نوعان: قول، وعمل، فالقول: طيب الكلام وحسن البشر، والتودد بجميل القول، والباعث عليه حسن الخلق ورقة الطبع. والعمل: بذل الجاه، والإسعاف بالنفس، والمعونة في النائبة، والباعث عليه حب الخير للناس وإيثار الصلاح لهم، وهذه الأمور تعود بنفعين، نفع على فاعلها في اكتساب الأجر وجميل الذكر، ونفع على المعان بها في التخفيف والمساعدة، فلذلك سماه هنا صدقة».

قال الحافظ محمد بن معمر القرشي: «المعروف، اسم لكل ما عرف حسنه في قضايا العقول، من إعانة مظلوم، أو إغاثة مهضوم، أو تفريج عن مكروب، أو مساعدة على مطلوب، أو جبر كسير، أو إنقاذ أسير، أو مسامحة في فرط (أي في ظلم وتعدي)، أو تخليص من ورطة، أو تبسم في وجه ضعيف، أو ترطيب كبد حرّ، أو تنفيس عن نفس حيرى، أو دفع جوعة، أو ستر عورة، أو ستر خلة، أو إقالة من زلة، أو صلة رحم كاشح، أو عفو ذنب عند القدرة، أو إنظار ذي عسرة إلى أوان الميسرة، أو إغضاء عن حق، أو فك رقبة، أو إطعام في يوم ذي مسغبة، يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة، أو إلقاء كلمة طيبة».

قال الشيخ ابن عثيمين عن تنوع وكثرة طرق الخير: «تنوع العبادات والطاعات، حتى لا يمل الإنسان، ولو كان الخير طريقاً واحداً لمل الناس من ذلك وسئموا، ولما حصل الابتلاء، ولكن إذا تنوع كان ذلك أرفق بالناس وأشد في الابتلاء».

وفي قوله ﷺ «كل معروف صدقة» أي، يدفع البلايا كالصدقات، ويثاب عليه كما يثاب عليها فعلاً أو نية.

ومن فعل المعروف في السلف ما كان يفعله أبو بكر - رضي الله عنه - فقد كان يحلب الشاة لجيرانه، وعمر - رضي الله عنه - كان يفعل ذلك للأرامل والأيتام.

وكان زيد الياامي إذا كانت الليلة مطيرة، أخذ شعلة من النار فطاف بها على عجائز الحي، فقال: «أتريدون ناراً؟» فإذا أصبح طاف على عجائز الحي فقال: «ألكم في السوق حاجة، أتريدون شيئاً».

وكان عبد الله بن فرج الواسطي، قد وقف نفسه على مصالح المسلمين، والمشي في قضاء حوائجهم، وكان أكثر همه تجهيز الموتى على الطرق».

وعن معمر: أن طاووساً، أقام على رفيق له مريض يخدمه حتى فاته الحج». وقال عبد الله بن عثمان الأزدي: «ما سألتني أحد حاجة إلا قمت له بنفسي، فإن تم وإلا قمت له بمالي، فإن تم وإلا استعنت بالإخوان، فإن تم وإلا استعنت بالسلطان».

وفي إطلاق كلمة المعروف، فتح لأبواب الخير جميعها حتى ينال منها كل مسلم ما يستطيع ويتيسر له.

قال ﷺ: «كل معروف صدقة، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة، وأول من يدخل الجنة هم أهل المعروف» [صحيح الترغيب والترهيب].

وعلى المسلم أن يجتهد في فعل المعروف مما يستطيعه ولا يشق عليه، فبفعل المعروف يطيب عيشه، وتطمئن نفسه وتتوثق صلته بمن حوله، ويكون

المجتمع متواداً متراحماً متعاطفاً، مع ما ينالهم من الأجر والثواب لمن
صلحت نيته وحسن قصده. وكل ما يفعله المؤمن من أعمال البر والخير له
ثواب وأجر مع حسن النية والقصد.

١٣٥ - التاسع عشر: عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلَّا كَانَ مَا أَكَلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وما سُْرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، ولا يَرْزُؤُهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ» [رواه مسلم]. وفي رواية له: «فَلَا يَغْرِسُ الْمُسْلِمُ غَرْسًا، فَيَأْكُلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ وَلَا دَابَّةٌ وَلَا طَيْرٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». وفي رواية له: «لا يَغْرِسُ مُسْلِمٌ غَرْسًا، ولا يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ وَلَا دَابَّةٌ وَلَا شَيْءٌ إِلَّا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةٌ»، وروياه جميعاً من رواية أَنَسٍ - رضي الله عنه -.. قوله: «يَرْزُؤُهُ» أي: يَنْقُصُهُ.

* أنزل الله آدم إلى الأرض واستخلفه عليها وأمره بعمارها، وفي الحديث الحث على الغرس للأشجار والزراعة. وذكر فضل عمارة الأرض، وأنها من الأعمال التي لا ينقطع فيها الثواب بموت فاعلها، وينتج عن ذلك إحياء الأرض وتحصيل النفع لمخلوقات الله - عز وجل - وتيسير أمورهم وقضاء حوائجهم. وكذلك ما أكل منه من طير أو عصفور أو حمامة أو دجاجة أو غيرها ولو حبة واحدة، فإنها له صدقة. والمسلم يثاب على ما سُْرِقَ من ماله، أو ما غصب منه، أو أتلف منه، إذا صبر واحتسب ذلك عند الله - تعالى -..

ويؤجر المسلم بعد موته وذلك في ستة كما في الحديث: «**صدقة جارية، أو علم ينفع به، أو ولد صالح يدعو له، أو غرس أو زرع، أو الرباط، فللمرابط ثواب عمله إلى يوم القيامة**».

قال النووي: «في هذه الأحاديث فضيلة الغرس وفضيلة الزرع، وأن أجر فاعلي ذلك مستمر ما دام الغرس والزرع، وما تولد منه إلى يوم القيامة». وقد اختلف العلماء في أطيب المكاسب وأفضلها، فقيل التجارة، وقيل الصنعة باليد، وقيل الزراعة وهو الصحيح. قال النووي: «وأفضلها الزراعة». ولا شك أن الزراعة عماد الأرض وفيها منافع ومصالح كثيرة للناس من

توفير أرزاقهم وطعامهم، وما يأكل منها من طير أو دابة أو حيوان، وكذلك ما يؤخذ منها بغير علمه فهو صدقة.

وفي قوله ﷺ «**ما من مسلم**» خص المسلم بالذكر، لأنه ينوي عند الغرس غالباً أن يتقوى بذلك الغرس المسلمون على عبادة الله - تعالى -، ولأنه هو الذي يحصل له الثواب. وفي الحديث دليل على كثرة طرق الخير، وأنه ما انتفع به الناس من الخير، فإن لصاحبه أجراً فيه، سواء نوى أو لم ينو. قال في فيض القدير: «والحاصل أنه مبالغة في الحث على غرس الأشجار، وحفر الأنهار، لتبقى هذه الدار عامرة إلى آخر أمدّها المحدود المعدود المعلوم عند خالقها، فكما غرس لك غيرك فانتفعت به، فاغرس لمن يجيء بعدك ليتنفع، وإن لم يبق في الدنيا إلا صباغة، وذلك بهذا القصد لا ينافي الزهد والتقلل من الدنيا».

وفي الحديث: سعة كرم الله - تعالى -، وأنه يثيب على ما بعد الحياة، كما يثيب عليه في الحياة، وأن ما أخذ من الإنسان بغير علمه فهو صدقة له. قال في فيض القدير: «أي يثاب عليه ثواب الصدقة، وإن لم يكن باختياره ولم يعلم به».

وقد جاء في الحديث عنه ﷺ أنه قال: «**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها**» [صحيح الجامع].

نقل أن رجلاً مر بأبي الدرداء وهو يغرس جوزة، فقال: أتغرس هذه وأنت شيخ كبير، وهذه لا تطعم إلا في كذا وكذا عام. فقال: «ما عليّ أن يكون لي أجرها ويأكل منها غيري».

وقد جاء في غرس الآخرة ما رواه ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقيت إبراهيم عليه السلام ليلة أسري بي، فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غرسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**» [رواه الطبراني].

١٣٦- العُشْرُونَ: عَنْهُ قَالَ: أَرَادَ بَنُو سَلَمَةَ أَنْ يَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ؟» فَقَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ، فَقَالَ: «بَنِي سَلَمَةَ دِيَارَكُمْ، تَكْتُبُ آثَارَكُمْ، دِيَارَكُمْ، تَكْتُبُ آثَارَكُمْ» [رواه مسلم].

وفي رواية: «إِنَّ بِكُلِّ خُطْوَةٍ دَرَجَةٌ» [رواه مسلم. ورواه البخاري أيضاً بمعناه من رواية أنس - رضي الله عنه -].

وبَنُو سَلَمَةَ بكسر اللام: قبيلة معروفة من الأنصار - رضي الله عنهم -، و آثَارُهُمْ خُطَاهُمْ.

* المساجد بيوت الله، وأضافها - عز وجل - إليه زيادة في شرفها ورفعها، والقرب من المساجد نعمة عظيمة، فيسمع جار المسجد الأذان ويكر إلى الصلاة، وكذلك النساء يسمعن في البيوت الأذان، وقراءة القرآن، والدروس والمحاضرات. وفي هذا الحديث دليل على كثرة طرق الخير، وأن منها المشي إلى المسجد، فيرفع الله به الدرجات ويحط به الخطايا.

وقد أراد بنو سلمة وهم بطن من الأنصار أن ينتقلوا من منزلهم الذي كانوا به، وكان بعيداً عن المسجد النبوي، فبلغ ذلك النبي ﷺ فنصح لهم قائلاً: «بَلِّغْنِي أَنَّكُمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ؟».

فقالوا: نعم، يا رسول الله أردنا ذلك.

فبين لهم النبي ﷺ بقوله: «بَنِي سَلَمَةَ دِيَارَكُمْ، تَكْتُبُ آثَارَكُمْ، دِيَارَكُمْ، تَكْتُبُ آثَارَكُمْ» أي، الزموا دياركم ولا تنتقلوا إلى قرب المسجد لأنه تكتب آثار أقدامكم وخطاكم لحضور الجمعة والجماعات. وفي رواية «بِكُلِّ خُطْوَةٍ دَرَجَةٌ».

وذلك أن الأجر على قدر ما يبذل المكلف من جهد يحتاج إليه العمل دون أن يتكلف زيادة هذا الجهد أو تخفيفه.

وفي الحديث: الحث على حضور صلاة الجماعة في المسجد ولو كان يسكن بعيداً عنه.

وجاء في الحديث الآخر أن الإنسان إذا مشى إلى المسجد فإنه لا يخطو خطوة إلا رفع الله بها درجة وخط بها عنه خطيئة، قال ﷺ: «من توضأ فأصبغ الوضوء، ثم خرج من بيته إلى المسجد، لا يُخرجه إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا كتب الله له بها درجة، وخط عنه بها خطيئة».

قال ابن تيمية: «خير الأعمال ما كان لله أطوع ولصاحبه أنفع، وقد يكون ذلك أيسر العاملين، وقد يكون أشدهما، فليس كل شديد فاضلاً ولا كل يسير مفضولاً».

وفي الآي الكريم ﴿إِنَّا خَنُّ نَحْيِ الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

قال السعدي: «أي، نبعثهم بعد موتهم لنجازيهم على الأعمال ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ من الخير والشر وهو أعمالهم التي عملوها وباشروها في حال حياتهم، ﴿وَوَآثَرَهُمْ﴾ وهي آثار الخير وآثار الشر التي كانوا هم السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد وفاتهم، وتلك الأعمال التي نشأت من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فكل خير عمل به أحد من الناس بسبب علم العبد وتعليمه ونصحه وأمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر، أو علم أودعه عند أحد المتعلمين، أو في كتب يتتبع بها في حياته وبعد موته، أو عمل خيراً من صلاة أو زكاة، أو صدقة أو إحسان، فاقتدى به غيره، أو عمل مسجداً، أو محلاً من المحال التي يرتفق بها الناس وما أشبه ذلك، فإنها من آثاره التي تكتب له، وكذلك عمل الشر».

وفي الحديث: فضل المشي إلى المسجد.

وفيه: تنوع وتعدد وكثرة طرق الخير.

١٣٧- الْحَادِي وَالْعَشْرُونَ: عَنْ أَبِي الْمُنْذِرِ أَبِي بَنِي كَعْبٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: كَانَ رَجُلٌ لَا أَعْلَمُ رَجُلًا أَبْعَدَ مِنَ الْمَسْجِدِ مِنْهُ، وَكَانَ لَا تُخْطِئُهُ صَلَاةٌ فَقِيلَ لَهُ، أَوْ فَقُلْتُ لَهُ: لَوْ اشْتَرَيْتَ حِمَارًا تَرْكَبُهُ فِي الظُّلُمَاءِ، وَفِي الرَّمْضَاءِ فَقَالَ: مَا يَسُرُّنِي أَنْ مَنَزِلِي إِلَى جَنْبِ الْمَسْجِدِ، إِنِّي أَرِيدُ أَنْ يَكْتُبَ لِي مَمْشَايَ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَرُجُوعِي إِذَا رَجَعْتُ إِلَى أَهْلِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَدْ جَمَعَ اللَّهُ لَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ» [رواه مسلم].

وفي رواية: «إِنَّ لَكَ مَا اخْتَسَبْتَ». الرَّمْضَاءُ الْأَرْضُ الَّتِي أَصَابَهَا الْحَرُّ الشَّدِيدُ.

* الصلاة عماد الدين وركنه الركين، وهي فريضة الله على المؤمنين. والمشي إلى المساجد وشهود الجماعة من أسباب السعادة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وهذا الحديث في فضل وتنوع أعمال الخير، وشدة حرص الصحابة - رضي الله عنهم - على الخير والإزدياد منه، فقد ذكر أبي بن كعب أن رجلاً كان من أبعد الناس داراً عن المسجد، ولكنه كان محافظاً على الصلاة لا تفوته الجماعة في المسجد، فقيل له: لو اشتريت حماراً تركبه في الليلة الشديدة الظلمة، وفي الأيام الشديدة الحرارة لتتقي به الرَّمْضَاءَ الحارة، فقال: ما يسرني أن منزلي إلى جنب المسجد، أريد أن يكتب لي ممشاي إلى المسجد، ورجوعي إلى أهلي. فقال له النبي ﷺ: «قَدْ جَمَعَ اللَّهُ لَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ» أي، ممشاك إلى المسجد، ورجوعك إذا رجعت منه إلى منزلك.

وفي هذا الحديث دلالة على فضل تكثير الخطا إلى الذهاب إلى المسجد، وأنه يكتب له أجر ذهابه إلى المسجد ورجوعه إلى أهله والاحتساب في ذلك طلباً للأجر والمثوبة.

قال القرطبي: «قال الداودي: إن كانت له ذنوب حطت عنه وإلا رفعت له بها درجات، قلت - أي القرطبي -: وهذا يقتضي أن الحاصل بالخطوة درجة واحدة، إما الحط وإما الرفع».

وقال غيره: بل الحاصل بالخطوة الواحدة ثلاثة أشياء لقوله في الحديث الآخر **«كتب له بكل خطوة حسنة، ورفع به درجة، ويحط بها عنه سيئة»**. قال الإمام النووي: «فيه إثبات الثواب في الخطأ في الرجوع كما ثبت في الذهاب». وفي قوله ﷺ **«إن لك ما احتسبت»** فيه، احتساب الأجر على الله في الذهاب إلى المسجد والعودة منه.

ومحو الخطايا: كناية عن غفرانها، ويحتمل محوها من كتاب الحفظة، ويكون دليلاً على غفرانها.

ورفع الدرجات: أعلى المنازل في الجنة. وإسباغ الوضوء: تمامه. والمكارة: تكون بشدة البرد وألم الجسم ونحو ذلك. وكثرة الخطا: تكون ببعد الدار وكثرة التكرار.

وقد أعد الله نزلاً لمن غدا إلى المسجد أو راح، لقوله ﷺ: **«من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له نزلاً في الجنة كلما غدا أو راح»** [ابن خزيمة في صحيحه].

والمشي إلى صلاة الجماعة تمحى به الخطايا لحديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: **«ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟»** قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **«إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلك الرباط»** [رواه مسلم].

وفي الحديث: فضل المشي إلى المساجد ذهاباً وإياباً.

وفيه: فضل الله الواسع على عباده المصلين.

١٣٨ - الثاني والعشرون: عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرْبَعُونَ خَصْلَةً أَعْلَاهَا مَنِيحَةُ الْعَنْزِ، مَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَلُ بِخَصْلَةٍ مِنْهَا رَجَاءَ ثَوَابِهَا وَتَصَدِّقَ مَوْعُودِهَا إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ بِهَا الْجَنَّةَ» [رواه البخاري].

«الْمَنِيحَةُ»: أَنْ يُعْطِيَهُ إِيَّاهَا لِيَشْرَبَ لَبْنَهَا ثُمَّ يَرُدَّهَا إِلَيْهِ.

* حض النبي ﷺ على أبواب كثيرة من أبواب الخير والبر لا تحصى كثرة، وفي هذا الحديث قال ﷺ: «أَرْبَعُونَ خَصْلَةً» أي، من البر والعمل الطيب الصالح دون منيحة العنز، كالسلام، وتشميت العاطس، وإماطة الأذى عن الطريق، ومنحة المركوب، وإطعام الجائع، وسقاية الظمآن، والإصلاح بين الناس، ونصر المظلوم، وعيادة المريض، والنصح لكل مسلم، وغيرها من أعمال البر.

«أَعْلَاهَا مَنِيحَةُ الْعَنْزِ» أي، أن أعلاها في المرتبة منيحة العنز - وهي أنثى الماعز -: وهي أن يعطيه إياها ليتتفع بلبنها ثم يردّها إليه. قال النووي: «تستحب المنيحة، وهي أن تكون له ناقة أو بقرة أو شاة ذات لبن، فيدفعها إلى من يشرب لبنها مدة، ثم يردّها إليه».

قال ابن بطال: «ولم يذكر الأربعين خصلة في الحديث ومعلوم أنه كان عالماً بها كلها لا محالة، إلا لمعنى هو أنفع لنا من ذكرها، وذلك والله أعلم خشية أن يكون التعيين لها والترغيب فيها زهداً في غيرها من أبواب المعروف وسبل الخير، وقد جاء عنه - عليه السلام - من الحض على أبواب من أبواب الخير والبر ما لا يحصى كثرة».

واشترط النبي ﷺ في ذلك الإيمان والاحتساب لموعد الله عليها من الثواب. فقال «رجاء ثوابها وتصديق موعودها».

وفي قوله «**إلا أدخله الله بها الجنة**» أي، بسبب قبوله عمله بفضلله ومنه، فدخل الجنة بفضلله لأبعمله.

ومن أعمال البر: إعانة الصانع، والصنعة لأخرق، وإعطاء شسع النعل، والستر على المسلم، والذب عن عرضه. وإدخال السرور عليه، والتفسيح له في المجلس، والدلالة على الخير، والكلام الطيب، والغرس، والزرع، والشفاعة، وعيادة المريض، والمصافحة، والمحبة في الله، والبغض لأجله، والمجالسة، والتزاور، والنصح، والرحمة، وغيرها مما وردت في الأحاديث الأخرى.

قال ابن حزم: «ينبغي أن يرغب الإنسان العاقل في الاستكثار من الفضائل وأعمال البر التي تستحق من هي فيه الذكر الجميل والثناء الحسن، وحميد الصفات، فهي التي تقربه من بارئه - تعالى -، وتجعله مذكوراً عنده - عز وجل - الذكر الذي ينفعه، ويحصل على بقاء فائدته، ولا يبيد أبداً الأبد».

وقال ابن القيم: «أعمال البر تنهض بالعبد وتقوم به، وتصعد إلى الله به، فيحسب قوة تعلقه بها يكون صعوده مع صعودها».

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: صاحب المعروف لا يقع، فإن وقع وجد متكئاً. فإن المعروف ذخيرة الأبد، والسعي في شئون الناس زكاة أهل المروءات. وكان الأنبياء - عليهم صلوات الله وسلامه عليه - أهل معروف وإعانة للمحتاجين، كما فعل موسى حين استغاثه الإسرائيلي فسارع لإغاثته.

ويوسف - عليه السلام - وهو في السجن كان صاحب معروف ﴿إِنَّا نَزَّلْنَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

قال الضحاك: «كان إحسانه إذا مرض رجل في السجن قام عليه، وإذا ضاق عليه المكان وسع له، وإذا احتاج أحد سأل وجمع له».

وكان لبنينا محمد ﷺ اليد الطولى في الخير كما قالت خديجة - رضي الله عنها -: «إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر».

١٣٩ - الثالث والعشرون: عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» [متفق عليه].
وفي رواية لهما عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكِلُّهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيَمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ».

* مرت بنا أحاديث سابقة كلها في بيان بعض طرق الخير، ليجعل المسلم بينه وبين النار من العمل الصالح ما يحفظه من دخولها، ويقيه حرها وسمومها. وقد وصف الله - عز وجل - عبادة المتقين بقوله: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ أَلْيَلٍ مَا يَهْجَعُونَ﴾ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) [الذاريات: ١٧ - ١٩].

وقد وعد وهو الجواد الكريم بالخلف لمن أنفق، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ (سبأ: ٣٩).

وفي الحديث أنه ﷺ قال: «الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما تطفئ الماء النار» [صحيح الترغيب والترهيب].

وعد النبي ﷺ السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وذكر منهم رجلاً «تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» [متفق عليه].

وفي الحديث بيان حال العبد يوم القيامة ووقوفه بين يدي الله ليس بينه وبينه ترجمان - وهو الذي ينقل الكلام من لغة إلى أخرى - ولا حجاب ولا واسطة. فينظر عن يمينه فلا يرى إلا ما قدم من عمل صالح، وينظر عن يساره فلا يرى إلا سيء عمله، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار.

ثم حذر ﷺ من ذلك الموقف وشدته فقال: «**اتقوا النار**» أي، اجعلوا بينكم وبينها وقاية.

«**ولو بشق ثمرة**» أي، ولو بنصف ثمرة أو أقل، فإن الصدقة حجاب عن النار وإن قلت.

«**فمن لم يجد بكلمة طيبة**» أي، فمن لم يجد شق الثمرة فبقول حسن، يطيب به قلب المسلم، وتشمل الكلمة الطيبة، قراءة القرآن، والتسبيح والتهليل والتكبير، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم وتنبيه الجاهل وغيرها.

وفي الحديث دليل على أن الصدقة ولو قلت تنجي من النار، لقوله ﷺ «**اتقوا النار لو بشق ثمرة**».

قال يحيى بن معاذ: «ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا الحبة من الصدقة». وقال ابن القيم: «فإن الصدقة تفدي من عذاب الله - تعالى -، فإن ذنوب العبد وخطاياهم تقتضي هلاكه، فتجيء الصدقة تفديه من العذاب، وتفكه منه، ولهذا قال النبي ﷺ في الصحيح لما خطب النساء يوم العيد: «**يا معشر النساء، تصدقن ولو من حليكن، فإني رأيتكن أكثر أهل النار**» وكأنه حثهن ورغبهن على ما يفدين به أنفسهن من النار.

وأثر الصدقة واضح على النفس، وفي بركة الأموال والأولاد، ودفع البلاء، وجلب الرخاء، كما أن المتصدق كلما تصدق بصدقة انشرح لها قلبه، وانفسح بها صدره».

وقال - رحمه الله -: «فالمصدق يعطيه الله ما لا يعطي الممسك، ويوسع عليه في ذاته وخلقه ورزقه ونفسه وأسباب معيشتة جزاء له من جنس عمله».

وفي الحديث: الحث على الصدقة وبذل المعروف، والتخلق بالخصال الحميدة، والمعاملة باللطف ولين الكلام.

١٤٠ - الرَّابِعُ والعَشْرُونَ: عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيُحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيُحْمَدَهُ عَلَيْهَا» [رواه مسلم].
و«الأكلة» بفتح الهمزة: وهي الغدوة أو العشوة.

* الله - جل وعلا - هو الرزاق، وعطاءه لا ينفد، يعطي الأكلة والشربة ويثيب عليها إذا اقترنت بنية صالحة كالإعانة على الطاعة والعبادة، ثم يثيب من حمده عليها وشكره فهو الذي يستحق ذلك وحده لا شريك له.
وفي الحديث عنه ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ» وصفه الرضا لله تعالى نبتها له - عز وجل - من غير تكليف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف، ولا تبديل ولا تمثيل كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.
«يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ فَيُحْمَدُهُ عَلَيْهَا» الحمد هنا بمعنى الشكر، ولا يوضع الشكر في موضع الحمد.

قال القرطبي: «وفيه: دلالة على أن شكر النعمة وإن قلت سبب نيل رضا الله الذي هو أشرف أحوال أهل الجنة، وإنما كان الشكر سبباً لذلك الإكرام العظيم، لأنه يتضمن معرفة المنعم، وانفراده بخلق تلك النعمة، وإيصالها إلى المنعم عليه تفضلاً من المنعم وكرماً».

وفي الحديث الآخر كما عند الترمذي أنه ﷺ قال: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر».

ورضى الله - عز وجل - قريب من عباده، قد ينال بأدنى سبب لجوده وكرمه وإحسانه.

قال بعض السلف: أن الأكل من الدين، وعليه نبه رب العالمين، بقوله ﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وللأكل والشرب آداب منها: أن يستطيب طعامه وشرابه، بأن يعدهما من الحلال الطيب الخالي من شوائب الحرام من ربا وسرقة ورشوة وغيرها، وأن ينوي بأكله وشربه التقوي على العبادة ليثاب على ما أكله وشربه وأن يغسل يديه قبل الأكل إن كان بهما أذى.

ومن الآداب أيضاً؛ الأكل والشرب باليمين، ولا يحل له أن يأكل بشماله أو يشرب بشماله، وعدم الجلوس متكئاً، ومنها التسمية عند الأكل وهي واجبة، وعدم عيب الطعام أو ذمه، وأن يأكل بثلاثة أصابع من يده اليمنى، وحمد الله بعد الانتهاء من الأكل أو الشرب. والدعاء لمن قدم له الطعام وأكرمه.

وفي الحديث أنه ﷺ قال: «يا غلام سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك» [رواه البخاري] وفي هذا دليل على أن التسمية - إذا كانوا جماعة - تكون من واحد، فكل واحد يسمي ولا يكفي أن يسمي واحد عن الجميع، بل كل إنسان يسمي عن نفسه.

وفي الحديث: الحث على شكر الله - عز وجل - وسعة فضله وكثير نعمه، وأن من آداب الأكل والشرب الحمد في آخره بعد نهاية الأكل والشرب.

وكان الإمام أحمد يقول: «أكل وحمد خير من أكل وسكوت».

وذكر أن خالد بن معدان كان يقول: «أكل وحمد خير من أكل وصمت».

وكان نوح - عليه السلام - إذا أكل قال: الحمد لله، وإذا شرب قال: الحمد لله، وإذا ركب قال: الحمد لله، فسماه الله عبداً شكوراً.

وقد سئل الإمام أحمد عن قول النبي ﷺ «ثلث لطعامك وثلث للشراب، وثلث للنفس...» فقال: «ثلث الطعام هو القوت، وثلث الشراب هو القوى، وثلث النفس هو الروح».

وقال - رحمه الله - في آداب وحال الأكل: «يأكل بالسروور مع إخوانه وخلانه، وبالإيثار مع الفقراء، وبالمروءة مع أهل الدنيا».

قال ابن مالك: «من السنة ألا يرفع صوته بالحمد عند الفراغ من الأكل إذا لم يفرغ جلساؤه كيلا يكون منعاً لهم».

١٤١ - الْخَامِسُ وَالْعَشْرُونَ: عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: «يَعْمَلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ: «يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ قَالَ: «يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَوْ الْخَيْرِ» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: «يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ» [متفقٌ عليه].

* لا يزال المؤلف - رحمه الله - يورد أحاديثاً في بيان كثرة طرق الخير وتنوعها، وعلى المسلم المبادرة إليها والسعي لها، لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

ومنها هذا الحديث الذي ذكر فيه النبي ﷺ أن: «**على كل مسلم صدقة**» شكرًا لنعم الله - تعالى - التي لا تعد ولا تحصى، وقول النبي ﷺ على سبيل الاستحباب المتأكد، أو على ما هو أعم من ذلك. فستل النبي ﷺ إن لم يجد المرء صدقة مالية يتصدق بها؟ فقال ﷺ: «**يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق**» وفيه الحث على الاكتساب والسعي لتوفير حاجته والتصدق بشيء من ذلك، وهو مأجور في السعي لا عفاة نفسه، وينفع غيره بثمرة عمله بالصدقة التي دفعها. فقبل للنبي ﷺ: (أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟) أي، العمل المذكور ليتصدق منه لعدم مقدرته أو ضعفه، أو عدم تيسر العمل. قال الحافظ: «كأنهم فهموا من لفظ الصدقة العطية، فسألوا عمن ليس عنده شيء، فبين لهم أن المراد بالصدقة، ما هو أعم من ذلك، ولو بإغاثة الملهورف والأمر بالمعروف».

قال: «**يعين ذا الحاجة الملهورف**» أي: يعين المضطر، وإعانتة مساعدته، إما أن يحمله على دابته، أو يعينه على حمل متاعه، أو غير ذلك.

ف قيل للنبي ﷺ: **(أرأيت إن لم يستطع؟)** لعدم وجود مضطر أو عدم استطاعته كشيخ كبير، أو امرأة أو غير ذلك.

قال ﷺ: **«يأمر بالمعروف أو الخير»** أي، وينهى عن المنكر، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متلازمان.

قال **(أرأيت إن لم يفعل)** وهو معذور في ترك أمر غير قادر عليه، وهي ليست بالترتيب وإنما للإيضاح والبيان لما يفعله من عجز عن خصلة الخصال المذكورة فإنه يمكنه خصلة أخرى.

قال ﷺ: **«يمسك عن الشر فإنها صدقة»** أي، يحبس نفسه ويمنعها عن الشر. قال الزين بن المنير كما في الفتح: «إنما يحصل ذلك للممسك عن الشر إذا نوى الإمساك القربة بخلاف محض الترك، والإمساك أعم من أن يكون من غيره، فكأنه تصدق عليه بالسلامة منه، فإن كان شره لا يتعدى نفسه فقد تصدق على نفسه بأن منعها من الإثم».

وكف الشر والأذى داخل في أعمال الإيمان، ولا يقل ثواباً عن الصدقة والإيمان.

في الحديث: أنه ﷺ أو جب الصدقة على كل مسلم، وجعلها خمس مراتب على البدل: الأولى الصدقة بماله، فإن لم يجد اكتسب المال، فنفق وتصدق، وفيه دليل وجوب الكسب، فإن لم يستطع فيعين المحتاج ببدنه، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يفعل فيكف عن الشر، فالأوليان تقع بالمال إما بموجود أو مكسوب، والأخريان تقع ببدن إما بيد وإما بلسان. ولا يخلو منهما إنسان.

١٤. باب في الاقتصاد في العبادة

قال الله تعالى: ﴿طه﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِيَتَشَقَّى ﴿٢﴾ ﴿طه: ١-٢﴾.
وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].
* الإسلام دين الوسطية فلا غلو ولا جفاء. وفي الاقتصاد والتوسط في العبادة إبقاء للنفس، ودفعاً للملل، لأن النفس كالدابة إذا رفق بها صاحبها حصل مراده، وإن أتعبها انقطعت.
ولما ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في الباب السابق كثرة طرق الخير، بين في هذا الباب أنه ينبغي للإنسان أن يقتصد في العبادة، فلا يكلف نفسه ما لا تطيق.
فإن الله - عز وجل - كلف العباد ما يطيقون، رحمة بهم، ورفعاً لدرجاتهم في الجنة، وأزال عنهم ما يشق عليهم ويُعبثهم.
ومن تأمل في العبادات وجد أنها سهلة ميسرة ليس فيها مشقة.
ولما نزل القرآن على رسول الله ﷺ قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى. فأنزل الله تعالى: ﴿طه﴾ ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِيَتَشَقَّى ﴿٢﴾ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن تَخْشَى ﴿٣﴾﴾.
قال قتادة: «لا والله، ما جعله شقاء، ولكن جعله رحمة ونوراً ودليلاً إلى الجنة».

بل جعل هذا القرآن سعادة في الدارين ونوراً وشفاءً، وهدى ورحمة للعالمين، وغذاء للقلوب والأرواح، وراحة للأبدان.
وفي قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ نزلت هذه الآية في جواز الفطر في السفر. أي، يريد الله بهذا الترخيص التيسير عليكم لا التعسير، لتصلوا إلى رحمته ورضوانه. والآية عامة في جميع أمور الدين، كما

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. أي: وما جعل عليكم في هذا الدين من ضيق ولا مشقة، ولا كلفكم ما لا تطيقون بل يسره غاية التيسير. فالإسلام دين يسر وليس منه عسر، فقد رفع الله عن المسلمين الحرج، ولم يكلفهم إلا ما يطيقون، ولن يحاسبهم إلا بما يعملون. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «إنما ذلك سعة الإسلام ما جعل الله من التوبة والكفارات».

وقيل في تفسير الآية: «إن المؤمن لا يتلى بشيء من الذنوب إلا جعل الله له منه مخرجاً، بعضها بالتوبة، وبعضها برد المظالم والقصاص، وبعضها بأنواع الكفارات، فليس في دين الإسلام ذنب لا يجد العبد سبيلاً إلى الخلاص من العقاب فيه».

١٤٢ - عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة قال: «من هذه؟» قالت: هذه فلانة تذكر من صلاتها قال: «مه عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا وكان أحب الدين إليه ما دأوم صاحبه عليه» [متفق عليه].

و«مه» كلمة نهى وزجر. ومعنى «لا يمل الله» أي: لا يقطع ثوابه عنكم وجزاء أعمالكم، ويعاملكم معاملة المال حتى تملوا فتتركوها، فينبغي لكم أن تأخذوا ما تطيقون الدوام عليه ليدوم ثوابه لكم وفضله عليكم.

* في هذا الحديث بيان وتوضيح لمعنى الاقتصاد في العبادة، فلا يكلف الإنسان نفسه ما لا تطيق، بل ينبغي التوسط فيها، ولزوم هدي النبي ﷺ فيها حتى لا يكل ولا يمل، فربما انقطع عن العمل وتركه بسبب هذا. روت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، فسألها: «من هذه؟».

قالت عائشة - رضي الله عنها -: هذه فلانة، وذكرت شيئاً من صلاتها وطولها، مدحاً لها وثناءً عليها.

فقال النبي ﷺ: «مه» وهو أمر بالكف. أي، أن النبي ﷺ أمر هذه المرأة أن تكف عن عملها الكثير، الذي يشق عليها وتعجز عنه في المستقبل فلا تُديمه. ثم أمر النبي ﷺ بضابط لهذا الأمر، فقال:

«عليكم بما تطيقون» أي، لا تكلفوا أنفسكم وتجهدوها، فإن الإنسان إذا أجهد نفسه، وكلف نفسه، ملت وكلت، ثم انحسرت وانقطعت.

«فوالله لا يمل الله حتى تملوا» أي، أن الله - عز وجل - يعطيكم من الثواب بقدر عملكم، مهما داومت من العمل فإن الله - تعالى - يثيبكم عليه.

قال الهروي: «معناه لا يقطع عنك فضله حتى تملوا سؤاله فتزهدوا في الرغبة إليه».

وفي الحديث الآخر: «وأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلت».

قال ابن الجوزي: «إنما أحب العمل الدائم، لأن مداوم الخير ملازم للخدمة، وليس من لازم وقتاً في كل يوم كمن لازم يوماً وانقطع شهراً. ولأنه بتركه العمل بعد دخوله فيه كان كالمعرض بعد الوصل، فهو متعرض للدم والعضل».

وقال النووي: «بدوام القليل تستمر الطاعة، بالذكر والمراقبة، والإخلاص، والإقبال على الله. بخلاف الكثير الشاق حتى ينمو القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافاً كثيرة».

والمداومة على الطاعات من خصائص عباد الله المؤمنين، قال تعالى:

﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣].

وهي وصية الله للأنبياء: ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾

[مريم: ٣١].

ومن ثمرات المداومة على الطاعة أنها سبب لحسن الخاتمة، وسبب للنجاة في الشدائد، والبعد عن الغفلة، وهي سبب لمحبة الله - عز وجل -، وسبب لمحو الذنوب، وتيسير الحساب يوم القيامة.

وفي الحديث: بيان شقيقته ﷺ ورأفته بأمته، لأنه أرشدهم إلى ما يصلحهم، وهو ما يمكنهم الدوام عليه بلا مشقة، لأن النفس تكون فيه أنشط، ويحصل منه مقصود الأعمال، وهو الحضور فيها، والدوام عليها، بخلاف ما يشق عليه، بأن يترك كله أو بعضه، أو يفعله بكلفه، فيفوته الخير العظيم.

١٤٣ - وعن أنس - رضي الله عنه - قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر أبداً ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا اعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» [متفق عليه].

* كان الصحابة حريصين على الخير، يتبعون أحوال النبي ﷺ وعبادته ليقنتوا به وليتأسوا بفعله.

وقد جاء ثلاثة رجال إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته ﷺ في بيته، أما ما كان من عبادته في المسجد أو ظاهر البيت فهم يعرفونه ويرونه، فلما أخبروا، كأنهم تقالوها، ظنوا أن وظائف رسول الله ﷺ كثيرة، فلما سمعوا عدوها قليلة، وقد راعوا الأدب حيث لم ينسبوه إلى التقصير، بل أظهروا كماله، ولا موارء أنفسهم في مقابلتهم إياها بالنبي ﷺ.

قالوا: أين نحن من النبي ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! فقال أحدهم: أصلي الليل وأحييه بالصلاة، ولا أنام شيئاً منه. وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر أبداً. أي، أصوم الأيام ما عدا يومي العيد وأيام التشريق لحرمه صومها.

وقال الثالث: أنا اعتزل النساء، فلا أتزوج أبداً، ليكون متفرغاً للعبادة.

فلما علم الرسول ﷺ بما قالوا قال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ والله إنني لأخشاكم لله».

الخشية: خوفٌ مقرون بمعرفة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

«وأنتاكم له» أي، أقومهم بحقه في طاعته - سبحانه - وترك معصيته - جل وعلا -.

قيل: «أنتاكم» إشارة إلى كمال القدرة العملية، و«أخشاكم» إشارة إلى كمال القوة العلمية.

ثم ذكر لهم ﷺ عبادته وأنه يصوم ويفطر، ويصلي ويرقد، ويتزوج النساء، فهذه سنته ﷺ، ويجب الاقتداء به ﷺ، والتوسط والاعتدال.

قال ابن تيمية: «فيه نهى النبي ﷺ عن التشدد في الدين بالزيادة على المشروع».

وقال - رحمه الله تعالى -: «والأحاديث الموافقة لهذا كثيرة في بيان أن سنته هي الاقتصاد في العبادة، وفي ترك الشهوات، خير من رهبانية النصارى، التي هي ترك عامة الشهوات من نكاح وغيره، والغلو في العبادات صوماً وصلاة».

وقد جاء في الحديث: «إِنَّ الْمُنْبِتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهراً أَبْقَى» [رواه البيهقي]. والمنبت، الذي يمشي ليلاً ونهاراً دائماً، هذا لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، بل يتعب ظهره، وقد يتعب ويعجز ويحسر ويقعد.

فالاعتقاد في العبادة من سنن النبي ﷺ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ. وفي الحديث: عدم الابتداع في الدين وتكليف النفس ما لا تطيق، وأن المباحات والمندوبات تنقلب إلى البدعة إذا خرجت عن هدى النبي ﷺ، والاقتصاد في السنة خير من الزيادة في البدعة.

١٤٤ - وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»
قَالَهَا ثَلَاثًا، [رواه مسلم].

«الْمُتَنَطِّعُونَ»: الْمُتَعَمِّقُونَ الْمُشَدِّدُونَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ التَّشْدِيدِ.

* الإسلام دين التوسط والاعتدال في الأقوال والأفعال.

قال شيخ الإسلام: «أهل السنة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل».
وفي الحديث قال النبي ﷺ:

«هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» ثلاث مرات. والهلاك ضد البقاء، يعني أنهم تلفوا
وخسروا.

وإنما ردد القول ثلاثاً تهويلاً منه، وتنبهً على ما فيه من الغائلة، وتحريضاً
على التيقظ والتبصر دونه.

قال النووي: «أي، المتعمقون، الغالون، المجاوزون الحدود في أقوالهم
وأفعالهم». والمتنطعون: هم المتشددون في أمورهم الدينية والدنيوية، وجاء
في الحديث الآخر: «لَا تُشَدِّدُوا فَيَشَدِّدَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ» [رواه أبو داود].

وفي الحديث تأكيد النبي ﷺ على هلاك المغالين في أقوالهم وأفعالهم.
وذم التكلف والتشدد في الكلام، فإن الشدة لا تأتي بخير.
ويظهر ذلك التشدد، في من يتوضأ أربعاً وخمساً وهو في عافية من ذلك،
أو يتشدد في الاغتسال من الجنابة ونحوها من العبادات.
وكل من شدد على نفسه في أمر قد وسع الله له فيه، فإنه يدخل في
هذا الحديث.

قال شيخ الإسلام: «الرهبانيات والعبادات المبتدعة التي لم يشرعها الله ورسوله من جنس تحريمات المشركين وغيرهم ما أحل الله من الطيبات، ومثل التعمق والتنطع الذي ذمه النبي ﷺ حيث قال: «هلك المتنطعون» وقال: «لو مد لي الشهر لو اصلت وصلاً يدع المتعمقون تعمقهم» مثل الجوع والعطش المفرط الذي يضر العقل والجسم، ويمنع أداء واجبات أو مستحبات أنفع منه. وكذلك الاحتفاء والعري والمشي الذي يضر الإنسان بلا فائدة.

ومن الواجب تنبيه أن الالتزام بشعائر الإسلام الظاهرة والمحافظة على حدود الله، وامتنال أوامره فهذا من واجبات الدين، وسبيل دخول جنات النعيم، ولا يعدها من التنطع إلا من يريد التملل من الشريعة، وترك واجباتها وآدابها.

وفي الحديث: أنه ﷺ قال: «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة» [متفق عليه].

وفي قوله «ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه» أي، لن يطلب أحد التشدد في الدين إلا غلب وهُزم، وكلّ وملّ وتعب، ثم استحسر فترك. فلا يتعمق أحد في الأعمال الدينية، ويترك الرفق إلا عجز وانقطع عن عمله كله أو بعضه، فتوسطوا من غير إفراط، ولا تفريط، وقاربوا إن لم تستطيعوا العمل بالأكمل، فاعملوا ما يقرب منه، وأبشروا بالشواب على العمل الدائم وإن قلّ، واستعينوا على تحصيل العبادات بفراغكم ونشاطكم. وفي الحديث: أن الدين وسط بين الغالي فيه والجافي عنه. وفيه: النهي عن التنطع والتشدد.

١٤٥- عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدُّوْا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ» [رواه البخاري].
وفي رواية له «سَدُّوْا وَقَارِبُوا وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ، الْقَصْدُ الْقَصْدُ تَبْلُغُوا».

قوله: «الدِّينُ» هُوَ مَرْفُوعٌ عَلَى مَا لَمْ يَسَمَّ فَاعِلُهُ. وروى مَنْصُوبًا، وروى: «لَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ»... وقوله ﷺ: «إِلَّا غَلَبَهُ»: أَي: غَلَبَهُ الدِّينُ وَعَجَزَ ذَلِكَ الْمُشَادُّ عَنْ مُقَاوَمَةِ الدِّينِ لِكَثْرَةِ طُرُقِهِ. وَ«الْغَدْوَةُ» سَيْرُ أَوَّلِ النَّهَارِ. وَ«الرَّوْحَةُ»: آخِرُ النَّهَارِ وَ«الدَّلْجَةُ»: آخِرُ اللَّيْلِ. وَهَذَا اسْتِعَارَةٌ، وَتَمْثِيلٌ، وَمَعْنَاهُ: اسْتَعِينُوا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بِالْأَعْمَالِ فِي وَقْتِ نَشَاطِكُمْ، وَفَرَاغِ قُلُوبِكُمْ بِحَيْثُ تَسْتَلْذُونَ الْعِبَادَةَ وَلَا تَسْأُمُونَ مَقْصُودَكُمْ، كَمَا أَنَّ الْمُسَافِرَ الْحَادِقَ يَسِيرُ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ وَيَسْتَرِيحُ هُوَ وَدَابَّتُهُ فِي غَيْرِهَا، فَيَصِلُ الْمَقْصُودَ بِغَيْرِ تَعَبٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

* أورد المؤلف - رحمه الله تعالى - هذا الحديث في باب الاقتصاد في العبادة. وفي قوله ﷺ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ يَسْرٌ» قال السيوطي: سماه يسراً مبالغة بالنسبة إلى الأديان قبله، لأن الله - تعالى - رفع عن هذه الأمة الإصر الذي كان على من قبلهم، وأوضح الأمثلة له أن توبتهم كانت بقتل أنفسهم، وتوبة هذه الأمة بالإقلاع والعزم والندم.

أمر النبي ﷺ بقوله «سَدُّوْا» أي، التزموا السداد، وهو التوسط في العمل من غير إفراط ولا تفريط، فإن الإسلام دين اليسر ورفع الحرج، فقد وضع الله - عز وجل - عن أمة محمد كل الأغلال والآصار التي كانت على الأمم السابقة. والقصد في العبادة يوصل إلى مرضاة الرب، ودوام القيام بعبوديته.
«وقاربوا» يعني سدّدوا إن أمكن، وإن لم يمكن فالمقاربة.

«وأبشروا» أي، أنكم إذا سددتم وأصبتكم، أو قاربتم، فأبشروا بالشواب الجزيل والخير والمعونة من الله - عز وجل -.

وفي قول النبي ﷺ «واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة». أي، استعينوا في سفركم بالسير في أطراف النهار وأوله وآخره وشيء من الليل، وهذا تمثيل للسفر المعنوي بالسفر الحسي، فإن الإنسان مسافر في هذه الدنيا إلى الآخرة كمن هو مسافر من بلد إلى بلد.

قال النووي: «معناه: اغتنموا وقت نشاطكم للعبادة، فإن الدوام لا تطيقونه، واستعينوا بها على تحصيل السداد، كما أن المسافر إذا سار الليل والنهار دائماً، عجز وانقطع عن مقصده، وإذا سار في هذه الأوقات، أي أول النهار وآخره، حصل مقصوده بغير مشقة ظاهرة، وهذه هي أفضل أوقات المسافر للسير، فاستعيرت لأوقات النشاط وفراغ القلب للطاعة»

قال ابن رجب: «معنى الحديث النهي عن التشدد في الدين، بأن يحمل الإنسان نفسه من العبادة ما لا يحتمله إلا بكلفة شديدة، وهذا هو المراد بقوله ﷺ: «لن يشاد الدين أحد إلا غلبه» يعني: أن الدين لا يؤخذ بالمغالبة، فمن شاد الدين غلبه وقطعه».

وقال ابن المنير: «في هذا الحديث علم من أعلام النبوة فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطع في الدين ينقطع».

قال في فتح الباري: «وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة، فإنه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط والمؤدي إلى الملal أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته، كمن بات يصلي الليل كله ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل فنام عن صلاة الصبح في الجماعة، أو إلى أن خرج الوقت المختار، أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة».

١٤٦- وعن أنس - رضي الله عنه - قال: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَسْجِدَ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ فَقَالَ: «مَا هَذَا الْحَبْلُ؟» قَالُوا، هَذَا حَبْلٌ لَزَيْنَبَ فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ بِهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «حُلُّوهُ، لِيُصَلَ أَحَدُكُمْ نَشَاطُهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَرْقُدْ» [متفق عليه].

* قيام الليل سنة مؤكدة، تواترت النصوص من الكتاب والسنة بالحث عليه، والتوجه إليه، والترغيب فيه، ببيان عظيم شأنه وجزالة الثواب عليه. وقد مدح الله - تعالى - أهل الإيمان والتقوى بصفات عظيمة منها قيام الليل، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٥ - ١٧].

وجاء في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الْآلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٧].

ومن الأحاديث قوله ﷺ: «أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل» [رواه مسلم].

وقد جمع الرسول ﷺ جملة من الفوائد في صلاة الليل بقوله: «عليك بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وهو قربة إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم» [رواه الترمذي].

قال ابن تيمية: «والناس في آخر الليل يكون في قلوبهم من التوجه والتقرب والركة ما لا يوجد في غير ذلك الوقت». وفي الحديث: بيان شفقة النبي ﷺ ورأفته بأمتة وإرشادهم إلى ما يصلحهم.

فقد دخل النبي ﷺ المسجد النبوي، فإذا حبل ممدود بين ساريتين. أي، بين عمودين. فتساءل ﷺ: «ما هذا؟».

قالوا: هذا حبل لزينب تربطه، فإذا تعبت من الصلاة وكسلت تعلقت به من أجل أن تنشط.

وزينب بنت جحش؛ هي أم المؤمنين - رضي الله عنها - الأسدية المدنية. تزوجها النبي ﷺ بالمدينة، وتوفيت فيها سنة عشرين، وصلى عليها عمر بن الخطاب - رضي الله عنهم -.

فقال ﷺ: «**حلوه**» أي، أزيلوه.

وفي فعله ﷺ النهي عن أن يتعمق الإنسان ويتنطع في العبادة ويشق على نفسه، بل يصلي ما استطاع ثم يترك.

قال النووي: «فيه الحث على الاقتصاد في العبادة، والنهي عن التعمق، والأمر بالإقبال عليها بنشاط، وأنه إذا فتر فليرقد حتى يذهب الفتور».

وفي الحديث: إزالة المنكر إن تمكن منه.

وفيه: جواز التنفل في المسجد للمرأة، فإنها كانت تصلي النافلة فيه فلم ينكر عليها.

١٤٧- وعن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي، فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ، فَإِنْ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعَسٌ لَا يَدْرِي لَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسْبُ نَفْسُهُ» [متفق عليه].

* أورد المؤلف - رحمه الله تعالى - هذا الحديث في باب الاقتصاد في العبادة. وفيه، عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -: أن رسول الله ﷺ قال:

«إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ» أي: غالبه النوم من تعب أو كسل، والنعاس أول مقدمات النوم، وفيه الحث على الإقبال على الصلاة بخشوع وفراغ قلب ونشاط. «فليرقد» أي، ليتجاوز في الصلاة ويتمها وينام.

«فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري، لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه» أي: لعل الذي يصلي وهو ناعس لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه، لا يدري بما يقوله فيبدل الكلام.

قال القرطبي: «نبه على علة ذلك، وهي أن توقع منه ما يكون من الغلط فيما يقرأ أو يقول»

وقال ابن بطل: «قد ذكر ﷺ العلة الموجبة لقطع الصلاة، وذلك أنه خاف إذا غلبه النوم أن يخالط الاستغفار بالسب»

وفي الحديث الحث على الاقتصاد في العبادة والنهي عن التعمق فيها وكراهة إجهاد النفس بالعبادة، والأمر بالإقبال عليها بهمة ونشاط. فلا يكلف الإنسان نفسه ما لا تطيق بل يعاملها بالرفق واللين «وخير العمل أدومه وإن قل».

قال النووي: «وليس ذلك مختصاً بالصلاة بل هو عام في جميع أعمال البر». وفي الحديث التوجيه حال التعب، أو إقبال النوم والنعاس على المصلي، وذلك بأن يرتاح ويرقد حتى يذهب عنه النوم، لأنه إذا صلى وهو ناعس لا يدري ما يقول من غلبة التعب، وعلل ذلك ﷺ بقوله «لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه».

قال ابن القيم: «فتخلل الفترات للسالكين أمر لازم لا بد منه، فمن كانت فترته إلى مقاربة وتسديد، ولم تخرجه من فرض ولم تدخله في محرم، رُجي له أن يعود خيراً مما كان».

قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه وأرضاه -: «إن لهذه القلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فخذوها بالنوافل، وإن أدبرت فألزموها الفرائض».

ثم وجهه ﷺ توجيهاً عاماً في العبادات، فقال: «**لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فُتِرَ فَلْيَرْقُدْ**».

وفي الحديث: وجوب الخشوع في الصلاة، وحضور القلب فيها، والابتعاد عما يذهب ذلك.

وفيه: النهي عن الصلاة والإنسان يغالبه النعاس.

وفيه: رفق النبي ﷺ بأمته، ورحمته لهم.

وفيه: الحث على اليقظة والتنبيه في الصلاة.

١٤٨ - وعن أبي عبد الله جابر بن سمرة - رضي الله عنهما - قال: كُنْتُ أَصَلِّيَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الصَّلَوَاتِ، فَكَانَتْ صَلَاتُهُ قَصْداً وَخُطْبَتُهُ قَصْداً. [رواه مسلم].
قوله: قَصْداً: أَي بَيْنَ الطُّولِ وَالْقَصْرِ.

* كان الصحابة - رضي الله عنهم - يتتبعون صلاة النبي ﷺ وينظرون في عبادته ليتأسوا به ويقتدوا.

وفي هذا الحديث الذي رواه جابر بن سمرة - رضي الله عنه - أنه كان يصلي مع النبي ﷺ، وفي رواية أخرى «والله لقد صليت مع رسول الله ﷺ أكثر من ألفي صلاة».

فهو - رضي الله عنه - يذكر لنا حال صلاة النبي ﷺ سواء في الصلوات المفروضة أو صلاة الجمعة.

وفي قوله **(فكانت صلاته قصداً)** أي، أنه ﷺ، يأتي بمكملاتها ومسنوناتها من غير طول ولا قصر، ومعناه التوسط الذي ليس فيه تخفيف مخل ولا تثقيل ممل.

قال النووي: «أي بين الطول الظاهر، والتخفيف المالحق».

(وخطبته قصداً) وفي الحديث استحباب القصد في الصلاة والخطبة، وجميع الأمور رحمة بالمصلين، ورأفة بالمريض وصاحب الحاجة.

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته، مئنة من فقهه»** [رواه مسلم] أي، علامة على فقهه ودليل عليه.

وخطبة الجمعة شعيرة ظاهرة من شعائر الإسلام ومن أجلها وأنفعها، ولهذا كانت في أفضل الأيام، ولها سنن وآداب وأحكام تتعلق بالإمام والمأمومين، وقد ذكر الصحابي الجليل جابر بن سمرة صلاة النبي ﷺ وصفها سواء في الصلوات الخمس أو في خطبة وصلاة الجمعة.

وقد ورد في صلاة الجمعة حديث عمار مرفوعاً: **«إن طول صلاة الرجل**

وقصر خطبته مئنة من فقهه، فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة» [رواه مسلم].
 قال النووي: «المراد من الحديث أن تكون الصلاة طويلة بالنسبة إلى الخطبة لا تطويلاً يشق على المأمومين».
 وقال ابن القيم في زاد المعاد عن خطبة النبي ﷺ: «وكان ﷺ يقصر في خطبته أحياناً، ويطيلها أحياناً بحسب حاجة الناس، وكانت خطبته العارضة أطول من خطبته الراتبة».
 وقال ابن عبد البر: «وأما قصر الخطبة فسنة مسنونة كان رسول الله ﷺ يأمر بذلك ويفعل».

وقد كره الشافعي إطالة الخطبة، فقال: «وأحب أن يرفع صوته حتى يسمع أقصى من حضره، إن قدر على ذلك، وأحب أن يكون كلامه كلاماً مترسلاً بغير الإعراب الذي يشبه العي، وغير التمثيط وتقطيع الكلام ومده، وما يستنكر منه، ولا العجلة فيه عن الإفهام، ولا ترك الإفصاح بالقصد، وأحب أن يكون كلامه قصداً بليغاً جامعاً».

وفي هذا الحديث: صفة صلاة النبي ﷺ.
 وقد أورد المؤلف - رحمه الله تعالى - هذا الحديث في باب الاقتصاد في العبادة.

١٤٩ - وعن أبي جحيفة وهب بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: أخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة فقال: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً، فقال له: كل فإني صائم، قال: ما أنا بأكل حتى تأكل، فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم فقال له: نم فنام، ثم ذهب يقوم فقال له: نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصليا جميعاً، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه، فاتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «صدق سلمان» [رواه البخاري].

* الإسلام دين التوسط والاعتدال، دين يجمع بين مطالب الدنيا ومطالب الدين. وفي هذه القصة يظهر ذلك جلياً وواضحاً، فإنه لما قدم رسول الله ﷺ وتبعه المهاجرون من مكة، قام ﷺ بالمؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين. وممن آخاهم النبي ﷺ سلمان الفارسي وأبي الدرداء. أي، عقد بينهما عقد أخوة. فزار سلمان أخاه أبا الدرداء. فرأى زوجته لابسة ثياباً مبتذلة، أي غير معتنية بمظهرها، تاركة لبس ثياب الزينة على غير عادة النساء، وكانت هذه الحادثة في بداية الهجرة وقبل نزول آيات الحجاب.

فسألها: ما شأنك؟ أي: لماذا أنت على هذه الحالة، لأنها مظنة الحاجة أو المرض أو غير ذلك.

فقالت له: أخوك ليس له حاجة في الدنيا فلا يهتم بمتع الدنيا وملذاتها. قالت (في الدنيا) للاستحياء من أن تصرح بعدم حاجته إلى مباشرتها.

فلما جاء أبو الدرداء صنع لضييفه طعاماً، فقال له: كل فإني صائم فقال: ما أنا بأكل حتى تأكل، فأكل إكراماً لضييفه لأنه صوم نافلة، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء وقام يصلي، فقال له: نم، فنام، ثم ذهب مرة أخرى يقوم، فقال

له: نم، فلما كان من آخر الليل وهو أفضل أوقات قيام الليل، قال سلمان: قم الآن. فصليا جميعاً.

فقال سلمان - رضي الله عنه - منبهاً له: **(إن لربك عليك حقاً)** أي، من العبادة والطاعة.

(وإن لنفسك عليك حقاً) أي، من الراحة والطعام وغير ذلك. مما يكون عوناً لها على ما خلقت لأجله من العبادة، فينبغي للعبد أن يدرك الفرق بين حق النفس وبين هواها وحظها، فإنهما على طرفي نقيض، وأداء حقها مأمور به، واتباع هواها منهي عنه نهي تنزيه أو تحريم، فحق الطعام لقيمات يقمن الصلب، ويتقوى بها على العبادة وما والاها، وهواها التنعم بالألوان، والشبع المثقل للبدن، المثبط عن العبادة، وحقها من النوم: أن يدفع عنه النعاس والفتور الذي ربما أراد الدعاء لنفسه فيدعو عليها، وهواها استلانه فراش الكسل والدعة، والاستمرار في النوم بحيث يفوت التهجد، ويضيع الأوقات النفيسة. وكذلك حقها من الملبس والمسكن والمنكح.

(ولأهلك عليك حقاً) أي، لأهل بيتك وزوجتك، فأعط كل ذي حقه. جمع - رضي الله عنه - الحقوق وجعل لكل نصيب منه، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك، فقال ﷺ **«صدق سلمان»** وهذا إقرار من النبي ﷺ دال على صحة قول سلمان - رضي الله عنه -، والإقرار من السنة، ولأنه ﷺ لا يقر أحداً على باطل. وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: **«من عاد مريضاً، أو زار أخاً له في الله، ناداه مناد أن طبت، وطاب ممشاك، وتبوأ من الجنة منزلاً»** [رواه الترمذي].

وعن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قال الله - تبارك وتعالى -، وجبت محبتي للمتحابين في والمتجالسين في، والمتزاورين في، والمتباذلين في»** [رواه أحمد]. وفي الحديث: فضل إسداء النصيحة، ومشروعية زيارة الإخوان والمبيت عندهم.

١٥٠ - وعن أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنِّي أَقُولُ: وَاللَّهِ لَا صُومَ مِنَ النَّهَارِ، وَلَا قَوْمَ مِنَ اللَّيْلِ مَا عَشْتُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ ذَلِكَ؟» فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ قُلْتُهُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَنَمْ وَقُمْ، وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بَعَشْرَ أَمْثَالِهَا، وَذَلِكَ مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ» قُلْتُ: فَإِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ قَالَ: «فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمَيْنِ»، قُلْتُ: فَإِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: «فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا، فَذَلِكَ صِيَامُ دَاوُدَ ﷺ، وَهُوَ أَعْدَلُ الصَّيَامِ». وَفِي رَوَايَةٍ: «هُوَ أَفْضَلُ الصَّيَامِ» فَقُلْتُ فَإِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ» وَلَأَنْ أَكُونَ قَبْلُ الثَّلَاثَةِ أَيَّامِ الَّتِي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي.

وَفِي رَوَايَةٍ: «أَلَمْ أَخْبِرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ؟» قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «فَلَا تَفْعَلْ: صُمْ وَأَفْطِرْ، وَنَمْ وَقُمْ فَإِنَّ لِحَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنَيْكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِرِزْقِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِرِزْقِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ بِحَسَبِكَ أَنْ تَصُومَ فِي كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ فَشَدَّدْتُ فَشَدَّدَ عَلَيَّ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً، قَالَ «صُمْ صِيَامَ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ وَلَا تَزِدْ عَلَيْهِ» قُلْتُ: وَمَا كَانَ صِيَامَ دَاوُدَ؟ قَالَ: «نِصْفُ الدَّهْرِ» فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَقُولُ بَعْدَ مَا كَبُرَ: يَا لَيْتَنِي قَبْلْتُ رُحْصَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَفِي رَوَايَةٍ: «أَلَمْ أَخْبِرْ أَنَّكَ تَصُومُ الدَّهْرَ، وَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ؟» فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَمْ أَرِدْ بِذَلِكَ إِلَّا الْخَيْرَ، قَالَ: «فَصُمْ صَوْمَ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ، فَإِنَّهُ كَانَ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَاقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ» قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: «فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عَشْرِينَ» قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: «فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ سَبْعٍ وَلَا تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ» فَشَدَّدْتُ فَشَدَّدَ عَلَيَّ، وَقَالَ لِي النَّبِيُّ

ﷺ: «إِنَّكَ لَا تَدْرِي لَعَلَّكَ يَطُولُ بِكَ عُمْرٌ» قَالَ: فَصَرْتُ إِلَى الَّذِي قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ فَلَمَّا كَبُرْتُ وَدَدْتُ أَنِّي قَبِلْتُ رَخْصَةَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ.

وفي رواية: «وَأَنَّ لَوْلَدَكَ عَلَيْكَ حَقًّا» وفي رواية: «لَا صَامَ مِنْ صَامِ الْأَبَدِ ثَلَاثًا». وفي رواية: «أَحَبُّ الصَّيَامِ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى - صِيَامُ دَاوُدَ، وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى - صَلَاةُ دَاوُدَ: كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَلَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى».

وفي رواية قال: أَنكحني أبي امرأة ذات حَسَبٍ، وَكَانَ يَتَعَاهَدُ كَنَّتَهُ، أَي: امْرَأَةً وَلَدَهُ، فَيَسْأَلُهَا عَنْ بَعْثِهَا، فَتَقُولُ لَهُ: نَعَمْ الرَّجُلُ مِنْ رَجُلٍ لَمْ يَطَأْ لَنَا فِرَاشًا وَلَمْ يَفْتَشْ لَنَا كَنَفًا مُنْذُ أَتَيْنَاهُ فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ. فَقَالَ: «الْقَنِي بِهِ» فَلَقِيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ فَقَالَ: «كَيْفَ تَصُومُ؟» قُلْتُ كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: «وَكَيْفَ تَخْتِمُ؟» قُلْتُ: كُلَّ لَيْلَةٍ، وَذَكَرَ نَحْوَ مَا سَبَقَ وَكَانَ يَقْرَأُ عَلَى بَعْضِ أَهْلِهِ السُّبْحَ الَّذِي يَقْرُؤُهُ، يَعْزُضُهُ مِنَ النَّهَارِ لِيَكُونَ أَخْفَ عَلَيْهِ بِاللَّيْلِ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَقَوَّى أَفْطَرَ أَيَّامًا وَأَحْصَى وَصَامَ مِثْلَهُنَّ كَرَاهِيَةً أَنْ يَتْرُكَ شَيْئًا فَارَقَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ. كُلُّ هَذِهِ الرِّوَايَاتُ صَحِيحَةٌ مُعْظَمُهَا فِي الصَّحِيحَيْنِ وَقَلِيلٌ مِنْهَا فِي أَحَدِهِمَا.

* في الحديث دليل على أن أفضل الصيام صيام يوم، وإفطار يوم، وكراهة الزيادة على ذلك، والله - عز وجل - لم يتعبد عبده بالصوم خاصة، بل تعبد به بأنواع من العبادات، فلو استفرغ جهده لقصر في غيره، فالأولى الاقتصاد فيه ليتبقى بعض القوة لغيره.

وحاصل هذه الحديث، بيان رفق النبي ﷺ بأمته، وشفقته عليهم، وإرشادهم إلى مصالحهم، وحثهم على ما يطيقون الدوام عليه، ونهيمهم عن التعمق والإكثار من العبادات التي يخاف عليهم الملل بسببها، أو تركها، أو ترك بعضها. والحديث: مليء بالفوائد ولطوله اكتفى بهذا.

١٥١ - وعن أبي رُبَيْعٍ حَنْظَلَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْأَسَدِيِّ الْكَاتِبُ أَحَدُ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَقِينِي أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قُلْتُ: نَافَقٌ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنَ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَافَسَنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيِّعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا فَاِنْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقُلْتُ نَافِقٌ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ كَأَنَّا رَأَيْ الْعَيْنَ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسَنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيِّعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ تَدُوْمُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، [رواه مسلم].

* كان الصحابة - رضي الله عنهم - يتفقدون أحوالهم ويحرصون على محاسبتها، ويخافون على أنفسهم من النفاق، وكان بعضهم يسأل بعض عن أحواله، فقد لقي أبو بكر - رضي الله عنه - حنظلة بن الربيع وهو من كتّاب الوحي وسأله عن حاله، فقال: (نافق حنظلة) أي، خاف على نفسه من النفاق. قال القرطبي: «إنكار منه على نفسه لما وجدها في خلوتها خلاف ما يظهر منها بحضرة النبي ﷺ، فخاف أن يكون من أنواع النفاق، وأراد من نفسه أن يستديم تلك الحالة التي كان يجدها عند موعظة النبي ﷺ، ولا يشغل عنها شيء»

فتعجب أبو بكر من الأمر، وأراد حنظلة أن يوضح له الأمر، فقال ذاكرًا حاله: (إذا كنا عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة والنار كأننا رأي عين)، أي، أن الرسول يعظهم ويذكرهم بالآخرة.

(فإذا خرجنا من عنده عالجنّا ولاعبنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً). أي، أننا إذا ذهبنا من عند الرسول ﷺ لاعبنا ولهونا مع الأزواج والأولاد والضيعات، وهي معاش الرجل من مال وحرفة وصناعة. فقال أبو بكر: إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقوا إلى رسول الله ﷺ وذكروا له الحال والمقال، فقال ﷺ موجهًا ومعلمًا، «والذي نفسي بيده أن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم» أي، من شدة اليقين وكثرة العبادة تصافحكم إكرامًا لكم وتثبيتًا لكم، «ولكن يا حنظلة ساعة وساعة» قالها ثلاث مرات لتأكيد ودفع ما وقع في نفسه أن ذلك من النفاق، «ولكن يا حنظلة ساعة»: لاداء العبودية، «وساعة»: للقيام بما يحتاجه الإنسان.

قال ابن القيم: «تالله لقد ملئت قلوب القوم إيمانًا و يقينًا وخوفهم من النفاق شديد وهمهم لذلك ثقیل، وسواهم كثير لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، وهم يدعون أن إيمانهم كإيمان جبريل وميكائيل».

وعلى العاقل أن يكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكر فيها في صنع الله، وساعة يخلو فيها لحاجته من مطعم ومشرب، فالإسلام دين الفطرة والتوسط والاعتدال، يجمع بين مصالح الدنيا والآخرة، ويجمع بين مطالب الروح والجسد.

ومن سماحة الشريعة وكمالها أن حث الفرد على أن يتمتع بالمباحات ويخفف عن نفسه من الضائقات، شريطة أن لا يجره ذلك إلى ارتكاب المحرمات، أو يشغله عن فعل الواجبات، قال تعالى ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

قال السعدي: «واستمتع بدنياك، استمتعاً لا يثلم دينك، ولا يضر بآخرتك».

ومن قوي إيمانه وحضرت نيته فإنه يُعد هذه الساعات طاعة، فقد كان السلف يتعبدون الله - عز وجل - حتى في أوقات المباحات باستحضار نية التقوي على العبادة والطاعة.

قال رجل لابن مسعود - رضي الله عنه -: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك تُذكرنا كل يوم، - وكان يذكر الناس في كل خميس - فرد عليه فقال: «أما إنه يمنعني من ذلك إني أكره أن أملككم وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السامة علينا».

وفي الحديث: الحث على الاقتصاد في العبادة.

١٥٢- وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: بينما النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم، فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يقعد، ولا يستظل ولا يتكلم، ويصوم، فقال النبي ﷺ: «مروه فليتكلم وليستظل وليتم صومه» [رواه البخاري].

* هذا الحديث والأحاديث السابقة التي مرت بنا، هي في الاقتصاد في العبادة، وعدم المشقة على النفس وتكليفها ما لا تطيق، أو ما لم يأمر به الشرع. وبعض الناس يشق على نفسه في العبادة حتى تمل نفسه وتعب، فذكر المؤلف هذا الحديث في باب الاقتصاد في العبادة، فقد ذكر ﷺ أن رجلاً يقال له أبو إسرائيل واسمه يسير: «نذر أن يقوم في الشمس ولا يقعد، ولا يستظل ولا يتكلم، ويصوم». هذه حاله دائماً.

والنذر مكروه، بل قال بعض العلماء أنه محرم، وأنه لا يجوز للإنسان أن ينذر، لأن الإنسان إذا نذر كلّف نفسه ما لم يكلفه الله، ولهذا نهى عنه ﷺ بقوله: «إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل» [رواه البخاري].

ومن نذر لله أن يطيع الله فليطعه. ومن نذر أن يعصي الله فلا يفعل وعليه كفارة يمين على التخيير: وهي إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو عتق رقبة، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام.

وفي الحديث: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه» [رواه البخاري].

وحيث أن فعل أبي إسرائيل فيه مشقة وتعب، لم يأمر به الله، قال ﷺ «مروه فليتكلم وليستظل وليتم صومه» ولا شك أن خير الهدي هدي محمد ﷺ. وهذا النذر قد تضمن أشياء محبوبة إلى الله - عز وجل - وأشياء غير محبوبة،

أما المحبوبة إلى الله فهي الصوم، لأن الصوم عبادة، أما وقوفه قائماً في الشمس من غير أن يستظل، وكونه لا يتكلم فهذا غير محبوب إلى الله - عز وجل -، فلهذا أمر النبي الرجل أن يترك ما نذر.

والعبادة لا يقصد بها المشقة - أصلاً - لذاتها لكن إذا حصلت المشقة كان الأجر أعظم، فالصيام به مشقة، وقيام الثلث الأخير من الليل للصلاة فيه مشقة، وإسباغ الوضوء على المكاره مشقة - أي في وقت البرد الشديد -.. وهذه المشقة من أصل العبادة.

قال ابن حجر: «إن كل شيء يتأذى به الإنسان ولو مآلاً مما لم يرد بمشروعيته كتاب أو سنة، كالمشي حافياً، والجلوس في الشمس ليس هو من طاعة الله، فلا ينعقد به النذر، فإنه ﷺ أمر أبا إسرائيل بإتمام الصوم دون غيره، وهو محمول على أنه لا يشق عليه، وأمره أن يقعد ويتكلم ويستظل».

قال ابن تيمية: «ومما ينبغي أن يعرف أن الله ليس رضاه أو محبته في مجرد عذاب النفس وحملها على المشاق، حتى يكون العمل كلما كان أشق كان أفضل، كما يحسب كثير من الجهال: أن الأجر على قدر المشقة في كل شيء، لا، ولكن الأجر على قدر منفعة العمل ومصلحته وفائدته، وعلى قدر طاعته أمر الله ورسوله، فأَي العملين كان أحسن وصاحبه أطيع وأتبع، كان أفضل، فإن الأعمال لا تتفاضل بالكثرة، وإنما تتفاضل بما يحصل في القلوب حال العمل».

وقال - رحمه الله -: «قول بعض الناس: الثواب على قدر المشقة ليس بمستقيم على الإطلاق... ثم قال: فكثيراً ما يكثر الثواب على قدر المشقة والتعب لأن التعب والمشقة مقصود من العمل، ولكن لأن العمل مستلزم للمشقة والتعب».

١٥. باب المحافظة على الأعمال

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ
الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

[الحديد: ١٦].

عاتب الله - عز وجل - عباده المؤمنين في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا﴾ قيل نزلت في شأن الصحابة لما أكثروا المزاح.

قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا
الله بهذه الآية إلا أربع سنين».

وفي تمة الآية الكريمة نهاهم - سبحانه - عن التشبه بالذين حملوا الكتاب
من قبلهم من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي
بأيديهم، واشتروا به ثمنًا قليلًا ونبذوه وراء ظهورهم، واتخذوا أحبارهم
ورهبانهم أربابًا من دون الله، فقست قلوبهم.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ
الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا
عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

جعل الله عيسى آخر الرسل لبني إسرائيل وقد بشر بخاتم النبيين محمد
ﷺ، وقد أنزل الله على عيسى الإنجيل، وجعل في قلوب الحواريين وهم
الذين اتبعوه خشية ورحمة بالخلق، ثم ابتدع النصارى الرهبانية ولم
يشرعها الله وإنما التزموها من تلقاء أنفسهم، قاصدين بذلك رضوان الله
فلم يحافظوا عليه.

وقال - تعالى - في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي تَقَصَّتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ
أَنْكَشَا﴾ [النحل: ٩٢] وهي امرأة حمقاء من مكة وكانت تغزل في طول يومها

ثم تنقضه، والمعنى أن هذه المرأة لم تكف عن العمل ولا حين عملت كفت عن النقص، فكذلك من نقض عهده، لا تركه، ولا حين مما هو وفى به، والآية عامة في كل من أبطل عمله.

قال ابن عبد البر: «وفيه أن من أكثر من شيء عرف به، ونسب إليه، ألا ترى إلى قوله «فمن كان من أهل الصلاة» يريد من أكثر منها فنسب إليها، لأن الجميع من أهل الصلاة، وكذلك من أكثر من الجهاد ومن الصيام، على هذا المعنى، ونسب إليه دعي من بابه. والله أعلم».

ومن الآثار الحميدة للمداومة على الأعمال الصالحة: دوام اتصال القلب بخالقه وبارئه، وتعاهد النفس عن الغفلة وإلزامها فعل الخيرات، وهي سبب لحسن الخاتمة ودخول الجنة ورفع الدرجات، وأن عمله يكتب له إذا مرض أو سافر كما كان يفعل في صحته وإقامته وذلك من فضل الله.

وفي الحديث: الترغيب في المحافظة على الأعمال الصالحة والمداومة عليها حتى الممات، كما قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

وأما الأحاديث فمنها حديث عائشة: وكان أحب الدين إليه ما داوم صاحبه عليه. وقد سبق في الباب قبله (حديث رقم ١٤٢).

١٥٣ - وعن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَامَ عَنْ حَزْبِهِ مِنَ اللَّيْلِ، أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَقَرَأَهُ مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الظُّهْرِ، كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ» [رواه مسلم].

* قيام الليل عبادة من أجل العبادات وأفضلها، وقد رغب الشرع المطهر بها وحث عليها، ورتب الأجر الجزيل لفاعليها، وأجمعت الأمة على استحبابها والمداومة عليها.

ووقتها من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر، وأفضل وقت قيام الليل الثلث الأخير من الليل.

قال ﷺ في فضل قيام الليل: «ينزل ربنا - جل وعلا - كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول: من يدعوني فاستجب له من يستغفرني فأغفر له من يسألني فأعطيه» [رواه أحمد].

وفي الحديث الحث على المحافظة على الأوراد المشروعة، وفعل الخير وعدم انقطاع الإنسان عنه دليل على أن كل ورد من قول أو فعل يفوت الإنسان أنه يثبت له أجره إذا قضاها كاملاً.

وإذا كان يوتر في الليل، فإنه إذا قضاها في النهار لا يوتر، ولكنه يشفع الوتر، أي يزيده ركعة.

قال القرطبي: «هذا تفضل من الله، ودليل على أن صلاة الليل أفضل من صلاة النهار، وهذه الفضيلة إنما تحصل لمن غلبه نوم أو عذر منعه من القيام به مع أن نيته القيام به».

وفي قضاء ما فاتته من حزبه استمرار وتثبيت ليبقى الإنسان مستمراً على ما تعود عليه من الطاعة والعبادة.

وكان من دعائه ﷺ في الوتر: «اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت، وبارك لنا فيما أعطيت، وقنا شر ما قضيت إنك تقضي ولا يقضى عليك، إنه لا يذل من واليت، تباركت ربنا وتعاليت» [رواه ابن حبان].

قال الحسن: «ما نعلم عملاً أشد من مكابدة الليل ونفقة المال». فقيل له: ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهاً؟ قال: «لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره». وقد أثنى الله على قوام الليل، فقال تعالى ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧-١٨].

ووعدهم بالثواب العظيم فقال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [النجم: ١١] ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦-١٧] وهذه لذة الخبر فكيف بلذة النظر.

والأسباب المعينة على قيام الليل كثيرة منها: البعد عن المعاصي وأكل الحرام، وعدم السهر، ومجاهدة النفس، وقراءة ما ورد في فضل قيام الليل. ومن الوصايا: «لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تدع الرجل فقيراً يوم القيامة».

ومن لم ير في نفسه همة ونشاطاً للقيام في آخر الليل، فليصل ويوتر قبل أن ينام.

وفي الحديث: أن من نام عن حزبه وصلاته من الليل، فليصله في ما بين الفجر والظهر، وتكون شفعا لا وتراً.

١٥٤ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ» [متفق عليه].

* أثنى الله - عز وجل - على قوام الليل بقوله: ﴿إِنَّ الْأَمْتَقِينَ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٨﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٩﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ آلِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٢٠﴾ مَا يَهْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَبِالْأَشْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ١٨-٢٢].
وعندما سُئِلَ رسول الله ﷺ، عن رجل نام الليل حتى أصبح قال: «ذَاكَ رَجُلٌ بَالُ الشَّيْطَانِ فِي أَذْنِهِ» [متفق عليه].

وقد وصف الله - سبحانه وتعالى - قيام الليل بقوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾ [المزمل: ٦]. وفسر ابن كثير قوله: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾ بأنها أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش.

وقيام الليل مرحلة صراع ومجاهدة مع النفس فلا شيء أعظم أثراً في النفس البشرية من الاستمرار في الطاعة والعبادة خاصة وقت الراحة والدعة والسكون، ولذلك شهد الله - سبحانه وتعالى - لقوام الليل بالإيمان الصادق ووعدهم بالخير الجزيل فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [السجدة: ١٥-١٧].

قيام الليل عبادة تصل القلب بالله، وتجعله قادراً على التغلب على مغريات الحياة وعلى مجاهدة النفس، في وقت هدأت فيه الأصوات ونامت العيون وتقلب النوام على الفرش، ولكن قوام الليل يهبون من فرشهم الوثيرة وسررهم المريحة ويكابدون الليل لا ينامون إلا القليل، ولذا كان قيام الليل من مقاييس

العزيمة الصادقة وسمات النفوس الكبيرة وقد مدحهم الله وميزهم عن غيرهم بقوله تعالى ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

وقيام الليل سنة مؤكدة حث النبي ﷺ على أدائها بقوله: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، ومقربة لكم إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهارة عن الإثم، ومطردة للداء عن الجسد» [رواه الترمذي].

وقال ﷺ مبيناً فضل قيام الليل: «أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل» [رواه مسلم]، وقد حافظ عليه ﷺ، ولم يتركه لا سفراً ولا حضراً. وقام ﷺ، وهو سيد ولد آدم وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر - حتى تفتطرت قدماه - فقليل له: أما قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً» [متفق عليه].

قال الإمام أحمد - رحمه الله -: «من ترك الوتر فهو رجل سوء لا ينبغي أن تقبل شهادته».

وقال المباركفوري «قل معنى قوله: «كان يقوم الليل» أي، غالبه أو كله. «ترك قيام الليل» أصلاً حين ثقل عليه، أي: فلا تزد أنت في القيام أيضاً، فإنه يؤدي إلى تركه رأساً».

قال السندي: «يريد أن الإكثار في قيام الليل قد يؤدي إلى تركه رأساً كما فعل فلان، فلا تفعل أنت ذلك، بل خذ فيه التوسط والقصد، أي: لأن التشديد في العبادة قد يؤدي إلى تركها وهو مذموم».

في الحديث: استحباب الدوام على ما اعتاده المرء من خير، وكراهة قطع العبادة وإن لم تكن واجبة.

وفيه: الترغيب بعدم تسمية من وقع في حقه ما يذم به. سترأله، ولأنه ربما تتغير حال الشخص في المستقبل.

١٥٥ - وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان رسول الله ﷺ إذا فاتته الصلاة من الليل من وجع أو غيره، صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة. [رواه مسلم].

* في الحديث: دليل على مشروعية قضاء صلاة الليل، وكذلك سائر النوافل التي اعتاد العبد المحافظة عليها.
وفي الحديث «من نام عن الوتر أو نسيه فليصل إذا أصبح، أو ذكر» [رواه أبو داود].

وليس للوتر ركعات معينة، وأفضلها إحدى عشرة ركعة، يصلها مثنى مثنى، ويوتر بواحدة.
وقد حافظ رسول الله ﷺ على قيام الليل، ولم يتركه لا سفراً ولا حضراً، وقام هو سيد ولد آدم وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر حتى تفتطرت قدماه. أي تشقق من طول القيام. ف قيل له: أما قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً» [متفق عليه] أي كثير الشكر، معترفاً بالنعمة قولاً وفعلًا.
قال النووي: «هذا دليل على استحباب المحافظة على الأوراد، وأنها إذا فاتت تقضى»

وقال ابن تيمية: «الوتر سنة باتفاق المسلمين، ومن أصر على تركه فإنه ترد شهادته، والوتر أوكد من سنة الظهر والمغرب والعشاء، والوتر أفضل الصلاة من جميع تطوعات النهار، كصلاة الضحى، بل أفضل الصلاة بعد المكتوبة صلاة الليل، وأوكد ذلك الوتر، وركعتا الفجر».

ولما لقيام الليل من الأجر العظيم والثواب الجزيل حثَّ ﷺ أن يعم هذه الخير أهل البيت جميعهم فقال ﷺ: «رحم الله امرأة قامت من الليل، ثم أيقظت زوجها فصلى، فإن أبى نضحت الماء في وجهه» [رواه أبو داود].

وفي الحديث الآخر قال ﷺ: «من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين، كتب من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات» [رواه أبو داود].

قال ابن القيم في الفوائد: «لما عرف الموفقون قدر الحياة الدنيا وقلة المقام فيها أمتوا فيها الهوى طلباً لحياة الأبد، ولما استيقظوا من نوم الغفلة استرجعوا بالجد ما انتهبه العدو منهم في زمن البطالة، فلما طالت عليهم الطريق، تلمّحوا المقصد، فقرب عليهم البعيد، وكلما أمرت لهم الحياة حلى لهم تذكر: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

ومن ثمرات قيام الليل: دعوة مستجابة، وذنب يغفر، ومسألة تقضى، وزيادة في الإيمان، والتلذذ بالخشوع للرحمن، واكتساب الحسنات، ورفع الدرجات، والظفر بالنضارة والحلاوة والمهابة، وطراد الأدواء من الجسد، وفيها شكر المنعم على نعمه، والاستعانة بالطاعة على تحصيل الخيرات وتفريج الكربات.

في الحديث عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مَسِيءَ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مَسِيءَ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» [رواه مسلم].

وصلاة الليل مشهودة ولها شأن عظيم، والمشروع فيها أن تكون مثنى مثنى، وأقلها واحدة، ولا حد لأكثرها، فإن أوتر بثلاث فالأفضل أن يسلم من اثنتين ويوتر بواحدة وهكذا إذا صلى خمسا يسلم من كل ركعتين ويوتر بواحدة. والأغلب من فعله ﷺ أنه يوتر بإحدى عشرة ركعة ويسلم من كل اثنتين، أو ربما أوتر بثلاث عشرة ركعة.

وفي الحديث: أن من فاتته صلاة الليل من وجع أو غيره، صلاها من النهار شفعاً.

١٦. باب الأمر بالمحافظة على السُّنة وآدابها

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - جملة من الآيات في وجوب محبة النبي ﷺ والتزام سنته، لأنه ﷺ الأسوة والقدوة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾

[الحشر: ٧].

في الآية دليل على وجوب امتثال أوامره ونواهيه ﷺ، وأمر بطاعته واتباعه، فإنه إنما يأمر بخير، وإنما ينهى عن شر.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:

٤-٣]. أي، لا يقول الرسول ﷺ إلا حقاً، ليس من هوى ولا غرض، لأن ما سيقوله وحى من الله - عز وجل - مأمور بأن يبلغه للناس فيجب طاعته واتباعه.

وقال - تعالى - في الآية الأخرى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ

اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

نزلت هذه الآية حين ادعى أهل الكتاب محبة الله، فمن ادعى محبة الله وهو على غير طريق الرسول ﷺ فهو كاذب غير صادق، قال بعض العلماء: «ليس الشأن أن تُحب إنما الشأن أن تُحب».

وقال الحسن: «زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية».

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ

وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

أي، لكم في رسول الله اقتداء وقدوة في أقواله، وأفعاله، وأحواله، في عبادته وجهاده، ومعاملاته وغير ذلك.

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

قال ابن كثير: «يُقَسِّم - تعالى - بنفسه الكريمة المقدسة، أن لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له ظاهراً وباطناً».

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩].

قال العلماء: معناه، إلى الكتاب والسنة. وفي هذا الحث على الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في جميع الأحوال، وأن الرجوع إلى الله ورسوله من مقتضيات الإيمان.

وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].
أي، من يطع الرسول فيما أمر فقد أطاع الله، لأن الله أمر بطاعته واتباعه.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].
وهو دين الإسلام المنزل على خاتم النبيين محمد ﷺ.

وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

في هذه الآية: وعيد شديد لمن خالف أمر النبي ﷺ، أن تصيبه فتنة، إما فتنة في الدنيا، أو عذاب في الآخرة.

وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤]. والآيات في الباب كثيرة.

في هذه الآية أمر لنساء النبي ﷺ أن لا ينسين هذه النعمة الجليلة القدر، وهو ما يُتلى في بيوتهن من كتاب الله - تعالى -، وسنة رسوله ﷺ.

وأما الأحاديث:

١٥٦ - فالأَوَّلُ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ: إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» [متفق عليه].

* بعث الله نبينا محمداً رحمة للعالمين، رؤوفاً بالمؤمنين، ونهى ﷺ عن السؤال عن أشياء من أمور الغيب، أو من الأمور التي عفا الله عنها، فلم يحرمها ولم يوجبها، فيسأل السائل عنها وقت نزول الوحي والتشريع، فربما وجبت بسبب السؤال، وربما حُرمت كذلك، فيدخل السائل في قوله ﷺ «أَعْظَمُ الْمُسْلِمِينَ جُرْماً: مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحْرَمْ فَحَرَمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ» [رواه البخاري].

فهذه الأسئلة التي فيها التعنت، أو الأمور التي لا حاجة لها فيها تنطعاً. أما السؤال على وجه الاسترشاد والمعرفة بعلوم الشرعية، فهي مما أمر الله بها ورسوله وحث على العلم وطلبه ونشره. قال تعالى ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

وفي الحديث أن النبي ﷺ لما خطب وقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحَجُّوا»، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها مراراً.

فقال رسول الله ﷺ «ذُرُونِي» أي، دعوني من كثرة السؤال. لأن النبي ﷺ خاف أن يقع الجواب بما فيه التعب والمشقة، فخاف رسول الله ﷺ على أمته من ذلك.

قال القرطبي: «يعني لا تكثروا من الاستفصال عن المواضع التي تكون مقيدة بوجه ما ظاهر، وإن كانت صالحة لغيره».

«إنما أهلك من كان قبكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم» أي، أن من قبلنا أكثروا المسائل على الأنبياء، فشدد عليهم كما شددوا على أنفسهم، ثم اختلفوا على أنبيائهم أيضاً.

وشاهد ذلك ما ذكره الله - عز وجل - عن بني إسرائيل في قتل قتل بينهم، فادعت كل قبيلة أن الأخرى هي التي قتلتها، وادّاروا فيها وتنازعوا، ورفع الأمر إلى نبيهم موسى - عليه السلام - فقال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] اذبحوا بقرة وخذوا عضواً من أعضائها واضربوا به القاتل، وسيخبركم القاتل من الذي قتله. وتمام القصة ذكرها الله - عز وجل - في سورة البقرة.

ثم قال ﷺ في كلمة جامعة شاملة وافية:

«فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه» وفيه، وجوب ترك كل منهي عنه إذا كان النهي جازماً، لأن لا مشقة في تركه، ولذلك كان النهي عنه عاماً.

«وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم» فعل المأمور به قد يلزم منه مشقة، ولذا كان الأمر به على قدر الاستطاعة. وهذا يوافق قول الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

قال النووي: «هذا من قواعد الإسلام المهمة، ومن جوامع الكلم التي أعطاها ﷺ، ويدخل فيه ما لا يحصى من الأحكام، كالصلاة بأنواعها، فإذا عجز من أركانها أو بعض شروطها، أتى بالباقي، وإذا عجز عن بعض أعضاء الوضوء أو الغسل، غسل الممكن، وإذا وجد ما يكفيه من الماء لطهارته أو لغسل النجاسة فعل الممكن..»

والحديث فيه: ذم المرء والجدال الذي لا طائل من ورائه، لأن المرء والجدال لا نفع فيه، فهو مذموم كالسؤال الذي لا نفع فيه.

١٥٧ - الثَّانِي: عَنْ أَبِي نَجِيحٍ الْعَرَبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً وَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنهَا مَوْعِظَةُ مُودَعٍ فَأَوْصَنَا. قَالَ: «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، وَأَنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا. فَعَلَيْكُمْ بَسُتِّي وَسُنَّةُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» [رواه أبو داود، والترمذي وقال حديث حسن صحيح].

«النَّوَاجِدُ» بالذال المعجمة: الأنيابُ، وقيل: الأضرأسُ.

* كان النبي ﷺ يعظ أصحابه بين الحين والآخر، ومما رواه العرباض بن سارية - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ وعظهم وذكرهم، وأعلمهم ونصحهم بموعظة بليغة أثرت فيهم تأثيراً بليغاً، كما وصف حالهم العرباض بن سارية - رضي الله عنه -، وكل أحاديث النبي جمعت الفصاحة والبلاغة، فقد أوتي جوامع الكلم ﷺ ولهذا فإن لحديثه وقع في القلوب.

قال: وعظنا النبي ﷺ «مَوْعِظَةً بَلِيغَةً وَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ» أي، خافت منها القلوب.

«وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ» أي، دمت منها العيون تأثراً بها.

فقال الصحابة: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا. لما رقت قلوبهم ولانت طلبوا المزيد من النصح والوصية. لأنه المودع عند الوداع لا يترك شيئاً مما يهمه إلا ويورده ويستقصى فيه.

فقال ﷺ: «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ» أوصاهم بتقوى الله، وهي وصية الله للأولين والآخرين، وهي امثال أوامره واجتناب نواهيه، وهاتان الكلمتان تجمعان خيري الدنيا والآخرة.

«وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ» أي، لولي الأمر في غير معصية.

«وإن تأمر عليكم عبد حبشي» أي: تولى الإمارة عليكم رجل ولو لم يكن من العرب، وهذه قاعدة شرعية فيها صلاح البلاد والعباد والوقاية من الفتن ودفع الشرور. والسمع والطاعة له بالمعروف لقوله ﷺ: «**إنما الطاعة في المعروف**» [رواه البخاري].

قال الحسن: «والله لا يستقيم الدين إلا بالأمراء وإن جاروا، والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون».

وقوله ﷺ «**أوصيكم بتقوى الله. والسمع والطاعة**» فهاتان الكلمتان تجمعان سعادة الدنيا والآخرة. جمع بينهما تأكيداً للاعتناء بهذا المقام. وجمع بين التقوى التي بها صلاح الآخرة، والإمامة وبها صلاح الدنيا. ثم ذكر لهم النبي ﷺ أمراً مستقبلياً بقوله:

«**وأنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً**» أي، أن من طال عمره منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، وهو ما حصل من الأمور التي وقعت بعد النبي ﷺ. وهذا من معجزات النبي ﷺ.

ثم أعلمهم بالمخرج منها بقوله «**فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين**» أي: عليكم التمسك بسنتي، وهي طريق الرسول ﷺ علماً وعملاً وقولاً، وكذلك سنة الخلفاء الراشدين الأربعة وهم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، - رضي الله عنهم أجمعين -، فإنهم خير هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ.

«**تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ**» أي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ. والنواجذ أقصى الضرس. وهو كناية عن شدة التمسك وعدم التهاون والتفريط في سنته ﷺ. ثم حذر ﷺ من محدثات الأمور، فقال:

«**وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة**» أي، أن كل محدثة في دين الله فهي ضلالة، فدعوها واحذروا منها، لأن الله - عز وجل - أكمل وأتم لنا الدين، قال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣].

١٥٨ - الثَّالِثُ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى». قِيلَ وَمَنْ يَأْبَى يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى» [رواه البخاري].

* خلق الله العباد ليرحمهم ويدخلهم دار كرامته، وأرسل الرسل مبشرين ومنذرين ومعلمين وموجهين، والرسول ﷺ مُبلغ عن ربه، فمن عصى رسول الله ﷺ فقد رد رحمة الله.

والجنة دار المتقين، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

وذكر النبي ﷺ في هذا الحديث أن كل أمة ﷺ أي، أمة الدعوة. وكل من بلغته دعوة النبي ﷺ فهو من أمة محمد سواء أسلم أم لم يسلم، والقسم الثاني: أمة الإجابة وهم من استجاب له بالإيمان والتصديق والطاعة فهذا مسلم.

«يدخلون الجنة إلا من أبى» إلا من أبى منهم، فمن أمة محمد ﷺ الدعوة الأبى هو الكافر، ومن أمة الإجابة الأبى، هو العاصي. استثناهم تغليظاً عليهم، وزجراً عن المعاصي.

فسأل الصحابة وهم متعجبون من حاله أنه لا يريد أن يدخل الجنة! ومن يأبى يا رسول الله، ويأبى دخول الجنة؟

فقال ﷺ: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى».

من أطاع الرسول ﷺ واتبع سبيله وهديه، ووحد الله واستقام على شريعته فقام بما أمره الله - عز وجل - من الواجبات، وكف عن ما حرم الله - عز وجل - فهذا يدخل الجنة.

أما من أبى أن ينقاد للشرع، وكذب الرسول ولم يؤمن بالله، أو أنه آمن وصدق لكنه صاحب ذنوب وسيئات وتفريط في الواجبات فإنه لم يطع الرسول في أمره ونهيه فهذا يدخل النار والعياذ بالله.

وهذا الحديث، بشارة للطائعين من هذه الأمة، وأن كلهم يدخلون الجنة إلا من عصى الله ورسوله وتمرد على أوامره ونواهيه واتبع شهواته.

فإن دخول الجنة مشروط بطاعة الله - تعالى - وطاعة رسول الله ﷺ، ونجاة المرء في الدنيا والآخرة باتباع هدي رسول الله ﷺ.

ودخول الجنة إما أن يكون أبدياً، بمعنى لا يدخل الجنة أبداً، وهؤلاء هم الكفار فقد حرم الله عليهم الجنة.

وإما أن يدخل النار فيطهر من ذنوبه ثم يخرج فيدخل الجنة، وهؤلاء هم عصاه الموحدين.

قال ابن تيمية: «وقد أمر الله بطاعة رسوله في أكثر من ثلاثين موضعاً من القرآن، وقرن طاعته بطاعته، وقرن بين مخالفته ومخالفته، كما قرن بين اسمه واسمه فلا يذكر إلا ذكر معه».

وقال القاضي عياض: «فجعل - تعالى - طاعة رسوله طاعته، وقرن طاعته بطاعته، ووعد على ذلك بجزيل الثواب، ونهاهم عن معصيته، وأمرهم بالانتهاء عما نهاهم عنه. قال عز وجل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]».

وطاعة الرسول ﷺ واجبة لما فيها من طاعة الله - تعالى -، كما قال سبحانه: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ [النساء: ٨٠]. وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢].

وطاعته ﷺ سبب في حب الله - تعالى - للعبد، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وطاعته سبب في حب أهل السماء للعبد، قال ﷺ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جَبْرَيْلُ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ فَلَانًا فَأَحْبَبَهُ، فَيَحِبُّهُ جَبْرَيْلُ، فَيُنَادِي جَبْرَيْلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ فَلَانًا فَأَحْبَبُوهُ، فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يَوْضَعُ لَهُ الْقَبُولَ فِي الْأَرْضِ» [رواه البخاري].

وطاعته ﷺ سبب في مغفرة الذنوب: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وطاعته تجمع المطيع مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩ - ٧٠].

وطاعته ﷺ سبب في الفوز ودخول الجنة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

وفي الحديث: الحُضُّ والحث على طاعة الرسول ﷺ واتباع سنته.

١٥٩ - الرَّابِع: عن أَبِي مُسْلَمٍ ، وَقِيلَ: أَبِي إِيَّاسٍ سَلَمَةَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْأَكْوَعِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَجُلًا أَكَلَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِشِمَالِهِ فَقَالَ: «كُلْ بِيَمِينِكَ» قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ. قَالَ: «لَا اسْتَطَعْتَ مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبَرُ فَمَا رَفَعَهَا إِلَيَّ فِيهِ» [رواه مسلم].

* دين الإسلام يشمل جميع نواحي الحياة، فهو دين ودنيا، أتى لخيري الدنيا والآخرة.

وفي الحديث أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فأمره النبي ﷺ ونبهه إلى خطئه الذي وقع فيه بقوله:

«كل بيمينك» لوجوب الأكل باليمين، ولأن رسول الله ﷺ كان يحب التيامن في شأنه كله.

فقال الرجل جواباً لأمر النبي: لا أستطيع. قالها تكبراً وعناداً، وعدم طاعة للنبي ﷺ.

فدعا عليه النبي ﷺ لكبره ومعصيته لأمره. فقال: «لا استطعت ما منعه إلا الكبر فما رفعها إلى فيه» أي، فما وصلت يمينه إلى فيه بعد.

قال النووي في ذلك: «فإن كان عذر يمنع الأكل والشرب باليمين من مرض أو جراحة أو غير ذلك، فلا كراهة».

وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة في ذم الكبر والنهي عنه، وبيان أنه من أخلاق الكفار والفراعنة، وأن التواضع من أخلاق الأنبياء والصالحين.

وعرف النبي ﷺ الكبر في كلمتين جامعتين، وهي قوله: «الكبر بטר الحق وغمط الناس» [رواه مسلم].

والآفة الأولى: بטר الحق، أي، رده وعدم قبوله تكبراً وتعاضماً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

والآفة الثانية: غمط الناس، أي، ازدراؤهم واستحقارهم، فكل من رأى أنه

خير من أخيه، واحتقر أخاه وازدراه، ونظر إليه بعين الاستصغار، فقد تكبر ونازع الله في حقه.

وقد ذكر العلماء عند شرح هذا الحديث، السبب الذي جاء لأجله تحريم الأكل بهذه الطريقة، وهو التشبه بالشیطان الرجيم، فقد صح عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: **«لا يأكلن أحد منكم بشماله ولا يشربن بها، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بها»** [رواه مسلم].

وورد عن عائشة - رضي الله عنها - مرفوعاً: **«من أكل بشماله أكل معه الشيطان، ومن شرب بشماله شرب معه الشيطان»** [رواه أحمد].

ومن تتبع سيرة الرسول ﷺ علم تواضعه وسماحة نفسه وهو نبي مرسل من ربه، فقد جاءت امرأته فقالت: إن لي إليك حاجة، فقال ﷺ: **«اجلسي في أي طرق المدينة شئت أجلس إليك فجلست، فجلس النبي ﷺ إليها حتى قضت حاجتها»** [رواه أبو داود].

وكان ﷺ يعود المريض، ويشهد الجنائز، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد، وكان يطعم الطعام، ويفشي السلام، ويحسن الجوار، إلى غير ذلك من صفاته وسجاياه ﷺ.

ذكر أن مطرف بن عبد الله بن الشخير نظر إلى المهلب بن أبي صفرة وعليه حلة يسحبها ويمشي الخيلاء، فقال مطرف له: يا عبد الله، ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله؟ فقال المهلب: أما تعرفني وتنهاني مما رأيت. فقال: بل أعرفك، أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قدرة، وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة.

وفي الحديث: جواز الدعاء على من خالف الحكم الشرعي بلا عذر، وفيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل حال، حتى في حال الأكل، واستحباب تعليم الأكل إذا خالفه.

١٦٠ - الخامس: عن أبي عبد الله النُّعْمَانُ بْنِ بَشِيرٍ - رضي الله عنهما - قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَتَسَوْنَ صُفُوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ» [متفقٌ عليه].

وفي رواية لمسلم: كان رسولُ الله ﷺ يُسَوِّي صُفُوفَنَا حَتَّى كَأَنَّمَا يُسَوِّي بِهَا الْقِدَاحَ حَتَّى إِذَا رَأَى أَنَا قَدْ عَقَلْنَا عَنْهُ ثُمَّ خَرَجَ يَوْمًا، فَقَامَ حَتَّى كَادَ أَنْ يَكْبُرَ، فَرَأَى رَجُلًا بَادِيًا صَدْرُهُ فَقَالَ: «عِبَادَ اللَّهِ لَتَسَوْنَ صُفُوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ».

* الصلاة عماد الدين، وهي الركن الثاني من أركان الإسلام، والصلاة في المساجد واجبة، لم تسقط حتى في حال الخوف، قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء: ١٠٢].

ومن إقامة الصلاة تسوية الصفوف، وهي اعتدال القائمين بها على سمت واحد.

وكان النبي ﷺ من شدة حرصه على تسوية الصفوف أنه كان يسوي الصفوف كأنما يقوم بها السهام لشدة استوائها واعتدالها. وكان ﷺ - أحياناً - يمشي على الصفوف ليسويها بيده الكريمة، من أول الصف لآخره ينظر بعينه، وربما حان وقت تكبيره للصلاة فرأى رجلاً باديًا صدره، أي خارجاً عن سمت الصف فنبههم بقوله:

«عباد الله لتسوّن صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم». قيل إن المخالفة معناها: أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء واختلاف القلوب.

ولهذا يجب على الإمام قبل الدخول في الصلاة أن يسوي صفوف المصلين ويأمرهم بذلك. ورجح شيخ الإسلام وجوب تسوية الصف، وأن الجماعة إذا لم يسوّوا الصف فهم آثمون.

والمراد بتسوية الصف: هو ألا يتقدم أحد على أحد، لا بصدرة ولا بكعبه، ومن تمام ذلك التراص في الصفوف، وإتمام الصف الأول فالأول. وعدم ترك فراغات.

قال النووي: «والمراد بتسوية الصفوف إتمام الأول فالأول وسد الفرج، ويحاذي القائمين فيها بحيث لا يتقدم صدر أحد ولا شيء منه على من هو بجنبه، ولا يشرع في الصف الثاني حتى يتم الأول، ولا يقف في صف حتى يتم ما قبله».

وقد اعتنى المسلمون بهذا الأمر العظيم فحين كثر المصلون في زمن عمر - رضي الله عنه - وشق عليه تسوية الصفوف لكثرتها أمر رجلاً يسوي الصفوف إذا أقيمت الصلاة، فإذا جاء وقال إنها استوت كبر للصلاة، وكذلك فعل عثمان بن عفان - رضي الله عنه -، وكلّ رجلاً يسوي صفوف الناس، فإذا جاء وقال استوت كبر. وهذا يدل على عناية الخلفاء الراشدين بتسوية الصف.

وقد جاء في الحديث الآخر: «كان النبي ﷺ يُسوي صفوفنا كأنما يسوي بها القداح» والقداح: هي ريش السهم، وكانوا يسوونها تماماً، بحيث لا يتقدم شيء على شيء.

وفي الحديث: دليل على أن تسوية الصفوف من وظيفة الإمام. وفيه: الأمر والاعتناء بتسوية الصفوف.

١٦١ - السَّادُسُ: عن أَبِي موسى - رضي الله عنه - قال: احْتَرَقَ بَيْتٌ بِالْمَدِينَةِ عَلَى أَهْلِهِ مِنَ اللَّيْلِ فَلَمَّا حُدِّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِشَأْنِهِمْ قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ النَّارَ عَدُوٌّ لَكُمْ، فَإِذَا نِمْتُمْ فَأُطْفِئُوهَا عَنْكُمْ» [متفق عليه].

* الإسلام دين شامل كامل، لم يترك شاردة ولا واردة إلا بينها لنا، وقد أورد المصنف هذا الحديث في باب المحافظة على السنة وآدابها. وقد جرت حادثة في المدينة في عهد رسول الله ﷺ حيث احترق بيت بالمدينة على أهله من الليل، فلما أخبر رسول الله ﷺ بشأنهم وما جرى لهم، وهو الرفيق بأمته، الرفيق بهم في الدنيا والآخرة، قال: «إِنَّ هَذِهِ النَّارَ عَدُوٌّ لَكُمْ، فَإِذَا نِمْتُمْ فَأُطْفِئُوهَا عَنْكُمْ» لأنه يقع منها الضرر إذا لم يحسن استخدامها أو فرط فيها، ويدخل في ذلك السراج وغيره مما له لهب يخشى منه.

قال النووي: «هذا عام يدخل فيه نار السراج وغيرها، وأما القناديل المعلقة في المساجد وغيرها، فإن خيف حريق بسببها دخلت في الأمر بالإطفاء، وإن أمن ذلك كما هو الغالب، فالظاهر أنه لا بأس بها، لانتفاء العلة لأن النبي ﷺ علل الأمر بالإطفاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم: بأن الفويسقة تضرم على أهل البيت بيتهم، فإذا انتفت العلة زال المنع.

وهذه النار التي خلقها الله - عز وجل - وأنشأ شجرتها، امتن بها على عباده: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ (٧١) ﴿أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ (٧٢) [الواقعة: ٧١-٧٢].

ثم ذكر بعض تلك النعم، فقال ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَمَتًا لِلْمُقِيمِينَ﴾ (٧٣) [الواقعة: ٧٣] تذكرة يتذكر بها الإنسان نار الآخرة، فإن هذه النار جزء من ستين جزءاً من نار جهنم، فجعلها تذكرة للإنسان المقيم، و﴿لِلْمُقِيمِينَ﴾ (٧٤) وهم المسافرون يتتبعون بها، ويستدفئون بها ويطبخون طعامهم وغير ذلك من المنافع والمصالح.

قال ابن القيم: «جعل الله النار تذكرة للمقوين - أي: المسافرين - مع أنه منفعتها عامة للمسافرين والمقيمين، تنبيهاً لعباده - والله أعلم - على أنهم كلهم مسافرون، وأنهم في هذه الدار على جناح سفر، ليسوا مقيمين ولا مستوطنين». وقال القرطبي: «في هذه الأحاديث أن الواحد إذا بات بيت ليس فيه غيره، وفيه نار فعليه أن يطفئها قبل نومه، أو يفعل بها ما يؤمن معه الاحتراق، وكذا إن كان في البيت جماعة فإنه يتعين على بعضهم، وأحقهم بذلك آخرهم نوماً، فمن فرط في ذلك كان للسنة مخالفاً ولأدائها تاركا».

والنوم هو الموتة الصغرى التي ذكرها الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وقد امتن الله - عز وجل - على عباده بالليل والنوم فيه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُم أَلِيلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

ومن آداب النوم التي بينها النبي ﷺ، ما رواه البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه نام على شقه الأيمن ثم قال: «اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت» [رواه مسلم].

ومن السنن والآداب كذلك: الوضوء عند إرادة النوم، والنوم على الشق الأيمن، وكذلك التسبيح والتكبير والتحميد، وغيرها من السنن. وفي الحديث: الأمر بإطفاء النار عند النوم لخطرها على النائمين.

١٦٢ - السَّابِعُ: عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَتْ طَائِفَةٌ طَيِّبَةً، قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَاءَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا. وَأَصَابَ طَائِفَةٌ أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ» [متفقٌ عليه].

«فَقَهُ» بِضَمِّ الْقَافِ عَلَى الْمَشْهُورِ، وَقِيلَ: بِكَسْرِهَا، أَيْ: صَارَ فَقِيهًا.

* في هذا الحديث يقرب النبي ﷺ الأمر لأصحابه بضرب الأمثال، وهذا مثل ضربه النبي ﷺ لما جاء به من الدين، من الهدى والعلم الذي بعث به بالمطر المفيد لأنه يحيى القلوب كما يحيى المطر الأرض، وشبه السامعين له بالأرض المختلفة، فشبه من ينتفع به بالأرض الطيبة، وشبه من يحمل العلم ويعلمه ولم ينتفع به بالأرض الصلبة الممسكة للماء فينتفع به الناس، وشبه من لم يتعلم ولم يعمل بالأرض المستوية التي لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، وهذا شر الناس لا ينفع ولا ينتفع. فهم على ثلاثة أقسام: قوم علموا وعملوا وهم عامة المؤمنين. وقوم علموا وعملوا وعلموا وهم العلماء. وقوم لم يعلموا، وهم الكفار والفاستقون.

وقد أثنى الله - عز وجل - على العلم وأهله، ورتب لمن سار في طريقه الأجر والمثوبة ورفع الدرجات في الدنيا والآخرة. ومن إكرام الله - عز وجل - للعلماء استشهاده بهم على أعظم مشهود به وأجله وهو توحيده، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة الملائكة.

قال عز وجل: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

قال القرطبي: «في هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن العلماء».

ورفع الله - جل وعلا - درجة المؤمنين العالمين فوق درجة جهلة المؤمنين وفي كل خير، فقال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وقدم - تعالى - العلم قبل العمل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

قال الشوكاني: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة بتوفير نصيبهم فيهما ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ أي: ويرفع الذين أوتوا العلم منكم درجات عالية في الكرامة في الدنيا، والثواب في الآخرة، ومعنى الآية: أنه يرفع الذين آمنوا على من لم يؤمن درجات، ويرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا درجات، فمن جمع بين الإيمان والعلم رفعه الله بإيمانه درجات، ثم رفعه بعلمه درجات.

قال الإمام أحمد: «الناس يحتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب، لأن الطعام والشراب يُحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين، والعلم إليه بعدد الأنفاس».

وفي الحديث: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**» [رواه الترمذي].

قال الإمام الزهري: «ما عبد الله بشيء أفضل من العلم».

وقال: «لا أعلم بعد النبوة أفضل من العلم».

وفي الحديث: بيان فضل تعلم العلم ثم نشره، وأن الناس محتاجة إليه، فهو كحاجة الأرض إلى الغيث، بل أعظم من ذلك.

١٦٣ - الثَّامِنُ: عن جابر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا وَهُوَ يَذُبُّ عَنْهَا وَأَنَا أَخَذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَفْلَتُونَ مِنْ يَدِي» [رواه مسلم].

«الْجَنَادِبُ»: نَحْوُ الْجَرَادِ وَ«الْفَرَاشُ»، هَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ الَّذِي يَقَعُ فِي النَّارِ. وَالْحُجَزُ: جَمْعُ حُجْزَةٍ، وَهِيَ مَعْقِدُ الْإِزَارِ وَالسَّرَاوِيلِ.

* كان النبي ﷺ لا يألوا جهداً في الدعوة والقيام بها، حريصاً على أمته رحيماً بها، لم يترك خيراً إلا دلها عليه ولا شراً إلا حذرهما منه. ومن ذلك هذا الحديث الذي يضرب فيه ﷺ مثلاً لأصحابه، ليبين لهم حاله مع أمته.

فذكر أن مثله ﷺ ومثل أمته كحال رجل في بركة أوقد ناراً، فجعل الجنادب وهو نوع من الجراد والفراش «يقعن فيها» لأن هذه عادة الفراش والجنادب والحشرات الصغيرة، حيث تأوي وتسرع إلى الضوء.

قال ﷺ: «وَأَنَا أَخَذُ بِحُجَزِكُمْ» أي، لأمنعكم من الوقوع في النار. وهي استعارة مثلت حالة منعه ﷺ الأمة عن الهلاك بحالة رجل أخذ بحجزة صاحبه الذي يهوى أن يهوى في قعر بئر مردية.

«وَأَنْتُمْ تَفْلَتُونَ مِنْ يَدِي» أي، ولكنكم تفلتون من يدي. وذلك لأن الناس ينخدعون بزهرة الحياة الدنيا وزينتها وقد يكون فيها العطب.

قال الغزالي كما في فتح الباري: «التمثيل وقع على صورة الإكباب على الشهوات من الإنسان بإكباب الفرash على التهافت في النار، ولكن جهل الآدمي أشد من جهل الفرash، لأنها باغترارها بظواهر الضوء إذا احترقت انتهى عذابها في الحال، والآدمي يبقى في النار مدة طويلة أو أبداً والله المستعان».

وقال الحافظ: «وحاصل التمثيل أنه شبه تهافت أصحاب الشهوات في المعاصي التي تكون سبباً في الوقوع في النار بتهافت الفراش في النار اتباعاً لشهواتها، وشبه ذبّه العصاة عن المعاصي بما حذرهم به وأنذرهم بذب صاحبه النار الفراش عنها».

وفي الحديث: وجوب اتباع سنة النبي ﷺ والسير على منهجه، وطاعته فيما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر.

وفيه: إظهار لرأفة وحرص النبي ﷺ على حماية أمته من النار، وأنه يأخذ بحجزها ويشدها حتى لا تقع في هذه النار.

وفيه: إشارة إلى أن حاجة الإنسان إلى النذير أحوج منه إلى البشير، ولذلك أفرد - تعالى - في قوله ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وذلك لأن جبلة الإنسان مائلة إلى الحظوظ العاجلة دون الآجلة.

وفي الحديث: بيان حق النبي ﷺ على أمته. وأن يقوم الرجل في بيته كما قام الرسول ﷺ لأمره، وذلك بأن يحوهم بالتربية والتعليم، وتعظيم أمر الله وأمر رسوله، وتعويدهم منذ الصغر على الطاعات والعبادات، وتحذيرهم من المعاصي والمنكرات. امثالاً لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

١٦٤ - التَّاسِعُ: عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ بَلْعَ الْأَصَابِعِ وَالصَّحْفَةِ وَقَالَ: «إِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ فِي أَيِّهَا الْبَرَكَةُ» [رواه مسلم].

وفي رواية له: «إِذَا وَقَعَتْ لُقْمَةٌ أَحَدِكُمْ. فَلْيَأْخُذْهَا فَلْيَمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَدَى، وَلْيَأْكُلْهَا، وَلَا يَدْعُهَا لِلشَّيْطَانِ، وَلَا يَمْسُخْ يَدَهُ بِالْمَنْدِيلِ حَتَّى يَلْعَقَ أَصَابِعَهُ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ الْبَرَكَةُ».

وفي رواية له: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ حَتَّى يَحْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ، فَإِذَا سَقَطَتْ مِنْ أَحَدِكُمُ اللَّقْمَةُ فَلْيَمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَدَى، فَلْيَأْكُلْهَا، وَلَا يَدْعُهَا لِلشَّيْطَانِ».

* في هذا الحديث العديد من آداب وسنن الطعام، وفيه أنه ﷺ أمر بلعق الأصابع والصحفة، وقال «إِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ فِي أَيِّهَا الْبَرَكَةُ» فالطعام الذي يأكله الإنسان فيه بركة ولا يدري أين هي، فينبغي للمسلم أن يحرص على إدراك هذه البركة، فإن البركة إذا نزع لم ينتفع العبد بشيء ولو حاز الدنيا بحذاقيرها.

«إِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ فِي أَيِّهَا الْبَرَكَةُ».

قال النووي: «معناه أن الطعام الذي يحضر الإنسان فيه بركة، ولا يدري أن تلك البركة فيما أكله، أو فيما بقي على أصابعه، أو فيما بقي في أسفل القصعة، أو في اللقمة الساقطة، فينبغي أن يحافظ على هذا كله، لتحصل البركة.

وأصل البركة، الزيادة وثبوت الخير والامتناع به، والمراد هنا ما يحصل به التغذية، وتسلم عاقبته من أذى، ويقوي على طاعة الله - تعالى - وغير ذلك».

وقيل: البركة: هي ثبوت الخير الإلهي في الشيء، فإنها إذا حلت في قليل كثرته، وإذا حلت في كثير نفع.

وتستجلب البركة بتقوى الله، وقراءة القرآن، واتباع النبي ﷺ وهدية في كل الأمور، وكذلك بالدعاء والتضرع إلى الله - عز وجل - وغيرها.
وفي توجيه آخر حين تقع اللقمة على الأرض، أن يأخذها ويزيل ما كان بها وليأكلها ولا يتركها، لأن في تركه لها إهانة للنعمة وتكبر عنها، وكذلك من منفعة أخذها أنه لا يدعها للشيطان.

وقد ذكر عند الطبراني في الأوسط صفة لعق الأصابع من حديث كعب بن عجرة، قال: «رأيت رسول الله ﷺ يأكل بأصابعه الثلاثة، بالإبهام والتي تليها والأوسط، ثم رأيت يلعق الثلاث قبل أن يمسحها، الوسطى ثم التي تليها، ثم الإبهام».

وهكذا الإسلام دين النظافة والاحتراس من الأذى، مع عدم الكبر وازدراء النعمة.

ومن الآداب الأخرى: التسمية في أول الطعام والشراب، وحمد الله في آخره، ولها تأثير عجيب في نفعه واستمرائه ودفع مضرته.
قال الإمام أحمد: «إذا جمع الطعام أربعاً فقد كمل: إذا ذكر اسم الله في أوله، وحمد الله في آخره، وكثرت عليه الأيدي، وكان من حل».

والحمد لله بعد الطعام والشراب هو سبب لرضى الله عن العبد، جاء في الحديث أنه ﷺ قال: **«إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها»** [رواه مسلم].

وفي الحديث من الآداب: الحث على كسر النفس بالتواضع، وأخذ اللقمة الساقطة، ولا يدعها كما يفعل بعض المترفين استكباراً، والأمر بلعق الأصابع والصفحة.

١٦٥ - العاشر: عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قام فينا رسول الله ﷺ بمَوْعِظَةٍ فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مُحْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى - حُفَاةٌ عُرَاةٌ غُرُلًا» ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فَعْلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ، أَلَا وَإِنَّهُ سَيَجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتُ الشَّمَالِ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٧-١١٨] فَيُقَالُ لِي: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ [متفق عليه]. «غُرُلًا» أَي: غَيْرَ مَخْتُونِينَ.

* كان من هدي النبي ﷺ أنه يخطب بالناس، في الجمع والأعياد وغيرها من المناسبات.

وفي هذا الحديث، ذكر ابن عباس - رضي الله عنهما - موعظة النبي ﷺ، وأنه قال:

«إِنَّكُمْ مُحْشُورُونَ» أي، مجموعون أيها الناس، بعد البعث في صعيد واحد.
«حُفَاةٌ عُرَاةٌ» ليس عليهم نعال ولا خفاف، وليس عليهم كسوة تستر أجسامهم.
«غُرُلًا» غير مختونين، بهما ليس معهم مال، فيكون الإنسان مجرداً من كل شيء.

ثم قرأ ﷺ ما يشبه حالهم هذه، وهو قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فَعْلِينَ﴾.

وأول من يكسى في هذا الموقف العظيم إبراهيم - عليه السلام - وهذه فضيلة له - عليه السلام -، فهو أبو الأنبياء وإمام الدعاة إلى التوحيد، وقد ذكره الله إماماً يقتدي به من جاء من بعده من النبيين والمرسلين.

قال القرطبي: «هذا يدل على أن الناس كلهم يحشرون عراة حتى الأنبياء، ثم يكسون من ثياب الجنة، ولا شك أن من لبسها، فقد لبس جنة تقيه مكاره الحشر وعرقه، وحر النار، وغير ذلك»

ثم ذكر ﷺ أنه يؤتي برجال من أمة محمد فيؤخذ بهم ذات الشمال، أي، إلى طريق النار، فيقول ﷺ وهو المشفق على أمته:

«أصحابي» أي، يشفع إلى الله - سبحانه وتعالى - فيهم.

فيقال له: **«إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»** أي، غيروا وبدلوا.

فيقول النبي ﷺ كما قال العبد الصالح، يعني عيسى ابن مريم: **﴿وَكُنْتُ**

عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إلى قوله **﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾**.

ثم يقال للنبي ﷺ: **«إنهم لم يزلوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»**.

قال الخطابي: «فيه إشارة إلى قلة عدد من وقع لهم ذلك، وإنما وقع ذلك لبعض جفاة الأعراب، ممن افتتنوا وارتدوا على أدبارهم ومنعوا الزكاة. ولم يقع لأحد من الصحابة المشهورين». وقيل هؤلاء صنفان: أحدهما: عصاة مرتدون عن الاستقامة لا عن الإسلام، وهؤلاء مبدلون الأعمال الصالحة بالسيئة، والثاني: مرتدون إلى الكفر حقيقة ناكصون على أعقابهم.

ومنزلة الصحابة عظيمة ومكانتهم جليلة، وهم الذين نشروا الدين وقاموا بأمره، وقتلوا المرتدين ومانعوا الزكاة، حتى قال أبو بكر - رضي الله عنه - قوله المشهورة: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة من حق المال، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها» [رواه ابن حبان].

قال ابن عبد البر: «كل من أحدث في الدين فهو من المطرودين عن الحوض، كالخوارج، والروافض، وسائر أصحاب الأهواء، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور وطمس الحق، والمعلنون بالكبائر، فكل هؤلاء يخاف عليهم أن يكونوا عنا هذا الخبر».

١٦٦ - الْحَادِي عَشَرَ: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغْفَلٍ، - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، عَنِ الْخَذْفِ وَقَالَ: «إِنَّهُ لَا يَقْتُلُ الصَّيْدَ، وَلَا يَنْكَأُ الْعَدُوَّ، وَإِنَّهُ يَفْقَأُ الْعَيْنَ، وَيَكْسِرُ السِّنَّ» [متفق عليه].

وفي رواية: أَنَّ قَرِيبًا لَابْنِ مُغْفَلٍ خَذَفَ، فَنَهَاهُ وَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنِ الْخَذْفِ وَقَالَ: «إِنَّهَا لَا تَصِيدُ صَيْدًا» ثُمَّ عَادَ فَقَالَ: أَحَدَّثَكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْهُ، ثُمَّ عُدْتَ تَخْذِفُ؟ لَا أَكَلِمَكَ أَبَدًا.

* المسلم مُحِبٌ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ، ناصح له، مشفق عليه، لا يخذله ولا يسلمه، ولا يحمل عليه حقداً ولا غلاً، فإن المسلم أخو المسلم، لا يحزنه ولا يحقره ولا يؤذيه.

وقد حرم الله - عز وجل - أذية المسلم بأي شكل من الأشكال سواء بالغيبة أو النيممة أو الاستهزاء، وكذلك ما كان من أذية جسدية كالضرب والتعذيب، وأشد ذلك سفك الدماء.

وقد نهى ﷺ عن تخويف وترويع المسلم بحديدة أو غيرها، قال ﷺ: «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى يدعه وإن كان أخاه لأبيه وأمه» [رواه مسلم].

قال النووي: «فيه تأكيد حرمة المسلم، والنهي الشديد عن ترويعه وتخويفه والتعرض له بما قد يؤذيه».

وقوله ﷺ: «وإن كان أخاه لأبيه وأمه» مبالغة في إيضاح عموم النهي في كل أحد، سواء من يُتهم فيه، ومن لا يُتهم، وسواء كان هذا هزلاً ولعباً، أم لا، لأن ترويع المسلم حرام بكل حال.

وفي الحديث الآخر: «لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً» [رواه أبو داود].

بل وجاء النهي عن تعاطي السيف مسلولاً، في الحديث أنه ﷺ قال: «لا يشر أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري هل الشيطان ينزع في يده، فيقع في حفرة من النار» [متفق عليه].

قال المناوي في فيض القدير: «ترويع المسلم حرام شديد التحريم». وقد ذكر راوي الحديث ابن مغفل أنه رأى قريباً له خذف فنهاه، وقال: إن رسول الله ﷺ نهى عن الخذف، وقال «إنها لا تصيد صيداً». ثم عاد قريبه للخذف بعدما سمع النهي من رسول الله ﷺ، فغضب ابن مغفل، وقال: لا أكلمك أبداً. هجره لأنه لم يمثل قول النبي ﷺ ومنعه عن الخذف.

وفي هذا تعزير لمن خالف أمر النبي ﷺ حتى يرتدع ويترك ما نهى عنه. وقد جاء التحذير في أحاديث كثيرة سواء أكان بالقول أو بالفعل، وسواء كان على سبيل الجد أو اللعب.

روي عن النعمان بن بشير قال: «كنا مع رسول الله في مسير، فخفق رجل «أي نعس» على راحلته، فأخذ رجل سهماً من كنانته، فأنتبه الرجل، ففزع. فقال رسول الله ﷺ: «لا يحل لرجل أن يروع مسلماً» [صحيح الترغيب].

وفي الحديث: نهى النبي ﷺ عن كل فعل لا فائدة فيه، أو يلحق ضرراً بالمسلمين ومن ذلك أدنى الأمور وهو الخذف: وهو رمي الحصى بالسبابة والإبهام، وقد بين ﷺ أنها لا فائدة منها، فهي لا تقتل صيداً ولا تنكأ عدواً، ومن ضررها أنها تفقأ العين وتكسر السن.

١٦٧ - وعن عابس بن ربيعة قال: رَأَيْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، - رضي الله عنه -، يُقَبِّلُ الْحَجَرَ يَغْنِي الْأَسْوَدَ وَيَقُولُ: إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ مَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ [متفقٌ عليه].

* الإسلام دين صفاء ونقاء في العقيدة والمعاملات، وهو دين القبول والإذعان لأمر الله وأمر رسوله ﷺ.

وهذا الحديث الذي رواه عابس بين ربيعة فيه اتباع السنة ولزومها، وعمر - رضي الله عنه - له المنزلة العالية في الإسلام.

في الحديث الذي رواه البخاري قال ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر».

وفي هذا الحديث: أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان يطوف بالكعبة، فقبل الحجر الأسود امتثالاً لفعل النبي ﷺ، ولكمال الذل والعبودية لله - عز وجل -، ولهذا قال عمر - رضي الله عنه - حين قبله: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع».

وبين - رضي الله عنه - أن تقييله إياه لمجرد اتباع النبي ﷺ، فقال: «ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك» لأن الأحجار لا تنفع ولا تضر، ولا شك في ذلك ولكنها سنة نبوية.

ولا شك أن ذلك من صفاء عقيدة الصحابة حيث ردوا النفع والضرر إلى الله وحده.

وفي قول عمر هذا، التسليم للشارع في أمور الدين، وحسن اتباع فيما لم يكشف معانيها، وهو قاعدة عظيمة في اتباع النبي ﷺ فيما يفعله ولو لم يعلم الحكمة فيه.

قال الطبراني: «إنما فعل ذلك لأن الناس كانوا حديثي عهد بعبادة

الأصنام فخشي عمر أن يظن الجاهل أن استلام الحجر باب تعظيم الأحجار كما كانت الجاهلية تعتقده في الأوثان».

وقد قال النبي ﷺ عن الحجر الأسود: «أنه نزل من الجنة أشد بياضاً من اللبن، ولكن سودته خطايا بني آدم» [رواه أحمد].

وقد اعترض بعض الملحدين فقال: كيف سودته خطايا المشركين، ولم تبيضه طاعات أهل التوحيد. قال ابن قتيبة: «لو شاء الله لكان ذلك، وإنما أجرى الله العادة بأن السواد يصبغ، ولا ينصبغ على العكس من البياض». وقال المحب الطبري: «في بقاءه أسود عبرة لمن له بصيرة، فإن الخطايا إذا أثرت في الحجر الصلد فتأثيرها في القلب أشد، قال: وروي عن ابن عباس: «إنما غيره السواد لئلا ينظر أهل الدنيا إلى زينة الجنة».

ولا يشرع تقبيل شيء من الكعبة إلا الحجر الأسود، وأما الركن اليماني فيستلم باليد اليمنى.

والحجر الأسود أفضل شيء أن يمسحه بيده اليمنى ويقبله، فإن شق عليه ذلك ولم يتمكن أشار إليه بيده.

وفي الحديث: قاعدة عظيمة في اتباع النبي ﷺ فيما يفعله ولو لم نعلم الحكمة فيه. امثالاً لقوله تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

١٧- باب في وجوب الانقياد لحكم الله - تعالى - وما يقوله من دُعي إلى ذلك، وأمرَ بمعروف أو نُهي عن منكر

قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

* الإسلام هو دين الاستسلام لله والانقياد له بالطاعة، فإذا قضى الله ورسوله أمراً كان على المؤمنين الاستسلام والإلتزام به ظاهراً وباطناً دون اعتراض أو توان، أو مدافعة أو منازعة، لأن ذلك دليل الإيمان المحض. وقد أقسم - عز وجل - في الآية، أنه لا يؤمن أحد حتى يُحكم رسول الله ﷺ فيما له وعليه، ويتحاكموا إلى سنته بعد مماته، كما قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

وجاء في سبب نزول هذه الآية أن رجلين اختصما إلى رسول الله ﷺ فقضى بينهما، فقال الذي قضى عليه: ردنا إلى عمر، فأتيا إليه، فقال الرجل: قضى لي رسول الله ﷺ على هذا، فقال: ردنا إلى عمر، فقال عمر: أكذلك؟ قال نعم. قال: نعم مكانكما حتى أخرج إليكما فأقضي بينكما، فخرج إليهم مشتملاً على سيفه، فضرب الذي قال ردنا إلى عمر فقتله، فأنزل الله الآية التي فيها نفي الإيمان عن من لم يُحكموا النبي ﷺ فيما شجر بينهم، نفيًا مؤكداً بتكرار أداة النفي وبالقسم.

ولم يكتف - تعالى - في الآية، منهم بمجرد التحكيم للرسول ﷺ، حتى يضيفوا إلى ذلك عدم وجود شيء من الحرج في نفوسهم، ويدعنوا ويسلموا تسليماً من غير معارضة ولا موافقة ولا منازعة، فحقيقة الإيمان الخضوع والإذعان.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١].

يخبر - تعالى - في هذه الآية، أن قول المؤمنين حقيقة، الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم، أنهم إذا دُعوا إلى حكم الله وحكم رسوله ليحكم بينهم، سواء أوافق أهواءهم أو خالفها، قالوا: سمعنا حكم الله ورسوله، وأطعنا وأجبنا من دعانا إليه، وأطعنا طاعة تامة سالمة من الحرج، ورضينا.

ووعدهم الله بالفلاح على ذلك، وهو نيل المطلوب، والسلامة من المرهوب، أما المنافقون فإنهم إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم تولوا وأعرضوا.

قال الطبري: «ولم يقصد به الخبر، ولكنه تأنيب من الله للمنافقين وتأديب منه لآخرين».

﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي، وأولئك المسارعون إلى مرضات الله، هم الفائزون بسعادة الدارين، لأنه لا يفلح إلا من حكم الله ورسوله، وأطاع الله ورسوله، وقد وعدهم بفضل عظيم وجزاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَتَخَشَّ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢].

أي، الذين جمعوا به طاعة الله ورسوله، وخشية الله وتقواه، هم السعداء الناجون من عذاب الله الفائزون برضوانه.

وفيه من الأحاديث حديث أبي هريرة المذكور في أول الباب قبله (انظر الحديث رقم ١٥٦) وغيره من الأحاديث فيه.

١٦٨ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣] اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكْبِ فَقَالُوا: أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ كُفِّنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ: الصَّلَاةَ وَالْجِهَادَ وَالصَّيَامَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ أَنْزَلْتَ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةَ وَلَا نُطِيقُهَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ، وَذَلَقَتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، أَنْزَلَ اللَّهُ - تَعَالَى - فِي إِثْرِهَا: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ - تَعَالَى - فَأَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قَالَ: «نَعَمْ» رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا» قَالَ: «نَعَمْ» رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ» قَالَ: «نَعَمْ» وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» قَالَ: «نَعَمْ». [رواه مسلم].

* لما نزل قول الله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الصَّحَابَةِ - رضي الله عنهم - فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ من شدة الوجع والخوف ثم بركوا على الركب، فقالوا للنبي ﷺ: كُفِّنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ: الصَّلَاةَ وَالْجِهَادَ وَالصَّيَامَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا، فَقَالَ لَهُمْ ﷺ: مَخَوْفًا وَمَحْذَرًا «أَتُرِيدُونَ أَنْ

تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم - أي اليهود والنصارى -، فاليهود كتابهم التوراة، وهي أشرف الكتب المنزلة بعد القرآن، والنصارى كتابهم الإنجيل وهو متمم للتوراة.

«سمعنا وعصينا؟» ثم دلهم على السمع والطاعة والقبول.

فقال: **«بل قولوا: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾** فلما سلم القوم وأطاعوا، وسألوا الله المغفرة مدحهم الله في الآية ورفع عنهم المشقة، وهذه ثمرة الطاعة والانقطاع إلى الله - عز وجل -، فأنزل الله تمة الآيات بأن مدحهم بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. فلما فعلوا نسخها الله - عز وجل - بقوله: **﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾**.

وفي ختام الآية دعاء بالرحمة والمغفرة والعفو والصفح.
قال القرطبي: «خرج هذا مخرج التعليم للخلق كيف يدعون».
وقال السدي: **﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾** أي، طاقتها، وحديث النفس مما لا يطيقون».

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل»**. وقد رفع - جل وعلا - الحرج عن أمة محمد ﷺ، فكل ما حدث الإنسان به نفسه لكنه ما ركن إليه، ولا عمل به، ولا تكلم به، فهو معفو عنه.

والحديث يدل على شدة تعظيم الصحابة - رضي الله عنهم - لأمر الله - تعالى - وأمر رسوله ﷺ.

١٨ - باب النهي عن البدع ومحدثات الأمور

قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].
وقال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].
وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]: أي
الكتاب والسنة.
وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ
بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].
وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].
والآيات في الباب كثيرة معلومة.

* هذا الباب في النهي عن البدع ومحدثات الأمور والتحذير منها، لأن
الدين قد كمل وتم. قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ
نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].
قال ابن القيم: «تأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بـ (الكمال)
إيذاناً في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل ولا شيء خارجاً عن
الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حسنه وجلالته. ووصف النعمة بـ (التمام)
إيذاناً بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذا أعطاهموها، بل يتمها
لهم بالدوام في هذه الدار وفي دار القرار».
والبدعة: هي الطريقة المخترعة في الدين تضاهي الشريعة، يقصد بها زيادة
التقرب إلى الله.

وفي البدع استحسان الأمر، لكنه مخالف للكتاب والسنة فهو مَرُود على
صاحبه، وقد ورد الذم في الكتاب وفي السنة على ذمها والتحذير منها، وهي

بريد الشرك، وهي أحب إلى الشيطان من المعاصي، لأن المعاصي يتاب منها، أما البدع فهي تستمر مع صاحبها لأنه يراها قرابة وديانة، وهي مخالفة وعصيان وباب من أبواب الشيطان.

قال أبو الدرداء: «اقتصاد في سنة، خير من إجهاد في بدعة، إنك إن تتبع خير من أن تبدع، ولن تخطي الطريق ما اتبعت الأثر». وفي قوله: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ فالحق والضلال ضدان لا يلتقيان.

وفي رد البدع والمحدثات من الأمور، قوله تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾، ففي القرآن جميع ما يحتاجه الناس في حياتهم الدينية والدينية، وتدخل السنة في ذلك لأنها بيان القرآن.

وإن حصل خلاف فمرده إلى الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

ثم بين - تعالى - في الآية الأخرى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ لأن البدعة باب تفرق وشر، فالصراط المستقيم واحد لا يتبدل ولا يتغير، وهو أسهل وأقرب طريق للجنة، والسبل نهايتها مختلفة وطرقها متشعبة، ولا شك أن البدع والمحدثات في الدين من أسباب التنازع والتفرق في البلاد والعباد لأنها خلاف ما أمر الله - عز وجل - ورسوله به.

وفي الأمر بالمحافظة على السنة واتباعها، قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «لا تجالسوا أهل الأهواء، فإن مجالستهم ممرضة للقلوب».

جاء رجل إلى الإمام مالك، فقال: يا أبا عبد الله: من أين أحرم؟ قال: من ذي الحليفة، من حيث أحرم رسول الله ﷺ، فقال: إني أريد أن أحرم من المسجد النبوي، فقال: لا تفعل. فإني أخشى عليك الفتنة، فقال: وأي فتنة هذه؟! إنما هي أميال أزيدها، قال: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله ﷺ. إني سمعت الله يقول ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وأما الأحاديث فكثيرة جداً وهي مشهورة فنقتصر على طرف منها:
 ١٦٩ - عن عائشة، رضي الله عنها، قالت قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ
 فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ» [متفق عليه].
 وفي رواية لمسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

* اقتضت حكمة الله - سبحانه وتعالى - أن يكون هذا الدين خاتم الأديان
 وآخر الشرائع، وكملت وتمت الرسالة بموت نبينا محمد ﷺ.
 وهذا الحديث من أصول الدين وقواعده، ومحتوي على أصل عظيم من
 أصول الإسلام، وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها، فيحتج به في إبطال جميع
 العقود المنهي عنها، وفي رد المحدثات وجميع المنهيات.
 والحديث هذا نصف العلم، والآخر في قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**
وإنما لكل امرئ ما نوى». فالحديث الأول في الأعمال الظاهرة، والثاني في
 الأعمال الباطنة.

قال النووي: «هذا الحديث ينبغي حفظه واستعماله في إبطال المنكرات
 وإشاعة الاستدلال به كذلك».

وقال ابن حجر: «هذا الحديث معدود من أصول الدين وقاعدة من قواعده».
 وهذا الحديث إتمام للآيات السابقة وتوضيح وتبيين وتأكيدها، فالنبي
 ﷺ يقول:

«**من أحدث في أمرنا**» أي، ابتدع في ديننا. أي، في الإسلام لأنه قد تم وكمل.
 «**ما ليس منه فهو رد**» أي، فهو مردود على صاحبه.
 وتعريف البدعة: هي كل قول أو فعل محدث نسب إلى الدين وليس له
 أصل في الكتاب أو السنة أو الإجماع.

قال ابن تيمية: «البدعة ما خالفت الكتاب أو السنة وإجماع سلف الأمة من الاعتقادات والعبادات، والبدع كلها محرمة مذمومة شرعاً، لقوله ﷺ: **«وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»** [رواه النسائي].

وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم: «فهذا الحديث يدل بمنطوقه على أن كل عمل ليس عليه أمر الشارع، فهو مردود، ويدل بمفهومه على أن كل عمل عليه أمره، فهو غير مردود، والمراد بأمره هنا: دينه وشرعه، كالمراد بقوله في الرواية الأخرى: من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد، فالمعنى إذاً: أن من كان عمله خارجاً عن الشرع ليس متقيداً بالشرع، فهو مردود».

ومن أحدث بدعة ودعى الناس إليها فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن دعى الناس إلى سنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، كما قال ﷺ: **«من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعدي من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً»** [رواه مسلم].

والبدعة أشد من جنس المعصية، لأن العاصي يعمل الذنب لشهوة من غير اعتقاد، وهو في قرارة نفسه يعلم أنه مخالف للشرع ودائماً يحدث نفسه بالتوبة وترك المعصية.

أما المبتدع فيعمل البدعة عن اعتقاد أنها من الدين، ويتقرب إلى الله بذلك ويدعو لها، ولا يزداد إلا إصراراً على بدعته. ولهذا قال سفيان الثوري: «البدعة أحب إلى إبليس من المعصية لأن المعصية يتاب منها والبدع لا يتاب منها». وقال ابن مسعود - رضي الله عنه - «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم».

وفي الحديث: وجوب التمسك بالسنة ولزومها، والتحذير من البدع.

١٧٠ - وعن جابر، - رضي الله عنه -، قال: كان رسول الله ﷺ، إذا خطب أحمّرت عيناه، وعلاّ صوته، واشتدّ غضبه، حتّى كأنّه مُنذرُ جيشٍ يقول: «صَبَحَكُمْ وَمَسَّكُمْ» ويقول: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وَيَقْرُنُ بَيْنَ أَصْبِعَيْهِ السَّبَابَةِ، وَالْوُسْطَى»، ويقول: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» ثمّ يقول: «أَنَا أُولَىٰ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ. مَنْ تَرَكَ مَا لَا فَلَائِلَهِ، وَمَنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضِيَاعًا، فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ» [رواه مسلم].

وعن العرباض بن سارية، - رضي الله عنه -، حديثه السابق في بابِ الْمُحَافَظَةِ عَلَى السُّنَّةِ.

* عيد الأسبوع لأهل الإسلام هو يوم الجمعة، وهو خير يوم طلعت عليه الشمس، وفيه ساعة الاستجابة، وكان من هدي السلف تعظيم هذا اليوم وتشريفه بعبادات دون غيره من الأيام.

وفي يوم الجمعة خطبتي الجمعة والصلاة، وقد ذكر جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - حال النبي ﷺ إذا خطب يوم الجمعة، فقال عنه ﷺ أنه إذا خطب «أحمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه» وكل تلك الصفات محمودة في الخطبة، لأنها أقوى في التأثير وفي شد انتباه السامع.

وكان يقول ﷺ «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»، ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى، إشارة إلى قربها وأنها ليست ببعيدة، فليستعد الإنسان لها بالعمل الصالح. قال القرطبي: «أول أشرط الساعة: النبي ﷺ: لأنه نبي آخر الزمان، وقد بعث وليس بينه وبين القيامة نبي».

ثم يقول ﷺ في خطبته «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي محمد ﷺ» قال ابن كثير: هذا مدح من الله - عز وجل - لكتابه: القرآن العظيم، المنزل على رسوله الكريم.

«وشر الأمور محدثاتها» والأمور المحدثه، هي التي أحدثت في الدين مما ليس منه.

«وكل محدثة بدعة» فالبدعة في الدين: هي إحداث عبادة، لم يشرعها الله - سبحانه وتعالى -.

أما حديث: «من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها...» فهذا معناه: إحياء السنن وإظهارها، والدعوة إليها، وتعظيمها حتى يعرفها الناس، ويعملوا بها، فيكون له مثل أجورهم.

والمبتدع يقع في محاذير كثيرة منها:

أن ما ابتدعه فهو ضلال بنص القرآن والسنة، والثاني: أن في البدعة خروجاً عن اتباع النبي ﷺ، وكذلك أن البدعة التي ابتدعتها تنافي تحقيق شهادة أن محمداً رسول الله، وأن مضمون البدعة الطعن في الإسلام، فإن الذي يبتدع تتضمن بدعته أن الإسلام لم يكمل، وكذلك أنه يتضمن الطعن في الرسول ﷺ، وأنه ما بلغ البلاغ المبين.

وإذا ظهرت البدعة في الأمة فإن السنن تضحل وتختفي، وكل ما خالف الكتاب والسنة فهو مردود على صاحبه، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ثم قال ﷺ: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه» فهو ﷺ أولى بالمؤمن من نفسه، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم كما وصفه الله - عز وجل - وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

ثم قال: «من ترك ما لا لأهله» أي، يرثه أهله حسب ما قرره الشريعة. «ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإليّ وعليّ» يعني أولاداً صغاراً يضيعون. فأمرهم إليّ، وأنا وليهم، والدين عليّ، أن أقضيه. هكذا حين فتح الله عليه.

وفي الحديث: الحث على التزام السنة والتمسك بها.

وفيه: وجوب كفالة الأيتام والعجزة من بيت مال المسلمين.

١٩- باب في مَنْ سَنَّ سُنَّةَ حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

ذكر الله - عز وجل - في هذه الآية جملة ما يدعوا به عباد الرحمن الذين ذكر الله أوصافهم في آخر سورة الفرقان بقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [٣٢] وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا [٣٤] وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا [٣٥] إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا [٣٦] وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا [٣٧] وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا [٣٨] يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَتَحِلُّ فِيهِ مِهَنًا [٣٩] إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا [٤٠] وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا [٤١] وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا [٤٢] وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَايَتَ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْزُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا [٤٣] وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ .

وفي الآيات دعاء وتضرع إلى الله - عز وجل - أن يهبهم ويعطيهم من ﴿أَزْوَاجِنَا﴾ ﴿وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ أي، أبناءنا وأحفادنا.

﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ أي: راحة وسعادة وأنسًا، فالزوجه إذا نظر إليها سرت، وإن غاب حفظته في ماله وولده، وهي قانتة صالحة حافظة للغيب بما حفظ الله.

وبدء بالزوجات للإشارة إلى أن في مدحهم صلاحاً للأبناء، لأن من شأنهم أن يأتوا على نعت أبويهم.

قيل: أفضل سعادة المرء أن يؤتى ولداً نجيباً.

قال ابن عباس: «يعنون من يعمل بالطاعة، فتقرّبه أعيانهم في الدنيا والآخرة».

وقال عكرمة: «لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالاً، ولكن أرادوا أن يكونوا

مطيعين»

﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ في الخير، يعدون الناس بأمر الله - عز

وجل - وأمر رسوله ﷺ، رغبة منهم في نفع أنفسهم ونفع غيرهم، لكونهم أئمة

يقتدي بهم أهل التقى والصلاح، فقد كملوا أنفسهم وسعوا إلى تكميل غيرهم.

وهذه الجملة هي الشاهد لهذا الباب.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

ذكر - عز وجل - في هذه الآية أنه هداهم وصيرهم أئمة يهدون الناس إليه،

ويهتدون بأمره - جل وعلا -.

وكان ديدن الأنبياء والصالحين الدعاء لهم ولذرياتهم، بالهداية والصلاح

والثبات على الدين.

﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ إِلَّا صَنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨].

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠].

ومن أعظم وسائل نشر السنن، أحياؤها في قلوب الأولاد، وتعليمهم

السنة، وأخذهم عليها، وغرسها في نفوسهم، وكذلك إشاعتها في البيوت

والمجتمعات.

١٧١ - عَنْ أَبِي عَمْرٍو جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا فِي صَدْرِ النَّهَارِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَهُ قَوْمٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النَّمَارِ أَوْ الْعَبَاءِ. مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ عَامَّتُهُمْ، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لَمَّا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ، فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: ١] «إِلَى آخِرِ الْآيَةِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾»، وَالْآيَةُ الْأُخْرَى الَّتِي فِي آخِرِ الْحَشْرِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [١٨] تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعٍ بُرٍّ مِنْ صَاعٍ تَمْرِهِ» حَتَّى قَالَ: «وَلَوْ بَشَقَ تَمْرَةً» فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفَّهُ تَعَجُّزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مَذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمَلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمَلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ» [رواه مسلم].

قَوْلُهُ: مُجْتَابِي النَّمَارِ هُوَ بِالْجِيمِ وَبَعْدَ الْأَلْفِ بَاءٌ مُوَحَّدَةٌ.

وَالنَّمَارُ: جَمْعُ نَمْرَةٍ، وَهِيَ: كِسَاءٌ مِنْ صُوفٍ مُخَطَّطٌ.

وَمَعْنَى مُجْتَابِيهَا أَي: لَا بَسِيحَهَا قَدْ خَرَقُوهَا فِي رُؤُوسِهِمْ.

وَالْجَوْبُ: الْقَطْعُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر: ٩] أَي: نَحْتُوهُ وَقَطَعُوهُ.

وَقَوْلُهُ تَمَعَّرَ هُوَ بِالْعَيْنِ الْمَهْمَلَةِ، أَي: تَغَيَّرَ.

وَقَوْلُهُ: رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ بَفَتْحِ الْكَافِ وَضَمِّهَا، أَي: صَبْرَتَيْنِ.

وَقَوْلُهُ: كَأَنَّهُ مَذْهَبَةٌ هُوَ بِالذَّالِ الْمَعْجَمَةِ، وَفَتْحِ الْهَاءِ وَالْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ، قَالَهُ الْقَاضِي عِيَاضٌ وَغَيْرُهُ.

وَصَحَّفَهُ بَعْضُهُمْ فَقَالَ: مُدْهَنَةٌ بِدَالٍ مَهْمَلَةٍ وَضَمِّ الْهَاءِ وَالنُّونِ، وَكَذَا ضَبَطَهُ
الْحَمِيدِيُّ، وَالصَّحِيحُ الْمَشْهُورُ هُوَ الْأَوَّلُ.
وَالْمُرَادُ بِهِ عَلَى الْوَجْهَيْنِ: الصَّفَاءُ وَالِاسْتِنَارَةُ.

* هذا الحديث العظيم الجليل اشتمل على خلق رفيع، وأدب بليغ،
وتكافل بديع، ويظهر فيه تواد وتراحم المسلمين مع بعضهم، والقيام بحقوق
إخوانهم حال الحاجة والعوز.

ذكر الصحابي الجليل جرير بن عبد الله - رضي الله عنه - حادثة وقعت في
صدر الإسلام حيث قدم على رسول الله ﷺ قوم عامتهم من قبيلة مضر.
(جاء قوم عراة مجتابي النمار) أي، يلبسون ثياباً بالية من صوف قد خرقتها
في رؤوسهم، وهذا وصف لشدة فقرهم وحاجتهم.

(متقلدي السيوف) استعداداً لما يؤمرون به من الجهاد.
فلما رآهم رسول الله ﷺ رق لحالهم، وتمعر وجهه الشريف ﷺ رحمة
بهم، لما رأى من فاقتهم وحاجتهم، فدخل منزله ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن،
وأقام فصلى ثم خطب بالناس، فحث الناس على الصدقة وذكرهم بثوابها
وفضلها، وذكرهم فضل ذلك ولو بشق تمر.

فسارع الأنصار - رضي الله عنهم - وتسابقوا بالصدقة، فجاء رجل من
الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس حتى
كانت كومين من طعام وثياب، فسر النبي ﷺ بذلك وتهلل وجهه الشريف
كأنه مذهب لسرور الفقراء والمحتاجين، وفرحه باستجابة الأنصار ودفع
حاجة المحتاج.

فقال ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمَلَ بِهَا مِنْ
بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ
عَلَيْهِ وَزْرُهَا وَوَزْرُ مَنْ عَمَلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ».

قال النووي: «فيه الحث على الإبتداء بالخيرات وسن السنن الحسنات». وفيه، الحث على الصدقة والإنفاق ولو كان بشي يسير، فإن الكثير يكون من القليل، ولذلك لا يجوز أن يستحقر المرء عملاً وإن كان صغيراً في نظره. قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله تعالى -: «وفي هذا الحديث الترغيب في فعل السنن التي أميتت وتركت وهجرت، فإنه يكتب لمن أحيها أجرها، وأجر من عمل بها، وفيه التحذير من السنن السيئة، وأن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة حتى لو كانت في أول الأمر سهلة ثم توسعت، فإن عليه وزر هذا التوسع».

وفي الحديث أنه ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» وذكر منهم رجلاً «تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» [متفق عليه].

قال يحيى بن معاذ: «ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا الحبة من الصدقة». قال ابن القيم - رحمه الله -: «وقد دل النقل والعقل والفطرة وتجارب الأمم - على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها - على أن التقرب إلى الله رب العالمين، وطلب مرضاته، والبر والإحسان إلى خلقه، من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر، فما استجلبت نعم الله - تعالى - واستدفعت نقمه بمثل طاعته والتقرب إليه، والإحسان إلى خلقه».

١٧٢- وعن ابن مسعود- رضي الله عنه - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دِمَهِمَا لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ» [متفقٌ عليه].

* خلق الله آدم وحواء، وأنزلهما من الجنة إلى الأرض، وأنزل معهما إبليس عدوهما، وحذرهما منه ومن ذريته. وجاءت الشريعة بحفظ الضرورات الخمس، واتفقت الأمة - بل سائر الملل - على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضرورات الخمس وهي: الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل. وكان لآدم ولدين هما، قابيل وهايل، وقد قتل قابيل أخاه هايل ظلماً وعدواناً، فكانت هذه سنة سيئة لقابيل، فكل نفس تقتل ظلماً فإن على قابيل نصيب من دمها.

وقد ذكرهما الله - عز وجل - في قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [٢٧] إلى قوله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢٧ - ٣٠].

وفي هذا الحديث، التحذير من سن سنن سيئة، فإن قابيل قتل أخاه هايل فكان عليه وزر من قتل ظلماً، لأنه كان أول من سن القتل.

وجاء في تحريم دماء المسلمين أشد التخليط، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

في الآية تهديد ووعيد لمن يُقدم على قتل مؤمن، عالمًا بإيمانه متعمداً لقتله فجزاؤه جهنم مخلداً فيها، ويناله السخط الشديد من الله، والطرده من رحمته، والعذاب الشديد في الآخرة.

قال العلماء: «ولم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله». والدماء المعصومة في الإسلام أمرها عظيم، في الحديث أن النبي ﷺ قال: **«لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والشيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة»** [رواه البخاري]. وفي الحديث الآخر: **«أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء»** [رواه مسلم].

وقد ورد النهي حتى عن ترويع المسلم وتخويفه، وعده بعض العلماء من الكبائر.

قال المناوي: «ترويع المسلم حرام شديد التحريم». وذكره الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه الكبائر.

وفي الحديث **«لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً»** [رواه أبو داود].

وفي الحديث الآخر، أن النبي ﷺ قال: **«من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»** [رواه مسلم].

قال الشاطبي: «وطوبى لمن مات ومات معه ذنوبه، والويل الطويل أن يموت وتبقى ذنوبه مائة سنة ومائتي سنة، يُعذب بها في قبره ويُسأل عنها إلى انقراضها».

وفي الحديث: الحث على إحياء السنن المهجورة ونشرها بين المسلمين وفي ذلك الأجر العظيم، وفيه الإنكار على السنن السيئة وإبطالها، وتحذير الناس منها الخير الكثير.

٢٠. باب في الدلالة على خير والدعاء إلى هدى أو ضلالة

الدعوة إلى الله من أعظم القربات وأجل الطاعات، وهي مهمة الأنبياء والمرسلين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، من العلماء والدعاة والناصحين، فبالدعوة إلى الله يستقيم الفرد، ويصلح حال المجتمع، ويبلغ دين الله - عز وجل - مشارق الأرض ومغاربها.

قال تعالى: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٧]. أي: ادع إلى توحيد ربك وعبادته وحده لا شريك له، دعوة خالصة واضحة.

وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٣٥]. هذه الآية قاعدة عامة في الدعوة إلى الله. أن تكون الدعوة إلى الله بالحكمة واللفظ واللين. والنصح لهم نصحاً يرغبهم في الخير ويحذرهم من الشر. وسبيل الله، هي دينه وشريعته التي شرعها لعباده، أي: ادع إلى دين الله - عز وجل - بالحكمة والموعظة الحسنة، مبشراً ومنذراً، بلين ورفق وحسن خطاب.

﴿بِالْحُكْمَةِ﴾ والحكمة، وضع الأشياء في مواضعها، ومراعاة أحوال الناس ومنازلهم.

قال ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: «ومن تدبر أصول الشرع علم أنه يتلطف بالناس في التوبة في كل طريق».

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]. أمر من الله - عز وجل - بالتعاون على الخير والصالح وترك المنكرات.

قال ابن القيم: «ذكر - سبحانه - مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو: فإما أن يكون طالباً للحق مُحباً له، مؤثراً له على غيره إذا عرفه،

فهذا يدعى بالحكمة ولا يحتاج إلى موعظة وجدال. وإما أن يكون مشغلاً بغير الحق لكن لو عرفه أثره واتبعه، فهذا يحتاج إلى الموعظة بالترغيب والترهيب، وإما أن يكون معانداً معارضاً، فهذا يُجادل بالتي هي أحسن، فإن رجع وإلا انتقل معه إلى الجدل إن أمكن».

قال الشيخ ابن عثيمين: «والدعوة إلى الخير تشمل كل شيء فيه مصلحة للناس في معاشهم ومعادهم لأن الخير كما يكون في عمل الآخرة، يكون في عمل الدنيا، وما ينفع الناس من الأمور الدنيوية فهو خير، ولهذا سمي الله - سبحانه وتعالى - المال خيراً، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [الأنعام: ٥١].

وعلى الداعي أن لا يستوحش في طريق الدعوة، فإن الدعوة مهمة الأنبياء، وهي جادة مطروقة من قبل.

قال الفضيل بن عياض: «لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين، ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين».

وقال - تعالى - حاثاً على ذلك: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ أمرٌ من الله بالتعاون على فعل الخيرات وهو البر، وترك المنكرات وهو التقوى، وهذا الأمر عام في جميع الطاعات.

وقال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ في الآية إشارة إلى أن الدعاة إلى الخير أفضل الأمة.

١٧٣ - وعن أبي مسعود عُقْبَةَ بْنِ عَمْرٍو الْأَنْصَارِيِّ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ» [رواه مسلم].

* المسلمون أمة متراحمة، متعاونة متكاتفه، ينتشر فيها الخير، ويدل بعضهم بعضاً عليه.

روى مسلم عن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري بأن رجلاً قال للنبي ﷺ: احملني، لأن راحلته انقطعت به.

قال: «ما عندي» أي: لا شيء عندي.

قال رجل: يا رسول الله، أنا أدله على من يحمله.

فقال ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ» أي، أن له أجر الدلالة على الخير، وهو مثل أجر فاعله.

وفي الحديث الحث على السعي في الخير والدلالة عليه، لأن المتسبب بالعمل الصالح ينال مثل ما ينال الفاعل من الأجر والثواب.

قال النووي: «وفيه فضيلة الدلالة على الخير والتنبية عليه والمساعدة لفاعله، وفيه فضيلة تعليم العلم، ووظائف العبادات لا سيما لمن يعمل بها من المتعبدين وغيرهم، والمراد بمثل أجر فاعله أن له ثواباً بذلك الفعل كما أن لفاعله ثواباً ولا يلزم أن يكون قدر ثوابهم سواء».

وجاء في الحديث أنه ﷺ قال: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْر النعم» [رواه البخاري ومسلم].

ولهذا فإن مهمة الدعوة إلى الله ودلالة الناس على الخير مهمة كبرى ومسؤولية عظيمة، رتب الله عليها الأجر العظيم والثواب الجزيل، ولهذا اختار لها أفضل الخلق وأكرم البشر، اختار لها سادات القوم وصفوة الأمة وفضلاءها.

قال ابن القيم: «فالدعوة إلى الله - تعالى - هي وظيفة المرسلين وأتباعهم».

وقال - رحمه الله -: «إن أفضل منازل الخلق عند الله منزلة الرسالة والنبوة، فالله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس».

قال شيخ الإسلام: «وينبغي أن يكون الداعي حليماً صبوراً على الأذى، فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح».

ذكر الإمام الذهبي في «سير أعلام النبلاء» عند ترجمته لأبي عبد الرحمن السلمي وهو من كبار القراء، قال: درست كتاب الله - عز وجل - (في المسجد النبوي) أكثر من أربعين سنة من خلافة عثمان إلى إمرة الحجاج.

فلما كبر سنه ورق عظمه قيل له في ذلك. أي، في ترك تعليم كتاب الله - عز وجل - لكبر سنه وضعف حاله. فقال: سمعت حديث النبي ﷺ «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**» فهذا الذي أجلسني مكاني.

وها هو يوسف - عليه السلام - وهو في السجن بين جدران أربعة، أحسن إلى السجناء ودعاهم إلى التوحيد والخير: ﴿يَصْحَبِي السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

قال السعدي عن مرتبة الدعوة إلى الله: «وهذه المرتبة تمامها للصديقين الذين عملوا على تكميل أنفسهم وتكميل غيرهم، وحصلت لهم الورثة التامة من الرسل».

وعلى الداعية أن يستحضر الإخلاص في عمله، والصدق مع الله - عز وجل - في دعوته حتى تُثمر ويكتب لها القبول قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨].

ويبدأ في الدعوة بالتوحيد أولاً، ثم بالصلاة، ثم بقية أركان الإسلام. كما في حديث النبي ﷺ لمعاذ بن جبل - رضي الله عنه - «**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب فأدعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة..**» [رواه مسلم].

١٧٤ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا» [رواه مسلم].

* فضل الله عظيم وخيره كثير وكبير، فهو يعظم الأجور ويجزل الثواب على عباده بأعمال يسيرة سهلة ميسورة، ومن ذلك الدعوة إلى الله - عز وجل -، فقد قال ﷺ:

«مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى» أي، من أرشد غيره إلى فعل خير عظيم، أو ترك ضده كإمالة الأذى عن الطريق، أو أمر به أو أعان عليه.

«كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ» أي، أن له مثل أجر هذا الذي قام بالفعل، ومن فضل الله - عز وجل - أنه «لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا». أي، أن الأجر المُعطى للدال على دلالته لا ينقص من ثوابهم المعطى لهم شيئاً.

فهذا يدعو غير المسلمين إلى الإسلام حتى يسلموا، والآخر يدعو جيرانه إلى الصلاة مع الجماعة في المساجد، وغيره يُذكر بصلاة الضحى وأنها سنة، وثان ينشر الأذكار النبوية الواردة بعد الصلاة، وثالث يذكر بصيام أيام البيض وهكذا.

وفي المقابل والعياذ بالله من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً، وذلك بأن يدعو إلى منكر أو معصية وينشر الفساد بين المسلمين، وقد توعدهم الله - عز وجل - بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

قال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - لابنه: «انوَ الخَيْر فَإِنَّكَ لَا تَزَالُ بِخَيْرٍ مَا نَوَيْتَ الْخَيْرَ».

قال النووي: «فيه: الحث على استحباب سنّ الأمور الحسنة، وتحريم سنّ الأمور السيئة، وأن من دعا إلى هدى كان له مثل أجور تابعيه، أو إلى ضلالة كان عليه مثل آثام تابعيه، سواء كان ذلك الهدى أو الضلالة هو الذي ابتدأه، أو كان مسبوقاً إليه، وسواء كان ذلك تعليم علم، أو عبادة أو أدب، أو غير ذلك»
وفضل الله كبير وعطاؤه جزيل لمن قام بأمر الإسلام ودعا إليه، فثواب الداعية عند الله - تعالى - لا ينقطع بموته بل يستمر، لحديث **«إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»** [رواه مسلم].

ومن ثمرات الدعوة إلى الله في الدنيا، التوفيق والسداد وحفظ الذرية، قال تعالى: **﴿وَلْيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾** [النساء: ٩].

قال ابن تيمية - رحمه الله -: «وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره، فمتى قام به غيره سقط عنه، وما عجز عنه لم يطالب به، وأما ما لم يقم به غيره وهو قادر عليه فعليه أن يقوم به».
وقال ابن القيم: «وتبليغ سُنَّته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو، لأن تبليغ السهام يفعله كثير من الناس، أما تبليغ السنن فلا يقوم به إلا ورثة الأنبياء».

وقال السعدي: «ورحم الله من أعان على الدين ولو بشرط كلمة، وإنما الهلاك في ترك ما يقدر عليه العبد من الدعوة إلى هذا الدين».

١٧٥ - وعن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا. فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فقال: «أَيُّنَ عَلِيٍّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟» فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ قَالَ: «فَارْسَلُوا إِلَيْهِ» فَأَتِي بِهِ، فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ. فقال علي - رضي الله عنه -: يا رسول الله أَقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ مِنْ حَقِّ اللَّهِ - تَعَالَى - فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ» [متفق عليه].

قوله: يَدُوكُونَ: أي يَخُوضُونَ ويتحدَثُونَ، قَوْلُهُ: رِسْلِكَ بكسر الراءِ وبفتحة هاء لغتان، وَالْكَسْرُ أَفْصَحُ.

* لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كان في المدينة ثلاث قبائل هم: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، ولما نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ، عاقبهم رسول الله ﷺ، فمنهم من قتل، ومنهم من أجلى إلى خيبر وهم بنو قينقاع.

فسار إليهم رسول الله ﷺ في خيبر، ولما قدم إليها وكانت ذات حصون ومنعة، قال مبشراً بالنصر والفتح: «لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ» وبشر ببشارة خاصة لحامل الراية، فوصفه بأنه:

«يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»، ولعظم البشارة الثانية أخذ الناس يتحدثون من هو صاحب تلك المنقبة والمنزلة العظيمة.

فلما أصبحوا جاءوا إلى رسول الله ﷺ كلهم يرجوا أن يُعْطَى الرَّايَةَ، فقال ﷺ: «أَيُّنَ عَلِيٍّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟» فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، أَي، بها وجع. قال:

«**فأرسلوا إليه**» فأتى به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه، ودعاه له، فبرأ، وهذا من آيات النبي ﷺ التي أجراها الله - جل وعلا - على يديه.

ثم أعطاه راية الحرب. فلما أخذها سأل رسول الله ﷺ: يا رسول الله أفاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟

فقال: «**انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم**» أي، لا تمشى عجباً فتتعب ومن معك.

«ثم أدعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه» ثم بشره النبي ﷺ بأجر عظيم وثواب عظيم إذا دعاهم إلى الإسلام، فقال: «**فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم**» أي، أن هداية رجل واحد إلى الإسلام خير لك من الإبل الحمر، وكانت أنفس أموال العرب في حينه.

قال ابن القيم: «فالدعوة إلى الله - تعالى - هي وظيفة المرسلين وأتباعهم».

قال الشيخ ابن باز: «الدعوة إلى الله في هذا الزمن واجبة لكثرة المنكرات وقلة الدعاة».

وقال - رحمه الله -: «فعند قلة الدعاة وعند كثرة المنكرات، وعند غلبة الجهل كحالنا اليوم، تكون الدعوة فرض عين على كل واحد بحسب طاقته».

قال الإمام النووي عند قوله ﷺ: «**من دل على خير فله مثل أجر فاعله**».

قال: «دل بالقول واللسان والإرشاد والكتابة».

وفي الدعوة إلى الله الثمار الطيبة المباركة، منها متابعة الأنبياء والاقتداء بهم، واقتفاء أثرهم والسير في ركا بهم، ومنها التقرب إلى الله بامثال أمره.

ومنها، السعي لنيل الأجور العظيمة، ومنها هداية الناس ودلائتهم على الخير، وغيرها من الثمار.

١٧٦ - وعن أنس - رضي الله عنه - أن فتى من أسلم قال: يا رسول الله إني أريد الغزو وليس معي ما أتجهز به؟ قال: «أنت فلاناً فإنه قد كان تجهز فمرض» فأتاه فقال: إن رسول الله ﷺ يقرئك السلام ويقول: أعطني الذي تجهزت به، فقال: يا فلانة أعطيه الذي تجهزت به، ولا تحبسي منه شيئاً، فوالله لا تحبسين منه شيئاً فيبارك لك فيه. [رواه مسلم].

* كانت حياة النبي ﷺ وصحابته الكرام الدعوة إلى الله - عز وجل -، والجهاد في سبيله.

وقد غزا النبي ﷺ في حياته تسع عشرة غزوة، فقد ثبت في الصحيحين «أنه قيل لزيد بن أرقم:

كم غزا النبي ﷺ من غزوة؟

قال: تسع عشرة، قيل كم غزوت أنت معه؟ قال سبع عشرة».

ونقل أهل السير أن غزواته ﷺ خمس وعشرون، وقيل تسع وعشرون. وقد قام الصحابة بأمر هذا الدين في الغزوات والسرايا في عهد الرسول ﷺ ومن بعده من الخلفاء والأمراء.

يذكر أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه - واقعة جرت لهم، قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة، ونحن ستة نفر بيننا بغير نعتقه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدمي، وسقطت أظفاري، فكنا نلف على أرجلنا الخرق...» [متفق عليه].

وفي هذا الحديث الذي أورده المؤلف - رحمه الله -، الدلالة على الخير، فيذكر أنس - رضي الله عنه - أن رجلاً اسمه (أسلم) جاء إلى النبي ﷺ يطلب الغزو، واعتذر أنه ليس معه ما يتجهز به ويستعد للجهاد، فأرشده النبي ﷺ ودله على رجل كان قد تجهز للغزو واستعد براحلته وما يلزم، ولكن حبسه المرض.

فجاء الرجل إلى من بعثه إليه الرسول ﷺ وأخبره بأنه يقرئه السلام، ويقول: أعطني الذي تجهزت به.

فقال الرجل لامرأته آمراً: يا فلانة أعطيه الذي تجهزت به ولا تحبسي منه شيئاً، فوالله لا تحبسين منه شيئاً فيبارك لك فيه، وهذا من شدة حرصه على طاعة الرسول ﷺ ورغبته في الخير.

قال الإمام النووي: «فيه فضيلة الدلالة على الخير، وفيه أن ما نوى الإنسان صرفه في جهة بر فتعذرت عليه تلك الجهة يستحب له بذله في جهة أخرى من البر لا يلتزمه ما لم يلزمه بالنذر».

والتعاون على البر والتقوى له وجوه عدة، قال القرطبي: «فواجب على العالم أن يعين الناس بعلمه فيعلمهم، ويعينهم الغني بماله، والشجاع بشجاعته في سبيل الله، وأن يكون المسلمون متظاهرين كاليد الواحدة».

قال ابن تيمية: «التعاون على البر والتقوى من الجهاد، وإقامة الحدود، واستيفاء الحقوق، وإعطاء المستحقين، فهذا ما أمر الله به ورسوله».

وفي الحديث: الدلالة على الخير، كما فعل ﷺ وهو قدوتنا وأسوتنا، وفيه طاعة الصحابة للرسول ومسارعتهم لأمره، وأمر الرجل لزوجته أن لا تُبقي شيئاً.

ومن فضل الله - عز وجل - أن الإنسان إذا مرض وقد أراد العمل، وتجهز له كالجهاد أو العمرة أو غيرها وحال بينه وبين العمل مرضه، فإنه يكتب له الأجر كاملاً فضلاً وكرماً من الله - عز وجل -.

٢١- باب التعاون على البر والتقوى

قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

العون معناه: المعاونة والمظاهرة، وهو أن يعين بعضهم بعضاً على البر والتقوى. وليحض بعضهم بعضاً على فعل الخيرات وترك المنكرات. فالبر: فعل الخير. والتقوى: اتقاء الشر.

قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله -: «والأمر في قوله ﴿وَتَعَاوَنُوا﴾ أمر إيجاب فيما يجب، واستحباب فيما يستحب، وكذلك التقوى أمر إيجاب فيما يحرم، وأمر استحباب فيما يكره».

وقد اشتملت الآية على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، وفيما بينهم وبين ربهم، وهذا التعاون لا يقتصر على أمور الدين، بل يشمل التعاون على أمور الدنيا وعلى تنفيذ حدود الله، وتنفيذ أوامره، وعلى الأمر بالخير والدعوة إلى الله.

قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر].

أقسم الله - عز وجل - في هذه السورة بالعصر، وهو الدهر، وله - جل وعلا - أن يقسم بما شاء من مخلوقاته وليس ذلك للعبد. لحديث «من حلف بغير الله فقد أشرك» [رواه أحمد] فلا يجوز الحلف بالنبي أو الأمانة أو غيرها. بل الحلف يكون بالله وأسمائه وصفاته.

قال الشافعي: «لو لم ينزل الله على عباده سورة غير هذه السورة لكفتهم». وقد ذكر الله - عز وجل - أن الإنسان لفي خسر وضلال إلا من ذكرهم واستثناهم بشروط أربعة: آمنوا بالله، وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، وهي أسس الفضيلة، وأساس الدين.

وبالأمريّن الأولين، الإيمان والعمل الصالح ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يُكْمِلُ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ.

وبالأمريّن الأخيرين، بالنصح والإرشاد والصبر يُكْمِلُ غَيْرَهُ ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

وبتكميل الأمور الأربعة، يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالربح العظيم فقد جمع بين حق الله، وحق العباد، والسورة على قصرها جمعت من العلوم ما جمعت.

قال الإمام الشافعي - رحمه الله -: «إن الناس أو أكثرهم في غفلة عن تدبر هذه السورة».

وهذه السورة من أجمع السور للخير بحذافيره. وقد ذكر الله - عز وجل - فيها المراتب الأربعة:

الأول: معرفة الحق.

الثاني: عمله به.

الثالث: تعليمه لمن لا يحسنه.

الرابع: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه.

والإنسان لا ينفك عن الخسران، لأن الخسر مع تضييع رأس المال، ورأس مال العبد عمره، وهو قلما ينفك فيه من خسران، لأن كل ساعة تمر بالإنسان إذا صرفها في المعصية فلا شك في الخسران، وإن كانت في المباحات كذلك، لأنه كان متمكناً من أن يعمل عملاً صالحاً يبقى أثره، وإن كانت في الطاعات، فلا طاعة إلا ويمكن الإتيان بها أو بغيرها على وجه أحسن من ذلك.

١٧٧ - عن أبي عبد الرحمن زيد بن خالد الجُهَنِّي - رضيَ الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا» [متفقٌ عليه].

* شرع الله - عز وجل - الجهاد في سبيله لتكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله، وبه إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وفتح أبواب الدعوة إلى الله، وإقامة العدل، ومنع الظلم، وحماية المسلمين، ورد كيد الأعداء والمفسدين، وغيرها من المصالح العامة والخاصة.

والمجاهد في سبيل الله منزلته عظيمة، والشهيد له مقام رفيع. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وفي هذا الحديث بيان فضل التعاون على البر والتقوى، فإن من هيا أسباب السفر لمن أراد الجهاد وجهزه بما يحتاج من راحلة ومتاع وسلاح فله مثل أجره. وفي قوله ﷺ: «من جهز غَازِيًا في سبيل الله فقد غزا» أي، جهزه بما يحتاج، وهياً أسباب سفره فإنه مثله في الأجر، وإن لم يغادر منزله ويغزو.

وكذلك قوله ﷺ: «ومن خلف غَازِيًا في أهله فقد غزا» أي، قام مكان من ذهب للجهاد، وقام على أهله بما يحتاجون إليه، فله مثل أجر ذلك المجاهد. قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله -: «والقاعدة في ذلك: أن من أعان شخصاً في طاعة من طاعة الله كان له مثل أجره، من غير أن ينقص من أجره شيئاً».

قال الإمام النووي -: رحمه الله -: «يعني أن الذي جهز غَازِيًا حصل له أجر بسبب الغزو، وهذا الأجر يحصل بكل جهاد، وسواء قليلة وكثيرة، ولكل خالف له في أهله بخير من قضاء حاجة لهم، وإنفاق عليهم، أو مساعدتهم في أمورهم، ويختلف قدر الثواب بقلة ذلك وكثرته، وفي هذا الحديث الحث على الإحسان إلى من فعل مصلحة للمسلمين أو قام بأمر من مهماتهم».

«ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا» يقال خلفه في أهله: إذا قام مقامه في إصلاح حالهم، ومحافظة أمرهم، أي، من تولى أمر الغازي، وناب منابه في مراعاة أهله في غيبته، شاركه في الثواب، لأن فراغ الغازي له واشتغاله به بسبب قيامه بأمر عياله، فكأنه مسبب من فعله.

والشهادة في سبيل الله رتبة عظيمة ومنزلة عالية رفيعة.

ومن ثمرات الجهاد في سبيل الله: أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وأرواحهم في حواصل طير، وأن الشهادة تكفر ما على العبد من الذنوب التي بينه وبين الله، والشهيد لا يفضلُه النبيون إلا بدرجة النبوة، وقد أكرم الله الشهداء بأن لا تأكل الأرض أجسادهم، وأنه يشفع في سبعين من أقاربه.

قال الحسن: «إن لكل طريق مختصراً، ومختصر طريق الجنة الجهاد».

وقال شيخ الإسلام: «ومن كان كثير الذنوب فأعظم دوائه الجهاد».

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «لغدوة في سبيل الله، أو روحه، خير من الدنيا

وما فيها» [متفق عليه].

وفي الحديث: فضل تجهيز المجاهد في سبيل الله.

وفيه: فضيلة من خلف غازياً في أهله بخير.

١٧٨ - وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، بَعَثَ بَعْثًا إِلَى بَنِي لَحِيَانَ مِنْ هُذَيْلٍ فَقَالَ: «لِيَنْبِعَثَ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا وَالْأُجْرُ بَيْنَهُمَا» [رواه مسلم].

* في الحديث الحث على البر والتقوى والتواصي بالحق، وأنها من صفات أهل الإسلام، فالمسلم يُحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير والأجر والمثوبة. وقد أورد المؤلف - رحمه الله - هذا الحديث في فضل الجهاد ومنزلته، وفضل الله - عز وجل - على من خلف مجاهدًا في أهله، فإن ذلك أدعى لتكامل المجتمع وتكافله وتعاونه.

فقد أرسل النبي ﷺ جيشًا إلى بني لحيان من هذيل ليغزوهم، فقال ﷺ: «لِيَنْبِعَثَ» أي، لينهض إلى العدو والقتال.

«من كل رجلين أحدهما» بأن يتخلف الآخر عن صاحبه لمصالحه ويقوم بها.

«والأجر» أي، ثواب الغزو.

«بينهما» أي، بين الغازي، والقاعد المقيم القائم في أهل الغازي بخير، وذلك بالقيام بأمورهم وحاجاتهم.

في هذا الحديث أيضًا: دلالة على أن الغازي والخالف له بخير، أجرهما سواء، لأنه قام على عياله وما يحتاجون في غيابه، وفي هذا فضل التكافل والقيام بخدمة البعض.

وهذا الحديث يوضح سعة نظرة الإسلام في الجهاد، وأن لكل سهم في ذلك، وأنها لا تنحصر في فئة من الناس.

وفي الحديث الآخر: «إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ الْجَنَّةِ، صَانِعَهُ يَحْتَسِبُ فِي صِنْعَتِهِ الْخَيْرَ، وَالرَّامِي بِهِ وَالْمَمْدُ بِهِ..» [رواه الترمذي].

وقد ذكر عن سعد بن خيثمة الأنصاري أحد نقباء الأنصار الأثني عشر، وهو ممن شهد العقبة الأخيرة مع السبعين، ولما ندب رسول الله ﷺ الناس إلى غزوة بدر، قال له أبو خيثمة: إنه لا بد لأحدنا أن يُقيم، فأثرتني بالخروج وأقم مع نسائك، فأبى سعد، وقال: لو كان غير الجنة آثرتك به، إني لأرجو الشهادة في وجهي هذا، فاستهما، فخرج سهم سعد، فخرج، فقتل في بدر.

قال ﷺ: «من أعان مجاهداً في سبيل الله، أو غارماً في عسرتة، أو مكاتباً في رقبته أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» [رواه أحمد].

وفي الحديث: «أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش، ورب قتل بين الصنفين الله أعلم بنيتة» [رواه أحمد].

وفي الحديث الآخر: «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه» [رواه مسلم].

وقد حرم الله - عز وجل - التعدي على نساء المجاهدين وحذر من خيانتهم، فقال ﷺ: «حرمة نساء المجاهدين كحرمة أمهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله فيخونه فيهم إلا وقف له يوم القيامة فيأخذ من عمله ما شاء فما ظنكم» [رواه مسلم].

وفي الحديث: الحث على التعاون على البر والتقوى. وعظم منزلة الجهاد في سبيل الله ومكانتها الرفيعة.

١٧٩- وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَقِيَ رَجُلًا بِالرُّوحَاءِ فَقَالَ: «مَنْ الْقَوْمُ؟» قَالُوا: الْمُسْلِمُونَ، فَقَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: «رَسُولُ اللَّهِ» فَرَفَعَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ صَبِيًّا فَقَالَتْ: أَلِهَذَا حَجٌّ؟ قَالَ: «نَعَمْ وَلَكَ أَجْرٌ» [رواه مسلم].

* الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام الخمسة، لقوله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان» [متفق عليه].

ويجب على المسلم المستطيع المبادرة إلى الحج حتى لا يَأْثُمَ، قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقال ﷺ: «تعجلوا إلى الحج فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له» [رواه أحمد]. ولأن الحج ركن من أركان الإسلام وفضله عظيم وأجره جزيل، سار المسلمون إلى بيت الله - عز وجل - رجالاً وركباناً، مع ما يجدونه من مشقة وتعب ونصب، ومفارقة للأهل والأوطان.

ولربما أتى المسلم الحج ببعض بنيته، تربية لهم، أو عدم استطاعة مفارقتهم. ومن ذلك ما رواه ابن عباس حيث لقي (ركباً) قال النووي: «والركب أصحاب الإبل خاصة، وأصله أن يستعمل في عشرة فما دونها».

لقي جماعة من الناس رسول الله ﷺ بمكان قرب المدينة يقال له الروحاء. فسألهم «من القوم؟» قالوا: المسلمون.

فقالوا من أنت؟ قال «رسول الله» وهذا من تواضع الرسول ﷺ حيث لم يُعرف من بين أصحابه.

قال القاضي: «يحتمل أن هذا اللقاء كان ليلاً فلم يعرفوه، ويحتمل كونه نهاراً، لكنهم لم يروه قبل ذلك، لعدم هجرتهم، فأسلموا في بلدانهم ولم يهاجروا قبل ذلك».

عندها أرادت امرأة منهم أن تسأل رسول الله ﷺ عن صبي معها فرفعته إلى النبي ﷺ ليراه، فقالت: **(ألهذا حج؟)** أي، هل له أجر الحج. قال ﷺ: **«نعم ولك أجر»** أي، بسبب حملك إياه، وتجنبيك إياه ما يجتنبه المحرم، وفعلك به ما يفعله المحرم.

في هذا الحديث بيان فضل الله وسعة رحمته، فحج الصبي جائز ويؤجر عليه، وفيه تعويد له على الطاعة والعبادة، مع الأجر لوليه، ولكن لا يسقط عنه حجة الإسلام بل تجب عليه بعد البلوغ.

والتربية أمرها عظيم وأجرها كبير، ويكفي الأب أجراً أنه يُنشئ ابنه على الطاعة والعبادة، ويغرس التوحيد في قلبه، فهو القدوة والأسوة لهم.

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى -: «فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه، وتركه سدى، فقد أساء غاية الإساءة، وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم لهم، وترك تعليمهم فرائض الدين وسُننه، فأضاعوهم صغاراً، فلم ينتفعوا بأنفسهم ولم ينفعوا آباءهم كباراً».

قال ابن تيمية - رحمه الله -: «وإذا دخل أطفال المؤمنين الجنة فأرواحهم وأرواح غيرهم من المؤمنين في الجنة. وإن كانت درجاتهم متفاضلة، والصغار يتفاضلون بتفاضل آبائهم، وتفاضل أعمالهم - إذا كانت لهم أعمال - فإن إبراهيم بن النبي ﷺ ليس هو كغيره، والأطفال الصغار يثابون على ما يفعلونه من الحسنات، وإن كان القلم مرفوعاً عنهم في السيئات، كما ثبت في الصحيح: أن النبي ﷺ رفعت إليه امرأة صبيّاً من محفة فقالت: ألهذا حج؟ قال: **«نعم. ولك أجر»** [رواه مسلم في صحيحه].»

ومن فضائل الحج والعمرة كما وردت في الأحاديث الصحيحة: إبعاد الفقر وتكفير الذنوب، وأنه يعدل الجهاد في سبيل الله، وخصوصاً للنساء والضعفة، والحج المبرور جزاؤه الجنة، والحج يمحو الله به الخطايا والسيئات، وهو أفضل الأعمال بعد الإيمان والجهاد.

١٨٠ - وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:
 «الْخَازِنُ الْمُسْلِمُ الْأَمِينُ الَّذِي يُنْفِذُ مَا أَمَرَ بِهِ، فَيُعْطِيهِ كَامِلًا مَوْفَرًا، طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ
 فَيَدْفَعُهُ إِلَى الَّذِي أَمَرَ لَهُ بِهِ أَحَدُ الْمُتَصَدِّقِينَ» [متفق عليه].
 وفي رواية: «الَّذِي يُعْطِي مَا أَمَرَ بِهِ» وَضَبَطُوا الْمُتَصَدِّقِينَ بِفَتْحِ الْقَافِ مَعَ
 كَسْرِ النُّونِ عَلَى التَّثْنِيَةِ، وَعَكْسُهُ عَلَى الْجَمْعِ وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ.

* حرص الإسلام على أداء الواجبات، والقيام بالمسؤوليات على الوجه
 الأكمل من غير توان ولا تغيير أو تبديل.
 وحض الإسلام على التصدق، وبين فضله ومضاعفة أجره، ورغب في
 صدقة السر حتى لا تعلم شمال المسلم ما تنفق يمينه، وهذا الحديث يفتح
 الباب واسعاً لتعدد الصدقات، ويفتح مجال الخير وتحصيل الأجور للخادم
 والخازن، ويفتح الباب لرب المال إذا شغلته الشواغل عن التصديق بنفسه
 لكثرة ماله أو ضيق وقته أو تعسر ذلك عليه، ويفسح مجال التعاون على البر
 والتقوى.

وإذا أراد الرجل الصالح الخير هياً له أسبابه من كل ناحية، فساق له الرزق
 ووسع عليه، ثم سخت وطابت نفسه بالانفاق والرضا والفرح بذلك، وساق
 له فقيراً أو مسكيناً أو أرملة أو يتيماً. ومن توفيق الله له أن سخر له من عباده
 ذلك الخازن المسلم الأمين الذي يعينه ويثق فيه.

قال ابن رسلان: «يدخل في الخازن من يتخذ الرجل على عياله من وكيل
 وعبد وامرأة و غلام، ومن يقوم على طعام الضيفان».

ذكر ﷺ في الحديث أن الخازن لمال غيره بإذنه «المسلم الأمين» اشترط
 الإسلام، لأن الكافر ليس له أجر في الآخرة.

والأمانة وضدها الخيانة. أي، أمين في ذلك المال الذي أمر بإعطائه. فلا
 يكون متكاسلاً فجمع بين القوة والأمانة الذي أدى ما ائتمن عليه.

«الذي ينفذ ما أمر به» أي، غير مترآخ ولا متكاسل، بل ينفذ الأمر حسب ما بلغه دون تراخ أو توان فجمع بين القوة والأمانة.

قال القرطبي: «وإن لم يكن أميناً كان عليه وزر الخيانة، فكيف يحصل له أجر الصدقة»

قال العلماء: ولا بد في العامل والخازن والزوجة والمملوك من إذن المالك في ذلك.

ونبه ﷺ على شروط لا بد من وجودها في الخازن بقوله «فيعطيه كاملاً موفوراً» أي، تاماً لا ينقص منه شيئاً، وأن يعطيه لمن أمر بدفعه إليه.

«طيبة بها نفسه» أي، فحفظ المال ولم يفسده ولم يفرط فيه ولم يتعد فيه، والذي ينفذ ما أمر به طيبة به نفسه. راض بذلك غير حاسد لمن أعطاه إياه، لأن الغالب على خزان المال من الطمع والعبوس والحسد وتقطيب الوجه ما يكدر خاطره، فمن فعل ذلك فهو أبخل البخلاء، ومن دفعه كاملاً بغير تكدير فله أجر المعطي بتلك الشروط الأربعة.

ثم ذكر ﷺ أن من توفرت فيه تلك الشروط كان: «أحد المتصدقين». أي، له مثل أجر المتصدق. لكنه يقل ويكثر بحسب تبعه وبشاشته ورفقه في الإعطاء.

وقال النووي: «فيكون لهذا ثواب ولهذا ثواب، وإن كان أحدهما أكثر، ولا يلزم أن يكون مقدار ثوابهما سواء».

قال ابن حجر: «وقد قيد الخازن فيه بكونه مسلماً فأخرج الكافر لأنه لانية له، ويكون أميناً فأخرج الخائن لأنه مأزور، ورتب الأجر على إعطائه ما يؤمر به غير ناقص لكونه خائناً أيضاً، وتكون نفسه طيبة لئلا يُعدم النية فيفقد الأجر، وهي قيود لا بد منها».

وفي الحديث: فضل الأمانة، وما للخازن من الأجر على الأمانة، وعلى تنفيذ ما أمر به.

وفيه: بيان سعة رحمة الله وفضله على عباده، وكثرة من تنالهم الأجور والحسنات لأن المشارك في الطاعة مشارك في الأجر، ومعنى المشاركة أن له أجراً كما لصاحبه أجراً، وليس معناه أن يزاحمه في أجره، والمراد المشاركة في أصل الثواب فيكون لهذا ثواب ولهذا ثواب، وفضل الله واسع.

٢٢. باب النصيحة

النصيحة كلمة جامعة يعبر بها عن إردة الخير للمنصوح له، وهي من حقوق المسلمين فيما بينهم، وقد بايع رسول الله ﷺ بعض صحابته على النصح لكل مسلم، لأن ضد النصيحة المكر والغش والخيانة والخديعة.

والنصيحة تؤدي إلى سد النقص، وتخليص النفس من الشوائب، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي: أخوة الدين والعقيدة، ومن متطلباتها ولازمها النصيحة ومحبة الخير لهم، وفي التعبير بالأخوة إحياء إلى تأكيد النصيحة.

وقد ذكر الله - عز وجل - في كتابه الكريم عن جملة من الأنبياء، وهم ينصحون لقومهم ويبينون لهم، فقال نوح - عليه السلام - لقومه ﴿وَأَنْصَحْ لَكُمْ﴾ أي لست بغاش لكم، ولا خادع، ولا غادر، ولكني ناصح أدلكم على طريق رشدكم. وقال هود - عليه السلام - ناصحاً لقومه: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أي: أنا لكم ناصح صادق أمين في ما أدعوكم إليه وهو عبادة الله وحده لا شريك له. وفي إجابة الأنبياء جماعة الكفرة عن كلماتهم الحمقاء بما أجابوا والإعراض عن مقابلتهم كمال النصح والشفقة، وهضم النفس، وحسن المجادلة، وهكذا ينبغي لكل ناصح.

قال بعض العلماء: علامة النصيحة ثلاث: اغتمام القلب بمصائب المسلمين، وبذل النصح لهم، وإرشادهم إلى مصالحهم وإن جهلوا وكرهوه. والناصح يكون رفيقاً رحيماً، متودداً إلي المنصوح حتى يقبل النصيحة، وتكون خالصة لله ليس للنفس فيها حظ من التشفي أو التكبر، ويختار الناصح

أحسن الطرق وألينها، وأكثرها قرباً للمنصوح حتى تقع النصيحة موقعها، وتكون بينك وبينه وليس أمام الناس. لأن البعض قد يُفسد أكثر مما يصلح ذلك أن النصح يعتريه بعض المرارة عند المنصوح فيجب التنبه لذلك.

ولذلك لا بد من ثلاثة أمور للناصح: العلم والرفق والصبر.

قال ابن تيمية: «على الداعي إلى الله أن يكون حليماً صبوراً على الأذى لأنه لا بد أن يحصل له أذى ومضايقات، فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح».

وقال عمر بن عبد العزيز: «من عمل في غير علم، كان ما يفسد أكثر مما يُصلح».

قال الشافعي: «من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه».

وقال - رحمه الله -:

تعمدني بنصحك في انفرادي

وجنبني النصيحة في الجماعة

فإن النصح بين الناس نوع

من التوبيخ لا أرضى استماعه

وإن خالفني وعصيت قولي

فلا تجزع إذا لم تعط طاعة

قال ابن حزم: «ولا تنصح على شرط القبول منك، فإن تعدت هذه الوجوه فأنت ظالم لا ناصح، وطالب طاعة ومملك، لا مؤدي حق أمانة وأخوة، وليس هذا حكم العقل، ولا حكم الصداقة، لكن حكم الأمير مع رعيته، والسيد مع عبده».

وأما الأحاديث:

١٨١- فالأوّل: عن أبي رُقِيَّة تَمِيم بن أَوْس الدَّارِيّ - رضي الله عنه - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ» [رواه مُسْلِم].

* هذا الحديث أصل عظيم في وجوب النصيحة وبيان فضلها ومنزلتها في الدين وذكر مجالاتها.

قال العلماء عن هذا الحديث: «عليه مدار الإسلام». وقال محمد بن أسلم: «هذا الحديث أحد أرباع الدين». والنصيحة هي كلمة يعبر بها عن جملة هي: إرادة الخير للمنصوح له محبة له، وشفقة عليه.

وفي الحديث ذكر تميم بن أوس الداري، أن النبي ﷺ قال: «**الدين النصيحة**» أي، عماد الدين وقوامه، لأهميتها ومكانتها وفوائدها، وفضلها على الفرد والمجتمع. وتشمل خصال الإسلام والإيمان والإحسان وغيرها.

فسأل الصحابة - رضي الله عنهم - النبي ﷺ: لمن هذه النصيحة؟ فقال ﷺ «**لله**» أي، بالإخلاص لله - تعالى - والتعبد له محبة وتعظيمًا، وكذلك غيرته لله، فيغار الله - عز وجل - إذا انتهكت محارمه. ومنه الذب عن دين الله والدفاع عنه، والدعوة إليه والقيام به.

ثم قال ﷺ: «**ولكتاباه**» أي، للقرآن العظيم بتعظيمه، وصيانت به بالسعي في نشره، وتعظيم أوامره، واجتناب نواهيه، والسعي في مدارسته والحث على ذلك وتكريم حملته.

ثم قال ﷺ «**ولرسوله**» أي، الإيمان به وبما جاء به، والعمل بسنته وتعظيمها ونشرها والحث عليها، وعدم الابتداع في الدين، والذب عن شريعته، وكذلك احترام وتوقير أصحابه والترضي عنهم، والدفاع عنه ﷺ وعن صحابته.

ثم قال ﷺ: «**ولأئمة المسلمين**» وهم أئمة الدين، وأئمة السلطة، فالعلماء يُتلقى منهم العلم ويكرمون وينزلون منزلتهم اللائقة بهم، فهم ورثة الأنبياء، والدفاع عنهم والتجاوز عن زللهم، وعدم تتبع عوراتهم، أما ولاة الأمر فطاعتهم فيما ليس بمعصية، وعدم الخروج عليهم، وتألف الناس لطاعتهم ومناصحتهم ومعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه، وأمرهم به وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من أمور وحقوق المسلمين.

ثم قال ﷺ «**وعامتهم**» أي، عامة المسلمين، وذلك بأن تحب لهم ما تحب لنفسك، وأن تكره لهم ما تكرهه لنفسك من المكروه وإرشادهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في الدين والدنيا وإعانتهم بالقول والفعل، وستر عوراتهم، وسد خللاتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع لهم، والذب عن أموالهم وأعراضهم، وتنشيط هممهم إلى الطاعات، ودلالتهم على فعل الخيرات.

قال عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - عن النصيحة: «من وصل أخاه بنصيحة له في دينه، ونظر له في صلاح دنياه، فقد أحسن صلته، وأدى واجب حقه».

قال ابن بطال: «إن النصيحة تسمى ديناً وإسلاماً، وإن الدين ليقع على العمل، كما يقع على القول، والنصيحة فرض كفاية إذا قام به واحد سقط عن الباقيين، والنصيحة لازمة على قدر الطاقة إذا علم الناصح أن تُقبل نصيحته، ويطاع أمره، ويأمن على نفسه المكروه، وإن خشى أذى فهو في سعة».

وللنصيحة آداب منها: أن تكون بالطيب من القول، لقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] فيختار الناصح أسهل العبارات وأطيبها، وأن يريد

بها وجه الله والدار الآخرة وليست لحظ في النفس والتشفي، وأن تكون بالسر ولا تكون علانية، وأن يلجأ الناصح إلى التلميح والإشارة وربما تُغني عن التصريح.

ومن آداب النصيحة أيضاً، أن لا ينتظر قبول نصيحته، بل عليه أداء الواجب دون عتاب ولا مؤاخذه.

وعلى المنصوح قبول النصيحة، وشكر الناصح والدعاء له.

١٨٢ - الثَّانِي: عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى: إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ. [متفقٌ عليه].

* في هذا الحديث أهمية النصح والتناصح بين المسلمين حتى أخذ العهد على التزامه، وبايع على ذلك الصحابة - رضي الله عنهم - رسول الله ﷺ. قال الصحابي الجليل جرير بن عبد الله - رضي الله عنه :-

(بايعت رسول الله ﷺ) والمبايعة هنا: المعاهدة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١] وسميت مبايعة لأن كل من المتبايعين يمد ساعده إلى الآخر - يعني يده - من أجل أن يمسك بيد الآخر، ويقول بايعتك على كذا.

وجمع في الحديث بين الصلاة وهي حق محض لله، والزكاة وهي حق للأدمي محض، وحض مشترك وهو النصح لكل مسلم. هذه ثلاثة أشياء: حق محض لله، وحق للأدمي محض، وحق مشترك، أما الحق المحض، فهو قوله ﷺ:

(على إقام الصلاة) أن يأتي بها الإنسان كما أمر الله - عز وجل - فيحافظ عليها في أوقاتها، ويقوم بأركانها وواجباتها وشروطها، ويتم ذلك بمستحباتها، ومن ذلك بالنسبة للرجال إقامتها في المساجد مع جماعة المسلمين. ومن تخلف عن الجماعة بلا عذر فهو آثم، بل هو عند بعض العلماء كشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - إذا صلى بدون عذر مع غير الجماعة، فصلاته باطلة مردوده عليه، لا تقبل منه، ولكن الجمهور على أنها تصح مع الآثم، وهذا هو القول الراجح.

ومن إقامة الصلاة الخشوع فيها، والخشوع هو حضور القلب، لأن الصلاة بلا خشوع كالجسد بلا روح.

وأما قوله: **(إيتاء الزكاة)** أي، اعطاؤها لمستحقيها، وهذه جامعة بين حق الله وحق العباد، أما كونها حقاً لله، فلأن الله فرض على عباده الزكاة، وجعلها من أركان الإسلام، وأما كونها حقاً للآدمي، فلما فيها من قضاء حوائج المحتاجين وسد حاجتهم وفاقتهم.

واقصر على ذكر الصلاة والزكاة لأنهما قرينتان، وهما أهم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأظهرها.

قال النووي: «ولم يذكر الصوم وغيره لدخولها في السمع والطاعة». وأما قوله: **(والنصح لكل مسلم)** وهو الشاهد في الباب، أي، أن ينصح لكل مسلم قريب أو بعيد، صغير أو كبير، ذكر أو أنثى. وفيه، وجوب النصيحة. وهي لازمة على قدر الحاجة، إذا علم الناصح أنه يُقبل نصحه، وأمن على نفسه المكروه.

قال عبد العزيز بن أبي داود - رحمه الله -: «كان من قبلكم إذا رأى الرجل من أخيه شيئاً يأمره في رفق، فيؤجر في أمره ونهيه، وإن أحد هؤلاء يخرق بصاحبه، فيستغضب أخاه، ويهتك سره».

قال الفضيل بن عياض: «المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير». قال ابن رجب معلقاً: «فهذا الذي ذكره الفضيل من علامات النصح، وهو أن النصح يقترن به الستر، والتعير يقترن به الإعلان». وفي الحديث: أهمية النصح والصدق في النصيحة، وقبولها.

١٨٣- الثَّالِثُ: عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» [متفقٌ عليه].

* في هذا الحديث أصل عظيم في محبة المسلمين والنصح لهم، ومكانة النصح ومنزلتها، وأنه من الإيمان. أي: الإيمان الكامل، أن يحب لنفسه ما يحبه لأخيه، ومن ذلك بذل النصح لهم.

ومحبة الخير للمسلمين من خصال الإيمان العظيمة، ورتب عليه النبي ﷺ دخول الجنة، كما في حديث يزيد بن أسد القسري - رضي الله عنه - قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أَتَحِبُّ الْجَنَّةَ؟». قلت: نعم.

قال: «فَأَحِبِّ لِأَخِيكَ مَا تَحِبُّ لِنَفْسِكَ» [رواه أحمد].

وفي الحديث قوله ﷺ:

«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ» أي، لا يؤمن الإيمان التام، ولا يكمل إيمانه.

«حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ» أي، للمسلمين، تعميماً للحكم.

«مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» أي، مثلما يحب لنفسه.

قال ابن الصلاح: «وهذا قد يُعَدُّ من الصعب الممتنع، وليس كذلك. إذ معناه لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه في الإسلام ما يحب لنفسه، والقيام بذلك يحصل بأن يحب له حصول مثل ذلك من جهة لا يزاحمه فيها، بحيث لا ينقص النعمة على أخيه شيئاً من النعمة عليه، وذلك يسهل على القلب السليم، وإنما يعسر على القلب الدغل، عافانا الله من ذلك».

وقال ابن رجب: «وينبغي للمؤمن أن يحزن لفوات الفضائل الدينية، ولهذا أمر أن ينظر في الدين إلى من فوقه، وأن يتنافس في طلب ذلك جهده وطاقته، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] ولا يكره أن أحداً يشاركه في ذلك، بل يحب للناس كلهم المنافسة فيه، ويحثهم

على ذلك، وهذا من تمام أداء النصيحة للإخوان، فإذا فاقه أحد في فضيلة دينية اجتهد على لحاقه، وحزن على تقصير نفسه وتخلفه عن لحاق السابقين، لا حسداً لهم على ما آتاهم الله، بل منافسة غبطة وحزناً على النفس، لتقصيرها وتخلفها عن درجات السابقين، وينبغي للمؤمن أن لا يزال يرى نفسه مقصراً عن الدرجات العالية، مستفيداً بذلك أمرين نفيسين: - الاجتهاد في طلب الفضائل والازدياد منها، والنظر إلى نفسه بعين النقص، وينشأ من هذا أن يحب للمؤمنين أن يكونوا خيراً منه، لأنه لا يرضى لهم أن يكونوا على مثل حاله، كما أنه لا يرضى لنفسه بما هي عليه، بل هو يجتهد في إصلاحها.

وفي الحديث الصحيح قوله ﷺ: «**المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو واحد تداعى له سائر الجسد بالحمى**» [متفق عليه].

ومحبة المسلم لأخيه المسلم من أسباب دخول الجنة، كما في قول ﷺ: «**من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتى إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه**» [رواه مسلم].

قال أنس - رضي الله عنه -: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ «**المرء مع من أحب**» فقال ﷺ: «**أنت مع من أحببت**» قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لم أعمل عملهم.

ومحبة النبي ﷺ تعنى اتباع سنته والسير على نهجه وطريقته وعدم مخالفة أمره. فإن أبا بكر كان يحب النبي ﷺ وينصره، وكان أبو طالب كذلك، لكن أبا بكر - رضي الله عنه - اتبع طريق الرسول ﷺ وآمن به واستن بسنته، وقام بما أمر الله به وترك ما نهى عنه. فكان من أتباعه ومقدمهم ورأسهم. بخلاف أبي طالب الذي كفر برسالته ولم يؤمن بها.

وفي الحديث: إن أوثق عرى الإسلام الحب في الله، والبغض في الله.

٢٣ - باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

من أهم المهمات وأفضل القربات التناصح والتوجيه إلى الخير والتواصي بالحق والصبر عليه، والتحذير مما يخالفه ويُغضب الله - عز وجل - ويباعد من رحمته.

والمعروف: كل ما عرفه الشرع وأقره من العبادات القولية والفعلية، الظاهرة والباطنة.

والمُنكر: كل ما أنكره الشرع ومنعه من أنواع المعاصي، من الكفر، والفسوق، والعصيان والكذب، والغيبة، والنميمة، وغير ذلك.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منزلته عظيمة. ومكانته سامية رفيعة فقد قدمه الله - عز وجل - على الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. بدأ - عز وجل - بالدعوة إلى الخير، ثم ثنى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك لأن الدعوة إلى الخير مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي بيان الخير للناس.

وقدمه الله - عز وجل - في سورة التوبة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، قال في آخر الآية: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾.

وقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

أثنى الله - عز وجل - في هذه الآية على أمة محمد ﷺ، وذكر - عز وجل - أن خيرية هذه الأمة منوطة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١١٩]. أي، خذ العفو من أخلاق الناس كقبول أعذارهم، والمساهلة معهم، والصبر عليهم، وأعرض عن الجاهلين فلا تقابل السفه بالسفه.

وقد ذم الله - عز وجل - من لا يتناهون عن المنكر، في كتابه الكريم، وعلى لسان نبيه الكريم، قال ابن عباس: لعنوا بكل لسان، لعنوا على عهد موسى في التوراة، ولعنوا على عهد داود في الزبور، ولعنوا على عهد عيسى في الإنجيل، ولعنوا على عهد محمد ﷺ في القرآن.

قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

نزلت الآية في أصحاب السبت، وهي عامة في كل من فعل مثل فعلهم. ونصت على نجاة الأمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر وهلاك الظالمين الفاسقين.

وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

في هذا إخبار أن المؤمنين أنصار يتعاونون على العبادة ويبادرون إليها. وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ [الكهف: ٩]. أي: إذا بينت لهم الحق فلا أبالي بإيمان من آمن، وكفر من كفر، والآية ليست للتخيير ولكنها للتهديد.

وقال تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤].

أي، اجهر بما أمرك الله بتبليغه، من الدين والشريعة.

وقال تعالى: ﴿أُنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: ١٦٥]. أي، نجى الله من العذاب الذين ينهاون عن الفساد، وعاقب العصاة الظالمين بسبب فسقهم وعصيانهم.

والآيات في الباب كثيرة معلومة.

وأما الأحاديث:

١٨٤ - فالأول: عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» [رواه مسلم].

* الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمره عظيم، وهو من أسباب صلاح المجتمع وقوته وتماسكه.

وهذا الحديث أصل في تغيير المنكر، ولذلك عده العلماء من الأحاديث التي عليها مدار الدين.

وفي الحديث: وجوب تغيير المنكر بدرجاته حسب الاستطاعة، فالأول الإنكار باليد واللسان، ويجب بحسب القدرة والطاعة، والإنكار بالقلب فرض على كل مسلم في كل حال، فإنه إن لم ينكر قلبه دل على ذهاب الإيمان منه.

وفي قوله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ» أي، علم بوجود المنكر سواء رآه أو سمعه أو نقل له. وتأكد رؤية أو سماعاً أو نقلاً موثقاً، والمنكر هو ما نهى الله عنه ورسوله، لأنه ينكر على فاعله أن يفعله.

«فليغيره» أي، يزيله أو يغيره، وهو فرض كفاية إذا قام به من يكفي سقط عن الباقي، وإذا تركه الجميع أثم كل من تمكن منه بلا عذر.

«بيده» وذلك خاص بمن تحت يده، كالراعي إذا صدر من الرعية منكر يغيره بيده، وكذلك الأب في أهل بيته.

«فإن لم يستطع فبلسانه» فيذكر العاصي بالله، ويخوفه من عقابه.

«فإن لم يستطع فبقلبه» أي، بكراهة ذلك المنكر وبغضه والتغيير بالقلب من عمل القلب، وعمل القلب إذا كان خالصاً صواباً يثاب عليه الشخص، ومن تمام الإنكار بالقلب مغادرة المكان الذي فيه المنكر.

«وذلك أضعف الإيمان» أي، أقله ثمرة.

قال الإمام أحمد: «ويجب هجر من كفر أو فسق ببدعة، أو دعا إلى بدعة مضلة أو مفسدة على من عجز عن الرد عليه أو خاف الاغترار به والتأذي دون غيره».

قال النووي: «واعلم أن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد ضيع أكثره من أزمان متطاولة ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة، وهو باب عظيم به قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أو شك أن يعمهم الله بعذاب، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾»

[النور: ٦٣]، فينبغي لطالب الآخرة، والساعي في تحصيل رضى الله - عز وجل - أن يعتني بهذا الباب فإن نفعه عظيم، لا سيما وقد ذهب معظمه، ولا يهابن من ينكر عليه لارتفاع مرتبته فإن الله - تعالى - قال: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، واعلم أن الأجر على قدر النصب، ولا يتركه أيضا لصداقته ومودته فإن الصديق للإنسان وهو الذي يسعى في عمارة آخرته، وإن أدى ذلك إلى نقص في دنياه، وعدوه من يسعى في ذهاب آخرته أو نقصها وإن حصل بسببه نفع في دنياه».

وينبغي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون من ذلك برفق ليكون أقرب إلى تحصيل المقصود.

قال الإمام أحمد: «والناس محتاجون إلى مداراة ورفق، والأمر بالمعروف بلا غلظة، إلا رجل معلن بالفسق فلا حرمة له».

وقال - رحمه الله -: «يأمر بالرفق، فإن أسمعوه ما يكره لا يغضب، فيكون يريد أن ينتصر لنفسه».

١٨٥ - الثاني: عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» [رواه مسلم].

* بعث الله - عز وجل - الأنبياء في أممهم يدعونهم إلى التوحيد، وإلى التمسك بالشرعية المنزلة، فيكون مع النبي أصحاب يتبعون سنته ويقومون بأمره، ثم إذا طالت الأيام والسنوات يضعف التمسك بالدين وتندثر السنن وينتشر الجهل واتباع الهوى، وكلما مضى عصر زاد الضعف وكثر التهاون، فخير القرون قرن النبي ﷺ ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وهكذا حتى يأتي آخر الزمان، ويأتي أناس يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون لانتشار البدع والمنكرات والمعاصي.

فمن جاهد المنكرات وغيرها بيده فهو مؤمن إيماناً كاملاً، ومن جاهدها وأنكرها بلسانه فهو مؤمن دون الأول، ومن جاهدها وأنكرها بقلبه فهو مؤمن دون الثاني، ومن لم يعبأ بالمنكرات ولم تحرك فيه ساكناً فليس بمؤمن وليس في قلبه ذرة من الإيمان، ففاعل المنكر والراضي به سواء.

وفي الحديث ذكر النبي ﷺ أن لكل نبي حواريون، وهم خلفاء الأنبياء وأصفيائهم وأنصارهم المجاهدون معهم، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره. ثم يأتي من بعدهم خلوف، وهو جمع خلف، وهو الخالف بشر، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، وهؤلاء هم المخالفون للشرع بأقوالهم وأفعالهم.

ثم ذكر ﷺ أن من جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبه خردل - والخردل حب صغير يضرب به المثل في نهاية القلة - والمقصود المبالغة في ضعف الإيمان.

وفي الحديث: دليل على تفاوت مراتب الإيمان، وأن عدم إنكار القلب دليل على ذهاب الإيمان منه، ولهذا قال ابن مسعود: «هلكت إن لم يعرف قلبك المعروف، وينكر المنكر».

وقد دلت الأحاديث على وجوب إنكار المنكر بحسب القدرة عليه، وأما إنكاره بالقلب لا بد منه، فمن لم ينكر قلبه المنكر دل على ذهاب الإيمان من قلبه».

قال ابن عقيل: «إذا أردت أن تعرف محل الإسلام من أهل الزمان، فلا تنظر إلى زحامهم في أبواب الجوامع، ولا ضجيجهم بـ (ليك)، وإنما انظر مواطنهم أعداء الشريعة».

وقيل لابن مسعود: «من ميت الأحياء؟ فقال: الذي لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فأما حب القلب وبغضه وإرادته وكرهاته فينبغي أن تكون كاملة جازمة لا توجب نقص ذلك إلا بنقص الإيمان، وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته، ومتى كانت إرادة القلب وكرهاته كاملة تامة وفعل العبد معها بحسب قدرته فإنه يعطى ثواب الفاعل الكامل».

وسمع ابن مسعود رجلاً يقول: هلك من لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر، فقال ابن مسعود: «هلك من لم يعرف بقلبه المعروف والمنكر، يشير إلى أن معرفة المعروف والمنكر بالقلب فرض لا يسقط عن أحد، فمن لم يعرفه هلك».

وفي الحديث: كراهية المنكر، ورده دليل على قوة الإيمان، والسكوت عن المنكر دليل ضعف الإيمان، وأن كل إنسان مسؤول عن إزالة المنكر بحسب طاقته.

١٨٦- الثالث: عن أبي الوليد عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ - رضي الله عنه - قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السَّمْعِ والطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ - تعالى - فِيهِ بُرْهَانٌ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً. [متفق عليه].

الْمَنْشَطُ وَالْمَكْرَهُ بَفَتْحِ مِيمَيْهِمَا: أَيُّ: فِي السَّهْلِ وَالصَّعْبِ.
وَالْأَثَرَةُ: الْإِخْتِصَاصُ بِالْمُشْتَرَكِ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُهَا.
بَوَاحًا: بَفَتْحِ الْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ بَعْدَهَا وَאוْثَمَ أَلِفٌ ثُمَّ حَاءٌ مُهْمَلَةٌ أَيْ ظَاهِرًا لَا يَحْتَمِلُ تَأْوِيلًا.

* نظم الإسلام أمور الحياة، ورتب حقوقاً لولاة الأمر، وحقوقاً للرعية حتى تستقيم الأمور وتسير الأحوال والمعاش، فإن الفوضى تؤدي إلى اختلال الأمن، وسفك الدماء، وانتهاك الأعراض، وضياع الأموال. وهذا الحديث يبين حقوق الرعية وماذا عليهم مع الولاية، فالناس لا يصلحون ولا سراة ولا حكام لهم يقيمون دينهم ودنياهم. وقد ذكر عبادة بن الصامت الصحابي الجليل: أنهم بايعوا، أي، عاهدوا النبي ﷺ (على السمع والطاعة) لولاية الأمر في غير معصية لله. (في العسر واليسر) يعني سواء كنا معسرين في المال أو كنا موسرين. (والمنشط والمكره) أي، في السهل والصعب. (على أثره علينا) أي، استئثراً علينا بالمال أو غيره. أي، بايعنا على الطاعة فيما يشق وتكرهه النفوس وغيرها مما ليس بمعصية، فإن كانت معصية فلا سمع ولا طاعة.

(وعلى أن لا ننازع الأمر أهله) أي، ولا نشق عصا الطاعة.
 (إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله - تعالى - فيه برهان) المعنى، إلا أن نرى كفراً صريحاً واضحاً عندنا منه دليل من دين الله.
 ثلاثة شروط. العلم ولا يكفي مجرد الظن، أن نعلم كفراً لا فسقاً، الكفر البواح الصريح عندكم فيه من الله برهان ودليل قاطع على أن هذا كفر. مع القدرة على إزالته وإزاحته.
 (وأن نقول الحق أينما كنا) لا نخاف في الله لومة لائم. في أي زمان ومكان، لا نخاف في الله ولا ندهن في ذلك أحداً ولا نخافه.
 قال النووي: «أي تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر في كل زمان ومكان، على الكبار والصغار، لا تدهن أحداً ولا تخاف ولا تتلفت إلى الأئمة».
 وقال رحمه الله -: «أجمع العلماء على وجوب طاعة الأمراء في غير معصية». والصبر على جور الأئمة أصل من أصول أهل السنة والجماعة. وفي الحديث الحث على السمع والطاعة لولاة الأمر من المسلمين من غير معصية، وفي هذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
 قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: «إذا كان الإمام عادلاً فله الأجر وعليك الشكر، وإن كان جائراً فعليه الوزر وعليك الصبر».
 وقال ابن بطال: «وفي الحديث حجة على ترك السلطان لوجار، وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء».
 وفي الحديث: أن على المسلم السمع والطاعة لولاة الأمر في غير معصية. وفيه: أن على المسلم احتساب الطاعة لولاة الأمر طمعاً في الأجر والمثوبة لا لعرض من أعراض الدنيا.

١٨٧ - الرَّابِع: عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الْقَائِمِ فِي حُدُودِ اللَّهِ، وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا وَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصَبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا» [رواه البخاري].

الْقَائِمُ فِي حُدُودِ اللَّهِ - تَعَالَى - مَعْنَاهُ: الْمُتَنَكِّرُ لَهَا، الْقَائِمُ فِي دَفْعِهَا وَإِزَالَتِهَا، وَالْمُرَادُ بِالْحُدُودِ: مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ. اسْتَهَمُوا: اقْتَرَعُوا.

* هذا المثل بليغ جداً، نراه في واقع الحياة، فالمصلحة مشتركة، والسلامة كل لا يتجزأ، والحياة والموت قد يصيب الجميع.
في هذا الحديث الشريف يقرر ﷺ سنة من سنن الله - عز وجل - في الكون، وهو تكافل أفراد الأمة وتضامنهم وتعاونهم في سبيل قيام الفضيلة بينهم والقيام عليها، وحراستها والقضاء على أهل الباطل والشرور والردائل. وهكذا فالمجتمع مجتمع مدافعة ومزاحمة، يؤجر من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وينزجر من يترك المعروف، ويرتدع من يفعل المنكر.
وفي هذا الحديث مثل ضربه النبي ﷺ لفائدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثره على الأمة جميعاً.

وقد صنف النبي ﷺ الناس في المجتمع إلى ثلاثة أصناف: أولهم: المستقيم القائم بحدود الله الذي لم يتجاوزها، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والثاني: التارك للمعروف، المرتكب للمنكر.

الصنف الثالث: المتباطيء عن دفع المنكر والنهي عنه.

وهذه الأصناف الثلاث حالها كحال ركاب سفينة أخذ كل منهم مكانه عليها بالقرعة.

فبين ﷺ أن مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كمثل قوم ركبوا في سفينة جعلوا بينهم قرعة في توزيع الأماكن، منعاً للنزاع والشقاق، فصار بعضهم أعلى السفينة وبعضهم في أسفلها.

«وكان الذين في أسفل السفينة إذا أرادوا ماء صعدوا إلى أعلى السفينة».

أي، أتعبهم وأجهدهم جلب الماء والصعود من الأعلى كلما أرادوا، فبدى لهم أمر أن يخرقوا في نصيبهم الذي هو في الأسفل ثقباً يستخرجون منه الماء، حتى لا يؤذون من فوقهم بالصعود لهم كل مرة. فكان منهم هذا التوجه لتخفيف تعب جلب الماء من الأعلى وأذية من فوقهم بالصعود كل مرة. ولا شك أن هذا من الحمق وسوء المعرفة وقلة الحيلة.

«فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً» لأن الماء سوف يملأ السفينة فتغرق بمن فيها سواء من كان في أعلاها أو في أسفلها.

«وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً» أي: إن منعوهم وما أرادوا نجوا جميعاً سواء من أراد الفعل أو من أنكره ولم يرضه، ولم يمكن لهم ذلك. فإن تركهم الذين في الأعلى على ما أرادوا من ثقب السفينة هلكوا جميعاً، وإن منعوهم من ثقب السفينة وما أرادوا نجوا ونجوا جميعاً، لأن السفينة تحمل الجميع.

وهذا المثل الذي ضرب به النبي ﷺ مثال محسوس ليقرب للسامع حالة المجتمع وحاجته إلى الحفظ والصون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن عقوبة ترك المنكر لا تعود على صاحبه فحسب بل تضر المجتمع لأن ترك المنكر ينتشر فيه، يؤذن بهلاكه وخرابه، وعقوبة العاصي تعم إذا ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

والمنكرات إذا فشت كانت من أسباب العقوبات، قالت أم المؤمنين زينب - رضي الله عنها - للنبي ﷺ أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: **«نعم إذا كثر الخبث»**

[رواه البخاري].

١٨٨ - الخَامِسُ: عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ سَلَمَةَ هُنْدَ بِنْتِ أَبِي أُمَيَّةَ حُذَيْفَةَ - رضي الله عنها -، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أَمْرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرَىءَ وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ» قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نُنْقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: «لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ» [رواه مسلم].

مَعْنَاهُ: مَنْ كَرِهَ بَقْلَهُ وَلَمْ يَسْتَطِعْ إِنْكَارًا بَيِّدًا وَلَا لِسَانَ فَقَدْ بَرَىءَ مِنَ الْإِثْمِ وَأَدَّى وَظِيْفَتَهُ، وَمَنْ أَنْكَرَ بِحَسَبِ طَاقَتِهِ فَقَدْ سَلِمَ مِنْ هَذِهِ الْمَعْصِيَةِ، وَمَنْ رَضِيَ بِفَعْلِهِمْ وَتَابَعَهُمْ، فَهُوَ الْعَاصِي.

* بعد أن ذكر النبي ﷺ في الحديث السابق وجوب السمع والطاعة لولاءة الأمر في غير معصية، جاء هذا الحديث لتوضيح الأمر أكثر، وبيان حال من يتولى من الأمراء وحال الناس معهم.

وفي هذا الحديث إخبار بالغيب من النبي ﷺ، وهذا من آياته ﷺ حيث أخبر فكان كما أخبر.

والأئمة أحوالهم متباينة من شخص لآخر، وواحدهم لا يخرج عن أحد ثلاثة: إما أن يكون عادلاً مقسطاً، وإما أن يكون كافراً مجرمًا، وإما أن يكون حاله متردداً بين هذين، وهو الفاسق أو الظالم، وهذا قد يكون فسقه وظلمه على نفسه وفي أعماله الخاصة، وقد يتعدى ذلك إلى الرعية، إما في أموالهم وأنفسهم أو في دينهم وأعراضهم.

قال ﷺ: «إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أَمْرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ» أي، أنه سوف يكون عليكم في مستقبل الأيام أمراء عمالاً، فتعرفون بعض أعمالهم وأحوالهم لموافقتها ما عرف من الشرع، وأخرى تنكرونها لمخالفتها ذلك.

«فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرَىءَ» أي، كره ما يفعلون من المحرمات بقلبه، ولم يقدر على الإنكار لخوف سطوتهم فقد برىء وسلم من الإثم، لأن ذلك أضعف الإيمان.

«ومن أنكر فقد برئ» أي، ومن قدر على الإنكار، فأنكر فقد سلم من العقاب الأخرى.

وفيه دليل على أن من عجز عن إزالة المنكر لا يأثم بمجرد السكوت، بل إنما يأثم بالرضى به، أو بالأذى بقلبه أو المتابعة عليه.

ثم حذر ﷺ من الصنف الثاني فقال:

«ولكن من رضي وتابع» أي، لم ينكر وتابعهم على تلك المخالفات لم تبرأ ذمته ولم يسلم من إثم فعلهم لمشاركته لهم فيه ورضاه به.

وعندما تعجب الصحابة - رضي الله عنهم - من حال هؤلاء الأمراء لأنهم خالفوا، قالوا: يا رسول الله: ألا نقاتلهم؟

فقال ﷺ «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة» أي، لا يجوز الخروج عليهم بمجرد الظلم أو الفسق.

منع ﷺ من مقاتلتهم مدة إقامتهم الصلاة التي هي عنوان الإسلام والفرق بين الكفر والإسلام، حذراً من تهيج الفتن واختلاف الكلمة وسفك الدماء. وهذه من القواعد الشرعية التي تنظم علاقة الناس بالأمراء لتستقيم الحياة ولا تسفك الدماء، مع النصيحة لهم والدعاء.

وهذا الحديث كما قال النووي: «فيه معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ بالإخبار عن المستقبل، ووقع ذلك ما أخبر ﷺ، وفيه دليل على أن من عجز عن إزالة المنكر لا يأثم بمجرد السكوت، بل إنما يأثم بالرضا به، أو بأن لا يكرهه بقلبه، أو بالمتابعة عليه»

وفي الحديث عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - عن النبي ﷺ، قال: «من رأى من أميره شياً يكرهه فليصبر فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتة جاهلية» [رواه البخاري].

وفي الحديث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قدر الاستطاعة.

١٨٩ - السَّادِسُ: عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ الْحَكَمِ زَيْنَبِ بِنْتِ جَحْشٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَرَعَا يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدْ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدَمٍ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ» وَحَلَقَ بِأَصْبَعِهِ الْإِبْهَامَ وَالَّتِي تَلِيهَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْهَلِكَ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ» [متفقٌ عليه].

* كان نبينا محمد ﷺ يوجه الأمة ويدلها إلى كل خير، وبعض أحاديثه كانت تحذيراً وتنبيهاً لأمته رحمة بها وشفقة عليها، ومنها هذا الحديث العظيم الذي وقع ماثلاً أمامنا منذ العصور الأولى إلى يومنا هذا. فقد دخل النبي ﷺ على زوجته أم المؤمنين زينب بنت جحش فزعاً. والفرع: هو الذعر والخوف.

وهو يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدْ اقْتَرَبَ» فبدا وهو مهموم، ففرع إلى ذكر الله - عز وجل - محققاً للتوحيد، ولأن بذكر الله تطمئن القلوب، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. ثم بين ذلك الفرع بقوله:

«وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدْ اقْتَرَبَ» ويل: كلمة عذاب وهو تعبير عن الخطر المتوقع، وتقال عند الحزن. أي أن شراً قد اقترب وفتناً وقلقل تقع، وخص العرب بالذكر لأنهم حملة الإسلام والدعاة إليه. ولعله أوحى إليه، أو رأى في منامه ما يدل على هذا.

وفي قوله: «قَدْ اقْتَرَبَ» أي، قريب حدوثه ونزوله. قال ابن حجر في فتح الباري: «خص العرب بذلك لأنهم كانوا حينئذ معظم من أسلم، والمراد بالشر ما وقع بعده من مقتل عثمان، ثم توالى الفتن حتى صارت العرب بين الأمم كالقصعة بين الأكلة».

والشر هو أنه «فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه» وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها.

ويأجوج ومأجوج قوم يظهران آخر الزمان، ويفسدون في الأرض ويكون ظهورهم من أمارات الساعة الكبرى، و«ردم» سد بناه ذو القرنين وهو المذكور في سورة الكهف ﴿قَالُوا يَبْنَؤُا الْفَرْتَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ تَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤].

قال القرطبي: «ويحتمل أن يكون المراد بالشر ما أشارت إليه في حديث أم سلمة: «ماذا أنزل من الفتن وماذا أنزل من الخزائن» فأشار بذلك إلى الفتوح التي فتحت بعده فكثرت الأموال في أيديهم، فوقع التنافس الذي جر الفتن، وكذلك التنافس على الإمرة».

وفي تمة الحديث تعجبت أم المؤمنين زينب - رضي الله عنها -، وقالت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟

قال ﷺ: «نعم إذا كثرت الخبث» وهذا دلالة على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بسبب تركه يكثر الخبث، وهو الزنى خاصة، أو الفسوق والفجور عامة.

وفي الحديث: بيان شؤم المعاصي والتحريض على إنكارها، وأنها إذا كثرت فقد يحصل الهلاك العام، وإن كثرت الصالحون.

ولا شك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مهام الأنبياء، وأعمال الرسل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وهو من خصال الصالحين، وبه التمكين في الأرض، ومن أسباب النصر، ومن أسباب تكفير الذنوب، ومن أسباب إجابة الدعاء.

١٩٠ - السَّابِعُ: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطَّرِيقَاتِ» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا بُدُّ، نَتَحَدَّثُ فِيهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ» قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرُدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ» [متفقٌ عليه].

* يحرص الإسلام على إقامة مجتمع تزدان فيه الإخلاق ومعالي الأمور، وتعلوه الفضائل والمحامد، وقد نبه النبي ﷺ إلى آداب الطريق والجلوس في الطرقات، لأن الأصل في الطرق أنها ليست محلاً للجلوس، لأنه قد يترتب على الجلوس فيها محاذير شرعية:

أولها: التعرض للفتن بالنظر أو غيره.

الثاني: إيذاء الآخرين بالسب والغمز واللمز والغيبة، والاحتقار وسوء الظن، وربما برمي حجارة أو غيرها.

الثالث: الاطلاع على أحوال الناس الخاصة، ومتابعة كل من مر ومشى في الطريق.

الرابع: ضياع الأوقات بما لا فائدة منه.

الخامس: تضيق الطريق على الناس وهي حق عام للجميع.

السادس: إذا كان القاعدون ممن يهابهم المارون، أو يخافون منهم، ويمتنعون من المرور في أشغالهم بسبب ذلك لكونهم لا يجدون طريقاً إلا ذلك الموضع.

وهذا الحديث يشمل آداب الطريق وحقه، وهي في الحديث أربع. وفيه أولاً: استحباب ترك الجلوس في الطرقات والتحذير من ذلك لما قد يقع من ضرر على القاعد والمار في الطريق، وإن من جلس فعليه أن يعطي الطريق حقه، وأن يتأدب بالآداب الشرعية حتى لا يضر نفسه ولا غيره.

ومن ذلك: غض البصر عما لا يجمل، ومن التطلع إلى ما في أيدي الناس ومتابعتهم بالنظر فإن ذلك يؤذيهم. وإذا رأى ما يعجبه فليقل: ما شاء الله.

الثاني: «كف الأذى» باليد أو اللسان أو الاستهزاء أو غيرها.

الثالث: من حق الطريق: «والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

ومن آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الأول: أن يكون الدافع، الإخلاص لله - عز وجل - وليس لحظوظ النفس أو التشفى أو غيرها.

الثاني: العلم بما يأمر به، أو ينهى عنه.

الثالث: الرحمة والرفق. قال النووي: «وينبغي للأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر أن يرفق ليكون أقرب إلى تحصيل المطلوب».

الرابع: الصبر على ما قد يلحقه من أذى من السفهاء أو غيرهم.

والرابع: ومن آداب الطريق قوله ﷺ: «رد السلام».

قال الحافظ في فتح الباري: «أشار بالأول إلى السلامة من التعرض للفتنة

بمن يمر عليه من امرأة ونحوها، وبالثاني: إلى السلامة من الاحتقار والغيبة،

وبقوله ورد السلام إلى إكرام المارة».

وفي الحديث: حرمة الطريق وأنه من الحق العام، وقد ذكر النبي ﷺ حقوقاً

أخرى في أحاديث متفرقة منها: إحسان الكلام، والمعاونة على الحمل لمن

كان عاجزاً عنه، وإعانة المظلوم وإغاثة الملهوف، وإرشاد الضال، وتشميت

العاطس وغيرها.

قال النووي: «هذا الحديث كثير الفوائد، وهو من الأحاديث الجامعة،

وأحكامه ظاهرة، وينبغي أن يجتنب الجلوس في الطرقات لهذا الحديث».

١٩١ - الثامن: عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ رأى خاتماً من ذهب في يد رجل، فنزعه فطرحه وقال: «يَعْمَدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ»، فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: خُذْ خَاتَمَكَ، اَنْتَفَعْ بِهِ. قَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا آخِذُهُ أَبَدًا وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. [رواه مسلم].

* قام النبي ﷺ بأمر الرسالة خير قيام، فأدى الأمانة ونصح الأمة، لا خير إلا دل ﷺ الأمة عليه، ولا شر إلا حذرهما منه. وهو في هذا الحديث يقوم ﷺ بإنكار عملي بيده الشريفة عندما رأى منكراً.

فقد حرمت الشريعة لبس الذهب على الرجال، واجازت له التختم وما في معناه بجميع المعادن ما عدا الذهب.

قال ﷺ في الذهب والحريز: «أَحْلَ الذَّهَبَ وَالْحَرِيرَ لِلْإِنَاثِ مِنْ أُمَّتِي وَحَرَّمَ عَلَى ذَكَوْرَهَا» [رواه أحمد].

فلا يجوز للرجل أن يلبس خاتماً من ذهب، ولا أن يلبس قلادة من ذهب، ولا أن يلبس ثياباً فيها أزرة من ذهب.

قال النووي - رحمه الله -: «وأما خاتم الذهب فهو حرام على الرجل بالإجماع».

وفي هذا الحديث رأى رسول الله ﷺ خاتماً من ذهب في يد رجل، فقال ﷺ: «يَعْمَدُ أَحَدُكُمْ» أي، يقصد أحدكم.

«إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ» أي، يجعلها في إصبعه.

قال القرطبي: «فيه دليل على تغليظ التحريم في لبس خاتم الذهب»

فاستجاب الرجل لما سمع كلام النبي ﷺ فطرح خاتمه.

ولما ذهب رسول الله ﷺ قيل له: خذ خاتمك انتفع به بوجه من الوجوه المباحة، إما يبيعه أو إهداؤه لامرأته، وغير ذلك.

قال: لا والله لا أخذه وقد طرحه رسول الله ﷺ.
وهذا منه فيه المبالغة في امتثال أمر النبي ﷺ واجتناب نهيه، وعدم الترخص فيه بالتأويلات الضعيفة. فكان ترك الرجل أخذ خاتمه إباحة من أراد أخذه من الفقراء، فمن أخذه صار متصرفاً فيه.

قال النووي - رحمه الله -: «فيه إزالة المنكر باليد لمن قدر».
وقد ميز الله - عز وجل - جنس الذكور عن الإناث في مواطن عدة، ولهذا يحرم تشبه الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، بل وجاء التغليظ في ذلك، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال «لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل» [رواه أبو داود].

وفي الحديث الآخر «لعن الله الرجل من النساء» [رواه أبو داود].
وفي الحديث الذي رواه ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «لعن رسول الله ﷺ المخنثين من الرجال، والمترجلات من النساء».
وفي رواية: «لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال» [رواه البخاري].

أما لبس الذهب الأبيض وهو ما يسمى بالألماس، فقد أفتى العلماء بجواز لبسه إذا كان خالصاً، ليس معه ذهب ولا فضة. إذا لم يكن فيه مشابة للكفار. وفي الحديث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفيه: سرعة واستجابة الصحابة لذلك.

١٩٢ - التَّاسِعُ: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّ عَائِذَ بْنَ عَمْرٍو - رضي الله عنه - دَخَلَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ فَقَالَ: أَيُّ بَنِي، إِنِّي سَمَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ شَرَّ الرَّعَاءِ الْحُطَمَةُ» فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ. فَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ فَإِنَّمَا أَنْتَ مِنْ نُخَالَةٍ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَالَ: وَهَلْ كَانَتْ لَهُمْ نُخَالَةٌ إِنَّمَا كَانَتْ النُّخَالَةُ بَعْدَهُمْ وَفِي غَيْرِهِمْ، [رواه مسلم].

* في هذا الحديث النهي عن المنكر، والرد على الأمراء فيما لا يصح، وتبيين الحق لهم. فهذا الصحابي الجليل عائذ بن عبد الله - رضي الله عنه - ممن شهد الحديبية وبايع تحت الشجرة، ذكر أنه دخل على عبيد الله بن زياد ابن أبيه، وكان والياً على البصرة في زمن يزيد بن معاوية.

فلما دخل عليه قال له: إِنِّي سَمَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ شَرَّ الرَّعَاءِ» جمع راع.

«الحطمة»: العنيف في رعيته، لا يرفق بها في سوقها، ومرعاها، ومشرها، ضربه مثلاً لوالي السوء العنيف في رعيته الذي لا يرفق بهم. (فإياك أن تكون منهم) أي، فتتهوي بتلك المذمة.

فقال زياد له: (اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب رسول الله ﷺ) أي، كأنك من نخالة الدقيق وهي قشوره.

فاستنكر - رضي الله عنه - هذا القول، واستبعد أن يكون في الصحابة من يستعار لهم النخالة التي لا يعاب بها، فقال:

(وهل كانت لهم نخالة) أي، الصحابة، وهم الذين اختارهم الله لصحبه نبيه ﷺ وشرفهم بمرافقته، ولم يعرف السقط والنخالة إلا بعد قرونها.

(إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم) أي، ليست فيهم إنما كانت فيمن أتى بعدهم، وفي غيرهم.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «خير القرون القرن الذي جئت فيه، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».

وفي الحديث: التزام الصحابة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما الخلفاء الراشدون والصحابة فكل خير فيه المسلمون إلى يوم القيامة من الإيمان والإسلام والقرآن والعلم والمعارف والعبادات، ودخول الجنة، والنجاة من النار، وانتصارهم على الكفار وعلو كلمة الله، فإنما هو بركة ما فعله الصحابة الذين بلغوا الدين وجاهدوا في سبيل الله. وكل مؤمن آمن بالله فللصحابة - رضي الله عنهم - الفضل إلى يوم القيامة، وخير الصحابة تبع لخير الخلفاء الراشدين، فهم كانوا أقوم بكل خير في الدنيا والدين من سائر الصحابة، كانوا والله أفضل هذه الأمة، وأبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، وتمسكو بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم. وقد أثنى الله عليهم هو ورسوله ورضي عنهم وأعد لهم الحسن في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ فِي السَّابِقِينَ﴾ [التوبة: ١٠٠] وقوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَرَعٌ أَخْرَجَ شَطْرَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

وفي الحديث: فضل الصحابة ومنزلتهم العظيمة، قال ﷺ «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» [رواه الترمذي].

١٩٣ - العاشر: عَنْ حذيفة - رضي الله عنه - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُوهُ فَلَا يَسْتَجَابُ لَكُمْ» [رواه الترمذي وقال: حديث حسن].

* لا يزال النبي ﷺ في أحاديث كثيرة يحذر الأمة وينبها إلى خطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكل ذلك الحرص والتكرار منه ﷺ لما للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من آثار على الفرد والمجتمع، من صلاح الحال، واستقامة المجتمع وانتشار الفضيلة وإنحسار الرذيلة، ولأنه من أسباب إجابة الدعاء، وصد الشرور والفتن.

وفي هذا الحديث أقسم النبي ﷺ بالله - عز وجل - بقوله:

«والذي نفسي بيده»، وهذا القسم لعظم الأمر ومكانته.

«لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر» أي، تأمرون بما أمر الله - عز وجل -

- ورسوله، وتنهون عما نهى الله عنه ورسوله.

«أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه» الفعل أو شك: يدل على قرب

وقوع الشيء وهو عقاب في الدنيا، وفي هذا الحديث ذكر عقوبة معجلة لترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقع في الدنيا. وهذا يعم شؤم المنكر وبلاه على فاعله وغيره، ولم يحدد النبي ﷺ نوع العقاب، قد يكون بكثرة الموت، أو بتسليط عدوهم عليهم أو بجور الولاة أو بالأوبئة والأمراض والزلازل وغيرها من العقوبات.

قال القرطبي: «وهذه سنة الله في عباده إذا فشا المنكر ولم يغير عوقب الجميع».

وقال ابن العربي في شرحه: «وهذا الفقه عظيم، وهو أن الذنوب منها ما

يعجل الله عقوبته، ومنها ما يمهل بها إلى الآخرة، والسكوت عن المنكر

تتعجل عقوبته في الدنيا بنقص الأموال والأنفس والثمرات، وركوب الذل من

الظلمة للخلق».

«ثم تدعونه فلا يُستجاب لكم» أي، عندما يقع العقاب فتدعون لكشفه فلا يستجاب لكم، وهذا من أعظم العقوبات. لكون الحكمة الإلهية جزاء لما فرطتم فيه من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، جزاء التفريط بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عدم استجابة الدعاء.

قال بلال بن سعد: «إن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها، وإذا أعلنت فلم تغير ضرت العامة»

وقال عمر بن عبد العزيز: «كان يقال: إن الله - تعالى - لا يعذب العامة بذنب الخاصة، ولكن إذا عمل المنكر جهاراً استحقوا كلهم العقوبة».

وقد ظهرت في بعض المجتمعات ظاهرة خطيرة ونبذة خبيثة، وهي الاستهزاء بالأمريين بالمعروف والناهيين عن المنكر، ولمزهم وغمزهم، والله - عز وجل - قد توعد الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بعذاب أليم.

وللتنبية على خطورة الأمر، قال في حاشية ابن عابدين: «إن من قال «فضولي» لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فهو مرتد».

وفي الدر المختار، قال في فصل الفضولي: «هو من يشتغل بما لا يعنيه، فالقائل لمن يأمر بالمعروف: أنت (فضولي) يخشى عليه الكفر».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر يكفر صاحبه بعد إيمانه».

وقال السعدي: «إن الاستهزاء بالله ورسوله كفر يخرج عن الدين، لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله وتعظيم دينه ورساله، والاستهزاء بشيء من ذلك مناف لهذا الأصل ومناقض له أشد المناقضة».

وفي الحديث: أن من موانع إجابة الدعاء ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وفيه: أن العقوبة تحل إذا ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

١٩٤ - الْحَادِي عَشَرَ: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ عَدَلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ» [رواه أبو داود، والترمذي وقال: حديث حسن].

* الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، منزلته عظيمة، وقد عده بعض العلماء الركن السادس من أركان الإسلام تعظيماً لشأنه، وقدمه الله - عز وجل - على الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقدمه - عز وجل - في سورة التوبة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وفي هذا التقديم إيضاح لعظم شأن هذا الواجب وبيان لأهميته في حياة الأفراد والمجتمعات والشعوب، وتحقيقه تصلح الأمة ويكثر فيها الخير، ويضمحل الشر ويقل المنكر، وبإضاعته تكون العواقب الوخيمة والكوارث العظيمة والشُرور الكثيرة، وتتفرق الأمة، وتقسو القلوب أو تموت، وتظهر الرذائل وتنتشر، ويظهر الباطل، ويفشو المنكر.

قال الشوكاني: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما العمادان العظيمان من أعمدة هذا الدين والركنان الكبيران من أركانه... وهو مجمع على وجوبهما إجماعاً من سابق هذه الأمة ولاحقها، لا يعلم في ذلك خلاف».

ومن أعظم أنواع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كلمة حق عند سلطان جائر لسطوته وشدته، ولربما لحق أذى بمن أمره أو نهاه.

وإنما كان ذلك أفضل الجهاد لأنه يدل على كمال يقين فاعله، وقوة إيمانه، حيث تكلم عند هذا السلطان الجائر، ولم يخف من بطشه، وبذل نفسه وقدم أمر الله. ولا شك أن كلمة العدل هي من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال المظهر: «وإنما كان **«أفضل»** لأن ظلم السلطان يسري في جميع من تحت سياسته وهو جم غفير، فإذا ناه عن الظلم فقد أوصل النفع إلى خلق كثير بخلاف قتل كافر».

وقال الخطابي: «إنما كان هذا أفضل الجهاد لأن من جاهد العدو كان على أمل من الظفر بعدوه ولا يتيقن العجز عنه لأنه لا يعلم يقيناً أنه مغلوب، وهذا يعلم أن يد السلطان أقوى من يده فصارت المثوبة فيه على قدر عظم المثوبة».

وقيل: «وإنما كان هذا أفضل الجهاد، لأن الذي يأمر السلطان الجائر بالعدل ويشافه بصريح الحق ولا يداهن معه، يتربص إحدى الحسنين، إما أن يوقع به بأسه ويقتله، فينال درجة الشهادة، وإما أن يؤثر النصيح، فيصير سبباً لصلاح خلق كثير، وجم غفير، فإن السلطان إذا عدل استقام به أمر العالم، وارتفع الفساد، وظهر شعار الدين، وأمن السبل، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وسهل الأمر على القائمين به، وفائدة الجهاد مع الكفار إصلاح أفراد أو جماعة منهم، أو نيل غنيمة، فهذا الجهاد أكمل فائدة، وأشمل عائدة».

قال ابن عبد البر: «مناصحة ولاة الأمر لم يختلف في وجوبها إذا كان السلطان يسمعها ويقبلها».

وقال أبو نعيم الأصبهاني: «من نصح الولاة والأمرء اهتدى، ومن غشهم غوى واعتدى».

وقال الشوكاني: «ينبغي لمن ظهر له غلط الإمام في بعض المسائل أن يناصحه ولا يظهر الشناعة عليه على رؤوس الأشهاد بل كما ورد في الحديث أنه يأخذ بيده ويخلو به ويبذل له النصيحة ولا يذل سلطان الله».

١٩٥ - الثَّانِي عَشَرَ: عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ طَارِقِ بْنِ شِهَابِ الْبُجَلِيِّ الْأَحْمَسِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، وَقَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ: أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ» [رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ].
الْغَرْزُ بَعَيْنٌ مُعْجَمَةٌ مَفْتُوحَةٌ ثُمَّ رَاءٌ سَاكِنَةٌ ثُمَّ زَايٌ، وَهُوَ رَكَابٌ كَوْرُ الْجَمَلِ إِذَا كَانَ مِنْ جِلْدٍ أَوْ خَشَبٍ، وَقِيلَ: لَا يَخْتَصُّ بِجِلْدٍ وَخَشَبٍ.

* سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ، وَقَدْ اسْتَعَدَّ لِرُكُوبِ رَاكِبِهِ. أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ ﷺ: «كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ» أَيُّ: أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيٌ عَنِ مَنكَرٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ يَخْشَى مِنْ سَطْوَتِهِ.

وإنما كان أفضل الجهاد لأنه يدل على كمال يقين فاعله وقوة إيمانه، وشدة إيمانه حيث تكلم بتلك الكلمة عند ذلك الأمير الجائر المهلك عادة بجوره وظلمه ولم يخف منه ولا من جوره وبطشه، بل باع نفسه من الله وقدم أمر الله وحقه على حقه نفسه، وفي هذا مخاطرة أشد من مخاطرة المقاتل في ساحات المعركة، ولكن ينبغي الترفق بالنصح والتلطف بالموعظة لعله يتذكر أو يخشى.

قال النووي: «أما النصيحة لأئمة المسلمين فمعاونتهم على الحق، وطاعتهم فيه، وأمرهم به، وتنبههم وتذكيرهم برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتآلف قلوب الناس لطاعتهم».

وقال الخطابي: «ومن النصيحة لهم الصلاة خلفهم، والجهاد معهم، وأداء الصدقات إليهم، وترك الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم حيف أو سوء عشرة، وأن لا يغروا بالثناء الكاذب عليهم، وأن يدعى لهم بالصلاح».

وعن عياض بن غنم - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله: «**من أراد أن ينصح لذي سلطان في أمر فلا يبيده علانية، وليأخذ بيده، فإن قبل منه فذاك، وإلا كان قد أدى الذي عليه**» [رواه أحمد].

وعن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - قال قيل له ألا تدخل على عثمان فتكلمه؟ فقال: اترون أني لا أكلمه إلا أسمعكم؟ والله لقد كلمته فيما بيني وبينه ما دون أن أفتتح أمراً لا أحب أن أكون أول من فتحه» [رواه مسلم].
قال النووي موضحاً قصد أسامة، قوله «أفتتح أمراً لا أحب أن أكون أول من أفتتحه» يعني المجاهرة بالإنكار على الأمراء في الملاء.
وقال ابن النحاس: «يختار الكلام مع السلطان في الخلوة على الكلام معه على رؤوس الأشهاد».

وقال السعدي - رحمه الله -: «على من رأى منهم ما لا يحل أن ينبههم سراً لا علناً بلطف وعبرة تليق بالمقام».
ثم نبه بقوله: «احذر أيها الناصح لهم على هذا الوجه المحمود - أي سراً بلطف، وليحذر أن تفسد نصيحتك بالتمدح عند الناس، فتقول لهم: إني نصحتهم وقلت وقلت، فإن هذا عنوان الرياء وعلامة ضعف الإخلاص، وفيه أضرار معروفة».

ولا شك أن اختيار الولاية للبطانة الصالحة هو خير ما يؤمل ويبقى.
لما ولي عمر بن عبد العزيز صعد المنبر وكان أول خطبة خطبها: حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فليفارقنا: يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويعيننا على الخير بجهد، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدي، ولا يغتابن عندنا أحداً، ولا يعرض فيما لا يعنيه».
فانقشع عنه الشعراء والخطباء، وثبت معه الفقهاء والزهاد، وقالوا: ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف فعله قوله.

وفي الحديث: الأمر والتناصح بين الرعية والراعي.

١٩٦- الثالث عشر: عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِّ وَهُوَ عَلَى حَالِهِ، فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ» ثُمَّ قَالَ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَسِقُّونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة: ٧٨-٨١] ثُمَّ قَالَ: «كَلَّا، وَاللَّهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنَكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ» [رواه أبو داود، والترمذي وقال: حديث حسن].

* خيرية هذه الأمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال القرطبي: «قوله ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغيير وتواطؤوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم، وكان ذلك سبباً لهلاكهم».

وفي الحديث: ذكر ﷺ كيف بدأ النقص في الدين عند اليهود، وذكر حالهم وأنهم جمعوا بين فعل المنكر والجهر به، وعدم النهي عنه. ولا شك أن السكوت على فعل المعاصي إنما هو تحريض على فعلها وسبب لانتشارها.

وحال اليهود التدرج والوقوع في المعصية، فإن الرجل يلقي الرجل فيحذره ويوبخه على فعل المعصية ويعلمه بحرمة فعله، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه أن يأكل معه ويشرب ويقعد ولا ينكر، فقد استمرراً المنكر ورضي به. فلما كانوا كذلك، ذمهم الله - عز وجل - في كتابه الكريم.

قال ابن عباس: «لعنوا بكل لسان على عهد موسى في التوراة، وعلى عهد داود في الزبور، وعلى عهد عيسى في الإنجيل، ثم قال ﷺ:

«**كلا**» أي، حقاً **«لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم»** بمنعه باليد من الظلم وإن عجز باللسان.

«**ولتأطرنه على الحق أطراً**» أي، لتردنه إلى الحق وتلزمونه بالحق حتى يستقيم فإن لم تفعلوا.

«**أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض**» أي، أو ليخلطن ويسودن قلب من لم يأمر بالمعروف ويأخذ على يد السفية ليقومه.

«**ثم ليلعنكم كما لعنهم**». كما ذكر - تعالى - عن بني إسرائيل في الآية. وفي الحديث حرمة الجلوس مع أهل المنكر. قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ تَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

قال ابن تيمية: «ولا يجوز لأحد أن يحضر مجالس المنكر باختياره لغير ضرورة، كما في الحديث أنه قال: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر»**.

وفي الحديث: وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفيه: لا يكفي مجرد النهي عن المنكر باللسان مع القدرة على المنع باليد والأطر على الحق.

١٩٧-الرَّابِعَ عَشَرَ: عن أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، - رضي الله عنه -.. قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ» [رواه أبو داود، والترمذي والنسائي بأسانيد صحيحة].

* أبو بكر - رضي الله عنه - أعلم الأمة بعد رسول الله ﷺ، قال ابن تيمية - رحمه الله -: «وكان - رضي الله عنه - بحضرة النبي ﷺ يفتي ويأمر وينهى ويقضي ويخطب..»

وقد حج بالناس في السنة التاسعة للهجرة، ومناسك الحج من أصعب المناسك كما ذكر ذلك شيخ الإسلام.

وهذا الحديث يرفع اللبس عن بعض من لم يكن لديه فقه في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقد ذكر الحال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - بقوله: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾.

أي: إنكم تقرأون هذه الآية وتتوهمون أن من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه في نفسه أن لا حرج عليه في عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا شك أن هذا من عدم الفهم الصحيح، فإن الإنسان لا يكون بحال مهتدياً مستقيماً على طاعة الله - تبارك وتعالى - إلا إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر. فالإنسان لا يسلم بحال من الأحوال ولا ينجو عند الله - تعالى - إلا إذا قام بهذه الفريضة العظيمة والشعيرة الكبيرة.

ثم بين - رضي الله عنه - ما سمعه من النبي ﷺ:

«إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ» أي، ليفعل الظلم، ومنه المعصية.

«**فلم يأخذوا على يديه**» بأن يمنعه من ذلك باليد إن قدروا، وإلا فباللسان. فإن عجزوا بأن خافوا على نفس محرمه أو مال، أو أن يقع المنكر عليه في منكر أشد مما أراد فعله فلا حرج عليه.

«**أو شك أن يعمهم الله بعقاب منه**» يقع هذا العقاب على الظالم لظلمه، وعلى غيره لتركه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال النووي - رحمه الله -: «وأما قول الله - عز وجل - ﴿**عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ [المائدة: ١٠٥] فمعناه: أنكم إذا فعلتم ما كلفتم به فلا يضركم تقصير غيركم».

وقال عبد الله بن المبارك - رحمه الله -: هذه الآية أكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن معنى ﴿**عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ**﴾ حفظوها والزموا صلاحها بأن يعظ بعضكم بعضاً، ويرغبه في الخيرات وينزهه عن القبائح والسيئات.

وسنن الله - تعالى - في خلقه ثابتة لا تتغير، ولا تحابي أحداً ولا تتخلف عند وجود أسبابها.

ومن سنن الله الماضية أن يسلط عقوباته على المجتمعات التي تفرط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفي الحديث: أن في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر آثاراً سيئة من أظهرها: كثرة الخبث، وانتشار الفساد، وتسليط الأعداء، واستعلاء أهل الشر والفساد، وعدم إجابة الدعاء، والنقص في الأموال والأنفس والثمرات، والهلاك الشامل، والعقوبات العامة وغيرها.

قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «والاهتداء إنما يتم بأداء الواجب، فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قام بغيره من الواجبات لم يضره ضلال الضلال».

٢٤. باب تغليظ عقوبة من أمر بمعروف أو نهى عن منكر وخالف قوله ففعله

الأبواب السابقة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا الباب في التغليظ على من أمر بمعروف أو نهى عن منكر وخالف ففعله قوله. والمعروف: ضد المنكر، وهو ما عرفه الناس وعلموه وسكنوا إليه ولم ينكروه.

قال ابن تيمية - رحمه الله -: «فالأمر الذي بعث الله به رسوله هو الأمر بالمعروف».

والمنكر: ضد المعروف وهو ما جهله الناس ولم يعرفوه. قال القرطبي: «وهو يعم جميع المعاصي والرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها».

قال الله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

يخاطب الله - عز وجل - أحبار اليهود على سبيل التقرير والتوبيخ، لمن يأمر بالخير من صلة رحم وإحسان، وطاعة الله - تعالى -، وتركون أنفسكم وأنتم تقرأون التوراة والإنجيل وفيهما النهي عن هذا الوصف الذميم. وهذه الآية توبيخ لمن أمر بالطاعة ولم يفعل.

وقال تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون] [الصف: ٢-٣].

خاطبهم - عز وجل - بالإيمان ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ثم وبخهم ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ثم بين أن هذا الفعل مكروه عند الله، مبغض عنده أشد البغض ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾.

روي أن المسلمين قالوا: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ﴾ [الصف: ٤] فولوا يوم أحد، فنزلت الآية.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

أي، عظم، والمقت أشد البغض.

وقال - تعالى - إخباراً عن شعيب - عليه السلام -: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالَفَكُمْ إِلَى مَا أَنْتَهَكُم عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

أي، ما أريد أن أنهاكم عن شيء ثم أرتكبه. وفي ما ذكره الله - عز وجل - عن شعيب أن الذي يفعل ما ينهى عنه، أو يترك ما أمر به، مخالف لطريقة الرسل - عليهم الصلاة والسلام -.

وهذا هو الأصل، وقد ذكر عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: أنه قبل أن يأمر الناس بأمر وينهاهم عن نهى، يجمع أهل بيته ويقول: «أما بعد، فإني سأدعو الناس إلى كذا وكذا، وأنهاهم عن كذا وكذا، وإني أقسم بالله العظيم لا يبلغني عن أحد منكم أنه فعل ما نهيت الناس عنه، أو ترك ما أمرت الناس به إلا نكلت به نكالا شديداً».

ثم يخرج - رضي الله عنه - فيدعوا الناس إلى ما يريد، فما يتأخر أحد عن السمع والطاعة.

وقال سعيد بن جبير: «لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء، لما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر» وهو في هذه الحالة مذموم على ترك الطاعة وفعل المعصية لعلمه بها، ومخالفته على بصيرة.

قال الشاعر:

لأنه عن خلق وتأتي مثله

عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

١٩٨- وعن أبي زيد أسامة بن حارثة، - رضي الله عنهما -، قال: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يَقُولُ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ فِي الرَّحَا، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، كُنْتُ أَمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ» [متفق عليه].
 قوله: «تَنْدَلِقُ» هُوَ بِالْدَّالِ الْمَهْمَلَةِ، وَمَعْنَاهُ تَخْرُجُ.
 و«الْأَقْتَابُ»: الْأَمْعَاءُ، وَأَحَدُهَا قَتَبٌ.

* في هذا الحديث بيان عقوبة من يخالف قوله فعله، لعصيانه مع العلم بالمقتضي للخشية والمباعدة عن المخالفة.
 فقد قال ﷺ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ». أي، تأتي به الملائكة، فتلقيه في النار حتى تخرج أمعاؤه من جوفه خروجاً سريعاً. وهذا نوع من العذاب الشديد.
 «فيدور بها كما يدور الحمار في الرحا» أي، يدور الرجل فتلتف عليه أمعاؤه فيبقى هكذا يدور وهي تدور عليه عبرة ونكالا.
 ثم قال ﷺ بعد وصف هذا المشهد الفضيع: «فيجتمع عليه أهل النار» لأنهم يتعجبون مما جرى له وكان يبعدهم مما جرى له.

«فيقولون يا فلان، مالك، ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر».
 تعجبوا لأن من شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون أسرع استجابة وحفظاً وصوناً لنفسه.
 «فيقول بلى، كنت أمر بالمعروف ولا آتية، وأنهى عن المنكر وآتية».
 وضع وبين لهم ما جرى له وما سببه، وهو أنه يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويقع فيه، فشدد عليه الأمر، فمثلاً يأمر بالصلاة ولا يصلي،

ويأمر بالزكاة ولا يُزكي، وينهى عن الربا ويأكله، وينهى عن الغيبة وهو يفعلها، وهكذا.

قال القرطبي: «إنما اشتد عذاب هذا لأنه كان عالمًا بالمعروف وبالمنكر، وبوجوب القيام عليه بوظيفة كل واحد منهما، ومع ذلك فلم يعمل بشيء منه، فصار كأنه مستهين بحرمات الله - تعالى -، ومستخف بأحكامه، ثم إنه لم يتب عن شيء من ذلك، وهذا من جملة من لم ينتفع بعلمه»
ومن فوائد الحديث: أن فعل المعروف وترك المنكر يمنعان من دخول النار.

وأن الناس يوم القيامة يعرف بعضهم بعضًا، ويصارع بعضهم بعضًا بعد كشف الستر وظهور الغيب.

وفيه، وعيد شديد لمن خالف قوله فعله، وأن العذاب يشدد على العالم إذا عصى أعظم من غيره، كما يضاعف له الأجر إذا عمل بعلمه. لأنه قدوة يقتدى به، وهذا من هتك الستر بينه وبين ربه، فيظهر بمظهر ومخبر مختلف والعياذ بالله.

وهذا الحديث: يحذر من مخالفة الأفعال للأقوال، وأن على الإنسان أن يكون قدوة حسنة عاملاً بما يأمر به، تاركاً ما ينهى عنه، ولا يعنى ذلك أن يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الناس ونصحهم وإرشادهم، فهو مع سعيه لإصلاح نفسه يسعى لإصلاح الغير.

قيل للحسن: إن فلاناً لا يعظ، ويقول: أخاف أن أقول ما لا أفعل، فقال الحسن: «وأينا يفعل ما يقول، ود الشيطان أنه ظفر بهذا فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر».

وقال سعيد بن جبير: «لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء، ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر».

٢٥- باب الأمر بأداء الأمانة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].
سبب نزول هذه الآية: أن النبي ﷺ أخذ مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة - رضي الله عنه - يوم فتح مكة، ثم أعادها إليه، وقال «خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم» يعني حجابة الكعبة. [رواه الطبراني].
وقال ابن عباس وغيره: «نزلت في الأمراء، وأن يؤدوا الأمانة فيما اتتمنهم الله من أمر رعيته».

والأمانات: جمع أمانة: وهي المحافظة على الحقوق وأدؤها إلى أصحابها. والأمانة ضد الخيانة.

وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله - تعالى - على عباده من الصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها. ومن حقوق العباد على بعضهم كالودائع وغير ذلك.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

قال ابن عباس: «هي الفرائض التي افترضها الله على العباد». وقيل: الظاهر أنها كل ما يؤمن عليه من أمر ونهي وشأن من دين ودنيا، فالشرع كله أمانة، والظاهر عرض الأمانة، أي الأوامر والنواهي.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي: خفن من حملها، وذلك بإدراك خلقه الله - تعالى - فيها وهو غير مستحيل.

﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ مع ضعف بنيته ورخاوة قوته.

﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ﴿٧٢﴾ وصفه به لكونه تاركاً أداء الأمانة وإلا فحملها فضيلة ومنقبة يؤجر عليها ويثاب.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا...﴾ .

قال: «فلما عرضت على آدم، قال: أي رب وما الأمانة؟ قال: إن أديتها جُزيت، وإن ضيعتها عوقبت.

قال: أي رب حملتها بما فيها؟ قال: فما مكث في الجنة إلا قدر ما بين العصر إلى غروب الشمس، حتى عمل بالمعصية فأخرج منها».

ومن اتصف بكمال الأمانة فقد استكمل الدين، ومن فقد صفة الأمانة فقد نبذ الدين، كما روى الطبراني من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له».

وكلما انتقصت الأمانة نقصت شعب الإيمان، لما روى مسلم من حديث حذيفة - رضي الله عنه - قال حدثنا رسول الله ﷺ «أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال»، أي: في وسطها، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة، ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال: «ينام الرجل النومة، فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت، ثم ينام الرجل فتقبض الأمانة من قلبه»، حتى قال في آخر الحديث «فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، وحتى يقال للرجل: ما أظرفه ما أعقله، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان».

١٩٩ - عن أبي هريرة، - رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ» [متفقٌ عليه].
وفي رواية: «وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ».

* ذم الله - عز وجل - النفاق والمنافقين في آيات كثيرة، وحذر منهم في سورة البقرة وغيرها، وذكر أوصاف المنافقين وأفعالهم في سبعة وثلاثين موضعاً من القرآن، وسمى سورة كاملة في القرآن باسمهم (سورة المنافقون) وأفاضت السنة المطهرة في ذكر أوصافهم وهتك أستارهم.

والنفاق: هو مخالفة الظاهر للباطن، وهو قسمان: نفاق في الاعتقاد وهو الأكبر وهو كفر، وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه. ونفاق في الأفعال وهو الأصغر، وهو الرياء فيظهر الإنسان علانية صالحة، ويبطن ما يخالف ذلك. والمنافق: هو من أظهر الإسلام وأبطن غيره.

وفي هذا الحديث ذكر النبي ﷺ أن «آية المنافق ثلاث» أي، علامته ثلاث صفات، من اجتمعت فيه صار في النفاق الذي هو الكفر ولا ينفعه دعوى الإسلام، وقيل: خرج عن كمال الإسلام وهذا هو الأرجح.

فإن من فعل هذه المعاصي ولم يعتقد حلها كان عاصياً لا كافراً، وسمى منافقاً على التشبيه بهم، لأن هذه الصفات أكثر ما تظهر من المنافقين. وهذه الثلاث صفات هي:

«إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ» أي، حدث بخلاف الواقع، وهذه الخصلة أقبح الثلاث. فإن الكاذب يصور المعدوم موجوداً، والموجود معدوماً، والحق باطلاً، والباطل حقاً، والخير شراً، والشر خيراً، فيفسد على الإنسان تصوره وعلمه.

«وإذا وعد أخلف» أي، لم يف بوعده بل نكث وأخلف ما وعد.
«وإذا أوّتمن خان» لأن الأمانة حقها أن تؤدى، والخيانة مخالفة لها. وهذا هو الشاهد من هذا الحديث للباب.

وفي رواية: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم» أي، وإن عمل عمل المؤمنين من الصلاة والصوم وغيرها من العبادات، وزعم أنه كامل الإسلام.
فإذا اتصف أحد المسلمين - الذي يشهدون بكلمة التوحيد - بشيء من هذه الصفات، فقد اتصف بصفات المنافقين التي ذمها الله - عز وجل - وعمل أعمالهم، وحصل له من النفاق بقدر عمله.

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: «وجه الاختصار على هذه العلامات الثلاثة أنها منبهة على ما عداها، إذ أصل الديانة منحصر في ثلاث: القول، والفعل، والنية، فنبه على فساد القول بالكذب، وعلى فساد الفعل بالخيانة، وعلى فساد النية بالخلف».

قال ابن رجب: «الذي فسره به أهل العلم المعتبرون أن النفاق في الشرع ينقسم إلى قسمين: أحدهما النفاق الأكبر، وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه، وهذا هو النفاق الذي كان على عهد رسول الله ﷺ ونزل القرآن بدم أهله وتكفيرهم، وأخبر أن أهله في الدرك الأسفل من النار.

والثاني: النفاق الأصغر: وهو نفاق العمل: وهو أن يظهر الإنسان علانية صالحة، ويبطن ما يخالف ذلك. وحاصل الأمر: أن النفاق الأصغر كله يرجع إلى اختلاف السريرة والعلانية، كما قاله الحسن.

والنفاق الأصغر وسيلة إلى النفاق الأكبر، كما أن المعاصي يريد الكفر، وكما يخشى على من أصر على المعصية أن يسلب الإيمان عند الموت، كذلك يخشى على من أصر على خصال النفاق أن يسلب الإيمان فيصير منافقاً خالصاً».

وسُئل الإمام أحمد: ما تقول فيمن لا يخاف على نفسه النفاق؟ قال: «ومن يأمن على نفسه النفاق».

وفي حديث عبد الله بن عمرو: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، (إذا أوْتَمَن خان)، و(إذا حدث كذب)، و(إذا خاصم فجر)، و(إذا عاهد غدر)» [رواه البخاري].

ومعنى «إذا خاصم فجر» وهي أن يدعي ما ليس له، أو أن ينكر ما يجب عليه.

قال ابن عثيمين: «وهذه الخصال الأربع إذا اجتمعت في المرء كان منافقاً خالصاً، لأنه استوفى خصال النفاق والعياذ بالله، وإذا كان فيه واحدة، منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها».

قال الحسن: «لو كان للمنافقين أذناب لما استطعنا أن نمشي في الطرقات». وفي الحديث: التحذير من النفاق وأهله.

٢٠٠ - وعن حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه، قال: حدثنا رسول الله ﷺ، حديثين قد رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر: حدثنا «أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ، وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ، ثُمَّ حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الْأَمَانَةِ فَقَالَ: يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتَقْبِضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظِلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتَقْبِضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظِلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْمَجَلِّ، كَجَمْرٍ دَخَرَجَتْهُ عَلَى رَجُلِكَ، فَتَفْطِرَاهُ مُتَبَرِّأً وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ أَخَذَ حَصَاةً فَدَخَرَجَهَا عَلَى رَجُلِهِ، فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ، فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ حَتَّى يُقَالَ: إِنَّ فِي بَنِي فَلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا، حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أَجْلَدُهُ مَا أَظْرَفُهُ، مَا أَعْقَلُهُ، وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ. وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أَبَالِي أَتَيْكُمْ بَايَعْتُ، لَنْ كَانَ مُسْلِمًا لِيرُدَّنْهُ عَلَيَّ دِينُهُ، وَلَنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ يَهُودِيًّا لِيرُدَّنْهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ، وَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ أَبَايِعُ مِنْكُمْ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا» [متفق عليه].

* ذكر حذيفة بين اليمان حديثين عن رسول الله ﷺ الأول في الأمانة، والثاني في نزوعها، وأنه - رضي الله عنه - رأى الأول، و ينتظر وقوع الثاني. وفي هذا الحديث إخبار عن رفع الأمانة في الأمة، وهو من باب أشرط الساعة الصغرى التي أطلع الله نبيه عليها.

وقد ذكر ذلك النبي ﷺ في الحديث عن الأمانة فقال: «**إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال**» أي، في أصلها وذلك بالفطرة التي فطر الناس عليها. لأن الله - عز وجل - جبل القلوب الكاملة على القيام بحق الأمانة، ثم نزل القرآن والسنة فزادهم تشييتاً.

والمراد بالأمانة: التكليف الذي كلف الله به عباده، والعهد الذي أخذه عليهم. ومنها الصدق في المعاملة، وأداء الحقوق إلى أصحابها. قال ابن التين: «الأمانة كل ما يخفى ولا يعلمه إلا الله من المكلف».

ثم أخبر عن رفع الأمانة ونزعها من قلوب الرجال، قال ﷺ: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه» لسوء فعل منه تسبب عنه ذلك.
«فيظل أثرها مثل الوكت» أي، أثرها التام «مثل أثر المجمل» وهو أثر جمر دحرجته على رجلك فنفظ.

قال صاحب التحرير: معنى الحديث: «أن الأمانة تزول عن القلوب شيئاً فشيئاً، فإذا زال أول جزء منها زال نوره وخلفه ظلمة كالوكت، وهو أعراض لون مخالف اللون الذي قبله، فإذا زال شيء آخر صار كالمجمل وهو أثر محكم لا يكاد يزول إلا بعد مدة. وهذه الظلمة فوق التي قبلها، ثم شبه زوال ذلك النور بعد وقوعه في القلب وخروجه بعد استقراره فيه واعتقابه الظلمة إياه بجمر يدحرجه على رجله حتى يؤثر فيها ثم يزول الجمر ويبقى النفط، وأخذه الحصاة ودحرجته إياها أراد به زيادة البيان والإيضاح».

ثم قال ﷺ: بعد ذلك «فيصبح الناس» أي، بعد تلك النومة التي رفع فيها الأمانة «يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة» ومن شدة تفلت الأمر «حتى يقال إن في بني فلان رجلاً أميناً» أي، ذا أمانة لندرته وقلته.

«حتى يقال للرجل ما أجلده ما أظرفه ما أعقله وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان» أي، يوصف بأوصاف في الصبر والظرافة والعقل، وقلبه خال من الإيمان.

قال ابن حجر: «وحاصل الخبر أنه أنذر برفع الأمانة، وأن الموصوف بالأمانة يسلبها حتى يصير خائناً بعد أن كان أميناً، وهذه إنما يقع على ما هو شاهد من خالط أهل الخيانة، فإنه يصير خائناً لأن القرين يقتدي بقرينه».

ثم قال ﷺ: «ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيكم بايعت، لئن كان مسلماً ليردنه علي دينه، ولئن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه علي ساعيه» أي، كان

هناك زمان يبايع فيه كائناً من كان، فإن كان مسلماً ليردعه ويرده دينه وإيمانه، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليس عنده من الإيمان ما يردع ليقوم من الوالي عليه فسيخرج حقي منه.

ومع ذهاب الأمانة من الناس، قال ﷺ: **«وأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً»** أي، حين فقدت الأمانة لا يبايع إلا من عُرف بها وهم فلان وفلان.

وهذا الحديث من أعلام النبوة، فقد زالت الأمانة إلا ما قلَّ منها في صدور الرجال، وارتفعت إلا في القليل من الناس. وحل محلها الغش والخداع والمظاهر البراقة، والكذب والمدح والثناء بغير وجه حق.

٢٠١ - وعن حُذَيْفَةَ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، - رضي الله عنهما -، قالَا: قال رسول الله ﷺ: «يَجْمَعُ اللهُ، - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -، النَّاسَ فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تَزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ -، فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا اسْتَفْتَحْ لَنَا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةٌ أَيْبَكُمْ، لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ، قَالَ: فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ، اعْمُدُوا إِلَى مُوسَى الَّذِي كَلَّمَهُ اللهُ تَكْلِيمًا، فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةَ اللهِ وَرُوحَهُ فَيَقُولُ عِيسَى: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ. فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ، فَيَقُومُ فَيُؤَذِّنُ لَهُ، وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحْمُ فَيَقُومَانِ جَنْبَتِي الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَيَمُرُّ أَوْلَكُمْ كَالْبَرْقِ» قُلْتُ: بِأَبِي وَأُمِّي، أَيُّ شَيْءٍ كَمَرُ الْبَرْقِ؟ قَالَ: «أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمَرُ الرِّيحِ ثُمَّ كَمَرُ الطَّيْرِ؟ وَأَشَدُّ الرِّجَالِ تَجَرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ، حَتَّى تَفْعَزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيَّ الرَّجُلُ لَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا، وَفِي حَافَتِي الصِّرَاطِ كَلَالِبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أَمَرْتُ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمُكَرَّدَسٌ فِي النَّارِ» وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ إِنْ قَعَرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفًا. [رواه مسلم].

قوله: «وَرَاءَ وَرَاءَ» هُوَ بِالْفَتْحِ فِيهِمَا. وَقِيلَ: بِالضَّمِّ بِلَا تَنْوِينٍ، وَمَعْنَاهُ: لَسْتُ بِتِلْكَ الدَّرَجَةِ الرَّفِيعَةِ، وَهِيَ كَلِمَةٌ تُذَكِّرُ عَلَى سَبِيلِ التَّوَاضُّعِ. وَقَدْ بَسَطْتُ مَعْنَاهَا فِي شَرْحِ صَحِيحِ مُسْلِمٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

* ذكر النبي ﷺ حال الناس يوم القيامة في ذلك الموقف العظيم، ومنهم الأنبياء - عليهم السلام -، حيث تدنو الشمس فوقهم قدر ميل، وتشتد عليهم الأمور، فيلحقهم من الهم والغم ما لا يطيقون، فيقول بعضهم لبعض: ألا تطلبون من يشفع لنا عند الله لننجو مما نحن فيه. فيأتون آدم - عليه السلام -.

فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة. فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم» وهي أكل الشجرة التي نهاه الله عنها. فيأتون إبراهيم - عليه السلام - فيقول: «لست بصاحب ذلك المنيف إنما كنت خليلاً من وراء وراء».

قال ابن الأنباري: «الخليل معناه المحب الكامل المحبة، والمحبوب الموفى بحقيقة المحبة، أي اللذان ليس في حبهما نقص ولا خلل».

ثم يأتون موسى فيقول لست بصاحب ذلك، إذهبوا إلى عيسى، وهكذا لشدة تواضع الأنبياء يتدافعون الأمر، حتى تصل إلى محمد ﷺ فيقوم فيؤذن له، وترسل الأمانة والرحم فيقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً، والصراط جسر ممدود على متن جهنم، وحال الناس كما قال ﷺ: «**فيمر أولكم كالبرق ثم كمر الريح ثم كمر الطير**»، حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل لا يستطيع السير إلا زحفاً. كل يسير على قدر عمله فمنهم مسرع وآخر يجيء زحفاً على حسب سعيه ومسارعته في الطاعة والعبادة.

ونبيكم ﷺ من كمال شفقتة ومزيد عنايته قائم على الصراط لما في المرور على الصراط من الأهوال وزل بعض الأقدام، وهو ﷺ يقول «رب سلم». وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج، ومكردس في النار.

ثم قال ﷺ: «**والذي نفسي أبي هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعون خريفاً**» وهذا من هول جهنم، وبعد قعرها والعياذ بالله.

هذا حديث جليل القدر مشتمل على فوائد كثيرة، والشاهد من الحديث للترجمة قوله ﷺ: «**وترسل الأمانة والرحم فيقومان جنبتي الصراط**» وذلك لعظم أمرهما وكبر موقعهما، فمن أدى الأمانة ووصل الرحم نجا وفاز.

٢٠٢ - وعن أبي خُبَيْبٍ بضم الخاء المعجمة عبد الله بن الزُّبَيْرِ، - رضي الله عنهما - قال: لَمَّا وَقَفَ الزُّبَيْرُ يَوْمَ الْجَمَلِ دَعَانِي فَقُمْتُ إِلَيَّ جَنْبَهُ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ إِنَّهُ لَا يُقْتَلُ الْيَوْمَ إِلَّا ظَالِمٌ أَوْ مَظْلُومٌ، وَإِنِّي لَا أَرْنِي إِلَّا سَاقَتِلَ الْيَوْمَ مَظْلُومًا، وَإِنَّ مِنْ أَكْبَرِ هَمِّي لَدِينِي أَفْتَرَى دِينَنَا يَبْقَى مِنْ مَالِنَا شَيْئًا؟ ثُمَّ قَالَ: بَعِ مَالَنَا وَأَقْضِ دَيْنِي، وَأَوْصِ بِالثُّلُثِ، وَثُلُثُهُ لَبْنِيهِ، يَعْنِي لِبَنِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ثُلُثُ الثُّلُثِ. قَالَ: فَإِنْ فَضَلَ مِنْ مَالِنَا بَعْدَ قَضَاءِ الدَّيْنِ شَيْءٌ فَثُلُثُهُ لَبْنِيكَ، قَالَ هَشَامٌ: وَكَانَ وَلَدُ عَبْدِ اللَّهِ قَدْ وَازَى بَعْضَ بَنِي الزُّبَيْرِ خُبَيْبَ وَعَبَّادَ، وَلَهُ يَوْمَئِذٍ تِسْعَةُ بَنِينَ وَتِسْعُ بَنَاتٍ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَجَعَلَ يُوصِينِي بِدِينِهِ وَيَقُولُ: يَا بُنَيَّ إِنْ عَجَزْتَ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَاسْتَعْنِ عَلَيْهِ بِمَوْلَايَ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا دَرَيْتُ مَا أَرَادَ حَتَّى قُلْتُ يَا أَبْتَ مَنْ مَوْلَاكَ؟ قَالَ: اللَّهُ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا وَقَعْتُ فِي كُرْبَةٍ مِنْ دِينِهِ إِلَّا قُلْتُ: يَا مَوْلَى الزُّبَيْرِ اقْضِ عَنْهُ دَيْنَهُ، فَيَقْضِيهِ. قَالَ: فَقَتِلَ الزُّبَيْرُ وَلَمْ يَدَعْ دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِلَّا أَرْضَيْنِ، مِنْهَا الْغَابَةُ وَإِحْدَى عَشْرَةَ دَارًا بِالْمَدِينَةِ. وَدَارَيْنِ بِالْبَصْرَةِ، وَدَارًا بِالْكُوفَةِ وَدَارًا بِمَصْرَ. قَالَ: وَإِنَّمَا كَانَ دَيْنُهُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ أَنَّ الرَّجُلَ يَأْتِيهِ بِالْمَالِ، فَيَسْتَوْدِعُهُ إِيَّاهُ، فَيَقُولُ الزُّبَيْرُ: لَا وَلَكِنْ هُوَ سَلَفٌ إِنِّي أَخْشَى عَلَيْهِ الضَّيْعَةَ. وَمَا وَلِي إِمَارَةً قَطُّ وَلَا جَبَايَةً وَلَا خَرَجًا وَلَا شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي غَزْوٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَوْ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ - رضي الله عنهم -، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَحَسَبْتُ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الدَّيْنِ فَوَجَدْتُهُ أَلْفِي أَلْفٍ وَمِائَتِي أَلْفٍ، فَلَقِي حَكِيمُ بْنُ حَزَامٍ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي كَمْ عَلَى أَخِي مِنَ الدَّيْنِ؟ فَكَتَمْتُهُ وَقُلْتُ: مِائَةُ أَلْفٍ. فَقَالَ: حَكِيمٌ: وَاللَّهِ مَا أَرَى أَمْوَالَكُمْ تَسْعُ هَذِهِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَتْ أَلْفِي أَلْفٍ؟ وَمِائَتِي أَلْفٍ؟ قَالَ: مَا أَرَأَكُمْ تُطِيقُونَ هَذَا، فَإِنْ عَجَزْتُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَاسْتَعِينُوا بِي. قَالَ: وَكَانَ الزُّبَيْرُ قَدْ اشْتَرَى الْغَابَةَ بِسَبْعِينَ وَمِائَةَ أَلْفٍ، فَبَاعَهَا عَبْدُ اللَّهِ بِالْأَلْفِ وَسِتِّمِائَةِ أَلْفٍ، ثُمَّ قَامَ فَقَالَ: مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيْرِ شَيْءٌ فَلْيُؤَاغِبْنَا بِالْغَابَةِ، فَأَتَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ، وَكَانَ لَهُ عَلَى

الزُّبَيْرُ أَرْبَعُمِائَةَ أَلْفٍ، فَقَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ: إِنْ شِئْتُمْ تَرَكْتُهَا لَكُمْ؟ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَا، قَالَ فَإِنْ شِئْتُمْ جَعَلْتُموها فِيمَا تُؤَخَّرُونَ إِنْ أَخَرْتُمْ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَا، قَالَ: فَاقْطَعُوا لِي قِطْعَةً، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَكَ مِنْ هَاهُنَا إِلَى هَاهُنَا. فَبَاعَ عَبْدُ اللَّهِ مِنْهَا فَقَضَى عَنْهُ دَيْنَهُ، وَوَفَّاهُ وَبَقِيَ مِنْهَا أَرْبَعَةُ أَسْهُمٍ وَنِصْفٌ، فَقَدِمَ عَلَى مُعَاوِيَةَ وَعِنْدَهُ عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ، وَالْمُنْذَرُ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَابْنُ زَمْعَةَ. فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: كَمْ قَوَّمتِ الْعَايَةُ؟ قَالَ: كُلُّ سَهْمٍ بِمِائَةِ أَلْفٍ قَالَ: كَمْ بَقِيَ مِنْهَا؟ قَالَ: أَرْبَعَةُ أَسْهُمٍ وَنِصْفٌ، فَقَالَ الْمُنْذَرُ بْنُ الزُّبَيْرِ: قَدْ أَخَذْتُ مِنْهَا سَهْمًا بِمِائَةِ أَلْفٍ، وَقَالَ عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ: قَدْ أَخَذْتُ مِنْهَا سَهْمًا بِمِائَةِ أَلْفٍ. وَقَالَ ابْنُ زَمْعَةَ: قَدْ أَخَذْتُ مِنْهَا سَهْمًا بِمِائَةِ أَلْفٍ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: كَمْ بَقِيَ مِنْهَا؟ قَالَ: سَهْمٌ وَنِصْفٌ سَهْمٌ، قَالَ: قَدْ أَخَذْتُهُ بِخَمْسِينَ وَمِائَةِ أَلْفٍ. قَالَ: وَبَاعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ نَصِيبَهُ مِنْ مُعَاوِيَةَ بِسِتِّمِائَةِ أَلْفٍ. فَلَمَّا فَرَّغَ ابْنُ الزُّبَيْرِ مِنْ قِضَاءِ دَيْنِهِ قَالَ بَنُو الزُّبَيْرِ: أَقْسِمُ بَيْنَنَا مِيرَاثًا. قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَقْسِمُ بَيْنَكُمْ حَتَّى أَنْتَدي بِالمَوْسَمِ أَرْبَعَ سِنِينَ: أَلَا مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيْرِ دَيْنٌ فَلْيَأْتِنَا فَلْنَقْضِهِ. فَجَعَلَ كُلُّ سَنَةٍ يُنَادِي فِي المَوْسَمِ، فَلَمَّا مَضَى أَرْبَعُ سِنِينَ قَسَمَ بَيْنَهُمْ وَدَفَعَ الثُّلُثَ وَكَانَ لِلزُّبَيْرِ أَرْبَعُ نِسْوَةٍ، فَأَصَابَ كُلَّ امْرَأَةٍ أَلْفُ أَلْفٍ وَمِائَتَا أَلْفٍ، فَجَمِيعُ مَالِهِ خَمْسُونَ أَلْفَ أَلْفٍ وَمِائَتَا أَلْفٍ. [رواه البخاري].

❖ في هذا الحديث: فضل الصحابة وعلو منزلتهم، والواجب الكف عما شجر بينهم والترضي عنهم، فقد قاموا بهذا الدين وناصروا رسول الله ﷺ، وذهبت أرواحهم فداء في سبيل الله. ومع منزلة الزبير بن العوام - وهو حوارى رسول الله ﷺ - إلا أنه خاف من أمر الدين حتى بعد الموت، وفي الحديث وهو الشاهد، المحافظة على الأمانات وعظم أمرها، وأن من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، وأن من استعان بالله أعانه. وفيه: مشروعية الوصية عند الحرب.

٢٦ - باب تحريم الظلم والأمر بردّ المظالم

الظلم خصلة ذميمة، وعادة قبيحة، يتسلط فيها القوي على الضعيف، وقد ذمها الله - عز وجل - في كتابه الكريم، وعلى لسان سيد المرسلين. والتكالب على الدنيا والحرص عليها والبخل بها كثيراً ما يجر الناس إلى الظلم والعدوان، والمعاصي والآثام.

والظلم: هو النقص، وهو وضع الشيء في غير محله. قال تعالى: ﴿كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: لم تنقص منه شيئاً. وقد حرم - عز وجل - الظلم على نفسه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] وقال - جل وعلا - في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» [رواه مسلم].

وفي الحديث: إرساء لقواعد العدل في النفوس وتحريم الظلم والعدوان. والظلم نوعان: ظلم يتعلق بحق الله - عز وجل -، وظلم يتعلق بحق العباد، وأعظم الظلم هو المتعلق بحق الله - عز وجل - والإشراك به.

وفي الحديث أن النبي ﷺ سُئِلَ: أي الذنب أعظم؟ فقال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» [رواه البخاري] ويليه الظلم في الكبائر، ثم الظلم في الصغائر.

والنوع الثاني من الظلم: هو في حقوق العباد، ويدور على ثلاثة أشياء وردت في حديث النبي ﷺ في حجة الوداع، حيث قال: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا في بلدكم هذا» [رواه البخاري].

وقد جاء في الحديث عند أبي داود، أنه ﷺ قال: «الظلم ثلاثة: فظلم لا يتركه الله، وظلم يغفر، وظلم لا يغفر، فأما الظلم الذي لا يغفر، فالشرك لا يغفره الله، وأما الظلم الذي يغفر، فظلم العبد فيما بينه وبين ربه، وأما الظلم الذي لا يترك، فظلم العباد، فيقتص الله بعضهم من بعض».

وقال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].
 يذكر - عز وجل - في الآية الكريمة حال الظالمين يوم القيامة، وأنه ليس لهم قريب ولا صاحب ولا صديق ينفعهم لينقذهم من شدة العذاب.
 وقال تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [الحج: ٧١].
 أي، ليس لهم ناصر يدفع عنهم عذاب الله إذا نزل بهم وحل.
 وقد أورد المؤلف - رحمه الله تعالى - باب تحريم الظلم، والأمر برد المظالم، أي إلى أهلها، وهذا الباب يشتمل على أمرين:
 الأمر الأول: تحريم الظلم.
 الأمر الثاني: وجوب رد المظالم.

وجاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحللها منها، فإنه ليس ثم دينار، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرح عليه» [رواه البخاري].

وجاء عند قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] قال شيخ الإسلام: «فمن سلم من أجناس الظلم الثلاث، يعنى الظلم الذي هو الشرك، وظلم العباد، وظلمه نفسه بما دون الشرك، كان له الأمن التام والإهداء التام».

وأما الأحاديث فمنها حديث أبي ذر - رضي الله عنه - المتقدم في آخر باب المجاهدة.

٢٠٣ - وعن جابر - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ» [رواه مسلم].

* الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، وأصله الجور ومجاوزة الحد، وعدم إيصال الغير إلى حقه، وأشكاله متنوعة، وصنوفه متعددة، منها: ظلم الإنسان نفسه، وظلم الإنسان إنساناً آخر، سواء كان مؤمناً أم كافراً، ويمتد الظلم ليصل إلى الحيوانات وغيرها.

وفي قوله ﷺ: «اتَّقُوا الظلم» أي، احذروا واجتنبوا وابتعدوا عن الظلم. «فإن الظلم ظلمات» التعبير بالظلمات يدل على التكاثر عند الجزاء والحساب.

وقوله: «ظلمات» قيل على ظاهره فيكون ظلمات على صاحبه لا يهتدي يوم القيامة سبيلاً حين يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبإيمانهم. قال النووي: «اتَّقُوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، ويحتمل أن الظلمات هنا الشدائد، وبه فسروا قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّكُمْ مِنْ ظُلُمَاتٍ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٦٣] أي، شدائدهما، ويحتمل أنها عبارة عن الأنكال والعقوبات».

والظلم نوعان:

الأول: ظلم العبد لنفسه: وذلك بأن يوردها المهالك، وأشدّه الشرك بالله - عز وجل - قال تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦].

الثاني: ظلم العبد للعباد وهو نوعان: ظلم بترك الواجب لهم، وظلم بالعدوان عليهم بأخذ أو بانتهاك حرمتهم.

فمثال الأول ما ذكره النبي ﷺ في قوله: «**مطل الغني ظلم...**» أي، منع حق الإنسان ومماطلته في ذلك، لأن الأصل المبادرة بالوفاء إذا كان له قدرة، ولا يحل له أن يؤخر، فإن أخر الوفاء دون مانع كان ظالماً.

«**واتقوا الشح**» وهو الحرص على المال وجمعه. والشح هو الطمع فيما عند الغير، وقيل: هو البخل الشديد.

«**فإنه أهلك من كان قبكم**» أهلكهم، لأن الحرص على جمع المال قد يجره إلى المكاسب الحرام، وظلم العباد بأخذ حقوقهم، أو عدم اعطاءهم مالهم، أو مماطلتهم.

«**حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**» أي، أن هذا الشح حمل من كان قبلنا على سفك الدماء، وقتل بعضهم بعضاً ليأخذ ماله أو يمنعه حقه، واستحلال المحارم رغبة في الوصول إلى المال بقطع الطريق والاعتداء على الآمنين، أو أنهم احتالوا إلى التعامل بما حرم الله - تعالى - عليهم، كالربا وغيره.

وجاء في الآية مدح لمن سلم من الشح، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وفي الحديث: الحث على اجتناب الظلم والبخل، فإن الظلم من كبائر الذنوب، وفيه أن التكالب على الدنيا والحرص عليها والبخل بها كثيراً ما يجبر الناس إلى المعاصي والآثام ويوقعهم في الفواحش والمنكرات.

٢٠٤ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «لَتَوُذَّنَ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقِرْنَاءِ» [رواه مسلم].

* الدنيا دار عمل ولا حساب، والآخرة دار حساب ولا عمل، والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والسعيد من خرج من هذه الدنيا سالماً من مظالم الناس فإن حق الله مبني على المسامحة، وحقوق الناس على المشاحة والميزان بمثاقيل الذر يوم القيامة.

في هذا الحديث الحث على أداء الحقوق والمسارة إلى ذلك قبل يوم الحساب، وقد نبه النبي ﷺ إلى أن الحقوق باقية إذا لم تستوفي إلى يوم القيامة، حيث موقف القصاص، وإعطاء كل ذي حق حقه.

وأمر ﷺ بأداء الحقوق، وخوَّف بأنه في يوم القيامة يوم العدل والقصاص كل يأخذ حقه، ولا يضيع لأحد حقه.

قال ﷺ: «حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» أي، يؤخذ حق الشاة الجلحاء التي ليس لها قرن من الشاة القرناء التي لها قرن، والغالب أن التي لها قرن إذا ناطحت الجلحاء التي ليس لها قرن تؤذيها أكثر. فإذا كان يوم القيامة قضى لدين هاتين الشاتين، واقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء.

والقصاص من القرناء للجلحاء ليس من قصاص التكليف إذا لا تكليف عليها بل هو قصاص مقابلة.

قال النووي: «في هذا الحديث تصريح بحشر البهائم يوم القيامة، وإعادتها كما يعاد أهل التكليف من الأدميين، وكما يعاد الأطفال والمجانين، ومن لم تبلغهم الدعوة، وعلى هذا تظاهرت دلائل الكتاب والسنة، قال الله تعالى ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥] وليس من شرط الحشر والإعادة في

القيامة المجازاة والعقاب والثواب، فأما القصاص من القرناء للجلحاء، فليس هو قصاص التكليف، إذ لا تكليف عليه، بل هو قصاص مقابلة»
قال ابن عثيمين: «وفي هذا الحديث دليل على أن البهائم تحشر يوم القيامة وهو كذلك وتحشر الدواب، وكل ما فيه روح يحشر يوم القيامة».
فإذا كان هذا حال البهائم، فإن يوم القيامة يقتص فيه للمظلوم ممن ظلمه، ويؤخذ من حسنات الظالم، وإذا نفدت حسناته أخذ من سيئات المظلوم فتطرح عليه.

وإذا دعا المظلوم على الظالم بقدر مظلّمته في الدنيا واستجاب الله دعاءه فيه، فقد اقتص لنفسه قبل أن يموت. أما إذا سكت ولم يدع عليه ولم يعف عنه، فإنه يُقتص له منه يوم القيامة».

وفي الحديث: بيان عدل الله - عز وجل - وأنه يقاص عباده يوم القيامة، ومن ذلك أن الله يحشر الحيوانات ليقص منها إقامة للعدل المطلق، ثم تكون تراباً كما ثبت في الحديث.

وعلى المسلم المبادرة إلى أداء حقوق الغير قبل أن لا يكون درهم ولا دينار.
قال ابن الجوزي: «الظلم يشتمل على معصيتين، أخذ مال الغير بغير حق، ومبارزة الرب بالمخالفة، والمعصية فيه أشد من غيرها، لأنه لا يقع غالباً إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار، وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب لأنه لو استنار بنور الهدى لا اعتبر».

فإذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل لهم بسبب التقوى اكتنفت ظلمات الظلم الظالم حيث لا يغني عنه ظلمه شيئاً.

وفي الحديث: التأكيد والتنبية على أن حقوق العباد لا يتجاوز عنها حتى تؤدي إلى أصحابها.

٢٠٥ - وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: كُنَّا تَحَدَّثُ عَنْ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَالنَّبِيِّ ﷺ يَبِينُ أَظْهَرُنَا، وَلَا نَذْرِي مَا حَجَّةُ الْوَدَاعِ، حَتَّى حَمَدَ اللَّهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ ذَكَرَ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ فَاطْنَبَ فِي ذِكْرِهِ، وَقَالَ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَنْذَرَهُ أُمَّتُهُ: أَنْذَرَهُ نُوحٌ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِ، وَإِنَّهُ إِنْ يَخْرُجَ فِيكُمْ فَمَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ شَأْنِهِ فَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكُمْ، إِنْ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرٍ، وَإِنَّهُ أَعْوَرُ عَيْنِ الْيُمْنَى، كَانَ عَيْنُهُ عَيْنَةً طَافِيَةً. أَلَا إِنْ اللَّهُ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ثَلَاثًا «وَيُلْكُمُ أَوْ: وَيَحْكُمُ، انْظُرُوا: لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ» [رواه البخاري، وروى مسلم بعضه].

* في السنة العاشرة من الهجرة حج النبي ﷺ، وسميت تلك الحجة حجة الوداع، وسميت بذلك لأن الرسول ﷺ ودعهم فيها حين قال: **«لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا»** وهي آخر حجة حجها الرسول ﷺ. وسميت أيضاً حجة البلاغ، لأن النبي ﷺ قال: **«هل بلغت»** وفيها قام النبي ﷺ في الناس خطيباً. **«فحمد الله وأثنى عليه»** أي، وصفه بصفات الكمال ونزّهه عما لا يليق به. ثم أنذر ﷺ أُمَّتَهُ، وحذرها من المسيح الدجال كعادة الأنبياء في تحذير أممهم منه. ثم قال ﷺ: **«وإنه إن يخرج فيكم فما خفي عليكم من شأنه فليس يخفى عليكم»** وسمى المسيح: لأنه ممسوح العين. والدجال: المبالغ في الكذب بادعائه الإحياء والإماتة وغيرهما. ثم ذكر ﷺ صفته **«إن ربكم ليس بأعور، وإنه أعور عين اليمنى»** وأنه أعور. والعور، ذهاب حس إحدى العينين فلا يبصر بها. **«كأن عينه عنبه طافية»** أي، بارزة. وهذه صفة نقص، والله - عز وجل - كامل الصفات.

ثم وعظهم النبي وحذرهم من سفك الدماء بدون وجه حق، وحذر من الظلم في الدماء والأموال، مثلما حرم - تعالى - هذا اليوم العظيم في مكة البلد العظيم، في شهر ذي الحجة. وهذا هو الشاهد للباب.

«ألا إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم» أي، أنه - جل وعلا - حرم الدماء والأموال بين المسلمين، وأوجب صيانتها وعدم الاعتداء عليها.

«كحرمة يومكم هذا» وهو يوم النحر.

«في بلدكم هذا» أي، مكة.

«في شهركم هذا» أي، شهر ذي الحجة.

ثم سألهم ألا هل بلغت ما يجب إبلاغه لكم؟ قالوا: نعم.

قال ﷺ **«اللهم فاشهد»** ثلاثاً. وكان النبي ﷺ إذا تكلم بكلام أعاده ثلاثاً ليفهم منه.

ثم قال ﷺ **«ويحكم»** أي، ويلكم وهي كلمة تحذير وتنبيه.

«انظروا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض». أي، لا

ترجعوا بعد فراقني من موقفي هذا، أو المراد بعد موتي، كفاراً متصفين بهذه الصفة، يعني يضرب بعضكم رقاب بعض، ويظلم بعضكم بعضاً، فلا تسفكوا دماءكم، ولا تهتكوا أعراضكم، ولا تستبيحوا أموالكم.

قال ابن تيمية - رحمه الله -: «الحسنات كلها عدل، والسيئات كلها ظلم، وأن الله إنما أنزل الكتب وأرسل الرسل ليقوم الناس بالقسط. والقسط والظلم نوعان: نوع في حق الله - تعالى - كالتوحيد، فإنه رأس العدل، والشرك رأس الظلم. ونوع في حق العباد، إما مع حق الله كقتل النفس أو مفرداً كالدين الذي ثبت برضا صاحبه».

وفي الحديث: تحريم الظلم، والأمر برد المظالم.

٢٠٦- وعن عائشة - رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ ظَلَمَ قَيْدَ شَبْرٍ مِنَ الْأَرْضِ طُوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ» [متفقٌ عليه].

* حذر الإسلام من الظلم قليله وكثيره، وبكل صورته وأشكاله. وفي هذا الحديث تحريم الظلم والوعيد الشديد وتغليظ عقوبته في الظلم في الأراضي.

وظلم الأراضي واغتصابها من أهلها من أكبر الكبائر لأن النبي ﷺ «لعن من غير منار الأرض» [رواه مسلم].

قال العلماء: منار الأرض حدودها، وعلاماتها، فإذا غيرَ إنسان من هذه الأرض، بأن أدخل شيئاً من هذه الأرض إلى أرض غيره، فإنه ملعون على لسان النبي ﷺ. واللعنة: هي الطرد والإبعاد عن رحمة الله. وفي الحديث: «من ظلم قيد شبر» أي، من انتزع حق غيره وأخذه بدون حق ووجه شرعي.

«قيد شبر» ذكر الشبر إشارة إلى استواء القليل والكثير في الوعيد. وقوله «شبر» ليس هذا على سبيل القيد، بل هو على سبيل المبالغة. أي، وإن كان قليلاً شبراً من أرض. «طوقه».

قال الخطابي: قوله «طوقه» له وجهان: أحدهما: أن معناه أنه يكلف نقل ما ظلم منها في القيامة إلى المحشر، ويكون كالطوق في عنقه، لا أنه طوق حقيقة. الثاني: أن معناه أنه يعاقب بالخسف إلى سبع أرضين، أي، فتكون كل أرض في تلك الحالة طوقاً في عنقه.

قال القرطبي: «هذا وعيد شديد يفيد أن أخذ شيء من الأرض بغير حقه من أكبر الكبائر على أي وجه كان، من غصب أو سرقة، أو خديعة، قليلاً كان أو كثيراً».

ومن ظلم وتُعدي على حقه فإن الله يستجيب دعاءه على من ظلمه. وقد ذكر ابن حجر امرأة يقال لها أروى بنت أويس، شكت الصحابي الجليل سعيد بن زيد - رضي الله عنه - وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، شكته إلى مروان بن الحكم أمير المدينة، وقالت: إنه أخذ شيئاً من أرضها، فقال سعيد - رضي الله عنه - أنا أخذ شيئاً من أرضها بعدما سمعت رسول الله ﷺ يقول في ذلك، فقال له مروان: وماذا سمعت من رسول الله ﷺ، قال: سمعته يقول «**من اقتطع شبراً من أرض طوقه من سبع أرضين**» فقال مروان لا أسألك بعد هذا بينة، يكفيني قولك هذا، فقال سعيد - رضي الله عنه -: اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها واجعل قبرها في دارها، وفي رواية: واجعل ميتتها في هذه الأرض. قال راوي الحديث عروة بن الزبير: فوالله لقد عمي بصرها حتى رأيتها امرأة مسنة تلتمس الجدران بيديها وكانت في هذه الأرض بئر، وكانت تمشي في أحد الأيام فسقطت في البئر وكان ذلك البئر قبرها.

قال الشيخ السعدي عند قوله ﴿ **إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [الأأنعام: ٢١] «فكل ظالم وإن تمتع في الدنيا بما تمتع به فنهايته فيه الاضمحلال والتلف» وقال النووي: «في هذا الحديث تحريم الظلم، وتحريم الغصب، وتغليظ عقوبته، وفيه إمكان غصب الأرض»

وفي الحديث: الحث على المبادرة لأداء الحقوق إلى أصحابها مهما قلت.

٢٠٧ - وعن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»، ثُمَّ قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

* أورد المؤلف - رحمه الله تعالى - هذا الحديث في باب تحريم الظلم ورد المظالم، فقد قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» أي: يمهل له حتى يتمادى في ظلمه فلا يعاجله العقوبة، ثم إذا أخذه لم يرفع عنه الهلاك وعلى هذا تفسير الظلم بالشرك على إطلاقه، وإن فسر بما هو أعم فيحمل كل على ما يليق به. وهذا الحديث سلوى للضعفاء والمظلومين، والحديث يجمع سُتَيْن من سنن الله - عز وجل -:

الأولى: سنة الإملاء والإمهال للظالمين وهو التأخير.

الثانية: أخذ الله للظالمين وعدم إفلاتهم من عقاب الله الأليم.

وأفاد الحديث: أن الله يمهل الظالم ولا يهمله، فهو - سبحانه - لا يعاجل العقوبة، ولكن إذا عاقب كان عقابه شديداً.

والعاقل لا يغتر إذا لمس وعلم من نفسه ظمماً ولم يصبه أذى، بل يعلم أنه لا بد له من الحساب، فيسارع إلى التوبة ورد المظالم وأداء الحقوق إلى أصحابها.

قال القرطبي: «يملي، يمهل ويؤخر، ويطيل في مدته، ويصح بدنه، ويكثر ماله وولده ليكثر ظلمه، كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا تُمْلَىٰ هُمْ لَيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وهذا كما فعل الله بالظلمة من الأمم السالفة والقرون الخالية، حتى إذا عم ظلمهم وتكامل جرمهم، أخذهم الله أخذة رابية، فلا ترى لهم من باقية، وذلك سنة الله في كل جبار عنيد»

والظلم داع إلى نزول العذاب، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥].

ومن شؤم معصية الظلم أن مداه قريب وإن طال، وحسابه عسير وإن تأخر إلى حين.

وقد توعد الله - عز وجل - الظالمين بعذاب أليم: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

ولعظم أمر الحقوق، واستنجد المظلوم بملك الملوك ومغيث المظلومين، فإن الله - عز وجل - يسمعها ويوجب دعوة المظلوم حتى ولو من كافر، أو فاسق. قال ابن تيمية: «الظلم ثلاثة أنواع، فالظلم الذي هو شرك لا شفاعاة فيه، وظلم الناس بعضهم بعضاً لا بد فيه من إعطاء المظلوم حقه لا يسقط حق المظلوم لا بشفاعة ولا غيرها، ولكن قد يعطى المظلوم من الظالم كما قد يغفر المظالم نفسه بالشفاعة، فالظالم المطلق ماله من شفيع مطاع وأما موحد فلم يكن ظالماً مطلقاً بل هو موحد مع ظلمه لنفسه وهذا إنما نفعه في الحقيقة إخلاصه لله فبه صار من أهل الشفاعاة».

ومن عاقبة الظلم حرمان الهداية والتوفيق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

ومن عاقبة الظلم، حرمان محبة الله - عز وجل -، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠] قال السعدي: «أي الذين يجنون على غيرهم ابتداء، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلم»

قال عليه السلام «اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» [رواه البخاري]. قال معاوية - رضي الله عنه -: «إني لأستحي أن أظلم من لا يجد عليّ ناصرًا إلا الله».

قال في تنبيه الغافلين: «ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال لتكون من المحسنين:

أحدهما: إنك إن لم تنفعه فلا تضره.

والثانية: إنك إن لم تسره، فلا تغمه.

والثالثة: إن لم تمدحه فلا تدمه».

وفي الحديث: أن الله يمهل الظالم ولا يهمله، وإذا أخذه، أخذه أخذ عزيز مقتدر.

٢٠٨ - وعن مُعَاذٍ - رضي الله عنه - قال: بعثني رسولُ الله ﷺ فقال: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَذَلِكَ، فَأَعْلَمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَذَلِكَ، فَأَعْلَمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ. وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ» [متفق عليه].

* في هذا الحديث أرشد النبي ﷺ معاذ بن جبل - رضي الله عنه - عندما بعثه داعياً ومعلماً إلى أهل اليمن، وأوصاه بوصايا، وأخبره بحالهم وأنهم أهل كتاب وهم اليهود والنصارى، وعندهم علم عن بعثه النبي محمد ﷺ كما في كتبهم، ليتهاً لمناظرتهم، ولينزلهم منزلتهم فيجادلهم بالتي هي أحسن، وكان أول ما بدأ النبي ﷺ وصية لمعاذ أن بدأ بالتوحيد. فقال: «ادعهم إلى شهادة أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ» فإن الله - عز وجل - هو المعبود بحق لا معبود سواه، ولا رب غيره، وثنى بدعوتهم إلى التصديق برسالة الرسول ﷺ وأنه مرسل من عند الله.

فإذا آمنوا بالله وصدقوا برسوله.

«فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة».

أي، فادعهم إلى الصلاة وهي الركن الثاني من أركان الإسلام، وهي عماد الدين وقوامه. وأعلمهم أن الله أوجب عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة. وهكذا تدرج ﷺ في تعليم معاذ بن جبل، فبعد الشهادتين الصلاة ثم الزكاة فقال ﷺ:

«فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من

أغنيائهم فترد على فقرائهم» وهذه هي الزكاة المفروضة، وهي صدقة واجبة

في المال تؤخذ من الغني وترد إلى الفقير. وأن الزكاة تؤخذ من أغنياء البلد وترد على فقرائهم، ولا تنقل إلى بلد آخر إلا إذا زادت عن حاجة المستحقين فيه، وكان في غيره مستحقون محتاجون إليها، وقد ذكر الله أهل الزكاة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [التوبة: ٦٠].

وسميت صدقة لأنها تدل على صدق إيمان باذليها.

ثم نبهه النبي ﷺ فقال: «فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم». أي، إذا انقادوا وأجابوا إلى إعطاء فريضة الزكاة فلا تأخذ من أموالهم الطيب ولا تقصد كرائم الأموال وأنفسها، ولكن خذ المتوسط لا تظلم ولا تُظلم.

وحيث أن الزكاة لمواساة الفقراء فلا يناسب ذلك الإجحاف بمال الأغنياء إلا إن رضوا بذلك لأن في أخذ كرائم أموالهم ظلم لهم. قال الكرمانى: «ولم يذكر الصوم والحج، لأن اهتمام الشارع بالصلاة والزكاة أكثر، ولا يسقطان عن المكلف أصلاً، بخلاف الصوم فإنه يسقط بالفدية والحج فإن الغير يقوم مقامه لزمانه».

ثم حذر النبي ﷺ من الظلم وهو الشاهد لهذا الباب بقوله «واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب». فإن دعوة المظلوم تصعد إلى الله - تعالى - ولا يحجبها ولا يمنعها شيء. والمراد أنها مقبولة وإن كان عاصياً. قال ابن حجر: «أي تجنب الظلم لئلا يدعو عليك المظلوم».

ففي حديث أنس - رضي الله عنه - الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ «اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً، فإنه ليس دونها حجاب».

وفي حديث أبي هريرة الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ: «دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجراً، ففجوره على نفسه».

قال ابن العربي: «إلا أنه وإن كان مطلقاً فهو مقيد بالحديث الآخر: إن الداعي على ثلاث مراتب: إما أن يعمل له ما طلب، وإما أن يدخر له أفضل منه، وإما أن يدفع عنه من السوء مثله، وهذا كما قيد مطلق قوله تعالى: ﴿أَمِّنْ تُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، بقوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١].

وقال «دعوة المظلوم» لم يعين مسلماً أو كافراً، بل قال «دعوة المظلوم» سواء أكان مؤمناً أم كافراً، براً، أم فاجراً. لأن الانتصار للظلم الواقع عليه. وفي الحديث: وجوب تبليغ الكفار ودعوتهم إلى الإسلام قبل قتالهم.

٢٠٩ - وعن أبي حميد عبد الرحمن بن سعد الساعدي - رضي الله عنه - قال: استعمل النبي ﷺ رجلاً من الأزد يقال له: ابن اللثية على الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم، وهذا أهدي إليّ فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد فإني استعمل الرجل منكم على العمل ممّا ولاني الله، فيأتي فيقول: هذا لكم، وهذا هدية أهديت إليّ، أفلا جلس في بيت أبيه أو أمه حتى تأتبه إن كان صادقاً، والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله - تعالى -، يحمله يوم القيامة، فلا أعرف أحد منكم لقي الله يحمله بغيره رغاء، أو بقره لها خوار، أو شاة تيعر» ثم رفع يديه حتى روي بياض إبطيه فقال: «اللهم هل بلغت» ثلاثاً، [متفق عليه].

* هذا الحديث في حق الولاية ومن ولاهم الله أمر المسلمين، وعمال الخليفة وأمرأه وقادته، وكل من يوليه ولاية كبرت أم صغرت، وهم العمدة والأسس التي تقوم عليها الدولة، بهم تثبت أركان العدالة من الرفق والترحام والترابط، والأمانة والقوة إن هم على الطريق الحق المستقيم، ونقيض ذلك على النقيض.

وقد استعمل النبي ﷺ وكلف رجلاً من الأزد وهم قبيلة من قبائل العرب في اليمن على الصدقة. أي جمع الزكاة. فلما قدم قال: هذا لكم أيها المسلمون، وهذا أهدي إليّ. فتعجبوا من أين لك هذا وأنت لا تملك من قبل شيئاً؟ فلما رأى النبي ﷺ الحال قام على المنبر وخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه.

ثم ذكر لهم أنه يولي الرجل العمل على ما ولاه الله إياه، فيأتي ويقول: هذا لكم وهذا لي. وهذه هدية أهديت إليه، فهذه الهدايا حق للمسلمين أهديت إليك لأجل الولاية التي وليناك إياها. ولو جلس في بيت أبيه أو أمه حتى تأتبه

إن كان صادقاً. وحذر من أخذ شيء من ذلك فإنه يحمله يوم القيامة على عنقه، لأنها تشبه الرشوة المحرمة.

قال النووي في سبب منعه هدايا العمل في هذا الحديث: «بيان أن هدايا العمال حرام وغلول، لأنه خان في ولايته وأمانته ولهذا ذكر في الحديث عقوبته حمله ما أهدي إليه يوم القيامة، كما ذكر مثله في الغال. وقد بين ﷺ في نفس الحديث السبب في تحريم الهدية عليه وأنها بسبب الولاية، بخلاف الهدية لغير العامل، فإنها مستحبة، وحكم ما يقبضه العامل ونحوه باسم الهدايا: أنه يرد إلى المهدي، فإن تعذر فإلى بيت المال».

وهذا الحديث، أورده الإمام البخاري في باب احتيال العامل ليهدى إليه، وهذا نوع من الظلم.

قال المهلب: «حيلة العامل ليهدى له تقع بأن يسامح من عليه الحق، فلذلك قال: **«هلا جلس في بيت أمه لينظر هل يهدى إليه»**. تعبير له، وتحقير لشأنه.

وقال ابن بطال: «دل الحديث على أن الهدية للعامل تكون لشكر معروفة أو للتحبب إليه، أو للطمع في وضعه من الحق، فأشار النبي ﷺ إلى أنه فيما يهدى له من ذلك كأحد المسلمين لافضل له عليهم وأنه لا يجوز الاستئثار به».

ثم حذر ﷺ بقوله **«والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حق إلا لقي الله يحمله يوم القيامة»**.

قال القرطبي: «فيه أن هدايا الأمراء والقضاة وكل من ولي أمراً من أمور المسلمين العامة حكمها حكم الغلول في التغليظ والتحريم، لأنه أكل المال بالباطل والرُّشا»

وقال - رحمه الله -: «يفهم من تكرار «اللهم هل بلغت» ومن هذه الحالة فيها تعظيم ذلك وتغليظه».

وفي الحديث: بيان أن الرزق يجلب بالسعي والحركة، ولذلك في قوله النبي ﷺ: «أفلا جلس في بيت أبيه أو أمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً».

وفي الحديث: دليل على أن هدية العمال راجعة إلى بيت المال، وأن ما أخذه بغير حقه يجيء به يحمله يوم القيامة تعذيباً له وزيادة في فضيحته، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١].

وكتب إلى عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - بعض عماله يستأذنه في تحصين مدينته؟ فكتب إليه: «حصنها بالعدل، ونقّ طرقها من الظلم».

٢١٠ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ، مِنْ عَرْضِهِ أَوْ مِنْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَخَذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتٍ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ» [رواه البخاري].

* الدنيا دار عمل ولا حساب، والآخرة دار حساب ولا عمل. وتجري بين الناس في معاملاتهم اليومية من الأمور ما هو مباح وما هو محرم. ومن أشد أنواع الحرام الظلم لعباد الله في دمائهم وأموالهم وأعراضهم كما قال ﷺ «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه».

وفي هذا الحديث بين النبي ﷺ الظلم وحال الظالم، ردعاً للظالم عن ظلمه، وكفه عن غيه، وبيان خسارته، فقال ﷺ:

«مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ» أي، مَنْ وَقَعَ مِنْهُ ظُلْمٌ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ.

ثم فصل ﷺ في نوع الظلم فقال:

«مَنْ عَرْضُهُ» مثل أَنْ يَكُونَ قَدْ سَبَّهُ أَوْ اغْتَابَهُ.

والعرض: موضع المدح والذم من الإنسان.

«أَوْ مِنْ شَيْءٍ» أي، مِنَ الْمَالِ وَنَحْوِهِ.

«فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ» المراد من «اليوم» أيام الدنيا.

«قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ» أَنْ يَسْتَسْمَحَهُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَاعَاتِ

الحساب حيث لا يفتدى بدينار ولا درهم ولا مال، إنما هي الحسنات.

قال بعض العلماء في مسألة العرض: إِنْ كَانَ الْمَظْلُومُ لَمْ يَعْلَمْ فَلَا حَاجَةَ أَنْ

يُعْلِمَهُ، مِثْلَ أَنْ يَكُونَ قَدْ سَبَّهُ فِي مَجْلَسٍ مِنَ الْمَجَالِسِ وَتَابَ، فَإِنَّهُ لَا حَاجَةَ أَنْ

يُعْلِمَهُ، وَلَكِنْ يَسْتَغْفِرُ لَهُ وَيَدْعُو لَهُ، وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِالْخَيْرِ فِي الْمَجَالِسِ الَّتِي كَانَ

يَسْبُو فِيهَا، وَبِذَلِكَ يَتَحَلَّلُ مِنْهُ.

«إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته» أي، إن كان للظالم حسنات وعمل صالح أخذت منه بقدر مظلمته وأعطيت للمظلوم.

«وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه» أي، إن لم يكن له حسنات، أو نفدت حسناته أخذ من سيئات المظلوم فحملت عليه أوزاراً على ظهره.

قال ابن القيم: «سبحان الله، كم بكت في تنعم الظالم عين أرملة، واحترقت كبدي يتيم، وجرت دمعته مسكين ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ [٤٦] ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [٨٨: ص].

ما أبيض لون رغيفهم حتى أسود لون ضعيفهم، وما سمت أجسامهم حتى انتحلت أجسام ما استأثروا عليه.

وقال الحسن: «ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة، لا يأكلون فيها أكلة، ولا يشربون فيها شربة، حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشاً، واحترقت أجوافهم جوعاً، انصرف - يقصد العصاة والمجرمين - إلى النار فسقوا من عين آنية قد حان حرها واشتد لفحها.

وكان شريح القاضي يقول: «سيعلم الظالمون حق من انتقصوا، إن الظالم لينتظر العقوبة، والمظلوم ينتظر النصر والثواب».

قال شيخ الإسلام: «إن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة وعاقبة العدل كريمة».

وفي الحديث: دلالة أن الأعمال الصالحة يفسدها ويذهب بثمرتها ظلم الناس وإيذاؤهم.

٢١١ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ» [متفق عليه].

* المسلم الحقيقي الذي تظهر عليه آثار الإسلام وشعائره وأماراته، هو الذي كف أذى لسانه ويده عن المسلمين، فلا يصل إلى المسلمين منه إلا الخير والمعروف والإحسان.

والاعتداء والأذى قد يكون بالفعل أو القول، كما قال ﷺ:

«المسلم» أي، الكامل الإسلام. وكمال الإسلام متعلق بصفات آخر كثيرة أيضاً، وإنما خص هذا لاهتمام الشارع الحكيم بكف الأذى عن المسلمين. «من سلم المسلمون من لسانه» فقد سلموا من لسانه فلا يسبهم، ولا يلعنهم، ولا يشتمهم، ولا يغتابهم، ولا ينم بينهم، فهو كاف لسانه.

وكف اللسان من أشد ما يكون على الإنسان لسهولة حركته ولكثرة سقطاته وفلتاته، وفي قوله ﷺ «لسانه» يدخل فيه من أخرج لسانه على وجه الاستهزاء. «ويده» أي، وسلم المسلمون من يده، فلا يعتدي عليهم بالضرب أو الجرح، أو أخذ المال أو غير ذلك من أنواع الإيذاء، وفي ذكر اليد دون غيرها من الجوارح نكتة، فيدخل فيها اليد المعنوية كالاستيلاء على حق الغير بغير حق.

وقدم ﷺ اللسان على اليد لأن إيذائه أكثر وقوعاً من إيذاؤها، وأسهل مباشرة وأشد نكايه، وإيذاء اللسان يعم ويلحق عدداً أكثر مما يلحقه إيذاء اليد، فقد يؤدي القريب والبعيد، والحاضر والغائب، والحي والميت، والفرد والعائلة والقبيلة. وقيل: خص اللسان بالذكر لأنه المعبر عما في النفس واليد لأن أكثر الأفعال لها.

ومن آفات اللسان: الكلام فيما لا يعني، والخوض في الباطل، والتعمر في الكلام، والفحش والسب والبذاءة، والمزاح الكثير المؤدي للعداوة

والبغضاء، والسخرية والاستهزاء، وافشاء السر، وإخلاف الموعد، والكذب في القول، واليمين الكاذبة، والغيبة، والنميمة وغيرها.

ولهذا جاء في الحديث: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**» [رواه الترمذي]. وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول: «من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثر ذنوبه، ومن كثر ذنوبه كانت النار أولى به». ولكي يسلم المُتحدث من الزلل في حديثه والنقص في مقاله فإن عليه شروطاً أربعة:

الأول: أن يكون الكلام لداع يدعو إليه، إما في اجتلاب نفع، أو دفع ضرر.

الثاني: أن يأتي به في موضعه، أو يتوخى به إصابة فرصته.

الثالث: أن يقتصر منه على قدر الحاجة.

الرابع: أن يتخير اللفظ الذي يتكلم به.

إذا توافرت هذه الشروط فعليك بالحديث، وإلا فإن الصمت يجمع للرجل خصلتين: السلامة في دينه، والفهم عن صاحبه.

قال الخطابي: «المراد أفضل المسلمين من جمع إلى أداء حقوق الله - تعالى - أداء حقوق المسلمين».

ولا شك أن من علامة المسلم التي يستدل بها على حسن إسلامه، سلامة المسلمين من شره وأذاه، بل إحسان المعاملة مطلوب مع غير المسلمين، بل مع غير الإنسان من الطيور والحيوان.

ثم قال ﷺ «**والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**» والمهاجر من الهجر، وهو الترك لما نهى وحرمه الله - عز وجل -.

وفي الحديث: دليل على أن من كف لسانه ويده عن المسلمين أنه كامل الإسلام، ومن هجر ما نهى الله عنه فهو المهاجر حقاً، واشتمل الحديث على جوامع من معاني الكلم والحكم.

٢١٢ - وعنه - رضي الله عنه - قال: كَانَ عَلَى ثَقَلِ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ كَرْكِرَةٌ، فَمَاتَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هُوَ فِي النَّارِ» فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فَوَجَدُوا عِبَادَةً قَدْ غَلَّهَا. [رواه البخاري].

* أورد المؤلف - رحمه الله تعالى - هذا الحديث في باب الجهاد وتحريم الظلم فيه، فإن الجهاد شعيرة عظيمة أجزل الله فيها للمجاهدين الأجر والمثوبة في الدنيا والآخرة، إنما النصر أو الشهادة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١] وقد أحل الله الغنائم لهذه الأمة، ولم يحلها للأمم السابقة. والغنيمة: هي المال المأخوذ من الكفار بالقتال.

وفي هذا الحديث: التحذير من الغلول والتشديد فيه، والغلول أخذ شيء من الغنائم قبل أن توزع، وسمي بذلك لأن أخذه يغلبها في متاعه، أي يخفيه. وسميت غلولاً لأن الأيدي منها مغلولة.

وفيه: التحذير من الخيانة، فإن الخيانة في الأموال العامة من الكبائر التي يعاقب مرتكبها في النار، لأنه من أكل أموال المسلمين بالباطل وفي الحديث: أن رجلاً يقال له (كركرة) كان على رحل النبي ﷺ ومتاعه المحمول على الدابة، وكان يمسك دابته، يقوم به ويعتني فيه.

فمات كركرة، فقال رسول الله «هو في النار» أي: يعذب في النار على معصيته، أو هو في النار إن لم يعف الله عنه.

فتعجبوا، فهو قريب من خدمة الرسول ﷺ وفي جهاد، وذهبوا ينظرون في متاعه فوجدوا عبادة قد غلبها، أي، خانها وأخذها من الغنيمة. والعبادة: كساء فيه خطوط سود.

وإذا كان هذا الرجل من المجاهدين وممسك بدابة الرسول ﷺ، وغل شيئاً لا يذكر، فكيف بمن لا تلحقه هذه الصفات، ويغل أكثر من ذلك بكثير. وقد أجمع العلماء على أن الغلول كبيرة من الكبائر، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١].

قال أبو هريرة - رضي الله عنه -: «قام فينا رسول الله ﷺ فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره، أي، ذكر أنه أمر عظيم شنيع جداً».

قال النووي: «هذا تصريح بغلظ تحريم الغلول» وفي حديث زيد بن خالد الجهني أن رجلاً من المسلمين توفي بخير، وأنه ذكر لرسول الله ﷺ أمره، فقال: «**صلوا على صاحبكم**»، فتغيرت وجوه القوم لذلك، فلما رأى ذلك قال: «**إنه غل في سبيل الله**»، ففتشنا متاعه، فوجدنا خرزاً من خرز اليهود ما يساوي درهمين.

وفي الحديث الآخر: «**من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطاً فما فوقه كان غلولاً يأتي به يوم القيامة**» [رواه مسلم].

وفي الحديث: بيان تحريم قليل الغلول وكثيره، ولذلك فإن خيانه أموال المسلمين العامة من كبائر الذنوب توجب لمرتكبها النار سواء أكانت قليلة أم كبيرة.

وفيه: دليل على عظم وخطورة الغصب والاستيلاء على أموال المسلمين العامة ولو كان المرء ظاهره الصلاح ويؤدي الفرائض لأن حقيقة التقوى اجتناب المكاسب المحرمة.

٢١٣ - وعن أبي بكرَةَ نُفَيْعِ بْنِ الْحَارِثِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ: السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ: ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَيَّ وَشُعْبَانَ، أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ؟» قُلْنَا: بَلَى. قَالَ: «فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ. قَالَ: «أَلَيْسَ الْبَلَدَةُ الْحَرَامُ؟» قُلْنَا: بَلَى. قَالَ: «فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ. قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قُلْنَا: بَلَى. قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلَا فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، أَلَا لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضٌ مَنْ يَبْلُغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ مَنْ سَمِعَهُ» ثُمَّ قَالَ: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» [متفقٌ عليه].

* لا يزال المؤلف - رحمه الله تعالى - يورد الأحاديث في باب تحريم الظلم والأمر برد المظالم، وفيها الزجر والتخويف من هذه الخصلة الذميمة، خصلة الظلم والتعدي على حقوق الغير.

وجاء في الحديث قوله ﷺ: «الزمان قد استدار» كان أهل الجاهلية يغيرون في الأشهر، وكانوا إذا احتاجوا للقتال في المحرم قدموا صفرًا على المحرم، لأن هناك ثلاثة أشهر محرمة متوالية، فيشق عليهم فيها الإمساك عن القتال، فلذلك قدموا بعض الأشهر على بعض، فبين ﷺ في حجة الوداع أن الزمان قد استدار ورجع كما شاء الله ذلك.

ثم ذكر ﷺ وهذا هو الشاهد من الحديث: «**فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام**» أكد ﷺ تحريم هذه الثلاثة: الدماء والأموال والأعراض، فكلها محرمة.

والدماء تشمل النفوس وما دونها «**فلا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاثة** **الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»، والأموال تشمل القليل والكثير فلا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه. والأعراض: الأنفس والأحساب.

والعرض: موضع المدح والذم من الإنسان، سواء كان في نفسه أو سلفه، والأعراض تشمل الزنا واللواط والقذف وهي محترمة لا يحل للمسلم أن يغتاب أخاه أو أن يقذفه. وربما تشمل الغيبة والسب والشتم. وبدأ ﷺ بالدماء مع أن الأعراض أخطر لأن الابتلاء بها أكثر وخطرها أكبر، ومن ثم أكبر الكبائر بعد الشرك القتل.

«**وأموالكم وأعراضكم**» قدم الأموال على الأعراض لأن ابتلاء الناس بالجناية فيها أكثر.

«**وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم**» قال القرطبي: «أي، ستقفون في العرض الأكبر موقف من حبس حتى تعرض عليه أعماله ويسأل عنها، وهذا إخبار بمقام عظيم، وأمر هائل، لا يقدر قدره، ولا يتصور هوله، فأصبح الناس عن التفكير فيه معرضين، وعن الاستعداد له متشاغلين فالأمر كما قال - تعالى - في كتابه المكنون ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ [ص: ٦٧ - ٦٨].

ثم أعلمهم النبي حرمة يوم النحر، وهو من الأشهر الحرم، ثم حرمة البيت الحرام، وأنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم.

ثم قال عليه السلام: «ألا فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض». قال ابن عثيمين: «لأن المسلمين لو صاروا يضرب بعضهم رقاب بعض صاروا كفاراً، لأنه لا يستحل دم المسلم إلا الكافر، فالمسلم لا يمكن أن يشهر السلاح على أخيه، لكن لا أحد يشهر السلاح على المسلم إلا الكافر، ولهذا وصف النبي - عليه الصلاة والسلام - المسلمين إذا اقتتلوا بأنهم كفار فقال: «ألا فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».

ثم قال: «ألا هل بلغت اللهم أشهد». تقرير وإشهاد في هذه المواطن العظيمة، بأنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة.

٢١٤ - وعن أبي أُمَامَةَ إِيَّاسَ بْنِ ثَعْلَبَةَ الْحَارِثِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ أَمْرِي مُسْلِمٌ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» فَقَالَ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «وَإِنْ قَضِيًّا مِنْ أَرَاكَ» [رواه مسلم].

* حرم الله - عز وجل - الظلم والتعدي على حقوق الغير، فقال تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨] أي، لا تأخذوها بالسبب الباطل. وعد بعض العلماء هذه الآية الكريمة أصلاً من الأصول التي يقوم عليها إصلاح المعاملات.

وقال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩] قال ابن كثير: «ينهى - تبارك وتعالى - عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضاً بالباطل. أي، بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية». وقال السعدي: ينهى - تعالى - عباده المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، وهذا يشمل أكلها بالغصب والسرقات، وأخذها بالقمار والمكاسب الرديئة».

الناس في هذه الدنيا يبيعون ويشترون، ويقع بينهم خصومات في الأراضي وغيرها، لكن ذلك لا يبيح التعدي عليهم وأخذ شيء من حقوقهم من مال أو أرض أو غيره، ويشتد الإثم إذا كان أخذها وتوصل إليها باليمين الفاجرة، حتى وإن كانت يسيرة مثل قضيب الأراك. والأراك: هو عود من شجرة يستاك به.

وقد لا يكون لدى صاحب الأرض أو المال أوراق تثبت ماله، أو بينات أو شهود يشهدون له، فيأخذها خصمه بدون وجه حق.

وفي قوله ﷺ:

«من اقتطع» أي، أخذ.

«حق امرئ مسلم» يدخل فيه من حلف على غير مال، كحد القذف ونصيب الزوجة في القسم، وغير ذلك.

قال القاضي عياض: «تخصيص المسلم لكونهم المخاطبين وعامة المتعاملين في الشريعة، لا أن غير المسلم بخلافه، بل حكمه حكمه في ذلك». «بيمينه» أي، بحلفه الكاذب.

«فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة» محمول على المستحل لذلك إذا مات على ذلك، أو قد يحرم عليه دخول الجنة أول وهلة مع الفائزين. «وإن كان قضيباً من أراك» أي، وإن اقتطع عوداً من أراك، والأراك شجر معروف يستاك بأعواده.

قال الإمام النووي: «وفيه بيان غلظ تحريم حقوق المسلمين، وأنه لا فرق بين قليل الحق وكثيره، لقوله ﷺ: «وإن كان قضيباً من أراك».

وفي الحديث: أن حقوق العباد مانعة مغتصبيها من دخول الجنة حتى يؤدوا ما عليهم، أو تؤخذ من حسناتهم وتعطى للمظلومين، أو يؤخذ من سيئات المظلومين وتطرح على الظالمين والتقيد بالمسلم لا يدل على عدم تحريم مال الذمي.

والواجب على المسلم تحري المال الحلال وترك ما يضره في دينه ودينه، قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يصف الدنيا: «حلالها حساب وحرامها عقاب».

وقال بعض السلف: «يا ابن آدم إنما بطنك شبر في شبر فلم يدخلك النار».

وقال عبد الله بن الشخير - رضي الله عنه - أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: «(ألهاكم

التكاثر) قال: «يقول ابن آدم مالي مالي، قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت» [رواه مسلم].

وفي الحديث: دليل على أن اليمين الغموس وهي يمين الصبر التي يقطع بها مال المسلم من الكبائر، لأن كل ما أوعده الله عليه بالنار أو رسوله ﷺ فهو من الكبائر.

وفيه: حرمة أخذ حقوق الآخرين ولو لم يكن للمظلوم دليل يثبت حقه.

٢١٥ - وعن عدي بن عُمَيْرَةَ - رضي الله عنه - قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «مَنْ اسْتَعْمَلَنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ، فَكَتَمْنَا مَخِيطًا فَمَا فَوْقَهُ، كَانَ غُلُولًا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَسْوَدُ مِنَ الْأَنْصَارِ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقْبِلْ عَنِّي عَمَلِكَ قَالَ: «وَمَالِكَ؟» قَالَ: سَمِعْتُكَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: «وَأَنَا أَقُولُهُ الْآنَ: مَنْ اسْتَعْمَلَنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فُلِيجِيءٍ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَ وَمَا نُهِى عَنْهُ انْتَهَى» [رواه مسلم].

* في العقود المتأخرة شاع وظهر الأخذ من بيت المال بطريق غير مشروع كالتزوير والكذب والاحتيال، أو استغلال النفوذ والجاه من أموال أو سيارات أو غيرها.

ولا شك أن تلك الخيانات سواء قلت أو كثرت من تضييع الأمانات ومن علامات ضعف الإيمان، وحب الدنيا وإيثارها على الآخرة. وهي من المكاسب المحرمة التي ورد الوعيد الشديد والتحذير الأكيد لمن خان في عمله أو وظيفته في قليل أو كثير.

ولهذا كان اختيار الموظفين وعمال الولايات أمانة يجب التحري عنهم والسؤال قبل توليتهم، ثم متابعتهم ومراقبتهم فيما بعد.

قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «من ولي من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلاً لمودة أو قرابة بينهما، فقد خان الله ورسوله والمسلمين».

ولهذا وردت الوصايا النبوية في ذلك الأمر. والحديث مسوق لحث العمال على الأمانة، وتحذيرهم عن الخيانة ولو في القليل على وجه الخيانة.

وقد ذكر النبي ﷺ أن: «من استعملناه منكم على عمل» أي، وليناه على عمل من جمع مال الزكاة أو الغنائم أو نحو ذلك.

«فكتمنا مخيطاً فما فوقه» وأخذ مخيطاً وهي شيء يسير على وجه الخيانة.

«كان غلواً يأتي به يوم القيامة» أي، فإنه يحمله آثاماً وأوزاراً يوم القيامة. قال ابن رسلان: «الغل، الحديد التي يجمع بها يد الأسير إلى عنقه يأتي به يوم القيامة إلى المحشر وهو حامل له كما ذكر مثله في الغال، ويحتمل أن يكون الغل في يده يوم القيامة في جهنم».

قال النووي: «أصل الغلول الخيانة مطلقاً، ثم غلب اختصاصه في الاستعمال بالخيانة في الغنيمة ولو في تافه، وقد أجمع العلماء على تحريم الغلول، وأنه من كبائر الذنوب وعليه رد ما غلّه».

فلما سمع ذلك رجل من الأنصار فقال للرسول ﷺ (إقبل عني عملك): أي، ائذن لي أن استقيل من العمل الذي وليتني عليه. وذلك خوفاً مما سمع من حديث النبي ﷺ.

قال ﷺ «وأنا أقوله الآن: من استعملناه على عمل فليجيء بقليله وكثيره» هذا يدل على أنه لا يجوز أن يقطع منه شيئاً لنفسه لا أجره ولا غيرها. ولا لغيره، إلا بإذن الإمام.

«فما أوتي منه أخذ، وما نهي عنه انتهى» أي، ما أعطي منه أخذه، وما نهي ومنع عنه انتهى.

قال ابن العربي: «الذي يُهدى لا يخلو أن يقصد ود المهدى إليه، أو عون، أو ماله، فأفضلها الأول، والثالث جائز لأنه يتوقع بذلك أن يرد إليه بالزيادة على وجه جميل، وقد تستحب إن كان محتاجاً، والمهدي لا يتكلف، وإلا فيكره، وأما الثاني: فإن كان لمعصية فلا يحل، وهو الرشوة، وإن كان لطاعة فيستحب، وإن كان لجائز فجائز. هذا إذا لم يكن المهدى له حاكماً. [أي: فإن الإهداء للحاكم لا يخلو من شبهة الوصول إلى ما لا يحل غالباً]».

٢١٦ - وعن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: لَمَّا كَانَ يَوْمُ خَيْبَرَ أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: فُلَانٌ شَهِيدٌ، وَفُلَانٌ شَهِيدٌ، حَتَّى مَرُّوا عَلَى رَجُلٍ فَقَالُوا: فُلَانٌ شَهِيدٌ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كَلَّا إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا أَوْ عَبَاءَةٌ» [رواه مسلم].

* خيبر بلدة شمال المدينة باتجاه الشام، حاصرها النبي ﷺ طويلاً حتى فتحها الله - عز وجل - على يد علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وذلك في الحديث المشهور أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لَأُعْطِينَ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، يَحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ..» [رواه مسلم].

وفي هذه الغزوة جرى ما ذكره الصحابي الجليل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «وهو أن نفراً من الصحابة أقبلوا، فقالوا للرسول ﷺ يعددون له القتلى، فلان شهيد وفلان شهيد، حتى ذكر اسم رجل، وقالوا فلان شهيد. فقال ﷺ: «كَلَّا» أي، ليس هو الشهيد.

في قوله ﷺ «إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ» أي، يعذب على معصيته، إن لم يعف الله - تعالى - عنه. ثم ذكر أن ما حجب به عن الشهادة أنه خان الأمانة وأخذ بردة أو عباءة قبل قسمة الغنائم.

وذلك في قوله ﷺ «فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا أَوْ عَبَاءَةٌ» أي، خانها من الغنيمة.

والبردة: كساء مخطط، وهي الشملة والنمرة.

والغنيمة حق من حقوق الأدميين، بل هي من أعظم حقوق الأدميين، لتعلقها بالمال العام.

والغلول: السرقة من الغنيمة قبل القسمة.

قال النووي - رحمه الله -: «الغلول (الخيانة) وأصله السرقة من مال الغنيمة قبل القسمة. والغلول يمنع من إطلاق اسم الشهادة على من غل إذا قتل. فالشهادة لا تكفر الغلول لأن الشهادة لا تكفر حقوق الأدميين».

وفي قوله ﷺ «رأيت في النار»، في هذا بيان لعظم الخيانة في الأموال العامة وشدة عقابها، وأن الشهادة في سبيل الله لا تكفر حقوق العباد. ومع منزلة الشهادة ومكانتها العظيمة عند الله - عز وجل - إلا أن الخيانة والأخذ من الأموال العامة توجب النار - والعياذ بالله -.

وقد جمع هذا الرجل غزوة وجهاداً مع الرسول ﷺ، ومع ذلك قال الرسول «رأيت في النار» وذلك في أمر يراه الناس يسيراً «بردة أو عباءة» وهو عند الله عظيم.

والمكسب الحرام شؤم وبلاء على صاحبه، فبسببه يقسو القلب، وينطفئ نور الإيمان، ويحل غضب الجبار ويمنع إجابة الدعاء. قال يحيى بن معاذ: «الطاعة خزانة من خزائن الله إلا أن مفتاحها الدعاء وأسنانه لقم الحلال»

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «لما ضرب الدينار والدرهم أخذه إبليس ووضع على عينيه، وقال: أنت ثمرة قلبي وقرّة عيني، بك أعطى، وبك أدخل الناس النار، رضيت من ابن آدم بحب الدنيا أن يعبدني».

وقال شعيب بن حرب: «لا تحقرن فلساً تطيع الله في كسبه، ليس الفلس يراد، إنما الطاعة تراد، عسى أن تشتري به بطلاً فلا يستقر في جوفك حتى يغفر لك».

وفي الحديث: تحريم الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها. وفيه: أنه لا يحكم بالشهادة إلا ما شهد له النبي ﷺ، وأن يرجى له الشهادة.

٢١٧- وعن أبي قتادة الحارث بن ربعي - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَامَ فِيهِمْ، فَذَكَرَ لَهُمْ أَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْإِيمَانَ بِاللَّهِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَتُكْفَرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرٌ مُدْبِرٌ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ قُلْتَ؟» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَتُكْفَرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرٌ مُدْبِرٍ، إِلَّا الدِّينَ فَإِنَّ جَبْرِيلَ قَالَ لِي ذَلِكَ» [رواه مسلم].

* قام ﷺ في الصحابة خطيباً فذكر فضل الجهاد لإعلاء كلمة الله - تعالى -، وعظيم ثواب من يُقتل وهو مجتهدٌ باذل نفسه في مقارعة أعداء الله - عز وجل -، مقاتل في سبيله، طالب لمرضاته.

والمؤمن الحصيف المشفق على نفسه يسعى جاهداً أن يلقي ربه نقي القلب، طاهر الباطن، بريء الذمة، غير متورط بحق ولا مظلمة ولا مال ولا كسب خبيث.

وقد ورد الوعيد الشديد لمن تساهل في حقوق العباد، ومن ذلك: الدين. وقد ورد عن النبي ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَمْتَنِعُ وَيَتَوَرَّعُ عَنِ الصَّلَاةِ عَلَى الرَّجُلِ الَّذِي عَلَيْهِ دَيْنٌ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ دِينُهُ.

وفي هذا الحديث ذكر الحارث بن ربعي - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قَامَ فِيهِمْ خُطِيباً، فَذَكَرَ لَهُمْ أَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْإِيمَانَ بِاللَّهِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ.

قال القرطبي: «وإنما قرن الجهاد بالإيمان هنا في الأفضلية ولم يجعله من مباني الإسلام في حديث ابن عمر لأنه لا يتمكن من إقامة تلك المباني على

تمامها وكمالها ولم يظهر دين الإسلام على الأديان كلها إلا بالجهاد، فكأنه أصل في إقامته، والإيمان أصل في تصحيح المباني، فجمع بين الأصلين في الأفضلية».

فسأله رجل: أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي وذنوبي؟ وتشمل ما يتعلق بحق الله وما يتعلق بحق العباد.

فقال ﷺ: **«نعم إن قتلت في سبيل الله»** أي، لإعلاء كلمة الله وفي سبيل الله.

«وأنت صابر» أي، على ملاقات العدو وجراحات السيوف وطعن الرماح وغير ذلك.

«محتسب» المحتسب: هو المخلص لله - تعالى - فإن قاتل لعصبية أو لغنيمة أو لصيت أو نحو ذلك فليس له هذا الثواب ولا غيره.

«مقبل غير مدبر» أي، على وجه الفرار، لعله إحتراز ممن يُقبل في وقت ويدبر في وقت.

ثم أعاد النبي ﷺ عليه السؤال فأجاب بنفس القول، إلا أنه ﷺ قال: **«إلا الدين فإن جبريل قال لي ذلك»**.

وفي قوله ﷺ **«إلا الدين»** فيه تنبيه على جميع حقوق الآدميين، وأن الجهاد والشهادة وغيرهما من أعمال البر لا يكفر حقوق الآدميين، وإنما يكفر حقوق الله - تعالى -.

قال القرطبي: «لكن هذا كله إذا امتنع من أداء الحقوق مع تمكنه منه، وأما إذا لم يجد للخروج من ذلك سبيلاً فالمرجو من كرم الله - تعالى - إذا صدق في قصده وصحت توبته أن يرضي عنه خصومه».

وقد كان ﷺ يتعوذ من الدين **«اللهم إني أعوذ بك من المغرم والمأثم»** [متفق عليه].

وعند الترمذي أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «من فارق الروح الجسد وهو بريء من ثلاث دخل الجنة، من الكبر والغلول والدين».

وفي الحديث الآخر أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه» [رواه أحمد]. ومعنى معلقة: أي، محبوسة عن الدخول في الجنة.

قال النووي: «فيه هذه الفضيلة العظيمة للمجاهد، وهي تكفير خطايا كلها إلا حقوق آدميين، وإنما يكون تكفيرها بهذه الشروط المذكورة، وهي أن يقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر».

وفيه أن الأعمال لا تنفع إلا بالنية والإخلاص لله - تعالى -.

قال التوربشتي: «أراد بالدين هاهنا ما يتعلق بذمته من حقوق المسلمين، إذ ليس الدائن أحق بالوعيد والمطالبة منه من الجاني، والغاصب، والخائن، والسارق».

وقال ابن عبد البر: «وفي هذا الحديث أن القتل في سبيل الله على الشرط المذكور: لا تكفر به تبعات الآدميين - والله أعلم - وإنما يكفر ما بين العبد وبين ربه من كبيرة وصغيرة، لأنه لم يستثن فيه خطيئة، صغيرة ولا كبيرة، إلا الدين الذي هو من حقوق بني آدم».

وفي الحديث: الوعيد الشديد لمن تساهل في حقوق العباد.

٢١٨ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه -، أن رسول الله ﷺ قال: «أَتَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ. فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مَنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطِي هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ، أَخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرَحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ» [رواه مسلم].

* الإسلام دين العدل وإعطاء الحقوق وعدم هضمها والتعدي على العباد، وأخذ حقوقهم بغير حق - حتى وإن كانوا كفاراً - أمره عظيم عند الله - عز وجل -.. وينبغي على العبد أن يحافظ على حسناته من الضياع، وذلك بترك مثل هذه الأفعال المذكورة في الحديث والتي تدور تحت معنى الظلم. أي، ظلم الغير إما بالشتم أو القذف أو الاعتداء أو نحوه، فكل هذه الأفعال تكون سبباً بجعل العبد مفلساً.

قال ﷺ:

«أَتَدْرُونَ» أي، أتعلمون؟

«من المفلس؟» بحسب ما يعرفونه فيه عرفاً.

فأجابوا بقولهم: (المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع) أي، لا مال له ولا ما ينتفع به من عروض الدنيا قليلها وكثيرها. فبين لهم ﷺ حقيقة المفلس بقوله:

«المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام» أي، أن لديه أعمالاً صالحة كثيرة، لكنه:

«ويأتي وقد شتم هذا» أي، سب هذا.

«وقذف هذا» أي، رماه بالزنا.

«وأكل مال هذا» أي، أخذه منه أو أتلفه بغير إذنه ورضاه.

«وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن
فנית حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحه عليه ثم طرح
في النار».

وفيه، أنه لا يلزم أن يكون المفلس ليس لديه أعمال برٍّ من صلاة وصيام
وصدقة، بل إنه كما جاء في الحديث يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة.
وفيه، أن السيئات إذا غلبت الحسنات أدخلت صاحبها النار والعياذ بالله.
قال النووي - رحمه الله -: «معناه أن هذه حقيقة المفلس، وأما من ليس له
مال ومن قلَّ حاله فالتناس يسمونه مفلساً، وليس هو حقيقة المفلس، لأن هذا
الأمر يزول وينقطع، وربما ينقطع بيسار يحصل له بعد ذلك في حياته، وإنما
حقيقة المفلس هذا المذكور في الحديث فهو الهالك التام والمعدوم الإعدام
المنقطع، فتؤخذ حسناته لغرمائه، فإذا فرغت حسناته أخذ من سيئاتهم فوضع
عليه ثم ألقي في النار، فتّمت خسارته وهلاكه وإفلاسه».

ولكن هذا الحديث لا يعني أنه مخلد في النار، بل يعذب بقدر ما حصل
عليه من سيئات الغير التي طرحه عليه، لأن المؤمن لا يخلد في النار.
قال مالك بن دينار: «لو كُلف الناس الصحف لأقلوا من المنطق».

وقال ابن تيمية: «إن بعض الناس لا تراه إلا منتقداً داءً، ينسى حسنات
الطوائف والأجناس ويذكر مثالبهم، فهو مثل الذباب يترك موضع البرء
والسلامة ويقع على الجرح والأذى، وهذا من رداءة النفوس وفساد المزاج».
وقال أبو بكر بن عبد الله: «إذا رأيتم الرجل موكلاً بعيوب الناس، ناسياً
لعيبه، فاعلموا أنه قد مكر به».

وقال يحيى بن معين: «إنا لنطعن على أقوام لعلهم قد حطوا رحالهم في
الجنة من أكثر من مائتي سنة».

وحين اغتاب رجل عند معروف الكرخي، فقال: «اذكر القطن إذا وضع على عينيك».

وفي الحديث: تحريم الأشياء المذكور من الشتم والقذف، وأكل مال الغير بالباطل، وسفك الدم الحرام، والتعدي بالضرب، لأن في الحديث الوعيد الشديد لمن قارف هذه الأشياء.

٢١٩- وعن أم سلمة - رضي الله عنها -، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي لَهُ بِنَحْوِ مَا أَسْمَعُ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ» [متفق عليه].
«الْحَنَ» أَي: أَعْلَم.

* الدنيا دار عمل وإنتاج، وقد يقع فيها بين الناس خصومات ونزاع وكل ذلك مرده وحكمه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قال تعالى ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] وقوله تعالى ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩] والآيات والأحاديث كثيرة معروفة، ومرد النزاع والخصومة إلى مجلس القضاء إن لم يقع الصلح.
والنبي ﷺ بشر من البشر، قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

وهو ﷺ لا يعلم الغيب، ولا يعلم ما في قلوب الناس وأحوالهم إلا أن يطلعه الله على شيء من ذلك، وفيه أن السهو والنسيان غير مستبعد من الإنسان، وفي هذا إيضاح للمتخاصمين بينهم، فإنهم يأتون إلى النبي ﷺ، ليحكم بينهم ويقضي فيما تخاصموا فيه.

وتفاوت معارفهم وعلومهم وطريقة عرضهم للخصومة فقد يكون بعضهم أفصح وأظن بحجته من بعض، فيزين كلامه بحيث يظنه ﷺ صادقاً في دعواه، فيكون أقدر على الحجة.
قال ﷺ:

«فَأَقْضِي لَهُ بِنَحْوِ مَا أَسْمَعُ» فيقضي النبي ﷺ له بشيء من حق أخيه من المال أو غيره على حسب ما سمع منه.

ثم حذر ﷺ وتوعد من قضي له بغير حق، فقال:

«فمن قضيت له بحق أخيه» لظاهر بيانه وحجته وهو يعلم أنه مبطل في نفس الأمر فلا يأخذه.

ثم توعد ﷺ بأن من يعلم خلافه فإنما أعين له بناء على ظاهر الأمر قطعة من النار.

«فإنما أقطع له قطعة من النار» أي، فهو حرام يؤول به إلى النار.

قال النووي: «فيه أن يطلعه الله - تعالى - على شيء من ذلك، فإنه يجوز عليه في أمور الأحكام ما يجوز على غيره، وأنه إنما يحكم بين الناس بالظاهر، والله يتولى السرائر، فيحكم بالبينه، أو اليمين مع إمكان خلاف الظاهر، وهذا نحو قوله ﷺ **«أمرت أن أقاتل الناس»** إلى قوله **«وحسابهم على الله»** ولو شاء الله - تعالى - لأطلع نبيه ﷺ على باطن أمر الخصمين، فحكم بيقين نفسه من غير حاجة إلى شهادة، أو يمين، ولكن لما أمر الله - تعالى - أمته باتباعه والإقتداء بأقواله وأفعاله وأحكامه، أجرى عليه حكمهم من عدم الإطلاع على باطن الأمور، ليكون للأمة أسوة به في ذلك وتطبيقاً لنفوسهم من الانقياد للأحكام الظاهرة من غير نظر إلى الباطن».

وفي الحديث: دليل على إثم من خاصم في أمر باطل، وهو يعلم أنه باطل، ويكفي ما يحصل عليه من هذه المخاصمة كقطعة من النار تحرق آخذها، وفيه أن من احتال لأمر باطل بوجه من وجوه الحيل حتى يصير حقاً في الظاهر ويحكم له به فإنه لا يحل له تناوله في الباطن ولا يرتفع عنه الإثم بصدور الحكم في جانبه.

٢٢٠ - وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال قال رسول الله ﷺ: «لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصَبْ دَمًا حَرَامًا» [رواه البخاري].

* الدماء المعصومة أمرها في الإسلام عظيم لأنها أساس الحياة ومادته، ولا يزال المؤمن في فسحة وسعة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا. وقتل النفس المعصومة من أكبر الكبائر.

والمسلم معصوم الدم والمال، لا ترفع عنه هذه العصمة «إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفساً بغير نفس» [رواه أبو داود]. وما عدا ذلك فحرمة المسلم أعظم عند الله من حرمة الكعبة بل من الدنيا أجمع، قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا» [رواه النسائي].

وفي الحديث: «... وأول ما يقضي بين الناس الدماء» [رواه البخاري]. والدماء المحرمة أربعة أصناف: دم المسلم، ودم الذمي، ودم المعاهد، ودم المستأمن، وأشدها وأعظمها دم المؤمن، أما الكافر الحربي فهذا دمه غير حرام، فإذا أصاب الإنسان دمًا حرامًا فإنه يضيق عليه دينه. أي، أن صدره يضيق به حتى يخرج منه والعياذ بالله ويموت كافرًا.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

قال العلماء: «ولم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله». فهذه خمس عقوبات: جهنم خالدًا فيها، وغضب الله عليه، ولعنه، وأعد له عذابًا عظيمًا، هذا لمن قتل مؤمنًا متعمدًا.

وفي هذا الحديث قال رسول الله ﷺ:

«**لن يزال المؤمن في فسحة من دينه**» أي، سعة ورجاء رحمة من الله - تعالى -، إذا لم يصدر منه قتل النفس بغير حق حتى يسهل عليه أمور دينه ويوفق للعمل الصالح.

وقيل: أي، يرجى له رحمة الله ولطفه، ولو باشر الكبائر سوى القتل، فإذا قتل نفساً بغير حق ضاقت عليه المسالك، ودخل في زمرة الآيسين من رحمة الله.

قال ابن العربي: «الفسحة في الدين الأعمال الصالحة، حتى إذا جاء القتل ضاقت لأنها لا تفي بوزره، والفسحة في الذنب، قبوله الغفران بالتوبة حتى إذا جاء القتل ارتفع القبول».

«**ما لم يصب**» أي، يقتل.

«**دماً حراماً**» دم مسلم بغير حق.

والدماء المعصومة في الإسلام لها شأن عند الله عظيم، فلا يجوز سفكها بغير حق، أو التهاون في أمرها، وإذا كان النهي الشرعي قد زجر عن قتل البهيمة بغير حق، ورتب على ذلك وعيد فكيف بقتل الآدمي؟ ثم كيف بقتل المسلم. جاء في فتح الباري أن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال لمن قتل عمداً بغير حق: «تزود من الماء البارد، فإنك لن تدخل الجنة».

وقال جمهور العلماء: تصح توبة الإنسان من قتل المسلم، لقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضْعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَتَحُلَّدَ فِيهِ ۖ مُهَانًا ۖ﴾ [٢١] إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴿﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

وفي الحديث: التحذير من سفك الدماء والتعدي عليها.

٢٢١ - وعن خولة بنت عامر الأنصارية، وهي امرأة حمزة - رضي الله عنه

وعنها، قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إِنَّ رَجُلًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [رواه البخاري].

* قدر الله - عز وجل - الرزق للعباد، ولن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، والغنى والفقر مطيتان، لا يبالي المؤمن أيتهما ركب، فالغني الشاكر مأجور، والفقر الصابر مأجور.

والمال هو عصب الحياة وظاهره قوة الأمة، وقد أوجب الإسلام المحافظة عليه وخاصة أموال المسلمين العامة، حيث أنها من إعداد القوة ونشر العلم وتأمين مرافق الحياة.

وقد تهب ريح شهوات المال إلى بعض النفوس، فيأخذون منها بغير وجه حق، من باب التكالب على الدنيا وتضييع الأمانات وأكل أموال الناس بالباطل.

وقد حرص الإسلام على حفظ الأموال العامة وعدم التعدي عليها، والتحذير من الاعتداء عليها، أو التصرف بها بغير طريق مشروع، سواء بالسرقة أو السطو أو التحايل أو غير ذلك.

والمال الخاص بالإنسان له حرمة ومكانته، وأمر ﷺ الإنسان أن يدافع عن ماله، فقد صح عنه ﷺ قوله: «**من قتل دون ماله، فهو شهيد**» [رواه البخاري].

وبيت مال المسلمين ملك للمسلمين جميعاً، وليس ملكاً لفئة معينة من الناس، والقائمون عليه إنما هم أمناء في حفظه وتحصيله، وصرفه لأهله، فلا يحل لأحد أن يعتدي عليه، أو يأخذ منه ما لا يستحق، ولو فرض وجود من يغل منه ويعتدي، فإن ذلك لا يبيح مشاركته في هذا الذنب العظيم، ولو جاز نهب مال الدولة وسرقتها بحجة الأخذ من بيت المال، لحصل الشر والفساد، وعم الظلم والبغي، ولباء الجميع بإثم الخيانة، فإن هذا ظلم واعتداء على المسلمين جميعاً.

عن خولة الأنصارية أنها سمعت رسول الله يقول: **«إن رجالاً يتخوضون في مال الله بغير حق فلهم النار»** [رواه البخاري].

قال ابن حجر: «أي، يتصرفون في مال المسلمين بالباطل، وهو أعم من أن يكون بالقسمة وبغيرها».

وقد ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث **«رجالاً»**، أي، من العمال وغيرهم. والخوض: هو الشروع في الماء والمرور فيه، ويستعار في الأمور، وأكثر ما ورد فيما يذم الشروع فيه، نحو قوله تعالى: **﴿ثُمَّ دَرَّهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾** [الأنعام: ٩١].

«يتخوضون في مال الله بغير حق» أي، يشرعون ويدخلون ويتصرفون في مال بيت المسلمين من الزكاة والجزية والغنيمة وغيرها بغير حق وإذن من الإمام، فيأخذون منه أكثر من أجره عملهم وقدر استحقاقهم. **«فلهم النار يوم القيامة»** فإن من فعل ذلك فإن جزاءهم النار يوم القيامة، وهو من الكبائر.

وفي هذا الحديث: ما يدل على تحريم الظلم في الأموال الذي هو خلاف العدل، وفيه الوعيد الشديد لمن فعل ذلك.

٢٧. باب تعظيم حرّات المسلمين وبيان حقوقهم والشفقة عليهم ورحمتهم

أعلى الإسلام منزلة المسلم، ورفع قدره وحفظ حقوقه، وجعل له حرمة من استباحها وقع في الحرام، ولذلك حرم ماله ودمه وعرضه، وكل ما يؤذيه أو يروعه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠]. أي، أن من يعظم ما شرعه الله من أحكام الدين، ويجتنب المعاصي والمحرّام، فإن ذلك التعظيم خير له ثواباً في الآخرة.

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. أي، يعظم ما شرعه الله من أحكام الدين، فإنها من أفعال المتقين لله، لأنها صادرة من ذوي تقوى القلوب.

قال القرطبي: «أضاف التقوى إلى القلوب لأن حقيقة التقوى في القلب، وفي الحديث: «**التقوى هاهنا**» وأشار إلى صدره [رواه مسلم].»

وقال تعالى: ﴿وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحج: ٨٨].

أي: أَلن جانبك وارفق وتواضع لمن آمن بك من المؤمنين وضعفائهم محبة وإكراماً وتودداً. لأن ذلك يجلب المودة والألفة، ويبعد الجفاء والتقاطع والعداوة.

وقال تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]. حكم الله - عز وجل - أن من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض كالشرك وقطع الطريق فكأنه قتل الناس جميعاً، حيث أنه هتك حرمة الدماء، وسن القتل وجراً للناس عليه، والمقصود تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب

ترهيباً عن التعرض لها وترغيباً في المحاماة عليها.
 جاء عن الحسن أنه قال: «يا بن آدم، لو قتلت الناس جميعاً، أكنت تطمع أن يكون لك عمل يوازي ذلك فيغفر لك به؟ كلا، إنه شيء سولته لك نفسك والشيطان، فكذلك إذا قتلت واحداً».

وفي الآية: تعظيم إثم قاتل النفس، وتعظيم أجر من أحيائها.
 وقال عز وجل في الآية الأخرى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وقتل النفس تتعلق به ثلاث حقوق:

الحق الأول: لله - عز وجل -.

الحق الثاني: للمقتول.

الحق الثالث: لأولياء المقتول.

وجاء في الحديث أنه ﷺ قال: «لا تقتل نفس ظلماً، إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل» [رواه مسلم].

وفي الحديث الآخر: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم» [رواه مسلم].

٢٢٢ - وعن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ. [متفق عليه].

* يقرر علماء الاجتماع أن الإنسان مدني بطبعه، لا يمكن أن يعيش بمفرده، وهو بحاجة إلى من حوله في المؤانسة والمصاهرة، والطعام والشراب وبسط الأمن وغير ذلك، واختلاف طبقات الناس ودرجاتهم وأعمالهم من حكم الله - عز وجل -، كما قال تعالى: ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخِيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وقد ألف - عز وجل - بين قلوب المؤمنين، وذكر أن ذلك من فضله وعطاياه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ [الأنفال: ٦٢ - ٦٣].

وفي الحديث تمثيل يفيد الحض على معاونة المؤمن للمؤمن ونصرته، وأن ذلك أمر متأكد لا بد منه في حياة الناس ومعاشهم. والمؤمن للمؤمن كالبنيان لا يستقل بأمور دينه ولا بأمور دنياه، ولا تقوم مصالحه على الوجه المطلوب إلا بالمعاونة، والمعاوضة بينه وبين إخوانه. وفي هذا الحديث الخبر عن حال المؤمنين ووصفهم، وأنهم على هذه الحال الطيبة والروح العالية والاجتماع والألفة. قال ﷺ:

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»

قال ابن بطال: «تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً في أمور الدنيا والآخرة مندوب إليه في هذا الحديث» وهو خبر عن النبي ﷺ أن المؤمنين على هذا الوصف.

وقال ابن الجوزي: «ظاهره الإخبار ومعناه الأمر، وهو تحريض على التعاون».

«كأنهم بنیان مرصوص» قال بعض أهل العلم: كأنهم بنیان مرصوص، أي، شُدَّ بالرصاص، وبعضهم فسره بالظاهر المتبادر، وقيل: مرصوص: أي، يرص بعضه بعضاً ويقويه.

قال القرطبي: «هذا تمثيل يفيد الحض على معونة المؤمن للمؤمن ونصرته، وأن ذلك أمر متأكد لا بد منه، فإن البناء لا يتم أمره ولا تحصل فائدته، إلا بأن يكون بعضه يمسك بعضاً ويقويه، وإن لم يكن كذلك، انحلت أجزاؤه وخرّب بناؤه، وكذلك المؤمن لا يستقل بأمور دنياه ودينه إلا بمعونة أخيه ومعاضدته ومناصرته، فإن لم يكن ذلك عجز عن القيام بكل مصالحه، وعن مقاومة مضاره، فحينئذ لا يتم له نظام دنياه ولا دينه، ويلحق بالهالكين».

ولهذا حث ديننا على ما يقوي هذا الأمر، وما يوجب المحبة بين المؤمنين، وما به يتم التعاون على المنافع، ونهى عن التفرق والتعادي، وتشتت الكلمة في نصوص كثيرة حتى عد هذا أصلاً عظيماً من أصول الدين تجب مراعاته واعتباره، وترجيحه على غيره، والسعي إليه بكل ممكن، فنسأل الله - تعالى - أن يحقق للمسلمين هذا الأصل، ويؤلف بين قلوبهم، ويجعلهم يداً واحدة على من ناوأهم وعاداهم.

وفي الحديث: تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض، وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاقد في غير إثم ولا مكروه.

وفيه: جواز التشبيه وضرب الأمثال، لتقريب المعاني للأفهام.

٢٢٣ - وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَرَّ فِي شَيْءٍ مِنْ مَسَاجِدِنَا، أَوْ أَسْوَاقِنَا، وَمَعَهُ نَبْلٌ فَلْيُمْسِكْ، أَوْ لِيَقْبِضْ عَلَى نِصَالِهَا بِكَفِّهِ أَنْ يُصِيبَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا شَيْءٌ» [متفق عليه].

* لبيوت الله - عز وجل - حرمتها ومكانتها، وقد جاءت النصوص بالحث على تعظيمها وتكريمها، وصيانتها وتطهيرها، كما جاءت بالتحذير والنهي عن العبث بها، وتدميرها، وتنجيسها، وجاءت الأدلة أيضاً بالنهي عن أذية وترويع روادها وعمارها.

وقد أثنى الله - عز وجل - على عمارها حسيًا ومعنويًا، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨].

والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، ومن تعمد الأذية بعدما جاءته البينة فقد باء بالإثم العظيم، إنما التسامح مع الجاهل بالحكم الشرعي.

وفي هذا الحديث رحمة النبي ﷺ وشفقته على المسلمين وحرصه على سلامتهم، وهو من جملة أحاديث الرفق بالمسلمين، قال ﷺ: «مَنْ مَرَّ فِي شَيْءٍ مِنْ مَسَاجِدِنَا أَوْ أَسْوَاقِنَا» ذكر المساجد والأسواق لأنها مكان اجتماع الناس ولقاءاتهم.

«ومعه نبل فليمسك»

النبل: السهام التي يرمى بها، وأطرافها تكون دائماً دقيقة تنفذ فيما تصيبه من المرمي فإذا أمسك الإنسان بها وقى الناس شرها. وإذا تركها هكذا فربما تؤذي أحداً من الناس، وربما يأتي أحد بسرعة فتخدشه، أو يمر الرجل الذي يمسك بها وهي مفتوحة غير ممسكة فتخدشهم أيضاً.

«أو ليقبض على نِصَالِهَا بِكَفِّهِ»

النصل: المراد به الحديدية التي في آخر السهم.

قال الطيبي: «مبالغة في المحافظة والقبض عليها».

«أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشيء»

فكل شيء يؤذي المسلمين أو يخشى من أذيته فإن الإنسان يتجنبه، لأن أذية المسلمين ليست بالهينة.

قال المناوي: «ومحل النهي عن ذلك إن كان النصل غير مغمور، ولا ينافي الحديث لعب الحبشة بالحرا ب في المسجد، لأن التحفظ في صورة اللعب بالحرا ب يسهل، بخلاف مجرد المرور فقد يقع بغتة فلا يتحفظ».

وقال النووي: «فيه هذا الأدب وهو الإمساك بنصالها عند إرادة المرور بين الناس في مسجد أو سوق أو غيرهما.. وفيه اجتناب كل ما يخاف منه ضرر». وقال ابن بطال: «هذا من تأكيد حرمة المسلم لثلا يروع بها أو يؤذى، لأن المساجد مورودة بالخلق، ولا سيما في أوقات الصلوات، فخشي عليه السلام - أن يؤذى بها أحد، وهذا من كريم خلقه، ورأفته بالمؤمنين».

وفي الحديث: الأمر بالقبض على نصال النبل، ومثله جفر السيف والسكين والحربة، ونحو ذلك. وأخذ الرصاصة من البندق والفرد مخافة أن يصيب أحداً.

وحمل السلاح على المسلم لا يجوز وهو من كبائر الذنوب لأنه ﷺ رتب عليه الانتفاء من فاعله، قال ﷺ «من حمل علينا السلاح فليس منا» [رواه البخاري].

وصح عنه ﷺ أنه قال: «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه، وإن كان أخاه لأبيه وأمه» [رواه مسلم].

وفي الحديث: تأكيد حرمة المسلمين وعدم إيذاؤهم.

وفيه: التعظيم لقليل الدم وكثيره.

وفيه: أن المسجد يجوز فيه إدخال السلاح.

٢٢٤ - وعن الثَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَى» [متفقٌ عليه].

* في الحديث تعظيم حقوق المؤمنين بعضهم على بعض، وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاقد في غير إثم ولا مكروه. ومن مقتضيات هذا التواد والتراحم ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولهذا كان المؤمن يسره ما يسر المؤمنين، ويسوءه ما يسوءهم، ومن لم يكن كذلك لم يكن منهم». وفي الحديث قوله ﷺ:

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ» أي، في تواصلهم الجالب للمحبة كالتزاور والتهادي والسلام.

«وتَرَاحُمِهِمْ» أي، أن يرحم المؤمنون بعضهم بعضاً، وأن يمدوا يد العون والمساعدة بعضهم البعض عند الشدائد والنوازل. «وتَعَاطُفِهِمْ» إعانة بعضهم بعضاً.

قال ابن أبي جمرة: «الذي يظهر أن التراحم والتوادد والتعاطف وإن كان متقاربة في المعنى لكن بينها فرق لطيف، فأما التراحم فالمراد به أن يرحم بعضهم بعضاً بإخوة الإيمان لا بسبب شيء آخر، وأما التوادد فالمراد به التواصل الجالب للمحبة كالتزاور والتهادي، وأما التعاطف فالمراد به إعانة بعضهم بعضاً كما يعطف الثوب على الثوب ليقويه، فهم يرحم بعضهم بعضاً، فإذا احتاج أزال حاجته، ويعطف بعضهم على بعض باللين والرفق وغير ذلك.. ويود بعضهم بعضاً، حتى إن الواحد منهم إذا رأى في قلبه لأحد من إخوانه المسلمين، حاول أن يزيله وأن يذكر من محاسنه ما يوجب زوال هذه البغضاء. فالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو، ولو أصغر الأعضاء، تداعى له سائر الجسد».

«مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو».

قال القاضي عياض: «فتشبيهه المؤمنين بالجسد الواحد تمثيل صحيح، وفيه تقريب للفهم وإظهار للمعاني في الصور المرئية».

«تداعى له سائر الجسد» كأنه بعضه دعا بعض، ومنه قوله تداعت الحيطان. أي، تساقطت أو كادت، ووجه التشبيه فيه: هو التوافق في المشقة والراحة، والنفع والضرر.

وفي قوله ﷺ «بالسهر والحمى» أما السهر فلأن الألم يمنع النوم، وأما الحمى فلأن فقد النوم يثيرها.

قال النووي معلقاً على هذا الحديث: «هذه الأحاديث صريحة في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض، وحثهم على التراحم والملاطفة، والتعاضد، في غير إثم ولا مكروه».

وعلى المسلم أن يجتهد في تطهير قلبه نحو إخوانه المسلمين، فيفرح بوصول الخير إليهم، ويتألم إن أصابهم ما يضرهم أو يؤلمهم، ويقف معهم في مصائبهم وما ينزل بهم، فيغيث المحتاج، وينصر المظلوم، ويعين ذا الحاجة، ويتعاون معهم على الخير والبر، احتساباً للأجر ورغبة فيما عند الله.

وفي الحديث: الحث على ما يتعين من محبة المؤمن ونصحه، والاهتمام بأمره.

٢٢٥ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قَبَّلَ النَّبِيُّ ﷺ الْحَسَنَ ابْنَ عَلِيٍّ - رضي الله عنهما -، وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ، فَقَالَ الْأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشْرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ» [متفق عليه].

* الرحمة بالناس، وبالحيوان، عاطفة شريفة، وخليقة محمودة، ولقد مدح الله - عز وجل - بها رسوله في قوله تعالى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وكان من رحمته ﷺ بالأطفال ما رواه النسائي أنه ﷺ يزور الأنصار، ويسلم على صبيانهم، ويمسح على رؤوسهم. ومن رحمته ﷺ بالصغار: «أَنَّهُ كَانَ يُؤْتِي بِالصَّبِيَّانِ فَيُرِّكُ عَلَيْهِمْ وَيَحْنُكُهُمْ» [رواه مسلم].

ولما ذكر الأقرع بن حابس في الحديث أن له عشرة من الولد ما قَبَّلَ منهم أحداً. فنظر إليه رسول الله ﷺ نظرة تعجب من قسوة قلبه، وغلظ طبعه وجفائه وقال:

«مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ» قال القرطبي: «الرحمة في حقنا: رقة وحنو يجده الإنسان من نفسه عند مشاهدة مبتلى، أو ضعيف، أو صغير، يحمله على الإحسان إليه، واللطف به، والرفق، والسعي في كشف ما به». والرحمة تكون بالأبناء من تقبيل ومعانقة وملاطفة، وتأديب وتربية، وإجابة رغائب وإبعاد عن الشر.

قال ابن بطال: «رحمة الولد الصغير ومعانقته وتقبيله والرفق به، من الأعمال التي يرضاها الله ويجازي عليها».

قال شمس الدين السفيري: «فندب ﷺ إلى الرحمة، والعطف على جميع الخلق من جميع الحيوانات، على اختلاف أنواعها في غير حديث، وأشرفها

الآدمي وإذا كان كافراً، فكن رحيماً لنفسك ولغيرك، ولا تستبد بخيرك، فارحم الجاهل بعلمك، والذليل بجاهك، والفقير بمالك، والكبير والصغير بشفتك ورأفتك، والعصاة بدعوتك، والبهائم بعطفك، فأقرب الناس من رحمة الله أرحمهم بخلقه، فمن كثرت منه الشفقة على خلقه، والرحمة على عباده، رحمه الله برحمته، وأدخله دار كرامته، ووقاه عذاب قبره، وهول موقفه، وأظله بظله، إذ كل ذلك من رحمته.

فإذا كانت الرحمة خليقتك، رحمتك الناس كما رحمتهم، وكانوا لك كما كنت لهم، ورحمتك الرحمن الرحيم، فأسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة، وإن تركتها إلى القساوة قست عليك الخليفة، فإن نابتك نائبة، أو حلت بك ضائقة أغضوا عنك وفروا منك فتجرعت وحدك صابها، وصليت نارها، وكذلك يصنع الله بك، يرفع عنك رحمته، فإذا أنت في معيشة ضنك لا تنعم بعزة أو هناءة، وفي الآخرة لا ينظر الله إليك ولا يكلمك، ولك العذاب الهون جزاء بما اكتسبت، فارحم ترحم، وكن للناس يكونوا لك، وتخلق بخلق الله يرفع شأنك، ويُعل نفسك، والله لا يضيع أجر المحسنين».

والرحمة لا تنافي حسن التربية والقيام بذلك، وبما أمر الله - عز وجل - به من تعليمهم فرائض الإسلام وأخذهم عليها، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

فيعلمون التوحيد، كما روي عن أم سليم - رضي الله عنها - «أنها كانت تلقن ولدها أنساً الشهادتين قبل أن يبلغ ستين».

ويعلمون الصلاة ويؤخذ على أيديهم، لقوله ﷺ «**مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر...**».

مع كثرة الدعاء لهم بالهداية والتوفيق والنجاح والفلاح. وفي الحديث: أن تقبيل الوالد لأولاده مشروع على وجه الشفقة والحنان.

٢٢٦ - وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قدِمَ ناسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: أَتَقْبَلُونَ صِبْيَانَكُمْ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ» قَالُوا: لَكُنَّا وَاللَّهِ مَا نَقْبَلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْ أَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللَّهُ نَزَعَ مِنْ قُلُوبِكُمُ الرَّحْمَةَ» [متفقٌ عليه].

* نعم الله على عباده كثيرة متتالية، ومنها نعمة الأولاد، كما قال تعالى:

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

وقد جعل الله الرحمة في قلوب الآباء والأمهات، جاء في السير أن معاوية - رضي الله عنه - غضب على ابنه، فهجره، فقال له الأحنف بن قيس: يا أمير المؤمنين: «أولادنا ثمرة قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم سماء ظليلة وأرض ذليلة، وبهم نصول في كل جليلة، فإن غضبوا فأرضهم، وإن سألوا فأعطهم، وإن لم يسألوا فابتدئهم ولا تنظر إليهم شزراً فيملون حياتك ويتمنون فوتك». وقد جاء وفد من الأعراب إلى النبي ﷺ، والأعراب هم سكان البادية، وفي طبعهم غلظة وجفاء، فلما قدموا على رسول الله ﷺ قالوا: أتقبلون صبيانكم؟ قال ﷺ: «نعم».

قالوا: لكننا والله لا نقبلهم.

فقال رسول الله ﷺ: «أَوْ أَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللَّهُ نَزَعَ مِنْ قُلُوبِكُمُ الرَّحْمَةَ».

لأن الرحمة غريزة إنسانية أودعها الله - عز وجل - في قلوب عباده الرحماء. والكلام على الاستفهام الإنكاري، بمعنى النفي، أي ماذا أملك؟ أي: لا أملك لك شيئاً وقد نزع الله الرحمة من قلبك.

قال القرطبي: «نفي قدرته - عليه الصلاة والسلام - على الإتيان بما نزع الله من قلبه الرحمة».

وفي هذه الأحاديث الحضر على استعمال الرحمة للخلق كلهم، كافرهم، ومؤمنهم، ولجميع البهائم والرفق بها، وأن ذلك مما يغفر الله به الذنوب، ويكفر به الخطايا، فينبغي لكل مؤمن عاقل أن يرغب في الأخذ بحظه من الرحمة ويستعملها في أبناء جنسه وفي كل حيوان.

فإن من لا يرحم الناس إنما لا يرحمهم لعدم توفي حظه من الرحمة التي أفاضها الله - تعالى - على خلقه، من جملة ما أنزلها الله من مئة جزء من الرحمة التي خلقها، وبها يتراحم الناس ويتعاطفون، وتتراحم الدواب، ومن لا يرحم لا يُرحم، إنما هي أعمالكم تُرد إليكم.

ومن رحمته ﷺ ما ذكره أنس بن مالك - رضي الله عنه - حيث قال: «ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ، كان إبراهيم مسترضعاً له في عوالي المدينة، فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت وإنه ليدخن، أو كان ظئره (زوج مرضعته) قينا (حداداً) فيأخذه فيقبله ثم يرجع» [رواه أحمد].

ذكر أن محمد بن عبد الملك كان يقول: «الرحمة خور في الطبيعة وضعف في المنة، ما رحمت شيئاً قط، فكانوا يطعنون عليه في دينه بهذا القول، فلما وضع في الثقل والحديد، قال: ارحموني، فقالوا له: وهل رحمت شيئاً قط فترحم، هذه شهادتك على نفسك وحكمك عليها».

قال ابن بطل بعد أن ذكر عدداً من الأحاديث في الرحمة: «في هذه الأحاديث الحضر على استعمال الرحمة للخلق كلهم، كافرهم، ومؤمنهم، ولجميع البهائم والرفق بها، وأن ذلك مما يغفر الله به الذنوب، ويكفر به الخطايا، فينبغي لكل مؤمن عاقل أن يرغب في الأخذ بحظه من الرحمة، ويستعملها في أبناء جنسه وفي كل حيوان».

ومن الرحمة بالأولاد: تعاهدهم بالنصيحة والمتابعة، وحسن التربية والتقويم، وتعليمهم شرائع الدين وسننه وآدابه، وكثرة الدعاء لهم بالهداية والصلاح والنجاح والفلاح.

٢٢٧- وعن جرير بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ لَا يَرْحَمُهُ اللَّهُ» [متفقٌ عليه].

* صفة الرحمة، صفة جامعة لكل الشمائل الإنسانية، وهي مطلوبة لسائر المخلوقات حتى الدواب والبهائم. وفي الحديث قوله ﷺ:

«مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ» خصوا بالذكر اهتماماً، بهم وإلا فالرحمة مطلوبة لسائر المخلوقات حتى الدواب والبهائم.

وهذه الرحمة التي في القلوب تظهر آثارها على الجوارح واللسان، في السعي في إيصال البر والخير والمنافع إلى الناس، وإزالة الأضرار والمكاره عنهم.

قال ابن بطال: «فيه الحض على استعمال الرحمة لجميع الخلق، فيدخل المؤمن والكافر والبهائم والمملوك وغير المملوك، ويدخل في الرحمة التعاهد بالإطعام والتخفيف في الحمل وترك التعدي بالضرب».

وفي الحديث الآخر «لَا تَنْزِعِ الرَّحْمَةَ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ» [رواه الترمذي].

قال ابن العربي: «حقيقة الرحمة إرادة المنفعة، وإذا ذهبت إرادتها من قلب شقي بإرادة المكروه لغيره، ذهب عنه الإيمان والإسلام».

وقال المناوي: «لأن الرحمة في الخلق رقة القلب، ورقته علامة الإيمان، ومن لا رافة له لا إيمان له، ومن لا إيمان له شقي، فمن لا رحمة عنده شقي».

«لَا يَرْحَمُهُ اللَّهُ» أي، لا يدخله في رحمته.

وجاء في الحديث: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّنْ فِي السَّمَاءِ» [رواه الترمذي] فإن من رحم الخلق رحمه الخالق.

يقول السعدي - رحمه الله تعالى -: «رحمة العبد للخلق من أكبر الأسباب التي تنال بها رحمة الله، التي من آثارها خيرات الدنيا، وخيرات الآخرة، وفقدتها من أكبر القواطع والموانع لرحمة الله، والعبد في غاية الضرورة والافتقار إلى رحمة الله، لا يستغني عنها طرفة عين، وكل ما هو فيه من النعم واندفاع النقم من رحمة الله، فمتى أراد أن يسبقها ويستزيد منها، فليعمل جميع الأسباب التي تنال بها رحمته، وتجتمع كلها في قوله تعالى ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] وهم المحسنون في عبادة الله، المحسنون إلى عباد الله، والإحسان إلى الخلق أثر من آثار رحمة العبد بهم، أما من كان بعيداً عن الإحسان بالخلق ظلوماً، غشوماً، شقياً، فهذا لا ينبغي له أن يطمع في رحمة الله وهو متلبس بظلم عباده».

قال تعالى ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

قال الثوري: «الإحسان أن تحسن إلى المسيء، فإن الإحسان إلى المحسن تجارة».

قال ابن القيم: «هو - سبحانه وتعالى رحيم يحب الرحماء وإنما يرحم من عباده الرحماء، وهو ستر يحب من يستر على عباده، وعفو يحب من يعفو عنهم، وغفور يحب من يغفر لهم، ولطيف يحب اللطيف من عباده، ويغض الظن الغليظ القاسي الجعظري الجواظ، ورفيق يحب الرفق، وحليم يحب الحلم، وبر يحب البر وأهله، وعدل يحب العدل، وقابل المعاذير يحب من يقبل معاذير عباده، ويجازي عبده بحسب هذه الصفات فيه وجوداً وعدمًا، فمن عفا عفا عنه، وغفر غفر له، ومن سامح سامحه، ومن رفق بعباده رفق بهم» حتى قال - رحمه الله -: «ومن عامل خلقه بصفة عامله الله - تعالى - بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة، فالله - تعالى - لعبده على حسب ما يكون العبد لخلق».

٢٢٨ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه -، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِلنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ وَالسَّقِيمَ وَالْكَبِيرَ. وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِهِ فَلْيَطْوِلْ مَا شَاءَ» [متفق عليه].
وفي رواية: «وَذَا الْحَاجَّةُ».

* الصلاة عبادة عظيمة، ومن الشفقة والرحمة بالمؤمنين أنه إذا كان الإنسان إماماً لهم فإنه ينبغي أن لا يطيل عليهم في الصلاة، فإن منهم السقيم والضعيف وذا الحاجة والكبير، وفي هذا حرصت الشريعة أن لا تشق على الأمة، وتراعي الضعفة. والمقصود بالتخفيف ما وافق سنة النبي ﷺ وليس المراد ما وافق أهواء الناس.
وفي الحديث قوله ﷺ:

«إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِلنَّاسِ» أي، إذا صلى إماماً.

وفي قوله «فليخفف» الأمر للاستحباب.

وعلى ﷺ ذلك بقوله: «فإن فيهم الضعيف» أي المريض.

«والسقيم» النحيل.

«والكبير» أي، سنّاً.

«وذا الحاجة» أي، صاحب الحاجة.

قال ابن تيمية: «الواجب على المسلم أن يرجع في مقدار التخفيف والتطويل إلى السنة، وبهذا يتبين أن أمره بالتخفيف لا ينافي أمره بالتطويل أيضاً في حديث عمار الذي في الصحيح لما قال: إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئة من فقهه، فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة. وهناك أمرهم بالتخفيف ولا منافاة بينهما فإن الإطالة هنا بالنسبة إلى الخطبة والتخفيف هناك بالنسبة إلى ما فعل بعض الأمة في زمانه من قراءة البقرة في العشاء الآخرة».

وقد نهى النبي ﷺ عن نقر كنقر الديك، وفي رواية «كنقر الغراب». قال ابن دقيق العيد: «التطويل والتخفيف من الأمور الإضافية فقد يكون الشيء خفيفاً بالنسبة إلى عادة قوم، طويلاً بالنسبة لعادة آخرين». وقال النووي: «في الأحاديث الأمر للإمام بتخفيف الصلاة، بحيث لا يخل بسننها ومقاصدها، وإنه إذا صلى لنفسه طول ما شاء في الأركان التي تحتمل التطويل، وهي القيام والركوع والسجود والتشهد، دون الاعتدال والجلوس بين السجدين».

والحديث: يدل على التخفيف في صلاة الإمام، والحكم فيها مذكور مع علته، وهو المشقة اللاحقة للمؤمنين إذا طول. وعلى الإمام مراعاة أحوال المأمومين والرفق بهم، فإن فيهم الضعيف والصغير وذو الحاجة، فيراعي أحوالهم ويرفق بهم ويشجعهم على المجيء، وليس الناس سواء فإنه متى أطال عليهم شق عليهم ونفرهم من الحضور. فصلاة يخشع فيها الناس ويطمئنون فيها ولو قليلاً خير من صلاة يحصل فيها عدم الخشوع ويحصل فيها الملل والكسل.

والمشروع التخفيف في الصلاة باقتصار قراءة الإمام على أواسط المفصل وقصار السور، وفي التسبيح في الركوع والسجود، على ثلاث مرات، وهذا في إمامة العامة.

قيل: وأولى ما أخذ حد التخفيف قول النبي ﷺ لعثمان بن أبي العاص: «أنت إمام قومك، واقدر القوم بأضعفهم» [رواه أبو داود].

٢٢٩ - وعن عائشة - رضي الله عنها - قَالَتْ: إِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيَدْعُ الْعَمَلَ، وَهُوَ يَحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ، خَشْيَةً أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ». [متفق عليه].

* من رحمة الله - عز وجل - بأمة محمد ﷺ أن جعل الدين يسر، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

ومن تلك الرحمة أن خفف عليهم مدة الإمساك في الصيام، فجعلها من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس، بعد أن كان معظم الليل داخلاً في الإمساك، وزيادة في التيسير رغب ﷺ في تعجيل الفطر وتأخير السحور. وما كان ﷺ ليرك العمل وهو يحب أن يعمل به لما فيه من التقرب إلى الله - عز وجل -، ولكن لخوفه ﷺ أن يعمل به الناس اتباعاً إذا فعله وهم مقتدون به في سائر الأحوال فيفرض عليهم.

ومن ذلك ما فعله ﷺ في رمضان، حيث صلى في رمضان ذات ليلة، فعلم به أناس من الصحابة، فاجتمعوا إليه وصلوا معه، وفي الليلة الثانية صلوا أكثر، ثم ترك الصلاة في المسجد.

فقال ﷺ: «أما بعد فإنه لم يخف علي مكانكم» يعني ما جرى منكم من الاجتماع «ولكن كرهت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها» فترك هذا القيام خوفاً أن يفرض على الأمة.

وكان ﷺ يقول: «لولا أن أشق على أمتي لفعلت كذا وكذا، أو لأمرت بكذا وكذا» مثل قوله «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة». ومن ذلك أيضاً نهيه ﷺ للصحابة عن الوصال في الصيام.

وذلك رحمة منه وشفقة على أمته، كما قال تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قولها «خشية أن يفرض عليكم» قال بعض العلماء: «وكان النبي ﷺ يدع كثيراً من الأعمال الظاهرة»
في الحديث: رحمة الرسول ﷺ وشفقته بأمته.

٢٣٠ - وعنّها - رضي الله عنها - قالت: نهّاهم النبي ﷺ عن الوصال رحمةً لهم، فقالوا: إنك تواصل؟ قال: «إني لست كهيتكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني» [متفق عليه].
معناه: يجعل في قوّة من أكل وشرب.

* حرص النبي ﷺ على التخفيف والتيسير على أمته في الدين خوفاً من أن يغلبوا ويعجزوا، فإنه لما رأى أصحابه يصومون ويواصلون الصوم دون الإفطار بالليل نهّاهم عنه رحمة وشفقة بهم، فقالوا: إنك تواصل؟ وهذا سؤال استفسار عن شأنه ﷺ أن يواصل وينهى عن الوصال، لأنه كان قدوة لأصحابه وكان إذا أمرهم بأمر فعله، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره.

فبين لهم النبي ﷺ حاله وأنها مختلفة عن حالهم، فقال:

«إني لست كهيتكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني».

قال ابن كثير: «الأظهر أن ذلك الطعام والشراب في حقه إنما كان معنوياً لا حسيّاً، وإلا فلا يكون مواصلاً مع الحسي».

وحمل على اكتفائه ﷺ بالذكر في حال الوصال، وإنما كان النبي ﷺ ينهى أمته على الوصال رحمة بهم وشفقة عليهم.

قال ابن القيم: «ومن تأمل قول النبي ﷺ لما نهّاهم عن الوصال فقالوا: إنك تواصل، فقال: «إني لست كهيتكم، إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني» علم أن هذا طعام الأرواح وشرابها وما يفيض عليها من أنواع البهجة واللذة والسرور والنعيم، الذي رسول الله ﷺ في الذروة العليا منه وغيره إذا تعلق بعبارة رأى ملك الدنيا ونعيمها بالنسبة إليه هباءً منثوراً بل باطلاً وغروراً...».

قال القاضي عياض: «النهي عن الوصال نهي رحمة وتخفيف».

قال ابن القيم عن الذكر: «قوت القلب والروح، فإذا فقد العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته، وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله - تعالى - إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إلي وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي».

وقال - رحمه الله - : «لا تظن أن نفسك هي التي ساقطت لفعل الخيرات، بل اعلم أنك عبد أحبك الله فألهمك فعل الخيرات، فلا تفرط في هذه المحبة».

وفي الحديث: النهي عن الوصال في الصيام.

وفيه: رحمة النبي ﷺ ورأفته بأمته وشفقته عليها.

وفيه: أن النبي ﷺ في الوصال يطعمه ربه ويسقيه.

٢٣١ - وعن أبي قتادة الحارث بن ربعي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَأَقُومُ إِلَى الصَّلَاةِ، وَأُرِيدُ أَنْ أَطَوِّلَ فِيهَا، فَأَسْمَعَ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَآتَجَوِّزَ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةً أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ» [رواه البخاري].

* الصلاة عماد الدين، وهي الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين، وعلى المسلم تعلم الأحكام الشرعية وخاصة الصلاة حتى يقيمها كما أمر الله - عز وجل -.

وقد ذكر الله - عز وجل - نبينا محمداً وخصه بوصف الرحمة، ولم يوصف به غيره من الأنبياء، مثل قوله تعالى ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ويعرض للصلاة جملة من الأحكام الشرعية الخاصة بها، ومن أحكام الصلاة مراعاة الأمر الطارئ وقت أدائها كالتجوز فيها عند سماع الصبي مع سبق إرادة الطول فيها، وكان إطالتها لعارض.

وفي الحديث: «إِنِّي لَأَقُومُ إِلَى الصَّلَاةِ وَأُرِيدُ أَنْ أَطَوِّلَ فِيهَا» لأنها قرعة عينه، وفيها مناجاة ربه، ولذا أنسه.

«فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَآتَجَوِّزُ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةً أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ» أي، فأخفف في صلاتي رحمة بأمه التي تسمع بكاءه.

ومعنى أتجوز: أي أخفف كراهية أن أشق على أمه لو أطلت القراءة. وهذا من رحمته وشفقته ﷺ، لأن بكاء الصبي ربما شق عليها وآذاها وأشغلها كثيراً عن صلاتها. فيخفف ﷺ الصلاة لأجل ذلك. ولأن الطفل إذا صار يبكي في الصلاة وأمه تصلي مع الإمام فإنه يحصل لها تشويش وربما تجاوز أمه وشوش على المصلين والإمام.

قال بعض الصحابة: خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشي (الظهر أو العصر) وهو حامل حسناً أو حسيناً فتقدم النبي ﷺ فوضعه (عند

قدمه اليمنى) ثم كبر للصلاة فصلّى، فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها، قال: فرفعت رأسي (من بين الناس) فإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد، فرجعت إلى سجودي، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة، قال الناس: يا رسول الله! إنك سجدت بين ظهراني صلاتك هذه سجدة أطلتها، حتى ظننا أنه قد حدث أمر، أو أنه أوحى إليك!

قال: «كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي

حاجته» [رواه ابن خزيمة وصححه الألباني].

وعن أبي قتادة قال: «بينما نحن في المسجد جلوس خرج علينا رسول الله ﷺ يحمل أمامة بنت أبي العاص بن الربيع، وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ وهي صبية يحملها على عاتقه، فصلّى رسول الله ﷺ وهي على عاتقه، يضعها إذا ركع ويعيدها إذا قام، حتى قضى صلاته، يفعل ذلك بها».

وقد سئل الشيخ ابن باز -رحمه الله-: هل نمنع الأطفال من المجيء للمسجد في التراويح مع الأمهات لكثرة الإفساد والأزعاج؟ فأجاب: «يتركون كما جاء في الأحاديث، ويسع الآخرين مما وسع الأولين».

وفي الحديث: بيان سماحة الإسلام ويسره بحيث يراعي حالات الناس وقدراتهم فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها. وفيه: دليل على الرفق بالمؤمنين وسائر الأتباع، ومراعاتهم.

٢٣٢ - وعن جُنْدُب بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى صَلَاةَ الصُّبْحِ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ فَلَا يَطْلُبُنْكَمُ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبُهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ يُدْرِكْهُ، ثُمَّ يَكْبَهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ» [رواه مسلم].

* فرض الله - عز وجل - على المسلم الصلوات الخمس، وأجزل العطاء لمن حافظ عليها وقام بها، وتوعد من تركها، وفي هذا الحديث الحث على صلاة الفجر، وفيه غاية التحذير من التعرض بسوء لمن صلى الصبح المستلزمة لصلاة بقية الخمس، وأن في التعرض له بسوء غاية الإهانة والعذاب.

«من صلى صلاة الصبح» أي، جماعة، كما في رواية أخرى لمسلم. «فهو في ذمة الله» أي، أمانه وعهده وجواره.

قال النووي: «الذمة هنا: الضمان، وقيل الأمان».

قال ابن الجوزي: «معنى الحديث أن من صلى الفجر فقد أخذ من الله ذماماً، فلا ينبغي لأحد أن يؤذيه بظلم، فمن ظلمه فإن الله يطالبه بذمته».

وقال الطيبي: «وإنما خص صلاة الصبح بالذكر، لما فيها من الكلفة والمشقة، وأداؤها مظنة خلوص الرجل، ومنه إيمانه، ومن كان مؤمناً خالصاً فهو في ذمة الله - تعالى - وعهده».

قال القرطبي، وقوله: «من صلى الصبح فهو في ذمة الله»: أي، في أمان الله، وفي جواره، أي: قد استجار بالله - تعالى -، والله - تعالى - قد أجاره، فلا ينبغي لأحد أن يتعرض له بضر أو أذى، فمن فعل ذلك فالله - تعالى - يطالبه بحقه، ومن يطلبه لم يجد مفراً ولا ملجأ، وهذا وعيد شديد لمن يتعرض للمصلين، وترغيب في حضور صلاة الصبح».

قال أهل العلم: خصت صلاة الصبح بذلك، لأن الناس يحتاجون بعدها إلى هذا الحفظ لأنهم ينتشرون في أعمالهم ويتفرقون في بيعهم وأسواقهم وشرائهم وحوادثهم، فقد يصل إليهم شيء من الأذى بسبب هذه الخلطة بالناس، فيحتاجون إلى مثل هذه الكلاءة والحفظ والرعاية من الله - تعالى -.

وقد ذكر عن الحجاج وهو صاحب البطش والظلم أنه كان إذا جيء له برجل ليبطش به، سأله: هل صلى صلاة الصبح في جماعة؟ فإن أخبره أنه صلاها في جماعة تركه وأعرض عنه.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن فضيلة الدخول في ذمة الله - تعالى - وجواره، المذكورة في الحديث إنما تثبت لمن صلى الصبح في جماعة، وقيل إن هذه الفضيلة تحصل لكل من صلى صلاة الصبح في وقتها، حتى ولو لم يدرك الجماعة.

وقال في فيض القدير: «وقيل: المراد بالحديث هو التحذير من ترك صلاة الصبح».

وقال ابن عثيمين: «**من صلى الفجر**» ظاهره من صلى في جماعة أو غير جماعة، وقوله «**فهو في ذمة الله**» أي: في عهده، يعني أنه دخل في عهد الله، فكأنه معاهد لله - عز وجل - أن لا يصيبه أحد بسوء، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**فلا يطلبنكم الله في ذمته بشيء**» يعني لا يترك عهد على من صلى الفجر، لأنه في ذمة الله، وفي عهده، فإياكم أن يطلبكم الله - تعالى - من ذمته بشيء».

«**فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يدركه، ثم يكبه على وجهه في نار جهنم**» ففي هذا دليل على أنه يجب احترام المسلمين الذين صدقوا إسلامهم بصلاة الفجر، لأن صلاة الفجر لا يصلحها إلا مؤمن، وأنه لا يجوز لأحد أن يعتدي عليهم. أو أن يتعرض لهم بسوء أو أذى.

وذكر العلماء من ثمار صلاة الفجر: الدخول في ذمة الله، وأن له أجر قيام الليل، وبراءة من النفاق، والنور التام يوم القيامة، وشهود الملائكة له، وثناؤهم عليه عند الله - تعالى -، وركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها، والفوز برؤية الله - تعالى - يوم القيامة، وغيرها من الثمار العظيمة.

٢٣٣ - وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يُسْلَمُهُ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [متفق عليه].

* في هذا الحديث جملة من الأعمال ذات النفع المتعدي الذي ينفع الله به صاحبها، ومن تؤدي له الخدمة، وهذا الحديث عظيم جامع لأنواع من العلوم والقواعد والآداب، وفيه فضل المحافظة على الأخ ونصرته، وتفريج كربته وستره.

قال ﷺ:

«المسلم أخو المسلم» أي، أخوة الدين، وهي أخوة ثابتة راسخة في الدنيا والآخرة.

«لا يظلمه» هو خبر بمعنى الأمر. أي، لا يظلمه لا في ماله، ولا في بدنه، ولا في عرضه، ولا في أهله. فإن ظلم المسلم للمسلم حرام.

«ولا يسلمه» أي، لا يتركه مع من يؤذيه، ولا فيما يؤذيه سواء من عدو، أو نفسه الأمانة بالسوء أو إلى شيطانه، بل ينصره، ويدفع عنه، وهذا أخص من ترك الظلم.

«ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته» أي، من كان قائماً في حاجة أخيه المسلم يقضيها له ويساعده فيها، فإن الله - عز وجل - يعينه ويساعده في حاجته جزاء وفاقاً. ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وفي الحديث: «لئن أمشي مع أخ في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد (مسجد المدينة) شهراً» [السلسلة الصحيحة].

«ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة».

الكرب: ما يضيق على الإنسان ويشق عليه، ويكدر حياته، ويجد له في نفسه همًا وغمًا ومشقة. فمن فرج وأزال كرب أخيه المسلم من قضاء دينه أو غيره، فإن الله يفرج عنه بهذا العمل كربة من كرب يوم القيامة.

قال النووي: «في هذه فضل إعانة المسلم وتفريج الكرب عنه وستر زلاته، ويدخل فيه كشف الكرب وتفريجها من أزالها بماله أو جاهه، أو مساعدته، والظاهر أنه يدخل فيه من أزالها بإشارته ورأيه ودلالته».

قال ابن بطال: «وباقى الحديث حض على التعاون، وحسن التعاشر، والألفة، والستر على المؤمن، وترك التسمع به، والإشهار لذنبه».

«ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة».

وأما الستر المندوب إليه فالمراد به الستر على ذوي الهيئات ونحوهم ممن ليس معروفًا بالأذى والفساد، فأما المعروف بذلك فيستحب أن لا يستر عليه، بل ترفع قضيته إلى ولي الأمر، إن لم يخف من ذلك مفسدة. لأن الستر على هذا يطمعه في الإيذاء والإفساد، وانتهاك الحرمات وجسارة غيره على مثل فعله، هذا كله في ستر معصية وقعت وانقضت، أما معصية رآه عليها وهو بعد متلبس بها فتجب المبادرة بإنكارها عليه ومنعه منها على من قدر على ذلك، ولا يحل تأخيرها فإن عجز لزمه رفعها إلى ولي الأمر إذا لم تترتب على ذلك مفسدة».

ومن منافع وفوائد قضاء الحوائج:

تثبيت القدم في الآخرة، لقوله ﷺ **«ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى تهياً له أثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام»** [السلسلة الصحيحة].

ومنها: أن الله ييسر عسره، لقوله ﷺ **«ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر على مسلم ستر الله عليه في الدنيا والآخرة»**. [رواه مسلم].

ومنها: أن الله يفرج عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومنها أنها تقي مصارع السوء، لقوله ﷺ **«صنائع المعروف تقي مصارع السوء»** [رواه الطبراني].

٢٣٤ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «المُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَخُونُهُ وَلَا يَكْذِبُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ عَرَضُهُ وَمَالُهُ وَدَمُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ» [رواه الترمذِيُّ وقال: حديث حسن].

* في هذا الحديث الجليل قواعد عظيمة في تعامل المسلم مع أخيه المسلم، لتجتمع القلوب، وتصفو النفوس، وينتظم أمر المجتمع.
قال ﷺ:

«المسلم أخو المسلم» أي، فليتعامل المسلمون فيما بينهم وليتعاشروا معاملة الإخوة، ومعاشرتهم في المودة والرفق، والشفقة والملاطفة، والتعاون في الخير ونحو ذلك، مع صفاء القلوب والنصيحة بكل حال.
«لا يخونه» من الخيانة في معنى الأمر. لا يغدر به في محل الائتمان. أي، أن يكون أميناً معه في كل ما يتطلب الأمانة.

«ولا يكذبه» أي، إذا حدثه يكون صادقاً معه في حديثه، ولا يكذب.

«ولا يخذله» أي، لا يترك نصرته وإعانتته.

قال النووي: «معناه إذا استعان به في دفع ظالم ونحوه لزمه إعانتته إذا أمكنه ولم يكن له عذر شرعي».

ثم قال ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام»

«عرضه» أي، بأن لا تنتهك عرضه، وتتكلم فيه بين الناس، سواء صادقاً فيما تقول أو كاذباً، لأن النبي ﷺ لما سئل عن الغيبة قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قالوا: يا رسول الله أرايت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد أغبتته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتته» [رواه مسلم].

والعرض، موضع المدح والذم من الإنسان سواء كان في نفسه أو في سلفه أو من يلزمه أمره. وقيل: هو جانبه الذي يصونه من نفسه وحسبه، ويحامي

عنه أن ينتقص ويغلب. ويدخل في ذلك السب والشتم والغيبة والنميمة، أو أن يقذفه بما ليس فيه.

«وماله» وذلك بأن لا يأخذ من ماله شيئاً، لا بسرقة ولا برشوة وغيرها.

«ودمه» أي، بعدم التعدي عليه لا بالقتل ولا بالجرح، أو نحو ذلك.

«بحسب أمرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم» أي، حسبه وكافيه من خلال

الشر ورذائل الأخلاق احتقار أخيه المسلم. أي، لو لم يكن من الشر للمسلم إلا أن يحقر أخاه ويستصغره ويستنذله، لكان كافياً في الإثم والعياذ بالله، والواجب احترام المسلم وتقديره وإنزاله منزلته وتعظيمه لما فيه من الإسلام والإيمان.

قال القرطبي: «هذا إنما يصدر في الغالب عمن غلب عليه الكبر والجهل، وذلك أنه لا يصح له استصغار غيره حتى ينظر إلى نفسه بعين أنه أكبر منه وأعظم، وذلك جهل بنفسه، وبحال المحتقر، فقد يكون فيه ما يقتضي عكس ما وقع للمتكبر»

وغالب الإحتقار يكون من داء الكبر - والعياذ بالله - وقد جاء في الحديث **«لا**

يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر» وقد فسره عليه السلام في الحديث بقوله:

«الكبر بطر الحق وغمط الناس» أي، احتقارهم، ومنه أن لا يبدأه بالسلام احتقاراً له ولا يرده عليه.

وفي الحديث: التحريض على أخوة الإسلام وحفظها ومراعاتها.

وفيه: التحذير من الغيبة وخذلان المسلم وخيانتة.

وفيه: النهي عن حقن المسلم لأخيه المسلم.

٢٣٥ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تبأغضوا ولا تدابروا ولا يبيع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً . المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يأخذله . التقوى ها هنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب أمريء من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » [رواه مسلم] .

النَّجَشُ أَنْ يَزِيدَ فِي ثَمَنِ سَلْعَةٍ يُنَادِي عَلَيْهَا فِي السُّوقِ وَنَحْوَهُ ، وَلَا رَغْبَةَ لَهُ فِي شِرَائِهَا بَلْ يَقْصِدُ أَنْ يَغَرَّ غَيْرَهُ ، وَهَذَا حَرَامٌ . وَالتَّدَابُرُ : أَنْ يُعْرَضَ عَنِ الْإِنْسَانِ وَيُهْجَرَهُ وَيَجْعَلَهُ كَالشَّيْءِ الَّذِي وَرَاءَ الظَّهْرِ وَالدُّبْرِ .

* ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث الذي أورده المؤلف في تعظيم حرّمات المسلمين ، بعضاً من الآداب والوصايا في التعامل بين المسلمين حتى لا يقع ظلم على أحد منهم ، وحتى تصفو النفوس ، وتزداد المودة . قال ﷺ :

« لا تحاسدوا » أي ، لا يحسد بعضكم بعضاً ، والحسد مركوز في طباع البشر . وهو أن يكره الإنسان أن يفوقه أحد من جنسه في شيء من الفضائل . وقد انعقد الإجماع على تحريمه وقبحه .

والحسد : هو تمني زوال النعمة عن الغير ، وهو خلق ذميم ، ومنه الغبطة : وهي تمني أن يكون له مثل ما لأخيه من غير تمني زوالها عن أخيه .

وفي الحسد مفسد كثيرة : منها أنه تشبه باليهود وهو دليل على خبث نفس الحاسد ، وفيه اعتراض على قدر الله وقضائه وما وهب - جل وعلا - لعباده .

ومن مفسده أنه يأكل الحسنات . قال ﷺ : « إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » [رواه أبو داود] وغير ذلك من المفسد .

قال ابن تيمية : « لا يخلو جسد من حسد ، ولكن الكريم يخفيه والليثم يبيديه » .

«ولا تناجشوا» هي الزيادة في البيع لا من أجل الشراء، لكن من أجل نفع البائع والإضرار بالمشتري، وقيل: المراد الخداع في جميع المعاملات من غش واحتيال وغيرها، وفي النهي عنها حماية للأنفس وحماية للأموال وحماية للغير.

«ولا تباغضوا» أي، لا تتعاطوا أسباب التباغض، فيبغض بعضكم بعضاً، بل يحبه، ومن أسبابها الغيبة والنميمة، والسخرية والتنازع بالألقاب.

في الحديث: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا». قال في فتح الباري: «أي، لا تتعاطوا أسباب البغض لأن البغض لا يكتسب ابتداءً».

«ولا تدابروا» التدابر: هو الهجر والتقاطع، ومعناه: أن لا يولي أحدكم الآخر دبره من إعراضه عنه وكراهيته له من أجل دنيا وعرض زائل ويقاطعه ويهجره، والتدابير محرم وسبب في رفع الخير، وحرمان من عرض العمل على الله - تعالى -.

«ولا يبيع بعضكم على بيع بعض» أي لا يبيع سلعة باعها أخوه المسلم فيترك المسلم السلعة الأولى فيجعل البائع يبغض المشتري لعدم التزامه بالبيع. «وكونوا عباد الله إخواناً» أي اكتسبوا ما تصيرون به إخواناً مما سبق ذكره وغيره، مما يدعوا إلى الألفة ويمنع من النفرة.

«التقوى» وهي اجتناب عذاب الله بفعل المأمور وترك المحذور. «هاهنا» يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات. والتقوى محلها القلب، فإذا اتقى القلب، اتقت الجوارح، وإذا لم يتق القلب، لم تتق الجوارح، وفي الحديث: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد

الجسد كله، ألا وهي القلب» [رواه البخاري].

ثم ذكر ﷺ بأخوه الدين وهي أقوى الوشائج وأعظمها ومن هذه المحبة أن لا يظلمه ولا يترك نصرته، ولا يكذب عليه ولو مازحاً، ولا يهضم حقه، ولا يسخر به ولا يستهزئ به ولا يعيبه، ولا يستصغر شأنه ويضع من قدره.

ثم ختم ﷺ الحديث بحرمة دم المسلم بالقتل أو الجرح أو غيره، وماله من السرقة أو الغش أو غيرها، وعرضه من الغيبة والنميمة والاستهزاء والقذف. وفي الأخذ بهذا الحديث النبوي العظيم تصفو النفوس وتصلح الأحوال وتطيب الحياة.

٢٣٦- وعن أنس - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» [متفق عليه].

* هذا الحديث أصل عظيم وميزان شرعي في محبة المسلمين والنصح لهم وإرشادهم ومعاملتهم كمعاملة النفس، ولو عمل به الناس لقضى على كثير من المنكرات والخصومات بينهم.

فإن من متطلبات الإيمان ولوازمه أن يحب المسلم لأخيه (أي أخوة الإسلام والإيمان) ما يحب لنفسه، وأن هذا واجب وهو ما كان من أمور الدين أو من الأمور التي يرغب فيها الشارع وأمر بها أمر إيجاب أو أمر استحباب. وكذلك ما نهى عنه الشارع فيحب لأخيه أن ينتهي عن المحرمات، ويحب لأخيه أن يأتي بالواجبات، وقد يكون مؤمناً، ولكن لا يؤمن من الإيمان الذي يجعله يرقى في درجات القرب.

ومن تحلى بهذه الخصلة العظيمة كان مستحقاً لدخول الجنة: قال ﷺ: «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتي إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه» [رواه مسلم].
وفي مسند الإمام أحمد عن يزيد القسري قال: قال لي رسول الله ﷺ «أَتَحِبُّ الجنة؟».

قلت: نعم.

قال «فأحب لأخيك ما تحب لنفسك»

وذلك أنه لما كان المسلم محسناً لإخوانه في الدنيا، مشفقاً عليهم، حريصاً على نفعهم، جازاه الله بالإحسان في الآخرة وأدخله دار كرامته. وإنما يقدر على هذه الخصلة ويقوى عليها من رزق سلامة الصدر، وكان قلبه خالياً من الغل والغش والحسد.

قال عليه السلام: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» أي، لا يكون مؤمناً حقاً تام الإيمان، إلا بهذا الشرط، أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير، وما يحب لنفسه من الطاعات والمباحات، ومن ترك الشر والمنكرات، وإذا كان كذلك فإنه لا يمكن أن يغشهم أو يخونهم، أو يكذب عليهم.

قال العلماء: «وفي هذا الحديث من الفقه أن المؤمن مع المؤمن كالنفس الواحدة فينبغي أن يحب له ما يحب لنفسه من حيث إنها نفس واحدة».

قال ابن رجب: «وينبغي للمؤمن أن يحزن لفوات الفضائل الدينية، ولهذا أمر أن ينظر في الدين إلى من فوقه، وأن يتنافس في طلب ذلك جهده وطاقته، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] ولا يكره أن أحداً يشاركه في ذلك، بل يحب للناس كلهم المنافسة فيه، ويحثهم على ذلك، وهذا من تمام النصيحة للإخوان، فإذا فاقه أحد في فضيلة دينية، اجتهد على لحاقه، وحزن على تقصير نفسه وتخلفه عن لحاق السابقين لا حسداً لهم على ما آتاهم الله، بل منافسة لهم وغبطة، وحزناً على النفس لتقصيرها وتخلفها عن درجات السابقين».

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «إني لأمر على الآية من كتاب الله، فأود أن الناس كلهم يعلمون منها ما أعلم».

وقال الشافعي - رحمه الله -: «وددت أن الناس تعلموا هذا العلم، ولم ينسب إليّ منه شيء».

وفي الحديث: محبة المسلمين، وتعظيم حرمانهم ونفعهم.

٢٣٧ - وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: «تَحْجُزْهُ أَوْ تَمْنَعْهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ» [رواه البخاري].

* الإسلام دين العدالة والإخوة، وإنصاف المظلوم، ورد المظالم، وكف الظالم وإقامة الحقوق. وكانت النصرة في الجاهلية قائمة على القبلية والعصبية، فلما جاء الإسلام نقل ذلك النصر إلى البناء بدلاً من الهدم، ومن الباطل إلى الحق.

والظلم: هو وضع الشيء في غير محله، وقد حرمه الله - تعالى - على نفسه، وحرمه على الناس، وذلك فيما رواه ﷺ في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً».

وفي الحديث قوله ﷺ:

«انصر أخاك» أي، ولا تخذله.

قال ابن بطال: «والنصرة عند العرب: الإعانة والتأييد، وقد فسر رسول الله أن نصر الظالم منعه من الظلم، لأنه إذا تركته على ظلمه ولم تكفه عنه، أداه ذلك إلى أن يقتصص منه، فمنعك له مما يوجب عليه القصاص نصره، وهذا يدل من باب الحكم للشيء وتسميته بما يؤول إليه».

«ظالمًا» كان، لأنه مظلوم حقيقة.

«أو مظلومًا» بأن تعدى عليه إنسان في نفسه أو ماله أو عرضه.

(فقال رجل أنصره إذا كان مظلومًا) أي، بدفع الظلم أو منعه منه.

(أرأيت إن كان ظالمًا كيف أنصره؟) أي، أخبرني إن كان أخي ظالمًا

بالتعدي على الغير. كيف أنصره؟

قال ﷺ: «تَحْجُزْهُ أَوْ تَمْنَعْهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ» أي، تمنعه من الظلم،

فإن هذا المنع نصره.

وينقسم الظلم إلى ثلاثة أنواع:

الأول: ظلم الإنسان لربه، وذلك بكفره، كما قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] ويكون بالشرك لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

الثاني: ظلم الإنسان نفسه وذلك باتباع الشهوات وإهمال الواجبات، واقتراف الذنوب والسيئات، قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦].

الثالث: ظلم الإنسان لغيره من عباد الله ومخلوقاته، وذلك بأكل أموال الناس بالباطل، وظلمهم بالضرب والشتم والتعدي، والاستطالة على الضعفاء الذين يقع الظلم عليهم غالباً لأنه لا يقدر على الانتصار لنفسه.

قال العلماء: «نصر المظلوم فرض واجب على المؤمنين على الكفاية، فإن قام به أحد سقط عن الباقيين، ويتعين فرض ذلك على السلطان، ثم على من له قوة على نصرته إذا لم يكن له من ينصره غيره من سلطان وشبهه، والمقصود من نصره كف المعتدي، والحيلولة بينه وبين إلحاق الأذى بالمظلوم، والشهادة له عند الحاكم، لا مهاجمة المعتدي ومقاتلته، لئلا ينتصر له آخرون وتتسع الدائرة، فموقف الناصر كموقف صاحب المال من الصائل، عليه أن يدفع بالأخف، فإن لم يرتدع إلا بأشد دفع به، فإن دفع بالأشد مع إمكانه الردع بالأخف أثم، وكيفية نصر الأخ الظالم كما وضحها الرسول ﷺ تكون بمنعه من الظلم، إذ في ذلك نصر له على شيطانه الذي يغويه، وعلى نفسه الشريرة التي تدفعه إلى السوء وتطغيه، ثم هو إذا ترك على ظلمه أداه ذلك إلى أن يقتص منه، فمنعك له من جوب القصاص نصرة له، فإذا حلت دون الظلم وكان الظالم والمظلوم مسلمين فقد نصرت المظلوم والظالم معاً بالمعنى السابق».

وإذا كان الظالم مسلماً والمظلوم غير مسلم فقد نصرت أخاك الظالم بمنعه من ظلمه لنفسه، وإذا كان المظلوم مسلماً والظالم غير مسلم فقد نصرت أخاك بدفع الأذى عنه، وإذا كان الظالم والمظلوم غير مسلمين فلا يجب عليك النصرة».

٢٣٨ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلَامِ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ الْغَاطِسِ» [متفق عليه].

وفي رواية لمسلم: «حَقُّ الْمُسْلِمِ سِتٌّ: إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدِ اللَّهَ فَشَمِّتْهُ. وَإِذَا مَرَضَ فَعُدَّهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ».

* جمع النبي ﷺ في الحديثين خمسة أو ستة حقوق المسلم على المسلم، فيها إشاعة روح المحبة والترابط والتواد بين المسلمين.
قال البغوي: «وهذه الأمور كلها يستوي فيها جميع المسلمين برهم وفاجرهم، غير أنه يختص البر بنحو بشاشة ومساءلة ومصافحة دون المظهر للفجور».

ومن حقوق المسلم ما ذكره النبي ﷺ في هذا الحديث بقوله «**حق المسلم على المسلم**» عبر عنه بالحق، والحق هو الشيء الثابت، والمقصود حق الحرمة والصحة. وهو الأمر الواجب المتعين.

«**رد السلام**» وذكر رد السلام، والحق وجوب العين والكفاية والندب، والمراد هنا الحقوق المشتركة بين المسلمين. لأنه أكد من ابتداء السلام الذي هو سنة مؤكدة. وهو من الصغير على الكبير، ومن الماشي على القاعد، ومن الراكب على الماشي. وفي ترك لقاء السلام نوع احتقار وعدم اهتمام، وإشاعة السلام من أسباب المحبة بين المسلمين وإزالة الجفوة، في الحديث «**والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم**» [رواه مسلم].

قيل: وإنما وجب رد السلام لأن معناه الأمان، فإذا ابتدأ به المسلم أخاه فلم يجبه يتوهم منه الشر فيجب عليه دفع ذلك الوهم.

«وعيادة المريض» أي، زيارته في حال مرضه.

في الحديث **«من عاد مريضاً لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع»** قيل: يا رسول الله: ما خرفة الجنة؟ قال **«جناها»** [رواه مسلم].

ويستحب إذا زاره أن يقعد جنب رأسه وأن يدعو له بما كان النبي ﷺ يدعو لمن يزوره، حيث دخل ﷺ على رجل يعود فقال **«لا بأس طهور إن شاء الله»** وأن يدعو له بالشفاء ويدخل السرور عليه ولا يشق عليه بطول المكوث عنده.

«واتباع الجنائز» أي، الصلاة عليه وتشيعه حتى يدفن، قال ﷺ **«من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط، ومن شهدا حتى تدفن كان له قيراطان»** قيل: وما القيراطان؟ قال: **«مثل جبل أحد»** [رواه البخاري ومسلم].

«وإجابة الدعوة» وهي مؤكدة جداً، إلا وليمة العرس فإنها واجبة، ويرخص في ذلك إذا كان هناك منكر لا يستطيع إنكاره.

«وتشميت العاطس» الدعاء له بخير، وهو أن يقول إذا عطس وحمد الله: يرحمك الله، ثم يرد العاطس: يهديكم الله ويصلح بالكم.

قال النووي: «إذا كثر العطاس من إنسان متتابعاً فالسنة أن يشمته لكل مرة إلى أن يبلغ ثلاث مرات. وأما إذا عطس ولم يحمد الله - تعالى - فإنه لا يشمت، وكذا لو حمد الله - تعالى - ولم يسمعه الإنسان لا يشمته».

«وإذا استنصحك فانصح له» قال النووي: «فمعناه طلب منك النصيحة، فعليك أن تنصحه، ولا تداهنه، ولا تغشه، ولا تمسك عن بيان النصيحة».

وقال ابن رجب: «من أعظم أنواع النصح أن ينصح لمن استشاره في أمره».

وقال السعدي - رحمه الله -: وفي بعض الأحاديث **«إن من حق المسلم على المسلم أن ينصح له إذا غاب»** ومعنى ذلك إذا ذكر في غيبه بالسوء أن ينصره ويرد عنه، وإذا رأى من يريد أذاه في غيبه، كفه عن ذلك، فإن النصح في الغيب يدل على صدق النصح، فإنه قد يظهر النصح في حضوره تملقاً، ويغشه في غيبه».

٢٣٩- وعن أبي عُمارة البراء بن عازب - رضي الله عنهما - قال: أمرنا رسول الله ﷺ بسبع: أمرنا بعبادة المريض، وأتباع الجنازة، وتشميت العطاس، وإبرار المُقسَم، ونُصْر المظلوم، وإجابة الدّاعي، وإفشاء السّلام. ونهانا عن خواتيم أو تختم بالذهب، وعن شرب بالفضّة، وعن المياثر الحمر، وعن القسيّ، وعن لبس الحرير والإستبرق والدّيّاج. [متفق عليه].

وفي رواية: وإنشاد الضّالة في السّبع الأول.
المياثر بياء مُثناة قبل الألف، وثاء مثلثة بعدها، وهي جمع مِثْرة، وهي شيء يتخذ من حرير ويخشى قُطناً أو غيره ويُجعل في السُّرُج وكور البعير يجلس عليه الرّاكب والقسيّ بفتح القاف وكسر السين المهملة المشدّدة: وهي ثياب تُنسج من حرير وكتان مُختلطين.
وإنشاد الضّالة: تعريفها.

* ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث جملة من حقوق المسلم على المسلم إظهاراً للتّواد والتراحم.

قال السّعدي: «هذه الحقوق الستة من قام بها في حق المسلمين كان قيامه بغيرها أولى، وحصل له أداء هذه الواجبات والحقوق التي فيها الخير الكثير والأجر العظيم من الله».

وقال الحسن: «إنك لن تبلغ حق نصيحتك لأخيك حتى تأمره بما تعجز عنه».

قال ابن العربي: «عليك برعاية هذه الحقوق وغيرها بالمساواة بين المسلمين كما سوى الإسلام بينهم في أعيانهم، ولا تقل هذا ذو سلطان وجاه ومال، وهذا فقير وحقير، ولا تحقر صغيراً، واجعل الإسلام كله كالشخص الواحد، والمسلمين كالأعضاء لذلك الشخص، فإن الإسلام لا وجود له إلا بالمسلمين كما أن الإنسان لا وجود له إلا بأعضائه وجميع قواه الظاهرة والباطنة».

قال في فيض القدير: «إذا رعيت حق المسلم لله فإن الله يؤتيك أجرًا مرتين من حيث ما أديت من حقه، ومن حيث ما أديت من حق تعين عليك حقه من خلقه».

وذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في بيان حقوق المسلم على أخيه حديث البراء بن عازب وقد تقدم الكلام على خمسة من هذه الأمور، ثم زاد في هذا الحديث حق سادس على المسلم لأخيه المسلم وهو:

«ونصر المظلوم» أي، دفع الظلم عنه، سواء في عرضه أو ماله أو نفسه، وفي الحديث السابق بيان تلك النصرة بقوله ﷺ **«انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»** قالوا: يا رسول الله هذا المظلوم - أي ندفع عنه الظلم، فكيف نصر الظالم؟ قال: **«تمنعه من الظلم، فذلك نصره»** [رواه البخاري].

ونصرة المظلوم فرض على من قدر عليه سواء كان مسلمًا أو ذميًا، ويكون نصره برد الحق إليه وأخذه له من ظالمه.

ثم قال ﷺ **«وإبرار القسم»** أي، إذا أقسم عليك أخوك بشيء فبره ووافقه عليه إذا لم يكن فيه معصية

ثم قال ﷺ **«ونهاننا عن خواتيم أو تختم بالذهب»** أي، لا يحل للرجل أن يتختم بخاتم من الذهب، ولا سوارًا من ذهب، في الحديث **«يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيضعها في أصبعه»** أو قال **«في يده»** ثم نزع النبي ﷺ الخاتم فرمى به... الحديث [رواه مسلم].

وقال في حديث علي بن أبي طالب: **«إن هذين حرام على ذكور أمتي، حل لائناهم»** [رواه الترمذي].

«وعن شرب بالفضة» أي، نهانا عن أن نشرب في آنية الفضة، وتحريم الذهب أشد وأشد، قال ﷺ: **«لا تشربوا في آنية الذهب، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة»** [رواه البخاري].

«وعن المياثر الحمر وعن القسي» المياثر الحمر، فهي مثل المخدة، يجعل في حشوها قطن، ويجعل على هذا القطن خرقة من حرير. وكذلك القسي وغيرها، فإنها كلها من أنواع الحرير.

«وعن لبس الحرير والإستبرق والديباج» للرجال فكله حرام، سواء لبسه للخلاء أو غيرها.

٢٨ - باب ستر عورات المسلمين والنهي عن إشاعتها لغير ضرورة

حرص الإسلام على نشر الفضيلة ووأد الرذيلة، وقطع الطرق الموصلة إليها، ومن ذلك أنه حذر من إشاعة الفاحشة أو إذاعتها قولاً أو فعلاً أو إيماءً، وحث على ستر عيوب المسلمين لئلا يتسلط شياطين الإنس والجن على إizardهم أو استدراجهم إلى مراتع السوء حيث يعرفهم الجاهل ويصل إليهم الفاسق، وكذلك يكون استمرار المعصية واستصغارها وإلفها.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩].

ذم الله - عز وجل - الذين يريدون أن ينتشر الفعل القبيح المفرط في القبح، كإشاعة الرذيلة والزنى وغير ذلك من المنكرات في المؤمنين الأطهار، وتوعدهم بأن لهم عذاباً موجعاً مؤلماً في الدنيا بإقامة الحد وغيره من البلائيا الدنيوية وفي الآخرة بعذاب جهنم.

وإذا كان هذا الوعيد لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة، واستحلاء ذلك بالقلب، فكيف بما هو أعظم من ذلك، من إظهاره ونقله.

وفي هذا الآية دليل على أن العزم على الذنب العظيم عظيم، وأن إرادة الفسق فسق، لأنه - تعالى - رتب الوعيد بمحبة إشاعة الفاحشة.

وقد سئل الإمام أحمد - رحمه الله -: إذا علم من الرجل الفجور أيخبر به الناس؟ قال: لا، بل يستر عليه إلا أن يكون داعية. (يعني لفجوره).

ولهذا ورد النهي عن سوء الظن والتجسس في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَنُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي، ولا يتتبع بعضكم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره، يبتغي بذلك الظهور على عيوبه، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره، وبه فأحمدوا أو ذموا، لا على ما تعلمونه من سرائره. وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «نهى الله المؤمن أن يتتبع عورات المؤمن».

وقال السعدي - رحمه الله -: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي: «لا تفتشوا عن عورات المسلمين ولا تتبعوها، واتركوا المسلم على حاله، واستعملوا التغافل عن أحواله التي إذا فتشت ظهر منها ما لا ينبغي».

قال ابن رجب - رحمه الله -: «وأعلم أن الناس على ضربين: أحدهما: من كان مستوراً لا يعرف بشيء من المعاصي، فإذا وقعت منه هفوة، أو زلة، فإن لا يجوز كشفها ولا هتكها، ولا التحدث بها لأن ذلك غيبة محرمة وهذا هو الذي وردت فيه النصوص.. ثم قال:

والثاني: من كان مشتهراً بالمعاصي، معلناً بها لا يبالي بما ارتكب منها ولا بما قيل له فهذا هو الفاجر المعلن، وليس له غيبة، كما نص على ذلك الحسن البصري وغيره، ومثل هذا لا بأس بالبحث عن أمره لتقام عليه الحدود».

٢٤٠ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: « لا يسترُ عبدٌ عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة » [رواه مسلم].

* الستر: هو إخفاء ما يظهر من زلات الناس وعيوبهم. والله - عز وجل - ستر يحب الستر، ويستر عباده في الدنيا والآخرة.

في الحديث أنه ﷺ قال: «يدنو أحدكم من ربه، فيقول: أعملت كذا وكذا، فيقول: نعم، فيقرره، ثم يقول: إني سترت عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم» [رواه البخاري].

وفي الحديث الآخر أنه ﷺ قال: «إن الله - عز وجل - ستر يحب الحياء والستر» [رواه أبو داود].

وفي هذا الحديث قول النبي ﷺ:

« لا يستر عبد عبداً في الدنيا » أي، إنساناً غير معروف بالشر والأذى على ذنب مضى منه.

«إلا ستره الله يوم القيامة» إما بأن يمحو ذنبه ولا يسأله عليه ابتداء، أو يسأله عنه من غير أن يطلع عليه أحداً من الخلق، وكان الجزاء بالستر ليوافق نفس جزاء هذا العمل، والجزاء من جنس العمل، ولا شك أن الستر في يوم القيامة أعظم وأشمل. فإن جزاء من يستر عبداً في الدنيا الستر يوم القيامة، فالجزاء موافق للعمل، ويكون ستر الله إما يمحو ذنبه فلا يسأله، أو يسأله من غير أن يطلع عليه أحداً ثم يعفو عنه.

ومن رأى من أخيه ذنباً أو خطأ ينبغي عليه أن يستر عليه وينصح له سراً. قال ابن عثيمين - رحمه الله -: «الستر ليس محموداً على كل حال، وليس مذموماً على كل حال، فهو نوعان:

النوع الأول: ستر محمود، ويكون في حق الإنسان المستقيم الذي لم يعهد منه فاحشة، ولم يحدث منه عدوان إلا نادراً، فهذا ينبغي أن يستر وينصح، ويبين له أنه على خطأ، وهذا الستر المحمود.

النوع الثاني: ستر شخص متهاون في الأمور معتد على عباد الله، شرير، فهذا لا يستر، بل المشروع أن يبين أمره لولاية الأمر حتى يردعوه عما هو عليه، وحتى يكون نكالا لغيره.

فالستر يتبع المصالح، فإذا كانت المصلحة في الستر فهو أولى، وإن كانت المصلحة في الكشف فهو أولى، وإن تردد الإنسان بين هذا وهذا، فالستر أولى.

وعن الشعبي: أن رجلاً أتى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقال: إن لي ابنة كنت وأدتها في الجاهلية، فاستخرجناها قبل أن تموت، فأدرت معنا الإسلام فأسلمت، فلما أسلمت أصابها حد من حدود الله، فأخذت الشفرة لتذبح نفسها فأدركناها. وقد قطعت بعض أوداجها، فداويناها حتى برئت، ثم أقبلت بعد بتوبة حسنة، وهي تُخطب إلى قوم، أفأخبرهم من شأنها بالذي كان؟ فقال: عمر - رضي الله عنه -: «أتعمد إلى ما ستر الله فتبديه؟! والله لئن أخبرت بشأنها أحداً من الناس لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار، بل أنكحها نكاح العفيفة المسلمة».

وقال ابن حجر: «الحديث مصرح بدم من جاهر بالمعصية فيستلزم مدح من يستتر، وأيضاً فإن ستر الله مستلزم لستر المؤمن على نفسه، فمن قصد إظهار المعصية والمجاهرة بها أغضب ربه فلم يستره، ومن قصد التستر بها حيأ من ربه ومن الناس من الله عليه بستره إياه».

وفي المجاهرة خمس جنایات:

الأولى: الذنب نفسه.

الثانية: ذكره بعد إتيانه، أو إتيانه في مشهد غيره.

الثالثة: كشف ستر الله الذي أسدل عليه.

الرابعة: تحريك الرغبة في الشر فيمن أسمع ذنبه أو أشهده فعله.

الخامسة: ترغيب غيره فيه، والحمل عليه، وتهيئة الأسباب له.

٢٤١ - وعنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنْ الْمُجَاهِرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ: يَا فَلَانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتَرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ» [متفق عليه].

* الناس في هذه الدنيا معرضون للزلل والوقوع في الإثم والخطأ، وأخبت الناس نفساً، وأجرؤهم على الله الذين لا يستحيون من محاربة الله ومبارزته بالمعاصي.

وفي هذا الحديث الشريف بشرى لأمة محمد ﷺ بأنها أمة معافاة في الدنيا والآخرة، وفي الحديث أيضاً التحذير من المجاهرة بالمعاصي، فإن النفس إذا ألفت ظهور المعاصي زاد انهماكها واستمرأت المنكر، وفي الحديث عن أبي بكر - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ لَا يَغَيِّرُونَهُ أَوْ شَكَ اللَّهُ أَنْ يَعْصِيَهُمْ بِعِقَابِهِ» [رواه الترمذي].

والمجاهرة بالمعصية علامة على الفسق واستمرأ المنكر، ودلالة الناس عليه، وعدم الخوف من الله - عز وجل -، وقلة الحياء الذي هو لب الدين وخلقه، عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ «إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خَلْقًا، وَخَلَقَ الْإِسْلَامَ الْحَيَاءَ» [رواه ابن ماجه].

وفي قوله ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَى» هو من العفو، يعنى كلهم سالمون عن ألسن الناس وأيديهم.

وكلمة معافى لها عدة احتمالات: منها عفو الله عن المذنب الذي لم يجاهر، ومنها تسليمه من العذاب، أو من كلام الناس فيه، فإن هذا لا يفيد الجزم بأن المجاهر لا يغفر له، فإن من تاب إلى الله - تعالى - توبة نصوحاً تاب الله عليه وغفر ذنبه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥].

«إلا المجاهرين» أي، لكن المجاهرين لا يعافون، والمجاهر الذي أظهر معصيته وكشف ما ستر الله عليه فتحدث بها، والمراد التحدث بالمعاصي على سبيل التفاخر، وفيه استخفاف بعظمة الله، وفيه ضرب من العناء. قال ابن حجر في فتح الباري: «المجاهر الذي أظهر معصيته وكشف ما ستر الله عليه فتحدث بها».

«وإن من المجاهرة» أي، الفحش وكثرة الكلام. «أن يعمل العبد عملاً ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول يا فلان عملت البارحة كذا وكذا» وهو الذي يحدثه العاصي عن معصيته بأنه عمل البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عليه. قال ابن بطال: «في الجهر بالمعصية استخفاف بحق الله ورسوله، وبصالح المؤمنين لأن المعاصي تنزل صاحبها، فمن قصد إظهار المعصية، والمجاهرة بها فقد أغضب ربه فلم يستره، ومن قصد الستر بها أكرم الله وتفضل عليه بستره إياها».

قال النووي: «يكبر لمن أثبتلي بمعصية أن يخبر غيره بها. يعني ولو شخصاً واحداً». وقال القرطبي: «هذا من أكبر الكبائر وأفحشها، لأن هذا لا يصدر إلا عن جاهل بقدر المعصية، ومستهين بها، مُصر عليها، مظهر للمنكر، والواحد من هذه الأمور كبيرة فكيف إذا اجتمعت؟! لأنه يجتمع عليه عقوبة تلك الأمور كلها، وسائر الناس ممن ليس على مثل حاله - وإن كان مرتكب كبيرة - فأمره أخف وعقوبته إن عوقب أهون، ورجوعه عنها أقرب من الأول، لأن ذلك المجاهر قل أن يتوب أو يرجع عما اعتاده من المعصية وسهل عليه منها، فيكون كل العصاة بالنسبة إليه إما معافى مطلقاً إن تاب، وإما معافى بالنسبة إليه إن عوقب».

قال ابن القيم: «الذنوب جراحات ورب جرح وقع في مقتل، ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله، وأبعد القلوب عن الله القلب القاسي».

٢٤٢ - وعنه عن النبي ﷺ قال: «إِذَا زَنَتِ الْأُمَّةُ فَتَبَيَّنَ زَنَاهَا فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ، وَلَا يُثْرَبْ عَلَيْهَا، ثُمَّ إِنْ زَنَتِ الثَّانِيَةَ فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ وَلَا يُثْرَبْ عَلَيْهَا، ثُمَّ إِنْ زَنَتِ الثَّلَاثَةَ فَلْيَبْعَهَا وَلَوْ بِحَبْلٍ مِنْ شَعْرٍ» [متفق عليه].
«التَّثْرِبُ»: التَّوْبِيخُ.

* حرم الله - عز وجل - الزنا في كتابه الكريم، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] والزنا من أعظم الذنوب بعد الشرك بالله، فقد قرنه - تعالى - بالشرك وقتل النفس، قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضْعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٨١].

قال الإمام أحمد: «ولا أعلم بعد قتل النفس ذنباً أعظم من الزنا» وقد أورد المؤلف - رحمه الله - هذا الحديث في باب ستر عورات المسلمين والنهي عن إشاعتها لغير ضرورة، وخص في هذا الحديث الأمة التي تباع وتشترى، وكيف يكون الحال لو وقعت في الفاحشة.
قال ﷺ:

«إِذَا زَنَتِ الْأُمَّةُ» الأمة: هي المملوكة التي تباع وتشترى.
«فَتَبَيَّنَ زَنَاهَا» أي، تحققه بالشروط المعروفة. وفيه: الإرشاد إلى اجتناب الظنون الفاسدة، فإن بعض الظن إثم.
«فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ» أي، فإذا زنت فليجلدها الحد، وحد الأمة نصف حد الحرة، لقوله تعالى ﴿فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥].

والحرة إذا كانت بكراً وزنت تجلد مائة جلدة وتغرب سنة، والأمة نصف ذلك، أي خمسين جلدة، وأما تغريبها فقليل تغرب نصف سنة، وقيل: لا تغرب لأنه قد تعلق بها حق السيد.

«ثم إذا زنت الثانية فليجلدها الحد ولا يثرب عليها» أي، وإن زنت المرة الثانية، فليجلدها الحد ولا يثرب. أي، لا يقرع ولا يشتم ولا يعير ويفضح. كقوله يا زانية يا فاجرة لما فيه من الفحش. فإن التوبيخ أمر زائد على الحد، فلا ينبغي اعتداء حدود الله.

قال ابن بطال: «يؤخذ منه أن كل من أقيم عليه الحد لا يعزر بالتعنيف واللوم، وإنما يليق ذلك بمن صدر منه قبل أن يرفع إلى الإمام للتحذير والتخويف، فإذا رفع وأقيم عليه الحد كفاه».

«ثم إن زنت الثالثة فليبيعها ولو بحبل من شعر» أي، ثم إن زنت الثالثة فليبيعها ولو بحبل من شعر، يعني ولا يبقها، لأنه لا خير فيها.

وفي قوله **«ولو بحبل من شعر»** وهذا البيع المأمور به يلزم صاحبه أن يبين حالها للمشتري لأنه عيب والإخبار بالعيب واجب.

فإن قيل: كيف يكره شيئاً ويرتضيه لأخيه المسلم؟ فالجواب: لعلها تتعفف عند المشتري بأن يعفها بنفسه أو يصونها بهيئته، أو بالإحسان إليها والتوسعة عليها، أو يزوجهها أو غير ذلك. فإنه لو لم يُبين لما بخسها المشتري إلى هذا الحد.

وفي الحديث: المسارعة في مفارقة أصحاب المعاصي وترك مخالطتهم، فإن الإنسان يأثم بمجالسة أهل المعاصي، وربما سار في طريقهم.

٢٤٣ - وعنه قال: أَتَى النَّبِيُّ ﷺ بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ خَمْرًا قَالَ: «اضْرِبُوهُ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَمِنَّا الضَّارِبُ بِيَدِهِ وَالضَّارِبُ بِنَعْلِهِ، وَالضَّارِبُ بِثَوْبِهِ. فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: أَخْزَاكَ اللَّهُ، قَالَ: «لَا تَقُولُوا هَكَذَا لَا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ» [رواه البخاري].

* حرمت الخمر في أول الإسلام، وكانت من عاداتهم وزينة مجالسهم، ولهذا نزل التحريم أولاً عن إتيان الصلاة وهم سكارى، قال تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ [النساء: ٤٣] ثم نزل بعد ذلك التحريم القطعي في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

وفي هذا الحديث توجيه عظيم ومنهج رصين في كيفية التعامل مع من وقع في معصية من المعاصي.

ففي الحديث: أنه أتى برجل قد شرب خمرًا، فقال ﷺ: «اضربوه» أي، حداً. قال أبو هريرة: فمنا الضارب بيده والضارب بنعله والضارب بثوبه، فلما انصرف قال بعض القوم: أخزأك الله. فنهاهم النبي ﷺ بقوله:

«لَا تَقُولُوا هَكَذَا» أي، مثل هذا الدعاء.

«لَا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ» أي، ادعوا له بالتوفيق والنجاة من الخذلان ولا تكونوا بدعائكم عليه أعواناً عليه للشيطان.

قال ابن حجر في شرح هذا الحديث: «... ووجه عونهم الشيطان بذلك أن الشيطان يريد بتزيينه له المعصية أن يحصل له الخزي، فإذا دعوا عليه بالخزي فكأنهم قد حصلوا مقصود الشيطان».

وفي معنى قوله ﷺ: «لَا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ» ذكر العلماء عدة معان: منها أن الدعاء على العاصي بالخزي يوافق مقصود الشيطان، فإنه بتزيينه للمعصية

يريد أن يوقعه فيما يخزيه في دنياه وآخرته، وقالوا: إن الدعاء على المذنب بالخزي يعين استحواذ الشيطان عليه، لأنه إذا سمع إخوانه يدعون عليه بمثل ذلك إزداد في عتوه ونفوره، وأخذته العزة بالإثم، ولربما أيس من رحمة الله فانهمك في المعاصي والموبقات، ولذلك جاء التوجيه النبوي بأن يقولوا: **«اللهم اغفر له اللهم ارحمه»**.

قال ابن عثيمين - رحمه الله -: «وفي هذا الحديث دليل على أن عقوبة الخمر ليس لها حد معين، ولهذا لم يحدّ النبي ﷺ حداً، ولم يعدها عداءً، كل يضرب بما تيسر، من يضرب بيده، ومن يضرب بطرف ثوبه، ومن يضرب بعصاه، ومن يضرب بنعله، لم يحد فيها حداً، وبقي الأمر كذلك، وفي عهد أبي بكر صارت تقدر بنحو أربعين، وفي عهد عمر كثر الناس الذين دخلوا في الإسلام، ومنهم من دخل من غير رغبة، فكثر شرب الخمر في عهد عمر - رضي الله عنه -، فلما رأى الناس قد أكثروا منها استشار الصحابة، فقال عبد الرحمن بن عوف: أخف الحدود ثمانون وهو حد القذف، فرفع عمر - رضي الله عنه - عقوبة شارب الخمر إلى ثمانين جلدة».

ذكر عن أبي الدرداء أنه مر على رجل قد أصاب ذنباً فكانوا يسبونونه، فقال: أرأيتم لو وجدتموه في قليب، ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى، قال: فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله - تعالى - الذي عافاكم، قالوا: أفلا نبغضه؟ قال: إنما أبغضوا عمله، فإذا تركه فهو أخي.

وفي الحديث: أسلوب نبوي رفيع في توجيه العصاة بعدم تعييرهم، أو سبهم مما يجعل ذلك أدعى إلى استجلابهم إلى ترك المعاصي، وهذا يجعل باب التوبة لهم مفتوحاً.

٢٩- باب في قضاء حوائج المسلمين

الإسلام دين التكافل ومجتمع التواد والتراحم، وذكر المؤلف - رحمه الله - هذا الباب: باب قضاء حوائج المسلمين، والحث على ذلك، فإن المسلم مأمور أن يسعى في قضاء حوائج إخوانه المسلمين بالفعل أو بالتسبب.

قال الله تعالى: ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٦].

افعلوا ما يقربكم من الله - عز وجل - من أنواع الخيرات والمبرات، كصلة الرحم، ومواساة الأيتام، والصلاة بالليل والناس نيام، وعلق - تعالى - الفلاح على هذه الأمور بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٦].
أي، لتفوزوا وتظفروا بنعيم الآخرة.

والإحسان إلى الخلق ونفع الناس عبادة عظيمة. وحتى يؤديها المسلم على الوجه الصحيح، يجب أن يراعي عدة أمور:

الأول: الإخلاص في العمل لله - عز وجل -، وأن يقصد بعمله وجه الله - عز وجل - ونفع أخيه المسلم.

قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى...» [رواه مسلم].
أي، لا يقصد بذلك مدحاً أو ثناءً أو جاهاً عند قومه، أو غير ذلك من حظوظ الدنيا.

قال عون بن عبد الله - رحمه الله تعالى -: «إذا أعطيت المسكين شيئاً، فقال: بارك الله فيك، فقل أنت: بارك الله فيك، حتى تخلص لك صدقتك». وقد روي مثل ذلك عن عائشة - رضي الله عنها -.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فمن كان مُخلصاً في أعمال الدين، يعملها لله، كان من أولياء الله المتقين أهل النعيم المقيم».

الثاني: البعد عن الرياء وحب الظهور والرياسة، وكذلك العجب بعمله والتحدث به.

قال ابن القيم - رحمه الله -: «لا شيء أفسد للأعمال من العجب ورؤية النفس، ولا شيء أصلح لها من شهود العبد منة الله وتوفيقه والاستعانة به والافتقار إليه وإخلاص العمل».

ولهذا كان الإخلاص شاقاً، قال سهل بن عبد الله - رحمه الله -: «ليس على النفس شيء أشق من الإخلاص، لأنه ليس لها فيه نصيب».

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية حديث المرأة البغي التي سقت كلباً فغفر الله لها.. والرجل الذي أمارط الأذى عن الطريق فغفر الله له، ثم قال - رحمه الله -: «فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها، وإلا فليس كل بغي سقت كلباً يُغفر لها، فالأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإجلال».

قال ﷺ: «**من صنع إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيراً، فقد أبلغ في الثناء**» [رواه الطبراني].

وإذا قصرت يدك عن المكافأة فليطّل لسانك بالشكر، فخير مواضع المعروف ما جمع الأجر والشكر.

وإن كان للمحسن عليك حقوق كإرجاع الدين ورد القرض الحسن، فأحسن في السداد كما أحسن إليك في البدء.

ومن اعتذر عن تقديم خدمة إليك فلا تلمه وتجعله على لسانك غيبة وبهتاناً، فالله - عز وجل - يقول: ﴿**مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ**﴾ [التوبة:

٩١] ولربما أنه قد أتاه غيرك، وتحمل ما لا تعلمه، وليس من المروءة أن يخبرك بذلك.

٢٤٤ - وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه. ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» [متفق عليه].

* في الحديث حض على التعاون وحسن التعاشر والألفة، وفيه أن المجازاة تقع من جنس الطاعات.

قال ابن دقيق العيد: «هذا الحديث عظيم جامع لأنواع من العلوم والقواعد والآداب، فيه فضل قضاء حوائج المسلمين ونفعهم بما ييسر من علم أو مال، أو معاونة أو إشارة بمصلحة، أو نصيحة أو غير ذلك».

«المسلم أخو المسلم» هذه أخوة الإسلام.

«لا يظلمه» بنقص حقه، وهو خبر بمعنى الأمر، فإن ظلم المسلم للمسلم حرام.

«ولا يُسلمه» أي، لا يتركه مع من يؤذيه، ولا فيما يؤذيه، بل ينصره ويدفع عنه، وهذا أخص من ترك الظلم، وقد يكون واجباً، وقد يكون مندوباً بحسب اختلاف الأحوال.

«ولا يحقره» وفي الحديث «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

«ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته» أي، من قام وسعى في قضاء حاجة أخيه المسلم يسر الله له أموره وقضى حاجته.

ويذكر ابن رجب عن بعض السلف فيقول: «كان أبو وائل يطوف على نساء الحي وعجائزهن كل يوم فيشتري لهن حوائجهن وما يصلحهن».

«ومن فرج عن مسلم كربة» أي، غمه، والكرب هو الغم الذي يأخذ النفس.

«فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة» أي، عوضه بتفريج كربة من كرب يوم القيامة.

وللإحسان ثلاث خصال جميلة في المحسن، فقد قال جعفر بن محمد لسفيان الثوري - رحمهما الله تعالى -: لا يتم المعروف إلا بثلاثة: بتعجيله، وتصغيره في عينك حتى إذا كان كبيراً، وستره.

«ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» أي، رآه على قبيح فلم يظهره للناس ولم يشتهر بالأذى والضرر على معصيته رآها منه فيما مضى. وليس في معنى ذلك ترك الإنكار عليه فيما بينه وبينه، والستر محله في معصية قد انقضت، والإنكار في معصية قد حصل التلبس بها فيجب الإنكار عليه وإلا رفعه إلى الحاكم وليس من الغيبة المحرمة، بل من النصيحة الواجبة.

قال علي بن أبي طالب: «يا عجباً لرجل يجيئه أخوه المسلم في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً، فلو كان لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً، لقد كان ينبغي له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق، فإنها تدل على سبيل النجاة». فقال له رجل: أسمعته من رسول الله ﷺ؟

فقال: «نعم، وما هو خير منه، لما أتى بسبايا طى وفتت جارية في السبي فقالت: يا محمد، إن رأيت أن تخلي عني، ولا تشمت بي أحياء العرب، فإني بنت سيد قومي، وإن أبي كان يحمي الذمار، ويفك العاني، ويشبع الجائع ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط. أنا ابنة حاتم الطائي.

فقال ﷺ: «يا جارية! هذه صفة المؤمنين حقاً، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه، خلو عنها، فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق، وإن الله يحب مكارم الأخلاق».

٢٤٥ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه -، عن النبي ﷺ قال: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة. وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله - تعالى -، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده. ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» [رواه مسلم].

* هذا حديث عظيم جليل، جامع لأنواع من العلوم والقواعد، والآداب، والفضائل والفوائد والأحكام، وفيه ذكر لأعمال صالحة ومنازل عالية لمن قام بها، ففيه عظيم فضل قضاء حوائج المسلمين ونفعهم بما تيسر من علم أو مال، أو جاه أو نصح، أو دلالة على خير، أو إعانة بنفسه أو وساطته أو شفاعته، أو دعائه له بظهر الغيب.

«من نفس عن مؤمن كربة» الكربة هي: الشدة العظيمة والضيق والظنك التي توقع صاحبها في الكرب، وتنفيسها أن يخفف عنه منها فتزيل همه وغمه، ويرفع ما نزل به من ضائقة.

«من كرب الدنيا» للإيذان بتعظيم شأن التنفيس.

قال ﷺ: «نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة» فإن الله يزيل كربته وشدائده في ذلك اليوم العظيم، فإن في القيامة كرباً وشدائد وأهوالاً عظيمة. ولم يقل من كرب الدنيا والآخرة كما قيل في التيسير والستر.

والكرب: الشدائد العظيمة، وليس كل أحد يحصل له ذلك في الدنيا بخلاف الإعسار والعورات المحتاجة إلى الستر، فإن أحداً لا يكاد يخلو في الدنيا من

ذلك. وقيل لأن كرب الدنيا بالنسبة إلى كرب الآخرة لا شيء. فادخر الله جزاء تنفيس الكرب عنده، لينفس به كرب الآخرة.

«ومن يسر على معسر» أي، سهل عليه وأزال عسره.

«يسر الله عليه في الدنيا والآخرة» يسر الله عليه أموره في الدارين، والتيسير على المعسر إما بإنظاره، وإما بإبرائه وإسقاط ما عليه من حقوق، والثاني أفضل.

«ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة» ومن ستر مسلماً من عيب فيه وحجبها حتى لا يتبين للناس، ستره الله في الدنيا والآخرة، أي، حجب عيوبه عن الناس في الدنيا والآخرة.

ثم أجمل ﷺ الحديث فيما بين الإخوة **«والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»** أي، أن الله - تعالى - يعين الإنسان على قدر معونته أخيه.

ثم ذكر ﷺ فضل العلم وتعلم العلم الشرعي الذي يرفع به الجاهل عن نفسه وعن غيره، ويدعو إلى الله على بصيرة، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة.

ثم ذكر ﷺ فضل الاجتماع في المساجد يقرؤون القرآن ويتدارسون به بينهم إلا كان جزاء ذلك أن نزلت على قلوبهم السكينة، وهي الطمأنينة والاستقرار، وغطتهم وشملتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة وصارت حولهم، وذكرهم الله فيمن عنده من الملائكة.

قال الحسن: «أفضل الصدقة صدقة العلم».

ثم قال ﷺ قاعدة عظيمة: **«ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»** أي، من تأخر من أجل عمله السيء، فإن نسبه لا يغنيه ولا يرفعه.

قال النووي: معناه من كان عمله ناقصاً، لم يلحقه نسبه بمرتبة أصحاب الأعمال، فينبغي أن لا يتكل على شرف النسب وفضيله الآباء، ويقصر في العمل.

٣٠- باب الشفاعة

قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ [النساء: ٨٥]. أي، ومن يشفع ويتوسط للخير لجلب منفعة أو دفع مضرة، فيشفع بين الناس شفاعة موافقة للشرع، ويسعى لحصول غيره على الخير، يكون له نصيب من الأجر والثواب.

٢٤٦- وعن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه طالبُ حاجة أقبلَ على جلسائه فقال: «اشْفَعُوا تَوْجَرُوا وَيَقْضِيَ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا أَحَبَّ» [متفق عليه]. وفي رواية: «مَا شَاءَ».

* الشفاعة: هي التوسط للغير، لجلب منفعة أو دفع مضرة. وذلك بأن يسعى المسلم بجاهه لنفع أخيه المسلم.

وفي الحديث الحض على السعي في قضاء حاجة المسلم سواء أقضيت الحاجة أم لا، وفيه ترغيب على الخير بالفعل والتسبب إليه بكل وجه. ومن ذلك الدعاء للمؤمن بظهر الغيب وفي الحديث: «**ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب، إلا قال الملك: ولك بمثل**» [رواه مسلم] أي، يكون لك نصيب منها وهو ثواب الشفاعة والتسبب إلى الخير.

والشفاعة أقسام:

القسم الأول: شفاعة محرمة لا تجوز، وهي أن يشفع لشخص وجب عليه الحد بعد أن يصل إلى الإمام، قال ﷺ: «**من حالت شفاعته دون حد من حدود الله، فقد ضادَّ الله في أمره**» [رواه أبو داود].

القسم الثاني: أن يشفع في شيء محرم، كمن يشفع لأخذ مال حرام.

القسم الثالث: الشفاعة في شيء مباح، وهذه مندوب إليها، وللشافع أجر كما جاء في الحديث «**اشفعوا توجروا**».

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله -: «وهذا الحديث متضمن لأصل كبير، وفائدة عظيمة، وهو أنه ينبغي للعبد أن يسعى في أمور الخير سواء أثمرت مقاصدها ونتائجها أو حصل بعضها، أو لم يتم منها شيء، وذلك كالشفاعة لأصحاب الحاجات عند الملوك والكبراء، ومن تعلقت حاجاتهم بهم، فإن كثيراً من الناس يمتنع من السعي فيها إذا لم يعلم قبول شفاعته، فيفوت على نفسه خيراً كثيراً من الله، ومعروفاً عند أخيه المسلم. فلهذا أمر النبي ﷺ أصحابه أن يساعدوا أصحاب الحاجة بالشفاعة لهم عنده ليتعجلوا الأجر عند الله، لقوله «**اشفعوا تؤجروا**» فإن الشفاعة الحسنة محبوبة لله، ومرضية له. قال تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥]. ومع تعجله للأجر الحاضر، فإنه أيضاً يتعجل الإحسان وفعل المعروف مع أخيه، ويكون له بذلك عنده يد».

وقال - رحمه الله تعالى -: «عنوان سعادة العبد، إخلاصه للمعبود وسعيه في نفع الخلق».

قال ابن القيم: «من رفق بعباد الله رفق الله به، ومن رحمهم رحمه، ومن أحسن إليهم أحسن إليه، ومن جاد عليهم جاد الله عليه، ومن نفعهم نفعه، ومن سترهم ستره، ومن منعهم خيره منعه خيره، ومن عامل خلقه بصفة عامله الله بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة، فالله - تعالى - لعبده حسب ما يكون العبد لخلق».

وفي الحديث: الترغيب في الشفاعة لما فيها من الأجر سواء أفضيت الحاجة أم لا.

وفيه: أن الثواب حاصل بالشفاعة، سواء حصل المشفوع به أم لا، وأنه لا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع.

٢٤٧- وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قصة بريرة وزوجها. قال: قال لها النبي ﷺ: «لَوْ رَاجَعْتِهِ؟» قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَأْمُرْنِي؟ قَالَ: «إِنَّمَا أَشْفَعُ» قَالَتْ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ. [رواه البخاري].

* بريرة: مولاة لأم المؤمنين عائشة - رضي الله عنهما - وزوجها اسمه مغيث، وقد أعتقت تحتها بريرة فخيرها رسول الله ﷺ فاختارت نفسها، وكان مغيث حين عتقها واختيارها عبداً. وكان مغيث يحبها حباً شديداً ويريد لها زوجة له وهي تأبى، فطلب من النبي ﷺ أن يشفع له عند بريرة، فشفع له رسول الله ﷺ عندها، فقال لها رسول الله ﷺ:

«لو راجعته» أي، عدت إليه زوجة.

وكان من تعظيم الصحابة لرسول الله ﷺ أن سألته بريرة - رضي الله عنها - قالت: يا رسول الله تأمرني؟

فقال ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ» أي، أمرك استحباباً.

فقالت: (لا حاجة لي فيه) أي، لا غرض ولا صلاح لي في ارتجاعه، وفيه إيماء إلى عذرها في عدم قبول شفاعته ﷺ. ولم يثرب عليها ويعاتبها رسول الله ﷺ بل تركها وما أرادت من فراقه.

وفي هذا يبين جواز رد الشفيع وليس في ذلك قدح في الراد أو الشفيع. فلا أكرم من نبينا محمد ﷺ.

وإلى طالب الشفاعة: إن كان هناك من يحسن إليك ويحنو عليك فأنت صاحب حاجة، فعلى طالب الحاجة والشفاعة:

- أن لا يطلب الحوائج إلا من أهلها، ولا يخرج أخاه المسلم بما لا يستطيع، كأن تأتي إلى أخ لك وتطلب ما لا يستطيعه فترهقه وتغم قلبه، وأنت تعلم أنه لا يستطيع إلا بمشقة.

- وأن لا يطلب حاجته في غير حينها.

- وأن لا يطلب ما لا يستحق، فإن من طلب ما لا يستحق استوجب الحرمان.
 - وليتخير من الكلام أطيبه، ومن القول أعجبه.
 ولا لوم على من ردت شفاعته ولو عظم قدر الشافع، فقد ردت امرأة شفاعته سيد الخلق ﷺ حينما قال لها: «لو راجعت زوجك فإنه أبو ولدك» قالت: يا رسول الله، أأمرني؟ قال: «لا، إنما أنا شافع» قالت: فلا حاجة لي فيه [متفق عليه].

قا القرطبي: «لا يخفى ما في الشفاعة من الأجر والثواب، لأنها من باب صنائع المعروف، وكشف الكرب، ومعونة الضعيف، إذ ليس كل أحد يقدر على الوصول إلى السلطان وذوي الأمر، وكان ﷺ مع تواضعه وقربه من الصغير والضعيف يقول: «أبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغها».
 وإذا قضيت حاجة المرء فينبغي الثناء على الشافع وعلى المشفوع عنده، يقول عليه الصلاة والسلام: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» [رواه أحمد].
 ويقول: «من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه» [رواه النسائي].

وفي الحديث: استحباب شفاعته الحاكم في الرفق بالخصم، وأن الأمة إذا أعتقت تحت عبد فلها الخيار. وأن المرء إذا خير بين مباحين، فاختار ما ينفعه لم يُلَمَّ ولو أضر ذلك برفيقه.

٣١- باب الإصلاح بين الناس

في هذه الدنيا قد يقع بين المسلمين ما يكدر صفو قلوبهم ويثير البغضاء بينهم، ولقد حرص الإسلام على بناء مجتمع متكامل متواد متراحم، وكتب الله الأجر لمن سعى في إصلاح ما يقع بين المسلمين ورتب له الأجر العظيم والثواب الجزيل.

قال الله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

أي، لا نفع في كثير مما يسره القوم ويتناجون به في الخفاء. ثم استثنى - تعالى - ثلاثة أمور: إذا كان حديثاً داعياً بذل المعروف من الصدقة، أو أمر بطاعة الله، أو كلمة طيبة، أو توفيق بين الناس. وخص الإصلاح لشرفه. والمعروف هو كل ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير، والإصلاح هو الإصلاح بين المتخاصمين، لأن النزاع والخصام يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره، فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض. فإن الإسلام دين المحبة والوئام لا الفرقة والخصام.

وفي تمام الآية ذكر الله - عز وجل - أجر الإصلاح بين المتخاصمين: **﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾** [النساء: ١١٤].

وقال تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]. والصلح خير من الفراق والنشوز والإعراض وأولى، لما في الإصلاح من بقاء الألفة والمودة وسماحة النفس. وهذا في المرأة تكون عند الرجل فتتفق معه على ترك بعض حقها للزوج وقبول الزوج ذلك خير من المفارقة والطلاق. **﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾** عام في كل أمر إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً.

وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١].

أي، اتقوا الله بطاعته واجتناب معاصيه، واتركوا المنازعة والمخاصمة بسبب أمور الدنيا، وأصلحوا الحال التي بينكم بالائتلاف وعدم الاختلاف، وترك التشاحن والتقاطع والتدابير.

وقد جعل التقوى وإصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله من لوازم الإيمان وموجباته، ليعلمهم أن كمال الإيمان موقوف على التوفر عليه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

أي: ليس المؤمنون إلا إخوة، جمعتهم رابطة الإيمان، فلا ينبغي أن يكون بينهم عداوة ولا شحناء، وبموجب تلك الأخوة أصلحوا بين إخوانكم المؤمنين إن وقع بينهم خلاف، ولا تتركوا الفرقة تدب، والبغضاء تسري في النفوس.

وفي الحديث: «**لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا**» [متفق عليه].

قال ابن حجر- رحمه الله -: «لا تتعاطوا أسباب البغض، لأن البغض لا يكتسب ابتداء».

وفيه: أن أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب.

٢٤٨- وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ سَلَامِي مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ: تَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيْبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خَطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَتُصِطُّ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ» [متفق عليه].
وَمَعْنَى تَعْدِلُ بَيْنَهُمَا: تُصْلِحُ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ.

* في كل صباح يوم يحمد المسلم الله - عز وجل - على نعمه، وبما أنعم عليه من خلق هذه السلاميات والمفاصل في جسده وما فيهما من باهر نعمه ودوامها التي هي نعمة أخرى تستحق الحمد والشكر قولاً وعملاً.
جاء في الحديث أنه ﷺ قال:

«كُلُّ سَلَامِي مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ» أي، أن الصدقة على ابن آدم عن هذه الاعضاء في كل يوم من أيام الدنيا. شكر الله - عز وجل -.

(والسلامي) عظام البدن ومفاصله (خلق الإنسان على ستين وثلاثمائة مفصل).

«تعدل بين الاثنين صدقة» يدخل في العدل الحكم بينهما بالعدل والصلح وغير ذلك. وكل ما وافق الشرع فهو عدل، وكل ما خالف الشرع فهو ظلم وجور، لأن إقامة العدل في الأرض سمة من سمات أهل الإسلام.

وهي «صدقة» عليها لوقايتها ما يترتب على الخصام من قبيح الأقوال والأفعال، ولهذا عظم فضل الإصلاح.

«وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها» أو ترفع له عليها متاعه، وهي صدقة الإعانة.

«والكلمة الطيبة صدقة» سواء من ذكر الله كالنسيح والتكبير والتهليل، أو في حق الناس كحسن الخلق وطيب الكلام وإدخال السرور والدعاء، كل ذلك صدقة.

«وبكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة» فإذا خرج إلى الصلاة لم يخط خطوة إلا رفع الله بها درجة، وحط عنه بها خطيئة. وإذا أسبغ المصلي الوضوء في بيته، وخرج إلى المسجد، لا يخرج به إلا الصلاة، فله ثلاث فوائد: الأولى صدقة، والثانية: رفع درجة، والثالثة: حط خطيئة.

«وتميط الأذى عن الطريق صدقة» أي، تزيل ما يؤذي المارة من حجر أو شجر، أو غيرها مما يؤذي المارين فإنه صدقة.

وفي الحديث أن الصدقة لا تختص بالمال، بل كل ما يقرب إلى الله - عز وجل - فهو صدقة بالمعنى العام

قال سليمان التيمي: «إن الله أنعم على العباد على قدره، وكلفهم الشكر على قدرهم حتى رضي منهم من الشكر بالاعتراف بقلوبهم بنعمه، وبالحمد بألسنتهم عليها».

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر فقد أدى شكر ذلك اليوم، ومن قالها حين يمسي أدى شكر ليلته» [رواه أبو داود].

والشكر قسمان: شكر واجب، ويكون بالقيام بالواجبات وترك المحرمات، وهو كاف لشكر هذه النعم وغيرها.

وشكر مستحب، وهو أن يزيد على ذلك بنوافل الطاعات القاصرة كالأذكار، والمتعدية كالإعانة والعدل، وهو المراد من هذا الحديث.

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه: إني بأرض قد كثرت فيها النعم، حتى لقد أشفقت على أهلها من ضعف الشكر. فكتب إليه عمر: أني قد كنت أراك أعلم بالله مما أنت، إن الله لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها، إلا

كان حمده أفضل من نعمته، لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل، قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥] وقال الله ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾ إلى قوله ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الزمر: ٧٣-٧٤] وأي نعمة أفضل من دخول الجنة.

وفي الحديث: أن الإصلاح بين الناس صدقة، وهو الشاهد من الحديث للباب.

٢٤٩ - وعن أم كلثوم بنت عُقْبَةَ بن أَبِي مُعَيْطٍ - رضي الله عنها - قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «لَيْسَ الكَذَابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا» [متفق عليه].

وفي رواية مسلم زيادة، قالت: وَلَمْ أَسْمَعْهُ يُرَخِّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُهُ النَّاسُ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ، تَعْنِي: الْحَرْبَ، وَالْإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثَ الرَّجُلِ أَمْرَاتِهِ، وَحَدِيثَ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا.

* رغبة في إصلاح النفوس وإزالة البغضاء بين المسلمين رخص النبي ﷺ في الكذب في حالات، لعظم المصلحة الشرعية في ذلك، وإلا فالكذب حرام ومن الكبائر.

وهذا الحديث أورده المؤلف - رحمه الله - في باب الإصلاح بين الناس. قال

ﷺ

«ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس» أي، ليس إثم الكذب يقع على الذي يصلح بين الناس لجمع الكلمة وتأليف القلوب.

«فينمي خيراً» أي، يبلغه على وجه الإصلاح وطلب الخير.

«أو يقول خيراً» المراد أنه يخبر بما علمه من الخير ويسكت عما علمه من الشر، ولا يكون ذلك كذباً، لأن الكذب الإخبار بالشيء على خلاف ما هو به، وهذا ساكت، ولا ينسب لساكت.

قال الطبري: «ذهبت طائفة إلى جواز الكذب لقصد الإصلاح، وقالوا: إن الثلاث المذكورة كالمثال».

وقالوا: الكذب المذموم إنما هو فيما فيه مضرة، أو ما ليس فيه مصلحة. والكذب حرام من حيث الأصل، وإنما أبيح على سبيل الترخيص في هذه الأمور الثلاثة لعظم المصلحة المترتبة على ذلك. وقد يكون الكذب أحياناً واجباً إذا ترتب عليه حفظ إنسان من التلف.

قال ابن شهاب: «ولم أسمع يرخص في شيء مما يقول الناس كذب إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها».

والمقصود بالكذب بين الزوجين: الكذب في إظهار المودة والمحبة لدوام الألفة واستقرار الأسرة. وقد حمل بعض العلماء الكذب هنا على التورية والتعريض.

قال ابن حجر في الفتح: «واتفقوا على أن المراد بالكذب في حق المرأة والرجل إنما هو فيما لا يسقط حقاً عليه أو عليها، أو أخذ ما ليس له أو لها». وقال البغوي في شرح السنة: «قال أبو سليمان الخطابي: هذه أمور قد يضطر الإنسان فيها إلى زيادة القول، ومجاوزة الصدق طلباً للسلامة ورفعاً للضرر، وقد رخص في بعض الأحوال في اليسير من الفساد، لما يؤمل فيه من الإصلاح، فالكذب في الإصلاح بين اثنين: هو أن ينمي [أي يبلغ] من أحدهما إلى صاحبه خيراً، ويبلغه جميلاً، وإن لم يكن سمعه منه، يريد بذلك الإصلاح. والكذب في الحرب: هو أن يظهر من نفسه قوة، ويتحدث بما يقوى أصحابه، ويكيد به عدوه، وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «الحرب خدعة» [رواه البخاري].

وأما كذب الرجل زوجته فهو أن يعدها ويمنيها، ويظهر لها من المحبة أكثر مما في نفسه يستديم بذلك صحبتها، ويستصلح بها خلقها». وقال النووي: «اتفقوا على خداع الكفار في الحرب كيفما أمكن، إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يجوز».

وفي الإصلاح بين الناس، وفي حديث الزوجين للحاجة بقدر الحاجة، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب، والكذب في الأصل ذميم لا عهد لصاحبه. وقد قيل: لي حيلة فيمن ينم وليس في الكذاب حيلة، من كان يخلق ما يقول فحيلتي فيه قليلة، وما أسودت الوجوه بمثله في الدنيا والآخرة، وأعظم الكذب: الكذب على الله ورسوله وفي شرعه ودينه، والله كم عذب به من أحد،

وكم خربت به من ملل، وكم استبيحت من حرم، وكم فسدت بسببه دنيا كانت عامرة وفرحة كانت غامرة.

وفي الحديث: عظم أجر الإصلاح وعظم شأنه حيث جاز الكذب لأجله، وحرص الشارع الشديد على لم الشمل وجمع الكلمة.

٢٥٠ - وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: سمع رسول الله ﷺ صوت خُصُومِ بالبَابِ عَالِيَةً أَصْوَاتُهُمَا، وَإِذَا أَحَدُهُمَا يَسْتَوْضِعُ الْآخَرَ وَيَسْتَرْفُقُهُ فِي شَيْءٍ، وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَيْنَ الْمُتَأَلِّي عَلَى اللَّهِ لَا يَفْعَلُ الْمَعْرُوفَ؟» فقال: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَهُ أَيُّ ذَلِكَ أَحَبُّ. [متفق عليه].

معنى يَسْتَوْضِعُهُ: يَسْأَلُهُ أَنْ يَضَعَ عَنْهُ بَعْضَ دِينِهِ. وَيَسْتَرْفُقُهُ: يَسْأَلُهُ الرِّفْقَ وَ«الْمُتَأَلِّي»: الْحَالِفُ.

* المجتمع المسلم مجتمع متحاب متواد، شرع فيه القرض الحسن للمحتاج إعانة له على متطلبات الحياة ومصاعبها.

وفي هذا الحديث أن النبي ﷺ سمع صوت خصمين يتنازعان في قضية مالية وقد ارتفعت أصواتهما حتى وصلت مسامع النبي ﷺ في بيته. وإذا به يسمع أحد الرجلين يستوضع الآخر.

(ويسترفقه) أي، يطلب منه الرفق. ويضع عنه شيئاً من دينه، ويتنازل، لحاجته أو لضيق نزل به. وهو يقول: (والله لا أفعل) أي، لا أضع شيئاً.

فخرج عليهم رسول الله ﷺ ليصلح بينهما، وفيه دليل على أنه لا حرج على الإنسان أن يتدخل في النزاع بين اثنين، إذا لم يكون ذلك سراً بينهما. فقال: «أين المتألي على الله لا يفعل المعروف؟» أي، أين الحالف بالله على عدم فعل المعروف؟

فقال: أنا يا رسول الله.

(فله أي ذلك أحب) أي، أنا الذي حلفت ولكن حيث شفعت فيه فإني أجيبه إلى ما يطلب.

وفي الحديث: الحظ على الرفق بالغريم والتيسير عليه والإحسان إليه بالوضع عنه، والزجر على الحلف على ترك الخير والسعي للإصلاح بين

المتخاصمين. وفيه الصفح عما يجري بين المتخاصمين من اللفظ ورفع الصوت. وجواز سؤال المديون الحطيطة من صاحب الدين.

قال النووي: «لا بأس بالسؤال بالوضع والرفق، ولكن بشرط ألا ينتهي إلى الإلحاح وإهانة النفس أو الإيذاء ونحو ذلك».

وفيه، الشفاعة إلى أصحاب الحقوق، وقبول الشفاعة في الخير. وإنه ينبغي للإنسان أن يكون أداة خير، وأن يحرص على الإصلاح بين الناس وإزالة العداوة والضغائن حتى ينال خيراً كثيراً.

وإنظار المعسر من خصال الكرام، وفيه الأجر العظيم، قال ﷺ: «.. من أنظر معسراً فله بكل يوم مثليه صدقة» [رواه أحمد].

وقال ﷺ في الحديث الآخر: «من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله في ظله» [رواه مسلم].

وقال ﷺ: «من نفس عن غريمه أو محاه عنه كان في ظل العرش يوم القيامة» [رواه مسلم].

قال المناوي: «لأن الإعسار من أعظم كرب الدنيا، بل هو أعظمها فجوزي من نفس عن أحد من عيال المعسرين بتفريج كرب الآخرة وهو هول الموقف وشدائده بالإزاحة من ذلك، ورفعته إلى أشرف المقامات، ثم قالوا: وقد يكون ثواب المندوب أكمل من ثواب الواجب».

وفي الحديث: الإصلاح بين الناس، وقبول الأعذار والمسامحة.

٢٥١- وعن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه -، أن رسول الله ﷺ بلغه أن بني عمرو بن عوف كان بينهم شرٌّ، فخرج رسول الله ﷺ يُصلح بينهم في أناس معه، فحبس رسول الله ﷺ وحانت الصلاة، فجاء بلال إلى أبي بكر - رضي الله عنهما - فقال: يا أبا بكر إن رسول الله ﷺ قد حبس، وحانت الصلاة، فهل لك أن تؤم الناس؟ قال: نعم إن شئت، فأقام بلال الصلاة، وتقدم أبو بكر فكبر وكبر الناس، وجاء رسول الله ﷺ يمشي في الصفوف حتى قام في الصف، فأخذ الناس في التصفيق، وكان أبو بكر - رضي الله عنه - لا يلتفت في صلاته، فلما أكثر الناس التصفيق التفت، فإذا رسول الله ﷺ، فأشار إليه رسول الله ﷺ، فرفع أبو بكر - رضي الله عنه - يده فحمد الله، ورجع القهقري وراءه حتى قام في الصف، فتقدم رسول الله ﷺ، فصلى للناس، فلما فرغ أقبل على الناس فقال: «أيها الناس مالكم حين نابكم شيء في الصلاة أخذتم في التصفيق؟ إنما التصفيق للنساء. من نابه شيء في صلاته فليقل: سبحان الله. فإنه لا يسمعه أحد حين يقول: سبحان الله، إلا التفت. يا أبا بكر: ما منعك أن تُصلي بالناس حين أشرت إليك؟» فقال أبو بكر: ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يصلي بالناس بين يدي رسول الله ﷺ. [متفق عليه].

معنى حبس: أمسكوه ليُصِفُوهُ.

* ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - هذا الحديث في باب الإصلاح بين الناس، حيث جرت وقائعه في عهد النبي ﷺ، وأسرع ﷺ في الإصلاح بين المسلمين قطعاً للشر، ودحراً للشيطان، وحسماً للقطيعة بينهم.

فإن بني عمرو بن عوف: وهم بطن كبير من الأوس فيه عدة أحياء، كانت منازلهم بقاء، وقد جاء في صحيح البخاري «أن أهل بقاء تراموا بالحجارة، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقالوا: اذهب بنا نصلح بينهم».

فخرج رسول الله ﷺ في أناس معه إليهم ليصلح بينهم فحانت الصلاة: أي، دخل حينها وهو وقتها، وهي صلاة العصر، فجاء المؤذن بلال إلى أبي بكر وأعلمه بخبر النبي ﷺ، وسأله أن يؤم بالناس في الصلاة، فأقام بلال الصلاة وتقدم أبو بكر فكبر تكبيرة الإحرام، وجاء رسول الله ﷺ يمشي في الصفوف حتى قام في الصف. فأخذ الناس في التصفيق، ولما أكثر الناس من التصفيق، التفت أبو بكر فإذا رسول الله ﷺ فأشار إليه ﷺ بالمكث في مكانه فرفع أبو بكر يده حمداً لله - عز وجل - ورجع القهقري حتى قام في الصف، فتقدم رسول الله ﷺ فصلى للناس، ثم لما قضى صلاته وأقبل عليهم أخبرهم ﷺ أنه إذا نابه شيء في صلاتهم فليقولوا: سبحان الله.

ثم سأل ﷺ أبا بكر - رضي الله عنه - ما منعك أن تتم صلاتك إماماً بالناس حين أشرت إليك، فقال - رضي الله عنه - متواضعاً ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يصلي بالناس بين يدي رسول الله ﷺ.

قال القرطبي: «وعللوا اختصاص النساء بالتصفيق، لأن أصواتهن عورة، فلذلك يمتنع من الأذان، ومن الجهر بالإقامة والقراءة، وهو معنى مناسب شهد الشرع له بالاعتبار»

وفي الحديث: جملة فوائد منها: المسارعة إلى الإصلاح بين الناس لحسم مادة القطيعة بينهم، وتوجه الإمام بنفسه إلى بعض رعيته لذلك، وفضل أبي بكر - رضي الله عنه - على جميع الصحابة، وشدة حبه وتعظيمه للنبي ﷺ. وفيه: التسييح في الصلاة لما ينوب المصلي أو غيره إذا قصد مع الإعلام الذكر.

٣٢ - باب فضل ضعفه المسلمين والفقراء والخاملين

قال - رحمه الله -: باب فضل ضعفه المسلمين وفقرائهم والخاملين منهم، العاملين بطاعة الله التاركين لمعاصيه.

والمراد بهذا الباب: تسليية من قدر الله عليه أن يكون ضعيفاً في بدنه، أو ضعيفاً في عقله، أو ضعيفاً في ماله، أو ضعيفاً في جاهه، أو غير ذلك مما يعده الناس ضعفاً، فإن الله - سبحانه وتعالى - قد يجعل الإنسان ضعيفاً من وجه، لكنه قوي عند الله - عز وجل - يحبه ويكرمه، وينزله المنازل العالية.

والضعفاء والمساكين هم أهل الرحمة والإحسان، قال ﷺ: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**» [رواه أبو داود].

وجاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**من لا يرحم الناس لا يرحمه الله**» [رواه الترمذي] وجاء في الحديث الإحسان حتى إلى البهائم، فعندما سُئل ﷺ: إن لنا في البهائم أجراً؟ فقال ﷺ: «**نعم في كل كبد رطبة حسنة**».

قال الله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨]. أي، احبس نفسك واجلس - يا محمد - مع الضعفاء والفقراء من المسلمين الذين يعبدون ربهم، ويدعونه في الصباح والمساء يذكرونه ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشيًا. والمراد جميع الأوقات، يتغنون بدعائهم وجه الله - تعالى - ورضاه وطاعته، اجلس معهم وخالطهم، ولا تصرف ولا تجاوزهم بصرك إلى غيرهم من ذي الغنى واليسار.

وسبب نزول هذه الآية ما رواه الإمام مسلم عن سعد - رضي الله عنه - قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطردهؤلاء لا يجترؤون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجلان من هذيل وبلال، ورجلان لا أسميهما، فوقع في نفس النبي ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه، فأنزل الله - عز وجل - الآية.

وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم أحييني مسكيناً، وأمتني مسكيناً واحشرنى مع المساكين» [السلسلة الصحيحة].

وقد جاءت الآيات المتتالية في الحث على الرفق بالإحسان إلى المساكين كما في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨] وقوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩].

وقد وصفت الآيات الكفار بمنعهم الفقراء والمساكين كما قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا تَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ [الماعون: ١-٣].

وفي قوله عن الكافر الذي له نار جهنم ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ [الحاقة: ٣٣-٣٤] وغيرها من الآيات الكريمات.

٢٥٢- عَنْ حَارِثَةَ بْنِ وَهَبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرِهِ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتْلٍ جَوَاطٍ مُسْتَكْبِرٍ» [متفق عليه].
الْعُتْلُ: الْغَلِيظُ الْجَافِي.

وَالجَوَاطُ بِفَتْحِ الْجِيمِ وَتَشْدِيدِ الْوَاوِ وَالظَّاءِ الْمَعْجَمَةُ وَهُوَ الْجُمُوعُ الْمُنْعِيُّ، وَقِيلَ: الضَّخْمُ الْمُخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ، وَقِيلَ: الْقَصِيرُ الْبَطِينُ.
«بأهل الجنة» أي بمعظم أهلها.

* أورد المؤلف هذا الحديث في باب: فضل ضعفة المسلمين والفقراء وذكر ﷺ من علامات أهل الجنة:

«كل ضعيف متضعف» أي، المحتقر لخموله في الدنيا. ضعيف في نفسه، متضعف يميل إلى الخمول وعدم الظهور يستضعفه الناس ويقهرونه.
قال القاضي: «وقد يكون الضعف هاهنا رقة القلوب ولينها وإخبارها للإيمان.

وقيل لتواضعه وضعف حاله في الدنيا، والمراد أنه أغلب أهل الجنة هؤلاء كما أن معظم أهل النار القسم الآخر، وليس المراد الاستيعاب للطرفين». «لو أقسم على الله لأبره» أي، لو حلف على وقع شيء لأبره وذلك طمعاً في كرم الله لأعطاه الله ما يريد. أي، أوقعه الله إكراماً له وصيانة له من الحنث، لعظم منزلته عنده وإن احتقر عند الناس.

ثم قال ﷺ: «ألا أخبركم بأهل النار». أي: بسماتهم وأفعالهم لتجتنبوها وتبتعدوا عنها.

«كل عتل» العتل: هو الجافي الشديد الخصومة بالباطل.

«جواظ» والجواظ: هو الجموع الممنوع. وقيل: كثير اللحم المختال في مشيته. وقيل: الفاجر.

وقيل هو الجزوع الذي لا يصبر، دائماً في أنين وحزن وهم وغم، معترضاً على القضاء والقدر، لا يخضع له، ولا يرضى بالله رباً.

«متكبر» أي، صاحب الكبر، وقد جمع بين وصفين: هما بطر الحق، وغمط الناس. واطر الحق: يعني رده، وغمط الناس: يعني احتقارهم.

والجافي الذي لا يقبل موعظة، كثير الخصومة، بذئ سيء الخلق مع العباد ومع رب العباد، ثم ذكر من أفعالهم الجواظ البخيل الضخم المختال في مشيته، ليس له هم سوى ملء بطنه، وتحقيق شهوته.

وقد أخبر النبي ﷺ في الحديث السابق عن ساكني الجنة وساكني النار، فبدأ بذكر أهل الجنة ووصفهم بأنهم ضعفاء النفوس تواضعوا في دنياهم، فأبعدوا عنهم رداء الكبر والخيلاء والتكبر على الله وعلى عباد الله، متضعفون: أي، ذليلون لله - تعالى - بعبادتهم وخوفهم ورجائهم منه، وقيل في وصفهم أنهم الذين تسلب حقوقهم بسبب ضعفهم وطيب أخلاقهم.

ثم ذكر ﷺ أهل النار وذكر شيئاً من أفعالهم تحذيراً من التخلق بها واتباعها، فذكر أن من صفاتهم العتل وهو الغليظ، قال ﷺ **«بحسب امرئ من الشر أن يكون فاحشاً بذئاً بخيلاً جباناً»** [رواه أحمد].

وفي الصحيحين: **«إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه»**.

وفي الحديث: استحباب التواضع والتذلل للمسلمين، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

٢٥٣ - وعن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه - قال: مرَّ رجلٌ على النبي ﷺ فقالَ لرجُلٍ عندهُ جالسٌ: «ما رأيكَ في هَذَا؟» فقال: رجُلٌ منْ أشْرافِ النَّاسِ هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ. فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا رَأَيْتَ فِي هَذَا؟» فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ. فقال رسول الله ﷺ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا» [متفقٌ عليه].

قوله: حَرِيٌّ هو بفتح الحاء وكسر الراء وتشديد الياء: أي حقيقٌ.
وقوله: شَفَعَ بفتح الفاء.

* طغت الأمور المادية على الناس، فعظم أهل الدنيا والأموال، ولا شك أن أعظم الناس مكانة ورفعة ومنزلة ما ذكرهم الله - عز وجل - بقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وفي الحديث ذكر النبي ﷺ حال رجلين مرا على النبي ﷺ فسأل النبي ﷺ عن الرجل الأول:
«ما رأيكَ في هَذَا» أي، ما تقول في هذا؟، من حيث التعظيم باعتبار الأمور الدنيوية.

ف قيل له: رجل من أشْرافِ النَّاسِ، حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ فِي الْأَمْرِ أَنْ يُشَفَّعَ.

ثم مرَّ رجل آخر، فسأل عنه، فقيل: هَذَا رَجُلٌ مِنْ ضَعَفَاءِ الْمُسْلِمِينَ، حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ إِلَّا يُنْكَحَ لِفَقْرِهِ، وَإِنْ شَفَعَ فِي أَمْرٍ إِلَّا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ إِلَّا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ. هذا الجواب هو مقياس الدنيا عند بعض الناس، لكن النبي ﷺ أعلمهم بأمر أعظم من ذلك، فقال ﷺ:

«هذا خير من ملء الأرض مثل هذا» أي، هذا الرجل الضعيف الفقير الذي لا ينكح ولا يشفع فليس له شرف ولا جاه وإن تحدث لا يسمع لقوله هو خير وأعلى منزلة عند الله من مثل هذا الرجل الآخر.

لأن الله - تعالى - لا ينظر إلى الشرف والجاه والمال والنسب، إنما ينظر إلى القلب والعمل، فإذا أصلح القلب فيما بينه وبين الله - عز وجل - وأتاب إليه وصار ذاكرًا له خائفًا منه، مخبتًا إليه، عاملًا بما يرضيه - تعالى -، فهذا هو الكريم عند الله وهو الوجيه، وهو الذي لو أقسم على الله لأبره.

وقد أمر - عز وجل - بالنكاح ووعد بالغنى، قال تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٢].

وفي الحديث: الحث على عدم احتقار الفقراء والمساكين، فرب أشعث أغبر خير من ملء الأرض من الأغنياء والمتكبرين.

وفيه: الترغيب في إنكاح الصالحين والصالحات، ولو كانوا فقراء لأنهم الأكفاء في الدين، وامثالا لحديث النبي ﷺ «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك» [رواه البخاري].

٢٥٤ - وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «اُخْتَبَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ: فِي الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فِي ضُعَفَاءِ النَّاسِ وَمَسَاكِينِهِمْ فَقَضَى اللَّهُ بَيْنَهُمَا: إِنَّكَ الْجَنَّةُ رَحِمْتِي أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ، وَإِنَّكَ النَّارُ عَذَابِي أَعَذِبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكُلِّكُمَا عَلَيَّ مَلُؤُهَا» [رواه مسلم].

* في هذا الحديث يذكر النبي ﷺ أن الجنة والنار اختصمتا عند الله - عز وجل -.

فقال ﷺ: «اُخْتَبَتِ النَّارُ وَالْجَنَّةُ» أي، تحاجا فيما بينهما، كل واحدة تدلي بحجتها، وهذه أمور غيبية لا نعلم كيفيتها، والله على كل شيء قدير.

«فَقَالَتِ النَّارُ: فِي الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ» أي، يدخلني الجبارون والمتكبرون. والمتكبر الذي يتعاضم بما ليس فيه. والمتجبر: الذي لا يكثرث ولا يبالي بأمر الضعفاء والمساكين، فيغمطون الناس ويردون الحق.

«وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فِي ضُعَفَاءِ النَّاسِ وَمَسَاكِينِهِمْ» أي، يدخل الجنة الضعيف الخاضع لله - تعالى - يبذل نفسه له - سبحانه وتعالى - ضد المتجبر والمتكبر، والمراد الأغلب وإلا يدخلها الأشراف، كأشراف الصحابة - رضي الله عنهم - كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وكل هؤلاء من الأشراف.

قال الحافظ: «أي المحققون بينهم الساقطون من أعينهم، هذا بالنسبة إلى ما عند الأكثر من الناس، وبالنسبة إلى ما عند الله هم عظماء رفقاء الدرجات لكنهم بالنسبة إلى ما عند أنفسهم وخضوعهم له في غاية التواضع لله والذلة في عباده، فوصفهم بالضعف والسقط بهذا المعنى صحيح. أو المراد بالحصر في قول الجنة إلا ضعفاء الناس الأغلب، فقضى الله - عز وجل - بينهم، بقوله سبحانه وتعالى:

«إِنَّكَ الْجَنَّةُ رَحِمْتِي أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ» أي، الرحمة المخلوقة، وهي أثر من آثار رحمة الله - عز وجل - التي هي صفة من صفاته.

«وإنك النار عذابي أعذب بك من أشياء» كما في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

«ولكلكما علي ملؤها» أي، فكل واحد وعدها الله أن تملأ، فأما الجنة فلا تمتلي بل يبقى فيها فضل، فينشئ الله - تعالى - لها خلقا، فيدخلهم الجنة برحمته - سبحانه وتعالى -.

وأما النار فلا تمتلي ولكن يلقي فيها وهي تقول: هل من مزيد، حتى يضع رب العزة فيها قدمه وتقول: قط قط، يعني كفاية كفاية، وهذا ملؤها. ومن يدخل الجنة لا يخرج منها ألبته، وكذا من يدخل النار من الكفرة، أما ذوو المعاصي من المؤمنين إذا دخلوها فلا بد من خروجهم منها بعد تطهيرهم، في الحديث: «من مات وفي قلبه مثقال ذرة من إيمان دخل الجنة» [رواه مسلم].

قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «عز الدنيا بالمال، وعز الآخرة بالأعمال».

وفي الحديث: فضل ضعفه المسلمين، وأن الواجب رحمتهم والقيام بأمرهم.

٢٥٥ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ السَّمِينُ الْعَظِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزُنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ» [متفق عليه].

* ذم الله - عز وجل - في كتابه الترف والمترفين الذي يبالغون في الترف والتنعيم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤٥] وهذا وصف لهم أنهم بالغوا في التنعيم، وأخلدوا إلى الدنيا حتى شغلهم ذلك عن الطاعة، وإذا شغل النعيم والنعمة عن الطاعة كانت وبالا عليهم، لأن النعمة إنما خلقت وأوجدت ليستعين بها المسلم على طاعة الله والتقرب إليه. ذكر المؤلف هذا الحديث في باب المستضعفين والفقراء من المسلمين، وحال الرجل السمين يوم القيامة، وذلك لأن الغالب أن السمنة إنما تأتي من البطنة، أي من كثرة الأكل، وكثرة الأكل تدل على كثرة المال والغنى، والغالب على الأغنياء البطر والأشر وكفر النعمة، حتى إنهم يوم القيامة يكونون بهذه المثابة.

يؤتى بالرجل العظيم السمين كثير اللحم والشحم، لا يزن عند الله يوم القيامة جناح بعوضة، وذكر البعوضة لأنها من أشد الطيور امتهاناً وأهونها وأضعفها، وجناحها كذلك، وجاء ذم السمن الذي يؤدي إلى الكسل والبطر. ويوم القيامة يوم تكشف فيه الحقائق وتبلى السرائر والوزن فيه الحق، لا يعدل عند الله - عز وجل - شيئاً، ولا يزن مقدار جناح بعوضة. قال النووي: «أي لا يعدل في القدر والمنزلة جناحها. أي، لا قدر له عند الله - سبحانه - والعرب تقول: فلان عندنا لا وزن له، أي، لا قيمة له، وهذه الكلمة تدل على خسته وأنه لا قيمه له».

وقال القرطبي: «إذ لا يُثقل الميزان إلا صحيفة الأعمال، لا أشخاص العاملين، وقد قال ﷺ في عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ حَمُوشَةِ سَاقِيهِ؟ لَهِيَ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أَحَدٍ» [رواه مسلم].

قال أهل العلم: ظاهر الحديث أن الذي يوزن الإنسان، وأنه يخف ويثقل بحسب أعماله.

وقيل: بل الذي يوزن صحائف الأعمال، توضع صحائف السيئات في كفه، وصحائف الحسنات في كفه، وما رجح فالعمل عليه.

وقيل: بل الذي يوزن العمل، لأن الله - تعالى - قال ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧].

وفي الحديث «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» [رواه البخاري].

قال أهل العلم: «فمن رجحت حسناته على سيئاته فهو من أهل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته استحق أن يعذب في النار، ومن تساوت حسناته وسيئاته كان من أهل الأعراف، الذي يكونون بين الجنة والنار لمدة، حسب ما يشاء الله - عز وجل - ثم يدخلون الجنة».

وفي الحديث: أن الإنسان لا ينبغي له أن يغتر بالصور والأشخاص والأجسام، وإنما ينظر إلى الأعمال والقلوب والأفعال.

فرب شخص عظيم في بدنه أو معظم عند قومه، وهو لا يزن عند الله جناح بعوضة، وكان بعض السلف يقول: «اللهم إني أعوذ بك أن أكون في نفسي عظيماً وعندك حقيراً».

وفي الحديث: أن السمن المكتسب للرجال مذموم، وسبب ذلك أن السمن المكتسب إنما هو كثرة الأكل، والشراهة، والدعة، والراحة، والأمن، والاسترسال مع النفس على شهواتها.

٢٥٦ - وعنه أَنَّ امْرَأَةً سُودَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ، أَوْ شَابًّا، فَفَقَدَهَا، أَوْ فَقَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلَ عَنْهَا أَوْ عَنْهُ، فَقَالُوا: مَاتَ. قَالَ: «أَفَلَا كُنْتُمْ أَذْنَتُمُونِي» فَكَانَهُمْ صَغَرُوا أَمْرَهَا، أَوْ أَمْرَهُ، فَقَالَ: «دُلُونِي عَلَى قَبْرِه» فَدَلُّوه فَصَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ» [متفق عليه].

قوله: تَقُمُّ هُوَ بفتح التاءِ وَضَمِّ القافِ: أَي تَكْنُسُ. وَالْقِمَامَةُ: الْكِنَاسَةُ.

«وَأَذْنَتُمُونِي» بِمَدِّ الهمزة: أَي: أَعْلَمْتُمُونِي.

* خلق الله الخلق لعبادته وأمرهم بطاعته، وجعل الدنيا مزرعة للآخرة، وجعل للأعمار أمدًا تنتهي إليه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

وهذا الباب ذكره المؤلف في فضل ضعفه المسلمين والفقراء والخاملين، ومنهم هذه المرأة السوداء التي تقم المسجد، أو أنه شاب فقده النبي ﷺ وأكثر الروايات على أنها امرأة سوداء، يعني ليست من نساء العرب كانت تقم المسجد، أي، تنظفه وتزيل القمامة، فماتت في الليل، فصغر الصحابة - رضي الله عنهم - شأنها، وقالوا: لا حاجة إلى أن نخبر النبي ﷺ في هذا الليل، ثم خرجوا بها فدفنوها، ففقدوها النبي ﷺ وسأل عنها، فقالوا: إنها ماتت.

فقال ﷺ: «أَفَلَا كُنْتُمْ أَذْنَتُمُونِي» أي، أخبرتموني حين ماتت.

ثم قال: «دُلُونِي عَلَى قَبْرِهَا» فدلوه، فصلّى عليها.

ثم قال ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةً ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللَّهَ يَنُورُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ». لعدم المنافذ التي يدخل منها الضوء إليها فلا ينيرها إلا الأعمال الصالحة، وأن الله - عز وجل - يدخل النور لهم فيها بسبب صلاته ﷺ عليهم.

وبعد الموت تكون القبور وهي أول منازل الآخرة يوضع المرء في لحدّه وحيداً فريداً ليس معه إلا ما عمل وقدم من الأعمال الصالحة.

وجاء في الحديث الآخر **«فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين»** [رواه أحمد] ما يدل على أن البهائم تسمع عذاب القبر، وفي مسند الإمام أحمد: **«إنهم يعذبون عذاباً في قبورهم تسمعه البهائم»**.

قال ابن تيمية: «ولهذا السبب يذهب الناس بدوابهم إذا مغلّت (وهو مغص يصيب الدواب إذا أكلت التراب مع العلف) إلى قبور اليهود والنصارى والمنافقين، كالإسماعيلة والنصيرية والقرامطة من بني عبيد وغيرهم بأرض مصر والشام، فإن أصحاب الخيل يقصدون قبورهم لذلك كما يقصدون قبور اليهود والنصارى، قالوا: فإذا سمعت الخيل عذاب القبر أحدث لها ذلك فزعاً وحرارة تذهب بالمغل».

قال ابن القيم: «لما كان أكثر الناس أهل معاصي وذنوب، كان أكثر أصحاب القبور معذبين، والفائز منهم الذي لا يعذب قليل، فظواهر القبور تراب، وبواطنها حسرات وعذاب. ظواهرها بالتراب والحجارة مبنيات، وفي بواطنها الدواهي والبليات، تغلي بالحسرات، كما تغلي القدور بما فيها، ويحق لها وقد حيل بينها وبين شهواتها وأمانيتها...».

وعن مطرف بن عبد الله قال: «القبر منزل بين الدنيا والآخرة، فمن نزل به بزاز، ارتحل به إلى الآخرة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر».

وفي الحديث: فضل تنظيف المساجد، وتواضع النبي ﷺ وسؤاله عن الخادم والصديق. والترغيب في شهود جناز أهل الخير وإعادة صلاة الجنازة لمن لم يصل عليها ولو بعد الدفن عند القبر.

٢٥٧ - وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثٍ أَغْبَرَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ» [رواه مسلم].

* في هذا الحديث بيان أن بعض عباد الله المؤمنين قد أعطاهم الله منزلة عظيمة ومكانة عالية رفيعة، رغم ما يظهر للناس من بساطة لباسهم وهيئتهم، فدعاؤهم مستجاب، ولكنهم شغلوا بمراقبة الله - تعالى - عن المحافظة على مظهرهم واشتد زهدهم في الدنيا فلم يرغبوا في شيء منها.

قال تعالى ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

قال ابن كثير: «أي بسكينة ووقار ومن غير جبرية ولا استكبار» وقال الحسن: إن المؤمنين قوم ذل، ذلت منهم - والله - الأسماع والأبصار والجوارح، حتى تحسبهم مرضى، ما بالقوم من مرض، وإنهم الأصحاء، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم. ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة».

وفي هذا الحديث: قال ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثٍ» من صفات الشعر: أي ليس له ما يدهن به الشعر ولا يرجله، وليس يهتم بمظهره.

«أغبر» يعني أغبر اللون، أغبر الثياب، يعلوه الغبار وذلك لشدة فقره. «مدفوع بالأبواب» أي، ليس له جاه، إذا جاء إلى الناس يستأذن لا يأذنون له، بل يدفعونه بالأبواب، لأن ليس له قيمة عند الناس، لكن قيمته وقدره عند رب العالمين، فإن حاله كما ذكر النبي ﷺ:

«لو أقسم على الله لأبره» أي، حلف يميناً بحصول أمر طمعاً في كرم الله، لو قال: والله لا يكون كذا، لم يكن، والله ليكونن كذا لكان، لو أقسم على الله لأبره، لكرمه عند الله - عز وجل - ورفع منزلته، وصيافته من الحنث في يمينه. كما قال أنس بن النضر: لا والله، لا تكسر ثنية الربيع.

فقال النبي ﷺ: «**لا يا أنس كتاب الله القصاص**» فرضي القوم أجمعون.
فقال النبي ﷺ: «**إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره**» [رواه مسلم].
قال القرطبي: «فإن قيل: كيف تكون هذه أوصاف أهل الجنة، وقد أمر الشرع بالنظافة، والزينة، والتطيب في الجمعة والأعياد، وكان ﷺ يتطيب، ويتنطف، ويتزين للوضوء وللجمع والأعياد.

قلنا: لا تناقض بينهما، فإنه ﷺ إنما وصف هؤلاء القوم بما غلب من أحوالهم، من ملازمة الأسفار الشرعية، من الحج، والجهاد والفرار بأديانهم من الفتن، ومع ذلك كله فيتنظفون النظافة الشرعية، ويتزينون التزين الشرعي إذا حضر وقته، وأمكنهم ذلك، ويحضرون جماعة المسلمين وجمعاتهم، فهم مع الناس كائنون، وعنهم بائون، داخلون في غمارهم ومستترون بخمولهم وأطمارهم، وقد توجهوا إلى الحق، وأعرضوا عن الخلق»

وفي الحديث الآخر أنه ﷺ قال: «**إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره**» [رواه البخاري].

فهو يقسم على الله في شيء يرضاه الله - عز وجل - إحساناً في ظنه بالله - عز وجل -.

ومن أسباب إجابة الدعاء أربعة أمور:

الأول: إطالة السفر لما فيه من الانكسار الذي هو من أعظم أسباب الإجابة.
الثاني: رثاثة الهيئة.

الثالث: مد اليدين إلى السماء، فإن الله حيي كريم، يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبين.

الرابع: الإلحاح على الله بتكرير ذكر الربوبية، وهو من أعظم ما يطلب به إجابة الدعاء.

٢٥٨ - وعن أسامة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «قُمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا عَامَّةٌ مِّنْ دَخَلَهَا الْمَسَاكِينُ، وَأَصْحَابُ الْجَدِّ مَحْبُوسُونَ غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ. وَقُمْتُ عَلَى بَابِ النَّارِ فَإِذَا عَامَّةٌ مِّنْ دَخَلَهَا النَّسَاءُ» [متفق عليه].

«وَالْجَدُّ» بفتح الجيم: الحظُّ والغني.
وقوله: «مَحْبُوسُونَ» أي: لَمْ يُؤْذَنَ لَهُمْ بَعْدُ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ.

* في هذا الحديث إخبار النبي ﷺ عن المغيبات بأحوال أهل الجنة وأهل النار. قال ﷺ:

«قمت على باب الجنة فإذا عامة من دخلها المساكين» أي الفقراء، ليسوا أصحاب أموال، ولا أصحاب عقارات، ولا أصحاب أرض. لأن الفقراء في الغالب أقرب إلى العبادة والخشية لله من الأغنياء، والمعنى: هم المساكين وأصحاب الأعمال الصالحة.

«وإذا أصحاب الجدد محبوسون» المراد به أصحاب الغنى والحظ في الدنيا والغنى والوجاهة بها. أي، محبوسون للحساب على أموالهم ممنوعون من دخول الجنة مع الفقراء. والغني يرى أنه مستغن بماله، فهو أقل تعبدًا من الفقير، وإن كان من الأغنياء من يعبد الله أكثر من الفقراء، ولكن هذا الغالب. لأن من تعلق بالدنيا الزائفة وجرى في اللهث وراء المادة، فإن ذلك ربما يصرفه عن الطاعة والعبادة وعن تأدية الواجبات في وقتها وعلى أتم وجه وأكملة.

قال ابن بطال: «وإنما صار أصحاب الجدد محبوسون لمنعهم حقوق الله الواجبة للفقراء في أموالهم، فحبسوا لما منعه، فأما من أدى حقوق الله في ماله فإنه لا يحبس عن الجنة إلا أنهم قليل إذ أكثر شأن أهل المال تضييع حقوق الله - تعالى - فيه، لأنه محنة وفتنة، ألا ترى إلى قوله ﷺ: «وكان عامة من دخلها المساكين» وهذا يدل على أن الذين يؤدّون حقوق الله في المال ويسلمون من فتنته هم الأقلون.

«إلا أصحاب النار فقد أمر بهم إلى النار» معناه: من استحق من أهل الغنى النار بكفره أو معاصيه.

ثم قال ﷺ: «وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء» أي، أكثر من يدخل النار النساء.

والمقصود بالنساء: اللواتي يعصين الله - تعالى - ولا يؤدين حقوق الله وينكرن الجميل والإحسان.

واختلف العلماء: أيهما أفضل الغني الشاكر أم الفقير الصابر؟ ف قيل أن التفصيل لا يرجع إلى ذات الفقر والغنى، وإنما يرجع إلى الأعمال والأحوال، والحقائق، فالمسألة فاسدة في نفسها، فإن التفصيل عند الله بالتقوى وحقائق الإيمان لا بفقر ولا غنى، ولهذا قال عمر: «الفقر والغنى مطيتان لا أبالي أيهما ركب».

وقال بعض العلماء: أن الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر لتعدي نفعه. وسئل أبو صفوان الرعيني: ما هي الدنيا التي ذمها الله في القرآن، والتي ينبغي للعاقل أن يتجنبها؟ فقال: «كل ما أحببت في الدنيا تريد به الدنيا فهو مذموم، وكل ما أحببت منها تريد به الآخرة فليس منها. والمقصود بهم المسلمون أما أهل الشرك والكفر فهم إلى النار».

وفي الحديث: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفق، وعن جسمه فيم أبلاه» [رواه الترمذي].

وفي الحديث: تفضيل الفقر على الغنى، وفيه فضيلة الفقراء والضعفاء.

٢٥٩- وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلًا عَابِدًا، فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً فَكَانَ فِيهَا، فَاتَّهَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ فَأَنْصَرَفَتْ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي. فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا تُمَتِّهِ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمَوْمِسَاتِ. فَتَذَاكَّرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ، وَكَانَتْ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يَتِمُّثُلُ بِحُسْنِهَا، فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتُمْ لَا أَفْتِنَنَّهُ، فَتَعَرَّضَتْ لَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، فَاتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَقَعَ عَلَيْهَا. فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ قَالَتْ: هُوَ جُرَيْجُ، فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ، وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ فَوَلَدْتَ مِنْكَ. قَالَ: أَتَيْنَ الصَّبِيَّ؟ فَجَاءُوا بِهِ فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى أَصَلِّيَ فَصَلَّى، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ وَقَالَ: يَا غُلَامُ مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: فَلَانُ الرَّاعِي، فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يَقْبَلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ وَقَالُوا: نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ قَالَ: لَا، أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ، فَفَعَلُوا. وَبَيْنَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ، فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارَاهُ وَشَارَهُ حَسَنَةً فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذَا، فَتَرَكَ الثَّدْيَ وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلَنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهِ فَجَعَلَ يَرْضَعُ» فَكَانَنِي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَحْكِي ارْتِضَاعَهُ بِأَصْبَعِهِ السَّبَابَةِ فِي فِيهِ، فَجَعَلَ يُمُصُّهَا، قَالَ: «وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا، وَيَقُولُونَ: زَنَيْتَ سَرَقْتَ، وَهِيَ تَقُولُ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا، فَتَرَكَ الرِّضَاعَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلَنِي مِثْلَهَا، فَهَنَالِكَ تَرَا جَعَا الْحَدِيثِ فَقَالَتْ: مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهُ فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلَنِي مِثْلَهُ، وَمَرُّوا بِهِذِهِ الْأَمَةِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ: زَنَيْتَ سَرَقْتَ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا فَقُلْتُ:

اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا؟ قَالَ: «إِنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ لَهَا زَنَيْتِ، وَلَمْ تَزْنِي، وَسَرَقْتَ، وَلَمْ تَسْرِقْ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا» [متفق عليه].

والمُؤِمَّسَاتُ : بضم الميم الأولى، وإسكان الواو وكسر الميم الثانية وبالسين المهملة وهن الزواني. والمؤمسة: الزانية.
وقوله: دَابَّةٌ فَارِهَةٌ بالفاء: أي حاذقة نفيسة. الشَّارَةُ بالشين المعجمة وتخفيف الراء: وهي الجمال الظاهر في الهيئة والملبس.
ومعنى وصل تراجع الحديث أي: حدثت الصبي وحدثتها، والله أعلم.

* قال النووي: قوله ﷺ «**لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة**» فذكرهم، وليس فيهم الصبي الذي كان مع المرأة في حديث الساحر، والراهب وقصة أصحاب الأخدود المذكور في آخر صحيح مسلم، وجوابه أن ذلك الصبي لم يكن في المهد بل كان أكبر من صاحب المهد وإن كان صغيراً.

«**إلا ثلاثة**» أي، من بني إسرائيل، وإلا فقد تكلم غيرهم، كما جاء في صحيح مسلم في قصة أصحاب الأخدود.

وفي الحديث: إيثار إجابة الأم على صلاة التطوع، لأن الاستمرار فيها نافلة، وإجابة الأم وبرها واجب.

وفيه: عظم بر الوالدين وتأكد حق الأم، وأن دعاءها مستجاب.

وفيه: إثبات معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء الصالحين.

٣٣ - باب ملاطفة اليتيم والبنات وسائر الضعفة والمساكين والمنكسرين والإحسان إليهم والشفقة عليهم والتواضع معهم وخفض الجناح لهم

هذا الباب ذكره المؤلف - رحمه الله تعالى - في ملاطفة اليتامى والضعفة من العبيد والإماء والمساكين والمحتاجين والبنات، ونحوهم ممن هم محل الشفقة والرحمة، وذلك أن دين الإسلام دين الرحمة والعطف والإحسان، وقد حث - عز وجل - على الإحسان، وهو من فضله وجوده وكرمه ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧] وهبك المال فأنفق، وأعطاك الجاه فاشفع، وأعانك ووفقك في حياتك فكن لعباد الله كما كان الله لك. والإحسان ثمنه الجنة، والمحسن قريب من الله، قال - عز وجل - ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

قال الله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]. توجيه للنبي ﷺ ولأمته من بعده. أي: ألن جانبك وتواضع لمن آمن بك من المؤمنين وضعفاءهم، محبة وإكراماً وتودداً. مستعار من خفض الطائر جناحه إذا أراد أن ينحط.

وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨]. أي، أحبسها مع هؤلاء القوم الكرام الشرفاء، الذي يدعون ربهم صباحاً ومساءً، لا رياء ولا سمعة، ولكنهم يريدون وجهه. ولا تتجاوز عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا.

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۖ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۖ﴾ [الضحى: ٩-١٠]. أي، لا تسيء في معاملة اليتيم وتسلط عليه بالظلم لضعفه، بل

ادفع إليه حقه، وأكرمه. وكذلك لا تنهر السائل إذا سألَكَ، فإما أن تطعمه ما تيسر عندك، وإما أن ترده رداً ليناً هيناً.

قال قتادة: «كن لليتيم كالأب الرحيم»

وفي هذا تذكير للنبي ﷺ وبحاله حين اليتيم: ﴿أَلَمْ نَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۖ﴾ [الضحى: ٦] والاستفهام هنا للتقرير، يعنى قد وجدك الله - تعالى - يتيماً من الأم لا تدبر نفسك، فإن أباه ﷺ توفي قبل أن يولد، فأواك الله وضمك إلى من يكفلك ويرعاك وهو جده عبد المطلب، ثم لما مات جده كفله الله عمه أبا طالب حتى أيداه الله بنصره وبالمؤمنين.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ﴾ أي، غير عالم، لم تكن تدري القرآن ولا الشرائع، فهداك لذلك وعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق.

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۖ﴾ أي، وجدك فقيراً إذا عيال لا تملك شيئاً فأغناك وأغنى بك بما أعطاك من الرزق، وبما فتح الله عليك من البلدان، التي جبيت لك أموالها وخراجها، وفي مقابل هذه النعم عليك بشكرها وأداء حقها.

وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۖ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ

﴿وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۖ﴾ [الماعون: ١-٣]. ذكر الله - عز وجل -

المكذب بالحساب والجزاء والبعث والنشور، وذكر من أفعاله أنه يدفع اليتيم ويزجره بعنف ولا يرحمه لقساوة قلبه، ولأنه لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً، وهو كذلك لا يحض ولا يحث نفسه ولا أهله ولا غيرهم على طعام المسكين الفقير المحتاج إلى الطعام بخلاً بالمال وشحاً به، وهذا يدل على خساسة طبعه وشدة بخله.

٢٦٠- عن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اطْرُدْ هَؤُلَاءَ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا، وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ مِّنْ هُذَيْلٍ وَبِلَالٌ وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ فَحَدَّثَ نَفْسَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢]. [رواه مسلم].

* الفقراء والضعفاء كانوا أول من دخل في الإسلام وصدق برسالة النبي محمد ﷺ. وهكذا الأنبياء أول من آمن بهم الفقراء والضعفاء. وراوي هذا الحديث هو الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - الذي قال: (لقد رأيتني وأنا ثلث الإسلام) أي ثالث ثلاثة أسلموا وهو أول من رمى بسهم في الإسلام، وكان - رضي الله عنه - مجاب الدعوة، وقد شهد له رسول الله ﷺ بالجنة. قال علي بن المديني: «وهو آخر العشرة وفاة» أي، المبشرين بالجنة.

وفي الحديث: كان النبي ﷺ في بداية الرسالة وظهورها جالساً مع أصحابه يعلمهم ويوجههم، فقال أكابر وصناديد قريش من المشركين للنبي ﷺ: أبعد عن حضرتك هؤلاء الموالى والفقراء حتى لا يكون لهم جراءة علينا في مخاطبتهم بنا إن كنت تريد أن تؤمن بك وندخل عليك، كل ذلك احتقاراً وازدراء لهم، ورغبة في المفاخرة والتفرد وإظهار المكانة ليراهم العرب. قال سعد: وكنت أنا وعبد الله بن مسعود ورجل من هذيل ورجلان لست أسميهما، إما لمصلحة في عدم ذكرهما أو نسياناً منه - رضي الله عنه -.

فلما أن قال أشرف المشركون للنبي ﷺ، طمع في إسلامهم ووقع في نفس النبي ﷺ الميل إلى طرد المستضعفين لعل الله أن يهدي هؤلاء الأكابر فيتبعهم

من خلفهم، فحدث نفسه بذلك. أي، برد المسلمين أو أن يقوموا إذا جلس هؤلاء. فأنزل الله - عز وجل - الآية ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ نزلت عتاباً للنبي ﷺ في حق الفقراء والضعفاء فهوؤلاء يريدون وجه الله والدار الآخرة وليس لهم مطامع دنيوية، وفي هذا إشارة إلى الإخلاص.

قال القرطبي: «قليل معناه، يدعون ربهم بالغداة لطلب التوفيق والتيسير، وبالعشي لطلب العفو عن التقصير، وقيل: يعنى به، دوام عبادتهم، وإنما خص طرفي النهار بالذكر لأن من عمل في وقت الشغل، كان في وقت الفراغ من الشغل أعمل»

فلما نزلت الآية قال ﷺ لمشركي قريش: «ما أنا بطارد المؤمنين». وكان ﷺ بعد ذلك يصبر نفسه معهم كما أمره الله، وكان ﷺ إذا رآهم بعد ذلك يقول: «مرحباً بالذين عاتبني الله فيهم» وكان لا يقوم حتى يكونوا هم الذين يتدئون بالقيام.

وخص - عز وجل - في الآية ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ لأن الشغل غالب فيهما على الناس، ومن كان في وقت الشغل مقبلاً على العبادة كان في وقت الفراغ من الشغل أعظم.

ويستفاد من الحديث الحرص على مجالسة الأخيار والصالحين الذين يدعون الله صباحاً ومساءً يريدون وجهه.

وفي الحديث: النهي عن أن يعظم أحد لجاهه أو أبويه، وعن أن يحتقر لخموله وورثاة أثوابه.

٢٦١- وعن أبي هُبَيْرَةَ عَائِدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْمَزْنِيِّ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ - رضي الله عنه -، أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَتَى عَلَى سَلْمَانَ وَصُهَيْبٍ وَبِلَالٍ فِي نَفَرٍ فَقَالُوا: مَا أَخَذْتَ سُيُوفَ اللَّهِ مِنْ عَدُوِّ اللَّهِ مَا أَخَذَهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ - رضي الله عنه -: أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخٍ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ؟ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ؟ لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ؟» فَأَتَاهُمْ فَقَالَ: يَا إِخْوَتَاهُ أَغْضَبْتُكُمْ؟ قَالُوا: لَا، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَخِي. [رواه مسلم].

قوله مَا أَخَذَهَا أَي: لَمْ تَسْتَوْفِ حَقَّهَا مِنْهُ.

وقوله: يَا أَخِي رُوي بفتح الهمزة وكسر الخاء وتخفيف الياء، ورُوي بضم الهمزة وفتح الخاء وتشديد الياء.

* لقد عظم الله شأن عباده المؤمنين المتقين، وإنه ليرضى - سبحانه - لرضاهم ويغضب لغضبهم، وعلى هذا يحرص المسلم على المساكين والضعفاء وملاطفتهم، والجلوس معهم والرفق بهم، والإحسان إليهم.

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «**من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب**».

قال ابن تيمية: «من كان لله تقيا كان لله ولياً»

وفي هذا الحديث ذكر أن أبا بكر - رضي الله عنه - مر بسلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، وهؤلاء الثلاثة كلهم من الموالى - رضي الله عنهم - فمر بهم أبو سفيان وهم جلوس في مجلس، وهو كافر في الهدنة بعد صلح الحديبية.

فقالوا: ما فعلت أسيافنا بعدو الله ما فعلت. يعني: أنهم لم يشفوا أنفسهم مما فعل بهم أسيادهم من قريش من تعذيبهم وأذيتهم في دين الله - عز وجل -.. فكان أبا بكر - رضي الله عنه - لا مهم وعاتبهم على ذلك، وقال: أتقولون لسيد قريش مثل هذا الكلام. وقد كان أبو سفيان رأساً في قريش

ومقدمهم، وهذا القول من أبي بكر طمعاً في إسلام أبي سفيان وأن يميل إلى المؤمنين ويودهم.

ثم إن أبا بكر أخبر النبي ﷺ بذلك، وعلى عظم منزلة أبي بكر ورفيع درجته وصحبته للنبي ﷺ ورفقته في الغار، إلا أن النبي ﷺ وجهه «يا أبا بكر لعلك أغضبتهم؟ لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك» فقد كان ﷺ حريصاً على ضعفه المسلمين ومساكينهم.

فذهب أبو بكر - رضي الله عنه - إلى هؤلاء النفر وسألهم: أغضبتكم؟ أي، أمل أن لا أكون فعلت ذلك. فقالوا: لا.

قال: يا أخوتاه أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أبا بكر.

وهذا الفعل دليل على ورع أبي بكر - رضي الله عنه - وعلى حرصه وإبراء ذمته وتواضعه ولين جانبه لإخوانه.

وفي الحديث: احترام الصالحين واتقاء ما يؤذيهم أو يغضبهم. وفضيلة سلمان وصهيب وبلال - رضي الله عنهم -

وفي اللطف واللطائف قال الثعالبي: أن الصديق - رضي الله عنه - رأى في يد دلالاً متاعاً فقال: أتبيعه؟ فقال: لا، يرحمك الله، فقال له الصديق: قل لا، ويرحمك الله، لئلا يشتبه الدعاء لي بالدعاء علي.

وفي الحديث: فضيلة ظاهرة للصحابي الجليل سلمان الفارسي - رضي الله عنه - ورفقته هؤلاء.

وفيه: مراعاة قلوب الضعفاء وأهل الدين وإكرامهم وملاطفتهم.

٢٦٢- وعن سهل بن سعد - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا» وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَجَ بَيْنَهُمَا. [رواه البخاري].

و«كَافِلُ الْيَتِيمِ»: الْقَائِمُ بِأُمُورِهِ.

* كفل الإسلام حقوق جميع الناس مسلمهم وكافرهم، وبرهم وفاجرهم، وصغيرهم وكبيرهم. وجعل بين المسلمين التواد والتراحم، والمساعدة والإعانة لمحتاجهم، والرحمة بصغيرهم والعطف على كبيرهم، وتفقد حال اليتيم والأرملة والمسكين وضعفاء المسلمين.

وإذا فقد الطفل - أو الطفلة من باب أولى - أباه فقد فقد الركن الشديد الذي يأوي إليه وينفق عليه، ويرعاه ويؤدبه ويسعى في مصالحه، فيكون عرضة للظلم والعدوان، والضياع والإهمال وشدة الحاجة. فسد الإسلام هذا وحث على كفالة اليتيم والقيام بأمره.

وقد ثبت عن النبي ﷺ جملة من الأحاديث المرغبة في كفالة اليتيم، وما أعد الله له من الأجر العظيم والثواب الجزيل، كما في قوله ﷺ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا» وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما.

واليتيم: هو من مات أبوه. وحده البلوغ فإذا بلغ الصبي زال عنه اليتيم. وأما إن ماتت عنه أمه فيقال له لقيم.

وفي إشارته ﷺ بالسبابة والوسطى لبيان شدة قرب كافل اليتيم منه ﷺ. قال القرطبي: «أي، هو معه في الجنة وبحضرته، غير أن كل واحد منهما على درجته فيها، إذ لا يبلغ درجة نبينا ﷺ أحد من الأنبياء، فكيف بغيرهم».

قال ابن بطلال: «حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة، ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك».

وكافل اليتيم على التمام: هو القيم بأمره ومصالحه من نفقة، وكسوة وتأديب، الساعي في تنشئته على مكارم الأخلاق وتعاليم الدين وآدابه وسننه. قال المناوي: «أن يربيه تربية ابنه، ولا يقتصر على الشفقة عليه والتلطف به، ويؤدبه أحسن تأديب، ويعلمه أحسن تعليم».

قال العراقي: لعل الحكمة في كون كافل اليتيم.. شبهت منزلته في الجنة بالقرب من النبي، أو منزلة النبي، لكون النبي شأنه أن يبعث إلى قوم لا يعقلون أمر دينهم، فيكون كافلاً كاملاً لهم ومعلماً ومرشداً، وكذلك كفالة اليتيم يقوم بكفالة من لا يعقل أمر دينه، بل ولا دنياه فيرشده ويعلمه ويحسن أدبه»

جاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو قسوة قلبه فقال ﷺ «**أطعم المسكين وامسح رأس اليتيم**» [رواه أحمد].

وقد توعد الله - عز وجل - الوعيد الشديد لمن أكل مال اليتيم بغير حق، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ١٠﴾ [النساء: ١٠].

وجاء في الحديث: أن من السبع الموبقات: «**أكل مال اليتيم**» [رواه البخاري].

وفي الحديث: فضل كفالة اليتيم، والعناية به، والقيام بأمره.

٢٦٣ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لغيرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ» وَأَشَارَ الرَّأْيِي وَهُوَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى. [رواه مسلم].

وقوله ﷺ: «الْيَتِيمُ لَهُ أَوْ لغيرِهِ» معناه: قَرِيبُهُ، أَوْ الْأَجَنِيُّ مِنْهُ، فَالْقَرِيبُ مِثْلُ أَنْ تَكْفُلَهُ أُمُّهُ أَوْ جَدُّهُ أَوْ أَخُوهُ أَوْ غَيْرُهُمْ مِنْ قَرَابَتِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

* أورد المؤلف - رحمه الله تعالى - هذا الحديث في باب كفالة اليتيم، فقد حفظ الإسلام حقوق الضعفاء والمساكين، وجعل لليتم مكانته وقدره وحفظه في نفسه وماله.

وإنما حث الإسلام على كفالة اليتيم، لأن اليتيم قد افتقد تربية أبيه وبره ولطفه، وتعاهد مصالح أموره.

وقد حث رسول الله ﷺ على كفالة اليتيم والعناية به، والرفق بحاله. قال ﷺ: «كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لغيرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ».

قال ابن بطال: «حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به، ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة».

وقال ابن عثيمين: «والكفالة المتاحة التي ندب إليها الشرع هي القيام بما يصلحه في أمر دينه ودنياه، بما يعلمه في دينه من التربية والتوجيه والتعليم، وما أشبه ذلك، وما يصلحه في دنياه من الطعام والشراب والسكن»

وأما كفالته المادية لدى الجمعيات الخيرية أمر مندوب له لقوله ﷺ: «إِنْ هَذَا الْمَالُ خُضِرَ حُلُوةً فَنَعَمْ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ، مَا أُعْطِيَ مِنْهُ الْمُسْكِينُ وَالْيَتِيمُ وَابْنُ السَّبِيلِ» [رواه البخاري].

لكن هذه النفقة أو الكفالة المادية ليست هي الكفالة التي ندب إليها الشرع ووعد فاعلها المنزلة العظيمة في الجنة، وإنما هي نوع منها وشعبة

من شعبها. وإنما الكفالة التامة: القيام بأمره، والنظر في مصالحه الدينية والدنيوية، وتربيته والإحسان إليه حتى يزول يتمه.

وإن كان للإنسان مال ينفق منه على اليتيم، فهذا على خير عظيم إن شاء الله، ويكفى أنه توقي من فتنه المال والشح به، وأدى شرط النبي ﷺ «**لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل**» ولعله أن يحصل له بإخلاص النية وصدق الإرادة ما عجز أن يناله بعمله.

وقد جعل ﷺ خير البيوت البيت الذي فيه يتيم يكرم، وشرها الذي فيه يتيم يهان، قال ﷺ: «**خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين فيه يتيم يساء إليه**» [رواه ابن ماجه].

ويزداد الأجر لمن كان هذا اليتيم من أقاربه فقد شجع بين كفالة اليتيم والنفقة على الأقرباء، وفي قوله ﷺ «**له أو لغيره**» فالذي له: أن يكون قريباً له كجده وأمه وجدته، وأخيه وأخته، وعمه وخاله، وعمته وخالته، وغيرهم من أقاربه، والذي لغيره أن يكون أجنبياً.

قال في الكوكب المنير: «بأن يكون جداً أو عمّاً أو أخاً أو نحو ذلك من الأقارب أو يكون مات أبو المولود فقامت أمه مقامه بكفالته، أو ماتت أمه فقامت أبوه مقامها في التربية».

وقد زاد في هذا الحديث عن الحديث السابق قوله ﷺ: «**اليتيم له أو لغيره**» وفيه توسيع مفهوم اليتيم حتى يشمل القريب والأجنبي، وأن فضيلة كفالة اليتيم تتعدى إليهما جميعاً.

قال النووي: «هذه الفضيلة تحصل لمن كفل اليتيم من مال نفسه، أو مال اليتيم، ولاية شرعية».

٢٦٤ - وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الْمَسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَا اللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ إِنَّمَا الْمَسْكِينُ الَّذِي يَتَعَفَّفُ» [متفق عليه].
وفي رواية في الصحيحين: «لَيْسَ الْمَسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمَسْكِينَ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يَغْنِيهِ، وَلَا يُفْظَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ».

* الإسلام دين كفاح وعمل، وجد واجتهاد، وعمارة للأرض، قال تعالى:
﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥] وقد ذم الإسلام السؤال إلا في ثلاث حالات:
الأولى: أن يحمل الرجل غرمًا لإصلاح ذات البين، ولا تفي أمواله هذا الغرم، فله أن يسأل لسداد هذا الغرم، فهو مسئلية الجميع.
الثانية: أن يصاب بكارثة أو جائحة تأتي على ماله، فله أن يسأل حتى يحصل ما به كفافه.

الثالث: رجل أصابته فاقة وحاجة بعد غنى وكفاية، مثل أن تكسد تجارته أو يطرد من عمله، فله أن يسأل حتى يحصل على ما به كفافه.

قال العلماء: «معنى الحديث أن المسكين الكامل المسكنة هو المتعفف الذي لا يطوف على الناس ولا يسألهم، ولا يُفْظَنُ لحاله، وليس معناه نفي أصل المسكنة عن الطواف، وإنما معناه نفي كمالها». والمسكين هو الذي يملك ما يقع موقعاً من كفايته لا يكفيه، وهو حينئذ أحسن حالاً من الفقير، فإن الذي لا يملك شيئاً أصلاً أو يملك ما لا يقع موقعاً من كفايته.
وقال آخرون: الفقير أحسن حالاً من المسكين. وقال آخرون هم سواء ولا فرق بينهما في المعنى.

وقيل: أن الفقير هو الذي يسأل، وأن المسكين هو السائل، فالمسكين أصلح حالاً من الفقير، والفقير أشد منه فاقة وضرراً، إلا أن الفقير أشرف نفساً من المسكين لعدم الخضوع الذي في المسكين، لأن المسكين قد جمع فقراً ومسكنه فحاله في هذا أسوأ حالاً من الفقير.

وفي قوله «ليس المسكين» أي، الممدوح من هذا النوع الأحق بالصدقة والأحوج إليها.
«الذي» يسأل.

«وترده التمرة أو التمرتان واللقمة واللقمتان» عند سؤاله، لأن التردد يكون قادراً على تحصيل قوله.

«إنما المسكين» أي، المسكين الكامل.

«الذي يتعفف» أي، يترك السؤال من الناس مع فقره.

قال ابن عثيمين: «فالمسكين يجب عليه الصبر، ويجب عليه أن يمتنع عن سؤال الناس، لا يسأل إلا عند الضرورة القصوى، إذا حلت له الميتة حل له السؤال، أما قبل ذلك ما دام يمكنه أن يتعفف ولو أن يأكل كسرة من خبز أو شقاً من تمر فلا يسأل. ولا يزال الإنسان يسأل الناس، ثم يسأل الناس، ثم يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وما في وجهه مزعة لحم والعياذ بالله، لأنه قد قشر وجهه للناس في الدنيا».

وفي الحديث «من سأل الناس أموالهم تكثراً، فإنما يسأل جمراً فليستقل أو

ليستكثر» [رواه مسلم].

قال الخطابي وغيره: «إنما نفى ﷺ المسكنة عن السائل الطواف لأنه تأتيه الكفاية، وقد تأتيه الزكاة زيادة عليها فتزول خصائصه ويسقط اسم المسكنة عنه، وإنما تدوم الحاجة والمسكنة فيمن لا يسأل ولا يُعطف عليه فيعطى».

والمسكنة صفة تمدح إذا لازمتها العفة عن السؤال، والصبر على الشدة والرضى بما قسم الله.

٢٦٥ - وعنه عن النبي ﷺ قال: «السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمُسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» وَأَحْسَبُهُ قَالَ: «وَكَالْقَائِمِ الَّذِي لَا يَفْطُرُ، وَكَالَصَّائِمِ لَا يُفْطِرُ» [متفقٌ عليه].

* أكرم الله - عز وجل - الضعفاء والمساكين وجعل لهم حقوقاً على الأقوياء والمقتدرين، ومن أولئك الأرملة والمساكين، وأعظم الأجر لمن قام لهما وبهما.

وقد أكثر - عز وجل - في كتابه من ذكر اليتيم والحظ عليه، والتحذير من أذيته وأخذ ماله.

وفي هذا الحديث قال ﷺ:

«السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ» والأرملة: هي التي لا عائل لها، سواء كانوا ذكوراً أو إناثاً.

«السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمُسْكِينِ» أي، الذي يُحصل العيش لهما أو يخدمهما، الكاسب لهما، والعامل لمؤنتهما.

قال النووي: «المراد بالساعي: الكاسب لهما: العامل لمؤنتهما، والأرملة من لا زوج لها، سواء كانت تزوجت أم لا؟ وقيل: هي التي فارقت زوجها».

قال ابن قتيبة: «سميت أرملة لما يحصل لها من الإرمال، وهو الفقر وذهاب الزاد بفقد الزوج، يقال أرمل الرجل إذا أفنى زاده».

«والمسكين» هو الفقير.

«كالمجاهد في سبيل الله» المحارب للكفار في ميادين القتال. وشبهه به لأن القيام على المرأة بما يصلحها ويحفظها ويصونها، لا يتصور الدوام عليه إلا مع الصبر العظيم ومجاهدة النفس والشيطان، فإنهما يكسلان عن ذلك ويثقلانه ويفسدان النية فيه، ولذلك قلَّ من يدوم على ذلك العمل.

«وكالقائم الليل» أي، بالتهجد، فمن عجز عن الجهاد في سبيل الله وعن قيام الليل وصيام النهار، فليعمل بهذا الحديث ويسع على الأرامل والمساكين ليحشر يوم القيامة.

قال ابن عثيمين: «ومن هذا قيام الإنسان على عائلته وسعيه عليهم، وعلى العائلة الذين لا يكتسبون، فإن الساعي عليهم والقائم بمؤنتهم ساع على أرملة ومساكين، فيكون مستحقاً لهذا الوعد، ويكون كالمجاهد في سبيل الله، أو كالقائم الذي لا يفتر وكالصائم الذي لا يفطر».

قال بعض السلف: «كن لليтим كالأب، قال تعالى ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩] والنهي للنبي ﷺ نهي لأمته من بعده».

قيل في تفسير الآية: لا تسيء معاملة اليتيم، ولا يضيق صدرك عليه ولا تنهره، بل أكرمه، وأعطه ما تيسر، واصنع به كما تحب أن يصنع بولدك من بعدك.

«وكالقائم الذي لا يفتر» أي، كالقائم في صلاة التهجد، لا يتعب من ملازمة العبادة.

«وكالصائم الذي لا يفطر» أي، الذي يصوم في جميع الأوقات من حر وبرد وغير ذلك.

وفي الحديث: الحظ على كشف كربة الضعفاء والمحتاجين وسد خلتهم وصون حرمتهم.

وفيه: فضل القيام على الأرملة والمسكين.

٢٦٦ - وعنه عن النبي ﷺ قال: «شَرُّ الطَّعَامِ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ، يُمْنَعُهَا مَنْ يَأْتِيهَا، وَيُدْعَى إِلَيْهَا مَنْ يَأْبَاهَا، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّعْوَةَ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ» [رواه مسلم].

وفي رواية في الصحيحين عن أبي هريرة من قوله: «بِئْسَ الطَّعَامُ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ يُدْعَى إِلَيْهَا الْأَغْنِيَاءُ وَيُتْرَكُ الْفُقَرَاءُ».

* حث الشارع على إشاعة روح التآلف والتواد والتحاب بين المسلمين، سواء كانوا أغنياء أم فقراء دون تمييز، وهو من علامات المودة والمحبة، وأثنى على ذلك ورتب الأجر والمثوبة عليه، لأن ذلك بين المسلمين علامة الصلة والعشرة الطيبة.

وكان هدي النبي ﷺ إجابة الدعوة إذا دعى إليها حتى لو دعي إلى كراع. والمقصود بالوليمة في الحديث: هي وليمة العرس خاصة، وليس كل طعام دعى إليه أحد من الناس.

ووليمة العرس كونها شكراً لنعمة النكاح، وإشهاراً للنكاح وإعلاناً له، وإظهاراً للسرور، وإذا كانت كذلك فلا ينبغي أن يخص بها الأغنياء دون الفقراء، فإن ذلك يدل على تكبر صاحبها، بل الذي ينبغي أن يدعو الإنسان إليها أقاربه وجيرانه وأصحابه ومن يعرفهم من المسلمين، وبالقطع سيكون في هؤلاء الغني والفقير، وأما تخصيص الأغنياء بالدعوة فذلك الذي ذمه الحديث.

وقد يقاس على وليمة العرس في هذا: الولائم العامة التي يكون سببها من أسباب السرور كالعقيقة أو رجوع مسافر، أو إتمام حفظ القرآن الكريم أو نحو ذلك.

وأما الولائم الخاصة كالتي يصنعها المسلم، ليدعو إليها صديقاً له، أو قريباً، أو خاصاً من الناس، فلا حرج عليه أن تكون خاصة بمن صنعها من أجله. وقد كان الصحابة يدعون النبي ﷺ ويحجب دعوتهم.

والمسلم يحتسب الأجر في دعوة القرابة أو أصحاب الصلة، وأن ذلك من إطعام الطعام وجمع الأحبة والأقارب ليثاب على نيته الحسنة.

قال النووي: «أما الأعذار التي يسقط بها وجوب إجابة الدعوة أو ندها فمنها: أن يكون في الطعام شبهة، أو يخص بها الأغنياء، أو يكون هناك من يتأذى بحضوره معه، أو لا تليق به مجالسته، أو يدعوه لخوف شره، أو يطعم في جاهه، أو ليعاونه على الباطل وأن لا يكون هناك منكر من خمر أو لهو أو فرش حرير، وصور حيوان غير مفروشة، أو آنية ذهب أو فضة، فكل هذه أعذار في ترك الإجابة، ومن الأعذار أن يعتذر إلى الداعي فيتركه».

قال المهلب: «لا يبعث على الدعوة إلى الطعام إلا صدق المحبة وسرور الداعي بأكل المدعو من طعامه، والتحبب إليه بالمؤاكلة وتوكيد العهود بها».

وفي الحديث: مراعاة الفقراء والتلطف بهم.

وفيه: النهي عن الركون إلى الأغنياء وتعظيمهم لغناهم.

٢٦٧ - وعن أنس - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ وَضُمَّ أَصَابِعُهُ. [رواه مسلم].
«جَارِيَتَيْنِ» أَي: بَنَتَيْنِ.

* كانت الأنثى تكره وتحتقر، وتوَاد في الجاهلية، كما ذكر عز وجل: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨] وذكر - تعالى - من قبيح صفاتهم كذلك ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨].
ولما جاء الإسلام كرم الأنثى، ورفع قدرها، وأنزلها منزلتها كأم وأخت وزوجة وبنت، وحفظ لها حقوقها، ونهى عن الإضرار بها.
وقد وردت الأخبار في فضل النفقة على الزوجات والعيال لا سيما البنات، ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم، عن أبي هريرة مرفوعاً: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك».

وفي الحديث: «من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده - يعني الذكور - عليها أدخله الله الجنة» [رواه أبو داود].
قال النووي: «في هذه الأحاديث فضل الإحسان إلى البنات والنفقة عليهن وعلى سائر أمورهن».

قال ﷺ: «من عال جَارِيَتَيْنِ» أي، قام عليهما بالمؤونة والتربية ونحوهما، مأخوذ من العول وهو العون.

وفي قوله ﷺ: «من عال» قال ابن الأثير: «يُقَال: عال الرجل عياله يعولهم إذا قام بما يحتاجون إليه من قوت وكسوة وغيرهما».
«حتى تَبْلُغَا» أي، حتى تصلا سن البلوغ.

قال القرطبي: «ويعني بلوغهما: وصولهما إلى حال يستقلان بأنفسهما، وذلك إنما يكون في النساء إلى أن يدخل بهن أزواجهن».

وقد ذكر النبي ﷺ فضل عول الإنسان للبنات، وذلك أن البنت قاصرة ضعيفة مهينة، والغالب أن أهلها لا يأهون بها ولا يهتمون، فلذلك قال ﷺ: **«من عال جارتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين»** وضم أصابعه.

قال ابن عثيمين: «والمعنى أن يكون رفيقاً لرسول الله ﷺ في الجنة إذا عال الجاريتين، يعني الأنثيين من بنات أو أخوات أو غيرهما، أي أنه يكون مع النبي ﷺ في الجنة وقرن بين إصبعيه - عليه الصلاة والسلام -».

وقال ابن حجر: «وفي الحديث تأكيد حق البنات لما فيهن من الضعف غالباً عن القيام بمصالح أنفسهن، بخلاف الذكور لما فيهم من قوة البدن وجزالة الرأي وإمكان التصرف في الأمور المحتاج إليها في أكثر الأحوال».

وفي مسند الإمام أحمد، قال ﷺ: **«من عال بنتين أو أختين أو خاليتين أو جدتين أو عمتين فهو معي في الجنة كهاتين»**.

والعال في الغالب يكون بالقيام بمثونة البدن، من الكسوة والطعام والشراب والسكن والفراش ونحو ذلك، وكذلك يكون في غذاء الروح بالتعليم والتهديب والتوجيه، والأمر بالخير والنهي عن الشر وما إلى ذلك».

قال صالح بن أحمد: «كان أبي إذا ولد له ابنة يقول: «الأنبياء كانوا آباء بنات، وقد جاء في البنات ما قد علمت» أي، من الفضل».

وقال عبد الله السعدي: أنه بلغه أن الله يحب البنات، وكان لوط ﷺ ذا بنات، وكان شعيب ذا بنات، وكان النبي ﷺ ذا بنات».

وجاء في بعض أقوال المفسرين عند قوله تعالى: ﴿فَارَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١] أي ابنة.

وسميت الجارية جارية لسرعة جريان حبها في قلب والديها.

وفي الحديث: فضل رعاية البنات والقيام بأمرهن.

٢٦٨ - وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: دَخَلَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا تَسْأَلُ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي شَيْئًا غَيْرَ تَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ، فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا فَقَسَمْتُهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجْتُ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا، فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: «مَنْ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ» [متفق عليه].

* إن إكرام البنات والعناية بهن، والقرب منهن، والتأديب والرعاية والشفقة عمل جليل وهذا من الإحسان العظيم، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

وفي الحديث ذكرت عائشة - رضي الله عنها - حالة امرأة دخلت عليها تطلب شيئاً، فلم تجد عند أم المؤمنين شيئاً يطعم غير تمرّة واحدة، فأعطتها إياها، فقسمتها الأم بين ابنتيها ولم تأكل منها، ثم قامت المرأة فخرجت، فدخل النبي ﷺ فأخبرته عائشة - رضي الله عنها - بما جرى، فقال ﷺ: «مَنْ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ» أي، مَنْ قُدرَ له ابنتان.

قال النووي: «قوله ﷺ «مَنْ ابْتُلِيَ مِنْ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ» سماه ابتلاء لأن الناس يكرهونهن في العادة. فجاء الشرع بزجرهم عن ذلك، ورغب في إبقائهن وترك قتلهن بما ذكر من الثواب الموعود من أحسن إليهن وجاهد نفسه في الصبر عليهن». وقال ابن حجر: «اختلف في المراد بالابتلاء هل هو نفس وجودهن؟ أو ابتلي بما يصدر منهن؟».

«فأحسن إليهن» صونهن والقيام بمصالحهن والنظر في أصلح الأحوال لهن، فمن فعل ذلك قاصداً به وجه الله - تعالى - كن له سِتْرًا من النار يوم القيامة، أي أن الله - عز وجل - يحجبه عن النار بإحسانه إلى البنات، لأن البنت ضعيفة لا تستطيع التكسب، والذي يتكسب هو الرجل.

«كن له سترًا من النار» أي، سببًا وحجابًا من النار.

وفي الحديث فضل رعاية البنات، والقيام بهن.

وفي حديث ابن عباس عند الطبراني أن هذه البشارة وهي الحجاب من النار لمن ولي من هذه البنات شيئًا «فأنفق عليهن وزوجهن وأحسن أدبهن».

وفي حديث ابن مسعود عند الطبراني: «من كانت له ابنة، فأدبها، وأحسن أدبها، وعلمها فأحسن تعليمها، وأوسع عليها من نعمة الله التي أوسع عليه».

قال القرطبي: «يفيد هذا الحديث بعمومه أن الستر من النار يحصل بالإحسان إلى واحدة من البنات، فإذا عال زيادة على الواحدة فيحصل له زيادة على الستر سبق مع النبي ﷺ إلى الجنة كما في الحديث السابق».

ولما ذكرت البنات عند أحد الخلفاء قال أحد الأعراب: دعهن عنك يا أمير المؤمنين، فإنهن يقربن البعداء، ويلدن الأعداء، فقال له آخر ممن يفقه: ويحك لا تسمع له يا أمير المؤمنين، فوالله ما قام بحق مريض، ولا رحم كبير، ولا أعان على نوائب الدهر إلا هن.

وكان ﷺ إذا أقبلت ابنته فاطمة - رضي الله عنها - قام إليها وقال: «مرحبا بابنتي» ثم أجلسها عن يمينه أو شماله.

وفي الحديث: بيان فضل الإيثار، وأنه من سمات المؤمنين، فقد آثرت عائشة تلك المرأة وابنتيها على نفسها وهذا يدل على سخائها وكرمها مع شدة حاجتها وأن ما معها إلا القليل.

٢٦٩ - وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: جَاءَتْنِي مَسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَيْنِ لَهَا، فَأَطْعَمْتُهَا ثَلَاثَ تَمَرَاتٍ، فَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً وَرَفَعَتْ إِلَيَّ فِيهَا تَمْرَةً لِتَأْكُلَهَا، فَاسْتَطْعَمْتُهَا ابْنَتَاهَا، فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا، فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا، فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ»، أَوْ «أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ» [رواه مسلم].

* ذكرت عائشة - رضي الله عنها - في الحديث أن امرأة مسكينة. أي، ضعيفة، جاءت تحمل ابنتيها تسأل شيئاً فأعطتها عائشة ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منهما ثمرة، ورفعت إلى فيها واحدة فاستطعمت البنتان التمرة، فأخذت الأم الرحمة ورجاء الأجر والثواب فشقت التمرة بين ابنتيها ولم تأخذ منها شيئاً لنفسها.

فأعجب صنيعها عائشة - رضي الله عنها -، لما فيه من الإيثار والرحمة فذكرت ذلك للنبي ﷺ.

وفي الحديث: (فلم تجد عندي غير ثمرة) فيه شدة وحرص عائشة - رضي الله عنها - على الصدقة امتثالاً لوصية النبي ﷺ لها حيث قال: «لا يرجع من عندك سائل ولو بشق ثمرة» [رواه البزار].

لما سمع ﷺ ما صنعت المرأة ورحمتها لبنيتها، قال:

«إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ، أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ».

قال ابن عثيمين: «يعني لأنها لما رحمتها هذه الرحمة العظيمة أوجب الله لها بذلك الجنة. فدل ذلك على أن ملاطفة الصبيان والرحمة بهم من أسباب دخول الجنة والنجاة من النار».

وفي الحديث ما يدل على الحنو على الضعفاء والمساكين وأنهم من أسباب تنزل رحمة الله - عز وجل -.

وفيه فضل الصدقة التي تدل على صدق المؤمن في إيمانه بربه وثقته بوعده وفضله وشدة رحمة الأمهات بالأولاد وخشيتهم عليهم الضياع.

وكان من هدي النبي ﷺ رحمة بناته وإكرامهن، فقد كان ﷺ يستقبل ابنته فاطمة - رضي الله عنها - ويمشي لها، وكان إذا رآها رحب بها، وقال: مرحباً بابنتي، ثم يجلسها عن يمينه أو شماله» [رواه مسلم].

وكان ﷺ: «إذا دخلت عليه فاطمة ابنته قام إليها فأخذ بيدها فقبلها وأجلسها مجلسه» [رواه أبو داود].

وكان يزورها في بيتها ويتفقد أمورها، ويبعث إليها بالهدية، ويطيب قلبها بالكلمة الطيبة.

والإحسان إلى البنات يكون بأمر كثيرة منها: حسن اختيار الأم الصالحة، وحسن اختيار أسمائهن، وخير الأسماء للبنات أسماء أمهات المؤمنين والصحابيات. وكثرة الدعاء لهن ومن ذلك إكرامهن والعطف عليهن، وكذلك العدل بينهن وبين إخوانهن من الذكور.

ومن حسن التربية تعليم البنت العلم الشرعي وإقامة الشعائر الإسلامية في مظهرها ومخبرها، وحثها على الحجاب والستر والحشمة والحياء، والمبادرة إلى تزويجها إذا جاء الكفء ديناً وخلقاً، وتعاهدها بالصلة والزيارة والعطاء والسؤال بعد زواجها.

وفي الحديث: الإحسان إلى البنات، وأنهن من أسباب دخول الجنة.

٢٧٠ - وعن أبي شريح خويلد بن عمرو الخزاعي - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْرِجُ حَقَّ الضَّعِيفِينَ الْيَتِيمَ وَالْمَرْأَةَ» [حديث حسن صحيح رواه النسائي بإسناد جيد].
ومعنى «أَعْرِجُ»: أُلْحِقُ الْحَرْجَ، وَهُوَ الْإِثْمُ بِمَنْ ضَيَّعَ حَقَّهُمَا، وَأَحْذَرُ مِنْ ذَلِكَ تَحْذِيرًا بَلِيغًا، وَأَزْجُرُ عَنْهُ زَجْرًا أَكِيدًا.

* اعتنى الشارع الحكيم بحق ضعفة المسلمين من النساء والأيتام، وبالغ في التحذير عن ظلمهم.
وهذا حديث عظيم جليل، رفيع القدر، فيه التحذير من الاعتداء على حقوقهم والنيل من الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة يلجؤون إلى الله ويحتمون بقوته، ولذلك كان المتعرض لهم كالمحتقر لله في عهده، فهو حقيق بأنواع العذاب.
قال ﷺ:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْرِجُ» أي، أُلْحِقُ الْحَرْجَ، وهو الإثم، والمقصود يحذر تحذيرًا بليغًا، ويزجر زجرًا كبيرًا من تضييع حقوقهما.
قال النووي: «أي، أضيق على الناس في تضييع حقهما وأشدد عليهم في ذلك، والمقصود إشهادة - تعالى - في تبليغ ذلك الحكم إليهم».
«حق الضعيفين» لم يحدد الحق ليشمل سائر الحقوق المالية وغيرها.
«اليتيم» وهو من فقد أبوه وهو دون البلوغ.
«والمرأة» لضعفها.

قال المناوي في فيض القدير في شرح الحديث: «بأن تعاملوهما برفق وشفقة، ولا تكلفوهما ما لا يطيقانه، ولا تقصروا في حقهما الواجب والمندوب، ووصفهما بالضعف استعطافًا وزيادة في التحذير والتنفير، فإن الإنسان كلما كان أضعف كانت عناية الله به أتم، وانتقامه من ظالمه أشد».

قال أبو قلابة: «وأيُّ رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عيال صغار أو بعضهم أو ينفعه الله بهم ويغنيهم».

وقد جاءت الآيات الكثيرة في وجوب رعاية حق اليتيم وعدم التعدي عليه، وعندما نزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] عند ذلك تخرج الصحابة - رضي الله عنهم - من كان عنده يتيماً، فلحقهم الخوف الشديد، فنزل قول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

ومن رحمة الله - عز وجل - بالأيتام ولطفه ورأفته بهم أن جعل لهم نصيباً من الفيء والغنيمة، ومن النفقات الواجبة والمستحبة قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وقد ورد في حديث صحيح أن رسول الله ﷺ قال: «من مسح على رأس يتيماً فله بكل شعرة تمر عليها يده حسنة» وفي لفظ آخر: «من مسح رأس يتيماً لا يمسحه إلا الله، كان له بكل شعرة مرت عليها يده حسنة».

وفي الحديث: حرص النبي ﷺ على الضعفة والمساكين. وفيه: الحث على الرأفة والرحمة باليتيم والمرأة.

٧١- وعن مُصْعَب بن سعد بن أبي وقَّاص - رضي الله عنهما -: رَأَى سَعْدُ أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضِعْفَائِكُمْ» [رواه البخاري] هَكَذَا مُرْسَلًا، فَإِنَّ مَصْعَبَ بْنَ سَعْدٍ تَابِعِيٌّ، وَرَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَرْقَانِيُّ فِي صَحِيحِهِ مُتَّصِلًا عَنْ أَبِيهِ - رضي الله عنه - .

* قسم الله - عز وجل - الأرزاق بحكمته وبسط لمن شاء قوة في جسمه، فتفاوت الناس في معاشهم، فمنهم الضعيف ومنهم القوي، ضعيف البدن وقويه، وقليل المال وكثيره.

وفي هذا الحديث رأى سعد بن أبي وقاص الصحابي الجليل والفارس المغوار، وهو أحد الستة أصحاب الشورى الذين أوصى عمر - رضي الله عنه - لأحدهم بالخلافة من بعده.

رأى وظن - رضي الله عنه - أن له فضلاً على من دونه من أصحاب رسول الله ﷺ بسبب شجاعته وقوته أو نحو ذلك. فبين النبي ﷺ ذلك وجلاله بقوله: «هل تنصرون» أي، على أعدائكم.

«وترزقون» أي، الأموال من الغنيمة وغيرها.

«إلا بضعفائكم» أي، إلا ببركة ووجود فقرائكم فيغلب عليهم الإخلاص في العبادة، فخلوا قلوبهم من التعلق بالدنيا وصفاء ضمائرهم مما يقطعهم عن الله، فجعلوا همهم واحداً فزكت أعمالهم وأجيب دعاؤهم.

وحاصله إنما جعل النصر على الأعداء وقدّر توسيع الرزق على الأغنياء ببركة الفقراء ودعائهم، وذلك لصفاء ضمائرهم وقلة تعلقهم بزخرف الدنيا، وليس لهم قوة يعتدون بها ولا مال ولا غير ذلك، فتكون حالهم أقرب إلى الله - عز وجل - والاعتماد عليه والتوكل والرغبة فيما عنده. فيغلب عليهم الإخلاص في العبادة ويستجاب دعاؤهم.

قال ابن بطل: «تأويل الحديث أن الضعفاء أشد إخلاصاً في الدعاء وأكثر خشوعاً في العبادة، لخلاء قلوبهم عن التعلق بزخرف الدنيا». وفي هذا الحديث: بيان أن الرزق والنصر ليس بمجرد الأسباب المادية من الكثرة والشجاعة والمهارة في اكتساب الرزق، بل هناك أسباب خفية وأمور باطنة مما يكون في قلوب المؤمنين المستضعفين من الرغبة إلى الله في حصول المنافع ودفع المضار، وحصول الرزق وإدراك النعم ودفع النقم. وفي غزوة بدر وما بعدها من معارك الإسلام الخالدة خير مثال، من حيث عدد المسلمين وعدتهم، وكثرة المشركين وقوتهم، وكان عددهم حوالي ثلاثة أضعاف عدد المسلمين. ونصر الله عباده المسلمين على المشركين نصراً مؤزرًا وفتح لهم فتحاً مبيناً.

وحين غزا محمد بن واسع وهو من كبار التابعين مع قتيبة بن مسلم وصف جيش قتيبة للقتال قال: التمسوا لي محمد بن واسع العابد الزاهد، وإذا بمحمد بن واسع قد توضأ واتكأ على رمح، ورفع سبافته إلى السماء، فأخبروا قتيبة فتهلل وجهه وقال: والله الذي لا إله إلا هو لأصبع محمد بن واسع خير عندي من مائة ألف سيف ومائة ألف بطل طير.

قال عليه السلام: «**إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم**»

[رواه النسائي].

وفي الحديث: فضل الضعفاء والمساكين. وفيه: أن أرزاق الموسرين ونصر الملوك والسلاطين ليس إلا ببركة ضعفاء المسلمين ودعائهم.

٢٧٢- وعن أبي الدرداء عويمر - رضي الله عنه - قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ابغوني في الضعفاء، فإنما تُنصرون، وترزقون بضعفائكم» [رواه أبو داود بإسناد جيد].

* كان النبي ﷺ في مكة يدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته سرّاً وجهاراً، ليلاً ونهاراً، ويحذرهم من الشرك وعبادة الأصنام، وكان كفار قريش وأشرافهم يصدون عن دين الإسلام، ويقولون إنما اتبعه الضعفاء والمساكين، وقد أنزل الله - عز وجل - قوله ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨].

وفي هذا الحديث يبين ﷺ حال الضعفاء ومنزلتهم عنده، قال ﷺ: «ابغوني» أي، اطلبوا لي طلباً حثيثاً. «الضعفاء» من يستضعفهم الناس لفقرهم ورثائتهم، وقلة ذات يدهم. والمعنى: اطلبوا لي وتقربوا إليّ بالتقرب إليهم، وتفقد حالهم، وحفظ حقوقهم، والإحسان إليهم قولاً وفعلاً واستنصاراً بهم. لأنهم أشد إخلالاً في الدعاء، وأكثر خشوعاً في العبادة. قال الراغب الاصفهاني: «والضعف يكون في البدن، وفي النفس، وفي الحال».

«فإنما ترزقون» أي، تمكنون من الانتفاع بما أخرجنا لكم. «وتنصرون» أي، تعانون على عدوكم، ويدفع عنكم البلاء والأذى. «بضعفائكم» أي، بسبب كونهم بين أظهركم، أو بسبب رعايتكم ذمهم، أو ببركة دعائهم.

وفي الحديث عند النسائي أنه ﷺ قال: «إنما نصر الله هذه الأمة بضعيفها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم».

قال المنذري: «ومعناه: أن عبادة الضعفاء ودعاءهم أشد إخلاصاً لجلاء قلوبهم من التعلق بزخرف الدنيا وجعلوا همهم واحداً فأجيب دعاؤهم وزكت أعمالهم».

والقوي يترجح بفضل شجاعته، والضعيف يترجح بفضل انكساره وتضرعه وإخلاصه.

وفي أحاديث الباب: الانقطاع إلى الله - سبحانه - وإعانة الفقراء وإغاثة المنقطعين، وعدم رؤية النفس، والحذر من التعرض لإيذاء أحد من الضعفاء. وقد أوصى النبي ﷺ في أحاديث أخرى بالرحمة بالفقراء والضعفاء والخدم والعبيد، وأوصى كذلك برحمة اليتامى وكفالتهم وإصلاح أحوالهم. فالإسلام دين الرحمة: «**والراحمون يرحمهم الله**».

وفي الحديث: الحث على الرحمة بالضعفاء والمساكين. وفيه: أن للضعفاء والمساكين منزلة في الرزق والنصر بإذن الله - عز وجل -. وفيه: أن أمة محمد ﷺ أمة مرحومة يرحم قلوبهم ضعيفهم، ويعطف غنيهم على مسكينهم وفقيرهم.

٣٤. باب الوصية بالنساء

خلق الله - تعالى - لنا من أنفسنا أزواجاً لنسكن إليها وجعل المودة والرحمة دوحة نستظل بها. وإن من أفضل ما يستصعبه الرجل في حياته الزوجة اللطيفة العشرة، القويمة الخلق، ذلك أن «الدنيا متاع، وخير متاعها: المرأة الصالحة» [رواه مسلم].

قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

المعاشرة: معناها المصاحبة والمعاملة، فيعاملها الإنسان بالمعروف ويصاحبها كذلك.

والمعروف: ما عرفه الشرع وأقره، والمراد به العرف، والعبرة بما أقره الشرع، فإذا أقر الشرع شيئاً فهو المعروف، وإذا أنكر شيئاً فهو المنكر ولو عرفه الناس.

ومعنى الآية: صاحبوا زوجاتكم بما أمركم الله به من طيب القول، والمعاملة بالإحسان والتكريم والمحبة، وأداء ما لهن من حقوق، وهي الإجمال في القول والمبيت والنفقة.

وقال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩].

هذا الخطاب لمن كان عنده زوجتان فأكثر. أي: ولن تقدرُوا أيها الرجال أن تحققوا العدل التام الكامل بين النساء وتسووا بينهن في المحبة والأنس والاستمتاع حتى وإن حرصتم، لأن التسوية في المحبة وميل القلب ليست

بمقدور الإنسان، فلا تميلوا عن المرغوب عنها ميلاً كاملاً فلا تؤدوا حقوقهن الواجبة، فتجعلوها كالمعلقة التي ليست بذات زوج ولا مطلقة فتأثموا، وإن تصلحوا ما مضى من الجور وتعدلوا في قسمكم بين زوجاتكم وتتقوا الله بالتمسك بالعدل وتراقبوا الله - تعالى - وتخشوه فيهن، فإن الله يغفر ما فرط منكم من الذنوب والتقصير في الحق الواجب، ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمتموهن.

وهاتان الآيتان وغيرهما من نصوص الكتاب والسنة كلها تدل على الرفق بالمرأة وملاحظتها ومعاشرتها بالتي هي أحسن، وأن الإنسان لا يطلب منها حقه كاملاً، لأنها لا يمكن أن تأتي به على وجه الكمال فليعفُ ويصفح.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «إني لأحب أن أترين للمرأة كما أحب أن أترين لي، لأن الله - تعالى - قال: ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وعلى الزوج تحمل أذى زوجته، والصبر عليها، وعدم تصيد أخطائها، ومتابعة زلاتها، وقد كان أزواج النبي ﷺ يراجعونه في الرأي فلا يغضب منهم.

والمسلم يبني بيته على المودة والرحمة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] وعلى العفو والصفح ﴿وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

ومن أمثلة عدل السلف - رضي الله عنهم - ما روي عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - أنه كانت له امرأتان، فإذا كان يوم إحداهما لم يشرب من بيت الأخرى الماء، ثم توفيتا في السقم الذي أصابهما في الشام والناس في شغل، فدفتا في حفرة، فأسهم بينهما أيتهما تقدم في القبر.

٢٧٣- وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته، لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء» [متفق عليه].

وفي رواية في الصحيحين: «المرأة كالضلع إن أقمتها كسرتها، وإن استمتعت بها، استمتعت وفيها عوج». وفي رواية لمسلم: «إن المرأة خلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها، استمتعت بها وفيها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طاقها». قوله: «عوج» هو بفتح العين والواو.

* في الحديث توجيه لحسن المعاملة للنساء وذلك بالتسامح والصبر، وفي هذا تظهر عناية الإسلام بالمرأة ورعايتها والمحافظة عليها، ودفع الظلم عنها. واحتمالها، والصبر على عوج أخلاقها، قال ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً» أي، اقبلوا وصيتي فيهن واعملوا بها، وارفقوا بهن وأحسنوا عشرتهن، وتواصوا فيما بينكم بالإحسان إليهن. ثم بين طبيعة خلقهن حتى يكون ذلك ادعى للعمل بتلك الوصية. فقال ﷺ:

«فإن المرأة خلقت من ضلع» إشارة إلى أن حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر، فكأنهن خلقن من أصل معوج، فلا يتهيأ الانتفاع بهن إلا بمدراتهن والصبر على اعوجاجهن. «وإن أعوج ما في الضلع أعلاه» أي، أن أعوج ما في المرأة لسانها.

قال ابن حجر: «فيه إشارة إلى أنها خلقت من أشد أجزاء الضلع اعوجاجاً، مبالغة في إثبات هذه الصفة لها، أو يحتمل أن يكون قد ضرب بذلك مثلاً لأعلى المرأة، لأن أعلاها رأسها وفيه لسانها، وهو الذي يحصل منه الأذى». **«فإن ذهبت تقيمه كسرته»** أي، إن أردت منها أن تترك اعوجاجها أفضى الأمر إلى فراقها، وفي هذا حث على الرفق بهن، وأنه لا مطمع في استقامتهن. **«وإن تركته لم يزل أعوج»** لأنه وضعه وشأنه، وكذا المرأة إن أردت إقامتها على الجادة، وعدم اعوجاجها أدى إلى الشقاق والفراق، وهو كسرهما، وإن صبرت على سوء حالها وضعف معقولها ونحو ذلك من عوجها دام الأمر واستمرت العشرة.

«فاستوصوا بالنساء» ختم بما بدأ به إشعاراً بكمال طلب الوصية بهن. قال النووي: «فيه الحث على الرفق بالنساء والإحسان إليهن والصبر على عوج أخلاقهن واحتمال ضعف عقولهن وكراهة طلاقهن بلا سبب وأنه لا مطمع في استقامتهن».

وقال العسقلاني: «وفي الحديث النذب إلى المداراة لاستماله النفوس وتآلف القلوب، وفيه سياسة النساء بأخذ العفو عنهن والصبر على عوجهن، فإن من رام تقويمهن فاته الانتفاع بهن، مع أنه لا غنى للإنسان عن امرأة يسكن إليها ويستعين بها على معاشه».

والمراد من الحديث أن الإسلام لا يدعو إلى ترك المرأة وهواها دون تقويم، بل مراده الرفق في المعاملة باستعمال اللين في غير ضعف والشدة من غير عنف.

قال ابن باز: «هذا أمر للأزواج والإخوة وغيرهم أن يستوصوا بالنساء خيراً، وأن يحسنوا إليهن وألا يظلموهن، وأن يعطوهن حقوقهن ويوجهوهن إلى

الخير. لقوله ﷺ «استوصوا بالنساء خيراً» وينبغي ألا يمنع من ذلك من كونها قد تسيء في بعض الأحيان إلى زوجها وأقاربها بلسانها أو فعلها، لأنهن خلقت من ضلع كما قال النبي ﷺ. وأن أعوج شيء في الضلع أعلاه، ومعلوم أن أعلاه مما يلي منبت الضلع، فإن الضلع يكون فيه اعوجاج وهذا معروف. فالمعنى أنه لا بد أن يكون في خلقها شيء من العوج والنقص». وفي تكرار الوصية بالنساء تأكيد على ضرورتها، وذلك لضعفهن واحتياجهن إلى من يقوم بأمرهن.

٢٧٤- وعن عبد الله بن زَمْعَةَ - رضي الله عنه -، أنه سمعَ النبي ﷺ يَخْطُبُ، وَذَكَرَ النَّاقَةَ وَالَّذِي عَقَرَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا نُبِعَتْ أَشَقَّاهَا أَنْبَعَتْ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ، عَارِمٌ مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ» ثُمَّ ذَكَرَ النِّسَاءَ، فَوَعِظَ فِيهِنَّ، فَقَالَ: «يَعْمَدُ أَحَدُكُمْ فَيَجْلِدُ امْرَأَتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ فَلَعْلَهُ يُضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ» ثُمَّ وَعَظَهُمْ فِي ضَحِكِهِمْ مِنَ الضَّرْطَةِ وَقَالَ: «لَمْ يَضْحَكْ أَحَدُكُمْ مِمَّا يَفْعَلُ؟» [متفق عليه].
وَالْعَارِمُ بِالْعَيْنِ الْمَهْمَلَةِ وَالرَّاءِ: هُوَ الشَّرِيرُ الْمُفْسِدُ، وَقَوْلُهُ: أَنْبَعَتْ، أَيُّ: قَامَ بِسُرْعَةٍ.

* ذكر النبي ﷺ في أول الحديث قصة الناقة، وقوم ثمود الذين عصوا نبيهم صالح وعقروا الناقة. وهي معجزة صالح - عليه السلام -، فقال ﷺ: «إِذَا نُبِعَتْ أَشَقَّاهَا» أي، قام إليها مسرعاً رجل عزيز اسمه (عارم) أي ذو منعة. فحذروهم نبيهم صالح أن يعقروا ناقة الله (وسقياها) أي، شربها. وقال لهم: ذروها وذروا شربها من الماء. فكذبوا صالح - عليه السلام - وعقروا الناقة. فدمدم عليهم ربهم فأهلكهم، وعمهم بالعقاب فلم يفلت منهم أحد.

ثم ذكر ﷺ النساء فوعظ فيهن، فقال ﷺ: «يَعْمَدُ أَحَدُكُمْ فَيَجْلِدُ امْرَأَتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ فَلَعْلَهُ يُضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ» أي، يجلدها جلد شخص كأنه لا علاقة بينه وبينها، وكأنها عنده عبد أسير عان. والضرب المأذون به غير المبرح لا يكسر عظماً ولا يجرح ولا يشوه، ويجتنب معه ضرب الوجه والرأس.

وفي سياق الحديث استبعاد وقوع الأمرين من العاقل: أن يبالغ في ضرب امرأته ثم يجامعها من بقية يومه أو ليلته، والمجامعة أو المضاجعة إنما تستحسن مع ميل النفس والرغبة في العشرة، والمجلود غالباً يفرُّ ممن جلده، فوقعت الإشارة إلى ذم ذلك، وأنه إن كان ولا بد فليكن التأديب.

قال المهلب: «بَيَّنَّ ﷺ بقوله «**جلد العبد**» أنه ضرب الرقيق فوق ضرب الحر لتباين حالتهما، ولأن ضرب المرأة إنما أبيح من أجل عصيانها زوجها فيما يجب من حقه عليها».

وقد جاء النهي عن ضرب النساء مطلقاً لقوله ﷺ «**لا تضربوا إماء الله**» فجاء عمر فقال: ذُرن النساء على أزواجهن، فأذن لهن فضربوهن، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير، فقال: «**لقد طاف بآل رسول الله سبعون امرأة كلهن يشكين أزواجهن، ولا تجدون أولئك خياركم**» [رواه أحمد].

وقالت عائشة - رضي الله عنها - تحكي واقع النبي ﷺ وحاله: «ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، لا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله» [رواه مسلم].

بل تجاوز النبي ﷺ بحسن خلقه وطيب معشره إلى إكرام أهل الزوجة والفرح بهم، فقد كان النبي ﷺ حفيماً بأبي بكر - رضي الله عنه - والد زوجته عائشة. بل تعدى الهدي النبوي إلى الوصية بأمهات في عمق التاريخ قال ﷺ: «**إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحماً**» أو قال: «**ذمة وصهرًا**» [رواه مسلم].

ثم تحدث ﷺ عن شيء آخر وهو (الضربة) يعني إذا ضرب الإنسان وخرج الريح من دبره، فقال ﷺ واعظاً في ذلك:

«**لم يضحك أحدكم مما يفعل؟**»

وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان لا ينبغي له أن يعيب غيره فيما يقع منه، ويفعله هو بنفسه.

وفي الحديث: الوصية بالنساء وحسن عشرتهن.

٢٧٥- وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَفْرُكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ» أَوْ قَالَ: «غَيْرُهُ» [رواه مسلم].
 وقولُهُ: «يَفْرُكُ» هو بفتح الياء وإسكان الفاء معناه: يُبْغِضُ، يُقَالُ: فَرَكْتُ الْمَرْأَةَ زَوْجَهَا، وَفَرَكَهَا زَوْجَهَا، بكَسْر الرَّاءِ، يَفْرُكُهَا بَفَتْحِهَا: أَي: أَبْغَضَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

* هذا الحديث ميزان العدل والحكمة فيمن نعاشرهم وخاصة الزوجات، وعلى الزوج في معاشرة الزوجة أن يلحظ ما فيها من الأخلاق الجميلة والأمر التي تناسبه وأن يجعلها في مقابلة ما كره من أخلاقها، فلربما وجد خلقاً لا يرغب فيها، ووجد أخلاقاً طيبة أخرى يرضاها ويحبها فيها.
 «لا يفرک مؤمن مؤمنة» أي: لا يبغض ولا يعادي.

قال النووي: «وهذا الحديث النبوي نهي، ينبغي أن لا يبغضها، لأنه إن وجد فيها خلقاً يكرهه، وجد فيها خلقاً مرضياً بأن تكون شرسة الخلق لكنها دينية أو جميلة، أو عفيفة أو رفيقة به، أو نحو ذلك».

والإسلام يعلم الناس القصد في الحب والبغض، ولهذا قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «يا أسلم! لا يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفاً» قال: وكيف ذاك؟ قال: «إذا أحببت، فلا تكلف كما يكلف الصبي بالشيء يحبه، وإذا أبغضت، فلا تبغض بعضاً تحب أن يتلف صاحبك ويهلك».

«إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ» وهذا عدل وإنصاف في حقها، فلا يخلو إنسان من نقص، لكن فيه من الجوانب الأخرى الطيبة الكثير منها.
 قال الشيخ السعدي: «وفي الحديث فائدتان عظيمتان:

إحداهما: الإرشاد إلى معاملة الزوجة والقريب والصاحب، والمعامل، وكل من بينك وبينه علاقة واتصال، وأنه ينبغي أن توطن نفسك على أنه لا بد أن يكون فيه عيب أو نقص أو أمر تكرهه، فإذا وجدت ذلك فقارن

بين هذا وبين ما يجب عليك أو ينبغي لك من قوة الاتصال والإبقاء على المحبة، بتذكر ما فيه من المحاسن، والمقاصد الخاصة والعامة، وبهذا الإغضاء عن المساوئ وملاحظة المحاسن، تدوم الصحبة والاتصال وتتم الراحة وتحصل لك.

الفائدة الثانية: وهي زوال الهم والقلق، وبقاء الصفاء والمداومة على القيام بالحقوق الواجبة والمستحبة، وحصول الراحة بين الطرفين. ومن لم يسترشد بهذا الذي ذكره النبي ﷺ - بل عكس القضية فلحظ المساوئ وعمي عن المحاسن - فلا بد أن يقلق، ولا بد أن يتكدر ما بينه وبين من يتصل به من المحبة، ويتقطع كثير من الحقوق التي على كل منهما المحافظة عليها.

قال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]. أي، طيبوا أقوالكم لهن، وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم، كما تحب ذلك منها، فافعل أنت بها مثله، كما قال تعالى ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩] قال ابن عباس: ربما رزق منها ولداً، فجعل الله فيه خيراً كثيراً.

والمراد من الحديث: أن شأن المؤمن أن لا يبغض المؤمنة بغضاً كلياً يحمله على فراقها، بل ينبغي له أن يغفر سيئتها لحسناتها، ويتغاضى عما يكره بما يحب.

٢٧٦- وعن عمرو بن الأخوص الجشمي - رضي الله عنه - أنه سمع النبي ﷺ في حجة الوداع يقول بعد أن حمد الله - تعالى -، وأثنى عليه وذكر ووعظ، ثم قال: «ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هن عوان عندكم ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، ألا إن لكم على نسائكم حقاً، ولنسائكم عليكم حقاً، فحقكم عليهن أن لا يؤطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن» [رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح].

قوله ﷺ «عوان» أي: أسيرات، جمع عانية، بالعين المهملة، وهي الأسيرة، والعاني: الأسير.

شبه رسول الله ﷺ المرأة في دخولها تحت حكم الزوج بالأسير والضرب المبرح: هو الشاق الشديد، وقوله ﷺ: «فلا تبغوا عليهن سبيلاً» أي: لا تطلبوا طريقاً تحتجون به عليهن وتؤذونهن به، والله أعلم.

* خطب النبي ﷺ بالمسلمين، في أعظم جمع، وأكبر محفل إسلامي وهو حجة الوداع وأوصاهم بوصايا عظيمة، منها هذه الوصية في حق النساء، فإنهن مؤنسات الحياة، ومنجبات الأبناء، وحافظات الأسرار.

قال ﷺ وهو يخطب في ذلك الموقف العظيم:

«ألا واستوصوا بالنساء خيراً» الاستيحاء قبول الوصية، والمعنى أوصيكم بهن خيراً فاقبلوا وصيتي فيهن. والمقصود ترقيق قلب الزوج وتذكيره ونصحه. «فإنما هن عوان» أي، أسيرات عندكم. والمعنى، أن الزوجة عند زوجها بمنزلة الأسير عند من أسره. وقد شبه النبي ﷺ المرأة في دخولها تحت حكم الزوج بالأسير.

«ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك» يعني لا يملك الرجل من امرأته إلا ما جعله له حقاً عليها من وجوب طاعته ولزوم بيته بحيث لا تخرج إلا بإذنه، ومن عدم النشوز والترفع عليه، ومن حفظه في نفسها وفي ماله، كما قال تعالى ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَنِبَتْنَ حَفِظَتْهُنَّ لِغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

«إلا أن يأتين بفاحشة مبينة» أي، أحسنوا إليهن ما دمن مطيعات لكم، فإن نشزن عليكم شرع لكم تأديبهن بالهجر أولاً، ثم الضرب إذا لزم كالنشوز وسوء العشرة وعدم التعفف. وكل خصلة قبيحة فهي فاحشة من الأقوال والأفعال.

«فإن فعلم فاهجر وهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح، فإنه أظعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً» أي، إذا وقع من المرأة النشوز وظهر ظهوراً بيناً في معاملتها للزوج، فعلى الزوج أن يعظها أولاً ويذكرها بحقه عليها ويخوفها عاقبة نشوزها، فإذا لم ينفع معها النصيح ولم تنفع الموعظة، انتقل إلى الهجر في المضجع فلا ينام معها ويكفي أن يوليها ظهره. وإن لم يفد ينتقل إلى الضرب ضرباً لا يبلغ حد الإيلام.

قيل: ويضربها بمنديل ملفوف أو بيده، لا بسوط ولا عصي، وإباحة الضرب في هذه الحالة ولاية من الشرع للزوج لأخذ حقه.

ثم ذكر ﷺ حق الرجال عليهن، فقال:

«أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون» أي، لا يأذن لأحد أن يدخل منازل الزوج، والنهي يتناول الرجال والنساء. سواء كان المأذون له رجلاً أجنبياً، أو امرأة، أو أحد محارم الزوجة.

«ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في طعامهن وكسوتهن» أي، بحسب مقدرة الزوج يساراً أو إعساراً.

قال عمر بن الخطاب: «النكاح رق، فلينظر أحدكم عند من يرق كريمته».

٢٧٧- وعن معاوية بن حيدة- رضي الله عنه- قال: قلت: يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت» [حديث حسن رواه أبو داود] وقال: معنى «لا تقبح» أي: لا تقل قبحك الله.

* في هذا الحديث بيان لحال البيت المسلم وما فيه من التعاون والتكاتف والتسامح.

ذكر المؤلف- رحمه الله تعالى- فيما نقل عن معاوية بن حيدة- رضي الله عنه- أنه سأل النبي ﷺ ما حق امرأة أحدنا عليه، والصحابة- رضي الله عنهم- كانوا يسألون النبي ﷺ ليدلهم ويرشدهم إلى الصواب والطريق الصحيح.

وهنا سأله معاوية: «ما حق امرأة أحدنا عليه؟»

قال ﷺ: «أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت» أي، لا تخص نفسك بالطعام دونها أو الكسوة، بل هي شريكة لك يجب عليك أن تنفق عليها كما تنفق على نفسك.

«ولا تضرب الوجه ولا تقبح» أي، فلا تضربها إلا لسبب، وإذا وقع منك ذلك فاجتنب الوجه لأن الوجه عضو لطيف والشين فيه شنيع، ولكرامته ولأنه أشرف ما في الإنسان، فتضرب على كتفها أو ظهرها، وليكن ضرباً غير مبرح.

«ولا تقبح» أي، لا تقل كلاماً جارحاً، كأن تعيرها بدمامة الخلقة، مثل قول: أنت قبيحة، أو قبح الله وجهك.

«ولا تهجر إلا في البيت» أي، إن حصل بينكم خلاف ووجد سبب للهجر فلا تهجرها علناً، اجعل الأمر بينك وبينها ولا تظهر ما جرى لمن حولك.

ذكر النبي ﷺ بعضاً من حقوق الزوجة على زوجها، والهجر في المبيت وسيلة لتأديب المرأة إلا لموجب، فقد ثبت هجر النبي ﷺ لنسائه في مشربة خارج البيت.

قال ﷺ: «**الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة**» [رواه مسلم].

قال القرطبي: «فسرت المرأة الصالحة في الحديث بقوله: إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله».

وسئل ﷺ عن خير النساء فقال: «**التي تطيع إذا أمر، وتسرع إذا نظر، وتحفظه في نفسها وماله**» [رواه أحمد].

وأمر ﷺ بالرفق بهن والحرص عليهن ومراعاة أحوالهن، فقال: «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**».

ورغب الإسلام في الصبر على الزوجة واحتمال أذاها فقد يكون فيه خير كثير للرجل، قال تعالى ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

ومن خصال نبينا محمداً ﷺ أنه يحب لزوجته ما يحب لنفسه، وكان ﷺ يشارك زوجاته في الطعام ويصحب زوجته معه إذا دعي إلى طعام لتأكل معه، يدل على ذلك ما جاء عن أنس: أن جاراً لرسول الله ﷺ كان طيب المرق، وكانت مرقته أطيب شيء ريحاً، فصنع لرسول الله ﷺ طعاماً ثم جاءه يدعو، فقال: «**وهذه**» لعائشة، فقال: لا، فقال رسول الله ﷺ: «**لا**» ثم عاد يدعو، فقال رسول الله ﷺ: «**وهذه**» فقال: لا، ثم عاد يدعو، فقال رسول الله ﷺ: «**وهذه**» فقال: نعم في الثالثة، فقاما يتدافعان حتى أتيا منزله» [رواه مسلم].

قال النووي: فكره ﷺ الاختصاص بالطعام دونها، وهذا من جميل المعاشرة وحقوق المصاحبة، وآداب المجالس المؤكدة.

٢٧٨- وعن أبي هريرة - رضي الله عنه -، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ» [رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح].

* في هذا الحديث وصف جامع لخصال الخير، وعمادها بذل المعروف، وكف الأذى وطلاقة الوجه والنصح للمسلمين، وفي الحديث حث عظيم على حسن الخلق مع الناس، وذلك بكف الأذى وبذل الندى، والصبر عليهم وعلى أذاهم. فإن مكارم الأخلاق صفة من صفات الأنبياء والصديقين والصالحين، بها تنال الدرجات وترفع المقامات وقد خص الله - عز وجل - نبينا محمداً بأية جمعت له رفيع الأخلاق ومحاسن الآداب فقال عز وجل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

قال ﷺ:

«أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا».

إذا تفاوت الإيمان فإنما يتفاوت بحسن الخلق. قال الحسن: «حسن الخلق، بذل المعروف، وكف الأذى وطلاقة الوجه».

وقد جمعت علامات حسن الخلق في صفات عدة وهي: أن يكون الإنسان كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، برأ، وصولاً، وقوراً صبوراً، شكوراً، راضياً، حليماً، رفيقاً، عفيفاً، شفيعاً، لا لعناً ولا سباباً، ولا نماماً، ولا مغتاباً، ولا عجولاً، ولا حقوداً، ولا بخيلاً، ولا حسوداً، بشاشاً، هشاشاً، يحب في الله، ويرضى في الله، ويغضب في الله.

«وخياركم خياركم لنسائهم»

إنما كان كذلك، لأن المداراة معهن، والصبر على اعوجاج أخلاقهن، ووقايتهن عما يوجب النار، وأمرهن بلزوم الاستقامة، لا يتأتى إلا ممن منح

حظاً وافراً من حسن الخلق، ولهذا قال ﷺ: «أنا خيركم لأهله» كما أثنى الله - سبحانه وتعالى - بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القلم: ٤].

«وخياركم خياركم لنسائهم».

قال ابن عثيمين: «خير الناس هو خيرهم لأهله، فإذا كان فيك خير فاجعله عند أقرب الناس لك، وليكن أهلك هم أول المستفيدين من هذا الخير». ولما سُئِلت عائشة - رضي الله عنها - ماذا كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: «كان في مهنة أهله» أي، يساعدهم على مهمات البيت، فكان ﷺ يحلب الشاة لأهله، ويخصف نعله ويرقع ثوبه، وهكذا ينبغي للإنسان أن يكون من خير الأصحاب لهم.

وفي الحديث: الحث على معاملة الزوجة بطلاقة الوجه وكف الأذى والإحسان إليها والصبر عليها. فينبغي للإنسان أن يكون مع أهله بحسن الخلق من غيرهم، الأقرب فالأقرب.

٢٧٩- وعن إياس بن عبد الله بن أبي ذباب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ» فَجَاءَ عُمَرُ - رضي الله عنه - إلى رسول الله ﷺ، فَقَالَ: ذَرْنِ النَّسَاءَ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ، فَرَخَّصَ فِي ضَرْبِهِنَّ فَأُطَافَ بِأَلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ أَطَافَ بِأَلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ لَيْسَ أَوْلَئِكَ بِخِيَارِكُمْ» [رواه أبو داود بإسنادٍ صحيح].

* هذا الحديث من جملة أحاديث ووصايا النبي ﷺ في معاملة النساء، حيث قال:

«لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ» أي، النساء.

نهاهم ﷺ عن ضرب النساء فكفوا عن ذلك. والأصل في الضرب أنه وسيلة لتأديب المرأة الناشز وهو مباح في الجملة، ولكن بشروطه: أن يكون الضرب غير مبرح، وأن يتجنب الوجه ولا يقبح، وأن يكون بعد الوعظ والهجر، وأن يكون تأديباً لا ضراراً ولا تشفي.

فلما نهاهم، اجترأ على أزواجهن كما قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: يا رسول الله إن النساء ذئرن على أزواجهن، أي اجترأن وتعالين على الرجال، فلما سمع ﷺ ما قال عمر، أجاز ضربهن، فأفرط الرجال في ذلك وجعلوا يضربونهن حتى وإن لم يكن ذلك من حقهم، فطافت النساء بآل النبي ﷺ، أي، بيوته يشكين أزواجهن.

فقال ﷺ يخاطب الناس ويخبرهم بأن هؤلاء الذين ضربوا أزواجهن ليسوا بخيارهم، أي ليسوا بخيار الرجال.

قال الشافعي - رحمه الله تعالى -: «فجعل لهم الضرب، وجعل لهم العفو، وأخبر أن الخيار ترك الضرب».

أخرج النسائي عن عائشة - رضي الله عنها -: «ما ضرب رسول الله ﷺ امرأة قط ولا خادماً قط، ولا ضرب بيده شيئاً قط إلا في سبيل الله، أو تنتهك محارم الله فينتقم».

وقد أجمع العلماء على أن احتاج للضرب فله شروط وآداب، وهو أن لا يكون الضرب مؤذياً، ولا يترك أثراً، قال ﷺ «**فاضربوهن ضرباً غير مبرح**» قال ابن عباس: «السواك وشبهه يضربها به»

ونقل عن غيره: «يضربها بمنديل ملفوف أو بيده لا بسوط ولا عصي». وقال ابن قدامة: «وعليه أن يجتنب الوجه والمواضع المخوفة، لأن المقصود التأديب لا الإتلاف»

وحين أباح الإسلام ضرب الأزواج زوجاتهم جعل الضرب آخر العلاج، بعد الوعظ والهجر، وضبطه بضوابط كثيرة لئلا يتماذى الرجال، وتؤذى النساء، وجعل غير الضرب أفضل من الضرب في العلاج، وجعل خيار الرجال من لا يضربون نساءهم.

٢٨٠ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِهَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ» [رواه مسلم].

* جعل الله المودة والرحمة بين الزوجين، حتى تصلح البيوت وتقوم الأسر، ويقوم مجتمع مسلم متكامل.
وفي هذا الحديث قال ﷺ:

«الدنيا متاع» أي، شيء يتمتع به حيناً من الوقت ثم يزول، كما يتمتع المسافر بزاده ثم ينتهي، وخير متاعها المرأة الصالحة، فإذا وفق الله الإنسان لامرأة صالحة في دينها وعقلها فهذا خير متاع الدنيا، لأنها تحفظه في سره وماله وولده. وقد فسرها النبي ﷺ: «إذا نظر إليها سرتة، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله».

وقد أوصى النبي ﷺ بالمرأة الصالحة في الحديث بقوله: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، وحسبها، وجمالها، ودينها، فاطفر بذات الدين تربت يداك» [رواه البخاري].

وخير متاع الدنيا ما كان في طاعة الله أو أعان عليها، لأن كل متاع إلى زوال إلا ما كان في طاعة فإنه إلى بقاء ودوام عند من لا يضيع أجر من أحسن عملاً.
قال القرطبي: «المرأة الصالحة» في زوجها، ونفسها، ودينها، والمصلحة لحال زوجها، كما في الحديث الآخر: «ألا أخبركم بخير ما يكنزه المرء؟» قالوا: بلى، قال: «المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرتة، وإذا غاب عنها حفظته، وإذا أمرها أطاعته».

وقد ذكر النبي ﷺ بضعفهن بقوله: «إني أخرج حق الضعيفين اليتيم والمرأة» [رواه النسائي].

وفي الحديث قوله ﷺ: «... واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج».

وفي لفظ مسلم: «إن المرأة خلقت من ضلع، ولن تستقيم لك على طريقة فإن استمتعت بها، استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها».

قال النووي: «وفي هذا الحديث ملاطفة النساء والإحسان إليهن، والصبر على عوج أخلاقهن، واحتمال ضعف عقولهن، وكراهة طلاقهن بلا سبب، وأنه لا يطمع باستقامتها، والله أعلم»
وخلق المرأة من ضلع أعوج أعلاه ليس ذمّاً لها، بل وصف للحال الذي خلقت منه.

ومما يعين على صلاح المرأة واستقامتها تعليمها العلم الشرعي لتعرف حقوقها، ومالها وما عليها، وكذلك الدعاء لها ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتَيْنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

وقد ذكر الله - عز وجل - يحیی وزوجه في القرآن بقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: ٩٠] قال ابن عباس: «كانت عاقراً لا تلد فولدت».
وقال عطاء: «كان في لسانها طول فاصلحها الله».

قال ابن حزم: «والإحسان إلى النساء فرض، ولا يحل تتبع عثراتهن»
وفي الحديث: الوصية بالنساء خيراً، وأن المرأة الصالحة من متاع الدنيا.

٣٥- باب حق الزوج على المرأة

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذا الباب حق الزوج على المرأة. أي، ما يجب له عليها ويستحقه منها، استمراراً للعشرة والحياة الزوجية الطيبة. وهذه العلاقة الشرعية لعمارة الكون وعبادة الله، هي من آيات الله - عز وجل - قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] .

والمرأة الصالحة من نعم الله - عز وجل - على الزوج في الدنيا، كما قال ﷺ: «الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة...» [رواه مسلم].

وذكر المؤلف - رحمه الله - قول الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَتُ قَنِينَتٌ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

ذكر - تعالى - في هذه الآية: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ .

أي، قيام الولاية على الرعايا، وعلل ذلك بأمرين:

الأول: بما فضلهم الله به عليهن من كمال العقل، والدين والقوة، ولذلك خصوا بالنبوة والإمامة والولاية، وإقامة الشعائر والشهادات في مجامع القضايا، ووجوب الجهاد والجمعة وغيرها.

والثاني: بما أعطوهم من المهر والنفقة.

ثم أخبر في تمام الآية أن الصالحات منهن، مطيعات لله قائمات بحقوق الأزواج، حافظات يحفظن أزواجهن في غيابهم، في أموالهم وأعراضهم وأسرار بيوتهم. ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ ، أي، بحفظ الله وتوفيقه لهن.

وقد ذكر العلماء الحقوق التي أوجبها الإسلام على الزوج تجاه زوجته، وكذلك حق الزوجة على زوجها، ومن هذه الحقوق ما هو مشترك بين الزوجين وهي كما يأتي:

أولاً: حقوق الزوجة الخاصة بها، فإن للزوجة على زوجها حقوق مالية هي: المهر، والنفقة، والسكن. وحقوق غير مالية: كالعدل في القسم بين الزوجات، والمعاشرة بالمعروف، وعدم الإضرار بالزوجة، وخدمة الزوجة لزوجها، وأن تحفظه في نفسها وماله وأهله.

ثانياً: حقوق الزوج على زوجته، وهي من أعظم الحقوق، بل إن حقه عليها أعظم من حقها عليه، لقوله تعالى ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

ومن هذه الحقوق: وجوب الطاعة في غير معصية، وتمكين الزوج من الاستمتاع، وعدم الإذن لمن يكره الزوج دخول بيته، عدم الخروج من البيت إلا بإذن الزوج.

وقد حث الله - عز وجل - في كتابه الكريم على حسن العشرة وطيب النفس، وجميل التعامل، فقال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، وفي الحديث أنه ﷺ قال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم» [رواه أحمد].

وقد ذكر النبي ﷺ ميزان عدل بقوله: «لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها آخر» أو قال «غيره» [رواه مسلم].

وحرج ﷺ حق الضعيفين اليتيم والمرأة، وكما أوصى ﷺ الرجل بالمرأة، فقد أوصى المرأة بزوجها في قوله ﷺ: «.. فانظري أين أنت منه، فإنما هو جنتك ونارك» [رواه مسلم] وهكذا الإسلام يسعى إلى تكوين بيت وأسرة مسلمة يترعى فيها الأبناء على طاعة الله وعبادته في أسرة مستقرة، وحياة طيبة كريمة.

وأما الأحاديث فمنها حديث عمرو بن الأحوص السابق (انظر الحديث رقم ٢٧٦) في الباب قبله.

٢٨١- وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَلَمْ تَأْتِهِ فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا لَعَنَتَهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ» [متفق عليه]. وفي رواية لهما: «إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا لَعَنَتَهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ».

وفي رواية: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَتَأْتِيهِ عَلَيْهِ إِلَّا كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا».

* جعل الله الزوجة سكناً للزوج، قال تعالى: ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] والزوجة معينة لزوجها على حفظ دينه وحفظ بصره وفرجه واستقرار حياته، وذلك بالسعي في مرضاته وإعطائه حقه الشرعي، وطاعة الزوجة لزوجها من حقوق الزوج، وفي هذا الحديث طاعة خاصة وهي دعاء الرجل امرأته إلى فراشه، وفيه الحث على ذلك ووجوب طاعة الزوجة لزوجها إذا دعاها لفراشه، وإن امتنعت من ذلك كان كبيرة من كبائر الذنوب تستحق غضب الله عليها، إلا إذا كان هناك عذر شرعي كالمرض. قال النووي: «هذا دليل على تحريم امتناعها من فراشه لغير عذر شرعي، وليس الحيض بعذر في الامتناع، لأن له حقاً في الاستمتاع بها فوق الإزار».

وقد ذكر ﷺ دعوة المرأة إلى فراش زوجها كناية عن الجماع، والكناية عما يستحق من التصريح به فاشية في الكتاب والسنة. ثم قال ﷺ:

«فَلَمْ تَأْتِهِ» أي، من غير عذر بها.

«فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا» وتخصيص الليل بالذكر لأنه مظنة ذلك. وبهذا الكلام يتجه اللعن لأنها حينئذ يتحقق ثبوت معصيتها، بخلاف ما إذا لم يغضب من ذلك، فإنه يكون إما لأنه عذرهما، وإما لأنه ترك حقه من ذلك.

«لعنتها الملائكة حتى تصبح» أي، أنها تدعو عليها باللعنة، وهي الطرد والإبعاد من رحمة الله.

قال النووي: «ومعنى الحديث أن اللعنة تستمر عليها حتى تزول المعصية بطلوع الفجر، والاستغناء عنها، أو بتوبتها ورجوعها إلى الفراش». وقال ابن أبي جمرة: «وهل الملائكة التي تلعنها هم الحفظة أو غيرهم؟ يحتمل الأمرين».

أما ابن حجر فقد ذكر أنه: «يحتمل أن يكون بعض الملائكة موكلاً بذلك، ويرشد إلى التعميم قوله في رواية مسلم «الذي كان في السماء» إن كان المراد به سكانها».

وفي الرواية الثانية «إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها».

قال ابن عثيمين: «وهذا أشد من الأول، لأن الله - سبحانه وتعالى - إذا سخط، فإن سخطه أعظم من لعنة الإنسان، فنسأل الله العافية».

وامتناع الزوجة عن زوجها بما أحل الله يؤدي إلى النفور وقد يصل إلى الفراق، وربما زين الشيطان الفاحشة لأحدهما، ولهذا كان الامتناع الوارد في الحديث موجباً لسخط الله - تعالى -.

قال الطيبي: «فيه دليل على أن سخط الزوج يوجب سخط الرب، ورضاه يوجب رضاه، هذا في حق الشهوة، فكيف إذا كان في أمر الدين».

وفي الحديث: دليل على عظم حق الزوج على زوجته خاصة إذا كان قائماً بحقها، مؤدياً ما أمره الله - عز وجل -.

ومن فوائد الحديث: قول المهلب: «هذا الحديث يوجب أن منع الحقوق في الأبدان كانت أو في الأموال مما يوجب سخط الله، إلا أن يتغمدتها الله بعفوه».

وفي الحديث: دليل على قبول دعاء الملائكة من خير أو شر لأنه ﷺ خوف بذلك.

٢٨٢- وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: « لا يحلُّ لامرأة أن تصومَ وزوجها شاهدٌ إلا بإذنه، ولا تأذنُ في بيته إلا بإذنه » [متفقٌ عليه، وهذا لفظ البخاري].

* المرأة المسلمة عفيفة مطيعة لزوجها، وهي كما ذكر النبي ﷺ عندما سُئل: أي النساء خير؟ قال: « التي تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه في نفسها ولا مالها بما يكره » [رواه النسائي].

وفي هذا الحديث بيان حق من حقوق الزوج على زوجته، قال ﷺ: « لا يحل لامرأة » أي، لا يجوز للزوجة. « أن تصوم » ولو فرضاً موسعاً لأن حق الزوج ناجز، ووقت الفرض متسع. وفيه أنه لا يجوز للمرأة أن تصوم نفلاً إلا بإذن زوجها، وكذلك قضاء رمضان إذا لم يضق الوقت لضمان حقه عليها، وعدم تفويته. « وزوجها شاهد » أي، حاضر مقيم في البلد غير مسافر. « إلا بإذنه » إلا بعلمه وموافقته ورضاه لأنه قد يكون له إليها حاجة فيمنعه عن ذلك الصوم.

قال النووي: « وسبب هذا التحريم أن للزوج حق الاستمتاع بها في كل وقت، وحقه واجب على الفور، فلا يفوته بالتطوع، ولا بواجب على التراخي، وإنما لم يجز لها الصوم بغير إذنه، وإذا أراد الاستمتاع بها جاز ويفسد صومها لأنه العادة أن المسلم يهاب انتهاك الصوم بالإفساد ».

قالت عائشة - رضي الله عنها -: « كان يكون عليّ الصوم من رمضان فما استطعت أن أقضيه إلا في شعبان للشغل برسول الله ﷺ » [رواه البخاري].

« ولا تأذن في بيته إلا بإذنه » أي، ولا تسمح لأحد بدخول بيته، سواء لرجل محرم أو غيره، ولا لامرأة كذلك إلا بإذنه الصريح.

قال النووي: «في هذا الحديث إشارة إلى أنه لا يفتات على الزوج بالإذن في بيته إلا بإذنه، وهو محمول على ما لا تعلم رضا الزوج به، أما لو علمت رضا الزوج بذلك فلا حرج عليها، كمن جرت عادته بإدخال الضيفان موضعاً معداً لهم سواء كان حاضراً أم غائباً فلا يفتقر إدخالهم إلى إذن خاص لذلك، وحاصله أنه لا بد من اعتبار إذنه تفصيلاً أو إجمالاً».

وفي هذا دليل على أن الزوج يتحكم في بيته، ويأذن لمن شاء ويمنع من شاء حتى من محارمها وأقاربها إذا كان يقع منهم ضرر وإفساد.

ومن أعظم ما تتقرب به المرأة إلى ربها - تبارك وتعالى -، طاعة الزوج بالمعروف، جاء في الحديث الذي رواه ابن حبان: أن النبي ﷺ قال: «إذا وصلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت».

ولا يجوز للمرأة أن تدخل بيت زوجها أحداً إلا بإذنه. وفي الحديث: أن حق الزوج أكد على المرأة من التطوع بالخير، لأن حقه واجب، والقيام بالواجب مقدم على القيام بالتطوع.

وفيه: دلالة على عظم حق الزوج عليها، إذ هي مأمورة بتأخير قضاء الصوم الواجب، وترك التنفل بالصيام، وترك كثير من العبادات، كالحج والاعتكاف ونحوهما. قالت عائشة - رضي الله عنها -: إن كانت إحدانا لتفطر في زمان رسول الله ﷺ، فما تقدر أن تقضيه مع رسول الله ﷺ حتى يأتي شعبان. وهذا من كمال أدبها، إذ كانت مترصدة لاستمتاعه في جميع أوقاتها إن أراد ذلك، ولم تستأذنه في الصوم مخافة أن يأذن لها، وقد يكون له حاجة إليها فتفوتها عليه، وكانت توفر القضاء إلى شعبان، لأنه ﷺ كان يصوم معظم شعبان، فلا حاجة له بالنهار فيهن، وأيضاً إذا جاء شعبان يضيق قضاء رمضان، فلا يجوز التأخير.

٢٨٣- وعن ابن عمر- رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، والأمير راع، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته» [متفق عليه].

* لا يخلو كل فرد من أفراد المجتمع على اختلاف مكانتهم من المسؤولية، حتى المرأة مسئول عن نفسه وعن كل من له صلة به. وقد جمع النبي ﷺ في الحديث المسؤولين كلهم في حديث واحد، هو من جوامع الكلم، فقد ذكر أعظم مسئول في المجتمع، وأصغر مسئول فيه، وما بينهما، وبهذا قسم المسؤوليات الخاصة والعامة. والخطاب في الحديث للأمة جميعاً، قال ﷺ: «كلكم راع» الراعي: هو الحافظ المؤتمن، الملتزم صلاح ما أوتمن على حفظه، فهو مطلوب بالعدل فيه، والقيام بمصالحه ومسؤول هل قام بما يجب لرعيته أم لا.

(والرعية): هم من تحت يد الراعي وكل من شمله حفظ الراعي ونظره. ثم فصل ﷺ وبين فقال:

«وكلكم مسئول عن رعيته» أي، هل قام بما عليه من صلاحها وحفظها والقيام لمصلحتها أم لا؟ ثم فصل ﷺ في أقسام وأنواع الرعاة، فقال: «والأمير» ذو الأمر، كالإمام الأعظم ومن دونه. وفي رواية «والإمام» فخص بالذكر لأنه الأشرف الأكمل وباقي الولاية مثله. «راع» أي، قائم على من تحت ولايته برعاية مصالحهم، وجلب الخير لهم، ودفع الضرر عنهم.

«والرجل راع على أهل بيته» يطعمهم ويكسوهم، ويربيهم ويعلمهم، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

«والمرأة راعية على بيت زوجها» فتقوم بحفظه والعناية به، وحسن التدبير، والتعهد لمن تحت يده من عياله وأضيافه، ولا تتصدق بما تعلم أنه لا يرضى به.

«وولده» فتقوم بحضانهه ورعايته وخدمته.

وفي قيام الزوجة بواجبها إرضاء لربها في خدمة زوجها وإعانتته، وإدخال الأمن والطمأنينة والسرور والرضا على نفسه، وجلب ما يزيد المودة بينها وبينه، مع الحرص على تربية أبنائه وزرع الآداب والسنن الشرعية في نفوسهم منذ الصغر.

قال الخطابي: «اشتركوا يعني الأمير ومن بعده في الوصف بالراعي، ومعناه مختلف، فرعاية الإمام الأعظم رعاية الشريعة بإقامة حدودها والعدل في الحكم، ورعاية الرجل أهله سياسته لأمرهم وإيصال حقوقهم، ورعاية المرأة تدبيرها لأمر البيت والأولاد والخدم والنصيحة للزوج».

ثم قال ﷺ:

«فكلكم» حتى من لا أمر له ولا زوجة، وهو الإنسان في نفسه، فإنه:

«راع» على جوارحه، فيعمل المأمورات ويجتنب المنهيات.

«وكلكم مسئول عن رعيته» هل قام بما يجب لها عليه أم لا؟ فإنها مسؤولة عظيمة.

وقد حذر النبي ﷺ من التهاون في أمر الرعاية، أو الغش لهم، ففي الحديث عن معقل بن يسار قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة» [رواه البخاري].

وفي الحديث: أن كل إنسان راع ومسؤول عن رعيته.

وفيه: التنبيه على حقوق الرعية.

٢٨٤- وعن أبي عليٍّ طَلَّقَ بن عليٍّ - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ لِحَاجَتِهِ فَلْتَأْتِهِ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى التَّنُورِ» [رواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح].

* في الحديث ذكر لحاجات الزوج، ووجوب طاعة الزوجة له وترك شغلها لذلك، ومما تقع فيه بعض النساء الامتناع عن الزوج إذا دعاها للفرش، إما بحجة أنها متعبة أو جهلاً منها، وهي بهذا التمتع حرمت الزوج من أعظم حقوقه، وعرضت نفسها للوعيد الشديد لأن من أعظم غايات النكاح أن يعف الرجل نفسه ويقيها مهالك الشهوة.

وفي الحديث عن أبي علي طلق بن علي - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال:

«إِذَا دَعَا الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ لِحَاجَتِهِ فَلْتَأْتِهِ، وَإِنْ كَانَتْ عَلَى التَّنُورِ».

«إِذَا دَعَا الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ»: أي، إذا طلبها وناداه.

«لِحَاجَتِهِ»، التي يستحقها عليها، وهي ذات مدلول عام، والمراد الجماع.

«فَلْتَأْتِهِ» أي، فلتجب دعوته فوراً.

«وَإِنْ كَانَتْ عَلَى التَّنُورِ» التنور هو ما يخبز فيه. أي، وإن كانت في شغلها تخبز على التنور مع أنه شغل شاغل لا يتفرغ منه إلى غيره إلا بعد انقضائه.

قال ابن الملك: «هذا بشرط أن يكون الخبز للزوج، لأنه دعاها في هذه الحالة فقد رضي بإتلاف مال نفسه، وتلف المال أسهل من وقوع الزوج في الزنا».

والقصد من ذلك حث الزوجة على طاعة زوجها وتطبيب نفسه واعطاءه حقه الشرعي.

قال ابن القيم: «إن جماع الزوجين يحفظ الصحة، وتتم به اللذة، وسرور النفس، ويحصل به مقاصده التي وُضع لأجلها من حفظ النسل وقضاء الوطر، ونيل اللذة، والتمتع بالنعمة، وغض البصر، وكف النفس، والقدرة على العفة عن الحرام».

وقد أرشد الإسلام الزوجة إلى أمور تعين على استمرار الحياة الزوجية وزيادتها واستمرار المودة والمحبة بين الزوجين فمن ذلك: التطيب والتزين للزوج، قال جابر- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال له: **«إذا دخلت ليلاً فلا تدخل على أهلِكَ، حتى تستحد المغيبة، وتمشط الشعثة»** [رواه أحمد].

وكذلك على الزوج أن يتزين لزوجته حتى يسرها ويعفها، قال ابن عباس: **«إني أحب أن أتزين للمرأة، كما أحب أن تتزين لي، لأن الله يقول: ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْنَّ دَرَجَةٌ﴾** [البقرة: ٢٢٨].

ومما يزيد المحبة بين الزوجين، طيب الكلام والمناداة بأحب الأسماء ومراعاة مشاعرهما، جاء في الآية الكريمة قوله تعالى: **﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾** [البقرة: ١٨٧].

وجاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: **«ألا أخبركم بنسائككم من أهل الجنة الودود الودود العؤود على زوجها التي إذا آذت أو أوذيت جاءت حتى تأخذ بيد زوجها ثم تقول والله لا أذوق غمضاً حتى ترضى»** [صحيح الجامع].

وفي الحديث: حض المرأة على أن تعمل على إرضاء زوجها واسعاده بكل ما يحبه، لماله من الفضل عليها من حماية ورعاية ونفقة وصيانة. وفيه: وجوب طاعة الزوج في غير معصية.

٢٨٥- وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا» [رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح].

* السجود عبادة عظيمة، ولا يكون ذلك إلا لله - عز وجل -.. فلا يجوز السجود لغير الله، وقد منع النبي ﷺ من السجود له، فالمنع من السجود لغيره أولى.

وقد أورد النبي ﷺ في هذا الحديث بيان عظم حق الزوج على زوجته، وأنه لو كان أمراً أحداً من بني آدم أن يسجد لأحد تعظيماً له وأداءً لحقه: «لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا» لماله عليه من عظيم الحق الواجب القيام به. وفي هذا غاية المبالغة لوجوب إطاعة المرأة في حق زوجها، فإن السجدة لا تحل لغير الله.

وسبب هذا الحديث: ما روي عن قيس بن سعد قال: «أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم، فقلت: رسول الله أحق أن يسجد له، قال: فأتيت النبي ﷺ فقلت: إني أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم، فقلت: فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك، قال: «أَرَأَيْتَ لَوْ مَرَرْتُ بِقَبْرِي أَكُنْتُ تَسْجُدُ لِي؟» فقال: لا، قال: «فَلَا تَفْعَلُوا لَوْ كُنْتُ...» الحديث

وقد سئل الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله تعالى - عن امرأة يأمرها زوجها بالسجود له في حالة دخوله المنزل وخروجه عملاً بالحديث الذي يزعم أنه روي عن الرسول ﷺ أنه أوجب السجود على المرأة لزوجها، فهل هو محقق في ذلك أم لا، وهل هذا الحديث صحيح أم لا؟

فأجاب: «أما أمره إياك بالسجود فلا سمع له ولا طاعة في ذلك، وهو أمر بالكفر والشرك، وأما قوله أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أمر أن تسجد المرأة لزوجها فقد كذب في هذا، بل قال النبي ﷺ: «لَوْ أَمَرْتُ أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ

لأحد لامرت المرأة أن تسجد لزوجها من حق عليها، وهو كاذب فيما قاله، وفيما نسبته إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام -.

وعظم حق الزوج على زوجته آت من عظم حقها عليه ومن تلك الحقوق:
أولاً: النفقة، قال تعالى ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾
 [البقرة: ٢٣٣].

ثانياً: المعاشرة بالمعروف وعدم الإساءة لها، والصبر عليها إن خالفت هواه، لقوله تعالى ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

ثالثاً: عدم تقييحها وإهانتها، بل عليه رعاية حقها وملاطفتها ومناداتها بأحب الأسماء إليها، وقد سبق ﷺ عائشة، وكان يحادثها وتحادثه كما في حديث أم زرع.

رابعاً: الحفاظ على أسرارها وما يجري بينهما، في الحديث: **«إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته، وتفضي إليه، ثم ينشر سرها»** [رواه مسلم]

خامساً: تعليمها العلم الشرعي وإبعادها عن مواطن الريب والفساد والمحافظة على دينها، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا﴾ [التحریم: ٦].

سادساً: الغيرة عليها والحرص على حفظها فهي درة مكنونة وجوهرة مصونة، ومما يعين على ذلك التزين لها، كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما -
 «إنني لأتزين لامرأتي، كما تتزين لي»

والحديث: دليل على وجوب طاعة الزوج ورعاية مصالحه وتقديمه على شغلها. وليس معنى ذلك ظلم الزوجة وإيذاؤها والتعدي على حقوقها، فقد أوصى النبي ﷺ بالنساء خيراً، كما جاء عند الترمذي أنه ﷺ قال: **«استوصوا بالنساء خيراً فإنما هن عندكم عوان»** أي؛ أسيرات.

٢٨٦- وعن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَنْهَا رَاضٍ دَخَلَتْ الْجَنَّةَ» [رواه الترمذي وقال حديث حسن].

* في هذا الحديث بيان أهمية الحياة الزوجية واستقرارها، وفيه الحث للزوجة أن تحفظ حق زوجها وتقوم بما أوجبه الله عليها طاعة لله - عز وجل - ثم أداء لحق الزوج.

وقد جاء في الحديث قوله ﷺ:

«أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَتْ» أي، فارقت الحياة مؤمنة.

«وَزَوْجُهَا عَنْهَا رَاضٍ» أي، مؤدية حقه، مهتمة بشأنه، قائمة بأمره.

«دَخَلَتْ الْجَنَّةَ» برحمة الله وفضله. يحتمل أن يكون دخلت الجنة مع الأولين الفائزين. أي، من غير أن تعذب، ويحتمل أن يكون ذلك أنها دخلت الجنة في المال.

ومفهوم الحديث: إن ماتت وهو عنها غير راض لا تدخل الجنة، أي؛ مع الفائزين.

وفي الآية: ﴿فَالصَّالِحَتُ قُنِينَ حَفِظْتُ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤]. قال القرطبي: «هذا كله خبر، ومقصوده الأمر بطاعة الزوج والقيام بحقه في ماله وفي نفسها وفي حال غيبة الزوج».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وليس على المرأة بعد حق الله أوجب من حق الزوج».

وفي الحديث قوله ﷺ: «اِثْنَانِ لَا تَجَاوِزُ صَلَاتَهُمَا رُؤُسَهُمَا: عَبْدٌ أَبَقَ مِنْ

مَوَالِيهِ حَتَّى يَرْجِعَ، وَامْرَأَةٌ عَصَتْ زَوْجَهَا حَتَّى تَرْجِعَ» [صحيح الجامع].

والمرأة الصالحة خير متاع الدنيا، كما أخرج ذلك مسلم في صحيحه، قال

ﷺ: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ».

وأخرج الحاكم في المستدرك وصححه عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه، فليتق الله في الشطر الثاني». وحلية المرأة الصالحة: أن تكون صالحة عابدة مستقيمة الطبع والسلوك، مطيعة لزوجها في غير معصية، فإن ذلك من أسباب دوام المودة واستقرار الحياة واستمرارها.

ومنها: أن تتزين وتتجمل لزوجها لقول ﷺ: «إذا نظر إليها سرتة»

ومنها: أن ترعى بيتها وتحفظ نفسها وماله.

ومنها: أن تعين زوجها على أمر الآخرة، لقوله ﷺ: «ليتخذ أحدكم قلباً

شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على أمر آخرته»

ومنها: أن تكون حسنة التبعل حريصة على مرضاة زوجها، تسعى فيما يرغب ويحب، ومنها أن تصبر على ما ينالها من مشقة الحياة وصعوبتها، وأن تحتسب ذلك عند الله - عز وجل -.

وفي الحديث: الحث على سعي المرأة فيما يرضي زوجها، وتجنب ما يسخطه لتفوز بالجنة.

وفيه: عظم حق الزوج على زوجته.

٢٨٧- وعن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: « لا تُؤْذِي امْرَأَةً زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ لَا تُؤْذِيهِ قَاتِلُكَ اللَّهُ، فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ دَخِيلٌ يُؤْشِكُ أَنْ يُفَارِقَكَ إِلَيْنَا » [رواه الترمذي وقال حديث حسن].

* حرص الإسلام على تقوية وشائج العلاقات الأسرية، وأحاطها بالعناية والرعاية، وحث على أداء الحقوق لكل طرف.

وقد أعد الله للمؤمنين في الجنة من النعيم، أزواجاً مطهرة ينتظرون المؤمنين بشوق ولهفة، حتى إنهن لا يتحملن بأن يؤذى المؤمن ولو من قبل زوجته في الدنيا.

جاء في الحديث عن النبي ﷺ:

« لا تُؤْذِي امْرَأَةً زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا » أي، لا يقع منها معه ما من شأنه أن يتأذى به من غيرها يجوز لذلك شرعاً.

«إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ» أي، إلا قالت زوجته من الحور، وهن نساء أهل الجنة. «من الحور العين» وهي شديدة البياض العينين الشديدين سوادها، واسعات العيون في جمال وحسن.

« لا تُؤْذِيهِ قَاتِلُكَ اللَّهُ » نهى مخاطبة، وهي جملة دعائية والمقصود أنها لما فعلت ذلك وتعرضت لعقوبة الله صارت كالمقاتلة لله - تعالى - فعبر بذلك.

«فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ فِي الدُّنْيَا» أي، إنما الزوج عندك في الدنيا، ثم هو إلينا قادم.

«دَخِيلٌ» الدخيل، الضيف والنزيل، وعبرت بذلك لأن مدة المقام بالدنيا

وإن طالت فهي يسيرة بالنظر إلى الآخرة التي لا أمد ولا حد لها.

قال الألباني: «**دخيل**» أي، ضيف ونزيل يعني هو كالضيف عليك، وأنت لست بأهل له حقيقة، وإنما نحن أهله فيفارقك قريباً، ويلحق بنا وفي الحديث - كما ترى - إنذار للزوجات المؤديات».

«**يوشك أن يفارقك إلينا**» أي، واصلاً إلينا فأحسني إليه.

قال ابن علان: «أي لا يقع منها معه ما من شأنه أن يتأذى به من غير مجوز لذلك شرعاً، وإلا فطلب نحو النفقة ممن يتأذى بها لنحو بخله لا يدخل الزوجة في ذلك».

وفي الحديث: التحذير من إيذاء المرأة زوجها بغير حق، وتكدير خاطره وجلب الهم والغم إليه. والواجب على الزوجين إحسان العشرة بينهما وترفق كل واحد منهما بصاحبه.

قال القاري - رحمه الله -: «وفي هذا الحديث دلالة على أن المأ الأعلى يطلعون على أعمال الدنيا».

والرجل العاقل يحتسب ما يناله من زوجته خاصة إذا كانت أم أولاده، فإن المرأة كما قال ﷺ «**خلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء**» [متفق عليه]

وقال ﷺ «**لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها آخر**» «أو غيره» [رواه مسلم] وهذا ميزان عدل. أي، ليس المؤمن أن يبغض زوجته المؤمنة، لأنه إن وجد منها خلقاً يكرهه، كسوء خلق، رضي منها خلقاً يحبه كالعفاف والمعاونة.

وفي الآية الكريمة سلوى لكل من أصابه من زوجته أمر ﴿وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا

٢٨٨- وعن أسامة بن زيد- رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «ما تركتُ بعدي فتنةً هي أضرُّ على الرجال: من النساء» [متفق عليه].
وفي الآية ﴿رُئِنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَمِ وَالْحَرْثِ﴾ ذَلِكْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿آل عمران: ١٤﴾.

* بدأ - عز وجل - بذكر النساء، فجعلهن من عين الشهوات، وبدأ بهن قبل بقية الأنواع إشارة إلى أنهن الأصل في ذلك.
وقال القرطبي: «قوله تعالى ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ بدأ بهن لكثرة تشوف النفوس إليهن، لأنهن حباثل الشيطان، وفتنة الرجال»
وفيه دليل على أن الافتتان بالنساء أشد من سائر الشهوات، لعدم الاستغناء عنهن، وقد يحمل حبهن على تعاطي ما لا يحل للرجل، وترك ما ينفعه في أمور دينه ودنياه.

والواجب على المرأة القرار في بيتها وعدم التعرض للرجال، قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣] وإن خرجت لضرورة فتخرج مستورة متحجبة بعيدة عن مطاعم الرجال.

قال ابن مسعود: «ما تقربت امرأة إلى الله بأعظم من قعودها في بيتها»
وقد جاء في الحديث المتفق عليه أنه ﷺ قال: «**وانقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**».

قال الراغب: «أصل الفتنة إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، واستعمل في إدخال الإنسان النار».

ويستفاد من الحديث: سد كل طريق يوجب الفتنة بالمرأة، سواء من التزامها بالحجاب، وعدم مخالطة ومزاحمة الرجال وغيرها، صيانة لها وللرجال.

قال النووي: «ومعناه تجنبوا الافتتان بها وبالنساء، وتدخل النساء الزوجات، لدوام فتنتهن، وابتلاء أكثر الناس بهن».

قال الطيبي: «وذلك لأن المرأة إذا لم يمنعها الصلاح الذي ليس من جبلتها، كانت عين المفسدة، فلا تأمر زوجها إلا بشر، ولا تحثه إلا على فساد، وأقل ذلك أن ترغبه في الدنيا كي يتهالك فيها، ولهذا قدمها في آية ذكر الشهوات على سائر أنواعها، وجعلها نفس الشهوات، حيث بين الشهوات بقوله: ﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ ثم عقبها بغيرها، دلالة على أنها أصلها ورأسها»

ولهذا جاءت الشريعة بسد الذرائع المؤدية إلى الفتنة، فنهيت المرأة عن التبرج، ونهيت عن الخلوة بالرجل الأجنبي، وعن سفر المرأة بلا محرم، وقد نهى الشارع الحكيم عن القرب من الفاحشة ومقدماتها، فقال تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَى﴾ [الإسراء: ٣٢]

وقد جاء في الحديث الذي رواه الإمام مسلم أنه ﷺ قال: «خير صفوف الرجال أولها، وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها» وكل ذلك من أجل بعد المرأة عن الرجال حتى في أماكن العبادة.

وقد كان النبي ﷺ يأمر النساء أن يخرجن إلى صلاة العيد ولكنهن لا يختلطن مع الرجال بل يكن خلف الرجال، قال ﷺ: «خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها. وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها» [رواه مسلم].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] ﴿عَدُوًّا﴾ وهذه العداوة كما قال ابن القيم ليست ناشئة من البغض والكراهية، إنما هي عداوة منشؤها المحبة والشفقة. وفي الحديث: الحذر من فتنة النساء وكيدهن.

٣٦. باب النفقة على العيال

أوجب الله - عز وجل - على الرجل النفقة على عياله من أهله وولده وخدمه ومن يعولهم. والمراد بالنفقة: سائر المؤن من كسوة ونفقة وسكن من وجده. قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. أي، وعلى الأب ويشمل الأب الأدنى والأب الأعلى، كالجد ومن فوقه عليه نفقة الوالدات المطلقات وكسوتهن بما هو متعارف عليه، بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن دون إسراف ولا تقتير لتقوم بخدمته حق القيام.

وقال تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧]. هذه الآية نزلت في الإنفاق على الرضیعة، وهي عامة في جميع النفقات الزوجية. وهذا بيان لقدر الإنفاق، فيه الأمر لأهل السعة بأن يوسعوا على المروضعات من نسائهم على قدر سعتهن. ومن كان مضيقاً عليه في الرزق فقيراً فلينفق مما أعطاه الله من الرزق، على مقدار طاقته ليس عليه غير ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ خَلْفُهُ﴾ [سبا: ٣٩]. أي، وما أنفقتُم من نفقة واجبة أو مستحبة قليلاً أو كثيراً، فإن الله - تعالى - يعوض عليكم إما عاجلاً أو آجلاً، إما في الدنيا وإما في الآخرة بالجزاء والثواب، فلا تتوهموا أن الإنفاق مما ينقص الرزق، بل وعد بالخلف للمنفق، الذي ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر.

وقد اتفق العلماء على أن الوالد تجب عليه نفقة أولاده الصغار الذين لا مال لهم حتى يبلغوا الحلم. واتفقوا على أن الوالد يلزمه نفقة ابنائه العجزة من الذكور والإناث حتى يستغنوا كباراً كانوا أو صغاراً، وذهب أكثر العلماء إلى أنه يلزم الوالد أن ينفق على ابنته حتى تتزوج، وهو الأقرب والله أعلم لعجزها عن التكسب.

وعلى الأب أن يتقي الله - سبحانه - في أولاده وأهل بيته، وأن يتذكر قول رسول الله ﷺ: «**كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت**» [رواه أبو داود].

وعند البخاري عن أبي مسعود البدري - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «**إذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة**»

قال ابن بطال: «ينفق على نفسه وأهله ومن تلزمه النفقة عليه غير مقتر عما يجب لهم ولا مسرف في ذلك كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] وهذه النفقة أفضل من الصدقة ومن جميع النفقات».

قال سفيان: «عليك بعمل الأبطال؛ الكسب من الحلال والإنفاق على العيال».

٢٨٩- وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مَسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ، أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ» [رواه مسلم].

✽ أبواب الإنفاق في سبيل الله كثيرة منها: الإنفاق في سبيل الله لتجهيز الغزاة، وتحرير الأرقاء لينالوا حريتهم، والسعي على المحتاجين.
والنفقة على الأهل من أعظم القربات وأفضل النفقات، وهي نفقة واجبة، والتقرب إلى الله بالفرائض أحب إليه من غيره، وكذلك فيها صلة، وإيجاد المحبة والألفة، وتأليف القلوب وجمع الكلمة.
وفي هذا الحديث قال ﷺ:

«دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» أي، في الجهاد وفي طاعة الله. وهذا من أعظم النفقات، كما قال تعالى: ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٤١].

«ودينار أنفقته في رقبة» أي، فعتقت به مملوكًا وخلصته من الرق. ﴿ فَلَا أَقْتَحِمَ الْعَقَبَةَ ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿ فَكُ رَقَبَةً ﴾ [البلد: ١١-١٣].
«ودينار تصدقت به على مسكين» أي، دفعته إلى محتاج.
«ودينار أنفقته على أهلك» أي، على من تعولهم وتلزمك نفقتهم.
«أعظمها أجرًا» أي، أكثرها أجرًا وأعظمها.

«الذي أنفقته على أهلك» أي، على أهل بيتك ومن تعولهم، لأن من تلزمه مؤنتهم يكون عليه واجبًا، وهو أفضل من المندوب بأضعاف مضاعفة، قيل: لأنه صدقة وصلة.

قال النووي: «مع أنه ذكر قبله النفقة في سبيل الله وفي العتق والصدقة ورجح النفقة على العيال على هذا كله لما ذكرناه وزاده تأكيدًا».

وقال - رحمه الله -: «في هذا الحديث فوائد منها: الابتداء في النفقة بالمذكور على هذا الترتيب:

ومنها: أن الحقوق والفضائل إذا تزاхمت، قُدم الأوكد فالأوكد. ومنها: أن الأفضل في صدقة التطوع أن ينوعها في جهات الخير ووجوه البر بحسب المصلحة، ولا ينحصر في جهة بعينها».

قال المناوي في فيض القدير: «ومقصود الحديث الحث على النفقة على العيال وأنها أعظم أجراً من جميع النفقات كما صرحت به رواية مسلم: **«أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك»**.

قال أبو قلابة: «بدأ بالعيال، وأي رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عياله يعفهم وينفعهم الله به».

قال في المنتقى شرح الموطأ، وقوله: **«وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله...»** الحديث يقتضي أن النفقة إذا أريد بها وجه الله والتعفف والتستر وأداء الحق، والإحسان إلى الأهل وعونهم بذلك على الخير، من أعمال البر التي يؤجر بها المنفق وإن كان ما يطعمه امرأته، وإن كان غالب الحال أن إنفاق الإنسان على أهله لا يهمله ولا يضيعه ولا يسعى إلا له مع كون الكثير منه واجباً عليه، وما ينفقه الإنسان على نفسه أيضاً يؤجر فيه إذا قصد بذلك التقوي على الطاعة والعبادة».

وفي الحديث: الحث على النفقة على العيال، وبيان عظم الثواب فيها. وفيه: أن النفقات تختلف أجورها ومراتبها.

٢٩٠ - وعن أبي عبد الله وَيُقَالُ لَهُ: أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ ثَوْبَانَ بْنِ بُجْدَدٍ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفَقُهُ الرَّجُلُ دِينَارٍ يُنْفَقُهُ عَلَى عِيَالِهِ، وَدِينَارٍ يُنْفَقُهُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٍ يُنْفَقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» [رواه مسلم].

* هذا الحديث يبين فضل النفقة على الأهل، وأنه أفضل من الإنفاق في سبيل الله، وأفضل من الإنفاق في الرقاب، وأفضل من الإنفاق على المسكين، وذلك لأن النفقة على الأهل ممن أوجب الله على المرء النفقة عليهم، فهي فرض عين، والإنفاق على من سواهم فرض كفاية، وفرض العين أفضل من فرض الكفاية.

وقد رتب وَاللَّهُ ﷻ النفقات وبين أهميتها وفضلها، فأعظمها النفقة على العيال، ثم النفقة على تجهيز المرء نفسه وإعداد السلاح للجهاد في سبيل الله، ثم النفقة على الإخوة لعونهم للخروج مقاتلين مجاهدين في سبيل الله. وقدم في هذا الحديث النفقة على العيال في الذكر، اهتماماً بذلك لأنه أشرف الأنواع، ومشاركة الثلاثة في الأفضلية لا تمنع أن يكون بعضها أفضل من بعض. قال وَاللَّهُ ﷻ:

«أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفَقُهُ الرَّجُلُ» أي، في سبيل الخير.

«دِينَارٍ يُنْفَقُهُ عَلَى عِيَالِهِ» أي، الذين يعولهم، ويدخل في ذلك الزوجة والأولاد ذكوراً وإناثاً، وكذلك الخادم.

قال الطبري: «البداة بالإنفاق بالعيال، يتناول النفس، لأن نفس المرء من جملة عياله بل هي حقاً عليه من بقية عياله، إذ ليس لأحد إحياء غيره بإتلاف نفسه، ثم الإنفاق على عياله كذلك». وقدم هذا في الذكر اهتماماً به لأنه أشرف الأنواع وأعلاها منزلة.

«ودينار ينفقه على دابته في سبيل الله» التي يركبها أو يحمل عليها في الجهاد في سبيل الله.

«ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله» وغيره مما يكون في طاعة كالسفر للحج والعمرة وسائر الطاعات.

وقيل «في سبيل الله» أن يتبغى بذلك وجه الله - عز وجل - .
والإنفاق على هؤلاء الثلاثة على الترتيب أفضل من الإنفاق على غيرهم .
قال الطبري: «الإنفاق على الأهل واجب، والذي يعطيه يؤجر على ذلك بحسب قصده، ولا منافاة بين كونها واجبة، وبين تسميتها صدقة، بل هي أفضل من صدقة التطوع»

وقال القرطبي: «هذا إذا ما استوى الحال في الأهل والأجنبي، فلو كان أحدهما أحوج أو أوكد، لكان المنفق في الأوكد أعظم أجراً، فإذا استوت المراتب فترتيب الأعظم كما وقع في الحديث».

قال ابن بطال: «ينفق على نفسه وأهله ومن تلزمه النفقة عليه، غير مقتر عما يجب لهم ولا مسرف في ذلك، كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] وهذه النفقة أفضل من الصدقة ومن جميع النفقات»

وفي الحديث: بيان لأفضل النفقات .
وفيه: عظم حق الأهل وأن نفقتهم مقدمة على غيرهم .

٢٩١ - وعن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت: قلت يا رسول الله، هل لي أجرٌ في بني أبي سلمة أن أنفقَ عليهم، ولستُ بتاركتهم هكذا وهكذا، إنما هم بني؟ فقال: «نعم لك أجرٌ ما أنفقتَ عليهم» [متفقٌ عليه].

* راوية هذا الحديث هي أم المؤمنين أم سلمة، وأسمها هند بنت أمية المخزومية، تزوجت من أبي سلمة المخزومي - وهو أخ للنبي ﷺ من الرضاع أرضعتها ثوية - وأسلما مبكراً وهاجرت معه إلى الحبشة. وظلت معه إلى أن توفي.

وعندما توفي أبو سلمة استرجعت، وقالت: «إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبي واخلف لي خيراً منها».

فأبدلها الله - عز وجل - بزواجها من رسول الله ﷺ.

وتزوجها النبي ﷺ رحمة بها ورأفة بحالها وبأطفالها، مع أنها تجاوزت الخامسة والخمسين من عمرها. وكانت امرأة عاقلة صالحة عابدة، شاورها النبي ﷺ في صلح الحديبية فأشارت عليه بالرأي السديد بأن لا يكلم أحداً حتى ينحر ويحلق.

كانت آخر زوجات النبي ﷺ وفاة ودفنت بالبقيع.

ومناسبة الحديث، أن لأم سلمة - رضي الله عنها أربعة من الأولاد، هم: سلمة، وعمر، ودرة، وزينب - رضي الله عنهم - وهم ربائب رسول الله ﷺ. ولهذا سألت النبي ﷺ عن نفقتها على أولادها.

رحمة الأم وشفتها دائمة متصلة، فأم سلمة - رضي الله عنها - تسأل عن أجر انفاقها على بنها، فإنها لن تتركهم يتفرون يميناً وشمالاً طلباً للرزق.

ولست بتاركتهم بلا طعام، ولا شراب، ولا كسوة، يترددون ها هنا وها هنا، ويتكففون.

فأعلمها النبي ﷺ فضل الإنفاق على الأيتام في الحجر، وفيه حصول الأم على الأجر والثواب بالإنفاق على بنيتها، وإن كانت تنفق عليهم بدافع الشفقة والرحمة.

وفي قوله ﷺ:

«نعم لك أجر» أي، تثابن عليه وتؤجرين.

«ما أنفقت عليهم» قليلاً كان أو كثيراً.

قال النووي: «فيه الحث على الصدقة على الأقارب، وصلة الأرحام وأن فيها أجرين»

في الحديث: أنه ﷺ قال: «والصدقة على المسكين صدقة وهي على ذي

الرحم اثنتان: صدقة وصل» [رواه أحمد].

وفيه: سؤال أهل العلم لما خفي على الإنسان.

وفيه: دليل على ثبوت الأجر على نفقة العيال وغيرهم، ولو كان ذلك لازماً بالطبع.

٢٩٢ - وعن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - في حديثه الطويل الذي قدَّمناه في أول الكتاب في باب النِّية أنَّ رسول الله ﷺ قال له: «وَأَنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجَهَ اللَّهِ إِلَّا أَجَرْتَ بِهَا حَتَّى مَا تَجْعَلَ فِي فِي امْرَأَتِكَ» [متفقٌ عليه].

* أمر النفقة على الأهل عظيم فهو يسد حاجتهم، ويصرفهم عن التطلع إلى ما في أيدي الناس، وفيه الأجر لمن كد وكدح وأنفق عليهم. وفي هذا الحديث الترغيب والنفقة، وترتيب النفقة في الفضل على الوجه الذي ذكر، وبيان أولوية النفقة على العيال في الفضل وغيرها. قال ﷺ:

«وَأَنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجَهَ اللَّهِ» أي، في ذات الله ومرضاته وما عنده من الثواب. وفيه تعميم للنفقة باعتبار قلتها وكثرتها، وجلالها وحقارتها، وباعتبار مصرفها. وفيه تمييز العادات من العبادات. «إِلَّا أَجَرْتَ بِهَا» أي، آجرك الله بسببها.

«حَتَّى مَا تَجْعَلَ فِي فِي امْرَأَتِكَ» أي، في فمها، وذكر ذلك لأنه ربما يتوهم أنها لكونها محل قضاء الوطر أنه لا ثواب فيما يسدى إليها من الجميل، فأفاد أن كل شيء قصد به وجه الله - تعالى - أثيب عليه فاعله. وأخذ منه أن المباحات إذا اقترن بها النية تنتقل إلى درجة الطاعات ويثاب عليها، فللوسائل حكم المقاصد.

قال في المنتقى شرح الموطأ وقوله: «وَأَنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجَهَ اللَّهِ» الحديث يقتضي أن النفقة إذا أريد بها وجه الله والتعفف والتستر وأداء الحقوق والإحسان إلى الأهل وعونهم بذلك على الخير من أعمال البر التي يؤجر بها المنفق وإن كان ما يطعمه امرأته وإن كان غالب الحال أن إنفاق الإنسان على أهله لا يهمله ولا يضيعه ولا يسعى إلا له مع كون الكثير منه واجباً عليه، وما ينفقه الإنسان على نفسه أيضاً يؤجر فيه إذا قصد بذلك التقوي على الطاعة العبادية.

قال في فتح الباري: «قلت وجاء ما هو أوضح في هذا المراد من وضع اللقمة وهو ما أخرجه مسلم عن أبي ذر فذكر حديثاً فيه، «وفي بُضْع أحدكم صدقة» قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويؤجر، قال: «نعم، أرأيتم لو وضعها في حرام...» الحديث، وإذا كان هذا بهذا المحل مع ما فيه من حظ النفس فما الظن بغيره مما لا حظ للنفس فيه، قال، وتمثيله باللقمة مبالغة في تحقيق هذه القاعدة لأنه إذا ثبت الأجر في لقمة واحدة لزوجة غير مضطرة فما الظن بمن أطعم لقماً لمحتاج أو عمل من الطاعات ما مشقته فوق مشقة ثمن اللقمة الذي هو من الحقارة بالمحل الأدنى. وتمام هذه أن يقال: وإذا كان هذا في حق الزوجة مع مشاركة الزوج لها في النفع بما يطعمها لأن ذلك يؤثر في حسن بدنها وهو ينتفع منها بذلك، وأيضاً فالأغلب أن الانفاق على الزوجة يقع بداعية النفس بخلاف غيرها فإنه يحتاج إلى مجاهدة والله أعلم»

قال النووي: «في هذا دليل أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات، فالجماع يكون عبادة إذا نوى به حق الزوجة، ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله به، أو طلب ولد صالح، أو إعفاف نفسه، أو إعفاف الزوجة، أو غير ذلك من المقاصد الصالحة»

في هذا الحديث: أن كل شيء قصد به وجه الله يثاب عليه فاعله، ولو كان من الملاعبة.

٢٩٣ - وعن أبي مسعود البدرى - رضي الله عنه -، عن النبي ﷺ قال: «إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً يَحْتَسِبُهَا فَهِيَ لَهُ صَدَقَةٌ» [متفق عليه].

* تنظيم الحياة والمسؤولية المالية في المنزل، له دور في استقرار الأسرة وسعادتها وانتظام شئونها، وقيام مصالحها.

وفي باب النفقة على العيال ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - هذا الحديث الذي يختص بالنفقة على الأهل واحتساب الأجر فيه، روى أبو مسعود البدرى - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ فقال:

«إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ» أي، المسلم.

«عَلَى أَهْلِهِ» وهم الذين تلزمه مؤونتهم وغيرهم.

«يَحْتَسِبُهَا» يقصد بها وجه الله، ويرجو ثوابه والتقرب إليه.

قال النووي: «فلا يدخل فيه من أنفقها ذاهلاً» أي، غفل عن النية، ولم ينو الاحتساب».

«فَهِيَ لَهُ صَدَقَةٌ» أي، عظمة الثواب لما فيها من أداء الواجب، وصلة الرحم الوارد فيه من الثواب ما لا يحصيه إلا المتفضل به.

قال القرطبي: «أفاد منطوقة أن الأجر في الإنفاق إنما يحصل بقصد القرية، سواء كانت واجبة أو مباحة، وأفاد مفهومه أن من لم يقصد القرية لم يؤجر، لكن تبرأ ذمته من النفقة الواجبة».

قال الطبري ما ملخصه: «الإنفاق على الأهل واجب، والذي يعطيه يؤجر على ذلك بحسب قصده، ولا منافاة بين كونها واجبة وبين تسميتها صدقة، بل هي أفضل من صدقة التطوع».

وقال المهلب: «النفقة على الأهل واجبة بالإجماع، وإنما سماها الشارع صدقة خشية أن يظنوا أن قيامهم بالواجب لا أجر لهم فيه، وقد عرفوا ما في الصدقة من الأجر، فعرفهم أنها لهم صدقة، حتى لا يخرجوها إلى غير الأهل

إلا بعد أن يكفوهم، ترغيباً لهم في تقديم الصدقة الواجبة قبل صدقة التطوع». قال ابن الحاج المالكي: «وينبغي له أن لا يخلي نفسه من أن يلقم زوجته اللقمة واللقمتين، لقوله ﷺ «**حتى اللقمة يضعها في فم امرأته**» فقد حصل له الثواب مع أن اللقمة في فم امرأته له فيها استمتاع، وينبغي له أن يحتسب في ذلك كله، أعنى: احضار الطعام والإطعام»

وفي الحديث: «**كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت**» [رواه أبو داود]. ويستفاد من الحديث: أن الأجر لا يحصل بالعمل إلا مقروناً بالنية. وفي الحديث: أن الإنفاق على الزوجه والأولاد واجب، وفيه حصول الأجر والمثوبة.

وفيه: أن النفقة على الأهل وإن كانت واجبة فهي له صدقة إذا احتسبها. وفي الحديث: الحث على الإخلاص، وإحضار النية في جميع الأعمال الظاهرة والخفية، وفيه دليل على أن النفقة على العيال وإن كانت من أفضل الطاعات إنما تكون طاعة إذا نوى بها وجه الله، وكذلك نفقته على نفسه، وضيفه، ودابته، وغير ذلك، فكلها إذا نوى بها الطاعة كانت طاعة، وإلا فلا».

٢٩٤ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ قال: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت» [حديث صحيح رواه أبو داود وغيره].

ورواه مسلم في صحيحه بمعناه قال: «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته».

* المال عصب الحياة، واستقرار الأسر والبيوت، بالقيام بأمر الأمور المالية التي تنظم شؤونه وتغنيه عن السؤال، فالأب مطالب بالكسب والعمل حتى ينفق على نفسه ومن يعول، ومن ثم يكون له نفقات في أبواب الخير الأخرى، قال تعالى: ﴿وَمَا تَقْدِمُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبا: ٣٩]

وفي هذا الحديث التهديد والوعيد على من ضيع من يملك قوته، وهو شامل للإنسان وغير الإنسان من أرقاء ومواشي وغيرها.
قال ﷺ:

«كفى بالمرء إثماً» أي، لو لم يكن له من الإثم إلا هذا لكان كافياً لعظمه، يكفيه إثم تضييع عياله.

قال ابن رسلان: «أي لو لم يكن له من الإثم إلا هذا لكفاه لعظمه عند الله - تعالى».

«أن يضيع» أي، يهمل ويترك ويضيع.

«من يقوت» أي، من يلزمه قوته، والقوت ما يقوت البدن ويكف عن الحاجة من هو مكلف بالنفقة عليه.

والمراد: أن يمنع من تلزمه نفقته من زوجة وولد ووالد، ويعطي غيرهم ولو صدقة.

وفيه: عظم إثم من منع نفقة زوجته أو ولده، أو غيرهم ممن تلزمه نفقتهم وكذلك دوابه.

والمرء ينفق مما أعطاه الله، قال تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧].

وفي الحديث: وجوب الإنفاق على الأهل والأولاد والمماليك، لأن الشرع رتب الإثم على تضييع نفقتهم.

وفيه: تحريم إهمال شأن العيال، ومنع النفقة عليهم. وعلى المرء أن يعطيهم مما كتب له من الرزق الطيب الحلال.

وفيه: بيان أن النفقة على من تعول من أفضل النفقات.

وفيه: الحث على العمل والتكسب حتى ينفق المرء على نفسه وعلى من يعول ممن تلزمه نفقتهم. والإنفاق المحمود هو فيما كان يرضي الله، كما قال تعالى ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ٢١٥].

٢٩٥ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، يَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلْفًا» [متفق عليه].

* المال الذي اعطاه الله بني آدم هو من نعمه العظيمة، وهو فتنة كما قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَاوُكُمُ وَأَوْلَدُكُمُ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨] والناس على نوعين أو ثلاثة أنواع في إنفاقه، منهم من ينفقه في شهواته المحرمة، وفي لذائذه التي لا تزيده من الله إلا بعداً، فهذا ماله وبال عليه وحسرة وندامة، ومن الناس من ينفقه ابتغاء وجه الله فيما يقربه إلى الله زلفى طاعة ورضى، فهذا ماله خير له في الدنيا والآخرة. ومن الناس من ينفقه ويبدله في غير فائدة، ليس في شيء محرم، ولا في شيء مشروع فهذا ماله ضائع عليه. والله يعوض من أنفق ماله في ما يرضي الله - عز وجل - فقد حث الإسلام على النفقة ورغب فيها، ووعد بالخلف والأجر لمن قام بذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا: ٣٩].

وفي الحديث قوله ﷺ:

«ما من يوم» أي، ليس من اليوم.

«يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما» أي، لمن أنفق ماله

في الخيرات.

«اللهم أعط منفقاً خلفاً» دعاء بالخلف. أي، أخلفه خيراً فيما أنفق، وبارك له.

أبهم الخلف في هذا الحديث، ليتناول المال والثواب وغيرهما، والتلف

يتناول ذلك المال بعينه، أو تلف نفس صاحب المال.

قال الحافظ: «وإيهامه أولى، فكم من منفق مات قبل وقوع الخلف

المالي له، فيكون خلفه الثواب المعد له في الآخرة، أو يدفع عنه من السوء

ما يقابل ذلك».

قال العلماء: «هذا في الإنفاق في الطاعات ومكارم الإخلاق وعلى العيال والضيغان والصدقات ونحو ذلك، بحيث لا يذم ولا يسمى سرفاً، والإمساك المذموم هو الإمساك عن هذا».

«يقول الآخر» أي، الملك الآخر.

«اللهم أعط ممسكاً» أي، عن غيره.

«تلفاً» أي، التعبير هذه للمشكلة لأن التلف ليس بعطية. يحتمل تلف ذلك المال بعينه أو تلف نفس صاحب المال، والمراد به فوات أعمال البر بالتشاغل بغيرها. والتلف نوعان: تلف حسي، وتلف معنوي: أما الحسي فهو أن يتلف المال نفسه، بأن يأتيه آفة تحرقه أو يسرق أو ما أشبه ذلك، والتلف المعنوي: أن تنزع بركته.

والبخيل الشحيح يخشى الفقر فتصعب عليه الصدقة، وليس كل ممسك يدعى عليه، إنما المراد من يمسك عما أوجبه الله عليه من بذل المال فيه. وقال القرطبي عن النفقات: «هي تعم الواجبات والمندوبات، ولكن الممسك عن المندوبات لا يستحق هذا الدعاء إلا أن يغلب عليه البخل المذموم بحيث لا تطيب نفسه بإخراج الحق الذي عليه ولو أخرجه».

قال الشيخ ابن باز: «هذا يبين شرعية الإنفاق وأنه يستحب للمؤمن أن ينفق دائماً ولو قليلاً، لكن يجب عليه أن يبقى لأهله وعائلته ما يكفيهم».

وفي الحديث: جواز الدعاء للكريم بمزيد العوض، وأن يخلفه الله خيراً مما أنفق. والمراد بالدعاء. دعاء الملائكة واستغفارهم للمؤمنين المنفقين بالخير والبركة، وأن دعاءهم مستجاب. وفيه: تحريم البخل والشح لأنه سبب في الهلاك والإهلاك.

وفيه: استجابة الله دعاء العبد لأخيه بظهر الغيب.

٢٩٦ - وعنه عن النبي ﷺ قال: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى وَإِنْدَأُ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنَى، وَمَنْ يَسْتَعِفْ، يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ» [رواه البخاري].

* الإسلام دين العمل والكفاح والسعي في الأرض، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الإسراء: ١٢].
وفي الحديث بين ﷺ أن أفضل طعام يأكله ابن آدم، هو ما جنته وحصلته يده، قال ﷺ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطْ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَأَنْ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَام - كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ» [رواه البخاري].

وقيام الإنسان بالعمل والسعي في الأرض نفع له وللمن يعول ولغيره ممن يستفيد من أعماله وإنتاجه.

وقد رغب الإسلام في الصدقة وحث عليها، ووعد بالأجر الجزيل لمن تصدق وأنفق، ولكن الإسلام بدأ بأهل الحقوق حتى لا تضيع حقوقهم ومالهم من نفقته. قال ﷺ:

«اليد العليا» المُعطي والمنفق والمتصدق.

قال النووي: «المراد علو الفضل والمجد، ونيل الثواب»

«خير من اليد السفلى» هي السائلة.

«خير» لأن اليد العليا هي يد المتصدق، والسفلى يد السائل، والمعطي مفضل على المعطى، والمفضل خير من المفضل عليه. وفي الحديث مشروعية السعي في اكتساب المال حتى ينفق على نفسه وعلى من يعول، وليكون لديه بعد ذلك ما ينفقه في وجوه الخير والبر، فيكون من أهل اليد العليا.

قال ابن حجر: «ومحصل ما في الأحاديث أن أعلى الأيدي: المنفقة ثم المتعففة عن الأخذ، ثم الآخذة بغير سؤال، وأسفل الأيدي السائلة والمانعة».

«وابدأ بمن تعول» لأنه إما واجب أو مندوب، ففيه أداء حق أو صلة رحم. والإنفاق مع الأهل صدقة وصلة وكفاف وعفاف، فكان ذلك أولى، والإنفاق على نفسك أولى من الإنفاق على غيرك.

«وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى» أي، أفضل ما أخرجه المسلم ما وقع عن غنى وعدم الاحتياج إليها بعد أن يستغني منه قدر الكفاية لأهله وعياله، أو يرصده لسداد دينه.

قيل: المراد: خير الصدقة ما أغنيت به من أعطيته عن السؤال.

«ومن يستعفف» يطلب من الله العفة، وهي الكف عن الحرام.

«يعفه الله» أي، يوفقه ويبيعه عن الحرام. وعن الاحتياج لما فوقه.

«ومن يستغني» يقنع بما قسم الله له.

«يعنه الله» أي، من فضله وجوده.

قال ابن حجر: «والمختار أن معنى الحديث: أفضل الصدقة ما وقع بعد القيام بحقوق النفس والعيال، بحيث لا يصير المتصدق محتاجاً بعد صدقته لأحد، فمعنى الغنى في هذا الحديث حصول ما تدفع به الحاجة الضرورية، كالأكل عند الجوع، وستر العورة، والحاجة إلى ما يدفع به الأذى عن نفسه، وما هذا سبيله فلا يجوز الإيثار، بل يحرم، فمراعاة حقه أولى على كل حال، فإذا سقطت هذه الواجبات صح الإيثار، وكانت صدقته هي الأفضل، لأجل ما يتحمل من مضض الفقر، وشدة مشقته فبهذا يندفع التعارض بين الأدلة إن شاء الله».

وفي الحديث: وجوب البداءة بمن تلزمه مؤنته، وأن خير الصدقة ما كان بالفاضل عن كفايته، ومن يموله.

وفيه: الحث على الاستعفاف والاستغناء عن الناس.

وفيه: جواز الدعاء للكریم بمزيد من العوض، وأن يخلف الله عليه خيراً مما أنفق، وجواز الدعاء على البخيل بتلف ماله الذي بخل به، ومنع إنفاقه فيما أوجب الله عليه.

٣٧. باب الإنفاق مما يحب ومن الجيد

* لما ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في الباب السابق وجوب الإنفاق على الزوجه وعلى الأقارب، ذكر في هذا الباب الآيات التي تحت على فضل النفقة وأن تكون من أطيب وأحب أموال المسلم إليه. وأنه ينبغي على العبد أن يسارع إلى النفقة من أحب الأموال إليه، وبخاصة ما كان من كسب يده.

وقد ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في هذا الباب باب الإنفاق مما يحب ومن الجيد. والإنفاق: هو إخراج المال الطيب في الطاعات والمباحات.

قال الله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]. أي، لن تكونوا في الأبرار، ولن تدركوا الجنة حتى تتصدقوا من أفضل أموالكم النفيسة التي تحبها نفوسكم، فإن ذلك يدل على أنكم قدمتم محبة الله ومرضاته على محبة الأموال، وهذا دليل على إيمانكم الصادق، وبر قلوبكم ويقين تقاكم.

والبر يعني الخير الكثير، أي: لن تنالوا الخير الكثير، ولن تنالوا درجة الأبرار حتى تنفقوا مما تحبون من أموالكم.

وقال تعالى: ﴿يَنَالُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

أي: انفقوا من الحلال الطيب من المال الذي كسبتموه، ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمار، فكما من عليكم بتسهيل تحصيله، فأنفقوا منه شكراً لله وأداءً لبعض حقوق إخوانكم عليكم وتطهيراً لأموالكم، واقصدوا في تلك النفقة الطيب الذي تحبونه لأنفسكم.

ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيئه. وهو خبيثه فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً.

وقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

قال ابن القيم: «صدر- سبحانه- الآية باللفظ أنواع الخطاب، وهو الاستفهام المتضمن معنى الطلب، هو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر، والمعنى: هل أحد يبذل هذا القرض الحسن، فيجازى عليه أضعافاً مضاعفة، وجاء هذا القرآن في القرض مقيداً بكونه.

أولاً: أن يكون من طيب ماله، لا من رديئه وخبيثه.

والثاني: أن يخرج طيبة به نفسه، ثابتة عند بذله، ابتغاء مرضاة الله،

والثالث: أن لا يمن به ولا يؤذي.

فالأول: يتعلق بالمال.

والثاني: يتعلق بالمنفق بينه وبين الله.

والثالث: بينه وبين الآخذ.

٢٩٧ - عن أنس - رضي الله عنه - قال: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ - رضي الله عنه - أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرَ حَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبَلَةَ الْمَسْجِدِ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرِبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٌ قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قَالَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - أَنْزَلَ عَلَيْكَ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ مَالِي إِلَيَّ بَيْرَ حَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ - تَعَالَى - أَرْجُو بَرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ - تَعَالَى -، فَضَعَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَخْ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ» فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفَعَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ، وَبَنِي عَمِّهِ. [متفق عليه].

وقوله ﷺ: «مَالٌ رَابِحٌ» رُوي في الصحيحين «رَابِحٌ» و«رَائِحٌ» بالباء الموحدة وبالياء المشناة، أي رَائِحٌ عَلَيْكَ نَفْعُهُ، وَبَيْرَ حَاءَ حِدِيقَةُ نَخْلٍ، وَروى بكسر الباء وفتحها.

* الأنصار - رضي الله عنهم - هم الذين ناصرُوا النبي ﷺ عندما قدم المدينة، وقد أثنى الله - عز وجل - عليهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُودْرِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَنَفْسِهِ فَاُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وكان أبو طلحة - رضي الله عنه - من أكثر الأنصار مالا من نخل، وكان أحب أمواله إليه بستان يقال له (بئر حاء) مستقبلة المسجد. أي، المسجد النبوي. وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها عذب.

فلما نزل قول الله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. والبر: اسم جامع لأنواع الخيرات، ولم يقل - جل وعلا - (حتى تنفقوا أحب الأشياء إليكم) فقلوه ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي، أنت تحب أشياء فأنفق منها. فجاء أبو طلحة للنبي ﷺ فقال: أن أحب مالي إلي هذا البستان (بيرحاء) وأنها صدقة لله - عز وجل - أرجو برها وخيرها وذخرها وثوابها، يوم حاجتي يوم القيامة. والذخر، ما يعد لوقت الحاجة إليه.

فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فوض النبي ﷺ في تعيين مصرفها. فقال رسول الله ﷺ «بخ بخ» كلمة تلتطف وإعجاب، يقال عن الرضا بالشيء وتفخيمه والإعجاب به. فهو ﷺ قد تعجب من فعل أبو طلحة - رضي الله عنه -، ولتفخم الصدقة التي أخرجها.

«ذلك مال رابع، ذلك مال رابع» أي، أن لك الربح من الله، والأجر العظيم على صدقتك.

ثم قال له رسول الله ﷺ: «إني أرى أن تجعلها صدقة في الأقربين لك» لأنها في الأقربين صدقة وصلة.

فقال مستجيباً لأمر النبي ﷺ: أفعل يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه.

قيل: «أن الصدقة سريعة الخلف، وحافضة بعد الموت للخلف». وفي الحديث: دليل على فضل إنفاق أحب الأموال على أقرب الأقارب، وأن النفقة عليهم أفضل من الأجانب.

وفي الحديث: سرعة استجابة الصحابة لأمر الله وأمر رسوله ﷺ. وفيه: جواز دخول أهل الفضل للحوائط والبساتين، والاستغلال بظلمها، والأكل من ثمرها، والراحة، والتنزه، إذا علم رضا المالك.

٣٨ - بيان وجوب أمره وأولاده المميزين وسائر من في رعيته بطاعة الله - تعالى - ونهيهم عن المخالفة، وتأديبهم، ومنعهم من ارتكاب منهي عنه .

* لما ذكر المؤلف في الباب السابق فضل النفقة على الأقربين وهو غذاء الجسم، وذكر هنا ما يجب عليه من غذاء للروح لمن هم تحت يده وولايته، من الزوجة والأولاد ومن في رعيته من العبيد والإماء، وذلك بالقيام على تأديبهم وتربيتهم وزجرهم عن كل فعل ما لا ينبغي .
وأولى وأعظم ما يؤمرون به بعد التوحيد إقامة الصلاة في وقتها، والإتيان بأركانها وواجباتها ومسنوناتها، فإن الصلاة ركن الإسلام العظيم .



قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] .

أمر من الله - عز وجل - أن يأمر المسلم أهله بالصلاة . والأهل كل من في البيت، من زوجة وابن، وبنت، وخدم، ثم أمره بأن يصطبر على ذلك لأن فيه طول المدة والمشقة وهو مأجور على ذلك العمل .

وفي قوله: ﴿وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أمر زائد على الصبر، لما فيها من الديمومة والاستمرار وعدم اليأس .

قال السيوطي: «فيه أنه يجب على الإنسان أمر أهله من زوجة وعبد وأمة وسائر عياله بالتقوى والطاعة خصوصاً الصلاة» .

وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إذا استيقظ من الليل أقام أهله للصلاة وتلا هذه الآية: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ .

فإن الصلاة ركن الدين، وقرة عيون المؤمنين، وفريضة الله على المسلمين .
قال - تعالى - عن أهل النار ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾  قَالُوا لَمْ نَكُ مِنْ الْمُصَلِّينَ  [المدثر: ٤٢-٤٣] ولعظم أمر الصلاة ومكانتها، كانت هم النبي

ﷺ حتى وهو في الرمق الأخير من حياته يسأل: «هل صلى الناس؟ مروا أبا بكر فليصل بالناس» [رواه البخاري ومسلم].

وفي الحديث الآخر: «بين الرجل والكفر أو الشرك ترك الصلاة» [رواه مسلم].
 وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].
 أي: يا من صدقتم بالله ورسوله وأسلمتم وجوهكم لله، احفظوا أنفسكم بفعل ما أمركم به، وترك ما نهاكم عنه، وحافظوا على أزواجكم وأولادكم بأمرهم بطاعة الله، ونهيهم عن معاصيه، أدبواهم وعلموهم، وعلى المسلم أن يعلم أولاده الدين والخير، وما لا يستغني عنه من الأدب.

﴿قُوا﴾ من الوقاية، أي: باعدوا وامنعوا.

والمعنى: قوا أنفسكم بترك المعاصي وفعل الطاعات.

﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ بالنصح والتأديب.

ثم وصف - سبحانه - النار بصفات مخوفة ليزجر عباده عن التهاون بأمره، فقال: ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾.

أي، ناراً عظيمة تتوقد بالناس وبالحجارة كما يتوقد غيرها بالحطب.
 وجاءت كلمة ﴿نَارًا﴾ منكراً، للدلالة على عظمها وفضاعتها، وكونها ناراً كاف للخوف منها.

قال ابن القيم: «فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدى، فقد أساء إليه غاية الإساءة وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل الآباء، وإهمالهم لهم، وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه فأضاعوهم صغاراً ولم ينتفعوا بهم كباراً».

٢٩٨ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: أخذ الحسن بن علي - رضي الله عنهما - تمرًا من تمر الصدقة فجعلها في فيه، فقال رسول الله ﷺ: «كخ كخ، إرم بها، أما علمت أنا لا نأكل الصدقة؟» [متفق عليه].
وفي رواية: «إنا لا تحل لنا الصدقة» وقوله: «كخ كخ» يقال بأسكان الخاء، ويُقال بكسرهما مع التنوين وهي كلمة زجر للصبي عن المستقذرات، وكان الحسن - رضي الله عنه - صبيًا.

* أورد المؤلف - رحمه الله تعالى - هذا الحديث في بيان وجوب أمره وأولاده المميزين، وهذا الحديث يذكر واقعة حدث للنبي ﷺ مع سبطة الحسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهما -
والأطفال يتعلمون بأحد طريقين: إما التلقين، وإما القدوة، ولقد جمعت تربية النبي ﷺ لسبطة الأمرين، تلقينه وأنه قدوة له في هذا الأمر.
وفي الحديث دلالة على وجوب رعاية الإنسان لأهله وبنيه ومن تحت يده، ودلالته على الخير وتنبههم ومنعهم من الحرام.
وقد فعل النبي ﷺ ذلك مع ابن ابنته فاطمة؛ الحسن بن علي - رضي الله عنهم - حين أخذ وتناول تمرًا من تمر الصدقة:
فنهاه النبي ﷺ، وقال:

«تمر الصدقة» ما جمع من زكاة التمر.

«كخ كخ» وهي كلمة نهي يزجر بها الصبيان عن المستقذرات.

فقال له «كخ» أي، اتركه، وارم به، «وكخ» الثانية تأكيد للأولى.

«أما علمت» استفهام إنكاري بمعنى النفي.

ثم بين له سبب إنكاره عليه وزجره عنه بقوله ﷺ:

«أنا لا نأكل الصدقة» هذه اللفظة تقال في الشيء الواضح التحريم ونحوه،

إن لم يكن المخاطب عالمًا به.

وفيه: تربية الصغير على حسن الفهم لهذا الدين واتباع أوامره، واجتناب نواهيه.

قال القرطبي: «حتى يتدربوا على آداب الشريعة، ويتأدبوا بها، ويعتادوها، وعلى هذا: فلا يلبس الذكور الصغار الحرير، ولا يحلون بالذهب، ويخاطب الأولياء بأن يجنبوهم ذلك، كما يخاطبون بأن يجنبوهم شرب الخمر، وأكل ما لا يحل»

وفيه: تحريم الصدقة والزكاة على النبي ﷺ وآله، وهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب، ولهم في خمس الخمس من الغنائم كفاية عن ذلك، لأن الصدقة والزكاة من أوساخ الناس وآل محمد ﷺ من أشرف الناس، ولا يتناسب لأشراف الناس أن يأخذوا أوساخ الناس.

وفي رواية: «**إنا لا تحل لنا الصدقة**» ظاهره تحريم صدقة الفرض والنفل. وفي الحديث: دليل على منع الصبي عما يحرم على المكلف. وفي الحديث أيضاً: أن الصبيان يوقون ما يوقاه الكبار وتمنع من تعاطيه وهذا واجب على الولي.

وفيه: أن الطفل يجنب الحرام ليتسنى عليه وليتمرن، ومخاطبة من لا يميز بقصد إسماع من يميز.

٢٩٩ - وعن أبي حفص عمر بن أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد: ربيب رسول الله ﷺ قال: كُنْتُ غُلامًا فِي حَجَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا غُلامُ سَمِّ اللَّهَ - تَعَالَى - وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ» فَمَا زِلْتُ تِلْكَ طَعْمَتِي بَعْدُ. [متفق عليه].
وَتَطِيشُ: تَدُورُ فِي نَوَاحِي الصَّحْفَةِ.

* الإسلام دين كامل شامل أتى بالعقائد والمعاملات والأخلاق والآداب والسلوك، وهذا الحديث من آداب الأكل والشرب يتبعه أكثر من خمسين حديثاً كلها صحيحة في جانب الطعام من حياة المسلم، وفيه تعليم الصغير ما يجب عليه.

وقد كان النبي ﷺ يعتني بالصغار وتربيتهم وتوجيههم، كما جاء في هذا الحديث الذي رواه عمر بن أبي سلمة - رضي الله عنه - وكان ربيب النبي ﷺ لأنه ابن زوجته أم سلمة - رضي الله عنها - حيث ذكر أنه كان في حجر النبي ﷺ. أي، في كنفه ورعايته.

وكان مع النبي ﷺ في طعام فجعلت يده تطيش في الصحيفة التي فيها الطعام. أي، تذهب يميناً وشمالاً. أسند الطيش إلى يده مبالغة في أنه لم يراع أدب الأكل.

فقال له النبي ﷺ وأوصاه بثلاث وصايا، فقال ﷺ:

«يَا غلام، سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ» فهذه ثلاثة آداب علمها النبي ﷺ له. وبدأها بقوله منبهاً إياه:

«يَا غلام» والغلام، هو الذكر صغيراً دون البلوغ، وفيه حسن مناداة من النبي ﷺ بهذا النداء، فلم يزره ولم ينهره، ولكن علمه برفق وناداه بلين.

وأول الوصايا قوله ﷺ: «سَمِّ اللَّهَ».

قال ابن عثيمين: «وهذا عند الأكل، فعند الأكل يجب أن يسمي الله ويقول: بسم الله، ولا يحل له أن يتركها، لأنه إذا تركها شاركه الشيطان في أكله. وإن زاد بسم الله الرحمن الرحيم فلا حرج».

الثاني قوله ﷺ: «**وكل يمينك**» وهذا أمر على سبيل الوجوب، وقد نهى النبي ﷺ أن يأكل الإنسان أو يشرب بشماله، لقوله ﷺ: «**إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله**» [رواه مسلم].

الأمر الثالث: «**وكل مما يليك**» أي، لا تأكل من حافة غيرك لأن فيه من إلحاق الضرر بالغير، ومزيد الشره، بل كل من الذي يليك. وفيه البعد عما يورث الاشتمزاز في الطعام والشراب وما شابههما. وكره العلماء مخالفة هذا الأدب إلا إذا كان الطعام فاكهة أو طعاماً ليس من جهته.

فما كان من عمر بن أبي سلمة - رضي الله عنه - بعد هذه الوصايا إلا أن استجاب لأمر النبي ﷺ والتزم بهذه الآداب، حيث قال: «**فما زالت تلك طعمتي بعد**» أي، صفة أكلي بعد ذلك القول.

وفيه: الإشارة إلى جميع ما ذكر من الابتداء بالتسمية والأكل باليمين، والأكل مما يليه، وقد اشتمل الحديث على ثلاثة من الآداب على المائدة. وفي الحديث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى في حال الأكل. واستحبات تعليم الصغار أدب الأكل والشرب.

وفيه: تواضع النبي ﷺ وطيب نفسه وهو نبي الأمة بأكله مع ربيه الصغير في إناء واحد، مع ما يبدر من الصغير غالباً لما يثير التقزز والاشتمزاز.

٣٠٠- وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، والأمام راع، ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيته، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته، فكلكم راع ومسئول عن رعيته» [متفق عليه].

* من كمال الدين أن شمل جميع مجالات الحياة التي يحتاجها المسلم، ومن ذلك أنه أوجب على كل إنسان القيام بالمسؤولية التي أنيطت به بحسب موقعه ومكانه، وقد اشتمل هذا الحديث على جانب كبير من ذلك، فقد حدد المسؤوليات لكل مكلف فيما هو تحت رعايته، وحملة إثم التقصير في رعاية ما استرعاه الله عليه.

فإن المسؤولية في الإسلام دينية، يحاسب المسلم على التقصير فيها يوم القيامة، كما أنها دنيوية.

وفي الحديث الذي هو خطاب للأمة جميعاً، قوله ﷺ: «كلكم راع» والراعي هو الذي يقوم على الشيء، ويرعى مصالحه فيهيئها له، ويرعى مفاسده فيجنبه إياها.

«وكلكم مسئول عن رعيته» فكل مسئول عن ما تحت يده، ويشمل الكل في الرعاية والمسؤولية.

قال ابن حجر: «والراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما أؤتمن على حفظه، فهو مطالب بالعدل فيه والقيام بمصالحه..».

ثم فصل بعد الإجمال فذكر أربعاً منها، قال ﷺ: «والإمام راع ومسئول عن رعيته» وهو الإمام العادل ومسئول عن شؤون رعيته.

«والرجل» أي، الرجل والأب.

«**راع في أهله**» أي، زوجته وأولاده.
 «**ومسؤول عن رعيته**» أي، سياسته لأمرهم وتوفية حقهم في النفقة والكسوة والعشرة.

«**والمرأة**» الزوجة أو الأم.
 «**راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيته**» وذلك بحسن التدبير في بيت زوجها والنصح له والأمانة في ماله وفي نفسها.
 «**والخادم**» من عبد وأجير.
 «**راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته**» فيحفظه عن أسباب التلف ولا يخون فيه.

«**فكلم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»
 قال الطيبي: «في هذا الحديث أن الراعي ليس مطلوباً لذاته، وإنما أقيم لحفظ ما استرعاه المالك، فينبغي أن لا يتصرف إلا بما أذن الشارع فيه، وهو تمثيل ليس في الباب ألطف ولا أجمع ولا أبلغ منه، فإنه أجمل أولاً، ثم فصل، وأتى بحرف التنبيه مكرراً».

وقال الخطابي: «اشتركوا، أي الإمام والرجل ومن ذكر في التسمية أي بالوصف: بالراعي ومعانيهم مختلفة، فرعاية الإمام الأعظم حياطة الشريعة بإقامة الحدود والعدل في الحكم، ورعاية الرجل أهله سياسته لأمرهم وإيصالهم حقوقهم، ورعاية المرأة تدبير أمر البيت والأولاد والخدم والنصيحة للزوج في كل ذلك، ورعاية الخدم حفظ ما تحت يده والقيام بما يجب عليه من خدمته»
 وفي الحديث العظيم قوله ﷺ: «**ما من رجل يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لها إلا حرم الله عليه الجنة**» [رواه مسلم].

وبالجملة فإن الرعاية تستلزم الأمانة، والاجتهاد في حفظ الرعية، والنظر في المصالح، والإبعاد عن أسباب الضرر والهلاك.

٣٠١- وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ» [حديث حسن رواه أبو داود بإسناد حسن].

٣٠٢- وعن أبي ثرية سبرة بن معبد الجهنّي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلِّمُوا الصَّبِيَّ الصَّلَاةَ لِسَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا ابْنَ عَشْرِ سِنِينَ» [حديث حسن رواه أبو داود، والترمذي وقال حديث حسن].

ولفظ أبي داود: «مُرُوا الصَّبِيَّ بِالصَّلَاةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ».

* أعظم أعمال الإسلام التي يجب تعليمها الأولاد التوحيد وترسيخه في نفوسهم، ثم تأتي منزلة الصلاة المفروضة، وهذان الحديثان من حقوق الأولاد على آبائهم أن يأمرهم بالصلاة إذا بلغوا سبع سنوات، وأن يضربوهم عليها لتفريط فيها إذا بلغوا عشر سنوات.

وبعد أن ذكر النبي ﷺ في الحديث السابق أن كل إنسان راع ومسؤول عن رعيته، جاء هذا الحديث ليوضح بعض رعاية الأب لأبنائه، وهي العناية والأمر والحرص على الصلاة. فقال ﷺ:

«مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ» هذا من حقوق الأولاد على آبائهم أن يأمرهم بالصلاة إذا بلغوا سبع سنين، والمراد كمال السبع لا البدء فيها. ويعلموهم أحكامها وأركانها وواجباتها ومسئولياتها.

وقوله ﷺ «مُرُوا» ليس أمراً منه ﷺ للصبي، وإنما هو أمر للولي. فأوجب على الولي أن يأمر الصبي.

«أَوْلَادَكُمْ» جمع ولد يطلق على الذكر والأنثى. وسن السابعة هو سن التمييز.

قال الخطيب البغدادي: «والأمر بالصلاة والضرب عليها إنما هو على وجه الرياضة لا على وجه الوجوب».

«واضربوهم عليها وهم أبناء عشر» أي، اضربوهم على التفريط فيها وإضاعتها إذا بلغوا عشر سنين. والمراد بالضرب الذي يحصل به التأديب بلا ضرر، فإن المراد من ذلك تنبيههم وتقويمهم لا إيلاهم. ويحصل به التأديب فلا يجوز أن يضربهم ضرباً مبرحاً ولا مكرراً لا حاجة إليه.

قال العيني: «يؤمر الصبي ابن سبع سنين بالصلاة تخلقاً وتأديباً، يعني أنها غير واجبة عليه لا يَأْتُم بتركها، لقوله ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم» [رواه أحمد].

قال الشافعي: «على الآباء والأمهات أن يؤدبوا أولادهم ويعلموهم الطهارة والصلاة، ويضربوهم على ذلك إذا عقلوا، فمن احتلم أو حاضت أو استكمل خمس عشرة سنة لزمه الفرض».

وقال البغوي: «وفي الحديث دليل على أن صلاة الصبي إذا عقل صحيحة». وما بين السابعة والعاشرة أكثر من خمسة آلاف صلاة يُنادى الولد لها، ويفرح بها، ومن أدى هذه الصلوات فإنه إذا بلغ العاشرة غالباً لا يحتاج إلى الضرب لأنها أصبحت من واجباته اليومية وقد تعود وتمرن عليها، وعلى الوالد والوالدة أن يكونوا قدوة حسنة لأبنائهم في الحرص على فعل الطاعات وأداء العبادات.

«وفرّقوا بينهم في المضاجع» جمع مضجع، وهو مكان الضجوع، وهو الاستلقاء للنوم، ويجب التفريق بينهم في المضاجع حينئذ لأنها تنتشر فيها الشهوة.

قال الطيبي: «لئلا يقعوا فيما لا ينبغي لأن بلوغ العشر مظنة الشهوة، وإن كن أخوات، وإما الجمع بين الأمر بالصلاة والفرق بينهم في المضاجع في الطفولية، تأديباً ومحافظة لأمر الله كله، لأن الصلاة أصلها وأسبقها، وتعليماً لهم المعاشرة بين الخلق، وأن لا يقفوا مواقف التهم، فيجتنبوا محارم الله كلها»

وجاء في الحديث الآخر:

«واضربوه عليها ابن عشر سنين» وهذا يدل على إغلاظ العقوبة إذا تركها مدركا.

ولا شك أن هذا الأمر يستدعي الأمر بطهارة البدن والثوب عن الخبث، وتعلم الوضوء ونواقضه، وأيضا هذا الأمر إنما شرع ليعتادوها، ويستأنسوا بها، فلا ينبغي أن يعود الإتيان بها فاسدة.

وجاء في تأديب الصغير: «يؤدب الصبي بالأمر بأداء الفرائض والنهي عن المنكرات، بالقول، ثم الوعيد، ثم التعنيف، ثم الضرب إن لم تجد الطرق المذكورة قبله، ولا يضرب الصبي لترك الصلاة إلا إذا بلغ عشر سنين».

وفي الحديث: الحث على تعليم الصغير الصلاة، وأمره بها لسبع سنين. وفيه: تأديب الأبناء على الطاعة والعبادة، وتعويدهم عليها.

الفهرس

رقم الصفحة

٥	مقدمة الشارح.
٦	ترجمة الإمام النووي.
٨	مقدمة الإمام النووي.
١١	١ - باب الإخلاص وإحضار النية في جميع الأعمال والأقوال والأحوال البارزة والخفية.
٤١	٢ - باب التوبة.
٧٢	٣ - باب الصبر.
١٣٨	٤ - باب الصدق.
١٥٢	٥ - بال المراقبة.
١٧٤	٦ - باب في التقوى.
١٨٦	٧ - باب في اليقين والتوكل.
٢١٣	٨ - باب في الاستقامة.
٢٢٠	٩ - باب في التفكير في عظيم مخلوقات الله - تعالى - وفناء الدنيا وأهوال الآخرة وسائر أمرهما وتقصير النفس وتهذيبها وحملها على الاستقامة.
٢٢٣	١٠ - باب في المبادرة إلى الخيرات وحث من توجه لخير على الإقبال بالجد من غير تردد.
٢٢٤	١١ - باب في المجاهدة.
٢٨٢	١٢ - باب الحث على الازدياد من الخير في أواخر العمر.
٢٩١	١٣ - باب في بيان كثرة طرق الخير.

- ١٤ - باب في الاقتصاد في العبادة. ٣٥٠
- ١٥ - باب في المحافظة على الأعمال. ٣٧٥
- ١٦ - باب في الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها. ٣٨٣
- ١٧ - باب في وجوب الانقياد لحكم الله وما يقوله من دعي إلى ذلك وأمر بمعروف أو نهى عن منكر. ٤١٠
- ١٨ - باب في النهي عن البدع ومحدثات الأمور. ٤١٤
- ١٩ - باب فيمن سن سنة حسنة أو سيئة. ٤٢١
- ٢٠ - باب في الدلالة على خير والدعاء إلى هدى أو ضلالة. ٤٢٨
- ٢١ - باب التعاون على البر والتقوى. ٤٣٨
- ٢٢ - باب في النصيحة. ٤٤٩
- ٢٣ - باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ٤٥٨
- ٢٤ - باب تغليظ عقوبة من أمر بمعروف أو نهى عن منكر وخالف قوله فعله. ٤٨٨
- ٢٥ - باب الأمر بأداء الأمانة. ٤٩٢
- ٢٦ - باب تحريم الظلم والأمر برد المظالم. ٥٠٤
- ٢٧ - باب تعظيم حرمان المسلمين وبيان حقوقهم والشفقة عليهم ورحتهم. ٥٥١
- ٢٨ - باب ستر عورات المسلمين والنهي عن إشاعتها لغير ضرورة. ٥٩٢
- ٢٩ - باب في قضاء حوائج المسلمين. ٦٠٢
- ٣٠ - باب الشفاعة. ٦٠٨
- ٣١ - باب الإصلاح بين الناس. ٦١٢
- ٣٢ - باب فضل ضعفة المسلمين والفقراء والخاملين. ٦٢٤

- ٣٣ - باب ملاطفة اليتيم والبنات وسائر الضعفة والمساكين
والمنكسرين والإحسان إليهم والشفقة عليهم والتواضع معهم
٦٤٢ وخفض الجناح لهم.
- ٣٤ - باب الوصية بالنساء. ٦٧٠
- ٣٥ - باب حق الزوج على المرأة. ٦٨٩
- ٣٦ - باب النفقة على العيال. ٧٠٧
- ٣٧ - باب الإنفاق مما يحب ومن الجيد. ٧٢٥
- ٣٨ - بيان وجوب أمره وأولاده المميزين وسائر من في رعيته
بطاعة الله - تعالى - ونهيهم عن المخالفة، وتأديبهم، ومنعهم من
ارتكاب منهي عنه. ٧٢٩
- الفهرس. ٧٤٠